

كينيزي مراد

موت أميرة

سيرة أميرة عثمانية

ترجمة

محمد التهامي العماري

منشورات الجمل

إهداء لـ..

ضحى

ما نسي القيم كتابكم ما سلا

عذرا على التأخير

موت أميرة



كينيزي مراد: موت أميرة، سيرة أميرة عثمانية، ترجمة: محمد التهامي العماري

الطبعة الأولى ٢٠١٨

تلفون وفاكس: ٣٥٢٣٠٤ ـ ٠١ ـ ٠٠٩٦١

ص.ب: ٥٤٣٨ ـ ١١٣ بيروت ـ لبنان

Kenizé Mourad: de la part de la princesse morte

Postfach 1127 - 71687 Freiberg a. N. Germany

www.al-kamel.de

E-Mail: alkamel.verlag@gmail.com

كينيزي مراد

موت أميرة

سيرة أميرة عثمانية

ترجمة

محمد التهامي العماري

منشورات الجمل



إلى أطفال بادالبور

وأنا أخوض مغامرة تأليف هذا الكتاب تلقّيت مساعدة كثير من الأصدقاء من تركيا ولبنان والهند وفرنسا. لم تسمح لي ذكرياتهم ونصائحهم بإعادة بناء تاريخ ثلاثين سنة فحسب، وهو تاريخ مختلف عن التاريخ الرسمي، بل مكّنتني أيضاً من إعادة بثّ الحياة في الوقائع والسلوكات اليومية البسيطة.

لربّما أزعجهم أن أذكر كلّ واحد منهم باسمه، لكنّني أودّ أن يعلموا امتناني وعرفاني بفضلهم.

وتجب الإشارة إلى أنني عمدت، لأسباب لا تُخفى، إلى تغيير أسماء بعض الأشخاص، منهم من ما زال على قيد الحياة ومنهم من رحل إلى دار البقاء.

تبدأ هذه القصة في يناير/ كانون الثاني من سنة ١٩١٨ بعاصمة الإمبراطورية العثمانية الأستانة التي ظلّت ترتعد لها فرائص العالم المسيحي طيلة قرون.

على أنّ الدول الغربية تغلّبت على هذه الإمبراطورية العجوز التي صارت تُلقّب بـ«رجل أوروبا المريض»، وراحت تتنازع على اقتسامها.

توالى على العرش خلال اثنتين وأربعين سنة ثلاثة إخوة: السلطان مراد الذي خلعه أخوه عبد الحميد واحتجزه، واعتلى العرش إلى أن أطاحته «تركيا الفتاة»، ونصّبت مكانه أخاه السلطان رشاد.

واليوم لم يعد السلطان رشاد غير ملك ذي سلطات محدودة، بينما السلطة الحقيقية في يد الثالوث الذي زجّ بالبلد في الحرب إلى جانب ألمانيا.

الجزء الأول

تركيا

١

في بهو قصر أورتاكوي ذي الأرضية الرخامية البيضاء، المُضاء بشمعدانات من الكريستال، مضت طفلة صغيرة تجري وتصيح كما لو أنّها تحرص على أن تكون أوّل من يزفّ الخبر إلى أمّها:

ـ مات العمّ حميد! مات العمّ حميد!

كادت من فرط سرعتها أن تصدم امرأتين مسنّتين تشدّ كلّ منهما رأسها بعصابة مزيّنة بالريش ومنبّتة بالأحجار الكريمة، ممّا يشير إلى ثرائهما ورفعة مقامهما.

قالت إحداهما ساخطة:

ـ يا لها من وقاحة!

فردّت الأخرى بغيظ:

ـ ماذا تنتظرين منها! إنّها طفلة السلطانة الوحيدة، لذلك تبالغ في تدليلها[١]. لا ينكر أحد جمالها، لكنني أخشى من أن تواجه مشاكل مع زوجها عندما تكبر وتتزوّج... عليها أن تتعلّم شيئاً من الحياء. فالبنت حين تبلغ السابعة لا تعود طفلة، لا سيما إذا كانت أميرة.

لكن الصبيّة لم تأبه بكلامهما، وواصلت عدوَها حتى باب الحرملك

(١) يطلق لقب السلطانة على الأميرات بنات السلطان، بينما تلقّب كلّ زوجة من زوجاته «قادين».

الذي يقوم على حراسته خصيّان سودانيان اعتمر كلّ منهما طربوشاً قرمزياً، وجلسا يتحدّثان على هواهما نظراً لقلّة الزيارات هذا اليوم. على أنهما ما كادا يبصران السلطانة الصغيرة قادمةً حتّى سارعا إلى الوقوف، وفتحا مصراع الباب البرونزي باحترام شديد خشية أن تبلّغ عن تهاونهما. بيد أنّ بال الصبية كان يشغله شيء آخر، إذ اقتحمت الباب من دون أن تُلقي إليهما بالاً، ووقفت برهة أمام المرآة الإيطالية لكي تتحقّق من حسن ترتيب شعرها الأحمر، وفستانها الحريري الأزرق، ثمّ دفعت ستارة البروكار ودخلت إلى الصالون الذي اعتادت أمّها الجلوس فيه عند خروجها من الحمّام بعد ظهر كلّ يوم.

يسود الغرفة، بخلاف الممرّات الرطبة، دفء ناعم ينبعث من مجمرة فضّية يسهر على تأجيج نارها عبدان بينما استلقت السلطانة على الأريكة وهي تنظر إلى خادمة القهوة تسكب، على نحو مهيب، السائل في فنجان موضوع في كؤيس مرصّع بالزمرّد.

تسمّرت الطفلة في مكانها، وراحت تتأمّل أمّها في قفطانها الطويل. ذلك أنّ السلطانة تحرص على أن تلبس حين تكون في المجامع وفق الموضة الأوروبية التي تسرّبت إلى الأستانة منذ نهاية القرن التاسع عشر، بينما تلبس حين تكون في بيتها على «الطراز التركي»، مستغنيةً عن مشدّات الخصر والأكمام الفضفاضة والتنانير الضيقة لترتدي بمتعة ظاهرة الفساتين التقليدية الواسعة، وتستلقي بانشراح فوق الأرائك الناعمة التي تؤثّث غرفَ القصر الكبيرة.

ـ تعالي يا سلمى سلطان.

ليست الألفة أمراً شائعاً في البلاط العثماني، إذ ينادي الآباء أبناءهم بالألقاب حتّى ينشأوا عليها منذ نعومة أظافرهم، ويدركوا مقاماتها وفروضها. وبينما تنحني الخادمات لتحيتها ويرفَعن اليد اليمنى من الأرض نحو القلب، ثمّ نحو الشفتين والجبين، إشارة إلى صدق الشعور والفكر واللسان، تقبّل سلمى بسرعة أصابع الأميرة المعطّرة، وتضعها

على جبينها تعبيراً عن الاحترام، ثمّ تصيح وقد نفذ صبرها، ولم تعد قادرة على تمالك نفسها:

ـ مات العم حميد يا أنيدجيم[1]!

والتمع بريق في العينين الرماديتين الخضراوين، بحيث خُيِّل للصبية أنّها تلمس فيهما زهو النصر، لكن صوت الأم الفاتر سرعان ما ذكّرها بقواعد الانضباط.

ـ لعلّك تقصدين صاحب الجلالة السلطان عبد الحميد. أدخله الله فسيح جنانه. كان سلطاناً عظيماً. من أعلمك بهذا الخبر الحزين؟

الحزين...؟ نظرت الصبية إلى أمّها مشدوهة... أوَموت هذا العمّ القاسي الذي خلع أخاه، جدّ سلمى، بدعوى إصابته بالجنون يعدّ خبراً حزيناً؟

كثيراً ما كانت مُرضعتها تحكي لها قصّة محمد الخامس، الأمير المحبوب الطيّب الذي ابتهج الشعب أيّما ابتهاج بمقدمه لأنه كان ينتظر منه إصلاحات كبرى. لكنّ مراد الخامس لم يحكم للأسف غير ثلاثة أشهر... ذلك أنّ دسائس القصر والاغتيالات التي صاحبت وصوله إلى السلطة هزّت أعصابه المرهفة، وأصابته باكتئاب شديد. وعلى الرغم من إشارة الطبيب النمساوي ليديرسدورف، أكبر متخصّصي عصره، على جلالته بالراحة لبضعة أسابيع حتّى يستعيد عافيته، لم تأبه حاشية السلطان برأيه، إذ خلعته وحبسته برفقة أفراد أسرته في قصر تجراغان.

هكذا قضى السلطان مراد ثماني وعشرين سنة في الأسر، محاطاً بجواسيس أخيه الذي كان يخشى مؤامرة تعيده إلى العرش. فقد دخل السجن وهو في السادسة والثلاثين من العمر، ولم يغادره إلا بعد موته.

كانت سلمى تشعر، كلّما تذكّرت جدها المسكين، كما لو أنّها

---

(١) أمّي الحبيبة المحترمة.

تتقمص روح شارلوت كورداي، تلك البطلة التي حدثتها عنها مربّيتها الفرنسية الآنسة روز. وها هو السفاح يودّع الحياة اليوم بهدوء في فراشه.

من المستحيل أن تكون أنيدجيم قد شعرت بالحزن، هي من ظلّت محبوسة في تجراغان خمساً وعشرين سنة، ولم تستعد حريّتها إلا بقبول الزواج من ذلك الرجل البغيض الذي فرضه عليها السلطان حميد.

لماذا تكذب إذن؟

أخرجت هذه الفكرة المسيئة سلمى من استغراقها. كيف خطر ببالها، ولو للحظة، أنّ هذه الأمّ المثالية يمكن أن تكذب؟ الكذب يناسب العبيد الذي يخشون العقاب، ولا يليق بسلطانة؟! وأجابت أخيراً بنبرة مرتبكة:

ـ سمعت الأغوات[1] يقولون ذلك بينما كنت أعبر الحديقة...

وفي تلك الأثناء ظهر عند عتبة الباب خصيّ أميل إلى البدانة، يضع قفازين بيضاوين، ويلبس الرداء التقليدي الأسود، ذا الطوق الشبيه بطوق الضباط. انحنى ثلاث مرّات متتالية حتّى أوشك أن يلامس الأرض، ثمّ انتصب وقد شبك يديه على بطنه خضوعاً، وأعلن بصوت حادّ كصوت النساء:

ـ أيّتها السلطانة المعظّمة...

فقاطعته قائلة:

ـ أعلم... سبقتك الأميرة سلمى سلطان. سارع إلى إخبار أخواتي: الأميرة فهمية والأميرة فاطمة وكذلك أبناء أخي نهاد وفؤاد. قل لهم إنّني أنتظرهم هنا هذا المساء.

منذ وفاة أخيها الأمير صلاح الدين، صارت، وهي في الثامنة

---

(١) جمع آغا، وهو الخصي الذي تقدّم به السن، وصار يحظى بالاحترام. فقد كان في بيوت الأمراء، بل وحتى الأغنياء، إلى أن سقطت الإمبراطورية سنة ١٩٢٤، خصيان يؤمّنون الخدمة بين الأجنحة المخصّصة للنساء والعالم الخارجي.

والأربعين من العمر، كبرى أبناء مراد الخامس. وقد اكتسبت بفضل ذكائها وشخصيتها احترام أفراد الأسرة، وأصبحت سيّدتها بلا منازع.

ولدت تلك الشخصية الصلبة في ذلك اليوم العصيب الذي مرّت عليه الآن اثنتان وأربعون سنة، لمّا أدركت أنّ أبواب قصر تجراغان الثقيلة أُغلقت عليها إلى الأبد. وهي شخصية تشكّلت ببطء وعناد. هي من كانوا يلقبونها «*يلدريم*» أو «البرق» نظراً لولعها بالجري في حديقة قصر كورباليدير، أو التنزّه على زورق في البوسفور، والريح تداعب وجهها، هي من كانت تحلم بالفضاء الشاسع والبطولة، ألفت نفسها وهي ما تزال في السادسة من عمرها أسيرة.

على الرغم من صراخها وبكائها وتقرّح يديها من فرط قرع الأبواب البرونزية، لم تنفتح تلك الأبواب، ما تسبّب في إصابتها بمرض شديد حتّى خشي أهلها على حياتها. دُعي الطبيب على عجل، لكنّه ظلّ ينتظر ثلاثة أيّام ليأذن له عبد الحميد بدخول قصر تجراغان.

عالج الطفلة بالعلق، وأشار عليها بشرب منقوع أعشاب مُرّة. أتكون هذه الأدوية هي التي أنقذت حياتها أم تراها أسماء الله الحسنى التسعة والتسعون التي ظلّت تردّدها قلفاوتان[1] مسنّتان ليل نهار وهما تمرّران بين أصابعهما حبّات سبحة العنبر؟ وما كاد ينصرم أسبوع حتّى استعادت الأسيرة الصغيرة وعيها. لما فتحت عينيها أبصرت وجه أبيها اللطيف والجميل منحنياً عليها. ما سبب هذا الحزن البادي في عينيه؟ فتذكّرت... لم يكن ذلك كابوساً تمثل لها في المنام! تكوّمت في فراشها وعادت إلى النحيب.

عندئذٍ تجهّم وجه السلطان مراد، وقال:

ـ أتحسبين يا سلطانة خديجة أنّ أسرتنا كانت ستحكم إمبراطورية

---

(١) القلفة هي الأمة الخادمة في القصر.

مترامية لستّة قرون لو كنّا نضعف أمام أدنى الصعوبات؟ أنت معتزّة بنفسك، فليجعلك هذا تصونين كرامتك!

ثمّ أضاف وقد لاحت على وجهه ابتسامة كما لو أنّه يروم تخفيف حدّة اللوم:

ـ إن لم تضحك صغيرتي، فمن سيدخل البهجة على هذا القصر؟ لا تخافي يا عزيزتي، سنغادره، وعندئذٍ سنقوم برحلة كبيرة.

فهتفت بنبرة متحمّسة وهي تعرف أنه لم يسبق لأميرة من الأسرة الحاكمة أن تخطّت حدود تركيا بل حتى ضواحي الأستانة:

ـ صحيح يا بابا؟ سنسافر إلى باريس؟

ومضى السلطان يضحك:

ـ أوَصرت امرأة قبل الأوان؟ أعدك يا زهرتي بأن آخذك إلى باريس فور خروجنا من هذا المكان...

أكان يؤمن بذلك حقّاً؟ كان بحاجة إلى الأمل لكي يستمرّ في الحياة... الحياة؟

شردت السلطانة ببصرها وراحت تتذكّر... لقد كان السلطان مراد خلال هذه الثماني والعشرين سنة من الأسر يموت كلّ يوم.

كان الظلام قد بدأ يخيّم حين دخلت عربتان على نحو صاخب إلى باحة القصر الداخلية التي يطلّ عليها جناح النساء. ترجّلت من إحداهما امرأة رشيقة مثقلة بالحلي الذهبية، ترتدي شرشفاً حريرياً فضفاضاً، بنفسجيّ اللون، يخفي تضاريس جسدها. وترجّلت من العربة الثانية امرأة أخرى بدينة، تلبس شرشفاً تقليدياً أسود. لحقت إحدى المرأتين بالأخرى، ثمّ وقفتا لحظة قبل أن تسارعا إلى دخول القصر يسبقهما خصيّ بلباس رسمي ويتبعهما آخر.

والقصر، شأن معظم إقامات الأمراء والأميرات، عبارةٌ عن بناء قديم مشيّد من الخشب المنقوش على سبيل الاحتراس من الزلازل التي

تتعرّض لها المدينة. وهو يشرف، بلونه الأبيض وسط حديقة حافلة بالنافورات والأزهار وأشجار السرو، على البوسفور الذي يضيئه الغسق في هذه الساعة. أمّا شرفاته وسلاليمه ومصاطبه فتجعله يبدو كمنزل من الدانتيلا.

كانت بانتظار الزائرتين عند أسفل السلّم المفضي إلى أبهاء الطابق الأوّل أمينة سرّ السلطانة. وهي ترتدي فستاناً من الساتان زُيّن أعلاه بالأزرار، وتضع على رأسها قلنسوة موسلين تقليدية، إذ لا يليق بامرأة شريفة أن تبقى عارية الرأس حتّى لو كانت في بيتها. كما أنّها كانت تحمل في يدها عكازة طويلة ذات مقبض ذهبي، تشير إلى مقامها.

وما كادت تنحني أمام السلطانتين حتّى بادرتا إلى رفعها وهما تقبّلانها. ذلك بأنّ هؤلاء القلفاوات القديمات يُعتبرن بمثابة أفرادٍ من العائلة تقريباً. على أنّ ما من شيء يمكن أن يحملهنّ على التهاون في قواعد البروتوكول. فهنّ من أشرس حُماته. لكنهنّ كنّ يعتبرن ما يلقينه من تقدير الأميرات مكافأة مجزية نظير إخلاصهن في الخدمة.

وبينما كان عبدان شابان يساعدان السلطانتين على التخلّص من لباسهما الثقيل، راحت القلفة تهتزّ من الفرح.

ـ أحمد الله على أنّ لَبوتَيّ تزدادان ألقاً يوماً بعد يوم.

ومضت تتفرّس بعين راضية سيّدتها فاطمة العذبة، وقد ارتدت ثوب تافتا عاجيّ اللون، زاد عينيها السوداوين سحراً، وفهيمة ذات القوام الرشيق الظاهر من خلال فستان طويل تزيّنه فراشات، قادم توّاً من متجر أدلر ميللر، أرقى خياطي فيينا. ذلك أنّ روائع باريس لم تعد تصل للأسف، منذ أن تقرّر إعلان الحرب على فرنسا سنة ١٩١٤.

وبينما شرعت الأختان ترتقيان السلم وقد أمسكت إحداهما بيد الأخرى وهما تضحكان، داهمتهما عاصفة صغيرة زرقاء كادت تسقطهما، ثمّ توقّفت أمامهما مباشرة، وراحت تقبّل يديهما.

وبينما مضت القلفة تغمغم ساخطة، هتفت فهيمة بحنان وهي تضمّ سلمى بين ذراعيها:

ـ كدت تقتليني يا عزيزتي!

وتلا العاصفة طفل صغير بدين شاحب. انحنى أمام خالتيه. إنّه خيري أخو سلمى الذي يكبرها بسنتين، لكنّه مع ذلك عبدها المخلص الذي يتأذى من جسارتها من دون أن يتجرّأ على مقاومتها.

لاحت السلطانة خديجة في أعلى السلّم، بقامتها التي تفوق أختيها طولاً، ومشيتها التي تجمع بين الانسياب والشهوانية والمهابة. وهي تفرض هيبتها على أكثر الناس استكباراً، حتى إنّه لمّا يتردّد لقب «السلطانة» في الأسرة، ينصرف الذهن توّاً إليها على الرغم من أنهنّ جميعاً سلطانات.

توقفت فاطمة أمام أختها الكبرى من دون أن تداري إعجابها ممّا أزعج فهيمة التي تعدّ أجملهن حسب معايير الموضة آنئذٍ، فسارعت إلى القول:

ـ ماذا وقع يا أختي العزيزة حتّى تستعجلي مجيئنا بهذه الصورة؟ لقد حرمتني من السهرة التي دعاني إليها سفير النمسا ـ المجر، وهي سهرة من المتوقع أن تكون مسلّية جداً.

فردّت السلطانة بنبرة أفخم من المعتاد، لا سيما أنها ما تزال لم تقرّر بعدُ كيف ستتصرّف:

ـ ما وقع هو أنّ عمّنا السلطان عبد الحميد أسلم الروح.

قالت فهيمة وهي تقطب حاجبيها:

ـ ولِمَ سيثنيني موت هذا... الطاغية عن الذهاب إلى حفلتي الراقصة؟

فسمعن صوتاً جهيراً خلفهن جعلهنّ يجفلن:

ـ عظيم يا خالتي، أحسنت قولاً!

دخل عليهن رجل بدين في نحو الخامسة والثلاثين من عمره. إنّه الأمير نهاد، ابن الأمير المرحوم صلاح الدين الأكبر، يرافقه أخوه الأصغر الأمير فؤاد الذي زاده زيّه العسكري وسامة، زيّ الجنرال الذي لا يفارقه أبداً. فقد عاد هذا «الجنرال الأمير» ـ كما كان يحبّ أن يُدعى، مفضّلاً هذا اللقب الذي كسبه في المعارك على لقب الأمير ـ قبل أشهر من الجبهة الشرقية، إثر إصابته إصابة خطيرة. وهو يقضي فترة نقاهة بهيجة بالأستانة، مستغلاً بلا حياء سمعته كبطل لنيل الحظوة لدى النساء.

انحنى الرجلان للسلطانات ثمّ سارا في إثرهن إلى الصالون حيث كانت بعض الخادمات على وشك الانتهاء من إشعال مصابيح الزيت المائة والسبعة وثلاثين الموجودة في ثريّا الكريسطال.

وتسلل خلفهم خيري وسلمى على رؤوس أصابعهما.

انتظرت خديجة باسمة الثغر أن يجلس الجميع. وعلى الرغم من علمها بصعوبة الفوز بهذه الجولة، فإن ذلك يروقها.

ـ قصدت من جمع مجلس الأسرة هذا المساء أن نقرّر معاً ما إذا كنّا سنحضر جنازة السلطان عبد الحميد التي ستقام غداً. تقضي التقاليد، كما تعلمون، بأن يشارك الأمراء في تشييع الجنازة التي تعبر المدينة. أمّا الأميرات فعليهنّ زيارة زوجات الهالك وبناته لتقديم العزاء.

ثمّ أضافت بصوت رزين:

ـ ألتمس منكم ألا تولوا اعتباراً لمشاعركم الشخصية. احرصوا بالأحرى على الصورة التي نقدّمها للشعب.

فسارعت فهيمة إلى تكسير الصمت:

ـ يا له من مأزق مأساوي أشبه بما يوجد في تراجيديات كورناي[1]!

---

(١) كان أثر الثقافة الفرنسية واضحاً في البلاط العثماني منذ القرن الثامن عشر.

أمّا أنا فلن أذهب على كلّ حال. هذا العمّ العزيز بدّد خمسة وعشرين عاماً من حياتي، فلن أتركه يفسد عليّ يوماً آخر!

فقالت فاطمة بخجل:

ـ أليست هذه مناسبة للصفح؟ فقد كفّر المسكين عن ذنبه. خُلع من عرشه، وأسر منذ عشر سنوات. ألا نستطيع أخيراً أن ننسى؟

ـ ننسى!

امتقع لون الأمير نهاد وهو جالس في مقعده حتى خشيت سلمى أن يختنق. وراح ينظر إلى خالته الشابّة جاحظ العينين، ثمّ قال:

ـ أين الوفاء لجدّي السلطان مراد الذي شُهّر به ودُفن حيّاً؟ ولأبي الذي قتله الإنهاك العصبي؟ حضور هذه الجنازة يعني تبرئة ذمّة هذا الذي اضطهدنا. فلنتغيّب، ولنظهر للناس ذلك الأذى الذي ألحق بأسرتنا! هذا ما ينتظر منّا أمواتنا.

ـ أرجوك يا أخي، لنكفّ عن الكلام بلسان الموتى...

التفت الجميع إلى الأمير فؤاد الذي كان يستمتع بتدخين سيجاره.

ـ ألتمس منكم المعذرة إن بدوت كمن يسدي لكم النصح وأنا أصغركم. لكن السنوات التي أمضيتها في الجبهة مع جنودي، وهم أناس بسطاء من الأناضول وإزمير وشواطئ البحر الأسود علّمتني شيئاً واحداً: على الرغم من تقصيرنا ما زال الشعب يبجّلنا. هو لا يعرف الفُرقة التي بيننا، ويجهل أنّ عبد الحميد عزل مراد، وأنّ أخاه رشاد خلعه بدوره. هذه في نظرهم أمور عارضة. المهمّ هو أن تظلّ عائلتنا متكتّلة خلف السلطان. ففي ظروف الحرب العصيبة هذه، يحتاج الشعب لأساس متين يستند إليه، وهذا الأساس المتين هو الأسرة العثمانية التي حكمت منذ ستّة قرون. ومن ثمّة عليها أن تستمرّ وإلا ندمنا جميعاً حيث لا ينفع الندم...

وفي تلك الأثناء ظهر خصيّ سوداني عريض المنكبين وأعلن عن

وصول رسالة من السلطان. وعلى الرغم من كونه من العبيد، وقف جميع الحاضرين، ليس احتراماً لشخصه، فهو في نظرهم في حكم العدم، بل لكي يظهروا إجلالهم للرسالة التي يحمل.

ـ يبعث جلالة السلطان رشاد، أمير المؤمنين، وظلّ الله في أرضه، وسيّد البحرين الأبيض والأسود، وإمبراطور البرّين، إلى أصحاب السمو بهذه الرسالة: على إثر وفاة أخينا العزيز، صاحب الجلالة السلطان عبد الحميد الثاني، ندعو أمراء وأميرات بيت جلالة السلطان مراد الخامس إلى المشاركة في المأتم الذي سيقام وفق المراسيم المعروفة. والسلام عليكم، ودمتم في حفظ الله ورعايته.

ثمّ انحنى. من المؤكّد أنّ الرسالة ليست دعوة بل أمراً.

ما كاد الرسول ينصرف حتّى غمغم الأمير نهاد وهو يهزّ كتفيه:

ـ لن أذهب وليقع ما يقع.

فتدخّلت السلطانة خديجة بنبرة معاتبة قائلة:

ـ أظن أنّ فؤاداً مُحقّ فيما يقول يا نهاد، فالوضع خطير. علينا أن نحافظ على وحدة الأسرة.

ـ أتتحدّثين عن وحدة الأسرة يا خالتي العزيزة؟! أسرة لم تكفّ عن الاقتتال على السلطة منذ ستة قرون! كم قتل جدّنا مراد الثالث «قاهر الفرس» من إخوته؟ لعلّه قتل تسعة عشر إن لم تخني الذاكرة؟ أمّا أبوه فكان أرفق. لم يقتل من إخوته غير خمسة.

فردّت السلطانة بنبرة جازمة:

ـ كان ذلك من أجل مصلحة للدولة العليا. هذه مآسٍ تقع في كلّ الأسر الحاكمة... كلّ ما في الأمر أنّ ملوك أوروبا كان لهم عدد أقلّ من الإخوة. وأنا لا ألوم السلطان عبد الحميد. ففي مثل تلك الظروف العصيبة التي كانت فيها إنجلترا وفرنسا وروسيا تسعى لاقتسام أراضينا، كان الحكم بحاجة لرجل مثله. وقد استطاع حماية الإمبراطورية من

القوى التي قضت ثلاثين سنة تتربّص بها لتُفتّتها، وهو أمر ما كان بمقدور أبي أن يقوم به على الأرجح بسبب استقامته ورقّته المفرطة. ثمّ، أليست مصلحة البلد أولى من سعادتنا الشخصية؟

تبادلت السلطانة فهيمة والأمير فؤاد نظرات هازئة. لطالما كانت أختها الكبرى امرأة تحرص على الأصول. لكن من يأبه اليوم بهذه الأصول؟ ففهيمة لا تريد إلا أن تستمتع، وهي تفعل ذلك بلهفة من أضاع أزهى سنوات عمره في الأسر. كانت معروفة بابتهاجها وخفّتها حتّى إنّهم لقّبوها بـ«السلطانة الفراشة»، لا سيما أنّها اتخذت من الفراشة رمزاً، وزيّنت بها كلّ فساتينها. ثمّ إنّها فنانة، تعزف ببراعة على البيانو، وقد ألّفت بعض المعزوفات. وليس أبغض إلى نفسها من الجِدّ وتحمّل المسؤوليات.

ولا يختلف عنها ابن أخيها الأمير فؤاد في التعطّش إلى الحياة. لكنّه يزيد عليها بحسّه الواقعيّ الحادّ. فهو شديد الوعي بمصالحه، ويعرف كيف يتنازل عن القليل ليظفر بالكثير. كما أنّه يستعين بوسامته للخروج من المواقف الصعبة، لكنّه الآن لا يقاوم الرغبة في مشاكسة السلطانة خديجة.

ـ إذا كنتُ فهمت قصدك يا أفندم، لا يتعيّن علينا حضور المراسيم فحسب، بل علينا ربّما أن نزيد على ذلك ونذرف بعض الدموع.

ـ حسبكم أن تحضروا. لكن تذكّر يا فؤاد، وأنت أيضاً يا نهاد، إن ولّيتما العرش يوماً، فاقتديا بالسلطان عبد الحميد لا بجدّكما مراد. لا يمكن للمرأة أن تلد وتحافظ على بكارتها في نفس الآن.

وعندما انفجرت ضاحكة أصابهما الشدوه، لأنّهما لم يعتادا على الفظاظة في كلامها، ثمّ قامت واقفة معلنة عن نهاية الاجتماع.

٢

ما كادت السلطانة خديجة تستيقظ في اليوم الموالي حتّى ألحّت عليها الرغبة في الذهاب إلى السوق لشراء الأوشحة. وقد جرت العادة على أن تزور مبعوثات التجار من الإغريق والأرمن السراي لعرض الألبسة، لأنه لم يكن يليق بالأميرات أن يتردّدن على الأماكن الشعبية، حتّى إن كنّ بعيدات عن الأنظار في عرباتهن محكمة الإغلاق.

على أنّ السلطانة لم تطق الانتظار ذلك اليوم.

نادت خادمها الخصي المفضّل زينيل، وهو ألباني طويل القامة، ناصع البشرة، في نحو الأربعين من العمر. ولمّا لاحظت سمنته الطارئة قالت في نفسها بشيء من المرح إنّها تضفي عليه هيبة الباشوات.

وتذكّرت ذلك المراهق المفزوع الذي حلّ قبل خمس وعشرين سنة بقصر تجراغان حيث كانت تعيش أسيرة مع أبيها وأخواتها. أوفده رئيس خصيان السلطان عبد الحميد بنيّة التخلّص منه. وعلى الرغم مما أظهر من نباهة وحيويّة في مدرسة القصر التي كانت تثقّف الأطفال قبل توجيههم للخدمة في السراي، فإنه أبدى فيما بعد تمرّداً على نظام الحريم الصارم.

ومع ذلك سرعان ما تكيّف مع الحياة في تجراغان. ألِشُعوره بحرّيّة أكبر بين هؤلاء الأسرى؟ وتذكّرت خديجة كيف كان يتبعها حيثما حلّت، منتبهاً لأبسط حركاتها، بينما كان يتجاهل الأميرتين فهيمة وفاطمة. فقد اختار خدمتها هي.

تأثرت لإخلاصه، فصارت تعتمد عليه أكثر فأكثر، وأعجبت بما يتميّز به من حدّة ذكاء وتكتّم عن بقية الخصيان الميّالين إلى الثرثرة كالعجائز.

أمّا الآن في قصر أورتاكوي، فجعلت منه عينها المبصرة وأذنها المصغية. ذلك أنّها كثيراً ما تبعثه إلى المدينة لجمع الإشاعات وأحاديث المقاهي، فيأتيها بانتقادات سكان الأستانة البسطاء وأمانيهم، هم من أرهقتهم ويلات هذه الحرب التي طالت، ومشاقّ الحياة اليومية.

وبذلك، فعلى الرغم من حياة الأسر في الحرملك، كانت السلطانة خديجة عارفة بمزاج الشعب أكثر من معظم أفراد الأسرة الحاكمة. وقد كانوا كثيراً ما يستشيرونها لعلمهم بحصافتها وسداد رأيها.

ولمكافأة زينيل على ولائه الثابت لها رقّته إلى رتبة «رئيس الخصيان»، ما أثار تذمّر كثير من الخصيان الذين يكبرونه سنّاً، وحقدهم عليه.

راحت تنظر مستغرقة إلى العبد الذي ينتظر أوامرها بأناة خافضاً عينيه. ماذا تعرف عنه باستثناء خصال الخادم الاستثنائية؟ كيف هي حياته خارج السراي؟ أهو سعيد؟ لا علم لها بذلك. ومهما يكن، فهي تقدّر أنّ ذلك لا يعنيها. وانتهت بأن قالت له بعد صمت طويل:

ـ أريدك أن تتدبّر لي عربة أجرة فوراً يا آغا.

انحنى الخصي وهو يخفي علامات الاستغراب. ذلك أن عربات القصر الخمس في حالة جيدة. بطبيعة الحال، كل هذه العربات تحمل الشارات السلطانية. أتريد سيدته أن تخرج متنكرة، لا سيما أن زوجها خيري بك على سفر؟ فقد اعتاد زينيل على نزوات النسوة، وقد خبرها طويلاً لما خدم في الحريم السلطاني وهو في الرابعة عشرة من عمره. ولكن سلطانته هذه مختلفة، وأنّب نفسه على إساءة الظنّ بها ولو للحظة، وحثّ الخطو ليأتيها بالعربة.

ارتدت خديجة شرشفاً داكن اللون بمساعدة إحدى القلفاوات، وبينما

هي خارجة، اصطدمت بسلمى التي كانت تنتظرها عند الباب، فقالت لها متوسّلة:

ـ أرجوك يا أنيدجيم، اسمحي لي بمرافقتك!

ـ ترافقيني؟ والبيانو؟ أظنّ أنّ عليك أن تتدرّبي على معزوفاتك!

ـ سأتدرّب عليها بعد عودتي، أعدك!

قرأت الأم في عيني ابنتها حزناً عميقاً، فلم تقو على رفض طلبها. هي من عانت من العزلة لا ترغب في أن تعيش ابنتها مثلها. لذلك هي حريصة على أن تهبها أقصى قدر من الحرّيّة في حدود ما تسمح به المواضعات والأعراف. بل لعلّها كثيراً ما تتجاوزها كما تلهج بذلك ألسنة السوء.

وغادرت العربةُ ذات النوافذ المستورة بشباك خشبي دقيق القصرَ ببطء وزينيل جالس بمهابة إلى جانب السائق. كان يوماً جميلاً من أيّام الشتاء، يجمع بين البرودة وأشعّة الشمس الساطعة. وفي السماء كانت تحلّق أسراب حمام حول المآذن وقبب القصور المشرفة على البوسفور.

غمغمت السلطانة بجفون نعسانة كعاشقة حيل بينها وبين معشوقها لفترة طويلة، فلا تكلّ من النظر إليه وهي تقول: «الأستانة يا مدينتي الرائعة!». أما سلمى الجالسة بجوارها مشدوهةً فراحت تَعِد نفسها لمّا تكبر بأن تخرج مرّة في الأسبوع على الأقلّ حتّى لو أثار ذلك النمائم.

اجتازتا القرن الذهبي عبر جسر غلطه، وهو عبارة عن شريط ضيّق من البحر بين ضفّتي العاصمة. ذلك أنّ السوق يوجد في المدينة القديمة غير بعيد عن قصر توبقابي الفاخر الذي هجرته العائلة الملكية منذ ستّين عاماً بعدما شيّد السلطان عبد المجيد قصر طولمة باغجه تخليداً لذكره، مجنّباً بذلك الأميرات والأمراء المسجونين خلف أسوار السراي الرطبة الموت من السل.

كان الشارع يعرف حركة غير مألوفة بحيث لم تكد تمضي العربة بضعة أمتار حتّى توقّفت، وظهر من الباب وجه زينيل المستطيل.

ـ لا نستطيع التقدم يا صاحبة السمو! موكب الجنازة سيمرّ من هنا.

لاحت على وجه الأميرة ابتسامة هادئة، وقالت:

ـ حقّاً؟! لقد نسيت ذلك. فلننتظر مروره إذن...

نظرت سلمى إلى أمّها. فقد صدق ما خمّنته من أنّ الأوشحة لم تكن سوى ذريعة. ذلك أنّ أنيدجيم لا تُولي زينتها أهمية كبيرة. فما أرادته هو مشاهدة موكب الجنازة، وبما أنّ التقاليد تحظر على الأميرات ذلك، لجأت إلى هذه الحيلة.

تعجّبت السلطانة من الجموع المحتشدة، وقالت في نفسها: «لعلّ الناس لا يجدون ما يسليهم في زمن الحرب هذا. فأبسط شيء يخرجهم من بيوتهم».

وخيّم الصمت فجأة لمّا ظهر الموكب في أقصى الشارع.

كان النعش يقترب محمولاً على أكتاف عشرة جنود، تتقدّمه فرقة موسيقية عسكرية ترتدي ستامبولين سوداء، ويسير خلفه الأمراء مرتّبين بحسب أعمارهم، تزيّن صدورهم نياشين الماس، يتبعهم الدامادات، وهم أزواج الأميرات، ثمّ الباشوات في زيّهم الاستعراضي الموحّد والوزراء بالرودنغوت الموشّى بالذهب. وأخيراً كيسلر آغا، حارس أبواب السعادة، ورئيس خصيان القصر السود.

وعلى طول ثلاثة كيلومترات التي سيقطعها الموكب، الفاصلة بين مسجد آيا صوفيا والضريح حيث سيدفن السلطان، وقف على جانبي الطريق عساكر ببزاتهم الرسمية في وضعية تأهّب. وبطبيعة الحال فقد آل مصير الإمبراطورية إلى حكومة تركيا الفتاة التي عزلت السلطان عبد الحميد قبل عشر سنوات تحت إمرة السلطان رشاد، وهي من شاءت أن تكون مراسم الجنازة فخمة، مقدّرة أنّه لا ضير في إبداء الشهامة والكرم مع الموتى.

هذه الشهامة هي التي لم تصدر قطّ من هذا الرجل المحمول إلى مثواه الأخير. واغرورقت عينا السلطانة، ووجدت نفسها فجأة تعود أربع

عشرة سنة إلى الوراء، إلى تلك الليلة الباردة التي أمر فيها عبد الحميد بدفن أبيها السلطان مراد على عجل، بحيث لم يُشيّع جنازته غير عدد قليل من خدّامه المخلصين. أمّا الشعب الذي كان يحبه، فلم يَسمح له بالتعبير عن حزنه.

شعرت خديجة بقشعريرة تسري في أوصالها. ذلك أنّ البهرجة التي أحيطت بها جنازة الجلاد أجّجت كراهيتها من جديد. فما دام عبد الحميد أُذِلّ لفترة طويلة وسُجن، لربّما يكون ذلك قد كفّر عن بعض ما اقترفه في حقّ أسرتها، على أنّ هذا الاحتفال الباذخ يعيد له مجده، مجد سرقه من أخيه. فعبد الحميد يمتهن مراد حتّى وهو ميّت. فكأنّما تعيده هذه الجنازة إلى الحياة بعد عشر سنوات من الأسر الغامض.

وأحسّت السلطانة بالمرارة تملأ فمها. أهي الغيرة؟ أتغار من ميّت؟ أدركت الآن أيّ رغبة حذت بها إلى خرق الأعراف وحضور هذه الجنازة. حاولت أن توهم نفسها بأنّ الأمر لا يعدو أن يكون فضولاً، لكنّها في الحقيقة الرغبة في الانتقام. جاءت لتشاهد وتتشمّم وتتذوّق موت الرجل الذي ظلّ يقتل أباها مدّة عشرين سنة يوماً بعد يوم. لم يخطر على بالها قطّ أن قلبها ما يزال يحمل كلّ هذه الضغينة...

وبلغ الموكب المكان الذي كانت تقف فيه العربة، فمضت خديجة تجول بعينها بحثاً عن أبناء أخيها. أمّا نهاد فلم يأتِ، بينما لمحت فؤاد في لباسه الأنيق وقد مثّل الأسرة أحسن تمثيل. لقد عمل بنصيحتها. هي من طالما عرفت كيف ينبغي أن تتصرّف، لم تعد تدري الآن أأصابت أم أخطأت.

وتعالى الصراخ فجأةً بين الحاضرين، فتمالكت السلطانة الجالسة داخل عربتها نفسها من أن تبتسم. أهذا هو ما جاء بهذا الحشد الغفير من الناس إذن؟ فالشعب لا يعبأ كثيراً بالأعراف التي تفرض الصمت عند مرور الجنازة. لقد جاء لتحيّة الطاغية التحية التي يستحق!

أصاخت السمع، فتهيّأ لها أنّها تسمع وسط الضجيج تأوّهاً وشهيقاً. مستحيل، لعلّها أساءت الإصغاء! ومع ذلك فإن ما سمعته كان أمراً واقعاً... تجمّدت في مكانها، وعلاها شحوب شديد: فما حسِبَته صرخات حاقدة هو في الحقيقة صيّاح وعويل. استبدّ بها السخط. أهذا الشعب الذي طالما ضاق ذرعاً بالطاغية يبكيه اليوم؟ أنَسيَ تلك السنوات التي كانت فيها الشرطة والمخابرات تحصي عليه أنفاسه؟ أنَسيَ تصفيقه لانقلاب «تركيا الفتاة» الذي خلع عبد الحميد وأحلّ محلّه أخاه رشاداً؟ هزّت رأسها بامتعاض وقالت في نفسها: «ما أسرع النسيان إلى ذاكرة هؤلاء الناس!».

وأطلّت امرأة من إحدى النوافذ وقالت متأوّهة:

ـ لماذا تركتنا يا أبانا؟ لم نعرف الجوع في أيّامك، أما اليوم، فها نحن نتضوّر جوعاً!

وتعالت أصوات أخرى:

ـ إلى أين أنت ذاهب؟ لا تتركنا لوحدنا!

وشعرت السلطانة برعشة تسري في جسمها وهي تسمع كلمة «لوحدنا». ماذا يقصد هؤلاء؟ أليس لديهم سلطان طيّب هو السلطان رشاد؟ أنزعوا ثقتهم منه؟ أتراهم خمّنوا ما يعرفه كلّ من في البلاط: أنّ السلطان مجرّد دمية بين أيدي الثالوث الذي يسيطر على البلد: أنوار وطلعت وجمال؟

فهؤلاء لم يكلّفوا أنفسهم حتى استشارة السلطان لمّا زجوا بتركيا في الحرب إلى جانب ألمانيا قبل أربع سنوات، أيّ سنة ١٩١٤. وراحوا منذئذٍ يراكمون الأخطاء، فتوالت الهزائم التي حاولوا إخفاءها. لكنّ مئات الجرحى كانوا يفدون كلّ يوم من الجبهة، وأخذت الصفوف تطول أمام المخابز، بينما شرع المتسوّلون يغزون الشوارع.

تنهدت السلطانة. فبموت عبد الحميد اختفى آخر رمز لتركيا القوية

المحترمة. لعلّ هذا هو ما يُبكي الشعب. واستبدّ بها الحنين، فلم تعد تجسر على الاستمرار في تصديق الأكذوبة التي تذرعت بها للخروج، أيّ زيارة السوق. وقالت لزينيل:

ـ لنعد إلى السراي.

نظر إليها الخصي بحزن. كان يدرك مقدار الاضطراب الذي ألمّ بسيدته. وشعر بمدى حاجتها في هذه الأثناء إلى المواساة، لكنّ موقعه لم يكن يسمح له إلا بلزوم الصمت. فانحنى، ونقل الأمر إلى السائق. وانطلقت العربة ببطء عائدة من حيث أتت.

مالت الشمس إلى المغيب على البوسفور، فراحت خديجة تتأمّل من خلال النوافذ الزجاجية العالية النهر وقصر بيليربي الواقع في الضفة المقابلة على القارة الآسيوية. ولم تتمالك نفسها من الابتسام من سخرية القدر هذه: هناك قبالة مسكنها أمضى سجّانها السنوات الأخيرة من حياته أسيراً.

تزعم ألسنة السوء أنّها اختارت العيش قرب السلطان المخلوع حتّى يتأتى لها أن تتأمّله كما يحلو لها، وهذا لا أساس له من الصحّة، لأنّها كانت تسكن قصر أورتاكوي قبل ذلك بكثير. هي لا تنكر أنّها انتقمت لنفسها، ولكن بطريقة أخرى...

أخبروها بأنّ الزورق جاهز. حان الوقت لكي تذهب لتقديم العزاء لقريبات الهالك. فهذه هي المرّة الأولى التي ستلتقي فيها الأسرتان بعد سنوات طويلة. إذ على الرغم من التقائهما في الاحتفالات الرسميّة، كانوا يتظاهرون بأنّهم لا يتعارفون.

عبرت السلطانة الحديقة تتبعها أختاها وابنتها، وتوجّهت نحو الجسر الحجري العائم الذي تغطيه الطحالب. كنّ يلبسن جميعهن ثياباً بيضاء، وهو لون الحداد. أمّا السواد، فكانوا يتطيّرون منه، ومن ثمّة فهو ممنوع في البلاط العثماني.

صعدن إلى المركب الرفيع بمساعدة الخصيان، فاستقبلهنّ مجدّفون

يرتدون قمصاناً واسعة من الباتستا وسراويل قرمزية، وهو لباسهم منذ عهد سليمان القانوني. وقد كانوا عشرة، وهو العدد المسموح به للأمراء والأميرات، بينما يستعمل السلطان مركباً بأربعة عشر مجدّفاً.

ما كاد المركب ينطلق مسرعاً فوق الماء حتّى أزالت الأميرات النقاب عن وجوههنّ ليستمتعن بالنسيم العليل. أمّا المجدّفون فخفضوا رؤوسهم وغضّوا من أبصارهم لكي لا ينظروا إليهنّ، لأنّهم إن فعلوا سيتعرّضون للطرد. وقد كان جزاء من يتجرّأ على ذلك في الماضي الموت.

جلست سلمى في مقدمة القارب، وراحت تستمتع بحركة الأسماك التي بدت كما لو أنّها تتبعهم: كانت تروقها عادة ربط أثواب قطنية طويلة زرقاء خلف القوارب، طرزت عليها بخيوط الفضة أسماك شبوط أو سلمون يتوهّمها الناظر أسماكاً حقيقيّة.

وصلت الأميرات إلى قصر بيليربي وقد أصابهنّ هواء البحر بشيء من الدوار، فرافقهنّ خصيان في البهو الكبير ذي السقوف المزينة بأشكال هندسية خضراء وحمراء، وجدران مكسوّة بمرايا دمشقيّة مطعّمة بالصدف. وهو قصر كان قد شيّده في القرن السابق السلطان عبد العزيز، وحرص فيه على الرونق الشرقي حتّى يتميّز عن الطُرُز الوافدة من أوروبا. بل يحكى أنّه أمر بأن تطرّز ناموسيّة السرير بآلاف من الدرر الناعمة حين علم أن أوجيني دي مانتيو، وكان هائماً بحبّها، ستقيم فيه قبل أن تسافر إلى قناة السويس لتدشينها.

ودخلت الأميرات إلى غرفة من المخمل الأرجواني تسبقهن سيّدة المراسم. إنّه صالون السلطانة الوالدة، وهو اللقب الذي كان يطلق على أمّهات السلاطين. وبما أنّ أمّ عبد الحميد توفيت، فإن آخر زوجاته، شفيقة قادين، هي من حلّت محلّها، وكانت تبدو ضعيفة ونحيلة فوق كرسي الخشب المذهّب الضخم. وقد ظلّت إلى جانب السلطان المخلوع إلى أن وافته المنيّة. وبذلك، فيوم التعزية هذا هو يوم مجدها الذي تلقى فيه العرفان نظير تفانيها.

وقد جلس حولها على وسائد وأرائك من البروكار نساء من مختلف الأعمار، ينتحبن ويعدّدن مناقب الفقيد وأعماله الطيّبة. بعضهن يبكين بصوت عالٍ ويتوقّفن بين الفينة والأخرى ليتفحّصن الوافدات الجديدات.

وما إن لاحظت الحاضرات وصول الأميرات الثلاث حتّى رحن يتهامسن من الدهشة، لكن القادين كانت من الذكاء بحيث تفطّنت للمغزى السياسي لهذه المبادرة، فهرعت لاستقبالهنّ. فعلى الرغم مما بلغته من مراتب الشرف هذا اليوم، لم تنسَ الاحترام الواجب للأميرات اللواتي يسري في عروقهن الدم الملكي. مهما يكن، فهي لا تعدو أن تكون، كسائر زوجات السلطان، امرأة من الحريم شملتها حظوة السلطان المعظّم.

أمّا سلمى، فراحت تنحني احتراماً للنساء المتميّزات المحيطات بالقادين، وتقبّل أيديهنّ. وبينما همّت بأن تسلّم على امرأة بالغة البشاعة كانت جالسة على يمينها، لاحظت عيونها البغيضة وهي تحدّق فيها، فتراجعت فجأة. أي عمل شنيع أتت؟

نظرت بارتباك إلى أمّها، فدفعتها إلى الأمام وهي تقول:

ـ سلّمي على خالتك نعيمة سلطان ابنة المرحوم جلالة السلطان عبد الحميد.

لكن الصبيّة تراجعت وهي تداعب خصلات شعرها الأحمر مثيرة بذلك استغراب الحاضرات، فأزاحتها أمّها بحدّة وانحنت على الأميرة وهي تقول:

ـ اعذري هذه الصبيّة، لقد أصابتها الحمى بسبب موت عمّها...

لكن السلطانة نعيمة أشاحت عنها بامتعاض كما لو أنّها لم تكن تطيق النظر إليها. عندئذ استوت خديجة واقفة بقامتها الفارعة، وألقت على الجمع نظرة هازئة، ثمّ توجّهت إلى يسار القادين التي دعتها للجلوس بجانبها. أما فطاظة ابنة عمّها، فلم تزدها إلا إكراماً. فهي تشهد، وهو أمر

لا يخفى على أحد، على أنّ الجرح ما زال دامياً على الرغم من مرور أربع عشرة سنة.

وبينما كانت خديجة لا تكاد تنصت إلى أرملة السلطان تحكي للمرة الألف عن ظروف موت جلالته، عادت بها الذاكرة إلى الماضي...

صحيح أنّ كمال الدين باشا زوج نعيمة كان رجلاً وسيماً... لقد تزوّجت ابنتا العمّ في نفس العام، وقد مضت على ذلك الآن سبع عشرة سنة. لكن بينما اختار السلطان عبد الحميد لابنته الأثيرة، المولودة يوم اعتلائه العرش، ضابطاً لامعاً، فرض على خديجة موظّفاً نكرة يجمع بين القبح والبلادة.

لم تجد خديجة عن الزواج بديلاً للإفلات من حياة الأسر التي عاشتها في القصر منذ طفولتها. ذلك أنّها لمّا بلغت الواحد والثلاثين من العمر، يئست من الحياة، وصارت مستعدّة لفعل أيّ شيء في سبيل الحرّيّة، لكن لم يخطر في بالها اختيار مهين كهذا. أغلقت على نفسها باب غرفتها بعناد، ولم تسمح لزوجها بالدخول عليها لأسابيع، فشكاها للسلطان. لكنّها استسلمت أخيراً بعدما تعبت من الممانعة.

ما زالت تشعر بالقشعريرة كلّما تذكّرت الليلة الأولى... وما زالت تلك الذكرى تملأ نفسها امتعاضاً...

كان القصر الذي أهداه لها السلطان، كدأبه مع كلّ أميرة حديثة العهد بالزواج، موجوداً بجوار قصر ابنته نعيمة. فكانت كثيراً ما تزورها وتسدي إليها النصح كما لو أنّها أختها الصغرى، وتبعث لها هدايا صغيرة مع زينيل. وسرعان ما استوثقت الصداقة بينهما. وقد كانت نعيمة هائمة بحبّ زوجها الأنيق. أيّ انتقام يمكن أن تتصوّره خديجة أفضل من أن تسرقه منها؟ أيّ وسيلة أبلغ من أن تدفع بنت السلطان الذي نكّل بها وبأبيها إلى اليأس من الحياة؟

هكذا أقدمت خديجة ببرودة وصبر وتفانٍ، كما لو أنها تؤدي واجباً

مقدساً، على إغواء كمال الدين. وقد كان ذلك يسيراً عليها، لا سيما أنّ نعيمة الغافلة حرصت، خلافاً للأعراف، على تيسير اللقاء بين زوجها وأفضل صديقاتها. وقد كانت خديجة فائقة الجمال، فوقع الباشا في حبّها، وأعلن لها عن تعلّقه بها في رسائل غرامية حفظتها بعناية.

اغتمّت نعيمة بسبب لامبالاة كمال الدين بها، وعافت نفسها الطعام حتّى سقمت. ولم يفهم السلطان شيئاً من مرض ابنته. أما خديجة التي كانت تتوصل بأسرار تلك الزوجة التعيسة فانتهى بها الأمر إلى أن اقتنعت بأنّ اللعبة دامت أكثر ممّا يلزم، بحيث إن إلحاح كمال كان يزداد، ولم يعد زوجها يخفي غيرته، وصار يبالغ في عتابها، فجمعت رسائل كمال الدين في حزمة وسلّمتها إلى زينيل ثمّ أمرته بأن يحملها إلى السلطان ويزعم بأنّه عثر عليها صدفة. كانت مصمّمة على الانتقام وعلى الطلاق واستعادة حريّتها.

ما زالت خديجة إلى اليوم، على الرغم من مضيّ أربع عشرة سنة، تتعجّب من سذاجتها. كيف توهّمت أنّها تستطيع الإيقاع بالسلطان عبد الحميد؟

ما زالت تذكر يوم استدعاها إلى القصر. كان يمسك رسائل الباشا في يده. قرأت الغضب في عينيه السوداوين الصغيرتين، لكن أكثر ما لفت نظرها هي السخرية التي كانت تنبعث منهما. كان كلّ من في القصر ينتظر الحكم: نفي كمال الدين إلى بروسة التي تبعد بنحو مائة كلومتر عن الأستانة. فهل ستُنبذ هي أيضاً؟ أستتعرّض هي أيضاً للنفي؟ من ظنّ ذلك لم يكن يعرف عبد الحميد حقّ المعرفة. لم يؤنّبها، بل اكتفى بأن ضحك ضحكة هازئة، وأعادها إلى بيت زوجها.

ولم تنجح خديجة في التخلّص من زوجها إلا مع ثورة ١٩٠٨ التي أطاحت بعبد الحميد، وأحلّت محلّه أخاه الطيّب السلطان رشاد الذي لم يكن يردّ لابنة أخيه طلباً، فسمح لها بالتطليق.

كان كلّ من يتابعون هذه القصة الرومانسية يتوقّعون زواج كمال الدين بالأميرة. على أنّها واجهت الباشا المتيّم، الذي عاد إلى الأستانة بمجرّد إطلاق سراحه، بمنتهى الفتور، واعترفت له بأنّها لم تحبّه قطّ.

بعد ذلك بسنة، وبينما كانت خديجة تتنزّه في «مياه آسيا العذبة»[1]، التقت بدبلوماسي وسيم، فتعلّقت به، وقرّرت الزواج منه.

إنّه خيري رؤوف بك، أبو سلمى وخيري الصغير.

خيّم الظلام على قصر بيليربي، وصعدت من البوسفور رطوبة باردة، وغرق صالون السلطانة الوالدة في الظلام. وراحت النساء يتهامسن على نحو غريزي.

مضى بعض العبيد يشقّون طريقهم بين الحاضرات، وهم يسيرون على رؤوس أصابع أقدامهم لكي يشعلوا الشموع في شمعدانات من الكريسطال الأخضر، شبيهة بأشجار مورقة مبثوثة في أركان الغرفة.

وشيئاً فشيئاً خرجت السلطانة من استغراقها. لقد حان وقت العودة. ألقت إلى أختيها نظرة تشير إلى أنّ الزيارة انتهت، فسارعت القادين إليهنّ، وألحّت على مرافقتهنّ حتى باب الصالون. أمّا نعيمة، فلم تكلّف نفسها حتّى النظر إليهن وهنّ يغادرن.

لم تفهم سلمى لماذا ضمّتها أمّها إليها فجأة وقبّلتها وهنّ في طريق العودة، بينما كانت تتوقّع أن تؤنّبها على تلكّئها في السلام على خالتها نعيمة.

(١) نهر صغير في ضواحي الأستانة.

٣

وانتهى الصوت العذب بأن أيقظ سلمى من نومها. فتحت عينيها وابتسمت للمراهقة الجالسة عند طرف السرير وهي تمسك بين أصابعها ريشة تداعب بها أوتار العود. ذلك أن من عادة الشرقيين ألا يسارعوا بالقيام من الفراش عند الاستيقاظ على نحو مفاجئ لإيمانهم بأن الروح تغادر الجسد خلال النوم، وتهيم في عوالم أخرى؛ ومن ثمة ينبغي إمهالها ريثما تعود إليه رويداً رويداً.

تحبّ سلمى أن تصحو على الموسيقى. فهي ترى في أنغام العود وعداً ببداية يوم سعيد. وقد شعرت في ذلك الصباح بابتهاج خاص: إنّه عيد الأضحى الذي يخلّد فيه المسلمون ذكرى تضحية إبراهيم بولده في سبيل الله، وهي مناسبة يلبس فيها الناس ثياباً جديدة، ويتبادلون الهدايا، وتضجّ المدينة بالألعاب، وتتعالى أصوات المهرّجين وباعة الحلويات، ويتحلّق الأطفال في الأزقّة حول مسارح الدمى وخيال الظل.

ستكون الاحتفالات باذخة في قصر طولمة باغجه حيث سيستقبل السلطان على مدى ثلاثة أيام كبار الشخصيات وسائر أفراد الأسرة الملكية.

رفضت سلمى شرب كوب الحليب الذي يقدّم لها كلّ صباح حفاظاً على رونق بشرتها. قفزت من السرير وتوجّهت إلى الحمام حيث هيأت لها قلفاوتان حمّاماً معطّراً بالورد، وهو حمّام مخصّص للمناسبات

الكبرى، لأنّ السلطانة كانت تقدّر أنّ ابنتها ما تزال أصغر من أن تُقبل على التجمّل والزينة.

صبّت القلفاوتان أباريق ماء دافئ على جسد الصبيّة الأبيض، وبعد أن نشّفتاها بثوب قطنيّ أبيض، نثرتا على جسدها وشعرها بتلات ورد، ثمّ دلّكتاها طويلاً، فانقادت لأيديهما الناعمة وهي تستنشق عبق الورد اللذيذ، وتتخيّل نفسها تتحوّل إلى زهرة.

وما هي إلا نصف ساعة حتّى ارتدت فستانها الجديد المطرّز على الطريقة الإنجليزية، وأسرعت إلى جناح أمّها، فوجدت أباها خيري رؤوف بك قد سبقها. فقد عاد في الليلة السابقة من سفر لزيارة أراضيه خصيصاً لحضور احتفالات قصر طولمة باغجه. استقبل ابنته باسماً، ومسح برفق على شعرها، إذ لم يكن من المقبول أن يقبّل الآباء أبناءهم. تورّدت سلمى من الفرح، وراحت تتأمّل أباها: يا لهيبته في الرودنغوت الرمادي والطربوش الأرجواني! ولكن ماذا تراه يفعل لكي يحافظ على شاربيه منتصبين إلى الأعلى؟

خيري بك رجل متوسط القامة، نحيف، يبدو عليه ما يظهر على رجال الطبقة الراقية من تميّز وضجر. وجد نفسه، وهو الرجل الخمول ذو الحظوة عند النساء، منقاداً للزواج من سلطانة لم يسع إليها. وبما أنه لم يكن غبيّاً، كان يتضايق من الإطراء على كونه تزوّج من أميرة. لكن ما كان يزعجه أكثر هو أن يبذل جهداً ذاتياً لبلوغ المراتب العليا. لقد كان في الماضي شاباً واثقاً من نفسه وحالماً، أمّا اليوم فهو رجل ضجر من كل شيء، ولم يعد يحفل حتى بابنه وابنته. ليته يجد فيهما بعض السلوى، لا سيما سلمى التي تعرف كيف تظهر جمالها على الرغم من صغر سنّها. أمّا زوجته...

دخلت إلى مخدعها، فقام خيري بك لكي يقبّل يدها، ويقدّم لها تهاني العيد، ثمّ مدّ لها علبة مجوهرات من المخمل. ذلك أنّ العادة جرت بأن يقدّم الأزواج الهدايا لزوجاتهم بمناسبة عيد الأضحى وكذلك

عيد ميلاد السلطان. والتخلف عن هذه العادة يعدّ إيذاناً بطلاق وشيك. تنهّد الداماد[1] خفية: من حسن حظّه أنّ كاتبه لا ينسى شيئاً! كانت العلبة تحتوي على عقد ياقوت بزرقة باهرة.

همست الأميرة:

ـ يا له من عقد رائع!

فانحنى بتأنق وقال:

ـ لا شيء يضاهي جمالك يا سلطانة!

لقد أحسن كاتبه صنيعاً، ولكن كيف له أن يؤدّي ثمن هذا العقد في أيام الحرب هذه وقد تقلّصت الجرايات؟ لا عليه، فالأرميني الذي يزوّد الأسرة بما تحتاج من حليّ منذ مدة طويلة يمكن أن يمهله. على كلّ حال، فليس في سنه سيتعلّم المرء البخل.

ثمّ أخرج من جيبه علبة أصغر من الأولى ـ هو من اختارها ـ وناولها لسلمى. إنّها مشبك متقن السبك، يمثّل طاووساً رُصّع ريشه بالزمرّد. كان ينتظر الشكر والامتنان، لكنّ فرح الصبية العارم أثار حيرته: أتحبّ الجواهر إلى هذا الحدّ على صغر سنها؟ أم تراها تقلّد أمّها؟

وبما أنّ هذا السؤال لم يكن يهمّه حقيقة، لم يلاحظ بأنّ سلمى كانت تنظر إليه هو بعينين مفعمتين بالفرح أكثر مما تنظر إلى المشبك: هذه هي المرّة الأولى التي يقدّم لها أبوها هدية تليق بالنساء.

على أنّ السلطانة قالت بنبرة قلقة:

ـ ستتأخّر عن السلاملك[2] يا صديقي!

فقاطعها خيري بك ملوّحاً بيده:

---

(١) يطلق هذا اللقب على أزواج الأميرات.

(٢) صلاة الجمعة بمسجد آيا صوفيا حيث يتعيّن على الحاضرين أن يأخذوا أمكنتهم قبل وصول السلطان.

ـ ما عاد هذا يعنيني! لقد سئمت هذه الشكليات. لست أدري ما إذا كنت سأحضرها.

على الرغم من علمه بأنّه ذاهب لا محالة، مثلما تعلم هي أيضاً، أبى إلا أن يعاكسها. فبمرور السنين، صار يضيق ذرعاً بدور زوج الأميرة. وبطبيعة الحال لا يمكن أن يخطر له الطلاق على بال، لأنّ أزواج الأميرات لا يمكن أن يُطلّقن. هنّ من تملكن هذا الحقّ، بموافقة السلطان طبعاً.

مهما يكن فليس لخيري بك ما يأخذه على زوجته... فهي زوجة كاملة، لكنّها تتمثل دور الأميرة إلى أقصى الحدود، ومضجرة على نحو قاتل. وقال في نفسه ـ من دون أن يقرّ بذلك ـ إنّ شخصيتها القويّة تسحقه، وتشعره بأنّه مجرّد ظلّ.

ظلّت سلمى تتساءل طويلاً بعد انصراف أبيها لماذا كان يبدو كئيباً. جلست على مقعد تنتظر أمّها وراحت تؤرجح رجليها في الهواء وهي تلوم نفسها على أنّها لم تحاول أن تواسيه. لكن ماذا كان في وسعها أن تقول له؟ لا شك أنّه كان سيسخر منها!

وانتهت السلطانة من استعدادها أخيراً. ارتدت فستاناً منبّتاً باللؤلؤ الناعم، أحيط ذيله بفرو السمور. أمّا جدائل شعرها الكستنائي فزُيّنت بأحجار كريمة. وعلى صدرها لمعت نجمة «نيشان الشفقة»، وهي نجمة من الماس لم تحظ بها إلا قلة قليلة من النساء العظيمات، وكذلك عقد ذهب مطلي بلون شعار الإمبراطورية، مقصور على الأمراء والأميرات.

أمّا خصلات سلمى الحمراء فراحت تهتزّ فرحاً لأنّ أمّها ستظلّ دائماً أجمل النساء!

ساعدتهما القلفاوات على ركوب العربة الخفيفة المخصّصة للاحتفالات الرسميّة، يقودها حوذي يرتدي معطفاً أزرق داكناً مزركشاً بالفضّة. فرقع السوط، فتحرّكت العربة لتقطع الكيلومترين إلى القصر الإمبراطوري.

يربض قصر طولمة باغجة، المكسو بالمرمر الأبيض، بخمول على طول البوسفور، تمتزج فيه، على نحو غير متوقّع، طرز معمارية من مختلف العصور والبلدان: أعمدة إغريقية وأقواس موريسكية وقوطية أو رومانية القديمة. وتُزيّن الواجهات نقوش تمثل باقات زهر وأكاليل ونجميات ورصائع ذات زخارف مذهّبة متقنة. أمّا الحريصون على صفاء الطراز المعماري، فيرون في هذا الخليط غير المتجانس تجسيداً للبشاعة. غير أنّ ما يتّسم به من غلوّ وغنى، وما يتصف به من أناقة غريبة وجهل بريء بقواعد الهندسة المعمارية، يضفي عليه طابعاً جذّاباً، تماماً مثل طفل أراد أن يتجمّل، فاستعمل كلّ ما عثر عليه من ألوان الزينة في خزانة أمّه، غير عابئ بالتباين والتنافر بينها. وهذا أمر لا يفهمه إلا الشعراء، والشعب التركي شاعر.

لمّا دخلت سلمى إلى القصر، وقفت مشدوهة أمام وفرة الذهب والكريسطال. سبق لها أن زارت القصر مراراً، لكنّها أوّل مرّة تصاب بالذهول أمام هذه العظمة. فالشمعدانات والثريات تضجّ بأوراقها المتلألئة، والسلّم مصنوع من الزجاج الفرنسي، وكذلك الأمر بالنسبة للمدافئ الضخمة التي تعكس أغطيتها المقدودة من الماس أنواراً قزحية تتغيّر ألوانها حسب ساعات النهار.

تحبّ الصبية هذه الأبّهة. فهي تطمئنها بأنّ قوة الإمبراطورية لا تقهر، وثروتها لا تنفد، وأنّ العالم جميل ومفعم بالسعادة. هناك طبعاً هذه الحرب التي يتحدّث عنها أصدقاء أبيها، وهناك أولئك الرجال والنساء ذوو النظرات المشوّشة الذين يحتشدون أمام باب قصرها كلّ يوم من أجل كسرة خبز، لكنّهم يبدون لها كما لو جاءوا من كوكب آخر، مثلما أن الحرب لا تعدو أن تكون بالنسبة إليها لفظة تتداولها ألسنة الكبار الثرثارة.

بعد أن استقبلهما مجموعة من الخصيان، أحاط بهما سرب من الفتيات الفاتنات ـ فالبشاعة لا مكان لها في القصر ـ لكي تساعدنهما على

التخلّص من حجابيهما، بينما سارعت قهوجي قلفة[١] التي ترتدي سروالاً واسعاً وقميص الشركسيات القصير، بأن قدّمت لهما القهوة المنكهة بالهال حتّى تتخلّصا من عناء الرحلة.

ولمّا كان الحرملك[٢] السلطاني مصوناً من كلّ المؤثرات الخارجية، فقد حرص شديد الحرص على عاداته القديمة. فكانت القلفاوات المسنّات يراقبن بلا هوادة تربية الشابّات، ويحرصن على ارتداء اللباس التقليدي. وإذا ما نُظر بنوع من الفضول إلى لباس الأميرتين المجلوب من فرنسا، فليس ثمّة من تحدوها الرغبة في تقليدهما. أوَليس القصر أسمى من كلّ موضة؟

ولاحت ناظرة التشريفات بمظهرها المهيب، ومعطفها المطرّز بالذهب الدال على سموّ مقامها. جاءت لترافق الأميرتين إلى السلطانة الوالدة. ذلك أنّ كلّ زيارة للقصر ينبغي أن تبدأ من هذه المرأة العجوز التي تمثّل الشخصية الثانية في الإمبراطورية بعد ابنها.

جلست السلطانة في صالون مفروش بالديباج البنفسجي الفاتح، ومؤثّث بكراسي ثقيلة من الطراز الفكتوري. ويزعم أنّ السلطانة كانت فائقة الجمال، لكن مع تقدمها في السن، وحياة الحريم الخاملة، صارت ضخمة الجثة. ولم يعد يشهد على أصلها الشركسي سوى عينيها الزرقاوين الرائعتين.

سلّمت سلمى وأمّها على المرأة التي كانت أمَةً ذات يوم. بيعت للقصر وهي طفلة على غرار معظم نساء الحريم. تخلّى عنها والداها

---

(١) القلفة المكلّفة بإعداد القهوة.

(٢) الحريم هو الجزء من البيت المخصص للنساء. قد يضم زوجات عديدات ومحظيات، كما هو الحال بالنسبة للحريم الملكي. وقد لا يضم غير زوجة واحدة وخادماتها، كما كان شائعاً في تركيا في القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين. وللتمييز بينهما، سنستعمل بالنسبة للحالة الأخيرة اللفظة التركية: الحرملك.

عساها تجد سبيلاً للترقي الاجتماعي. فقد ذاع منذ القديم صيت التربية الرفيعة التي تتلقّاها فتيات القصر، وألهبت خيال الناس قصص بعض من علت مراتبهم من الرجال فتقلدوا وظيفة «الصدر الأعظم» أو النساء اللواتي اتخذهنّ السلاطين أزواجاً، بحيث لم تعد ثمّة حاجة لنزع الأطفال من الأسر المحزونة كما كان الأمر في بداية الإمبراطورية، بل صارت تلك الأسر هي من تتوسّل عسى أن يُقبل منها أطفالها.

لم تر السلطانة الوالدة أهلها ثانية قطّ. وتتساءل سلمى عمّا إذا كانت أسفت أحياناً على فراقهم. الواقع أنّها لم تكن تملك الوقت لذلك. فمنذ حلولها بالقصر، تكفلّت بها كبيرة القلفاوات، فتعلمت على غرار رفيقاتها الشعر والعزف على القيثارة والغناء والرقص، ولاسيما آداب السلوك، حتّى إذا ما قدّروا أنّها صارت فتاة كاملة الأوصاف، ألحقوها بخدمة السلطان.

يروق للمرأة العجوز أن تذكر اليوم الذي وقعت فيه عين السلطان عليها فحظيت بإعجابه، وصارت أثيرته. حصلت على غرفة بمفردها وعلى فساتين من الديباج. ومن حسن حظّها أنّ السلطان لم يضجر منها، وكان كثيراً ما يطلبها، فنالت لقب إقبال أو المحظية. انتقلت إذن إلى غرفة أوسع، ووُضعت رهن إشارتها ثلاث قلفاوات يقمن على خدمتها. وسرعان ما آن أوان إنجاب الولد.

كثيراً ما سمعت سلمى عجائز السرايا يحكين كيف أنّ الشركسية الفاتنة لـمّا أنجبت ابنها رشاد، ترقّت إلى مرتبة القادين الثالثة. لم يكن الجمال كافياً للانفصال عن كتلة المحظيات، وبلوغ هذه المرتبة التي تثير الغيرة، بل تطلّب الأمر ذكاء وتصميماً، إذ كلما ترقّت المرأة في مراتب الحريم، اشتدّت المنافسة، وزادت المخاطر. يصير الصراع عند القمة بلا رحمة، لأنّ كل أبناء القادينات في الواقع أمراء، ومن ثمّة فهم جميعاً سلاطين بالقوّة. كانت الأعراف تقتضي بأن يعتلي العرش أكبرهم سنّاً،

لكن على امتداد القرون الستة التي مضت على الحكم العثماني، اختفى كثير من أولياء العهد إما بسبب حوادث أو أمراض غريبة حلّت بهم.

لم تفوّض القادين أمر رعاية ابنها لأحد قطّ. كانت تعلم جيّداً حالات مرضعات وخصيان تلقوا رشاوى من نساء منافسات لكي يغتالوا وارث العرش. وأقسمت أن يصير ابنها سلطاناً، وتصير هي السلطانة الوالدة. ونذرت حياتها لتحقيق هذا الهدف. كان عليها أن تنتظر بلوغ سنّ الثامنة والسبعين لكي يتحقّق حلمها هذا.

أمّا الآن فخبا طموحها بعد ستين سنة من الدبلوماسية والمؤامرات. لم تعد سوى عجوز متعبة.

داعبت السلطانة الوالدة وجنة سلمى بيدها الناصعة البياض دلالة على عطفها البالغ، وأثنت على جمال خديجة وأناقتها، ثمّ أغلقت عينيها بعد أن سحبت نفساً عميقاً من نرجيلتها الذهبية، وانتهت المقابلة.

وحان وقت زيارة القادينات. كانت كلّ منهنّ تستقبل زوارها في جناحها. وكان كلّ جناح من تلك الأجنحة عبارة عن قصر داخل القصر، يحفل بحشد من الخصيان والكاتبات والأمينات والقلفاوات من مختلف الأعمار، وقد كانت التشريفات تقتضي أن يتمّ اللقاء عندهنّ قبل كل حفل.

كان على سلمى هذه السنة أن تجتاز اختبار التشريفات لأوّل مرّة. قررت الأميرة الصغيرة وقلبها يخفق بشدّة أمام الأعين القاسية التي تتفحّصها، أن تطوف على الحاضرات المعظّمات. وهكذا مضت تزن بعناية ما ينبغي أن تقدّمه من متمنّيات لكلّ واحدة منهنّ بحسب مقامها. وهو مقام يُقدّر وفق معادلة معقّدة تقوم على المولد والمرتبة والسن، ما يقتضي من الصبية إحاطة كاملة ودقيقة بالبلاط وأعرافه.

ولما لاحظت سلمى الوجوه باسمة من حولها، تنفّست الصعداء. فقد اجتازت هذا الاختبار بنجاح.

وتعالت فجأة ضجّة كبيرة: عاد السلطان من صلاة السلاملك، وحفل تقبيل اليد على وشك أن يبدأ.

عندئذ توقّفت النساء عن النمائم والتهام الحلوى، وأسرعن، كلّ حسب مقامها، إلى البهو الدائري المشرف على قاعة العرش. من هناك سيتابعن، متواريات خلف المشربيات، مشهداً من أعظم مشاهد احتفالات السنة وأبهجها. أمّا سلمى التي علقت بين سيدتين بدينتين فصمّمت على ألا تترك هذا المكان الذي تراقب منه وقائع الحفل مهما كلّفها الثمن، على الرغم من أنّها لا تكاد تستطيع التنفس.

أبصرت من علوّ ثلاثين متراً غابة من الطرابيش القرمزية والسترات السوداء والرمادية، تزيّنها ألوان الزيّ العسكري. وعلى الرغم من أن قاعة العرش ـ التي يُزعم أنّها الكبرى في أوروبا ـ تضيئها آلاف المصابيح، احتاجت لمدّة طويلة لكي تتمكّن من التعرّف على بعض الوجوه.

جلس السلطان في أقصى القاعة بجلال على عرشه الذهبي الضخم المرصّع بالأحجار الكريمة، واصطفّ على يمينه الأمراء باللباس الرسمي الفخم، مرتّبين حسب مقامات سنّهم.

وقفت سلمى على أطراف أصابع قدميها لعلّها ترى ابن عمّها المفضل واصيب الذي يكبرها بعامين، لكن المسافة كانت من البعد بحيث لم تتمكّن من تمييزه مثلما لم تتمكّن من تمييز والدها الذي كان من المفروض أن يوجد على يسار السلطان بين الدامادات والوزراء المثقلين بالنياشين. وقبالة السلطان وقف المارشالات والجنرالات والضباط السامون بزيّهم الفخم. أمّا أعضاء الهيئات الدبلوماسية فوقفوا في أروقة مرتفعة كغربان متوثّبة وقد ارتدوا أبهى الحلل.

تقدّمت هذه الشخصيات السامية من العرش بالتناوب، فكانوا يخرّون سجّداً على الأرض ثلاث مرات. وهم لا يقبّلون يد السلطان التي لا يحقّ لأحد أن يلمسها، بل يقبّلون رمز السلطة، وهو عبارة عن قطعة ثوب مخمل أحمر، مزين بالذهب، يحملها رئيس المراسم.

ثمّ تقدّم الموظّفون السامون الذين يمثّلون مختلف الوزارات وقد ارتدوا سترات سوداء. ويأتي الدور أخيراً على الوجهاء الذين حضروا الحفل مكافأة لهم على ولائهم المتميّز، وقد بدت عليهم علامات الانبهار بهذه الأبّهة. ولمّا كان هؤلاء جميعاً قد تأثّروا بالغ التأثر بالتشريف الذي حظوا به، وكذا بالخوف من رعاية قواعد التشريفات المقدّسة، فإنهم راحوا يقبّلون الثوب المخملي بورع، ثم يتراجعون من دون أن يولوا ظهورهم للسلطان، وقد يعثرون أحياناً، فيثير ذلك ضحك الناظرين.

وخيّم الصمت فجأة، وحبس جميع الحاضرين أنفاسهم، إذ تقدّم في تلك الأثناء شيخ الإسلام، وهو أعلى سلطة دينية في الإمبراطورية، وقد ارتدى جبّة بيضاء واعتمّ بعمامة من البروكار، فقام السلطان لاستقباله تكريماً له. كان يتبعه كبار العلماء بأردية خضراء أو بنفسجية أو بنية، يسير في إثرهم ممثّلو مختلف الملل والعقائد في الإمبراطورية مثل بطريرك الروم الأرثوذكسي ورئيس أساقفة الأرمن، بلباسهما الأسود، وكبير أحبار اليهود الذي كان يحظى بمكانة متميّزة منذ أن نصبت الإمبراطورية نفسها حامية لهذه الطائفة المضطهدة في أوروبا.

خلال هذا الحفل الذي دام أكثر من ثلاث ساعات، كانت الفرقة الموسيقية الإمبراطورية التي ارتدى أعضاؤها بدلات بيضاء وصداريات حمراء مذهّبة، وهم يعزفون معزوفات عسكرية عثمانية وسمفونيات حماسية لبتهوفن. وقد كان يرأسها لانج باي الشهير، وهو رئيس جوقة فرنسي وقع في حبّ الشرق.

كانت ضحكات النساء تتعالى خلف المشربيات وهنّ يُشرن إلى قائد القوات الألمانية، الجنرال ليمان فون ساندرس، الذي بدا في تصلّبه وعجرفته أشبه بكاريكاتور ضابط بروسي. وكذلك الماركيز الوسيم بالافيتشيني، سفير النمسا ـ المجر، الذي كثيراً ما يصادف ممتطياً صهوة حصانه الكستنائي بالأستانة مساء. يقال إنّه يعلم كلّ شيء، ومع ذلك فهو

يتظاهر بالدهشة إذا أخبروه بشيء حتّى إن كان يعرفه، مجسّداً بذلك دور الدبلوماسي أحسن تجسيد.

الواقع أنّ الشخصيات الثلاث القويّة في البلد هي من استرعت انتباه النساء: الصدر الأعظم طلعت، القوي البنية كالثور، الذي تشهد يداه الضخمتان الحمراوان على أصوله المتواضعة. ثمّ جمال باشا، الرجل الضئيل الشاحب، وزير البحرية، الذي يخفي خلف دماثة أخلاقه صلابة قاسية. فقد قمع، حين بُعث إلى سوريا سنة ١٩١٥، الثورة التي قامت للمطالبة بالاستقلال بوحشية أكسبته لقب «سفاح دمشق».

لكن نجم الحفل بلا منازع هو أنور باشا، وزير الحربية ورئيس الثلاثي المعروف، الذي كان يخلب لبّ كلّ النساء. شجاعته لا حدود لها وكذلك غروره... يعتبر نفسه عبقرية عسكرية، لكنّ سمعة هذا الذي كانوا يلقبونه ساخرين «نابليون» بدأت تبهت في الأشهر الأولى من سنة ١٩١٨، إذ بدأ الجيش العثماني ينحدر على الجبهات كافة، وانطلقت الألسنة تنتقد انتكاساته.

همست إحدى النساء:

ـ الحفلات المكلّفة التي يقيمها في هذه الأيام العصيبة شيء مُخز.

فعلّقت أخرى:

ـ إنّ غطرسة ابن الموظف الصغير هذا بزواجه من أميرة تجاوزت كلّ الحدود.

ذلك أنّ بطل ثورة تركيا الفتاة تزوّج من الأميرة نادية، ابنة أخ السلطان رشاد. وقد كان شديد الزهو بزوجته، وهو ما لم يكن يخفيه، إذ استمرّ يقيم في عزّ الحرب سهرات مفرطة في البذخ. وعلى الرغم من أنّ الناس، حتّى في القصر، تقشّفوا استحياء، ظلت مائدته حافلة بما لذّ وطاب. لكنّ الأسرة كانت تسامحه على كلّ ذلك، بل كان يتطاول على السلطان العجوز، ويملي عليه أوامره، فيهينه ويهين أسرته بكاملها.

وتقول الأميرات بنبرة مشفقة متذمّرات من كون أنور باشا أجبره قبل بضعة أشهر على الذهاب إلى محطّة القطار لاستقبال كايزر غيوم الثاني:

ـ انظرن صاحب الجلالة كيف يبدو مريضاً. ألم الحصاة الكلويّة يمزّقه.

ما ساءهن في الواقع ليس ما يعتري السلطان من تعب، بل ما تجرعه من هوان على يد وزيره. إذ لم يسبق لسلطان من سلاطين آل عثمان أن تنقّل لاستقبال أحد مهما كان شأنه، حتى ولو كان ملكاً أو إمبراطوراً.

لكن ما لم يكنّ قادرات على نسيانه هو شنق الشاب الوسيم صالح باشا، زوج منيرة سلطان، إحدى بنات أخي السلطان الأثيرات. فقد اتّهمه بالتآمر على حزب تركيا الفتاة، وحكم بإعدامه. ارتمت السلطانة عند قدمي السلطان متضرّعة، فتوسّل لأنور لعلّه يعفو عنه، لكن عبثاً. واضطر السلطان رشاد ـ مفجوعاً ـ إلى التوقيع على حكم الإعدام. ويقال إنّه أعاد التوقيع ثلاث مرّات لأن الدموع كانت تحجب بصره.

وبينما كانت سلمى تصيخ السمع للتعليقات والانتقادات التي تلهج بها الألسنة، توقّفت الفرقة الموسيقية عن العزف فجأة. ذلك بأنّ السلطان قام واقفاً، معلناً عن نهاية الاحتفال، ثمّ غادر قاعة العرش ببطء يتبعه الأمراء بينما تعالت أصوات العلماء بتحيّته: «تواضع لله يا مولانا، ولا تنس أنّه أقوى منك».

وتسابقت النساء إلى الصالة الزرقاء الكبرى حيث سيستقبلهنّ السلطان، فاعترضتهنّ راعيات المراسم وأجلسن كلاً منهنّ في مكانها حسب سنّها ومقامها، بينما أخذت عازفات فرقة الحريم، وهنّ نحو ستّين عازفة، مكانهنّ في الردهة المجاورة. وما إن لاح السلطان تسبقه خزينة دار أسطى[1]، حتى شرعت الفرقة تعزف أنغاماً وُضعت بهذه المناسبة للترحيب بمقدمه.

---

(١) «... أي الخزينة دار الأولى و«الوكيلة»، وهي صاحبة أقوى سلطة في السراي بعد=

أنعمت سلمى النظر في هذا الرجل العجوز ذي الشعر الأبيض الذي توحي عيناه الزرقاوان وشفتاه السميكتان بالطيبة. وقد أجلس بجانبه والدته، ولاحت على وجهه ابتسامة هادئة.

عندئذ تقدّمت السلطانات وبناتهنّ اللواتي يطلق عليهن لقب خانم سلطان. وضجّت ذيول أثوابهن على سجادات الحرير. انحين ثلاث انحاءات على سبيل التحيّة، واصطففن على يمينه. ثمّ جاء دور القادينات والإقبالات اللواتي اصطففن على شماله، وحلّ أخيراً دور نساء القصر والقلفاوات القديمات، فسجدن إلى أن لامست جباههنّ الأرض ثم تراجعن بتذلّل إلى أقصى الصالة.

وما إن انتهت مراسم التحيّة حتى ظهر عبدان يحملان كيساً من المخمل مملوءاً بقطع ذهبية ضربت في تلك السنة. فأخذت خزينة دار أسطى تغرف من القطع ملء يديها وتنثرها على الفرقة الموسيقية وعلى القلفاوات الصغيرات اللواتي أخذن يلتقطنها وهنّ يشكرن بأعلى أصواتهن السلطان على سخائه.

ثمّ حان وقت المحادثة، فطلب جلالته من قريباته وزوجاته أن يجلسن، وراح يسأل عن صحتهنّ، ويقول لكل منهنّ كلمة طيبة. لكن المراسم كانت تمنع عليهنّ توجيه الكلام للسلطان، أو تجاوز حدود ما يتطلّبه السؤال، وبذلك سرعان نفد الكلام. وبينما جلست هؤلاء النسوة متصلّبات على أطراف كراسيهن، شرع السلطان في السعال سعالاً خفيفاً، فأخذت سلمى تسترق النظر إليه، فلاحظت مدهوشة بأنّه يبدو خجولاً. وبعد صمت ظنّت أنه لن ينتهي، بدأ يتحدّث عن حمامه الذي

=الأمراء والأميرات والزوجات والسراري، بمثابة «الصدر الأعظم النسائي» في الحريم الهاميوني...» ص ١٥٨، والدي السلطان عبد الحميد الثاني، مذكرات الأميرة عائشة عثمان أوغلي، ترجمة: د. صالح سعداوي صالح ود. أكمل الدين إحسان أوغلي ـ دار البشير، ط ١، ١٩٩١. (المترجم)

يستورده من أوروبا، معتقداً أن هذا الحديث ربّما أثار اهتمامهنّ، فأبدين الاهتمام بهذا الموضوع فعلاً. ثمّ تحدّث عن الورود الجميلة التي يقطفها بنفسه لمّا يخرج للنزهة في حديقة قصر أهلامور الصغير، موضّحاً أنّه لا ينبغي قطف أكثر من وردة واحدة من كلّ شجيرة، حفاظاً عليها من التلف. إنه رجل بالغ اللطف.

ويُحكى أنّ الشيء الوحيد الذي كان يغيظه هو أن يجلس سفير أجنبي بحضرته ويشبك ساقيه. فيقول ساخطاً: «هذا الكافر كاد يحشر قدميه في أنفي». لكنّه يكظم غيظه بقراءة سورة من القرآن. فهو رجل بالغ التقوى، ينتمي إلى جماعة صوفيّة، وإن كان لا يذكر ذلك أبداً.

وفي الأخير بعد أن تحدّث جلالته عن الحمام والورود، واقتنع بأنّه استنفد كلّ المواضيع التي تهمّ هذا الحضور الطيّب، قام وحيّا بلطف هؤلاء النسوة، وعاد إلى جناحه.

عندئذ تحلّلت الحاضرات من قيود التشريفات، واستسلمت الأميرات مبتهجات لمتعة اللقاء، فتبادلن التهاني على حسن زينتهن، وتحاكين والأسرار، إذ إنّ بعضهن لم يلتقين منذ عيد الأضحى، ولديهن أخبار كثيرة يتداولنها. وفي أحد الصالونات مضت أميرة صغيرة تعزف على البيانو بينما تحاول بنات عمومتها أداء رقصة المازوركا التي كانت شائعة آنذاك، وقد تعالت ضحكاتهنّ. وغير بعيد منهنّ استغرقت أخريات في لعبة الطاولة. أمّا صالون القادين الأولى، فتُقام فيه مسابقة في نظم الشعر في موضوع محدّد. فالشعر طالما حظي بمكانة رفيعة في البلاط العثماني، حتّى إنّ بعض كبار السلاطين على مرّ القرون قرضوه عن طبع.

ولعلّ الصالون الذي احتشدت فيه معظم الحاضرات هو ذاك الذي توجد فيه الحكواتية، وهي من أمهر حكواتيات المدينة، تُدعى لكل الحفلات والأعياد. اقتعدت سلمى الأرض وقد وضعت ذقنها بين راحتيها وراحت تتفرّسها: امرأة عجوز لعلّها جاوزت المائة عام، لكنّ تجاعيد وجهها سرعان ما بدأت تمّحي شيئاً فشيئاً، واستقام الكتفان، وشعّت

العينان بألق قاتم: لم تعد الحكواتية العجوز، بل صارت ليلى الحسناء التي يهيم بحبّها الشاب المجنون، بصوتها الدافئ، ونظراتها الساحرة وجمالها الفاتن الذي يحمل العشاق، جيلاً بعد جيل، على الحلم والبكاء.

ولمّا خيّم الظلام، وحان موعد النزول إلى الحدائق للاستمتاع بالألعاب النارية التي يتكرّم بها السلطان على شعبه، فُرشت المروج بالسجاد والوسائد، ومضت الخادمات يقدّمن العشاء بصمت على صحاف فضية مذهّبة، بينما تعزف الأركسترا قطعة موسيقية هادئة لموزار.

وتعالى صراخ فجأةً ذُعرت له الحاضرات، وإذا بأميرة صغيرة شاحبة تشير إلى دغل كوبية كان يتحرّك في الظلام ويتقدّم نحوها. وسرعان ما تبيّن أنهم أقزام القصر جاءوا لتقديم تهانيهم للنساء مستخفين تحت باقات ضخمة.

وإذا كانت النسوة قد اختلفن حول استلطاف هذه المزحة، فإنهنّ أجمعن بالمقابل على روعة شراب الورد ورقائق اللوز والعسل التي حضّرها حلوانيو القصر، التي لا يوجد لها مثيل في الشرق الأدنى بأسره.

ولمّا انطلقت تلك الشهب النارية، ورأى الناس كيف ارتسم في السماء الصليب والنجمة، وهما شعار تركيا الخالدة، قالوا: ما من عيد كان أعظم من هذا!

وبينما كانت العربة الخفيفة في طريق العودة إلى قصر أورتاكوي تسير بمحاذاة البوسفور تحت ضوء القمر، حاملة الأميرات، قالت سلمى في نفسها إنّها قضت يوماً رائقاً، وإنّ الحياة عذبة، فكيف للمرء أن يصدّق طيور الشؤم التي تتنبأ بسقوط إمبراطورية في مثل هذا الثراء والقوّة؟

٤

الجوّ حار في الأستانة. ذلك أنّ الريح المقبلة من البوسفور لم تعد قادرة على تلطيف هوائها في هذه الأيام الأولى من يوليو/ تموز. كان قد وفد على قصر طولمة باغجه في اليوم السابق رسول، وبعد انصرافه نادت خديجة سلطان على سلمى.

ـ اذهبي يوم غد مع خيري إلى ابنة عمك الأميرة سعدية لتلعبي معها. سيكون عندها أيضاً أحفاد جلالته، الأميرة مقبلة وأخوها الأمير ناموق.

تمالكت سلمى نفسها حتّى لا تترك التذمّر يظهر على وجهها. فهي لا تستلطف سعدية التي تظهر شعوراً متضخّماً برفعة مكانتها على الرغم من أن سنّها لم يتجاوز السادسة. وأبوها عبد المجيد يلهج في كلّ المجالس بأنّ ابنته هي الأجمل. وحين يلتقي أفراد العائلة، يصُفّ الأطفال جميعاً، ويعلّق بزهو بأنّها أطولهم أيضاً. وأنيدجيم تعرف كلّ هذا، فلماذا ترسلها إذن إلى هناك؟ لكن من حسن الحظ أن حديقة قصر الأمير الواقعة أعلى الضفة الآسيوية، مكان ممتاز للعب الغميضة. ومهما يكن، فلا يمكن أن يشعر المرء بالضجر مع مقبلة!

ولكن ماذا تفعل الآنسة روز؟ ذرعت سلمى الممرّ جيئة وذهاباً أمام باب غرفة مربّيتها. حيّرها هذا الوقت الطويل الذي تقضيه دائماً في العناية بأناقتها... مع أنّ النتيجة تكون متواضعة!

على الرغم من هذه العيوب، تحبّ الصبيّة مربيتها الفرنسية الشابة كثيراً، لا سيّما أنّ هذه المسكينة لا تملك عليها أيّ سلطة. فبما أنّها

تجهل عادات المجتمع التركي وأعراف القصر، كان يسهل على الصبية أن تؤثر عليها بكلامها المعسول، وتفعل بها ما تشاء.

حلّت الآنسة روز بالأستانة قبل بداية الحرب، في وقت كانت فيه العلاقات بين الإمبراطورية وفرنسا ما تزال طيّبة. كانت تنظر لتركيا وسكانها بانشداه متأثّرة بقراءتها لروايات بيير لوتي وكلود فارير، وتظنّ أنّها تفهمها. وقد استجابت لإعلان صغير عرضته راهبات نوتردام دو سيون حيث نشأت. وكان لهذه الطائفة دير مزدهر في الأستانة بحاجة إلى أستاذ يدرّس الفن. ولما كانت هي الراهبة الوحيدة التي تقدّمت، فقد انتُدبت على الفور.

كانت هذه الشابة الريفيّة ذات الثماني والعشرين ربيعاً تحتاج إلى شجاعة كبيرة لكي تتغرّب وتعيش بعيداً عن ذويها. ما كانت لتجازف باتّخاذ هذا القرار لولا أنّها كانت ضحيّة قصّة غرامية مثيرة. ذلك أنّ ضابطاً وسيماً من سلاح الفرسان كان مقيماً بمدينتها تودّد لها، ووعدها بالزواج، فاستسلمت له وتركته يقبّلها مراراً ويداعبها إلى أن بلغتها رسالة مجهولة بها صورة يظهر فيها الخائن وهو يطوّق بذراعه خصر امرأة شقراء جميلة هي زوجته، ومعها ولدان. بكت كثيراً، وأقسمت أن تمتثل لوصيّة أمها ولا تضع ثقتها في رجل أبداً. وما إن واتتها الفرصة حتّى تركت الأهل والوطن، وزهدت في الحياة كما لو أنّها ترهبنت.

لكن الآنسة روز كانت إنسانة مرهفة من الصعب أن تتخلى عن نزوعها الرومانسي هذا. فقد سقطت في حبّ فرنسي كان يعمل أستاذاً في ثانوية «غلطة سراي». وهو إن لم يكن متزوّجاً، فقد كان متقلب الهوى. وحين اكتشفت أنّه يتودّد لاثنتين من زميلاتها، مرضت.

وكانت «السلطانة الفراشة» فهيمة هي من أنقذتها. صادفتها في حفل استقبال بالسفارة الفرنسية، حفلة من تلك الحفلات الكبيرة التي تسبق موسم الاصطياف، وكانت الأميرة تبحث عن أستاذة فرنسية لابنة أختها. رأت الآنسة روز في هذا اللقاء فرصة غير متوقّعة لمخالطة هذا العالم الراقي الذي طالما طمحت إليه. وهكذا صارت مربية الأميرة الصغيرة.

حين حلّت الساعة الثالثة بدأ الإحباط يتسرّب إلى نفس سلمى. على أنها ما لبثت أن أبصرت مربيتها قادمة أخيراً وقد وضعت على رأسها قبعة واسعة بنفسجية اللون، تزيّنها عصافير يتناسب لونها مع ما وضعته على فستانها من مسابك ذهبية.

كان زينيل ينتظرهما على الجسر العائم من دون أن يظهر عليه الضجر، يرافقه خيري في كامل أناقته: ببزته البحرية، وشعره الأسود المفصول بخط مستقيم، تفوح منه رائحة زيت الشعر حتّى إن سلمى قالت في نفسها بضيق: «لعله سكب كلّ الزجاجة على رأسه! أيظنّ أنه سيثير بهذا انتباه سعدية؟»، وقد كان تعلّق أخيها بابنة عمّه أحد أسباب خصوماتهما العديدة.

ساعدهم المجدّفون على امتطاء القارب، وانطلقوا بهم نحو الضفّة الآسيوية حيث وجدوا عربة مكشوفة بانتظارهم، وهو ما أدخل البهجة على قلب سلمى، لأنّها حين تخرج مع السلطانة، يُحكم عليها بركوب عربات مغلقة. لعلّهم قدّروا أنّ مربّية مسيحيّة وطفلة ما تزال دون البلوغ ليسا بحاجة لعربة مغلقة، وأنهما يمكن أن تستمتعا بالشمس والهواء العليل على الطريق المكسو بالحصى المفضي إلى إقامة الأمير الصيفيّة.

كانت الأميرة سعيدة بانتظارهما وقد ارتدت فستاناً بالدانتيل الوردي، وسرّحت شعرها الأشقر على الطريقة الإنجليزية. وبينما كانت تنزل السلم على مهل لاستقبال ضيفيها، إذا بطفلة صغيرة بدينة ذات عينين حادّتين تدفعها بقوّة فجأة وتنطلق جارية نحو سلمى. إنّها مقبلة وقد سرّت برؤية ابنة عمّها التي تعتبرها أختاً في الشقاوة والشيطنة. وكان أخوها الأصغر ناموق يتبعها.

تحدّثوا لحظة وقرّروا أن يلعبوا لعبة فتح بيزنطة(١).

---

(١) فتحت بيزنطة على يد السلطان محمد الفاتح سنة ١٤٥٣، وهو من سماها الأستانة.

سيمثل ناموق، وهو الأصغر، دور الأسير. لكن من سيؤدي دور السلطان الفاتح؟

اتفقوا على إجراء قرعة، فكان الحظ من نصيب سلمى، فاعترضت سعدية قائلة:

ـ هذا مستحيل، لا يمكن أن تلعبي دور السلطان، فأنت لست سلطانة!

فانتفضت سلمى:

ـ ماذا تقصدين؟ أنا سلطانة مثلك تماماً!

فردّت ابنة عمّها بنبرة متعالمة:

ـ كلا! أبي يقول إن أباك ليس أميراً، وبذلك فأنت لست سوى خانم سلطان.

ودّت سلمى لو تنقض على سعدية فتخنقها، لكنّها تسمّرت في مكانها عاجزة عن الردّ.

فهذه السليطة على حقّ، إذ إنّ أباها ليس سوى داماد. جميع من في قصر أرتاكوي ينادونها بالسلطانة الصغيرة، لكنّها تنبهت، على الرغم من أنّ أحداً لم يلمح إلى ذلك قط، أن البروتوكول يقضي خلال الاحتفالات بطولمة باغجه أن تسبقها أميرات يصغرنها سنّاً. كانت تشعر من دون أن تفهم بمظاهر ميز صغيرة، لكنّها أدركت اليوم فجأة، بسبب هذه الشتيمة، بأنّ منزلتها أدنى من منزلة كثير من الأميرات. أظلمت الدنيا في عينيها، وبدا لها المستقبل بغتة قاتماً على نحو رهيب: هي مجرّد خانم سلطان... ومهما تفعل، فستظلّ مكانتها دون الأخريات. وأحست كما لو أنّهم قصّوا جناحها...

فكرت في السلطانة أمّها التي يلقبونها «جهانجير» أي «قاهرة العالم» لجلال قدرها، فانتفضت فجأة بسبب ما شعرت به من ضيم: أليست

أمّها أسمى مكانة من معظم أمراء الأسرة الملكية؟ كيف يتعذّر عليها نقل نبل دمها لمجرّد أنّها امرأة؟ وبدت هذه الفكرة لسلمى عبثية وجائرة.

رفعت رأسها وحدّقت في سعدية بكل ما أوتيت من كبرياء، وراحت تبحث عن كلمة مفحمة، لكنّها لم تعثر عمّا يشفي غليلها، فالتفتت نحو خيري وقد استبدّت بها الحيرة، لكنّه كان قد اختفى. أبصرته أخيراً في الطرف الآخر من الممشى مستغرقا في تأمل دغل ورود. وقالت في نفسها: «يا له من جبان!» لم تستغرب موقفه. فهو لا يكاد يراها تتورّط في صراع حتى يسارع إلى الاختفاء. لكن ما أدهشها حقّاً هو أنّها عوض أن تستشيط غضباً، لم تشعر إلا بالإحباط.

أمّا مقبلة التي بقيت بجوار سلمى، فلاذت بالصمت ولم تعد تعرف ما تقول. ما من مرّة وجدت نفسها في مثل هذا الموقف الحرج. وفي الأخير جازفت بالقول:

ـ ما رأيكم في أن نلعب الغميضة؟

وقبل الجميع هذا الاقتراح.

قضين أمسية نشيطة مليئة بالحركة. كانت سلمى ومقبلة ترتديان لباساً قطنياً خفيفاً، فراحتا تبحثان عن مخابئ غير معتادة، يصعب الوصول إليها. تتسلّقان الأشجار، وتختبئان في الحفر الموحلة حيث لا تستطيع بنت عمّهما الوصول إليهما خوفاً على ملابسها الأنيقة، فيغيظها ذلك، وتردّد: «لا يحقّ لكما أن تفعلا هذا! الأميرات لا يتصرّفن بهذا النحو»، فكانتا تضحكان منها إلى أن تغرورق عيونهما بالدموع. ومضت أصداء ضحكاتهن المرحة تسمع من بعيد.

كان الوقت متأخراً لمّا لاح الأمير عمر حلمي، أبو ناموق ومقبلة، في أقصى الحديقة وقد ارتدى زيّه الرسمي الفخم.

فتساءلت مقبلة:

ـ لماذا يلبس أبي هكذا مع أنّ اليوم ليس يوم عيد؟

حدجتها سعدية بازدراء وقالت:

ـ كيف؟ ألا تعلمين؟ جدّك السلطان رشاد مات، وأبي صار وليّ العهد!

جفلت مقبلة المرحة كما لو أنّ سوطاً لسعها، وراحت تحدّق في ابنة عمّها غير مصدّقة ما سمعت، وبدأت الدموع تنهمر على خديها، فالتفتت سلمى إلى سعدية غاضبة وقالت لها:

ـ اغربي، يا لك من طاعون!

هزّت سعدية كتفيها على نحو هازئ ثمّ أدارت لهما ظهرها.

دُفن السلطان رشاد الوديع بمسجد أيوب الصغير بعيداً عن المزارات الباذخة التي يرقد فيها أسلافه. وقد اختار هذا المكان الهادئ الظليل لأنه كان يرغب في «الاستمرار في سماع زقزقة الطيور وضحكات الأطفال».

بعد أيّام سيتوج السلطان وحيد الدين، آخر الأخوة الأربعة الذين توالوا على العرش خلال اثنتين وأربعين سنة. وقد حرص أنور باشا، رئيس حزب تركيا الفتاة الذي كان بيده الحلّ والعقد، على أن يكون حفل التتويج باذخاً، والاستعراض العسكري استثنائياً، حتّى يُفزع الشعب المرهق بالحرب التي طالت.

لكن ما أفزع الشعب حقّاً هي القنابل التي اختار الطيران الحربي البريطاني إلقاءها على العاصمة في ذلك اليوم. أهو تحذير للسلطان الجديد؟ لم تكن لهذا السلطان أوهام حول سلطته الفعلية. فقد بدا متجهّماً طيلة الحفل، ولمّا وفدت العائلة في اليوم الموالي على القصر لتهنئته، استقبلها بكلمات مريرة:

ـ علام تهنئونني؟ على عرش مكسوّ بالشوك!

لم تُثر هذه الكلمات استغراب أحد، ذلك أنّ وحيد الدين كان معروفاً بتشاؤمه، حتّى إنّ الأطفال لقّبوه بـ«البومة»، لأنه كان يبدو دوماً كما لو أنّه يهمّ بإعلان خبر سيئ. كان يبالغ كعادته: صحيح أنّ الجيش

يعاني من صعوبات، إلا أنّه ظرف عابر سبق للإمبراطورية أن اجتازت مثله. ثمّ إنّ الحليف الألماني من القوّة بحيث...

والحقّ أنّ الجيش كان في مأزق. ففضلاً عن مئات الآلاف من الفارين من صفوفه الذين لا يمكن أن يتظاهر المرء بتجاهلهم، كان آلاف الجرحى يملؤون المشافي وعدداً من المباني الحكومية التي صودرت لإيوائهم.

وكانت السلطانة خديجة تزور كلّ أسبوع مشفى حسكي الواقع في وسط المدينة لتواسي الجنود طريحي الفراش وتقدّم لهم بعض الهدايا البسيطة. وحتّى ذلك الحين لم تكن قد أخذت معها سلمى خوفاً من أن تتأثر بهذه المشاهد. لكن بنتها اليوم قد أكملت سبع سنوات ونصف السنة، وصارت قادرة على فهم كثير من الأمور. ومن ناحية أخرى، فالسلطانة من أتباع الرواقية. فهي قد عاشت منذ نعومة أظافرها تجارب قاسية، واستطاعت تجاوزها، لذلك فهي ترى أنّ التجربة لا يضاهيها شيء في بناء شخصية الإنسان. وقد عاينت الأثر المدمّر للتربية الناعمة على كثيرات من حسناوات المجتمع الراقي بالأستانة، فاقتنعت بألا تربي سلمى تلك التربية.

لمّا أخبرت زوجها بما عزمت عليه، استشاط غضباً على الرغم من أنه لم يكن يكترث بمثل هذه الأمور:

ـ ستصدمين مشاعر هذه الصبية. أمامها الوقت في المستقبل لترى مظاهر الشقاء، وربّما لتعيشها. دعيها تحيا في هناء.

لكن السلطانة كانت تعتبر أنّ تربية ابنتها شأن يعنيها هي وحدها مثلما هي كلّ شؤون البيت... وهي إن تركت زوجها يتكفّل بتربية ابنهما خيري ـ لأن الأولاد في بلاد الإسلام يتكفّل الرجال بتربيتهم بعد بلوغ السابعة من العمر ـ فهي تشك في أن تكون تلك التربية ناجحة. ذلك أنّ جبن ابنها البكر يجرح كبرياءها. فقد حاولت مراراً أن تستفزّ خموله، وتحرّك

كبرياءه، لكنّها انتهت إلى أن صرفت نظرها عن ذلك بعدما لاحظت أنّ محاولاتها تدفعه إلى الإمعان في الانطواء على نفسه أكثر فأكثر.

أيصحّ أن يكون ابنها يخافها؟ لامت نفسها على صرامتها، فجرّبت اللطافة واقتنعت بأنّ ما كانت تعتبره ضعفاً في الشخصية هو في الواقع رهافة مفرطة: فخيري فنّان! والشيء الوحيد الذي يثير اهتمامه ـ بصرف النظر عن نفسه ـ هو الكمان. فانتدبت له أفضل معلم في المدينة، وهو نمساوي من فيينا. لكنّها اضطرت في الأخير إلى أن تنظر إلى الأمور بواقعية: خيري عازف جيّد، لكن ينقصه ذلك الشغف الذي يصنع كبار العازفين.

ومن حسن حظّها أنّ الأمر يختلف مع سلمى. فقد لمست فيها الجرأة والشجاعة منذ نعومة أظافرها... أمّا خيري فما أشبهه بأبيه. وقد انتهى بها الأمر أن قطعت رجاءها منهما معاً.

ومع ذلك فالله يعلم أنّها أحبت خيري رؤوف بك الوسيم بشغف فتاة ما تزال في الثامنة عشرة، وبرصانة امرأة في الثامنة والثلاثين، وهو عمرها لمّا لقيته حينئذ. لعلها كلفته ما يفوق طاقته. فقد ألقت على خيري بأحلام مراهقة قاست من الوحدة، وجراح امرأة امتهنها زوج كانت تكرهه، الزوج الأول.

لكن سرعان ما بدأ يساورها الشكّ في كلّ ما تفعل، كما لو أنّها بعد أن أضفت عليه كلّ المواهب، لم تعد تعترف له بأيّ منها. كانت تقول في نفسها أحياناً إنّها جائرة في حقّه، فتجاهد من أجل التقرب منه. لكنّه كان يواجه محاولاتها بصمت محيّر أقرب إلى السخرية.

لم تعد تطلب منه اليوم شيئاً. فمنذ ميلاد سلمى، انقطعت علاقتهما الحميمية، ومع ذلك فهي لا تظنّ أنّه يخونها. وعوض أن يشعرها ذلك بالرضى، راحت تحتقره، مفسّرة وفاءه بخموله وتراخيه. فكأنّما علاقتهما لها طعم كأس ماء فاتر، لكنّ خديجة تجاوزت زمن الأشواق. لمّا تنظر إلى زوجها، تستغرب ببساطة كيف أحبّته.

وذات صباح من صباحات يوليو/ تموز القائظة، توجّهت هي وابنتها إذن إلى المشفى. كانت سلمى قد قضت اليوم السابق في إعداد علب صغيرة للجرحى. وهيأت إحدى القلفاوات مناديل شاش وردية، وضعت في كلّ منها علبة تبغ وحلوى وقطعاً نقدية، ثمّ حزمتها بشرائط من الساتان الأزرق، وملأت منها سلالاً كبيرة مزيّنة بقماش ملوّن يفتح النفس. ولم تتمالك سلمى نفسها من الابتهاج بهذه الرحلة غير المألوفة.

كنّ بحاجة إلى سيّارتين. ركبت في إحداهما السلطانة وابنتها، بينما ركبت الثانية الخادماتُ المكلّفات بحمل الهدايا. كان الوصول إلى المشفى يقتضي اجتياز جسر غلطة على القرن الذهبي، ثمّ المرور على أحياء الأستانة القديمة.

اضطرّت العربة لتخفيف سرعتها بالقرب من الجسر نظراً لازدحام المارّة. ذلك أنّ غلطة الواقعة قرب المرفأ حيّ تجاريّ يعدّ من أنشط أحياء العاصمة. ففيه توجد المصارف وشركات الملاحة والشركات التجارية الكبرى، لا سيما الصيارفة ودكاكين مختلف السلع. وهناك عند تحاذي المدينة الإفرنجية، حيث يعيش النصارى، والمدينة الإسلامية القديمة، تلتقي كلّ الأجناس التي تعيش في كنف الإمبراطورية.

هناك يسير الكهنة الأرثذوكس في مسوحهم السوداء جنباً إلى جنب مع اليهود بشعورهم الطويلة، وقفاطينهم المطرّزة؛ ويمشي الأتراك الشيوخ بسراويلهم الفضفاضة وعمائمهم إلى جوار شباب في معاطف أوروبية أنيقة، وقد وضعوا على رؤوسهم طرابيش حمراء مزينة بشرابة سوداء. ولم تعد سلمى تدري إلى أين توجه بصرها من خلف نوافذ العربة. على حافّة الجسر جلس ألبانيّ عجوز بلباسه الأزرق الغامق يفتل شاربيه بينما تمرّ أمامه حسناوات أرمينيات شديدات البياض. هناك أيضاً جماعات من البلغار يعرفون من ضخامة أجسادهم وقبّعات الفرو الصغيرة الموضوعة على رؤوسهم، يتجوّلون، بينما جازفت بعض المسلمات بشراشفهنّ الملوّنة بالقدوم إلى هناك لشراء بعض الحاجات. كان المكان

مكتظّاً بحشد غير متجانس، يتحرّك بهمّة غير مكترث بما بين أفراده من اختلافات.

أمّا عبور الجسر فاتّخذ طابعاً ملحمياً. ذلك أنّ الحوذي مضى يرفع صوته بالصياح محاولاً أن يشقّ طريقه بين كتلة العربات المتفاوتة الأحجام في فوضى مرحة، لكن عبثاً. فالعربات الأنيقة المكشوفة، والعربات الفخمة المغلقة علقت وسط خليط من العربات اليدوية وعربات الأجرة والعربات التي تجرّها الثيران، هذا فضلاً عن الحمّالين الذين يتقدّمون في الزحمة وقد انثت قاماتهم تحت أثقال ضخمة، تندّ عنهم «آهات» مسموعة. أمّا السقاؤون الذين يقرعون الأكواب بعضها ببعض، وباعة المثلّجات والمشروبات الذين يرتدون لباساً خاصاً محشواً بزجاجات ذات ألوان تفتح النفس، فيغتنمون هذا التوقف القسري لكي يقدموا مرطبات للركاب الذين أخذ منهم العطش مأخذه. وتشعر سلمى المبتهجة التي لا تريد أن يفوتها شيء، برغبة ماحّة في شراب بطيخ إزمير، لكن أمّها رفضت متجهّمة، بدعوى الاحتياط من الأمراض والتدرّب على ضبط النفس. عليها أن تكتفي بالنظر، وقالت في نفسها إنّ الانتماء إلى العالم الراقي ليس كلّه مزيّة.

وبلغوا أخيراً الأستانة القديمة[1]. يُخيَّل للمرء كما لو أنّه حلّ بمدينة أخرى، بل ببلد آخر. فبعد هرج غلطة ومرجها، راقهم هدوء الأزقة الضيّقة، التي تحفّ بها منازل خشبيّة جميلة، مغلقة النوافذ، تحيط بها أسوار مرتفعة تعلوها أشجار السرو. وحيثما جال الناظر بعينيه يرى الأقواس الحجرية والسلاليم الحلزونية التي تفضي إلى ساحات صغيرة ظليلة. وهناك قرب أحد المساجد مدّ قهوجي قماشاً شدّه بحبال جلس تحته رجال يرتشفون قهوتهم بصمت وهم يدخّنون النرجيلة، مستغرقين في جولات لا تنتهي من لعبة الطاولة.

---

(١) هكذا كان يسمى الحي القديم بالأستانة.

وأبعد قليلاً يوجد سوق صغير ينتصب فيه بين أكوام الخضار والفواكه العالية تجّار سمان يبيعون سلعهم لربّات بيوت يخفين وجوههن بنقاب أسود. وتحت شجرة جلس كاتب عمومي وقد وضع أمامه أقلامه ومطاويه ومحبراته يكتب وثائق للناس بوقار بينما قرفصت قربه عجائز منهمكات في قراءة المستقبل برمي عظام صغيرة على قطعة سجاد قديمة. وهناك أيضاً الشحّاذون، لكنّهم لا يجهرون أبداً بطلب الصدقات، قانعين بما يلقي إليهم المارّة من قطع نقدية بين الفينة والأخرى عن طيب خاطر، ومؤمنين بأنّ الله ما فضل بعض الناس على بعض، كما جاء في القرآن، إلا لكي يجعل للفقراء نصيباً في أموال الأغنياء.

وحين توقّفت العربتان أخيراً في باحة المشفى بعد ساعتين على انطلاقهما، ترجّلت سلمى من دون أن تنظر زينيل ليفتح الباب. كانت متلهّفة لرؤية «المقاتلين المغاوير» كما يسميهم ابن خالها فؤاد.

والمشفى عبارة عن بناية ضخمة رمادية اللون، شيّدها السلطان سليمان القانوني في القرن السادس عشر. ودخلت السلطانة وابنتها متبوعتين بخادماتهما إلى البهو حيث كان مدير المشفى ينتظرهما. انحنى ما وسعه الانحناء أمام السلطانة، وألحّ على أن تدخل الأميرتان إلى مكتبه لشرب الشاي قبل الزيارة، لكنّ السلطانة رفضت، وهو ما سرّ سلمى. وتقبّل هذا الرجل الضئيل الذي أشاع في كلّ مكان بأنه على علاقة ممتازة بالأسرة الملكية، هذا الرفض بطيب خاطر، واعتبر أنّ من واجبه مرافقة الأميرتين إلى الغرف.

وما إن دخلوا إلى الممرّ الأول حتّى فغمت أنف الصبيّة رائحة لاذعة أصابتها بالتقزّز، فكزّت على أسنانها وقالت في نفسها ليس هذا وقت يمرض فيه المرء! لكن، بينما كانوا يتقدّمون، أخذت الرائحة تصير أبغض فأبغض، وقالت في نفسها: «يا لغرابة هذه الأدوية!»، ولم تفهم الأمر إلا عندما بلغت الممرّ الثاني، فتملّكها الرعب. كانت ثمة أوعية مليئة بضمادات ملطخة بالدم والغائط، متناثرة في كلّ مكان. وعلى

الأسِرّة أو على أغطية مفروشة على الأرض أحياناً، استلقى رجال يئنّون، بعضهم ينادي أمّه، وبعضهم يتنفّس بصعوبة وقد قلبوا رؤوسهم وأغلقوا عيونهم. كان عددهم في هذا الممرّ الخانق يناهز المائة، وإلى جانب بعض المحظوظين منهم امرأة ـ لعلّها أخت أو زوجة ـ تسند رأساً أو تقدّم شربة ماء أو تنشّ ذباباً جذبه الدم.

قال المدير موضّحاً:

ـ يمكثن هنا ليل نهار. نسمح لهنّ بالبقاء لأنّنا لا نتوفر على عدد كافٍ من الممرضات يعتنون بهؤلاء المساكين.

لم يكن في ذلك الممرّ بكامله غير ممرّضة واحدة، وهي شابة ترتدي وزرة بيضاء طويلة، وتشدّ شعرها بوشاح نظيف. وبين الحقن وتفحّص حرارة الجرحى، وتوزيع بعض الأدوية المتبقّية، لم تكن تجد وقتاً للراحة. لكن على الرغم من كلّ ذلك لم تفارق البسمة محيّاها، وتجد كلمة مواساة لكلّ مريض. أمّا سلمى فلم تعد لها سوى رغبة واحدة: أن تغادر هذا المكان. فقد شعرت فجأة بالخزي، لكنّها لا تملك إلا أن تصمد.

بعد أن اجتازتا بضعة أمتار بدت لهما بلا نهاية، دخلتا إلى قاعة ضخمة. وهناك صارت الرؤية أوضح: تتخلّل نوافذُ عاليةٌ الجدرانَ المطليّة بالأزرق درءاً للعين. كان الجرحى، ومعظمهم شباب، يئنّون وهم مضطجعون على أفرشة بلا غطاء ـ لأنّ الأغطية مُزّقت منذ فترة طويلة واستُعملت بديلاً للضمادات ـ موضوعة على أسِرّة حديدية اصطفّت في صفوف طويلة. وبين الفينة والأخرى يتعالى صراخ أحدهم، لكن لا أحد يأبه به. فكلّ واحد منهم منطوٍ على نفسه، يحاول أن يستجمع قواه لمواصلة تلك المعركة اليائسة مع الموت.

ثمّ إنّ معظم الجرحى يتقاسمون الأسرّة الضيّقة، وهم محظوظون بذلك، لأنّ المحتضرين، أيّ أولئك الذين لم يعودوا ينتظرون إلا أن يلفظوا أنفاسهم الأخيرة، يوضعون تحت الأسرة حتى يتركوا أمكنتهم

الثمينة لغيرهم ممن ترجى حياتهم. وفي كلّ صباح تتكرر العمليات نفسها: تُحمل الجثث لتسلّم للأسر أو تُرمى في قبر جماعي، ويوضع مكانها تحت الأسرّة الجرحى الذين تبدو حالتهم ميؤوساً منها، بينما يشغل موضعهم الوافدون الجدد.

وراحت سلمى ترتعد من الاشمئزاز والذهول. أين هم إذن «مقاتلونا المغاوير؟»، لم تستطع أن تربط بين الجنود الذين أثاروا إعجابها في الاستعراضات وهذه المخلوقات المتأوّهة. وانتابتها الرغبة في البكاء من دون أن تدري أمن الشفقة أم من الخيبة؟ أليست الشجاعة أمام الموت، وغبطة فداء الإنسان لوطنه بحياته، هذه المشاعر النبيلة التي يروق للجنرال الأمير أن يردّدها، أليس كلّ ذلك مجرّد كذبة كبيرة؟

وشعرت بأمّها تضغط على يدها.

ـ هيا يا بُنيّتي الصغيرة، لا تخافي، فأنا بجانبك!

لم يزدها هذا الحنان الذي لم تألفه من أمّها إلا حيرة، فقالت متوسّلة:

ـ أتضرّع إليك يا أنيدجيم، هلا غادرنا هذا المكان!

هزّت السلطانة رأسها بوقار وقالت:

ـ هؤلاء الرجال غارقون في التعاسة يا سلمى. ألا تستطيعين مواساتهم قليلاً؟

ودّت سلمى لو تجيب بالنفي، وتقول إنّها لم تعد ترغب في رؤيتهم، وكرهتْ أن تراهم يتألمون بهذه الكيفية المريعة... كالبهائم. وفجأة لم تعد تشعر نحو هؤلاء الجرحى، وكذلك نحو الجنرال الأمير، بل حتّى نحو نفسها لا بشفقة ولا بخوف، بل بمجرّد غضب شديد. وأحست بأنفاسها تنقطع، ومع ذلك سمعت نفسها تجيب:

ـ بلى يا أنيدجيم.

وشرعت في توزيع العلب الورديّة والزرقاء. وكانت خديجة تجد أمام

كلّ سرير كلمات مواسية مناسبة. فيردّ أولئك الذين ما تزال لديهم بعض القوة بابتسامة شكر، بينما يحاول آخرون التمسّك بها كما لو أن حضور هذه السيدة الجميلة البشوش في عالمهم الكابوسي قمين بأن يدفع عنهم الموت. أمّا بعضهم فكانوا يشيحون عنها بوجوههم.

وبينما كانت سلمى تتابع هذا المشهد بامتعاض وهي تحدّق في حذائها الأبيض، إذا برجل يسحبها إلى سريره وهو ينظر إليها نظرة ساهمة ويهمس: «نجلاء، ابنتي الحبيبة!»، فصرخت صرخة مرعوبة جعلت أمّها تهرع إليها لتخلّصها منه. لكن عوض أن تبعدها عنه أبقتها بجواره وطوّقاها بذراعيها لتشعر بالأمان.

ـ يظنّ هذا الجندي المسكين أنّك بنته. دعيه يتأمّلك، لعلّها آخر لحظة سعيدة في حياته.

تصلّبت سلمى وهي تردّد في نفسها: أنا ابنته؟! كيف له أن يتجرّأ على هذا؟!

وانقضت تلك اللحظة القصيرة التي بدت لها دهراً، وبدأت تشعر تدريجياً تحت نظرات ذلك الأب المسكين، المفعمة بالحب بأنّ حنقها أخذ يتلاشى، ولم تتمالك نفسها فانخرطت معه في البكاء.

بعد ذلك بشهرين، أيّ في الثلاثين من أكتوبر/ تشرين الأول من سنة ١٩١٨ أُعلِنت الهزيمة بعد أن طالبت الإمبراطورية العثمانية بالهدنة على غرار حلفائها ألمانيا والنمسا ـ هنغاريا، وبذلك وضعت الحرب أوزارها أخيراً، وتنفّس الشعب المرهق الصعداء.

ابتهجت سلمى. انتهت زيارات المستشفيات ومناظر الجرحى والموتى. سيكون بوسعها الآن أن تنسى كلّ ذلك، وتعود الحياة إلى مجراها ولا مبالاتها كما كانت سابقاً. ولكن لِمَ تبدو أمّها تعيسة؟

٥

لمّا عبر أسطول المنتصرين ذات صباح من صباحات نوفمبر/ تشرين الثاني الباردة والمضبّبة مضيق الدردنيل متوجّهاً إلى البوسفور، شعر أولئك الذين ابتهجوا بالهدنة ـ وكانوا يسمونها «سلماً» ـ بالخيبة.

كان يقدّر بستّين قطعة حربيّة بحريّة، إنجليزية وفرنسية وإيطالية، بل حتّى يونانية، ولم تكن معاهدة الهدنة تنص على ذلك، لكنّ تركيا كانت من الضعف بحيث لم يكن بمقدورها أن تحتجّ، لا سيما أنّ البلد كان بلا حكومة. ذلك أنّ الثلاثي الذي زجّ بالإمبراطورية في الحرب هرب في نفس اليوم الذي وُقِّعت فيه معاهدة الهدنة. وكانت السفن تتقدّم ببطء في صمت رهيب تسبقها المدمّرات، إلى أن بلغت القرن الذهبي، فرست وصوبّت مدافعها إلى قصر السلطان والباب العالي، حيث مقرّ الحكومة.

وقفت السلطانة بلا حراك تنظر إليها من خلف نوافذ الصالون، وقالت في نفسها: «لقد هوينا إلى الحضيض». هذه هي المرّة الأولى التي تُحتلّ فيها الأستانة منذ أن فتحها أسلافها قبل خمسمائة عام! هذه الإمبراطورية التي ارتعدت لها أوصال الأوروبيين لقرون ها هي الآن توجد تحت رحمتهم. وسُرّت لكون والدها انتقل إلى دار البقاء قبل أن يشهد هذا الإذلال.

وأخرجتها سلمى من استغراقها لمّا أشارت إلى نقطة بعيدة باتجاه غلطة وهي تقول:

ـ ماذا حدث هنالك يا أنيدجيم؟ الأمر أشبه بمعركة... أو حفل!

حيّرت تلك الحركة الغريبة البادية في البعيد السلطانة، فطلبت أن يأتوها بمنظار كبير، وهو هديّة تلقّتها من خال لها كان أمير بحر. وقد ذهلت لِما شاهدت: حشد كبير من الناس يلوّح بأعلام متعدّدة الألوان على أرصفة المدينة المسيحية، وقد ميّزت في تلك الأعلام ألوان العلم الفرنسي والإنجليزي والإيطالي، لكنّ أغلبها كانت أعلام اليونان الزرقاء المخططة بالأبيض!

سوّت المنظار وهي لا تكاد تصدّق، ثمّ وضعته بحركة غاضبة: يا للخونة، إنّهم يستقبلون العدو بالأحضان!

وشعرت بنفسها فجأة في منتهى الإرهاق. وتساءلت في سرّها: «لماذا؟ لماذا يتصرّفون بهذا النحو؟ أليس اليونانيون الذين يعيشون بيننا عثمانيين[1] مثل الآخرين! صحيح أنّهم نصارى، لكنّهم أحرار في ممارسة شعائرهم، بل إنّ بطريركهم هو أحد أسمى شخصيات الإمبراطورية. والواقع أنّهم أعلى مكانة من أتراك الأناضول الذين يكدحون في فلاحة أرض شحيحة. وعندما استقلّت اليونان قبل تسعين عاماً، خُيّروا بين البقاء والرحيل، فاختاروا البقاء هنا، وعاشوا في رخاء، وصاروا إلى جانب الأرمن واليهود سادة التجارة والمال. فماذا يريدون أكثر من هذا؟»

على أنّها كانت تعرف جيّداً مرادهم، لكنها تمانع في قبول تلك المطالب التي تعتبرها تتجاوز حدود المعقول. يريدون العودة ستّة قرون إلى الوراء، وطرد أتراك تراقيا الشرقية، لا سيما من الأستانة، وذلك بغرض إعادة بناء إمبراطورية بيزنطة. وهم يعوّلون في تحقيق هذا الحلم على مساعدة المحتلّ.

في غضون بضعة أيّام أقامت قوات الاحتلال قيادة موحّدة. واحتفظ

---

(١) كل سكان الإمبراطورية كانوا يسمون عثمانيين، من يونان وبلغار وعرب وأتراك وغيرهم من القوميات. أما لفظة تركي فكانت تطلق على من هم من العرق التركي.

الترك من الناحية النظرية بإدارة المدينة، بينما وُضع المرفأ والتراموای والدرك والشرطة تحت مراقبة الحلفاء. وإذا كان الفرنسيون قد تولوا الإشراف على المدينة القديمة، فإنّ البريطانيين صاروا يشرفون على بيرا[1]، في حين تولّى الإيطاليون أمر جزء من ضفاف البوسفور.

وعرف حيّا غلطة وبيرا حركة نشيطة غير معهودة، إذ احتشدت الفنادق والحانات بالبحارة والجنود الذين يتحدّثون بأصوات صاخبة، وينفقون مبالغ لم ينفق مثلها منذ فترة طويلة. أمّا الضباط فيرتادون الحانات الأنيقة حيث تقدِّم لهم الشرابَ حسناوات روسيات طردتهنّ الثورة البولشيفية. ويمكن للمرء أن يرى في باحة فندق بيرا بالاس الفاخر، وهو من الفنادق القليلة المزوّدة بالكهرباء، ضبّاطاً من مختلف الأنواع والبزّات، بل يمكن أن يلاحظ بينهم أيضاً رجالاً سيخاً من الجيش الهندي معمّمين بعمائم فاتحة اللون، وفرسان الصبايحية[2] المتلفّعين ببرانسهم الحمراء القانية.

وسرعان ما قرّرت الإدارة العودة إلى تنظيم «حفلات الشاي الراقصة»، فراح الضباط الوسيمون يراقصون الفتيات الجميلات المنحدرات من أسر بيرا الراقية في الشرفة الواسعة المطلّة على القرن الذهبي، أمام أنظار الأمّهات المبتهجات بهذا الفرح الذي لم يكن متوقّعاً أن تجلبه هزيمة البلد في الحرب.

أما في المدينة المسلمة المقابلة فعمّ الحزن. لم يعد السكان يخرجون من بيوتهم إلا للضرورة خوفاً من مضايقة الجنود الذين غالباً ما يكونون سكارى، أو حتى لا يضطرون وهم يسيرون على الأرصفة الضيّقة

---

(١) هذه هي التسمية الغربية لبيوغلو.

(٢) الصبايحية ويسمّون في بعض أنحاء الجزائر السبايسية، فرق شبه عسكرية خيّالة أسّستها فرنسا في معسكراتها السابقة وبالخصوص شمال أفريقيا كوسيط بين الدولة الفرنسية والأهالي. (المترجم)

لإفساح الطريق للمنتصر. فقد شعر الأتراك الذين اعتادوا السيطرة على غيرهم بهوان لا حدود له حين وجدوا أنفسهم خاضعين بدورهم. صاروا يتلافون الذهاب إلى بيرا للتسوّق كما كانوا يفعلون من قبل. لم يعودوا يطيقون النظر من دون امتعاض وتبرم إلى سُحن الأقليات المسيحيّة المنتصرة الذين طالما ظنّوهم يعيشون معهم في وئام. والأدهى من ذلك هو أنّ المرء صار معرّضاً للأذى إذا هو لم يحيّ العلم اليوناني المرفرف على الحي بكامله. وإذا ما اضطر أحدهم إلى عبور بيرا، فإنه يلتف طويلاً حتى يتجنّب الحي المسيحي وما قد يلاقي فيه من إهانة وإذلال.

على أن المستقبل كان يبدو أقتم، إذ يتحدّث الناس بقلق عن تعيين الجنرال فرانشي ديسبيري، المعروف بغطرسته وفظاظته، قائداً لقوّات الحلفاء. وتذهب الإشاعات إلى أنّه ينوي تحويل الأستانة إلى عاصمة فرنسية، واسترقاق سكانها الأتراك...

كانت الحياة في قصر أورتاكوي تمضي رتيبة، لكن كان يتعيّن على سلمى أن تكبح رغبتها في الخروج. فهو محظور عليها إلا لزيارة المآثر الإغريقية والبيزنطية القديمة، إذ كانت السلطانة قد سمحت بهذه «الجولات التاريخية» منذ مدّة طويلة، على الرغم مما أثاره ذلك من استياء في محيطها. وكانت تتذرّع بأنّها تريد أن تمنح ابنتها ثقافة متكاملة، تمزج بين التقاليد وحريّة الفكر. وقد كانت واعية بمكانتها، ومن ثمّة لم تكن تعبأ بالنمائم، ولا تفتأ تردّد: «القواعد نحن من يفرضها».

كانت سلمى ستخرج مع الآنسة روز في يوم الثامن من فبراير/ شباط ١٩١٩، كعادتها كلّ أربعاء، وذلك لزيّارة دير آكاتاليبتوس الذي بناه البطريرك كيراتوس الثاني في القرن السابع. غير أنّ هذا الأربعاء يوم استثنائي: فالعاصمة تنتظر وصول الجنرال الفرنسي، وهو ما دعا السلطانة إلى التفكير في إلغاء الزيارة خوفاً من الحشود، لكنّ الصبية أبدت من الأسى ما جعل أمّها تتراجع. مهما يكن، فالدير يقع في المدينة القديمة قرب مسجد شيزادي، والموكب سينطلق من جسر غلطة باتجاه بيرا حيث توجد سفارة فرنسا. فلا خوف إذن من مصادفته.

استقلّتا العربة برفقة زينيل الذي كان مكلّفاً، فضلاً عن مهامّه الأخرى، بمصاحبة الأميرات في نزهاتهنّ.

لم تدم زيارة الدير طويلاً. فخلافاً لما كانت سلمى معتادة عليه من الإكثار من الأسئلة حتّى تطيل الزيارة، بدت متعجّلة هذه المرّة للعودة إلى البيت. لكن في اللحظة التي انعطفت فيها العربة لتنطلق نحو أورتاكوي، صاحت بالسائق:

ـ توجّه إلى بيرا، هيّا بسرعة!

على أنّ العربة توقّفت، فترجّل زينيل من المقعد الأمامي، ووقف عند الباب وقال:

ـ مستحيل يا أميرتي، هناك استعراض...

فردّت سلمى بنبرة صارمة:

ـ هذا بالضبط ما أريد أن أشاهده!

ـ السلطانة أمّك لن تسمح بذلك.

ـ مثلما لم تسمح بنزهات أخرى كثيرة قمنا بها في الآونة الأخيرة بعد الفراغ من زيارات المتاحف...

والواقع أنّ سلمى سبق أن أقنعت مرافقيها بتمديد زياراتها للآثار التاريخية بنزهات في الأماكن المجاورة. وقالت بنبرة مهدّدة:

ـ لا أدري ماذا ستفعل إن أخبرتها بذلك...

قطّب الخصي حاجبيه، وتململت الآنسة روز فوق مقعدها. فقد أدركا خطأهما لمّا استجابا لنزواتها، وإن كانت تلك النزهات تروقهما هما أيضاً، يستمتعان بها تماماً مثل الصبية. وها هما الآن يشعران بأنهما علقا في الفخّ. لم يتصوّرا يوماً أن هذه العفريتة الصغيرة ستبتزّهما. إن هي أطلعت السلطانة على تلك التجاوزات، فستتعرّض للعقاب لا محالة، لكنّ الآنسة روز ستُطرد من عملها بسبب خيانة ثقة مشغّلتها. أمّا زينيل فلا يجرؤ حتّى على تخيّل خيبة سيدته، ولا يطيق أن تتكدّر العلاقة

المتميّزة التي نشأت بينهما على مدى سنوات بسبب هذه الزلّة التافهة... وهو يعرف خديجة سلطان وما تعرضت له من خيانات خلال فترة أسرها حتّى إنها لم تعد تثق إلا بعدد قليل من الأشخاص، أي من تنتظر منهم ولاءً مطلقاً.

لكنّه كان كثيراً ما يبدي الضعف أمام الصبيّة. فهي الطفلة الوحيدة التي أحبّ... ومع أنّه كان غاضباً منها، ومعجباً ببراعة مناورتها، ارتأى أنّ من صالحه الانصياع لطلبها.

قال وهو يتبادل النظرات مع الآنسة روز:

ـ حسناً، ولكن لبضع دقائق فقط.

فصاحت سلمى وقد تهلّلّ وجهها، وابتسمت له ابتسامة ساحرة على سبيل الامتنان:

ـ أجل يا آغا، لن نمكث غير دقائق. أشكرك جزيل الشكر.

وصلت العربة أخيراً إلى الشارع الكبير الذي سيمرّ منه الموكب في بيرا بعد أن شقّت طريقها بصعوبة في الأزقة الحاشدة بالجموع المبتهجة.

كانت المتاجر مغلقة وبيوت الحجر الجميلة مزيّنة بالأعلام. وعلى الأرصفة ـ وكان هذا الشارع هو الوحيد الذي يتوفّر على أرصفة ـ احتشدت جموع من الناس يلوّحون بأعلام إغريقية وأرمينية صغيرة. ذلك أنّ الأرمن كانوا أقليّة تطالب بدولة مستقلّة في شرق الأناضول، وقد قمعت مظاهراتهم بقسوة مراراً. وقد كان الإنجليز والفرنسيون والروس يساعدونهم خلسة، ويرون في ذلك إضعافاً للإمبراطورية. ومع انتصار الحلفاء، زاد يقينهم بأنّ مطالبهم ستُلبّى.

وبينما توقّفت العربة في شارع جانبي، إذ آثروا ألا يُروا في عربة تحمل شارات الإمبراطورية، شقّت سلمى والآنسة روز طريقهما بين الجموع، يتبعهما زينيل، وهو الوحيد الذي كان واعياً بالخطر المحدق بهم. ولم يكن ليخطر على بال أحد أنّ هذه الطفلة ذات الشعر الأحمر،

وهذا السيد الذي يلبس على الطراز القديم، مسلمان. ثم إنّ هيئة المرأة الشقراء التي ترافقهما لا تترك مجالاً للشكّ في أنّها فرنسية خالصة.

وفجأة قُرعت الطبول، ونفخ في الأبواق إيذاناً بوصول الجنرال. بدا أكثر مهابة ممّا تخيّله الناس، بقبّعته العسكرية الحمراء ولباسه الفضفاض، ممتطياً صهوة حصان أبيض رائع. عندئذ ضجّت الحشود بالتصفيق. ولم تغب دلالة الحصان الأبيض عن أحد. فقد دخل محمد الفاتح بيزنطة سنة ١٤٥٣على حصان أبيض، وها هو الجنرال النصراني، المتعصّب لنصرانيّته، يعود إلى المدينة على حصان أبيض.

كانوا قد هيّأوا للحفل بدقّة متناهية لكي تُؤثّر أبهته في جماهير كانت موالية سلفاً. وكان في مقدّمة الموكب رجال الدرك بزيّهم الرسمي، وخلفهم على بعد أمتار يظهر الجنرال مرفوع الرأس، يمسك بزمام حصانه جنديان، ويتبعه حامل الألوية ومساعدوه، ثمّ يسير في إثرهم على مسافة متوسّطة، فرقة خيّالة يتأبّط أفرادها رماحاً طويلة، ومجموعة أخرى من الخيّالة يرتدون بزّات زرقاء، وفرقة مشاة. إثر ذلك يأتي الجنرال البريطاني ميلن Milne متبوعاً بفرقة من المشاة الاسكتلنديين، ثمّ الجنرال الإيطالي مرفوقاً بكتيبة من المشاة يضعون على رؤوسهم قبعات مزيّنة بريش الطاووس. وفي مؤخّرة الموكب كتيبة يونانية يلبس أفرادها تنانير قصيرة بيضاء وقبّعات حمراء ذات شراريب، لم يستطيعوا تمالك أنفسهم من الردّ على هتافات إخوانهم الذين جاءوا لـ«تخليصهم من قبضة الأتراك».

وما كاد الموكب يتجاوز كتلة المنازل التي كانت تقف سلمى وزينيل والآنسة روز بمحاذاتها، حتّى تعالى صراخ امرأة سرعان ما حجبته الشتائم والضحكات الهازئة. وهتف صوت حادّ: «قوليه، قوليه إذن، فلن يؤذي لسانك!»، وازدادت حدّة الصيّاح، فلاحظت سلمى مجموعة هائجة تقترب، ثمّ أبصرت بذهول امرأة ترتدي شرشفاً أسود وهي تحاول أن تدفع عن نفسها هجمة جماعة من النساء البذيئات. فقد نزعن حجابها

ورحن يضربنها وهنّ تردّدن: «هيّا، أدّي التحية لعلمنا! وقولي: يحيى فينيزيلوس»[1]، وحولهنّ وقف رجال يتابعون المشهد بسحنات هازئة. فهم يربؤون بأنفسهم أن يمدوا أيديهم لامرأة ـ مهما يكن فهم ذوو مروءة! ـ، لكنهم لا يمنعون زوجاتهم من تلقين مسلمة درساً في حسن السلوك.

كانت سلمى على وشك طلب النجدة لولا أنّ الآنسة روز ضغطت على يدها بقوّة، وهمست لها بنبرة مهدّدة:

ـ اصمتي وإلا أجهزوا علينا!

أصاب الدوّار الصبية فتسمّرت في مكانها وهي لا تفتأ تردّد: «أنقذها يا إلهي، أتضرّع إليك!».

واستجاب الله لتضرّعها على أيدي جنود من البحرية الفرنسية. فبينما كانوا يبحثون عن حانة، أثار الصراخ انتباههم، فسارعوا إلى تخليص المسكينة وهم يؤنّبونها على مخاطرتها بارتياد الحي.

عادت سلمى ومرافقيها إلى العربة وهي ترتعش. وما كادوا يركبون حتّى أهوى الحوذي بسوطه على الخيل، فانطلقت العربة سريعة ليصلوا إلى القصر في الوقت المناسب، قبل تقديم وجبة المساء.

وهكذا انتهت تلك المغامرة بخير، لكنّ سلمى شعرت بالخجل. كانت هذه هي أوّل مرة تتصرّف فيها بجبن. وعلى الرغم من أنها حاولت أن تلتمس أعذاراً بأن قالت في نفسها إنّها إنّما أطاعت أوامر الآنسة روز، وأن صرخاتها كانت ستضع حياة زينيل في خطر، إلا أنّها كانت تدرك جيّداً أنها سكتت خوفاً.

لطالما نظرت إلى نفسها على أنها فتاة مستقيمة، لكن عليها الآن أن

---

(١) إلفتريوس فينيزيلوس ولد سنة ١٨٦٤، ولقب بالكريتي (نسبة إلى كريت) الكبير، وكان حينئذ رئيس وزراء اليونان.

تواجه صورتها الجديدة: فتاة جبانة! لكنّ كبرياءها لم يكن ليستحمل ذلك. هي من كانت الأعمال البطولية تملأ خيالها، وتزهو بمنجزات أجدادها السلاطين، سمحت لنفسها بأن تتصرّف بهذا النحو الوضيع. وهكذا قضت ليالي عديدة مأهولة بالكوابيس. مضت تبحث عن أعذار، لكن عبثاً.

وفي الأخير تمكّن التعب والزمن من تبديد هذه المخاوف، وعادت إليها الحياة بمباهجها، لكن من دون أن تنسى كيف أبدت امرأة من عموم الشعب شجاعة وعزّة لم تستطع حفيدة السلطان أن تبدي مثلها.

٦

بقدر ما بدا سكان الأستانة خلال الأشهر الأخيرة من الحرب عمياناً وغير مكترثين بالهزيمة الوشيكة، سيطر التشاؤم واليأس على نفوسهم منذ احتلال العاصمة. ولم يعد حديثهم يدور إلا عن العساكر الذين يعيثون في الأرض فساداً، مثل ذلك الإنجليزي الذي ركب صهوة جواده وراح يضرب المارة بوحشيّة لكي يفسحوا له الطريق، أو بذاءة جندي اسكتلندي آخر رفع تنورته على مرأى من السيدات، وعربدة الفرنسيين والإيطاليين، ولا سيما خلاعة السينغاليين. كان ذلك منتهى الإذلال بالنسبة للأتراك. لم يستسيغوا أن يتصرّف الزنوج كسادة، ويصدروا لهم أوامر عليهم الامتثال لها، مع أنهم لم يكونوا أيام الإمبراطورية غير عبيد. كانت أخبار الاعتداءات وهتك الأعراض تجري على الألسنة في كلّ مكان، وتعمل الإشاعات على تضخيمها. وصار الناس يخشون أذى هؤلاء الأوروبيين الذين طالما قيل عنهم إنّهم «متحضرون».

أمام هذا التذمّر العام، فكّرت السلطانة خديجة في تنظيم إحدى تلك «الدعوات إلى الحمام» التي كانت تستطيبها النساء في الأستانة فقد كنّ يتبادلن الدعوات إلى الحمام مثلما يتبادل الناس في أوربا الدعوات لشرب الشاي. ولم تشترط عليهنّ غير شرط واحد: ألا يخضن فيما كان يجري. مهما يكن فلن يسمحن للمحتل بأن يفسد عليهنّ كلّ حياتهنّ. ففي مثل هذه الأوقات العصيبة، تصير التسلية تحدّياً، بل تكاد تكون واجباً وطنياً.

على الرغم من التضييق الذي بدأ الناس يشعرون به، حرصت

السلطانة على أن يكون حفلها باذخاً كشأنه في الماضي. وجدت المدعوات في استقبالهنّ بين ثلاثين وأربعين قلفة، كبيرات وصغيرات، المدعواتِ في البهو الواسع وأمطرنهنّ ببتلات الورد. وبعد تخليصهنّ من شراشفهنّ، كنّ يرافقنهنّ إلى قاعات صغيرة مجاورة للحمام، مزيّنة بالمرايا والزهور، فتقوم جارية بضفر شعورهنّ بشرائط طويلة من الذهب أو الفضة، ثمّ يلففن تلك الضفائر فوق رؤوسهنّ، ويغطينها بمنشفة حمام كبيرة بديعة التطريز، ويضعن في أرجلهن قباقيب مطعّمة بالصدف.

فإذا ما فرغن من الزينة، يلتحقن بالصالون الدائري حيث تنتظرهن السلطانة. حينئذ تقدّم لهنّ القهوة بالهيل على غرار تلك التي يشربها العرب طلباً للانتعاش في الحرّ الشديد، فيشربنها وهنّ تتبادلن المجاملات حول أدوات الزينة الذهبية أو الفضية التي تحملها كلّ منهنّ. وقد كانت حفلات الاستحمام هذه مناسبة لإخراج الأباريق وقوارير العطر وصناديق المراهم الثمينة التي كانت تتلقّاها كل عروس في حفل زفافها.

إثر ذلك تنتقل المدعوّات إلى الغرف الساخنة، ترافق كلاً منهنّ جاريتان تتكفلان بتحميمها وتدليكها وتخليص جسمها من الشعر وتعطيرها من رأسها إلى أخمص قدميها. أمّا الغرف فعددها ثلاث، وهي متجاورة ومكسوّة بالمرمر الأبيض، تحتوي على نافورات، يغمرها بخار كثيف يحجب الرؤية. وهنّ يمضين فيها ساعات قبل أن ينتقلن إلى حوض ماء بارد موجود في قاعة استراحة مزيّنة بالنباتات الخضراء والأرائك حيث يستلقين باستمتاع وهنّ يرتشفن ما تقدّمه لهنّ قلفاوات صغيرات في صمت من شراب البنفسج والورد، بينما تتردّد أنغام ناعمة تعزفها فرقة موسيقية مخفيّة خلف حجاب.

إنّها لحظة البوح والمكاشفة. إذ تستسلم النساء للحلم وقد شعرن بخفّة الروح والجسد بينما تروح الجواري يدلّكن رقابهن أو أرجلهن. وتشعر حتّى أشدهنّ قبحاً في هذا الجو الشهواني الرائق بأنّها صارت مرغوبة ومحبوبة.

وتخال سلمى نفسها في الفردوس. إذ تبدو قواعد التربية الفكتورية الصارمة التي كانت تلقن لبنات الأسر العثمانية الراقية كما لو أنّها انتفت في الحمام. ففي هذا الجو من الألفة تذوب حواجز العفة المستوردة كما لو أنّها طلاء خارجي سطحي، بفعل الطبيعة الشرقية المتحرّرة من كلّ الأحكام المسبقة ومن كلّ شعور بالذنب. ذلك أنّ بين هؤلاء النسوة المستسلمات لأجسادهنّ، الحريصات على هنائهنّ، يقوم تواطؤ مرح قوامه مزيج من الإثارة الجنسية والفرح الطفولي. فتراهنّ يتبادلن الإعجاب ويتلامسن ويقبّلن بعضهنّ بعضاً على سبيل الدعابة، ويمسك بعضهن بخصر بعض. وتستغرق سلمى، وقد دوّختها قليلاً رائحة المسك الرومي، في الحلم أمام هذه النهود الجميلة المكتنزة، والبطون العاجية الناعمة... هل سينبت لها هي أيضاً نهدان ذات يوم يا ترى؟ كانت تداعب صدرها كلّ ليلة وهي في سريرها، وتشدّه لعله يكبر ويبرز.

وما لبثت المحادثة أن اصطبغت بشيء من الإباحية في هذا الجوّ من الاسترخاء، فتكوّمت الصبية على نفسها في إحدى الزوايا مخافة أن تثير انتباه أمّها إليها، فتصرفها.

ومضت امرأة شابة تتحدّث عن زوجها، وهو موظّف سامٍ في وزارة الخارجية. رجل عصري يسمح لها بمرافقته إلى الحفلات الرسّمية. قالت إنّها رافقته ذات مساء إلى حفل عشاء نظّمته السفارة السويسرية، وهي إحدى السفارات القليلة التي ظلّت محايدة.

ـ لم تكن في الحفل سوى النسوة الأوروبيات، وكنّ في منتهى الأناقة، لكنهنّ يرتدين فساتين تكشف عن صدورهنّ وظهورهنّ حتى إنّني خجلت بدلهنّ. على أن ما حيّرني أكثر هو عدم اكتراث الرجال بهنّ. كانوا يتحرّكون بين هؤلاء النسوة المتبرجات بمنتهى اللامبالاة!

فعلّقت جارتها بنبرة حاسمة:

ـ من المعروف أنّ شهوات الأوروبيين ضعيفة، لذلك يسمحون لنسائهم بالتجوّل نصف عاريات.

فانفجرن ضاحكات.

ـ ما شاء الله! رجالنا ليسوا مثلهم، لا تكاد عيونهم ترى ذراعاً أو كعباً حتى تطير عقولهم!

فتنهّدت سمراء جميلة وقالت:

ـ لا بدّ أن هؤلاء الأوروبيات المسكينات غارقات في التعاسة. لو كنت مكانهنّ لقتلني الغمّ!

ـ لكنّهنّ لا ينتبهن لذلك... يعتقدن أنّهن تنعمن بالحرية، ويزعمن أنّ أزواجهن متسامحون معهنّ بينما هم غير مبالين بهنّ.

فهتفت سيّدة نحيلة تحسب نفسها مثقّفة:

ـ لعلّ ديانتهم هي السبب في ذلك. فالنبي عيسى الذي يعتبرونه إلهاً ـ لأنّهم مشركون، يؤمنون بوجود ثلاثة آلهة: الأب والابن وروح القدس ـ كان زاهداً في النساء، ولم يتزوّج قط. بل تذهب أهمّ طائفة مسيحية، وهي الطائفة الكاثوليكية، إلى أنّ العفّة واعتزال النساء هي أعلى درجات الكمال. لهذا لا يتزوّج رهبانهم وكذلك شأن بعض فتياتهم اللواتي يسمّين راهبات، يعشن طيلة حياتهن عازبات.

فهتفت النسوة بارتياب:

ـ عازبات؟!

ذلك أن العزوبة بالنسبة إليهنّ لعنة. أليست وظيفة المرأة الأولى هي الإنجاب؟ ألم يتزوّج الرسول تسع نساء؟ فالجنس بالنسبة لهؤلاء المسلمات لا يرتبط بفكرة الخطيئة، بل العكس تماماً. وأبيات الفيلسوف المتصوّف الغزالي الذي عاش في القرن الحادي عشر، معروفة لديهن. «إذا نظر العبد الى وجه زوجه ونظرت إليه، نظر الله إليهما نظر رحمة، فإذا أخذ بكفّها وأخذت بكفّه تساقطت ذنوبهما من خلال أصابعهما، فإذا تغشّاها حفّت بهما الملائكة من الأرض إلى عنان السماء، وكانت كلّ

لذة وكلّ شهوة حسنات كأمثال الجبال»[1]، ويذكر الغزالي أيضاً أنّ محمداً الذي تزوّج عدداً من النساء، بخلاف عيسى، كان «لعلو درجته لا يمنعه أمر هذا العالم عن حضور القلب مع الله تعالى فكان ينزل عليه الوحي وهو في فراش عائشة»[2].

إنّ غرائب النصارى تمثّل موضوع حديث لا ينضب حقّاً.

واسترسلت المثقّفة قائلة:

ـ يقال إنّ الناس في روما كانوا يأكلون لحم البشر.

ـ يأكلون لحم البشر؟!

وسرت رعشة في الحاضرات.

ـ أجل، كان رهبانهم يستحضرون ربّهم في قطعة خبز وهم يردّدون بعض التعاويذ، ثمّ يأكلونه.

ذُهلت المدعوّات، وعلقت إحداهنّ:

ـ لربّما كان ذلك رمزاً.

ـ هذا ما ظننت، لكن الأمر ليس كذلك. فهم يقسمون على أنّ ربّهم موجود بلحمه ودمه في هذا الخبز!

فترتعد فرائصهنّ ممّا سمعن.

ـ ومع هذا يتجاسرون على اتّهامنا بالتعصّب!

وتخلص المثقفة إلى القول بنبرة جازمة:

---

(١) هذه ليست أبياتاً شعرية لأبي حامد الغزالي كما أوردت المؤلفة، بل حديث منسوب للنبي برواية زيد بن الحسين بن علي. وهو حديث ضعيف لا أثر له في كتاب إحياء علوم الدين. (المترجم)

(٢) حديث أخرجه البخاري من حديث أنس: «يا أم سلمة لا تؤذيني في عائشة فإنه والله ما نزل عليّ الوحي وأنا في لحاف امرأة منكن غيرها». انظر إحياء علوم الدين، ص ٤٧٢. (المترجم)

ـ هذه هي سنّة الحياة. الأقوياء لا يفرضون قوانينهم فحسب، بل يفرضون أيضاً أفكارهم.

وخيّم على الجمع شيء من الحزن. كيف قادهنّ الحديث إلى السياسة؟ مع أنّهنّ تواعدن على تجنب المواضيع المنكّدة.

واغتنمت إحدى الأميرات الفرصة لتعلن بنبرة ملغزة:

ـ هل بلغتكُنّ آخر الأخبار؟



فالتفت إليها الجميع.

ـ هيّا! أخبرينا، نحن لا نطيق الانتظار!

ولمّا لاحظت أنّ كلّ الأنظار متّجهة إليها، قالت:

ـ الأشقر...

تألّقت عيون المدعوّات من جديد وهنّ يتساءلن: ماذا فعل الأشقر يا ترى؟

ـ طلب يد صبيحة سلطان.

وبدت على الوجوه علامات الاستغراب.

ـ كيف؟ أيتزوّج بنت جلالته؟ هذا مستحيل!

ساء الأميرة أن يشكّكن في كلامها، فانتصبت وقالت:

ـ إنّه خبر محقّق، سمعته من القادين أمّ صبيحة شخصيّاً!

وبلغت الإثارة أوجها. أتتزوّج الحسناء صبيحة بنت السلطان وحيد الدين الأثيرة من الجنرال الشاب بطل غاليبولي ومنقذ الأستانة من البريطانيين الذين حاصروا الدردنيل خلال الحرب؟! فالأشقر يمثل بالنسبة لهنّ جميعاً بطلاً أسطورياً. تحدّى رأي رؤسائه، وواجه جيشاً أوروبياً أكثر من جيشه عدداً، وأفضل تسليحاً. فبفضل شجاعته وثقته المطلقة في نفسه وفي رجاله انتصر في وضعية كان جميع الخبراء، سواء في الأستانة أو في الجبهة، يقدّرون أنّها ميؤوس منها. وقد قاده هذا

الانتصار، الذي يعود لعبقريته العسكرية، إلى الشهرة، لاسيما حين استعاد بعد بضعة أشهر مدينتي بدليس وموش من الجيش الروسي، محقّقاً بذلك الانتصارات التركية الوحيدة بعد سلسلة من الهزائم.

وقد بوّأه الشباب مكانة رفيعة بعد أن خيّبت أملهم أخطاء ساستهم وإخفاقات جنرالاتهم العجزة. وهامت به النساء، لا لشجاعته فحسب، بل لوسامته واعتداده بنفسه أيضاً. فقد كان ناصع البشرة، بارز الخدين، ذا عينين زرقاوين تقدحان شرراً، وإن كانتا تستطيعان أن تبدوا في منتهى الرقة أحياناً. أما الشعر فكان أشقر رائعاً، ومنه استمدّ لقبه. وهو من مواليد سالونيك، لكن يقال إنّه ألباني الأصل. كان أبوه موظّفاً بسيطاً في الجمارك، إلا أنّ مظهره يوحي بأنه أمير، يبدو رشيقاً في بزّته العسكريّة المحكمة التفصيل. وهو إلى ذلك مقتنع اقتناعاً تامّاً بتفوّقه، تنبعث من شخصه قوّة وطاقة وحشيّتان.

لما عاد إلى الأستانة بعد نهاية الحرب، شوهد في البلاط. ذلك أنّ السلطان كان يحبّ أن يستشيره بشأن معنويات الجيش، ويسمع آراءه المتميّزة. فقد أعجب به منذ أن سافر، وهو ما يزال وليّاً للعهد، إلى ألمانيا سنة ١٩١٧ لزيارة كايزر، وكان العقيد الشاب مرافقه العسكري.

لمّا كان الضابط الوسيم الذي تجلّله هالة المجد يتردّد على القصر، تراقبه الأميرات من خلف المشربيات وهن يحلمن بالزواج منه. بل تجرّأت إحداهنّ فكتبت له رسائل غرامية بريئة، بعثتها له مع إحدى الجواري. على أنّ قسوته وتجاهله لتلك الرسائل تسبّبا في مرضها من شدّة الغمّ. أكان يتظاهر باللامبالاة، لأنّ عينه كانت على ابنة السلطان؟ فعلى الرغم من انحداره من أصل متواضع، لم يكن يأبه بذلك، لاسيما أن تركيا لا توجد فيها طبقة أرستقراطية عدا الأسرة الإمبراطورية. وهو ما يسمح للمرء ببلوغ أعلى المراتب بعمله واجتهاده. وكان السلطان يختار أزواج الأميرات في الغالب من الباشوات والوزراء الذين يرغب في تشريفهم. ألم تُزفّ نادية سلطان قبل ذلك بخمس سنوات لأنور باشا،

وزير الحربيّة الذي لم يكن أبوه غير موظّف بسيط في سكة الحديد؟ والأشقر لا يقلّ عنه شأناً!

وسرت في الحمّام نشوة بهيجة، إذ قامت النساء اللواتي كنّ حتى ذلك الحين مضطجعات على أرائكهنّ في خمول، وأحطن بالأميرة، ومضين ينتزعن منها أدقّ التفاصيل: كلا، صاحب الجلالة لم يُجب بعد. أجل، سيُجيب، لكنّه كما تعلمن يتريّث طويلاً في قراراته.

ـ لكن، بماذا أجاب السلطان الباشا في الأخير؟

ـ قال إنّ بنته ما تزال صغيرة، وأنّه سيفكر في الأمر.

ـ أما تزال السلطانة صبيحة صغيرة؟ هي في العشرين من العمر على الأقل!

عندئذٍ خفضت الأميرة صوتها وهمست:

ـ يبدو أنّ السلطان متردّد. من الأكيد أنّ الباشا هو أفضل جنرال في جيشنا، لكنّه عنيف جدّاً ويشرب كثيراً. ويُقال إنّه يحمل أفكاراً جمهورية...

وسرت في الجمع رجفة ذعر.

ـ أيكون الأشقر جمهورياً؟ مستحيل!

لم تستطع سلمى أن تتمالك نفسها، فالتفتت إلى جارتها وقالت:

ـ عفواً سيّدتي... من يكون الأشقر هذا؟

فهتفت المرأة الشابّة من الدهشة:

ـ كيف؟! ألا تعرفينه يا سلطانة؟! إنّه الجنرال مصطفى كمال...

٧

تنهّد خيري رؤوف بك وقال وهو يترك نفسه يتهاوى على مقعد الأكاجو:

ـ الجيش اليوناني يحتلّ إزمير. فبعد معارك دامية بدأ الهدوء يخيّم.

ـ إذا كانت الصحافة الأجنبية هي التي كتبت هذا، فلا شكّ أنّه صحيح...

فالداماد، شأنه شأن كثير ممّن هم من جيله ومن بيئته، شديد الإعجاب بأوروبا، ومزدرٍ لما يسميه بـ«السفاسف التركية»، بما فيها صحافة بلده التي لم يكن يقرأها على كلّ حال. كان يتوصّل يوميّاً بالعديد من الصحف الأجنبية، لا سيما الفرنسية والإنجليزية. صحيح أنّها تعكس وجهة نظر العدو، لكنّها أميل إلى الموضوعية في نظره من الصحف المحليّة الخاضعة للرقابة. ما كان يتناساه هو أنّ هذه الرقابة كانت تفرضها تلك الدول الأوروبية ذاتها. عدا أنّ ذلك لم يكن بالنسبة إليه سوى تفصيل. مهما يكن فالإعلام التركي في نظره كان دائماً خاضعاً للرقابة، سواء خلال الثلاث وثلاثين سنة من حكم السلطان عبد الحميد، أو في السنوات التسع من ديكتاتورية أنور باشا لاحقاً.

هو لا يريد تصديق أن الصحافة في البلدان «الحرّة» خاضعة هي أيضاً للمراقبة الصارمة، وإن كان ذلك بشكل خفي ـ لأنّ الحكومات أدركت أنّ المنع أو القمع ليس خطيراً فحسب، بل لا جدوى منه أصلاً. وكان يشكك في كلام من يعلنون بأنّ الديمقراطيات تتقن الافتراء وفنّ العبث،

كما يكذّب ما يروّج له هؤلاء المغرضون من أنّ الحكّام في أوروبا لم يعودوا يعتقلون مديري الصحف، بل يدعونهم للعشاء، ويُسرّون لهم «صراحة بالمشاكل الحقيقية». وهم بمجاملتهم على هذا النحو، كثيراً ما ينجحون في الحفاظ على حيادهم المتحيّز.

كان هذا الكلام يثير حفيظة خيري بك. وحتّى لو صدقه، فذلك لا يغيّر شيئاً من اقتناعه بأنّ خلاص تركيا يكمن في الاقتداء بالغرب. كثيراً ما كان يردّد: «ينبغي أن نأخذ من أوروبا ورودها، أما الأشواك فلا حاجة لنا بها». وكان يروقه أن يستعرض نظريات الفلاسفة العقلانيين ومُثُل الثورة الفرنسية، لكنّه إن كان يوافق على منح الشعب بعض الحقوق، فهو لا يسمح بأن يأخذها بنفسه.

وبينما كان يتصفّح جرائد أخرى، لفتت انتباهه افتتاحية على الصفحة الأولى من الصحيفة الفرنسية الكبيرة «لو جورنال» الصادرة يوم ١٧ مايو/ أيار من سنة ١٩١٩. كانت توجد بجوار هذه الافتتاحية مقالة حول «قضية لاندرو» ـ فقد اكتشفت عاشر ضحية أُدخلت إلى الفرن ـ يحلّل فيها الصحافي سان بريس نزول الحلفاء على ساحل إزمير، وينتقده انتقاداً شديداً قائلاً: «لم تسمح الهدنة للحلفاء باتّخاذ إلا بعض التدابير التنفيذية. غير أنّ أشدّ الأخبار تحيّزاً لم تستطع الإشارة إلى أيّ حدث جدّي (...) وبهذا وجدنا أنفسنا أمام عمل سياسي مدبّر، والأدهى من ذلك هو أنّه ذو قدر بالغ من الأهمية؛ إذ إنّ احتلال إزمير هو حكم بالموت على الإمبراطورية العثمانية».

وهتف خيري بك: «يا للشجاعة! أن ينتصر المرء للمغلوب ضدّ حكومته، هذه هي الحرّيّة حقّاً! وهذه هي النزعة الإنسانيّة!»، ولم ينتبه في غمرة حماسه للخاتمة التي خلص إليها المقال: «إنّ موت الرجل المريض سيصيبنا بالقرف إن هو أنذر بنهاية النفوذ الفرنسي في الشرق. ماذا ستكون حصتنا بين الانتدابين البريطاني والأميركي؟».

وسمع طرقاً خفيفاً، وأطلّ من فتحة باب المكتب رأس صغير أحمر.

ـ إنّها صغيرتي الحلوة! يا للسعادة! تعالي، ادخلي!

لمّا يخلوان إلى بعضهما، بعيداً عن أعين السلطانة والخدم، يخاطبها بلا كلفة. وفي كلّ مرة يخفق قلب الصبية لهذه الألفة العارضة. أجلسها على ركبتيه وتفرّسها بعين ساخرة:

ـ ماذا وراءك؟ ماذا جئت تطلبين هذه المرّة؟

أصيبت سلمى بالخيبة لكون والدها خمّن بسرعة نواياها، على الرغم من أنّها قضت الصباح بكامله تخطّط لهذه المعركة وتعدّ لها العدّة، فقالت مستنكرة:

ـ دع عنك هذا يا بابا، أؤكد لك أنني...

انفجر ضاحكاً فمضت تنظر إليه بولع: كم يكون مختلفاً لمّا يخلوان لبعضهما! كم هو مرح، ولا يبدي تلك السحنة الكئيبة التي لا تفارقه. وهي تحبّه بسبب هذه السعادة التي تبدو عليه كلّما رآها. مالت برأسها إلى الجانب واتّخذت ذلك المظهر الفاتن.

ـ قلت لي يا بابا ذلك اليوم إنّ الأطفال في أوروبا ينشؤون على الحرّيّة، فيكونون بذلك أكثر استعداداً لمواجهة الحياة.

قطّب حاجبيه وقال في نفسه: لأيّ شيء تمهّد يا ترى؟

ـ أكيد.

ـ ألا تظنّ الفتاة يلزمها أن تفهم العالم الذي تعيش فيه؟

عضّ خيري بك على شفتيه. من أين أتت بهذه الجملة؟ من إحدى الروايات الفرنسية التي تقرؤها مربيّتها بلا شكّ. لعلّها حفظتها عن ظهر قلب.

ـ لكنّك يا سلمى ما زلت صغيرة.

حدجته بنظرة معاتبة، وقالت:

ـ الآنسة روز تقول إنّ الأهم ليس هو السنّ بل النضج.

هذا ما توقّعه. الآنسة روز! لم يقتنع يوماً بأنّ هذه العانس الغبيّة مربيّة مثاليّة. ينبغي أن يفاتح زوجته بأمرها. ثمّ سألها بشيء من الانزعاج وقد عاد إلى نبرته المتحفّظة:

ـ لندخل إلى لبّ الموضوع، ماذا تريدين؟

حدّقت فيه بعينين متضرّعتين، وقالت:

ـ أريد مرافقتكم إلى المظاهرة التي ستقام في ميدان السلطان أحمد.

ـ إلى...

توقّف خيري بك عن الكلام وقد شعر بالاختناق، ثمّ استأنف يقول:

ـ هل جُننت؟ سيتجمّع عشرات الآلاف من الناس من مختلف الأصناف، وسيصرخون بما لا يعلمه إلا الله! لن تذهبي، ولن أذهب أنا أيضاً. لا أرغب في مخالطة هؤلاء الغوغاء.

واغرورقت عيناها بالدموع.

ـ وهذه المجازر الرهيبة في إزمير يا بابا... زينيل يقول إنّه ينبغي أن نفعل شيئاً...

ـ حسناً، زينيل يقول...؟ يبدو أنّ هذه الصبيّة تصغي للخدم أكثر مما تصغي لوالديها! وأنا أريد أن أعرف رأي أمّك السلطانة؟

ـ أنيدجيم؟ لقد خرجت...

ـ انتظرت بالطبع خروجها لكي تأتي إليّ وتطلبي منّي هذا الطلب السخيف...

ـ ولكن ما وجه السخافة في طلبها يا صهري العزيز؟

كانت فاطمة سلطان، أخت زوجته الصغرى، عند عتبة الباب برفقة أحد الخصيان الذي حاول إثارة انتباه الداماد لوجود هذه الزائرة. فقد جاءت السلطانة للقاء أختها من دون سابق إعلام. فلمّا لم تجدها، سألت عن ابنتها.

ثمّ واصلت تقول:

ـ كنت أنوي أنا نفسي المشاركة في المظاهرة في عربة مغلقة. لن نترجّل من العربة بالطبع. ففي لحظات المحنة هذه، أريد، بل أنا بحاجة إلى الصلاة مع شعبي، لأنّ الأمر يتعلّق بمظاهرة دينية.

قام خيري بك واقفاً فوراً وانحنى للسلطانة. ساءه أن تباغته في تلك الحالة من الغضب. وهو لا يعرف كيف فارق برودة أعصابه المعهودة. ألكي يفرض سلطته على الطفلة؟ أم لكونه لاحظ بأنّها تأثرت لاحتلال إزمير أكثر منه...؟

ـ أأنت واثقة يا سلطانة من أنّ الهدف من المظاهرة هو الصلاة، وأنّها لن تخرج عن السيطرة؟

ـ كلّ الوثوق يا داماد. فقد اتّخذت جميع الترتيبات اللازمة.

حرّك رأسه تعبيراً عن الاقتناع.

ـ ما دام الأمر كذلك، يمكن أن تأخذي معك الطفلة. لكن لمزيد من الحيطة، خذي معك زينيل أيضاً. لا يستطيع المرء أن يطمئنّ لهذه الحشود الجاهلة. فنحن لسنا في فرنسا!

يقع مسجد السلطان أحمد، الذي يسمى أيضاً المسجد الأزرق بسبب البلاط اللازردي الذي يكسوه، في قلب المدينة القديمة، قرب قصر طوب قابي. ويتطلّب الوصول إليه عبور متاهة من الأزقة الضيّقة الصاخبة، الملأى بدكاكين الصناع التقليديين والمتاجر والمقاهي المزدحمة بروّادها من الصباح حتّى المساء.

لكن في يوم الجمعة ذاك، خيّم صمت رهيب. كانت المتاجر موصدة، ومصاريع النوافذ مغلقة، وكان العلم العثماني يرفرف في كلّ مكان. وأخذت الجموع تتقاطر من كلّ الأزقة وتنضمّ إلى موكب طويل يتقدّم ببطء ووقار، ضارباً الأرض بخطى ثابتة. كتلة بشرية تضمّ مختلف الأعمار: شيوخ لا يكادون يقوون على المشي، ورجال أقوياء يسيرون

بهمّة وقد احمرت عيونهم من البكاء. بينهم أيضاً جنود عطبتهم الحرب تغطي صدورهم الأوسمة، يجاهدون ليحبسوا دموعهم. جاء كذلك أطفال المدارس بأعداد كبيرة وقد وضعوا على أذرعهم شرائط سوداء كتب عليها اسم «إزمير» بحروف خضراء. ثمّ هناك النساء. النساء اللواتي اعتدن على لزوم بيوتهن خرجن بالآلاف، معظمهنّ رفعن الخُمُر وهنّ يتقدّمن شاحبات، يشعّ التحدّي في عيونهنّ.

ولاحت فجأة طائرات بريطانية وهي تحلّق فوق أسقف المنازل قاصدة ترهيب الحشود، لكن عبثاً. ظل الناس ثابتين في أماكنهم وقد بدت على وجوههم ابتسامة استخفاف: فليقتلونا إن شاءوا! ما قيمة الحياة إذا كانت بلادنا تحتضر؟!

كان الامتعاض بادياً في العيون، لكن ما كان بادياً أكثر هو الارتباك واليأس الناتجان عن شعور الناس بأنّ العالم بأسره تخلّى عنهم، وأنّ من كانوا يثقون بهم خانوهم. لماذا يُهاجَمون؟ فقد مضت سبعة أشهر على نهاية الحرب، وتركيا وقّعت الهدنة وسرّحت الجيش وسلّمت السلاح، وراحت تنتظر بصبر أن يقرّر المنتصرون مصيرها في باريس ولندن...

أمّا الإمبراطورية العثمانية، فلم يعد أحد يجهل أنّ أمرها حُسم: فقدت المناطق التي كانت تابعة لها في البلقان كما فقدت ليبيا ودول الشرق الأوسط العربية. ذلك أن الإخوان المسلمين الذين اعتمدت عليهم خانوا. وعوض أن ينضمّ شريف مكّة العجوز حسين[1] إلى السلطان، أعلن التمرّد، وانحاز إلى الإنجليز الذين وعدوه بإنشاء مملكة له.

كانت المصيبة عظيمة: سبع سنوات كانت كافية لإنهاء إمبراطورية عمّرت سبعة قرون.

وقد علّق بعض المتفلسفين: «مهما يكن، فقد عادت الأمور إلى

---

(١) جد الملك حسين، ملك الأردن.

نصابها. الشعوب التي غزوناها استرجعت الآن حرّيتها، أو هذا ما تعتقده على الأقلّ. لن تلبث أن تكتشف أنّ الانتداب الفرنسي والإنجليزي والإيطالي ليس أرحم من السلطة العثمانية».

وإذا كان الأتراك قد سلّموا بالقدر، وقبلوا فقدان إمبراطورية بالغة الشساعة، عبارة عن فسيفساء من الأمم ظلّت شعوبها وعاداتها ومعتقداتها غريبة عنهم، فإنّ ما لم يقبلوه هو المسّ بوحدة بلدهم الذي سكنه وزرعه وبناه فلاحو الأناضول الخشان، المنحدرون من قبائل الرحّل الكبيرة التي قدمت من آسيا الوسطى في القرن التاسع.

لقد استهان الحلفاء تحت نشوة النصر بقدرات هذا الشعب الكسير، واعتقدوا أنّهم يستطيعون استباحة كرامته. هكذا سمح الوزير الأوّل البريطاني لويد جورج للحكومة اليونانية بالاستيلاء على ثاني مدينة في البلد وهي إزمير، على الرغم من معارضة الفرنسيين والإيطاليين. ذلك أنّ بريطانيا كانت ترغب في استرضاء اليونان لجعلها قاعدة وفيّة قريبة من هذا العالم الإسلامي غير المأمون الجانب، الزاخر ـ حسبما يقولون ـ بثروات هائلة من النفط، الواقع ـ فضلاً عن ذلك ـ بينها وبين جوهرتها الثمينة: الهند.

لم يعد بوسع العربة أن تتقدّم؛ لذلك قرّرت فاطمة سلطان أن يتابعا الطريق مشياً على الأقدام برفقة زينيل، وهو ما سرّ سلمى. فقد خجلت من أن تجلس وتتفرّج على هؤلاء الناس الذين يمشون بهمّة كما لو أنّهم لن يتوقفوا أبداً، كما لو أنّهم يتأهّبون للانطلاق حالاً نحو إزمير لتحريرها.

ووصلوا أخيراً إلى ميدان السلطان أحمد. على الرغم من احتشاده بالناس، كان يخيّم عليه صمت مطبق بحيث لا تُسمع سوى رفرفة الأعلام.

وفجأة تعالى صوت المؤذّنين في أرديتهم السوداء من أعلى صوامع

الجامع الأزرق: «الله أكبر»، فأرجعت الهضبات السبع المحيطة بالمدينة صدى هذا الأذان. كان الأمر كما لو أنّ سماء الأستانة اهتزّت والتهبت بغتة بهدير مئات الآلاف من الأصوات، منبعثة من صدور خنقها النحيب وهي تردّد: «الله أكبر، اللهم احفظنا يا ربّنا!».

ولم تعد سلمى تبصر شيئاً، إذ راحت الدموع تنهمر من عينيها، وسالت على محيّاها. ولم تعد تدري أمن حزن أم من سعادة. ما من مرّة شعرت بهذه الرجفة المنبعثة من أعماق صدرها. وتهيّأ لها أنّها لم تعد سلمى، بل صارت جزءاً من هذا الحشد، وأحسّت بأنّها تذوب فيه وتنفجر وتموت، مع أنّها لم تشعر قطّ بالحياة شعورها بها في تلك اللحظة.

واعتلت امرأة نحيلة مصطبة مرتجلة، فنظرت إليها سلمى كما لو أنّها في حلم. لم تكن تضع خماراً، واكتفت بارتداء فستان أسود. شرعت تتحدّث عن إزمير بنبرة مؤثّرة، تلك المدينة الخضراء الهادئة التي عاش فيها الأتراك واليونان في سلام طوال قرون على الرغم من الاختلافات القائمة بينهم. وكان لا بدّ من هذه الحرب ومن دسائس الأجانب لإثارة البغضاء بينهم. ثمّ أضافت:

ـ من السهل على المحرّضين أن يلهبوا المشاعر! يحرقون كنيسة هنا، ويقتلون مسلماً هناك، فلا تلبث المخاوف المتوارثة والأحقاد القديمة التي كان يعتقد أنّها نسيت، أن تنبعث قوية شديدة. وأولئك الذين يدركون المناورة ويحاولون تجنّب الكارثة، لا يستطيعون إسماع أصواتهم، وينتهي بهم الأمر إلى لزوم الصمت، خوفاً من أن يُتّهموا بالجبن أو الخيانة.

ـ اعلموا يا إخوتي أنّ احتلال إزمير ما هو إلا بداية تفكيك بلدنا. فاليوناني فينيزيلوس يطالب بكلّ الأراضي التي تحيط ببحر إيجه وبكل جزرنا، بل حتّى عاصمتنا الأستانة. ماذا سيتبقّى من بلدنا؟ لن يفضل إلا بعض الأراضي القاحلة وسط الأناضول. مجرّد إقليم محاصر من كلّ الجهات، أو قل لن يفضل منه شيء.

ـ هل نخضع ونستكين؟ أجيبوني أيّها الإخوة والأخوات: أنتركهم يُعدمونَنا؟

ويغلبها الانفعال فتمدّ يديها نحو الحشد الذي انقطعت أنفاسه، فإذا بهدير صاخب يتعالى أشبه ما يكون بهزيم الرعد، وإذا بأغنية عميقة تنطلق من أقصى الساحة إلى أقصاها: «لن ولن نقبل، سنخلصك يا تركيا الجميلة، يا حبيبتنا العزيزة، يا عروسنا، يا ثدي أمّنا المعطاء، يا طفلتنا التي أصابها الوهن اليوم، نقسم على أنّنا سنخلصك ولن نتركك تموتين أبداً!».

وبينما كانت سلمى عائدة إلى القصر في العربة، سألت والحمرة ما تزال تعلو عينيها:

ـ من تكون تلك المرأة؟

فتجيبها خالتها قائلة:

ـ إنّها الكاتبة الشهيرة والمدافعة الشرسة عن حقوق المرأة: خالدة أديب. ما أبرعها في تحريك مشاعر الجماهير! من المؤسف ألا يكون لدينا رجال مثلها!

قطّبت الطفلة الصغيرة حاجبيها وهي متكوّمة في مكانها. أتستطيع امرأة... وشيئاً فشيئاً تطلّقت أساريرها: تريد أن تكون مثلها في المستقبل. تريد أن تعيش من أجل بلدها وشعبها.

وهكذا اكتشفت سلمى ما يستهويها.

٨

عند العودة من المظاهرة، التقت سلمى بأخيها خيري، فقالت له بنبرة جادّة:

ـ لقد تقرّر أن نذهب جميعاً إلى الحرب، حتّى النساء والأطفال.

حدّق فيها خيري مدهوشاً. فهو لا يرغب في القتال، لكنّه لا يرضى بالإقرار بذلك أمام فتاة.

تظاهر بعدم الاكتراث وسأل:

ـ ـ متى سنذهب؟

ـ صه! لا أحد ينبغي أن يعلم بذلك. فالسلطان يتداول في الموضوع مع وزرائه...

لم تقصد سلمى الكذب. كلّ ما قصدت هو أن تستبق الأحداث. فبعد كلّ ما رأته في ميدان السلطان أحمد، بدا لها من البديهي أن يهبّ الأتراك إلى تحرير إزمير. لم تعد المسألة سوى مسألة وقت. وانطلقت بهمّة لتنقل الخبر إلى أبيها قبل أن يسبقها خيري.

كان الداماد جالساً في الصالون الإمبراطوري مع بعض أصدقائه، وهم زملاء قدامى من وزارتي الشؤون الخارجية والمالية. فاستقبلوا سلمى التي يعرفونها جميعاً بحفاوة، إذ كانت كثيراً ما تتسلل إلى دائرة خير بك. فهي ما تزال أصغر من أن تحتجب في الحريم.

بادرها أبوها:

ـ كيف كانت المظاهرة أيّتها الآنسة الوطنية؟

شرعت تحكي، وهي تشعر بالأنظار مثبّتة عليها، وحرصت على ألا تنسى أبسط التفاصيل. ولما بلغت خطبة خالدة أديب ودعوتها إلى الكفاح، بدأ الرجال يضحكون.

ـ وما دخل هذه المدافِعة عن حقّ المرأة في التصويت بهذا الموضوع؟

ـ وهل طالبت النساء بالذهاب إلى الجبهة محجّبات وغير محجّبات؟

صمتت سلمى وقد ساءتها تعليقاتهم، لكنّهم استأنفوا الحديث الذي كانوا يخوضون فيه قبل مجيئها، ولم يعودوا يأبهون بوجودها.

ـ كنت أقول إن الشعب مرهق، ولن يقبل بالذهاب إلى القتال. أتعلمون كم عدد الجنود الذين فروا في يوليو/ تموز من سنة ١٩١٨؟ خمسمائة ألف. ولا يمكن لومهم على ذلك: كانوا يموتون من الجوع والأمراض، ولم تعد لهم أحذية ولا ذخائر. والوضع ليس أفضل اليوم: المحاصيل فسدت، والمجاعة انتشرت. صدّقوني، ليس الأهم هو مصارعة الطواحين الهوائية مثل دون كيشوت، ومحاولة استرجاع إزمير، بل المهمّ هو أن نحرث الأرض، وإلا فإن تركيا ستزول من الوجود مستقبلاً!

فقال دبلوماسي بالغ الأناقة، يلبس سترة رمادية لامعة، بحسرة:

ـ ينبغي أن نعترف بأنّنا قمنا بالاختيار الأسوأ، على الرغم من أنّ الألمان كانوا يظهرون بمظهر من لا يقهر! أمّا الآن فلم يبق أمامنا إلا أن نحاول التفاوض على أفضل معاهدة سلام ممكنة. أمّا حمل السلاح من جديد فلا يعدو أن يكون أضغاث أحلام! الشجاعة الحقّة هي أن يكون المرء واقعياً.

كانت سلمى تصغي بانتباه. فمن يعرف الوضع في البلد أفضل من أبيها وأصدقائه؟ إلا أنّ الحشود المتحمّسة التي رأتها عصر ذلك اليوم كانت تتوق للقتال...

ولم تعد الطفلة الصغيرة تفهم شيئاً، وشعرت فجأة بالإرهاق، فتكوّمت في مقعدها. أمّا ضجيج المحادثة فلم يعد يصلها إلا من خلال جلبة حشد يردّد: «إزمير! الله أكبر!».

لكنّ صوتاً رناناً أخرجها فجأة من استغراقها، إذ سأل رجل ضئيل مكوّر وصل من توّه:

ـ هل بلغتكم آخر الأخبار؟ لقد بعث صاحب الجلالة مصطفى كمال إلى الأناضول.

فتحت سلمى عينين واسعتين، ورأت الذهول بادياً على الوجوه.

وسأل الحاضرون:

ـ إلى الأناضول؟ ماذا سيصنع هناك؟

ـ من الوجهة الرسمية، لتهدئة وسط البلاد. فالناس يتقاتلون هناك منذ نهاية الحرب، أو بعبارة أدقّ، ينهب بعضهم بعضاً. ورعايانا من الأصول الإغريقية الذين لم يجرّدهم المحتل من أسلحتهم، يفرضون الإتاوات على القرى التركية. كما أنّ الجنود الأتراك الذين شكّلوا عصابات يفرضون إتاوات على القرى الإغريقية...

ثم استرسل وهو يخاطب ضابطاً شاباً:

ـ ... هذا فضلاً على أنّ الجنرال كاظم قره بَكِر صديقكم فقد صوابه تماماً. فهو يتجاهل اتّفاق الهدنة، ويرفض تسريح جنوده، ويقيم قيادته العامة بأرضروم ومعه ستّ كتائب! وقد انضمّ إليه بعض سكّان الجبال وكذلك بعض أنصار أنور باشا وطلعت. هذا باختصار أثار حفيظة الإنجليز، فهدّدوا بإرسال جنودهم لإعادة النظام.

وهتف أحدهم:

ـ أتظنّ أنّ هؤلاء الإنجليز يمكن أن يذهبوا إلى جبال الأناضول؟! سيكونون لقمة سائغة في يد الأتراك!

وتابع الرجل الضئيل، وهو موظّف بوزارة الدفاع:

ـ ما يخشاه الإمبراطور هو أن الجيوش الأجنبية إن توغلت في المناطق الداخلية، فلن تخرج منها أبداً. لهذا تعهّد شخصياً بإعادة الهدوء إلى البلاد. ووعد الإنجليز بوصفه أمير المؤمنين ـ لأنه لم يعد رئيس الدولة إلا بالاسم ـ بأن يضع حدّاً للفوضى.

ولاح الارتياب على وجوه الحاضرين:

ـ وهل وافق الإنجليز؟

ـ لا يجدون ضيراً في أن يجرّبوا. هم لا يرغبون في التضحية بجنودهم، لأنّ ذلك سيكون له وقع سيئ على الرأي العام بإنجلترا، لا سيما أنّ الحرب قد انتهت.

منذ شرعوا في الحديث عن مصطفى كمال، ذلك الرجل الذي يثير أحلام الأميرات، تيقّظت سلمى، وحاولت أن تتبع المحادثة بكل ما أوتيت من انتباه.

سأل خيري بك:

ـ وما هي السلط التي أوكلت لكمال؟

ـ عيّنه السلطان مفتّشاً عامّاً للمنطقة الشمالية، ومحافظاً على الأقاليم الشرقيّة. ومنحه صلاحيات غير محدّدة بدقّة، وهو ما يجعلها قابلة لأن تكون واسعة جدّاً. إنّه اختيار جيّد بما أنه الشخص الوحيد القادر بلا شكّ، بحكم سمعته كبطل، على فرض احترام قرارات العاصمة.

فقاطعه رجل شاحب اللون، من موظفي القصر السامين، بدا حتى تلك اللحظة غير مكترث بالمحادثة:

ـ إنّك ساذج يا عزيزي. فهذا أسوأ اختيار قام به جلالته. لمّا قدّمنا له لائحة الجنرالات الذين يمكن بعثهم إلى الأناضول، وضّحنا له أنّ كمال رجل يجمع بين الطموح والذكاء، وأنّه عوض أن يمتثل للأوامر، يمكن أن يصبح، بخلاف ذلك، قائد التمرّد. لكن السلطان أصرّ على اختياره.

فقال الرجل العامل بوزارة الدفاع:

ـ هذا بالضبط ما يخشاه الإنجليز. فالجنرال ميلن، قائد القوات، غاضب. ذلك أنّ تعيين كمال وقّعه مساعده الذي كان يقوم مقامه بينما كان هو في مهمّة خارج العاصمة. ولمّا عاد حاول إلغاءه، لكن كمال كان قد سافر. تصوّروا أنّ الأمر بلغ بالجنرال أن بعث في إثره توربيدات، وهي سفن حربية بالغة السرعة. إلا الأوان كان قد فات. كان العصفور قد طار بعيداً!

وانفجروا جميعاً ضاحكين من هذا المقلب اللطيف الذي وقع فيه البريطانيون.

وسأل الرجل الشاحب:

ـ قل لي يا محمّد بك، هل تظنّ أنّ صاحب الجلالة أوكل لكمال مهمّة أخرى غير إعادة الهدوء إلى المنطقة؟ لن يخلو ذلك من خطورة: تذكّروا أنّ البند السابع من معاهدة الهدنة ينصّ على أنه في حال التمرّد، يحقّ للمحتل أن يستولي على الأستانة وينهي السلطنة!

فردّ محمّد بك متنهّداً:

ـ من يعرف ما يدور في خلد السلطان؟ فهو بالغ التحفّظ. كلّ ما يمكن أن أنقله لكم هي آخر كلماته لمصطفى كمال التي حكاها لي أقرب معاونيه. وقد كان ذلك في نفس اليوم الذي سقطت فيه إزمير. قال له: «لقد أسديت حتّى هذه اللحظة خدمات جُلّى للدولة يا باشا، لكن انس كلّ ذلك، فقد صار من الماضي. فالخدمات التي ستقدّمها لها اليوم أعظم ممّا فات. هل تستطيع إنقاذ البلد يا باشا؟»[1].

قطّب الضابط حاجبيه وقال:

ـ ماذا قصد بـ«تستطيع إنقاذ البلاد»؟ يمكن أن تفهم هاته العبارة بمعنيين: أعد الأمن للمنطقة اعتماداً على قوّاتك الخاصة حتّى نتجنّب

(١) اللورد كينروس: أتاتورك.

تدخّل المحتلّ، أو جمّع القوات الموجودة في الأناضول، وقُدْ حركة المقاومة!

فأجاب محمّد بك:

ـ لا شكّ أنّ الحقيقة موجودة كالعادة بين هذين الخيارين. أتشرّف بأنّني أعالج أسناني لدى نفس طبيب صاحب الجلالة، وهو يحبّ بعد الانتهاء من حصص العلاج أن يتجاذب أطراف الحديث مع ذلك المستبد العجوز. هل تعرفون ماذا يقول «توث باشا»[1]؟ هو يرى أنّ سلطاننا يضع حديدتين في النار: يظهر للمحتلّ مرونة كبيرة من ناحية، آملاً بذلك في أن يحصل على أفضل معاهدة سلام ممكنة، وهو من ناحية أخرى لا يعترض على قيام تمرّد في الأناضول. ولهذا اختار كمال باشا من بين كثير من الجنرالات الأكفاء. فصاحب الجلالة يريد أن يثبت للمحتلّ أنّ الشعب التركي ليس طوع بنانهم، وأنّهم لا يمكن أن يفرضوا عليه ما يشاءون. إذا قامت القلاقل في الأناضول فسيكون ذلك ورقة ثمينة لصالح السلطان في مفاوضات السلام.

فسأل موظّف الماليّة ساخرا:

ـ وعصب الحرب؟ لتنظيم تمرّد، كيفما كان، يلزم المال. وأنا في موقع يمكّنني من معرفة أنّ صناديقنا فارغة. فموظّفو الدولة لا يتلقون سوى نصف رواتبهم منذ شهور، بل ثلثه أحياناً!

فهمس محمد بك بنبرة من يفشي سرّاً:

ـ يروج أنّ كمال تلقى مبلغاً كبيراً من الجنيهات الذهبية. وهو ما أثار استغراب الجنرال ميلن عندما لاحظ أنّ تركيا على حافّة الإفلاس. وهو يصرّ على أن يعرف مصدر هذا المبلغ. يشيع في القصر أنّ جلالته، ولا

---

(١) tooth Pacha «جنرال الأسنان»، هكذا كان السلطان وحيد الدين يلقب طبيب أسنانه.

دليل عندي على ذلك، باع سرّاً كلّ ما يملكه من أحصنة أصيلة لكي يتمكّن من تسليم كمال خمسمائة ألف جنيه ذهبي.

وبينما كانت كؤوس الكونياك تدور، طاف عليهم خادم يلبس قفطاناً طويلاً أزرق بالسيجار. واستغرق كلّ منهم في أحلامه. من المؤكد أنّ المغامرة خطيرة، لكنها تستحقّ العناء لمجرّد إطاحة هذا الجنرال ميلن الذي لم يعد أحد يطيق عجرفته. وانتصب فجأة الرجل الذي يلبس سترة رمادية لامعة وقال:

ـ لكن إذا كان كمال قد سافر إلى الأناضول؟ فما مصير مشروع الزواج من صبيحة سلطان؟

فردّ الداماد وهو يبتسم بلطف:

ـ الزواج... لم يجب السلطان بلا، لكن صدقوني إنّه لن يجيب أبداً بنعم. الحقيقة أنّه لن يرضى البتّة بأن يزفّ ابنته الأثيرة إلى رجل شغوف بالشرب والنساء، لا سيما وقد أسرّ لبعض مقرّبيه بأنّه لن يقبل أبداً رجلاً يملي عليه سياسته كما حدث له مع أنور باشا.

وفكّرت سلمى وهي ذاهبة إلى غرفتها: «مسكين مصطفى كمال، سيصاب بالخيبة، وأنا من كنت آمل أن يصير عضواً من العائلة...».

راحت تعدّ على أصابعها وهي مستغرقة. ستبلغ سن الزواج بعد ستّ أو سبع سنوات... فلماذا لا يكون؟... وفجأة بدا لها ابن عمّها واصيب، الذي كانت تنوي الزواج منه، سخيفاً. فكمال يفوقه جاذبية، لا سيما أنّه جنرال كبير، وبطل! ستساعده وسيطردان معاً العدو من تركيا. ستنظّم صفوف النساء وستكون خالدة أديب ثانية!

نامت تلك الليلة من دون أن تفارق الابتسامة محيّاها.

٩

من بين كلّ الجواري اللواتي تزينّ قصر خديجة سلطان، لا شكّ أنّ غولفيليس هي أجملهنّ. فهي بقوامها الرشيق، وصدرها البارز، وشعرها ذي اللون الشبيه بلون سنابل القمح الناضجة، وعينيها الزرقاوين، تمثّل نموذج الجمال الشركسي خير تمثيل.

اشتراها تاجر بعد أن تيتّمت وهي في الثامنة من العمر، وكان ينوي بيعها إلى القصر بثمن مرتفع جدّاً. وقدّر أنّها ستصير بعد بضع سنوات إحدى لآلئ الحريم، لكنّه لم يحسب حساباً لثورة ١٩٠٩. فمع خلع السلطان عبد الحميد، وتتويج أخيه رشاد، تحوّل الحكم من ملكية مطلقة إلى ملكيّة دستورية. وكان من بين الإصلاحات الأولى التي أقامها أعضاء تركيا الفتاة إلغاء الرقّ.

فُتحت أبواب الحريم، وأُعلِن في كلّ الإمبراطورية أنّ بإمكان الأُسر أن تأتي لاستعادة بناتها. لكنّ أسراً قليلة لبّت الدعوة. بل إنّ عدداً قليلاً جدّاً من النساء وافقن على مغادرة القصور ومعانقة حريّتهنّ والعيش في بيوت متواضعة في البادية. فبعد أن اعتدن على حياة البذخ، صرن يجزعن من فكرة العمل الشاقّ وحياة الشظف التي تنتظرهنّ.

وقد عاشت هيئة النخاسين لشهور في قلق كبير قبل أن تعود الحياة إلى مجراها الطبيعي. هكذا عوض أن يجازف بولانت آغا، سيّد غولفيليس، بالاتصال بالقصر، فضّل أن يساوم سرّاً. كانت له معرفة بكبير خصيان ابنة السلطان مراد الكبرى، وكانت قد تزوجت مرّة ثانية

واستقرّت في قصرها الجديد، فتمّت الصفقة بسرعة، وكان الرجلان معاً مقتنعين بأنّهما أسديا خدمة لهذه الفتاة اليتيمة.

بهذا النحو التحقت غولفيليس بحاشية خديجة سلطان. كانت أجمل من أن يفكّروا في تعليمها العناية بشؤون البيت، أو إرهاق عينيها بتعلّم الحساب. فقرّرت رئيسة القلفاوات (خزينة دار أسطى) أن تتعلّم مبادئ الموسيقى والغناء، وكذلك فن تنسيق الزهور. وشيئاً فشيئاً صارت خبيرة بتنسيق باقات زهر تُدخل البهجة على كلّ من في القصر. كما أنّها احتلّت مكانة مرموقة في فرقة الحرملك الموسيقية بفضل إتقانها العزف على القيثارة. ولمّا بلغت السابعة عشرة من عمرها، فاق جمالها بكثير ما كان قد توقّعه النخاس العجوز.

كانت أثيرة لدى السلطانة، وكانت تنظر إليها مستغرقة وتقول في نفسها: لو التحقت بخدمة صاحب الجلالة لصارت بلا شكّ إحدى أثيراته، ومن يدري؟ لربّما صارت يوماً زوجته. لكنّها قد تفني شبابها من دون أن تنال الحظوة المأمولة. فقد تقدّم به السن، وصار في هذه الأيام العصيبة أكثر اهتماماً بالسياسة من النساء. إلا أنّ بقاءها هنا في هذا العالم النسائي الذي لا وجود فيه للرجال يعدّ إساءة في حقّ الطبيعة. فلا بدّ لمخلوق بهذا الجمال الفاتن من أن يُنجب. ومن ثمّة كان ينبغي العثور لها على زوج.

وبينما كانت سلمى خارجة من غرفتها ذات صباح، صادفت غولفيليس باكية. حيّرها ذلك فألحّت عليها بالسؤال، لكن الجارية الشابة كانت تنتحب وتشهق حتّى إنّها لم تستطع الكلام. وانتهى الأمر بالطفلة إلى أن جلست بجوارها، وتناولت يدها إلى أن هدأت شيئاً فشيئاً، ومسحت دموعها، ثمّ قالت بنبرة حزينة:

ـ السلطانة تريد أن تزوّجني.

وتذكّرت سلمى القصص الحزينة التي كانت تحكيها لها مرضعتها، فبادرتها:

ـ لعلّه عجوز بشع؟

ـ كلا، هو في الثلاثين من عمره، ووسيم. أبصرتُه من خلف المشربيات.

لم تفهم الصبية الموقف، فسألت بنبرة تشي بالشفقة:

ـ لعلّه فقير معدم؟

ـ كلا، هو غني، ويشغل منصباً رفيعاً في وزارة المالية. بل إنّ الداماد، أبوك، هو من اقترحه على السلطانة.

وعادت إلى البكاء.

ـ لا أرغب في الزواج، هذا هو بيتي وهذه عائلتي. لماذا يرسلونني للعيش عند رجل غريب؟

تأثرت سلمى لقولها، وطوّقتها بذراعيها.

ـ لا تحزني يا غولفيليس، سأفاتح أنيدجيم في الموضوع. أنا متيقّنة من أنّها لا تقصد إيذاءك.

وانطلقت جارية إلى جناح السلطانة انطلاقة فارس يسعى لتخليص حبيبته. على أنّ السلطانة لم تكن بمفردها. كان يجلس قبالتها على بساط المخمل الورديّ الصائغ الأرميني ميمجيان آغا مقرفصاً وسط علب المجوهرات من مختلف الأحجام.

دعتها أمّها قائلة:

ـ تعالي ساعديني يا سلمى.

كانت سلمى مولعة بالمجوهرات. اقتربت منهما بعينين متألّقتين وقد قرّرت إرجاء مفاتحة أمّها في موضوع غولفيليس إلى وقت لاحق.

قالت الأميرة موضّحة:

ـ إنّني أختار هدية لصبيحة. فقد تحدّد تاريخ زواجها.

ابتهجت سلمى للخبر لأنّها تعزّ ابنة عمّها كثيراً. وتساءلت في نفسها

عمّا سيكون رأي مصطفى كمال الذي يحارب في الأناضول. ذلك أنّ العريس الذي وقع عليه الاختيار لم يكن، خلافاً لكلّ التقاليد، غير ابن عمّ صبيحة، أحد الأمراء العثمانيين.

أحدثت هذه القصة ضجّة في القصر، لا سيما أنّها تتعلق بقصّة حبّ. فقد كان الأمير عمر فاروق أحد أوسم رجال الإمبراطورية بلا منازع: فارع الطول، أشقر، ذو قسمات تجمع بين اللطف والصرامة، وعينان زرقاوان مشدودتان إلى الصدغين. كان يحظى بمظهر وأناقة صارت قدوة لشباب الطبقة الراقية. وكان ضابطاً في حرس إمبراطور بروسيا، حليفة تركيا. شارك في الحرب على الجبهة الغربية بألمانيا. ولمّا عاد إلى الأستانة عيّنه السلطان مساعده العسكري، وهكذا تعرّف على صبيحة.

ما كاد يراها حتّى تعلّق بها. وبما أنّ عمر فاروق لم يكن من ذلك النوع من الرجال الذين يغلب عليهم التردّد، فقد هدّد أباه بالانتحار إن لم يسمح له بالزواج من هذه الشابة. وقد كان كلّ من يحيطون به يعلمون أنّه قادر على تنفيذ تهديده.

لكن السلطان لم يوافق على هذه الزيجة لأنّها تخرج عن الأعراف التي تقضي بألا يتزوج أفراد العائلة العثمانية فيما بينهم، وهو عرف جرت به العادة منذ قرون، بعد ملاحظة ما أصاب الأسر المالكة الأوروبية من تدهور، لا سيما أنّ العلاقة بين فرعي العائلة العثمانية لم تكن على ما يرام منذ وفاة السلطان عبد العزيز الذي يؤكد أبناؤه أنّه تعرّض لاغتيال مُقنّع بإيعاز من أفراد فرع السلطان عبد المجيد. وهكذا اتّخذ كلف عمر بصبيحة بعداً مأساوياً شبيهاً بما حدث بين عائلتي مانتيغو وكابولي في قصة روميو وجولييت الشهيرة.

وانتظر البلاط قرار السلطان لشهرين، زار فيها الأمير عبد المجيد، الذي لم يكن له ولد غير فاروق، مرّات عديدة القصر، متناسياً بذلك كرامته وضغائنه. واستجاب السلطان أخيراً لأنه كان مؤثراً سعادة ابنته. كما أنّه ارتأى أنّ من صالح الأسرة المالكة أن تتّحد في هذه الأوقات

العصيبة، ولا شكّ أن زواج فاروق من صبيحة من شأنه أن ينهي الخصومة التي دامت لأكثر من أربعين سنة...

احتارت سلمى وهي جالسة بين هذه الجواهر التي تعرفها جيداً، لأنّها لطالما رأتها على أمّها: فهي تريد أن تهدي صبيحة أجملها، لكنها تعرف أيضاً أنّ الأميرة الشابة ليست مولعة بالحلي الثقيلة الأثيرة لدى الأميرات قريباتها اللواتي يكبرنها سناً. وقرّ قرارها أخيراً على عقد من الزمرد على شكل نفل ذي أربع أوراق نثرت عليها قطع صغيرة من الماس كأنها قطرات ندى. يرافقه إكليل وقرطان وأسورة تحمل نفس الزخارف.

قالت السلطانة بنبرة تشي بالرضا:

ـ ممتاز! هذا يناسب على نحو رائع بشرة صبيحة. والآن قولي لي ما هما المجموعتان اللتان لم تعجباك كثيراً.

تردّدت الصبية قليلاً ثمّ أشارت إلى علبتين تلمع في إحداهما قطع الياقوت واللؤلؤ، وفي الأخرى عقد طويل من الفيروز معه سواران وخاتم ضخم.

فأعلنت السلطانة ضاحكة:

ـ حسناً يا ميمجيان آغا. عسر علي الاختيار، لكن إصبع البراءة أصدر حكمه. أمّا التفاصيل فاضبطها مع زينيل.

غمغم الصائغ ببعض التبريكات، ثمّ تناول العلبتين، ووضعهما برشاقة في حقيبة من الجلد الغامق، ثم حيّا الأميرة بارتباك، وانصرف.

نظرت إليه سلمى وهو يغادر وهي لا تكاد تصدّق عينيها.

ـ لماذا أخذ معه الحليّ يا أنيدجيم؟ وأين هي تلك التي اشتريت اليوم؟

فزيارات ميمجيان آغا التي تباعدت كثيراً في الآونة الأخيرة كانت دائماً مناسبة للقيام بمشتريات ضخمة.

سحبت السلطانة ابنتها إليها ونظرت إليها برصانة، وقالت:

ـ لم أشتر شيئاً يا سلمى... بل بعت الحليّ التي عيّنتِ... أنت ترين أنّ الحرب والاحتلال جعلا كلّ شيء فاحش الغلاء، ونحن نعيل في هذا القصر ما يقارب ستين جارية وعبداً. من المؤكد أنّ بإمكاني الاستغناء عن نصفهم، لكن إلى أين سيذهبون؟ كثيرٌ منهم نشأ هنا منذ الطفولة، وآخرون كبروا عند أبي. وقد أخلصوا لنا الخدمة على الدوام، لذلك يشقّ عليّ فراقهم. هذا هو ما جعلني أبيع مجوهراتي. على كلّ حال أنا أملك منها الشيء الكثير!

ـ هل معنى هذا أنّنا صرنا فقراء يا أنيدجيم؟

أصيبت سلمى بالذهول. فقد شاهدت في الشارع أطفالاً شاحبين يبيعون أربطة أحذية وخيطاناً ودبابيس، يعرضونها في علب من الورق المقوّى معلّقة في أعناقهم. قالت لها الآنسة روز إنّهم «فقراء»، فقدّمت لهم قطعاً نقدية وابتعدت عنهم مسرعة وقد غلبها الخجل من النظرة الحزينة المتلهّفة التي راحوا يتملّون بها فستانها الجميل وخصلات شعرها الأنيقة. ووعدت نفسها ألا تصير فقيرة أبداً. لكنّها سرعان ما هدأت لمّا فكّرت أنّ الإنسان قد يولد غنيّاً أو فقيراً مثلما قد يولد أبيض أو أسود، وأن العالم مقسّم على هذه الشاكلة، وهي توجد من حسن حظّها في الجانب الأفضل.

على أنّ خطاب أمّها رمى بها الآن في هوّة سحيقة من الهواجس: هل ستضطرّ هي أيضاً بعد نفاد الحليّ إلى الخروج للشارع لبيع الدبابيس؟

فطمأنتها السلطانة قائلة:

ـ كلا أيّتها الحمقاء الصغيرة، فنحن لسنا فقراء، لكنّ عدد الفقراء يتزايد من حولنا، ولهذا قرّرت ابتداء من الغد أن أعدّ لهم حساء.

كانت سلمى تجهل معنى «حساء الفقراء»، لكنّها كانت تعلم أنّ حفلاً كبيراً سينظّم في اليوم الموالي في قصر طولمه باغجه، تخليداً لجلوس

السلطان على العرش. وقد قضت ساعة من الزمن تقريباً في اختيار الفستان الذي سترتديه.

قالت لأمّها بحيرة:

ـ هل سيُعدّ هذا الحساء قبل الحفل أم بعده يا أنيدجيم؟

ـ لن يقام حفل. فالسلطان يرى أنه من غير اللائق الابتهاج في بلد دمّرته الحرب واحتُلّت أراضيه. كما أنّه ألغى الألعاب النارية وإضاءة الأنوار وضربات المدافع التي تطلق عادة احتفالاً بذكرى تربّعه على العرش. والمال الذي سيُوفَّر سيصرف لتخفيف وطأة الحاجة على الفقراء. لن يُحتَفل بعد الآن إلا بالأعياد الدينيّة.

خفضت سلمى رأسها وقد شعرت بالخيبة. كانت تأمل أن ترى ابن خالتها واصيب. لم تكن تريد أن تؤذي مشاعره، لكن يجب أن تصارحه بقرارها الزواج من الأشقر. وعلى ذكر الزواج، كان لديها سؤال تريد أن تطرحه على أمّها...

ـ غولفيليس حزينة للغاية يا أنيدجيم. هي لا ترغب في الزواج. ألا يمكن أن نحتفظ بها معنا هنا؟

وبدا الضيق على السلطانة.

ـ أنت رابع شخص يفاتحني في شأن غولفيليس! لقد صمّمت على تزويجها ومعها ثلاث جوارٍ من أجمل جوارينا. أنت أصغر من أن تفهمي هذه الأمور، لكن اعلمي أنّ المرأة لا تشعر بالسعادة إلا إذا كان لها زوج وأطفال. ستجهّز غولفيليس خير تجهيز، وتستطيع المجيء لزيارتنا متى شاءت. إن هي انتظرت بضع سنوات أخرى، سيتقدّم بها السنّ، ولن تجد زوجاً مناسباً. ومن يدري، فقد لا أكون على قيد الحياة لأساعدها.

«لا تكون على قيد الحياة؟ لماذا؟ لماذا قد يتغيّر مجرى الحياة فجأة؟»، لم تفهم سلمى بالطبع شيئاً من كلام أمّها، لكنّها قدّرت أنه

ينبغي لها ألا تلحّ في السؤال، لا سيما أنّ السلطانة كانت قد قامت وتوجّهت إلى الحمّام تتبعها إحدى القلفاوات.

وفي اليوم الموالي، ظهر أمام بوابات القصر العالية عدد من الخدم وهم يقاومون الريح البارد القادم من البحر الأحمر، حاملين على رؤوسهم ألواحاً خشبية عريضة، ثبّتوا بعضها إلى بعض، ثمّ وضعوها على حوامل، فصنعوا بذلك مائدتين غطّوهما بقماش رمادي. ثمّ تلاهم صفّ من الخدم يحملون على رؤوسهم صواني عليها أوعية ضخمة من القصدير، وضعوها على الموائد إلى جانب سلات ملأى بقطع خبز ضخمة.

وسرعان ما ذاع خبر كرم السلطانة في الحيّ. وهكذا، ما كادت القدور الستّ المليئة توضع على المائدتين حتّى وصلت الجماعات الأولى من الناس، وراحت تتقدّم في خجل. ولتفادي الشجارات، أمرت الأميرة بأن تخصّص مائدة للرجال وأخرى للنساء والأطفال. وقد كانت دهشتها ـ وكذلك الأمر بالنسبة لسلمى التي مُنعت من النزول، وراحت تراقب المشهد متخفّية في زاوية من الشرفة ـ كبيرة لمّا لاحظت أنّ القادمين لم يتزاحموا، وكلّ ما تناهى إلى سمعها هي بعض هتافات الاستغراب التي صدرت عمّن وصلوا متأخّرين، وخافوا من أن تنتهي الوليمة قبل أن ينالوا حظّهم. لكنّهم استعادوا هدوءهم لمّا رأوا الخدم يسارعون إلى تعويض الأطباق الفارغة بأخرى مليئة بخضار يفوح برائحة زكية، وقطع لحم شهيّة.

حجّ إلى المكان عدد كبير من شحاذي الأستانة، لكن سلمى لاحظت بينهم أيضاً كثير من الجنود ببزّاتهم المرقّعة. فمنذ أن سُرّح الجيش قبل سنة تقريباً، صاروا يتسكّعون بلا راتب ولا عمل في هذا البلد الذي دمّرته ثماني سنوات من الحرب المتواصلة[١]. كان بينهم أيضاً لاجئون قادمون من داخل البلاد يُعرفون من لباسهم. فقد فرّوا من قراهم بعد أن

(١) حروب البلقان ثمّ الحرب العالمية الأولى.

نهبتهم عصابات وطنيّة يونانية أو أرمينية كانت تسعى لأن تثبت لـ«الحلفاء» استحالة العيش مع الأتراك.

ثمّ هناك الفقراء الجدد الذين لا تخطئهم العين من ثيابهم النظيفة، والضيق البادي على وجوههم. صنّاع أو موظفون صغار كانوا إلى بداية الحرب يكدحون لكسب لقمة عيش كريمة. لكنّهم اليوم فقدوا عملهم بسبب الإفلاس أو دمار المصانع القليلة التي كانت تشغّلهم، وحتّى مدّخراتهم نفتد بفعل الغلاء المستفحل في السوق السوداء التي اجتاحت كلّ مناحي الحياة. وبهذا وجدوا أنفسهم مضطرّين إلى الاعتماد على الأعمال الإحسانية. وقد كانت سلمى تشفق عليهم أكثر من غيرهم: كانوا يبدون منزعجين أشدّ ما يكون الانزعاج، ينظرون حولهم خلسة ليتأكّدوا من أنّ لا أحد ممن يعرفونهم يرى ما بلغوه من مهانة.

وبينما شرع الخدم في إزاحة الألواح عن الحوامل بعدما فرغوا من توزيع الطعام، أبصرت سلمى رجلاً يحلّ بالمكان ممسكاً بيد طفلة صغيرة. كان فارع الطول، يرتدي سراويل واسعة وقميصاً من القماش الرمادي على شاكلة المزارعين الروس. سأل خادماً وهو يقترب من أحد القدور بلغة تركية ركيكة ما إذا فضلت كسرة خبز.

فأجابه الخادم من دون أن يكّلف نفسه النظر إليه:

ـ كلا! لقد فرغنا من توزيع الطعام اليوم. لماذا تأخّرت؟ ما عليك إلا أن تعود غداً!

أبصرت سلمى الرجل يحرّك رأسه وهو يتمسك بالبوابة الحديدية، وبدا كما لو أنّه على وشك أن يغمى عليه. وأجهد نفسه ليُخرج من جيبه حزمة من الروبلات.

ـ أتوسل إليك، أريد كسرة خبز لطفلتي الصغيرة، لم تذق الطعام منذ يومين.

نظر الخادم للنقود بعين ساخرة، وردّ عليه بتذمّر:

ـ ماذا تريدني أن أصنع بمزق الورق هذه؟ قلت لك لقد انتهينا. والآن إمّا أن تنصرف أو أنادي الحرّاس!

شحب لون الرجل لهذه الشتيمة، واستجمع قواه ونهض. وبينما كان يهمّ بالانصراف، سمع صوتاً يقول له:

ـ انتظر يا سيدي!

وظهرت سلمى وهي تنزل السلم بسرعة فائقة، وخاطبت الخادم ممتقعة:

ـ أحضر لحماً وحلويات وجبناً حالاً، هيّا!

وبعد أن اختفى الخادم باتّجاه المطبخ مرتجفاً، التفتت إلى الرجل. كانت تقاطيع وجهه ناعمة، تطوّقه لحية شقراء، وابتسمت عيناه الزرقاوان.

ـ شكراً يا آنسة. أقدّم لك نفسي: الكونت فالنكوف ضابط فرسان في جيش القيصر. وهذه ابنتي «تانيا».

نظرت سلمى إلى الطفلة مصعوقة. لا شكّ أنها من سنّها، لكنّها تبدو من شدّة خجلها وضعفها أصغر منها بكثير.

قالت:

ـ أنا سلمى سلطان. ادخلا!

قادت سلمى ضيفيها إلى كشك من الرخام الأبيض مزيّن بالورود ينتصب على بعد أمتار من البوابة، يستريح فيه الزوار أحياناً قبل الدخول إلى القصر. وما كادا يجلسان حتّى عاد الخادم يتبعه سفرجي يحمل ما يكفي لإطعام عشرة أشخاص. كان واضحاً أنّ الخادم فعل ذلك طمعاً في أن تصفح عنه سيّدته، لكنّ السلطانة الصغيرة لم تكن لتنسى تصرّفه المشين. ماذا قالت أمّها؟ لقد تذكّرت... قالت إنّ الضعفاء ما إن يحصلوا على شيء من السلطة حتّى يصيروا مستبدّين...

فبادرها الضابط كما لو أنّه قرأ ما يجول في خاطرها:

ـ دعي عنك هذا الفتى المسكين. فهو أبعد من أن يدرك ما تؤاخذينه عليه. لقد توقّف عن توزيع الطعام عند الساعة الحادية عشرة امتثالاً للأوامر.

انشدهت سلمى. فقد بدا لها ما أظهره الضابط من تسامح كأنّه تعبير عن منتهى الاحتقار. صحيح أنّها طالما سمعت أنّ الأرستقراطيين الروس يعاملون أقنانهم كالحيوانات...

فردّت وقد بدا عليها الضيق:

ـ إنّه يفهم جيّداً يا سيدي.

وانتهى بهم الأمر إلى التحدّث بالفرنسية، وهي لغة يتقنونها ثلاثتهم. حكى لها الضابط كيف أبيدت آخر كتائب القيصر بقيادة الجنرال فرانجيل في القرم، وكيف نجح في الوصول إلى بتروغراد حيث كانت تنتظره زوجته وابنته، لكنّه وجد منزله مدمّراً، وأخبره بعض الجيران بمقتل زوجته على يد «الثوار الشيوعيين». أما ابنته فكانت في أمان عند إحدى خادماته سابقاً.

ـ كانت الصدمة رهيبة، لأنّني كنت شديد التعلق بزوجتي الشابّة. هممت بالانتحار، لكنّ الخادمة وضعت ابنتي بين ذراعي، فأعادتني إلى رشدي. تدبّرت لنا ملابس رعاة تنكّرنا فيها، وانطلقنا في رحلة طويلة نحو الحدود التركيّة.

كاد أمره يفتضح مراراً. فقد كانت يداه البيضاوين وأخلاقه الأرستقراطية تلفت الانتباه. لكن الفلاحين لم يُجهزوا عليه وتركوه يمرّ إمّا نظير ما قدّمه لهم من رشاوى ـ صرف خلال هذه الرحلة مئات الآلاف من الروبلات ـ أو لأنّهم تعبوا من كل تلك الدماء التي أريقت، أو إشفاقاً على الطفلة.

حكى عن الجوع والعطش والخوف... وراحت سلمى تُصغي إليه وقد اغرورقت عيناها بالدموع. وسرعان ما شردت ولم تعد تسمع ما

يقول: تخيّلت نفسها في قصرها وقد شبّت فيه النيران، يحاصرها رجال يهتفون: «تحيا الثورة!» تنادي على أبيها وأمّها من الفزع، لكن لا مجيب، فتدرك أنهما قتلا، وأنّها وحيدة. راحت تجري وتجري في طريق لا نهاية له والرصاص يلعلع خلفها. وعلى الرغم من خوفها لم تكفّ عن التساؤل: لِمَ يسعون لقتلها...

وشرعت تنتحب بصوت مسموع، فقاطعها الضابط وقد تأثّر لتعاطفها قائلاً:

ـ قلبك طيّب أيّتها الطفلة، والربّ لن يضيع أجر إحسانك.

شعرت الصبية بالخجل من سوء فهمه ومن أنانيتها، فمسحت عينيها، وقالت:

ـ إنّكما لا تأكلان شيئاً، بالكاد مسستما الطعام.

ـ من طول ما عانينا من الجوع طيلة شهر كامل، كأنّنا فقدنا عادة الأكل.

ـ إذن احملا معكما كلّ هذا الطعام.

أومأت للخادم فلفّ الطعام في قماش أبيض ووضعه في سلّة كبيرة من القصب.

لكنّ سلمى ظلّت مشوشة البال:

ـ ماذا ستفعلان الآن؟

ـ ما يريده الربّ.

الربّ؟ مطّت سلمى شفتها قليلاً. عوض إرجاء الأمر إلى الربّ، حريّ بها أن تستشير السلطانة.

ـ انتظراني لحظة من فضلكما.

لمّا دخلت على أمّها في مخدعها، قابلتها بجفاء.

ـ ماذا فعلت يا سلطانة؟ سمعت أنك استقبلت غرباء في الكشك الموجود في الحديقة؟!

فتمتمت سلمى مرتبكة:

ـ جئت لأفاتحك في أمرهما يا أنيدجيم... إنّهما يوشكان على الموت جوعاً.

وحكت لها القصة كاملة.

ـ ألا نستطيع مساعدتهما يا أنيدجيم؟

استعادت السلطانة هدوءها، وقالت:

ـ لا مانع لدي، ولكن يوجد في الأستانة مائة ألف لاجئ روسي... ولاجئو الأناضول الأتراك والمناطق الإيجية يفدون بالآلاف كلّ يوم. عليّ أن أهتمّ بهم أوّلاً. آسفة يا بنيّتي، لا أستطيع أن أفعل أكثر من هذا.

تسمّرت سلمى في مكانها: إنّها أوّل مرّة ترى فيها أمّها ترفض الإحسان. لا شكّ أنّ الأمور تسير من سيئ إلى أسوأ.

استسلمت السلطانة بصمت، وجرت إلى غرفتها. هناك اختارت أجمل فساتينها، وحذاء لامعاً ودمية كبيرة جُلبت من أكرانيا ثمّ عادت إلى الكشك.

قبلت الطفلة الروسية الهدايا وقد ارتسمت على محياها ابتسامة حزينة انقبض لها قلب سلمى.

وقفت مشوّشة الذهن خلف شباك البوابة تتابع تانيا وأباها وهما يبتعدان.

١٠

عندما استيقظ سكّان الأستانة صباح يوم ١٦ مارس/ آذار من سنة ١٩٢٠، لم يصدّقوا ما رأته أعينهم: لقد تحوّلت مدينتهم في ليلة واحدة إلى معسكر ضخم للجيش. كانت المدرّعات تجوب الشوارع، والمدافع الرشّاشة مصوبة على المارّة في ملتقيات الطرق. واحتُلّت مراكز الشرطة ووزارة الحربية ومقرّ البحرية ووزارة الداخلية ومحافظة المدينة ونادي الضباط. وكان بعض جنود الإنجليز يرابطون في محطة القطار والجمارك ورصيف غلطة، يساعدهم رجال من الجوركا[1] الهنود. وقد اجتاح الجنود الفرنسيون، معزّزين بكتائب سلاح الفرسان كلّ مناطق المدينة بما فيها الحدائق العمومية ومحيط مسرح «بوتي شان». وعمدت فرقة من الجنود السينغاليين إلى تطويق السراي القديم فيما قامت فرق أخرى بمراقبة قصور كلّ الشخصيات المهمّة. يضاف إلى ذلك أنّ دوريات تابعة للحلفاء مؤلّفة من أربعة رجال: شرطي بريطاني ودركي فرنسي وآخر إيطالي وشرطي عثماني يتبعهم وهو يتلكّأ في مشيته، كانت تطوف في الشوارع، وتفرّق أبسط تجمّع بضربات من هراواتها، هذا في الوقت

(١) الجوركا أو الغورخا Ghurkhas هي التسمية التي أطلقها البريطانيون على فيالق شكّلوها من النيباليين بعد هزمهم القوات النيبالية في معركة مالان Malaun. وقد شاركت هذه الفيالق في الحربين العالميتين، ونال بعض عناصرها أوسمة الخدمة البريطانية. (المترجم)

الذي كانت فيه فرق من الشرطة العسكرية تفتّش المنازل، وتعتقل الأتراك الذين تشتبه في أنّ لهم صلة بمتمرّدي الأناضول.

وقد انتهى الأمر بالجنرال «تيم» المعروف رسمياً بالسير شارل هارينغتن، قائد القوات البريطانية، بأن أقنع السلطات الفرنسية والإيطالية التي كانت شديدة التحفّظ، بأنّ الوقت قد حان لإنهاء مقاومة سكان الأستانة؛ تلك المقاومة التي كانت خفيّة، لكنّها فعّالة.

ذلك أن الذخائر كانت تختفي من مخازن الحلفاء كلّ ليلة رغم أنّها محروسة بعناية. ثمّ إنّ الضباط والجنود الأتراك كانوا يغادرون العاصمة متنكّرين ليلتحقوا بجيش مصطفى كمال الناشئ. لهذا وجب إخضاع هذه المدينة العاصية. وبعدما كان الوجود العسكري في الأستانة رمزياً، تقرّر إخضاعها لاحتلال شامل إثر ادعاء المندوب السامي البريطاني أنّ مؤامرة تحاك لاغتيال كلّ الأوروبيين.

وحتّى لا يشكّ أحد في جدّيّة نيّات الجنرال «تيم»، أمر بإشهار ملصقات ضخمة في كلّ شوارع المدينة كتبت عليها كلمة «موت» بحروف سوداء بارزة: الموت لكلّ من تستر على متمرّد، والموت لكلّ من سرق أسلحة، والموت لكلّ من قدّم عوناً، مهما كان، لذلك الرجل الخارج عن القانون، المسمّى مصطفى كمال.

كان قصر خديجة سلطان في غاية الاضطراب. فقد أوفد كلّ الخدم من الرجال إلى استطلاع الأخبار، وكانوا يعودون الواحد تلو الآخر حاملين تفاصيل مروعة: الجنود يفتّشون حتّى القبور بحثاً عن الأسلحة، وأنّ ستة عشر شاباً من فرقة موسيقية قتلهم الجيش لمجرّد الاشتباه في أنّهم من المحاربين. كذلك اعتقل عدداً من أعضاء البرلمان المعروفين بنزوعهم الوطني، من بينهم رؤوف باشا، وزير البحرية السابق، والأمير المصري سعيد حليم، وهو صديق قديم للعائلة. وممّا لا شكّ فيه أنّهم سيُنفون إلى مالطة. كما أنّ الشرطة تبحث عن الكاتبة خالدة أديب التي تلهب كتاباتها وخطبها الوطنية مشاعر الناس على نحو خطير.

بينما كانت سلمى تصغي لتلك الأخبار، تذكرت بتأثر تلك المرأة الجميلة المتحمّسة التي أبكتها يوم مظاهرة ميدان السلطان أحمد. ولأوّل مرّة شعرت بأنّها تكره هؤلاء الأجانب الذين يتصرّفون تصرّف الأسياد في بلدها.

وما لبث أحد الخصيان أن أحضر الجرائد. كانت قد نشرت جميعاً على صفحاتها الأولى البلاغ المشترك الصادر عن المندوبين السامين الإنجليزي والفرنسي والإيطالي: «إنّ رجال المنظّمة المسمّاة وطنية يسعون إلى عرقلة الإرادة الطيّبة للحكومة المركزية، وهو ما أجبر قوات الحلفاء على احتلال القسطنطينية مؤقّتاً».

قالت سلمى في نفسها: «يا لخبل هؤلاء! يصرّون على إطلاق تسميّة مسيحيّة على مدينة تدعى الأستانة منذ خمسة قرون!».

ويضيف البلاغ: «لا يقصد الحلفاء إلى تقويض سلطة السلطان، بل يريدون تعزيزها. كما أنّهم لا يسعون إلى انتزاع القسطنطينية من الأتراك. لكن إذا عمّت الاضطرابات والمذابح، فقد يتغيّر هذا القرار. على الجميع أن يساهموا في بناء تركيا الجديدة على أنقاض الإمبراطورية القديمة، وعلى الجميع الامتثال للسلطان».

قالت السلطانة وقد تملّكها غيظ شديد:

ـ الامتثال للسلطان؟! يا لها من مسخرة!... يتحدّثون كما لو أنّ الناس تجهل أنّ الباديشاه(*) رهينة بيد المحتلّين، وأنّه لا يستطيع أن يحرّك ساكناً من دون أن يهدّدوه بالخلع وتسليم الأستانة للإغريق!

ما من مرّة رأت سلمى أمّها في مثل تلك الحالة من الغيظ، وهو ما استنتجت منه أنّ الوضع لا بدّ أن يكون في غاية الخطورة. وفكّرت بأنّها قد تحصل من أبيها على توضيحات أكبر.

(*) السلطان.

كان جالساً كعادته في غرفة التدخين مع بعض أصدقائه. كانت آثار النكبة بادية على وجوههم: فقد احتلت وزاراتهم، واعتقل عدد من زملائهم. وكان الخدم يذهبون ويجيئونهم بآخر الأخبار. بدت الدهشة عليهم وهم يقولون:

ـ يا للمفاجأة! لم أكن أعلم أنّ فلاناً من أنصار كمال أيضاً!

ـ لعلّه ليس منهم، لكنّ الإنجليز من شدّة غيظهم من تسرّب الأسلحة وسرقتها صاروا يشتبهون في كلّ الناس.

ـ هم ليسوا على باطل. تصوّروا بما أجاب حرّاس أكبر مستودع للأسلحة في المدينة الضابطَ الإنجليزيَ الذي حقّق معهم في قضية اختفاء الذخائر؟ أقسموا بأغلظ الأيمان بأنّ الماعز التي ترعى في المرج ليلاً هي التي نطحت بقرونها الأبواب المختومة بالشمع، فحطّمتها. أظنّ أن الضابط الإنجليزي لم ير فائدة من سؤالهم عمّا إذا كانت الماعز هي التي التهمت الذخائر أيضاً!

وتعالت قهقهاتهم.

ـ لكن هذا لم يمنع تدابير الرّدع الأخيرة من تقوية شعبيّة كمال. فقد بدأت أُعجب بهذا المجنون منذ هذا الصباح.

سأل خيري بك بنبرة تشي بالدهشة:

ـ أهو مجنون؟ لا يبدو أنّ صاحب الجلالة يشاطرك هذا الرأي. بل إنّ الإنجليز يشتبهون في أنّه يشجّعه ويتظاهر بعكس ذلك أمامهم لربح الوقت. ثمّ إنّ وزيرهم في الخارجية، اللورد كورزون، اعترف مؤخراً بأنّه لم ينتبه إلى أنّ العلاقات بين مصطفى كمال والسلطان كانت وثيقة إلى هذا الحدّ.

لم يكن الناس يخاطرون بمغادرة منازلهم إلا لضرورة ملحّة. أمّا سلمى فكانت منزوية وقد استبدّ بها الضيق. تجري الأمور دائماً بهذا النحو، كلّما وقعت أحداث مهمّة، سجنوها في البيت. توقّفت الجولات

الأثرية التي كانت تسمح لها بالإفلات من المراقبة، وأوصدت دونها أبواب القصر، ولم يعد ثمّة مجال للحديث عن الخروج. بل حتى ذلك السيل المتواصل من الزوار الذي كان يبث الحياة في الحرملك، ويحمل لها حصتها اليومية من الأخبار والنمائم، انقطع. وبدت الحياة كما لو أنّها توقفت.

بذلت الآنسة روز قصارى جهدها لتسلية سلمى، إذ اقترحت عليها تحفيظها أغاني فرنسية، لكنّ ذلك جرّ عليها نقمة الفتاة. وجدت سبيلاً لتنفيس حنقها، وأفصحت لها عن مقدار كرهها للفرنسيين والإنجليز وكلّ هؤلاء الأجانب الذين يمنعونها من الخروج.

وبينما كانت تتقلّب في فراشها ذات ليلة، وهي تفكّر في أشجانها، سمعت وقع خطوات في الممرّ. فلمّا وصلت الخطوات إلى باب غرفتها، سمعت شخصاً يقول: «اخفض صوتك!»، ثمّ مضت الخطوات تبتعد. قفزت من فراشها، وواربت الباب، فلمحت زينيل يحمل في يده مصباحاً ويتقدّم شخصاً متدثراً بمعطف طويل، وهما يتّجهان... صوب جناح أمّها! نظرت في ضوء مصباحها الليلي الخافت إلى منبّهها الجميل الذي جلبه لها الجنرال الأمير من سويسرا: إنّها الساعة الثانية عشرة والنصف ليلاً! من يقابل السلطانة في هذه الساعة المتأخّرة يا ترى؟

غادرت غرفتها وقد تسارعت دقّات قلبها، وراحت تقطع الممرّ وهي تتلمّس طريقها في الظلام. كان يتوزّعها شعوران: الفضول والخوف. جدير بها ألا تفكّر في العقوبة التي تنتظرها إن اكتشف أمرها. ومضت تؤنّب نفسها: أترتعد فرائصها لمجرّد التفكير في سخط أمّها، هي من تحلم بأن تصير بطلة على غرار خالدة أديب؟!

تنفّست بمعمق للتغلّب على خوفها، وواصلت السير. ولمّا بلغت أقصى الممرّ، أبصرت ضوءاً خافتاً يتسرّب من خلال ستارة البروكار التي تعزل البهو الصغير. اقتربت أكثر، فسمعتهم يتهامسون. اختبأت بين طيات الستارة الضخمة، وأزاحتها قليلاً لتطلّ بعين واحدة، فبُهتت لِما رأت:

أبصرت رجلاً شاباً جالساً على مقعد قرب السلطانة. كان يهمس لها وهو يعرض عليها أوراقاً تُجيل فيها عينيها بانتباه، ويرفع رأسه بين الفينة والأخرى لينظر بقلق حواليه. تفحّصته سلمى فإذا هو ليس من العائلة، أشعث اللحية، مهمل الهندام. كما أنه لا يشبه أصدقاء أبيها. من تراه يكون؟ ولماذا تستقبله أمّها في جناحها الذي لا يدخله الرجال باستثناء زوجها وأفراد عائلتها؟ ولاحظت في زاوية من البهو زينيل وقد خفض عينيه والانزعاج بادٍ عليه.

ثمّ قامت السلطانة فجأة، وأشارت للخصيّ، وطلبت من الغريب أن يتبعه. وبالكاد وجدت سلمى الوقت لكي تختبئ في الستارة. مّر الرجلان بمحاذاتها وتوجّها نحو السلم الدائري الذي يفضي إلى الطابق الثالث. لم يتوقّفا، وتابعا صعودهما إلى أن سمعت صرير باب السقيفة الثقيل. انتظرت قليلاً، فرأت زينيل عائداً بمفرده. لم تصدّق سلمى ما شاهدت: أمّها تخفي غريباً في الجناح المخصّص للنساء!

انطفأ نور البهو الصغير. لا بدّ أنّ السلطانة أوت إلى فراشها. وعادت سلمى خلسة إلى غرفتها مصعوقة ومسرورة في آن: أخيراً يحدث شيء في هذا القصر الكئيب! وتزاحمت الأسئلة في ذهنها المشوّش من دون أن تعثر لها على جواب: إذا كان هذا الرجل يختبئ، فلا شكّ أنّه مجرم. فلماذا تتستّر عليه أمّها إذن؟ أتراها ستخبر بابا بأمره؟ لا شكّ أنّه سيغتاظ من إقدام الأميرة على استقبال رجل غريب في جناحها خلال غيابه. فقد ذهب خيري بك إلى أُسكُدار على الضفة الآسيوية لقضاء بضعة أيام عند بعض أصدقائه. وقد زاد تردّده عليها في هذه الأيام. بل إنّ سلمى سمعت بعض القلفاوات المسنّات يقُلن بتذمّر إنّه من غير اللائق أن يسافر ويترك السلطانة لوحدها، لا سيما أنّ الوقت غير مناسب بالنظر لما تعرفه المدينة من أحداث.

نظرت إلى المنبه: بالكاد بلغت الساعة الثانية صباحاً. ما أثقل عقارب الساعة! كانت متلهّفة لطلوع النهار حتّى تستطلع الأخبار.

وما إن بدأت تغفو حتّى استيقظت مذعورة على طرق عنيف على باب المدخل. جرت إلى النافذة، فلمحت على ضوء مصابيح إنارة الفناء الداخلي ثلاثة من رجال الشرطة الأتراك يلوّحون بأيديهم وحرّاس القصر يحاولون تهدئتهم. ثمّ ظهر خصيان، فسمعتهم سلمى يشرحون لهم أنّ صاحب البيت غير موجود. والتمسوا منهم الانصراف حالاً لأنّهم يوجدون قرب جناح النساء. اعتذر الشرطيون، لكنّهم قالوا إنّهم مضطرّون للإلحاح: فقد بلغهم أنّ مجرماً خطيراً تسلّل إلى القصر، وأنّهم تلقوا أوامر بتفتيشه.

ووقف الخصيان شاحبين أمام الباب، متأهّبين للدفاع عن الحِمى، بينما بدا الحرّاس متردّدين: فهم مكلّفون بحماية القصر، لكن ماذا سيصنعون مع الشرطة؟

ودوّى فجأة صوت قوي:

- ماذا يجري؟

إنّها السلطانة. ظهرت عند العتبة وقد أخفت نصف وجهها بخمار داكن.

سألت رجال الشرطة وهي تحدجهم بازدراء:

- ماذا تفعلون هناك أيها السادة؟ منذ متى صار المسلمون يقتحمون أبواب الحرملك بالقوّة؟

تسمّر الضابط الذي يقود الفرقة للحظة في مكانه، ثمّ انحنى وهو يقول:

- صدّقيني يا سلطانة فأنا أوّل من يسوؤه هذا، لكن بلغنا أنّ مجرماً شوهد وهو يدخل إلى قصركم، وقد أمر الصدر الأعظم، الداماد فريد، بتفتيشه.

ابتسمت السلطانة باستعلاء.

- أيجرؤ هذا الرجل الدمية على أن يوجه لي الأوامر؟! اعلموا أنّني لا

أتلقى الأوامر من أحد إلا من جلالته. إن أتيتموني برسالة وقّعها الباديشاه، امتثلت.

فتمتم الشرطي والحيرة بادية عليه:

ـ لكنّنا يا سلطانة...

ـ لا داعي للإلحاح أيّها الضابط، فلن تدخلوا. هذا يمس بشرفي.

فلما لاحظت عليه الارتباك، أمرت أحد حراسها قائلة:

ـ اشهر مسدّسك!

أبصرت سلمى من شرفتها رجال الشرطة يصوّبون بنادقهم، وقبل أن تجد الصبية الوقت لتصرخ تدخّلت السلطانة قائلة بنبرة ساخرة:

ـ لا تخشوا شيئاً، لن أسمح أبداً بإشهار السلاح في وجه جندي تركي، لكن تيقنوا من أنكم لن تدخلوا هذا الحريم وأنا حيّة.

وراحت تداعب المسدّس بلامبالاة وهم ينظرون إليها عاجزين عن استيعاب الموقف.

ثم لاحت على محياها ضحكة فاترة وهي تضيف:

ـ لكم الاختيار أيّها السادة، فماذا تفضلون؟ إغاظة الداماد فريد أم إغضاب السلطان عندما سيعلم مقدار ما سبّبتم لي من إزعاج؟

وبدا على وجه الضابط شيء من الإعجاب. قلّما صادف في حياته رجالاً من طينة هذه المرأة، ثمّ همس بنبرة متفهّمة:

ـ أرجو المعذرة يا سلطانة.

ثمّ أضاف:

ـ إني أعلم أنّ الرجل الذي نبحث عنه في القصر، لكنّني لن أضايقك أكثر حتّى ولو كلفني ذلك قهقرة رتبتي.

ثمّ ضرب الأرض بكعبيه واختفى في الظلام.

وفي الصباح هرعت سلمى إلى أمّها. كانت جالسة إلى منضدةِ زينتِها

تقلّب لاهيةً صفحات مجلّة الموضة الباريسية الشهيرة «شيفون» بينما تمشّط جارية جدائل شعرها الطويل.

سألت الصبيّة:

ـ هل نمت جيّداً يا أنيدجيم؟

ـ نوماً عميقاً يا عزيزتي، وأنت؟

ـ نمت نوماً مضطرباً. أيقظتني أصوات غريبة.

كانت سلمى متلهّفة لمعرفة فحوى هذه القصة، وصمّمت على أن تجبر أمّها على البوح. لكن محاولتها ذهبت سدى. ذلك أنّ السلطانة بعد أن استغربت بنبرة لامبالية قائلة «أحقّاً؟»، استغرقت في القراءة. تجوّلت سلمى بضع دقائق في الغرفة، ولمّا أيقنت أنّها لن تحصل على طائل، غادرت خائبة. أمّها لا تثق بها كما لو أنّها تظنّها غير قادرة على حفظ السرّ. ما زالت تعتبرها طفلة صغيرة رغم بلوغها التاسعة من العمر. حسناً! ستعتمد على نفسها للتحقيق في الأمر!

كانت الساعة تشير إلى الحادية عشرة، والشيخ الذي يأتي كلّ صباح ليلقّنها القرآن ألغى الحصة، وبذلك وجدت نفسها تنعم بساعتين من الحرّيّة. وأعلنت للآنسة روز أنّها ستمكث في مكتبها الصغير لكي تدرس كتاب الله. لكن ما كادت المربية تغادر حتّى تسلّلت من الغرفة. وبعد أن تأكّدت من خلو الممرّ، ذهبت إلى السلم المفضي إلى السقيفة. مشت على أطراف قدميها وهي تحبس أنفاسها. لكن بمقدار حرصها على ألا يسمع أحد حسّها، كان يتهيأ لها أنّ فرقعة الأرضية الخشبية تتعالى أكثر فأكثر.

ولمّا وصلت أمام باب السقيفة تردّدت: أعليها أن تطرق؟ هذا ما يقتضيه الأدب، لكن هل يلزم أن يتأدّب المرء مع مجرم؟ وفي الأخير سعلت بصوت عالٍ ثمّ دفعت الباب ببطء.

كانت السقيفة من العتمة بحيث لم تستطع أن تميّز شيئاً. تقدّمت بمنتهى الحذر، فإذا بصوت مخنوق يجعل قلبها ينخلع من مكانه:

ـ قف مكانك وإلا أطلقت النار!

ولمّا اعتادت عيناها على العتمة، تراءى لها طيف غير محدّد الملامح: رجل مقرفص على بعد أمتار منها يصوّب عليها مسدّساً، لكن الصوت كان متهدّجاً. لا مراء في أنّه أشدّ منها خوفاً. هذه الملاحظة بثّت في نفسها الشجاعة ـ لم تتصور لحظة أنّه قد يطلق عليها النار ـ فراحت تطمئنه بإقدام.

ـ لا تخف. أنا لا أريد إيذاءك.

نظر إليها الرجل مصعوقاً، ثمّ تنبه فجأة لعبثيّة الموقف، فراح يضحك بصوت عالٍ اهتزّ له سائر جسده. ضحكٌ طال حتّى بدا لا نهاية له. وقد توقعت سلمى كلّ شيء إلا أن يصدر هذا الضحك الصاخب عن مجرم تبحث عنه الشرطة. ولمّا استعاد أنفاسه، سأل:

ـ من أنت؟

هذا الرجل ليس متهوّراً فحسب، بل سيئ الأدب أيضاً: كيف يجرؤ على مخاطبتها بهذه النبرة المبتذلة؟ انتصبت الصبيّة وخاطبته بخبث:

ـ أنا ابنة خديجة سلطان التي كنت عندها هذه الليلة.

كانت تتوقّع أن ينهار أمامها، لكنّه اكتفى بأن لاحظ بمكر:

ـ كنت تراقبينا إذن! لم أكن أعلم أنّ الأميرات الصغيرات متطفّلات إلى هذا الحدّ!

قالت سلمى في نفسها: «يا له من رجل فظ!»، لم تتّخذ المحادثة بينهما المنحى الذي توقّعته. عوض أن تكون في موقع المحقّق القاضي، وجدت نفسها في وضع المتّهم. من المؤكّد أنّ الكبار كائنات لا تطاق: فهم حين يعاملون الأطفال، يظنّون أنّ بإمكانهم استباحة كلّ شيء. عليها أن تستعيد زمام الأمور إذن. حاولت أن تبدي أقصى ما تستطيع من قسوة وقالت:

ـ لماذا تبحث عنك الشرطة؟ من أنت؟

ارتسمت ابتسامة واسعة على وجه الرجل بثّت ألقاً خافتاً في عينيه:

ـ يا له من تحقيق جادّ! أشعر بسرور عارم وأنا أجيبك يا أميرة. تفضّلي بالجلوس.

وأومأ بإشارة جليلة إلى كومة من الخرق البالية بجانبه. وقالت سلمى في نفسها: «لعلّه يهزأ بي». لكن، كيف يمكنها أن تلومه الآن على المبالغة في التأدّب معها...؟ ثمّ إنّها لا تريد أن تغضبه، لا سيما أنّها متلهفة لمعرفة قصّته. وجلست بمنتهى الحذر بينما راح هو يتفرّسها.

ـ لقد صرتِ فتاة رائعة بعدما كنت رضيعة مزعجة!

لقد طفح الكيل بسلمى، فامتقع وجهها، ومضت تبحث عن جواب لاذع.

استرسل الرجل من دون أن يبدو عليه أنّه لاحظ سخطها:

ـ عرفتك لمّا كنت ما تزالين في السنة الأولى من عمرك. كنت معاوناً عسكرياً لخالك الأمير صلاح الدين. وبعد وفاته التحقت بالجبهة القوقازية حيث قضيت ثلاث سنوات حالكة أقاتل في حرب لم تكن حربنا...

وأحسّت سلمى كما لو أنه نسي وجودها. كان يتحدّث بصوت خفيض، وصادفت صعوبة في فهم ما يقول.

ـ هُزِمنا فاقتسم أعداؤنا الإمبراطورية، وها هم الآن يحاولون محونا من الخارطة كما لو أنّ تركيا تمثّل غولاً ينبغي سحقه خوفاً من أن يقوم من جديد. طيلة قرون وفرائصهم ترتعد منها، وها هم اليوم ينتقمون. لكنّهم مخطئون. فهم إذ يمعنون في إذلالنا، يرغموننا على خوض المعركة الأخيرة، وهي معركة ما عاد لنا شيء نفقده فيها.

وتتساءل سلمى في نفسها: «لِمَ لا يستطيع الكبار أبداً الإجابة ببساطة على الأسئلة البسيطة؟»،

وبصوت طفولي واضح طرحت عليه السؤال من جديد:

ـ لماذا تبحث عنك الشرطة؟ ماذا فعلت؟

نظر إليها الرجل وقال في نفسه: إنّها ما تزال صغيرة، فماذا عساها تفهم؟ وبادرها سائلاً:

ـ هل سمعت يوماً بالجنرال مصطفى كمال؟

ـ سمعت به طبعاً!

أتراه يستغبيها؟

ـ حسناً، فأنا أحد مساعديه، كلّفت بالاتصال بالضباط الذين يرغبون في الالتحاق بالمقاومة في الأناضول. أساعدهم على مغادرة الأستانة متنكّرين عبر أكثر الطرق أماناً. لكن أحدهم وشى بي، فطوّق الإنجليز المنزل الذي كنت أختبئ فيه أمس، إلا أنّني تمكّنت من الفرار عبر السطوح. وبينما كنت أبحث عن مكان ألجأ إليه تذكّرت أنّ الأمير صلاح الدين كان يقول إنّ أمّك تُعزّ تركيا ولا تقدّم عليها شيئاً. لعلّها تقبل إيوائي، وقلت في نفسي، مهما يكن، لن تجرؤ الشرطة على دخول قصر السلطانة! عدا أنّني أخطأت التقدير. فإذا كانت السلطانة قد نجحت في صدّهم هذه الليلة، فإنهم سيعودون. هم يعرفون أنّني هنا.

ثمّ أضاف وهو يزيح الستارة ويومئ إلى رهط من رجال الشرطة بمدخل الحرملك:

ـ انظري! هناك عدد مماثل في المدخل الآخر، وهم ينتظرون الأمر باقتحام القصر. ينبغي أن أغادر في أقرب وقت، ولكن كيف؟

بعد ساعات من ذلك خرجت جماعة من النساء بشراشفهن السوداء من الحرملك باتجاه السوق يحملن سلالاً كبيرة، ويتحدّثن بجلبة عن المكان الذي يجدن فيه أفضل الخضراوات وألذّ الفواكه. مررن أمام الشرطة من غير أن ينظرن إليهم، ثم انعطفن عند أول شارع إلى اليمين من دون أن يتوقّفن عن الهذر.

قال أحد الشرطيين معلّقاً بامتعاض:

ـ لقد وهب الله النساء لساناً طويلاً كذنَب الشيطان، ودماغاً ضخماً مثل حبّة أرز.

وراحوا يقهقهون بازدراء زاد من حدّته تكدّر مزاجهم. فقد قضوا صباحهم في البرد القارس يراقبون مدخل القصر بلا طائل، إذ لم يغادر القصر أحد باستثناء جماعة العجائز الثرثارات هذه. كم عليهم أن يبقوا من الوقت ها هنا؟ طويلاً بلا شكّ، لأنّ القضية خطيرة، والسلطانة ذات الشخصية القويّة قد تحوّلها إلى فضيحة، وهو ما تسعى قيادة الحلفاء إلى تلافيه. لكن، كيف يتنازلون من دون أن يصيروا أهزوءة؟ واستسلم الشرطيون لأفكارهم الكئيبة وأسنانهم تصطكّ من البرد.

توقّفت جماعة النساء تحت إحدى السقائف، لِيُساعدن كبراهنّ سنّاً على تسوية شرشفها، وأحطن بها ليخفينها عن أعين المارّة... وفجأة سرت حركة بين هذه الشراشف أشبه بالاهتزاز، وتبدّى بينهن رجل لا بدّ أنّه آت من داخل البيت. حملت النسوة سلالهنّ من جديد من دون أن يُظهرن اهتماماً به، ابتعدن وقد تعالت ضحكاتهنّ وأصواتهنّ الصاخبة. أمّا الرجل فعبر الشارع واختفى في الزحام.

خلا الرصيف من المارّة من جديد، وبدت تحت السقيفة على الأرض كومة صغيرة سوداء: إنه شرشف العجوز...

بعد ثلاثة أسابيع، تلقّت سلمى بطاقة غريبة كُتب عليها: «جرذ السقيفة عاد إلى مأواه، وهو يشكر الجنّيات اللواتي أحسنّ إليه». فجرت مسرورة لتنقل الخبر إلى أمّها التي رفعت حاجبيها وقالت:

ـ من يكون مُرسل هذه الرسالة الغريبة؟ أنا لا علم لي، وأنت أيضاً لا تعرفين عنه شيئاً بالطبع.

حدجت ابنتها بنظرة متواطئة، فشعرت سلمى بمنتهى السعادة: لقد صارتا تشتركان في سرّ حقيقي، سرّ يمكن أن يقود إلى الموت إذا صدقت تهديدات المحتلّ. وتذكّرت خالدة أديب التي التحقت بالمقاتلين الوطنيين بالأناضول، وشعرت كما لو أنّ بطلتها تبتسم لها.

١١

كانت العربة تتقدّم على الأرض الترابية وهي تترنّح وتوشك على الانقلاب، لكن الحوذي يعيد لها توازنها في آخر لحظة بينما يكبح جماح الأحصنة بعنف أو يجلدها بقوّة.

كانت سلمى بداخل العربة ملتصقة بخالتها فاطمة سلطان، تضحك من الفرح، فرح أشدّ من ذاك الذي تبعثه في النفس اللعب التي تنصب في حديقة القصر أيّام البيرم. الأمر يتعلّق هذه المرّة بمغامرة حقيقية: فهي توجد مع خالتها بعيداً عن وسط الأستانة، في ضواح شبه خالية، إن وقعت لهما حادثة سيضطران إلى إمضاء الليل في ذلك المكان. ومن يدري، فقد تجبران على طلب المأوى من أحد البيوت الصغيرة المتواضعة التي لم ترها الصبية إلا عن بعد، والتي لطالما حلمت بدخولها.

كثيراً ما حاولت خلال نزهاتها مع الآنسة روز أن تستدرجها إلى هذه الأحياء الفقيرة التي تستهويها، لكن المربّية الفرنسية كانت ترفض باستياء وتقول:

ـ ماذا عساك ترين هناك؟ القذارة والبؤس؟ صدّقيني، ليس ثمّة ما يثير الفضول!

ولا يسع سلمى إلا الصمت أمام هذه الحدّة غير المعهودة في مربيّتها العانس، المعروفة عادة بسماحتها. وتسأل نفسها بحيرة: ماذا عساها ترى؟! لا تعرف على وجه التحديد. كلّ ما في الأمر أنّها تظنّ أنّ الحياة

الحقيقية توجد هناك، في ذلك الفقر الذي يخيفها كثيراً، وبعيداً عن الشرنقة الناعمة التي كبرت فيها. كثيراً ما رأت من نوافذ العربة المشبّكة، خلال نزهاتها في المدينة، أطفالاً نصف عراة يتجارون ويتصايحون، فتغبطهم. ألعابهم الفظّة العنيفة تسحرها، ويتراءون لها أفضل من أبناء عمومتها وخؤولتها، وتخالهم يتنفسون هواء أكثر حيويّة.

حاولت أن تشرح هذا الشعور لغولفيليس التي أضحت صديقتها، فنظرت إليها الخادمة الشابّة شاردة وقالت:

ـ العكس تماماً أيّتها السلطانة الصغيرة. ليس الغِنى هو الذي يخنق الحياة، بل الفقر.

وهو كلام لم يُقنع الصبيّة. إذا كان الأمر كذلك، فلمَ عيون الأطفال الفقراء أوسع، ونظراتهم أعمق من أطفال الأغنياء؟...

تسير العربة الآن في طريق مرصوف تظلّله أشجار السرو. وأيقنت الصبيّة هذا الأمر: لن يقع حادث اليوم. كانت العربة تقترب من الزاوية، وهي مقصد هذه النزهة، ولم تعد سلمى قادرة على تمالك نفسها من شدّة الفضول: هذه هي أوّل مرّة تصحب فيها خالتها إلى هذا المكان المقدّس الذي دأبت على التردّد عليه منذ سنين. فإذا كانت خديجة هي أميل الأخوات الثلاث إلى العقل، وفهيمة أميلهنّ إلى الفن، فمن المؤكّد أن فاطمة هي أشغفهنّ بالتصوّف. ذلك أنّها كانت تقضي أيّاماً بكاملها قبل زواجها في الحلم وتأمّل النصوص المقدّسة. ولم يزدها الزواج إلا ثباتاً على هذا الطريق. فقد كان زوجها رفيق بك ينتمي لطريقة الدراويش التي أسّسها جلال الدين الرومي في القرن الثالث عشر. وبما أنّ الطائفة مفتوحة للنساء، كان من الطبيعي أن تسير فاطمة على خطى زوجها.

فسّرت الخالة لسلمى أنّ تركيا تعجّ بهذه الطرق منذ قديم الزمان، ويطلق على أتباعها اسم الصوفيّة. وهو اسم مشتقّ من الصوف، أي قماش الصوف الأبيض الذي كانوا يلبسونه دلالة على الطهارة

والانصراف عن مباهج الحياة. على أنه انصراف لا ينفي الفعل، بالعكس! وحدّثتها عن الانكشارية، أولئك الجنود الزهّاد الذين شكّلوا لقرون قوّة الجيش العثماني. وقد قضى عليهم في القرن الفارط السلطان محمود، لأنّهم غلّبوا ـ على غرار فرسان الهيكل ـ الجانب العسكري على الجانب الديني، حتّى صارت قوتهم تمثّل تهديداً للعرش.

كانت سلمى تُنصت إلى خالتها بانتباه. وعلى الرغم من أنّها لم تفهم بوضوح معنى التصوّف، شعرت بالزهو لأنّ السلطانة تشرح لها كما لو كانت كبيرة. وقد بدا لها هذا الأمر أمتع من حصّة قراءة القرآن اليوميّة المفروضة عليها. فهي لا تعرف العربية، وصوت الشيخ العجوز الرتيب يحمِلها على النوم. لكن لا سبيل للإفلات من هذا الأمر: مهما يكن، فالقرآن ينبغي أن يُقرأ بلغته الأصليّة، كما أوحى به الله للنبيّ محمّد، لأنّ قيمة الكلام الإلهي، بحسب السنة المأثورة، تعلو على العقل البشري ذي القدرات المحدودة.

في المقابل لطالما حلمت بأن ترى هؤلاء «الدراويش الدوّارين». فهم أناس يصلّون وهم يرقصون! مع أنّها تربّت على أنّ الرقص فُحش وقلّة حياء. وهي لن تنسى يوم باغتتها أمّها ترقص رفقة خادمة صغيرة، فصبّت عليها جامّ غضبها، وحكمت عليها بالسجن في غرفتها ثلاثة أيام.

من البديهي أنّ الرقص الشرقي ليس شيئاً لائقاً، ومن المؤكّد أنّ الدراويش لن يمضوا إلى... وتمالكت نفسها من الضحك. فالبولكا والرقصة الرباعية التي ترقصها الأميرات فيما بينهنّ ليست مستهجنة. وحاولت سلمى أن تتخيّل أولئك الرجال الصالحين وهم يرقصون آيات القرآن على أنغام رقصة بولكا سريعة، فبدت لها الصوفية فجأة شيئاً بالغ الجاذبيّة.

توقّفت العربة داخل حديقة ظليلة بعد أن تجاوزت بوّابة حديدية. كان منزل الشيخ الخشبي المتواضع لا يكاد يظهر تحت عرائش اللبلاب. وأثارت فاطمة سلطان انتباه ابنة أختها إلى مقبرة صغيرة متوارية تضمّ

عشرة قبور تقريباً، تحيط بها صفوف من الحجر المنحوت بعناية: إنّه مدفن الشيوخ السابقين. توقّفتا لتلاوة الفاتحة ترحّماً على أرواحهم، ثمّ واصلتا السير في ممرّ محفوف بالورد، يفضي إلى تكيّة، وهي عبارة عن بناية بديعة من الحجر تعلوها قبّة خضراء: إنّه المكان الذي تجرى فيه الاحتفالات. توشّحت فاطمة سلطان بشرشفها وغطّت سلمى بثوب ثمّ قادتها إلى باب يقع في ركن البناية، وهو الباب المخصّص للنساء. ارتقتا سلّماً ضيّقاً يفضي إلى بهو دائري تحيط به مشربيات، تؤدي فيه نساء من مختلف الأعمار شعائرهنّ وهنّ متّشحات بأوشحة فاتحة، وجالسات على سجادات صغيرة.

جعدت سلمى أنفها من رائحة العفونة والعرق التي تملأ المكان. وبينما كانت تجول ببصرها باحثة عن مكان شاغر إذا بامرأة قصيرة بدينة تهرع إلى فاطمة سلطان لتقبّل يدها. إنّها زوجة الشيخ، وألحّت على الأميرتين لكي ترافقاها إلى المقصورة المخصّصة للشخصيات المتميّزة. حاولت فاطمة سلطان ثنيها وقد ساءها هذا الحرص على تراتبية لا تليق بالمكان. لكن المرأة لم تفهم شيئاً من ذلك، وواصلت إلحاحها. وحتى لا تجرح مشاعرها، لبّت طلبها وهي آسفة على هذا الإبعاد القسري عن الناس.

راحت سلمى تتفحّص غرفة الحفلات في الأسفل وقد ألصقت وجهها بالشباك الحديدي. غرفة تتخلّلها أعمدة من الخشب المحفور، وفي جنباتها تجمّع أتباع الطريقة خلف درابزينات ناعمة، تتوسّطها مساحة فارغة واسعة تنفتح على محراب، وهو تجويف في الجدار أشبه برغبة لا ترتوي، يشير إلى اتجاه مكة.

ثمّ ظهر الدراويش، فعمّ الصمت فجأة. كانوا يلبسون ثياباً بيضاء تعلوها عباءات سوداء ويضعون على رؤوسهم قبّعات عالية مصنوعة من اللباد. أمّا الشيخ فكان آخر الداخلين. انحنوا جميعهم أمام المحراب. وراح مراهق ينشد بصوت شجي رتيب قصيدة قديمة في مدح الرسول. بينما مضى عازف الناي يرتجل لحناً مؤثّراً يتخلّله قرع الطبول.

ويضرب الشيخ الأرض فيتقدّم الدراويش ويدورون على القاعة ببطء ثلاث مرّات، دورات ترمز إلى مراحل التقرّب إلى الله: طريق العلم والمعرفة، وطريق الرؤيا، وطريق الوصال. ثمّ يتخلّصون من عباءاتهم السوداء التي ترمز للقبر، كاشفين عن أرديتهم البيضاء الساطعة. وبعد أن تتطهّر أرواحهم يشرعون في الدوران ببطء وقد رفعوا يمناهم إلى السماء لقطف ثمار النعمة بينما مدّوا اليسرى نحو الأرض لنقل هذه النعمة إلى العالمين.

عندئذٍ انضمّ الشيخ إلى الراقصين، فتسارع الإيقاع. هو يمثل الشمس بتألّق عِلمِه، بينما يدور حوله الدراويش مثل الكواكب تدور حول نفسها وحول الشمس، فيتّحدون بذلك مع القانون الكوني. ويتسارع دورانهم على إيقاع أنغام الناي، تلك القصبة التي تحكي الأسرار الإلهية لمن يُحسن الإنصات إليها، فيستسلمون بكلّ كيانهم ويستغرقون في نشوة صوفية عمادها الحلول في الحقيقة المطلقة.

تتأمّلهم سلمى وقد أسرتها الموسيقى ودوران الألبسة البيضاء. وتراودها رغبة جارفة في الانضمام إليهم، والانصهار في هذا الرقص السحري، لكن عليها أن تظلّ مختفية خلف المشربيات. وحذتها رغبة مفاجئة في البكاء: هناك أمر مهمّ يجري، وهي محرومة من المشاركة فيه. نظرت حواليها عاجزة: من المؤكّد أنّ الله لا يوجد في هذه الغرفة الخانقة، بل هو في هذا الفضاء الذي تضيئه أشعة الشمس الغاربة، مع هؤلاء الدراويش الراقصين الغارقين في السعادة.

تشبّثت بشباك المشربيات والدموع تترقرق في عينيها. لا يحقّ لهم منعها من التنفّس، وإقصاؤها من الحياة!

فهي قد تحمّلت أن تُسرق منها شوارع الأستانة وحدائقها وحشودها، لكنّها تشعر في هذه الأثناء بأنّهم يسرقون منها ربّها أيضاً، وهي تختنق من الغيظ والتعاسة والتمرّد العاجز...

وشيئاً فشيئاً أخذ صوت الناي يتحوّل إلى همس، وتتباطأ الدوامة، وينغلق الثوب المتدلّي الشبيه بالتنورة إيذاناً بنهاية الحفل.

وينسحب الشيخ إلى غرفته ليستقبل المريدين. وما أدهش سلمى هو السماح للنساء أيضاً بلقائه سافرات الوجه. فالشيخ يقدّر أنّ النزوات الفاحشة لا يمكن أن تتسلّل إلى هذا الجو القائم على البراءة البهيجة التي أشاعها الرقص المقدّس.

وتدفع فاطمة سلطان ابنة أختها المتوجّسة نحو الرجل التّقي. كان جالساً على وسائد واطئة وأحد مريديه يمسح بمهابة جبينه المتصبّب عرقاً. إنّه رجل نحيف ضئيل لا شيء يميّزه عن سائر الناس. فقد فارقه ذلك الألق الذي كان يشعّ منه خلال الحفل. وشعرت سلمى كما لو أنها خُدعت فيه. وجدت نفسها في غرفة مؤثّثة بلا ذوق قبالة رجل عاديّ بين جماعة من الأتباع تتابعه بنظرات بلهاء.

لكنّ خالتها أومأت إليها بأن تتقدّم لتقبيل يد الشيخ، فجفلت وتراجعت إلى الخلف، إلا أنّها سرعان ما تمالكت نفسها: على كلّ حال فليست هذه أوّل يد تقبّلها! لقد قبّلت قبلها أيادي لا عدّ لها، منها الخشنة والناعمة، المتصلّبة والرخوة، الناشفة والنديّة، الشحيحة والسخيّة، الحنونة والقاسية، الواهنة والشديدة. أيادٍ أحبّتها وأعظمتها وأخرى ودّت لو تعضّها. لكنّها لما انحنت أمام الشيخ، شعرت بأنّها تشارك في كذبة أكثر جديّة من كل صور النفاق الاجتماعي التي تربّت عليها منذ الصغر.

كانت اليد تنتظر موضوعة على وسادة مخمليّة. يد ناعمة بيضاء، لا تكاد تظهر عليها التجاعيد. وبينما انحنت عليها، استدارت عارضة راحتها الوردية، فنظرت الصبية بارتباك إلى خالتها التي همست لها:

ـ قبّلي هذه الراحة، فهو شرف عظيم. الشيخ ينفتح لك، ويريدك قريبة إلى قلبه.

مسّت الراحة بشفتيها مسّاً خفيفاً، ولمّا رفعت رأسها بهرها النور الساطع المنبعث من عيني العجوز، وهو نور من القوّة بحيث لم تستطع تحويل عينيها عنه. واسودّت بقية الغرفة في عينيها، فتملّكها الخوف.

استجمعت قواها وقامت مترنّحة. وفيما يشبه الضباب خمّنت المكان الذي توجد فيه خالتها، فتعلقت بساعدها. لم تلحظ فاطمة سلطان شيئاً. أحَدَثَ شيءٌ أصلاً؟

كان الشيخ ينظر إلى الصبية وقد لاحت على وجهه ابتسامة ودود، ابتسامة جادّة مفعمة بالحدب والسماحة، ثمّ دعاها بصوت حفيّ للجلوس على مقعد صغير بقربه حيث كان يجلس طفلان آخران، فابتسمت فاطمة سلطان مسرورة بهذا الاستقبال. ذلك أنّ الشيخ لا يُجلس بقربه إلا من يحبّ، ومن يتوسّم فيهم سموّ الروح.

وامتلأت الغرفة شيئاً فشيئاً بالزوّار. الظاهر أنّهم كانوا يتعارفون، وكانوا يثرثرون منتشين بهذا اللقاء. وفجأة انفتح الباب، وتقدّم أربعة ضباط أتراك ببزّاتهم الرسميّة، فأفسح لهم الحاضرون الطريق، وتعرّفت سلمى بينهم بذهول على بعض الراقصين الذين كانوا قبل لحظات يدورون. قبّلوا يد الشيخ وجلسوا على وسائد قبالته تماماً.

قدمت زوجة الشيخ بمساعدة خادمتها وجبة خفيفة من منتجات الألبان والحلويات، فطاب الحديث، وراحوا يناقشون بعض مسائل الطريقة. وأبدى شابّ استغرابه من وجود الشرّ في عالم خلقه ربٌّ لا حدود لرحمته. وراح كلّ متحدّث يعرض تفسيره، وتململ الضباط في مقاعدهم. ولمّا عيل صبر أحدهم أخيراً، قال:

ـ تسألون عن سبب الشرّ؟ هل هذه هي المشكلة؟ الحقيقة أنّ الشرّ موجود، بل هو مدعوم من قائدنا الروحي، شيخ الإسلام الجديد!

لزم جميع الحاضرين الصمت وعيونهم مشدودة إلى الضابط، فاستطرد يقول:

ـ بلادنا بين أيدي الكفّار، وسلطاننا خليفة العالم الإسلامي، رهينة لديهم. أليس من واجبنا كمؤمنين تحريره وتحرير تركيا، حتّى لا يكون الإسلام تحت سيطرة المسيحيين؟

قال ذلك وهو يحدّق في الشيخ الذي أمّن على قوله.

ـ أنت محقّ يا بنيّ، هذا هو واجبنا الأوّل.

فاستطرد الضابط:

ـ فلماذا أقدم شيخ الإسلام على الجهر بإدانة للنضال الوطني الذي يقوده مصطفى كمال بالأناضول؟ لماذا أصدر تلك الفتوى المخزية التي تعتبرنا خونة، وتأمر الشعب بمقاومتنا بالسلاح؟

وخيّم صمت ثقيل، وتركّزت الأعين على الشيخ وهو يتنهّد.

ـ قلت إنّ سلطاننا غير حرّ، وهو أمر صحيح... قد يكون شيخ الإسلام غير حرّ أيضاً.

فقال الضابط بسخط:

ـ كان عليه أن يلزم الصمت على الأقل!

ـ ربّما كان حريّاً به أن يُظهر الشجاعة! لكنّه قد يكون قدّر بصدق، على غرار كثير من مواطنينا، أنّ النضال الوطني لا ترجى منه فائدة، وأنّه لن يعمل إلا على تشديد شروط معاهدة السلام التي ستُفرض علينا.

ـ سيكون النصر حليفنا يا سيّدنا، ليس أمامنا خيار آخر.

ونهض العسكري الذي يبدو أكبرهم سنّاً، وأشهد الحاضرين على ما يقول:

ـ منذ الاحتلال التأديبي الذي فرض على الأستانة، نلاحظ أنّ الأنصار يفدون من كلّ أصقاع البلد. بل إنّنا نرى بينهم نساء وفتيات تركن عائلاتهنّ وقدمن لمعالجة المرضى. ومنهنّ من يغامرن بحياتهنّ كلّ يوم لكي ينقلن الرسائل أو يحملن ذخائر يخبّئنها في أقمطة رُضّعهن. ثمّ

هناك، على طول الطريق المؤدّية من الأستانة إلى قيادتنا العامّة، المواطنين الذين يستقبلوننا ويطعموننا ويخفوننا. ومن بين هؤلاء يوجد كثير من الزوايا الصوفيّة التي لم يخطر ببال المحتلّ القيام بتفتيشها.

ثمّ ابتسم وهو ينحني أمام الشيخ.

ـ إنّه لدعم معنويّ كبير بالنسبة إلينا يا شيخنا.

لم تصدّق سلمى ما سمعت أذناها. إنّه أحد مراكز النضال الوطني.

فهؤلاء الدراويش، هؤلاء المريدون المستكينون، وهذا الشيخ الذي بدأت تتعلّق به أكثر فأكثر، هم من... (وراحت تبحث عن الكلمة التي سمعتها بالأمس عند أبيها...) متآمرون! لهذه اللفظة هالة من المغامرة والبطولة فتنتها. فهل خالها رفيق وخالتها فاطمة متآمران أيضاً؟ وهي، أنالت شرف هذا النعت بعد أن اطّلعت على سرّ الزاوية؟ واقشعرّ بدنها من النشوة، وشعرت بأنّ حياتها صارت فجأة مُثيرة.

انقطع حبل أفكارها بدخول أحد الخدم معلناً أنّ الصناديق شحنت على عربات تحمل التبن، وأنّ لوازم تنكّر هؤلاء العسكريين جاهزة.

فقال الشيخ وهو يلتفت إلى الرجال الأربعة:

ـ ممتاز! انطلقوا عند منتصف الليل عندما يبدأ الحراس بمغالبة النوم. سيدلّكم أحد الدراويش على آمن الطرق.

وتستغرق سلمى في الحلم: صناديق؟ لا شكّ أنّها محمّلة بالأسلحة. فهي جالسة إلى جانب أبطال حقيقيين يسعون للالتحاق بالجبهة. وتملّكها شعور بالفخر من كونها موجودة في هذا المكان. ونظرت إلى أولئك الرجال بإكبار: يا لبهاء مظهرهم! سيكسبون الحرب لا محالة!

عاد الحاضرون إلى الحديث كما لو أنّ شيئاً لم يقع. وراح الضباط يحكون متفكّهين كيف أن الأسلحة تمرّ إلى الأناضول رغم أنف الإنجليز.

ـ الشعب التركي يساعدنا، لكن تصوّروا، حتّى الجنود الفرنسيون

والإيطاليون يساعدوننا. فهم يستشيطون غضباً من الإنجليز الذين استفردوا بكلّ منافع النصر لأنفسهم ولرعاياهم من الإغريق. فإزمير مثلاً، التي مُنحت لهم كان من المقرّر أن تعود للإيطاليين. أمّا الفرنسيون فبدأوا يدركون أنّ الإنجليز، بعد استئثارهم بنصيب الأسد، بما في ذلك العراق وما يزخر به من نفط، يسعون الآن للاستيلاء على تركيا التي لم يتركوا لهم منها غير قليقيا. ويشاع أنّ حكومة كليمانصو حانقة إلى حدّ كبير بحيث إنّها تدرس إمكانية مساندة مصطفى كمال خِفية. فهي تريد أن تمنع بريطانيا من أن تصير سيّدة الشرق الأوسط بكامله. والنتيجة العملية هي أنّ جنود فرنسا يتغاضون لمّا نتسلل ليلاً إلى مستودعات الأسلحة. بل إنّ أحد الموظفين الفرنسيين، ويدعى دولاكروا، وقد عُيّن مؤخّراً، يدبّر الأمر بحيث يخبرنا بالليالي التي يتلهّى فيها الحراس.

كان الحضور ينصتون مشدوهين، وفجأة تعالت الضحكات. وهتف بعض الشباب بنزق:

ـ تحيا فرنسا!

كانت نظرة شزراء من الشيخ كافية لكبحهم.

سأل أحد الحاضرين:

ـ لكن قولوا لنا كيف تعبُر الأسلحة والذخائر البوسفور لتصل إلى ضفّة الأناضول؟

فأجاب أحد الضباط:

ـ تعيرنا جمعية أرباب المراكب بعض القوارب، فنعبر ليلاً. ورغم أنّ معظمهم من الأرمن، فهم يقدّمون لنا مساعدة ثمينة.

وتدخّل رجل ذو لحية كثّة بيضاء:

ـ ما الغريب في هذا؟ فما زال لدينا كثير من الأصدقاء الأرمن، لا سيما في الأستانة حيث عاشت الطائفتان لقرون بلا مشاكل. هم يعلمون أنّ مذابح ١٩١٥ شرق البلاد قامت بها جزئياً قبائل كرديّة كانت تتنازع مع

الفلاحين الأرمن على الأراضي. لكن بما أنّ الصحافة الأوروبيّة متواطئة على تدمير الإمبراطورية العثمانية، أوردت عناوين بارزة تتّهم «الأستانة بالإبادة الجماعية». لكنّ الحقيقة هي أنّها أمرت بالترحيل، وهو ترحيل لم يكن يخلو من وحشية بالنظر إلى عدد النساء والأطفال الذين ماتوا من الجوع والمرض خلال الطريق.

سأل مراهق وقد تورّد خجلاً من تجاسره على الكلام:

ـ ولكن، لماذا رُحِّلوا؟

فردّ العجوز بحنق:

ـ أوَتظنّ أنّ الحكومة تُقدم على ترحيل رعاياها في غمرة الحرب بلا أسباب قاهرة؟ فقد كان الأرمن يعيشون في منطقة استراتيجية، على طول حدودنا مع روسيا التي كنّا في حرب معها. ما كانت تسعى إليه العناصر المتطرّفة، أو لنقل الوطنيّة، بالمقام الأوّل هو الاستقلال، وهو ما وعدتهم به روسيا، فمهّدوا الطريق لجيوش القيصر، ودلّوهم على مواقع الأتراك. وصارت بذلك حدودنا الشرقية مُشرعة للغزاة. إنّ ما دفع طلعت باشا إلى أن يأمر بذلك الترحيل المأساوي هو وقف اختراق العدوّ للحدود.

وبينما خيّم الصمت، واستغرق الحاضرون في أفكارهم، تعالى صوت الشيخ الأجشّ من جديد قائلاً:

ـ أنت شديد التفاؤل يا جمال بك، فمن يساعدوننا أقليّة، أمّا أغلب الأرمن فيساندون المحتلّ، لأنّهم ما زالوا يطمعون في أن يحصلوا منه على دولة مستقلّة. مساكين، يُمنّون النفس بالأوهام... فالمحتلّ يستغلّهم، لكنّه سيتخلى عنهم بمجرّد ما يقضي منهم وطره.

كانت سلمى تنصت لهذا النقاش بكلّ جوانحها. فقد أثّرت فيها المأساة الأرمينية خلال حديثها مع الآنسة روز ذات يوم، لا سيما أنّ إحدى صديقاتها الأثيرات، وهي حفيدة أحد الوزراء، كانت أرمينية

الأصل. حاولت أن تستفسر أمّها عن هذه القضية، لكنّها ما كادت تفاتحها حتّى اغرورقت عينا السلطانة بالدموع. كانت تلك هي أوّل مرّة ترى فيها سلمى أمّها تبكي، فهزّ ذلك مشاعرها.

غمغمت وهي تقبّل يديها قبل أن تلوذ بالفرار وقد وعدت نفسها بألا تطرح عليها هذا السؤال ثانية:

ـ عذراً يا أنيدجيم!

لم تفهم بأنّ شيئاً بالغ الخطورة وقع في بلادها سوى الآن، ولا أحد يتحدّث عنه. لمّا كانت صغيرة، كانت تدفن الأشياء التي كسرت معتقدة بأنها سوّت المشكلة. وقالت في نفسها إنّ الكبار يتصرّفون أحياناً مثل أطفال صغار.

طافت خادمة بصينية على الحاضرين وأخذت توزّع عليهم مشروباً عسلي اللون، مصنوعاً من أعشاب تنبت في حديقة الزاوية، يسمونه «مشروب الصفاء».

لكن الشيخ يساوره القلق.

ـ يقال إنّ مصطفى كمال صديق حكومة البلاشفة، وإنّه هو نفسه شيوعي، أهذا صحيح؟

ابتسم أحد الضباط ابتسامة ساخرة، وقال:

ـ كمال ليس أكثر شيوعية منّي! أستطيع أن أؤكّد لكم أنّ أفكار المساواة لا تهمّه بتاتاً. هو بالأحرى أميل إلى الديكتاتورية. وهو إن كان يغازل السوفيات، فلأنه بحاجة لمساعدتهم: نحن بحاجة إلى المال والذخائر، والحال أنّ الحكومة السوفياتية التزمت بأن تمدّنا قريباً بستين ألف بندقية وحوالي مائة شاحنة ومليوني جنيه ذهبي. ينبغي الاعتراف بأنّ إنقاذ الخلافة بأموال هؤلاء الملاحدة ليس أمراً سخيفاً!

وتعالت القهقهات، لكنّ الشيخ لم يقتنع، فأضاف قائلاً:

ـ البلاشفة دهاة. هم يسعون إلى إقناع مسلمي روسيا بأنّ الشيوعية

والإسلام لهما نفس المثل العليا، ويستدلّون على ذلك ببعض آي القرآن التي تدعو إلى المساواة بين البشر على أرض الله، وأن خيراتها ينبغي أن تعود لمن يعمل فيها. وهم قد نجحوا في بثّ سمومهم هذه شمال بلاد فارس، حيث بدأ الملالي يتبنّون هذه الأفكار الهدّامة. والظاهر أنّ بعض الشيوخ المقرّبين من كمال في الأناضول بدأوا يروّجون نفس الترّهات.

عندئذ صارت نبرته حادّة.

ـ أخبروا الجنرال أنّه إن ترك الأفكار الشيوعية تتسرّب إلى شعبنا، حتّى لو كان ذلك لإنقاذ تركيا، فلن تسانده أيّ زاوية.

ـ لا تخف يا شيخنا. إنْ تعاظم نفوذ الشيوعيين، فأنا مقتنع بأنّ كمال باشا سيكون أوّل من يقضي عليهم.

هزّ الشيخ رأسه تعبيراً عن الرضا، وراح يرشف عصير الصفاء ببطء. كان الوقت متأخراً، على أن السؤال الأهم الذي كان يشغل كلّ الأذهان، لم يجرؤ أحد على طرحه. وانتهى الأمر بالضابط الذي أبدى تبرّمه من شيخ الإسلام بأن تشجّع وسأل:

ـ حدّثنا يا شيخنا عمّا ترى في المنام، أسنكسب الحرب؟

بدا الشيخ مستغرقاً في التفكير حتّى إنّ سلمى تساءلت إن كان قد سمع السؤال. مضت لحظات فأجاب بصوت خفيض كما لو أنّه في سبات:

ـ سيطول الكفاح، وستطرد تركيا الكفرة، لكنّهم سيهزمونها.

فسُمعت همهمة بين الحاضرين.

ـ كيف؟ هلا وضّحت لنا معنى هذا الكلام؟

ـ هذا كلّ ما أعرف. ستنتصر تركيا عسكرياً، لكن هذا النصر هو الذي سيجعل من أوروبا السيد الحقيقي ها هنا، سيّد العقول...

ولاذ بالصمت من الإنهاك.

فسأل أحد العسكريين:

ـ لكن، أعلينا أن نواصل الكفاح؟

اعتدل الشيخ في جلسته، وحرّك رأسه بنفاد صبر.

ـ لماذا كلّ هذه الأسئلة؟ واجبكم اليوم هو أن تبذلوا قصارى جهدكم لتحرير الأرض، لكن غداً، بعد عشرات السنين، سيكون على أبنائنا وأحفادنا أن يشنّوا على الأجنبي حرباً أخرى، حرباً أهمّ وأخطر...

كانت الساعة قد جاوزت منتصف الليل لمّا عادت سلمى وخالتها إلى القصر حيث كانت خديجة سلطان وأختها فهيمة تنتظرانهما. كانتا تتحدّثان بصخب. فالسلطانة تعاتب أختها الصغرى على مشاركتها في الحفلات التي دأبت سفارة فرنسا على تنظيمها.

ـ ألا تستحين! العدو يحتلّنا، وأنت تذهبين عنده لاستعراض محاسنك؟! كيف تجرؤين على هذا؟

فردّت فهيمة بنبرة مشاكسة:

ـ أوّلاً، لست الوحيدة التي تفعل ذلك في عائلتنا يا عزيزتي. فبعض أمرائنا يتردّدون باستمرار على الصالونات الفرنسية. ثمّ، ما العيب في ذلك؟ أتظنّين أنّنا لو عشنا حياة النسّاك سنعجّل باستقلال بلدنا؟ إذا كانت فاطمة تجد متعتها في التردد على الزوايا، فأنا أجد متعتي في التردّد على الحفلات الراقصة. ماذا تفعلان، أنت وهي، أكثر منّي لمصلحة تركيا؟

فأجاب صوت صغير:

ـ نحن نتآمر.

وتتّجه الأنظار إلى سلمى التي من فرط ما خافت من جرأتها، تمّنت لو تغور في الأرض. ماذا أصابها، وهي التي تعرف كيف تصون لسانها؟

حدجتهنّ فهيمة بنظرة هازئة.

ـ تتآمرن؟ ممتاز! اعلمن أنني أتآمر أنا أيضاً، وأفعل ذلك أفضل منكنّ بلا شكّ: فأنا أمارس الدبلوماسية الراقية. أثبت للمسؤولين الفرنسيين، الذين يبعثون بتقارير يومية إلى باريس، بأنّ الأتراك أناس

متحضّرون، وأنّهم أصدقاء بلدهم، وأنّنا أدركنا أخطاءنا السابقة، بما فيها تحالفنا القاتل مع ألمانيا، وأنّنا لمّا سنستعيد زمام أمورنا، سنكون شركاء فرنسا الأوفياء!

وترتبك سلمى. ذلك أنّ خطاب خالتها بدا لها مقنعاً، لكنّ خديجة سلطان هزّت كتفيها، وقالت:

ـ سيفعل الفرنسيون ما يعتقدون أنّ فيه مصلحتهم، ولن تحملهم ابتساماتك على تغيير رأيهم يا أختي. إلا أنّ الشعب التركي الذي يراك تتردّدين على من يقمعونه، سيحاسبك ذات يوم مثلما سيحاسب كلّ أفراد عائلتنا!

١٢

ـ عظيم ياعزيزتي! إنّها المرّة الأولى التي يبدي فيها جلالته الحزم: حكم على كمال بالإعدام! حكم بالإعدام على ذاك الذي أصبح بطل الشعب. فهو الوحيد الذي تجرّأ على رفض إملاءات المحتلّ، والوحيد الذي أنشأ جيشاً، وقاتل! إنّه لأمر لا يصدّق! كان الناس ينتظرون من الباديشاه توشيحه... فإذا به لا يصغي إلا لكلام صهره، الداماد فريد، ويراعي مصالح إنجلترا فقط. وهذا يدعو إلى التساؤل عن المصالح التي تحرص حكومتنا على خدمتها: المصالح البريطانية أم مصالح الشعب التركي؟!

شحب لون خديجة سلطان وهي تنصت لهذه الإهانة. مضت أسابيع وزوجها يؤنّبها كما لو أنّها مسؤولة على تصرّفات السلطان. ماذا يريد بالتحديد؟ أيريدها أن تتبرّأ من السلطان؟ هو يعلم أنّها لن تفعل ذلك أبداً، ليس ولاءً للعائلة على نحو أعمى، بل لاقتناعها بأنّ الباديشاه، الذي تعرف ذكاءه ودهاءه، إنّما يخاتل الإنجليز: فإدانة كمال الذي يوجد على بُعد مئات الكلومترات لا يعدو أن يكون فعلاً رمزياً صرفاً... وجيش الخلافة الذي بُعث من الأستانة لمحاربة الكماليين، ليس في الواقع سوى جماعة من المتطوّعين المشاكسين. فبعد أن حقّقوا بعض الانتصارات المدويّة في بادئ الأمر، ها هم الآن يتلقون الهزيمة تلو الأخرى. فكلّ هذه التدابير ما هي إلا ذرّ للرماد في العيون، الغاية منها حمل الإنجليز على الصبر.

بالمقابل، يودّ السلطان التخلّص من الصدر الأعظم الداماد فريد. فهو يعرف حقيقة صهره منذ زمن بعيد، لكن البريطانيين يفرضونه عليه.

بذلت خديجة ما في وسعها للحفاظ على هدوئها، وقدّرت أنّ إظهار تأثّرها بكلام زوجها من شأنه أن يسيء لكبريائها.

ردّت قائلة:

- اسمع ما قالته لي صبيحة سلطان التي تناولت معها وجبة الغداء أوّل أمس. لمّا دعي الداماد فريد إلى تشكيل الحكومة، زارت أباها السلطان، وقالت له: «لم أعد أفهم. ألم تبتهج غاية البهجة، لما رأيته يترك الوزارة قبل ستة أشهر؟»، فردّ صاحب الجلالة قائلاً: «آه لو كنت تعلمين يا صبيحة! فأنا لا حول لي ولا قوّة في ذلك».

غضّن خيري بك إحدى شفتيه بازدراء:

- لنسلّم بأنّ عمّك لم تعد له أيّ سلطة، لكن ألا يستطيع أن يتبرّأ من حكومة الدمى هذه؟!

لم تصدّق سلمى التي كانت موجودة في إحدى زوايا الغرفة ما سمعت. لم تكن تعرف أنّ أباها شغوف بالسياسة إلى هذا الحدّ، هو من كان في السابق يلطّف أجواء الجدل الذي ينشب بين أصدقائه بكثير من الفكاهة والمرح. وساورها شعور قاس بأنّه لم يكن يحقد على السلطان بل على زوجته. تطلّعت إلى أمّها، فوجدتها تحدّق في عيني زوجها برباطة جأش وهي تقول:

- أتظنّ حقّا يا خيري أنّه يتعيّن على السلطان أن يبرّر أفعاله؟ الباديشاه في نظري إنّما يصمت ليترك العدوّ في غفلة من أمره، ويوفّر الوقت من ثمّة لكمال لكي يعزّز قوّاته. ذلك أنّ وزن هذا الجيش هو امتيازنا الوحيد في مفاوضات السلام المرتقبة. فقوّات التحالف لا ترغب البتّة في استئناف الحرب: إن واجهت مقاومة شرسة في الأناضول، ستضطرّ إلى كبح مطامعها.

هزّ خيري بك كتفيه وقال بتذمّر:

ـ أنت تملكين لكلّ سؤال جواباً كعادتك. والحقيقة أنّ سلوك السلطان لا يُغتفر.

حدجته خديجة بنظرة متفحّصة، وقالت:

ـ إذا كنت تفكر بهذا النحو يا صديقي، فلِمَ لا تلتحق بالأناضول لتحارب مع الجنرال؟ ستبرهن بذلك على شجاعتك ووطنيّتك!

وسُمعت فرقعة حادّة بين يدي الداماد البيضاوين: تكسّرت عكّازة العاج الرفيعة، فرمى بحطامها عند قدمي السلطانة، ثمّ انصرف من دون أن ينبس.

إلا أنّهما في لجّة النقاش هذه، لم ينتبها لسلمى التي كانت متكوّمة على أحد المقاعد. لشدّما تكره هذه المواجهات التي صارت تتكرّر كثيراً! ليتهما كانا يتشاجران! إنّ سخريتهما المقرفة أشقّ عليها من الشجار. يخيّل لها أنّ جداراً يزداد ارتفاعاً بينهما يوماً بعد يوم. ولم يكن يعنيها أن تعرف من منهما على حقّ. كلّ ما كانت تأمله هو أن يصمتا ويكفّا عن تعذيب بعضهما بعضاً...

كان زينيل يجوب، وقد شدّ قبضتي يديه، الضفّة الغربيّة من البوسفور التي تنزل بلطف عبر الحدائق والمنازل الخشبية المحاذية للشاطئ نحو القرن الذهبي. وكان الرذاذ يتساقط، وقمر واهن يلقي بألق ذهبي غامض على المساجد والقصور.

كان الخصيّ يمشي غير عابئ بجمال المدينة التي تفعمه عادة بمشاعر متضاربة، تمزج بين الأنفة والحنين إلى جبال ألبانيا الوعرة. وكان يتقدّم تارة، ويتوقّف أخرى، ويعود أدراجه ثالثة غير مكترث بعذوبة تلك الليلة الربيعية، غارقاً في أقصى درجات الحيرة.

كانت الساعة قد جاوزت العاشرة، ولا بدّ أن محمود ينتظره، لكنّ نفسه لم تعد تتوق للقائه. كان يميز من الغضب والشعور بالعجز. ذلك أنّه

تقدّم بعد العشاء من باب السلطانة كما يفعل كلّ ليلة ليسألها إن كانت ما تزال بحاجة إليه أم بإمكانه الانصراف، لكنّ صوت خيري بك، الذي تعرّفه بمجرّد أن بلغ مسمعيه، صرفه. تجمّد في مكانه وأرهف السمع قلقاً، متأهّباً للتدخّل إن تفجّر العنف الذي لمسه يتصاعد في نبرة الداماد.

إنّها مغامرة بمكانته في القصر. مهما يكن، فهو لا يعدو أن يكون خادماً. من يخوّل له التدخّل بين سيّدته وزوجها...؟ ويتذكّر سيّدته، فترتسم على شفتيه ابتسامة... هذا هو الاسم الذي اعتاد أن يطلقه على السلطانة، متلذّذاً بالغموض الذي يلفّ هذه الكلمة في اللغة الفرنسية[1]، هذه اللغة الرائعة، لغة الغزل وملاطفة النساء. لم يجرؤ يوماً على أن يرفع إليها عينيه، أمّا في الحلم... من يستطيع حرمانه من الحلم؟

انتظر ذلك المساء مستخفياً وراء ستارة المخمل وقلبه يخفق، على أنّ الداماد لم يتح له الفرصة لإثبات ولائه. فقد انسحب تحت نظرات السلطانة الهازئة...

قال زينيل في نفسه بغضب وهو ينزع الأوراق من غصن ماغنوليا: يا له من جبان! كيف وقعت السلطانة في حبّ رجل تافه كهذا؟ كيف تتحمّل وقاحته، مع أنّ وجوده يتوقّف عليها؟

وسُمِعت أجراس كنيسة بيرا تُقرع في البعيد، وراح زينيل يعدّ الدقات على نحو آلي: إنّها الحادية عشرة. تخيّل القلق البادي على وجه محمود، وأصابعه الدقيقة وهي تضرب بنفاد صبر على مائدة المقهى الرخامية حيث اعتادا اللقاء. إنّه مكان هادئ يظلّله مسجد السليمانية، وقد وقع اختيار زينيل عليه لأنّ روّاده كانوا من أهل الحي فقط، ومن ثمّة ما من أحد يستطيع التعرّف عليهما.

كانا يلتقيان مرّة في الأسبوع أو مرّتين. لكن الخصيّ كان يغرق أحياناً

---

(١) تدل كلمة maitresse في الفرنسية حسب السياق على السيدة أو العشيقة. (المترجم)

في نوبة اكتئاب من النوبات التي تصيبه، إمّا لأن السلطانة خاطبته بجفاء، وإما لأنّها عاملته بلا مبالاة. عندئذٍ يلغي الموعد من دون أن يقول محمود شيئاً. فهو متفرغ لحبيبه دائماً.

عليه الآن أن يسرع وينزل إلى حيّ غلَطة الذي تلوح أنواره الحمراء والزرقاء من بعيد، ثمّ يعبر الجسر في ساعة ما زال فيها حاشداً بالساهرين. ولن يبلغ أزقّة الأستانة القديمة الهادئة إلا بعد أن يجتاز هذه الأماكن الشعبيّة.

على أنّه لم يعد يملك الشجاعة... أو ربّما الرغبة في لقائه. شعر بالضجر من ذكرى ذلك الجسد الفتي المطيع، وتلك العينين الساذجتين واليدين اللطيفتين. لماذا يكنّ له هذا الفتى كلّ هذا الحب؟ في المقابل لا يشعر هو بالحنان على محمود، أمّا العشق والغرام... بين كائنين مثلهما، فهذا يبدو أمراً مثيراً للسخرية.

تملّكه التردّد: إن هو تخلّف عن هذا الموعد، سيترك الصبي يتعذّب، وهو لا يستحقّ ذلك... لكنّه إن ذهب... وطيف سيدته يملأ عليه خياله، فسيشعر كما لو أنّه خانها، ومن ثمّة، هو متيقّن من أنّه سينتقم من محمود.

حريّ به أن يعود أدراجه.

هكذا قفل راجعاً إلى قصر أورتاكوي وهو ناقم على نفسه وعلى الصبي والعالم أجمع.

وفي صباح اليوم الموالي، كان يتسرّب من السماء بعد ليلة ماطرة ضوء أرجواني باهت.

قرّرت خديجة سلطان اصطحاب سلمى إلى مسجد أيوب حيث دفن أحد الفاتحين الأوائل سنة ٦٧٠، خلال أوّل حصار ضربه المسلمون على القسطنطينية. هناك أيضاً يوجد سيف السلطان عثمان الأول، مؤسّس الدولة العثمانية، وهو سيف دأب سلاطين بني عثمان الجدد على تقلّده

يوم تنصيبهم على العرش. وبذلك كان هذا المسجد الصغير الواقع في أقصى القرن الذهبي يُعتبر رمزاً لنضال الإسلام ضدّ المسيحية. كما أنّ كثيراً من الأتراك، في زمن الإهانة والبؤس هذا، يزورونه طلباً للشجاعة والأمل.

كانت سلمى تحبّ هذا المكان المتواري في الخضرة، لا سيما المقبرة المحيطة به، الممتدّة إلى أعلى التلال المشرفة على البحر. إنّها إحدى أقدم مقابر المدينة التي يمثّل كلّ شاهد من شواهدها عملاً فنيّاً متميّزاً. بعضها نحتت عليه عمائم احتفالية، يزداد علوّها بمقدار قِدمها، وبمقدار علوّ مكانة الدفين، وبعضها الآخر حديث، لا تعلوه سوى طرابيش بسيطة. أمّا قبور النساء فمزيّنة بقرون خصب رفيعة، بينما تعرف قبور الأطفال بطرابيش بالغة الصغر أو أكاليل من الورد منقوشة عليها. وقد لاحظت سلمى أنّ عددها كبير جداً.

قضت السلطانتان ساعتين تقريباً تتجوّلان بين الممرّات. وبينما مضت سلمى تحلم، كانت الأم تذكر أسماء الله الحسنى وهي تمرّر حبات السبحة المصنوعة من المرمر بين أصابعها. كانت تتوقّف بين الفينة والأخرى عند قبر شخصيّة شهيرة أو صديق قديم من أصدقاء العائلة. فتقرأ الفاتحة وسلمى واقفة بجانبها تحبس أنفاسها مُجهدة ذهنها لالتقاط الرسالة التي تشعر بأنّ الميت يحاول أن يوصلها إليها، لكنّها لا تفلح، فيحزنها ذلك. تحسّ كما لو أنّها أخلّت بواجب مقدّس. لكنّها تقنع نفسها بأنّها إن ثابرت بما فيه الكفاية، سينتهي بها الأمر يوماً إلى سماع ما يريد أن يقوله الأموات للأحياء.

كان يبدو لها التواصل بين العالمين طبيعياً، هي من طالما أنصتت وهي ما تزال في المهد إلى حكايات مربيّتها السودانيّة البدينة التي اعتادت أن تكلّم الأشجار والوديان، وتقول إنّها تتقمّص أرواح الموتى. وإذا كان معظم تلك الأرواح خيّراً، فإنّ بعضها يسعى أحياناً إلى إرغامها على القيام بأفعال مشينة، فتضطرّ حينئذ إلى الصراخ عالياً لإخافتِها.

عند مغادرة المقبرة، مرّت سلمى وأمّها أمام المقهى الذي كان يتردّد عليه بيير لوتي بحثاً عن الإلهام. وهو بيت في غاية البساطة، تحيط به شرفة تفوح بأريج الياسمين، يستطيع منها المرء أن يتأمّل مياه القرن الذهبي القزحية.

همست خديجة:

ـ هو على الأقل لم يخنّا بخلاف أصدقاء الأيام الجميلة الذين أداروا لنا ظهورهم. استمرّ يدافع بلا كلل عن قضيّة تركيا. إنّه من القلائل الذين يقدّروننا ويحبّوننا. وهو أمر أدهش الأتراك الذين لم يعتادوا على أن يفهمهم الأوروبيون. فهم إن لمسوا الحبّ في أحدهم، ردّوا له ذلك الحب أضعافاً مضاعفة. فما من أجنبي يكنّ له الأتراك ما يكنّون لبيير لوتي من ودّ.

وفي طريق العودة إلى المدينة، وجد سائق العربة صعوبة بالغة في قيادتها بين شوارع المدينة الحاشدة. كان الاضطراب بادياً على الناس الذين تحلّقوا على باعة الجرائد.

ـ ماذا جرى؟

أمرت السلطانة زينيل بأن يسارع إلى استقصاء الأخبار. وما هي إلا دقائق حتّى عاد حاملاً جريدة مؤطرة بالأسود وهو مشوش البال، حتى إنه لم يعد يقوى على الكلام. نزعتها السلطانة من بين يديه وقد فرغ صبرها: كتبت على الصفحة الأولى الشروط التي يشترطها الحلفاء لتوقيع معاهدة السلام مع تركيا. ألقت عليها نظرة سريعة ثمّ تداعت على مقعد العربة وهي تقول:

ـ يا لهم من مجانين! يطلبون منّا التوقيع على قرار إعدامنا...

ظلّت طيلة الطريق متسمّرة في مكانها ورأسها مستلق إلى الخلف، مغمضة العينين. أمّا سلمى فراحت تتأمّلها مرعوبة لا تجرؤ على الحركة.

كانت الأيّام التالية حزينة. فقد أصيب سكان الأستانة بالذهول من

هول الصدمة، غير مصدّقين ما حلّ بهم. وحتّى أكثرهم تشاؤماً لم يقع في خلدهم يوماً أن يفرض الحلفاء على البلد شروطاً بهذه القساوة. الظاهر أنّهم يسعون بكل بساطة إلى تقطيع أوصال تركيا.

ستؤول تراقيا الشرقية ومدينة إزمير الغنية وكلّ تلك المنطقة إلى اليونان، ويؤول شرق الأناضول لأرمينيا، بينما سيصبح جنوبه تابعاً لنفوذ فرنسا وإيطاليا، ولن يتبقّى لتركيا سوى هضبة الأناضول مع نافذة صغيرة على البحر الأحمر، بالإضافة إلى الأستانة، وهي عبارة عن جيب تحيط به بضع عشرات من الكيلومترات المربّعة. لكن حتّى هذا الجيب لم يكن مستقلاً، شأنه في ذلك شأن المضايق التي تشكل منفذه الوحيد إلى البحر، إذ ستوضع تحت الوصاية الدوليّة، وستخضع العاصمة العثمانية لمراقبة الحلفاء العسكرية والماليّة.

كان الوضع في المدينة متوتّراً، واشتدّت المظاهرات. ولم يعد أولئك الذين كانوا يؤيّدون منذ أشهر سياسة المرونة والتفاوض يجرؤون على الكلام، بينما صار أنصار مصطفى كمال ودعاة المقاومة المسلّحة، وكذلك الجماعات الطليعيّة الصغرى، يشكّلون الأغلبية العظمى. وأصبح مئات المواطنين يلتحقون بالجبهة كلّ يوم، متخفّين في مختلف ألوان التنكّر. ولم تعد الصحف، التي أُخضعت للرّقابة، تقدّم أيّ معلومات عمّا يجري في الأناضول. على أنّ أحاديث الناس لم تكن تدور إلا عن المعارك الدائرة هناك، وعن انتصارات الكماليين.

وعاد البازار الموجود في قلب الحي القديم مصدراً لكلّ الأخبار. كان التجار يتجمّعون أمام متاجرهم يرتشفون كؤوس الشاي، ويتبادلون تلميحاً آخر الأخبار التي يلتقطونها من الفلاحين القادمين لبيع محصولاتهم، أو من المتطوّعين الذين يؤمّنون الاتصال بين المنطقة المحتلّة والمناطق التي حرّرها الوطنيون. هكذا كان كلّ من يتردّد على البازار، يصيب حظّه من الإشاعات.

كان المخصيون هم مَنْ يؤمّنون الصلات بالخارج في قصر خديجة

سلطان، وكانوا يحرصون على نقل كلّ ما يروج من إشاعات بدقة متناهية. وذات يوم من أيام منتصف يونيو/ حزيران وصل زينيل وعيناه تلتمعان:

ـ لقد سحق الكماليون جيش الخلافة، بل استولوا على مركز بريطاني، وبلغوا حتى توزلا، ولم يعد يفصلهم عنّا سوى ثلاثين كيلومتراً! يبدو أنّهم عازمون على دخول الأستانة في غضون أسبوع، في آخر يوم من البيرم، لحضور حفل السكاكر.

وتكبح السلطانة رعشة كادت تستبدّ بها.

ـ كيف عرفت؟

ـ تلقّيت الخبر من فم سائق المحرّر الرئيسي بجريدة علمدار، نقله عن زوجته، وهي صديقة حميمة لابنة أخت الصدر الأعظم. والظاهر أنّه قلق جداً لأنّ الإنجليز يتّهمونه بالسخريّة منهم حين ادّعى أنّ جيش الخلافة «لا يقهر»، والحال أنّه لم يكد يصمد لشهرين.

ولاح في عيني خديجة سلطان وميض ساخر. إلا أنّ شعورها بالنصر سرعان ما أفسح المكان للقلق. إن استمر الكماليون في التقدّم، فإنّ جيوش العدو لن تظلّ مكتوفة الأيدي، وبذلك ستعود الحرب بصورة أشرس ممّا كانت، إذ سترافقها حرب أهليّة. لن تجري وقائعها في جبهة بعيدة، بحيث يكون ضحاياها من الجنود فحسب، كما هو الشأن في كلّ الحروب، بل ستدور رحاها هنا، داخل العاصمة. وتراءت لخديجة معارك تدور في الشوارع، وقصف أحياء المدينة، وقتلى بعشرات الألوف من النساء والأطفال، فاقشعرّ بدنها. لمّا كانت تتمنّى انتصار جيش الكماليين، لم تخطر ببالها قط هذه المناظر، وساورها أمل فجأة بأنّ الكماليين سيُردّون على أعقابهم قبل أن يصلوا إلى ضواحي الأستانة. لكنّها سرعان ما تمالكت نفسها: ما هذه الأفكار؟! أتراها تفكّر مثل الخونة؟! حريّ بالمرء أن يموت بدل العيش ذليلاً تحت سطوة الأجنبي! هذا أمر مؤكّد...

أغمضت عينيها، فتراءت لها مدينتها الحبيبة، الأستانة، مدمّرة، بما فيها قصر طوب قابي الذي أقام فيه خمسة وعشرون سلطاناً... ولاحت لها أكشاك الرخام ونافورات المرمر والخزف مخرّبة، وكذلك الأمر بالنسبة لطولمة باغجة، الحلم الأبيض المولود من البوسفور... بدت لها مئات المساجد، وهي فخر مدينة الخلفاء، والفنادق والمدارس العتيقة، بدت لها كلّ تلك الروائع التي أنشئت على مدى قرون محطّمة، طوى سحرها النسيان. وتدرك خديجة مذهولة بأنّ هذه الخسائر تشغل بالها أكثر من خسارة الأرواح البشرية...

أمّا سلمى، فلم تكن تشاطر أمّها هذه المخاوف. كانت الأمور بالنسبة إليها في غاية البساطة: سيأتي مصطفى كمال ويطرد الجيوش الأجنبية، فيستعيد السلطان سلطته، ويسنّ قوانين من شأنها أن تعيد لتركيا ازدهارها، وتحقّق لسكانها السعادة. ولا شكّ في أنّه سيُنصّب مصطفى كمال صدراً أعظم نظير إخلاصه ووفائه.

وخالدة أديب؟ وتمثّلت لسلمى تلك المرأة المتدثّرة بالسواد وهي تخطب في الحشود عشيّة الاستيلاء على إزمير. فخالدة أديب بالنسبة إليها تجسّد رمز الحريّة. ستتولّى أمر النساء، وستخلّصهنّ من هذه الشراشف البغيضة والمشربيات الخانقة. ستفتح نوافذ العربات وأبواب الحريم، وسلمى ستساعدها في ذلك. وهما معاً ستشيّدان عالماً جديداً لا مَلَل فيه، يُسمح فيه للنساء بتولّي الخلافة مثلما هو الحال في إنجلترا.

عاشت الأستانة الأيّام الموالية في جوّ محموم، تراوح فيه بين الأحلام والكوابيس. أمّا الناس فكانوا يعيشون على أعصابهم، تنتابهم نوبات من الضحك أو الغضب لأتفه الأسباب. وكانت النساء يبعن شارات بألوان الأعلام الوطنية خلسة في الشوارع يضعها الناس تحت معاطفهم بانتظار النصر. ورغم أنّ المدينة كانت تعيش في حالة من الترقّب، ظلّت الأخبار ثابتة لا تتغيّر: الكماليون يعدّون العدّة في توزلة.

وحلّ عيد السكاكر من دون أن تتقدّم قواتهم قيد أنملة. أمّا في قصر

أورتاكوي فساد شعور هو مزيج من الخيبة والانشراح، باستثناء سلمى التي أقدمت، من شدّة إحباطها، على التهام دمية السكر الكبيرة التي أهدتها لها أمّها، ما تسبب لها في عسر هضم، وألزمها الفراش.

ـ كمال باشا لن يصل أيتها السلطانة الصغيرة... فالإغريق اعترضوه بست فرق... وجيشه أقلّ عدداً وتجهيزاً... وهو يتراجع في كلّ الجبهات...

ماذا وقع؟ أكان يكفي أن تقضي أربعة أيّام في السرير لكي يتغيّر العالم؟! خفّ انتباهها خلال مرضها، وأهملت صلواتها، فتخلى الله عنهم، واندحر جيش كمال الذي قيل إنّه لا يقهر. وشعرت سلمى بالخديعة. لكن من تراه خدعها: أهو الرب؟ أم الكماليون؟ أم الإغريق؟ لم يكن الأمر واضحاً، لكنّ الأكيد هو أنّهم اغتنموا فرصة غيبوبتها!

وتشبّثت بيد المربية الضخمة السوداء التي نقلت لها هذا الخبر المخزي.

ـ اجثي على ركبتيك إلى جانبي يا دادا... سنصلّي إلى أن يسمع الله دعاءنا. لا يمكن أن يكون ربّنا الرحيم الكريم ظالماً.

وسارعتا إلى الوضوء لتطهير قلبيهما، وجلبتا السجادة الصغيرة لتعيين مكان الصلاة الطاهر، واصطفّت المرأة السوداء السمينة والطفلة النحيلة جنباً إلى جنب، وراحتا تردّدان: «لا إله إلا الله محمد رسول الله، ولا حول ولا قوة إلا بالله...».

ولكن، أيفضّل الله هؤلاء التجار الإغريق الثرثارين، والإنجليز الممسوخين المتعجرفين على الشعب التركي الطيّب؟ لا تستطيع سلمى أن تصدّق ذلك. ورفعت كفيها إلى السماء متضرّعة إلى الله على نحو مؤثر وهي تردّد:

ـ يا رب ساعدنا، واجعل النصر من نصيب مصطفى كمال باشا!

وانهمرت الدموع على خدّيها إلى أن بلّلت طوقها الأبيض الموشّى بالدانتيل.

كان ثمّة سؤال يعذّب الصبيّة على نحو خاص: سمعت من الشيخ أنّ الإله واحد بالنسبة للمسلمين والمسيحيين، فإذا كان أطفال المسيحيين يصلّون ويبتهلون إلى الله ابتهال أطفال المسلمين، فإن الله سيحتار في أيّهما يختار! ينبغي إذن ترجيح كفة «الجهة الصالحة».

وما إن حلّ اليوم الموالي حتّى جمعت سلمى أطفال الخدم، خمسة عشر تقريباً من الأولاد والبنات تراوح أعمارهم بين عشر سنوات واثنتي عشرة، وطلبت منهم أن يصلّوا. وهكذا راحت هذه الجماعة الصغيرة تلتئم خمس مرات في اليوم في ركن من أركان الحديقة، قرب مزرعة الورد التي عادة ما يفوح شذاها في هذه الفترة من نهاية شهر يونيو/ حزيران. وبعد أن يفرشوا سجادات الحرير على العشب بالشكل المطلوب، يتوجّهون إلى القبلة، ويشرعون في تلاوة آيات القرآن خلف السلطانة الصغيرة التي تؤمّهم.

على أنّ الأيام كانت تمرّ حاملة معها بانتظام نصيبها من الأخبار السيّئة. فهزيمة جيش الوطنيين صارت مؤكّدة، وتقدّم الإغريق أصبح بيّناً، والمدن تتساقط الواحدة تلو الأخرى، مثل مانيسيا وبالكسير (بالق أسير) وبانديرما... ثمّ أخيراً بورصة! بورصة، العاصمة العثمانية القديمة، المدينة المقدسة التي تؤوي قبور السلاطين الأوائل، تلك التحفة الفنية التي تمثل أرقى صور الفن الإسلامي، حيث تخلّد المساجد والقصور شجاعة وقوّة فرسان أتوا من الشرق قبل ستّة قرون. بورصة هذه تسقط بين أيدي الكفار.

لقد ترك سقوط هذه المدينة وقعاً مريعاً على الشعب التركي كوقع سقوط إزمير. أمّا الآمال التي عُقدت على مصطفى كمال، فذهبت أدراج الرياح، واتّجهت الأنظار من جديد إلى الخليفة. لا شكّ في أنّه سيتصرّف، يشجع أبناءه ويحثّهم على الانتظام، لكنّ أبواب طولمة باغجة ظلّت موصدة، واستمرّ الصمت يخيّم على باحات القصر الرخامية.

ويستبدّ السخط بسلمى: أدرنة ومنطقة تراقيا احتُلّتا بكاملهما، وكتائب الجيش الإغريقي ما زالت تتقدّم. لماذا لا يعلن السلطان الحرب؟

لم تقدّم لها أمّها أيّ جواب على هذه الأسئلة الملحّة، فاستوثق منها اليأس، فقدت شهيّة الطعام واللعب. وشيئاً فشيئاً بدأت تهمل حصص الصلاة التي دأبت عليها، وصارت تلوذ بالأحلام والقراءة، أو تنصت لما كانت تقصّه عليها قلفة عجوز من حكايات كبار السلاطين أمثال محمد الفاتح الذي انتصر على الإمبراطورية البيزنطية وهو ما يزال ابن الثامنة عشرة، وسليم الغازي[1]، ذلك المقاتل الشرس الذي كان يتحوّل إلى شاعر حين يلتقي بمحبوبه: «كانت الأسود ترتعد تحت أظافري القويّة القاطعة لمّا شاءت الأقدار أن تجعل منّي عبداً ضعيفاً لمراهق ذي ألحاظ مَها».

كانت تستعذب سماع كيف أنّ السلطان أحمد الثالث كانت تستبدّ به البهجة وهو يصغي لما كان ينشد له صديقه نديم من أشعار، فيكافئه بملء فمه باللآلئ الناعمة. كذلك كانت الصبيّة تطرب لسماع إنجازات سليمان القانوني الذي بلغ بالجيش العثماني أبواب فيينا، وتسأل عن كيف أدخل جدها محمود الثاني، ذلك الخليفة المتنوّر المصلح، تركيا إلى العصر الحديث. فقد شرّف هؤلاء آل عثمان بقوّتهم العسكرية وألمعيّتهم ومهارتهم. إلا أنّ كلّ شيء يبدو مختلفاً اليوم، والباديشهاه يلوذ بصمته. وما آذى سلمى أكثر هو أنّها سمعت الطباخين، بينما كانت تمرّ أمام المطبخ، يتجرّأون على إبداء تعليقات غير لائقة في حقّ السلطان، ويقولون إنّه خائف...

هكذا جمعت من جديد ذات صباح أطفال القصر، بينهم أبناء أمناء المخازن والكتاب، وكذلك أبناء سائقي العربات والشوائين والبوابين الذين كانت أسرهم تستقرّ في بيوت صغيرة متوارية في أقصى الحديقة، غير بعيد عن البنايات المخصّصة للمطابخ. ذلك أنّ المطابخ في المنازل

---

(١) السلطان الغازي سليم الأوّل، وهو تاسع سلاطين الدولة العثمانية. حكم من سنة ١٥١٢ حتى سنة ١٥٢٠، وهو معروف عند الفرنسيين باسم سليم الرهيب Selim le terrible. (المترجم)

التركيّة، لا سيما في القصور، تشيّد في أبعد مكان عن بقية الأجنحة، حتّى لا تزعج روائح الطبخ سكانها.

وكان هؤلاء الأطفال جميعاً يتفانون في خدمة سلمى، لا سيما جلّنار، تلك الفتاة التترية السمراء المفرطة في الغضب إفراطها في الحماس، لكنّها لم تكن تسمح بكلمة نقد في حقّ أميرتها أبداً، وكذلك سكيربولي «قطعة السكر الصغيرة» الشقراء الزهرية اللون. ثمّ هناك أحمد، أصغر أبناء السكرتير خيري بك. ورغم أنّه لم يكن يتجاوز الحادية عشرة من عمره، فإنه منذ أن بدأ يعي وهو هائم بحبّ السلطانة الصغيرة. ما إن يراها حتى يتورّد ويفقد السيطرة على نفسه، وهو ما كان يثير حفيظة الصبيّة فتهزأ منه. لكن كلّما زاد استهزاؤها منه، بأمل أن تلمس فيه مقاومة، واجهها هو بنظرات حزينة مستكينة، وزاد تعلّقه بها.

أعلنت سلمى ذلك الصباح أمام جمعيتها المكتملة العدد بأنّ زمن الصلوات قد ولّى، وأنّ عليهم منذئذ أن يلعبوا لعبة الحرب: هناك من جهة الأتراك، يقودهم السلطان ـ هي من سيؤدي دوره بالطبع ـ، ومن الجهة الثانية هناك الإغريق، فصفق الجميع لهذا القرار، وتفرّقوا في أرجاء الحديقة بحثاً عن أغصان دقيقة مرنة يمكن أن تقوم مقام الأسلحة. لكنّها حين أرادت أن تختار معسكرها، واجهت صعوبة لم تكن متوقّعة: لم يقبل أحد من الأطفال أن يمثل دور الإغريق. ولم يفلح الإطراء ولا الوعد والوعيد في ثنيهم عن موقفهم. وكادت أن تبكي من الغضب. وبينما راحت تخط على الأرض بالعصا أشكالاً تفرّغ فيها غضبها، سمعت صوتاً ناعماً جعلها ترفع رأسها:

ـ أنا أمثل دور شخص إغريقي.

إنّه أحمد. كان يحدّق فيها بعينيه الطيّبتين الوفيّتين، وشعرت سلمى بدفق من الاعتراف بالجميل: فهو إنّما قبل هذا الدور المهين لا لينال رضاها فحسب، بل ليكسّر حركة العصيان، ويعيد لها سلطتها عليهم. ابتسمت له بكلّ ما أوتيت من سحر.

ـ ستلعب دور الجنرال بارافيسكوبولوس، لكن، أين هو جيشك؟

كان الجيش هو آخر ما فكّر فيه الصبي: كان من شدّة فرحته بأن نال أخيراً رضا سلطانته مستعدّاً لمحاربة كلّ الآخرين بمفرده. مهما يكن، لن ينتصر الإغريق على الأتراك، هذا فضلاً على أنّه لا يمكن أن ينتصر على من يحبّ.

لكنّ سلمى لم تكن من هذا الرأي. فالانتصار السهل ليس انتصاراً. قالت وهي تجول ببصرها بين أفراد المجموعة:

ـ من يريد أن يكون إغريقياً وينضمّ إلى أحمد؟

اندهشت وهي ترى طفلتين خجولتين وطفلاً منتفخ الأوداج يتقدّمون ويعلنون:

ـ إذا كان أحمد إغريقياً، فنحن أيضاً نريد أن نكون مثله.

نظرت إليهم بحيرة وهي تقول في نفسها: لِمَ انضمّ هؤلاء طوعاً إلى صفّ أحمد بعدما أخفق وعدها ووعيدها في ثنيهم عن موقفهم؟ من أين استمدّ هذه السلطة؟ من بساطته وطيبته؟ هزّت كتفيها مستغربة، هذه ليست بصفات القائد! على أن من انضموا إليه كانوا هم أكثر أفراد الجماعة ميلاً إلى الانزواء... فشعرت بالانزعاج، وتهيّأ لها أنّهم يلقّنونها درساً من دون أن ينبسوا ببنت شفة.

ها هم الأطفال ينتظرون الإشارة للشروع في المعركة. وبما أنّها كانت تخشى أن يقال إنّ الترك هزموا الإغريق بفضل تفوقهم العددي، أمرت بأن يخفّض جيشها إلى أربعة جنود، وإن حرصت على انتقاء أقواهم. وأخيراً لمّا صار كلّ شيء جاهزاً للهجوم، وقفت بمهابة وشعرها الأحمر يلمع تحت أشعة الشمس، ولوّحت بعصاها وهي تصيح:

ـ الله أكبر، الله أكبر!

ثمّ انقضّت على العدوّ وجنودها في إثرها.

كان بادياً من الوهلة الأولى أنّ جيش الإغريق ليس في المستوى

المطلوب. دافع بإقدام، لكنّ الفتاتين الصغيرتين والولد السمين لم يكونوا في مستوى مواجهة الأطفال الأشداء الذين اختارتهم سلمى. هذا فضلاً عن أنهم إغريق، ومن ثمّة كان طبيعياً أن يسحقوا. فبعد إبداء مقاومة في أوّل الأمر، ما لبثوا أن استسلموا في جوّ من الهتافات المهينة.

لم يصمد في الميدان إلا أحمد، إذ ظلّ يقاتل بإقدام لم يخطر أبداً على بال أحد من رفاقه. طوّقه جنود سلمى من دون أن يتمكّنوا من اختراق دفاعه: مضى يلوّح بعصاه بخفّة منقطعة النظير، يصيب بلا رحمة كلّ من يدنو منه. كان قد نسي تماماً أنّه يمثل دور الجنرال بارافيسكوبولوس، ولم يعد سوى فارس يحارب من أجل نيل إعجاب محبوبته.

لكن سلمى لم تعد هي سلمى، بل هي السلطان ذو الصولة، ظلّ الله في أرضه، الذي لا يرضيه أن يرى جنوده يهزمون على يد هذا الجنرال الإغريقي. عندئذ تركت أسراها وشنّت هجمة حطّمت بها خطوط الدفاع، ووجدت نفسها وجهاً لوجه مع العدو. كانت تميز من الغيظ. كيف لهذا الجنرال الإغريقي، بارافيسكوبولوس، أن يطمع في الاستيلاء على تركيا واستعباد شعبها؟! كيف لجيشه، وهو يحرق القرى، ويقتل النساء والأطفال، أن يتوهّم أنه قادر على احتلال الأستانة وإطاحة الخلافة؟!... سيرى هذا الكلب ما يستطيع أن يفعله به الجيش التركي والباديشاه! لقد صبر عليه السلطان طويلاً، مؤثراً طريق التفاوض على سفك الدماء، لكن الكيل طفح... وتجاوز هؤلاء الإغريق كلّ الحدود، وهو أمر سيندمون عليه!... وضربت سلمى بكلّ ما أوتيت من قوّة، فحرّرت الأتراك ممّا تراكم لديهم طيلة شهور من إحباطات وضغائن.

وتسمّرت فجأة. ترى أكان ذلك بسبب الألم الذي تشعر به في ذراعها؟ أم لأنّها تنبّهت بغتة إلى أنّ صمتاً غريباً حلّ محلّ الهتافات الصاخبة؟ كان الجنرال بارافيسكوبولوس مطروحاً على الأرض عند قدميها وهو يتلوّى من الألم، حامياً رأسه بيديه الداميتين، بينما بدت جروح بليغة على جسده من خلال ملابسه الممزقة.

انتصبت السلطانة أمام سلمى وقد شحب وجهها، وهي تقول:

ـ أجننت؟!

لم يظهر عليها الغضب، بل الذهول، كما لو أنّها اكتشفت في ابنتها وحشاً مرعباً لا عهد لها به. واستعادت سلمى رشدها فجأة. أدركت أنّها ليست السلطان، وأنّ الشخص الممدّد على الأرض، المغمى عليه ليس الجنرال بارافيسكوبولوس، بل هو صديقها أحمد، وقد قتلته. جثت أمام الولد وقد خنقتها الدموع، وألصقت وجنتها إلى وجهه الملتهب وراحت تداعب شعره وتخاطبه بكلمات رقيقة، وهو ما زاد من إيهام أحمد بأنّه مات، وأنّه يتقلّب في نعيم الجنة.

كان الأطفال ينظرون إلى المشهد مصعوقين. فآباؤهم سيعاقبونهم، وربّما سجنوهم في زنزانة مظلمة. لم تكن فكرة أنّ السلطانة المزهوّة بنفسها ستنال العقاب، وأنّ أحمد سيحظى بجنازة رائعة، تستدعى لها أفضل نائحات المدينة، كافية لمواساتهم. ثمّ لماذا قبل هذا الغبي أن يموت؟ قاتل في أوّل الأمر ببسالة كالأسد، لكن لمّا هاجمته سلمى، عوض أن يدافع عن نفسه، ترك السيف يسقط من بين يديه وراح ينظر إليها. أمّا هي التي كانت مستغرقة في حلمها، فلم تنتبه للأمر، وانهالت عليه بالضرب رغم أنّه أعزل.

وسمع صوت السلطانة الفاتر من جديد:

ـ كفاك تمثيلاً، اصعدي إلى غرفتك فوراً!

لم تصغ لكلام سلمى التي كانت تنتحب وتحاول أن تشرح لها بأنّها لم تقصد قتل أحمد، بل الجنرال بارافيسكوبولوس. شيء واحد كان يدور في رأسها: ابنتها ضربت ابن خادم من خدمهم، غير قادر على الدفاع عن نفسه، وهو فعل شنيع ينبغي أن تعاقبها عليه بلا هوادة. فعل ينال من شرف العائلة.

حلّ الطبيب الذي أخبره المخصيون بالقصر في لمح البصر، وفحص

«الجثة» التي وجدها في حال سيّئة، لكنّها كانت ما تزال حيّة، فأشار بالراحة وبمرهم مستخلص من النمر الملكي، يؤتى به من الهند، وقال إنّ الطفل سيستعيد عافيته بسرعة.

لزمت سلمى غرفتها في الأيام الموالية، وحرمت من كلّ كتبها باستثناء المصحف. ولم تكن تزورها غير خادمة تأتيها بالطعام، وهو عبارة عن خبز يابس، عادة ما يقدّم للخيل. وتلقّت المرأة الأمر بعدم تكليمها. لكن قلق الصبيّة على أحمد أثّر فيها، فكانت تهزّ لها رأسها مُطمئِنة. أمّا السلطانة، فكانت تريد أن يكون هذا العقاب نموذجياً، لذلك تركتها لمدّة أسبوعين على هذه الحال.

واستيقظت سلمى ذات صباح على صوت شجيّ غير مألوف. أصاخت السمع، فإذا هو صوت المؤذنين الحزين وهم يعلنون من أعلى صوامعهم حداداً وطنياً. أطلّت من النافذة، فأبصرت الحشود في البعيد تتزاحم في الشوارع. ماذا جرى يا ترى؟ أمات السلطان؟

جاءت الخادمة التي تأتيها بالطعام دامعة العينين، ولم تتردّد في جوابها هذه المرّة. كلا، لم يمت السلطان، الأمر أدهى: المُفوّضون العثمانيون المبعوثون إلى فرنسا لم ينجحوا في ثني الحلفاء عن مخطّطهم، وأُجبروا على توقيع تلك المعاهدة الجائرة بمدينة سيفر، التي كان يدور الحديث عنها منذ ثلاثة أشهر، ولم يتخيّل أحد لحظة أنّها ستُبرم. إنّها معاهدة تقضي بتقطيع أوصال تركيا...

كان يومُ الحداد الوطني هذا بالنسبة لسلمى يومَ تحريرها. قدّرت السلطانة أن ابنتها عوقبت عقاباً كافياً، وأن الأحداث كانت من الخطورة بحيث غدا كلّ ما عداها عديم القيمة.

١٣

نشرت شمس الربيع ألقها على قباب الأستانة معلنة عن نهاية أقسى شتاء عرفته سلمى. فبعد المظاهرات العارمة التي تلت توقيع معاهدة سيفر يوم العاشر من آب/أغسطس ١٩٢٠، انكفأت المدينة على حزنها وخزيها، ولم تشرع في التململ قليلاً من خمولها إلا مع إقالة حكومة أبغض شخص في تركيا، الداماد فريد. ولن يغفر الشعب لهذا الرجل القصير البدين، الذي ضحّى بكلّ شيء حبّاً في الإنجليز، توقيعه على تلك المعاهدة المشؤومة، وضغطه على السلطان ليوافق عليها.

بدأت الحياة في العاصمة تبدو أصعب فأصعب. وبينما عاد الجنود الفرنسيون والإيطاليون، بعدما لاحظوا أنّ الاحتلال سيطول، إلى عادتهم في مخالطة الناس بنوع من التسامح، ثبت الإنجليز على رعونتهم، وضاعفوا من إجراءاتهم الاستفزازية بدعوى حفظ النظام، وأمطروا بها شعباً مسكيناً لا يفهم منها شيئاً، ترك آخرُها المدينة بكاملها مصعوقة: اعتبار حمل دجاجة من ساقيها سلوكاً موغلاً في السادية، يعاقَب مقترفه بغرامة عشر ليرات، علماً أنّ راتب العامل العادي لا يتجاوز ثمانين ليرة في الشهر. فإذا ما تجاسر المواطن التركي على الاحتجاج، أجبروه على أداء عشرين ليرة وهكذا دواليك إلى أن ينفد ماله، فيخرس وهو مقتنع بأنّ هؤلاء الإنجليز إمّا مجانين أو هم أحقر من يعيش على هذه البسيطة.

والواقع أنّ معظم هذه التجاوزات يأتيها كاثوليك إيطاليون وفرنسيون استقرّوا في الأستانة منذ أجيال، والتحقوا بالجيش البريطاني لمساندة

الحلفاء. وما إن يُرقّى أحدهم إلى رتبة نقيب أو رائد، حتّى يعمد إلى استغلال نفوذه الطارئ في جيش المملكة المتّحدة للإثراء وخدمة مصالحه الخاصة.

سيطر اليأس على الناس حين اعتقدوا في بداية يناير/ كانون الثاني أنّ كلّ شيء سيتغيّر بنجاح عصمت باشا، أحد رفاق مصطفى كمال، في وقف تقدّم اليونانيين في الأناضول قرب نهر إينونو. وقد كان ذلك أوّل انتصار للقوى الوطنية، استقبله الناس بحماس كبير، بحيث ظلّت الأستانة مترقّبة لأيّام، معتبرة هذا النصر بداية هجوم مضادّ، لكنّ لا شيء من ذلك تحقّق، وعادت المدينة إلى سباتها.

كان جيش كمال أضعف من أن يحافظ على تفوّقه، إذ كان عليه أن يحارب، ولفترة طويلة، ليس اليونانيين فحسب، بل أيضاً عصابات الفلاحين الأتراك المتزايدة. ذلك أنّ فتوى التكفير التي أصدرها شيخ الإسلام زرعت البلبلة في النفوس. ورغم إعلان مصطفى كمال أنّه يحارب من أجل الخليفة، لم تصدّقه إلا قلة، بينما رفض كثير من القرى التعاون معه.

ولكسب ثقة الشعب، فكّر كمال باشا في أن يضمّ إلى جانبه وليّ العهد المعروف بتعاطفه مع الوطنيين، عدا أن عبد المجيد لم يكن رجل فعل بقدر ما كان رجلاً حالماً وفنّاناً. ظلّ متردّداً يطلب المشورة إلى أن علم الإنجليز بالأمر، فوضعوا حدّاً لحيرته بإرسال حوالي مائة جندي حاصروا مقرّ إقامته.

عندئذ قرّر ابنه عمر فاروق أن ينضمّ بنفسه إلى كمال في الأناضول. وقد كان هذا الأمير مقداماً وطموحاً، يتحرّق لأن يشتهر بدفاعه عن البلد، لكنّه اضطرّ، وهو المتيّم بحبّ زوجته صبيحة الحامل، إلى أن ينتظر وضعها. ولم يستطع السفر متخفّياً إلا بحلول الربيع.

سلمى معجبة بـ«العمّ رعد»، وهو اللقب الذي كان يطلقه الأطفال على الأمير فاروق لأنه كان مشهوراً بغضباته اشتهاره بحسن طلعته. وكم

تمنّت لو كانت رجلاً حتّى ترافقه إلى الأناضول! وبهذا فهي تنظر بامتعاض لأخيها خيري الذي يقنع بأكل الحلوى والعزف على الكمان.

تعاني سلمى من الضجر؛ ذلك أن الزمن يجري بطيئاً في القصر، والمناسبات الاجتماعية صارت نادرة. وبدأت العائلات الراقية تشعر بالضيق، إذ لم تعد تتلقى مداخيل ضيعاتها الموجودة في المناطق التي تحررت من الإمبراطورية، ولا إيجار العقارات التي يسكنها النصارى. فهؤلاء كفّوا عن الأداء منذ بداية الاحتلال. وحتى خديجة سلطان نفسها لم تستطع الوفاء بمصاريف عيشها إلا ببيع مجوهراتها. ولم تعد سلمى تستغرب زيارات ممجيان آغا المتكرّرة للقصر، وانصرافه متأبّطاً صندوقاً صغيراً.

ومن حسن الحظ أنّ الخيّاطات عُدن مع حلول الربيع. ينبغي تجديد الملابس، لا سيما تنانير سلمى القصيرة التي صارت تزعج القلفاوات العجائز. فالصبية ستكمل عامها الحادي عشر، لذلك حاولت هذه الوصيفات إقناع السلطانة بأنّ الوقت حان لترتدي الشرشف، لكنّ خديجة صرخت فيهنّ قائلة:

ـ سلمى ما تزال طفلة!

أكانت تؤمن حقاً بذلك، أم أنّها تسعى للحفاظ على حرّيّة ابنتها أطول ما يمكن؟ وأعلنت بأنّ السلطانة الصغيرة لن ترتدي الحجاب إلا في الثانية عشرة، ولتلهج ألسنة السوء ما شاء لها أن تلهج!

كانت قاعة الخيّاطة ذات الجدران المكسوّة بالكريتون الأبيض، والمزيّنة بالمرايا، تعجّ بالحركة. تجلب الخياطات ذوات الأصل اليوناني في العادة آخر المجلات الباريسية مع موديلات مصمّم الأزياء لافيرير، وكذلك كميّات من القماش الرفيع. ولأوّل مرّة يُسمح لسلمى بالاختيار، فراحت تقلّب الموديلات وتتفحّص الأثواب من دون أن يقرّ قرارها على شيء. لكنّ لا بأس في ذلك، فلديها متّسع من الوقت لكي تتشاور وتلمس وتقارن وتختار وتفكّر في أبسط التفاصيل، ثمّ تغيّر رأيها إن

شاءت. أليست لحظات الترويح عن النفس قليلة! وكلّما طال التردّد، زادت مُتعة الخيّاطات، لأنّهنّ ينتقلن من دَوْر العاملات إلى دور المستشارات والحَكَمات. ويزيد شعورهنّ بالفخر لمّا تقول إحداهن لزبوناتها المعجبات لاحقاً:

ـ أنا الوحيدة التي تثق بها السلطانة وابنتها. أرأيت الفساتين التي لبستاها في الحفل الأخير؟ أنا من اقترحت عليهما الطراز واللون!

وبينما كانت سلمى تتخيّل الموديلات التي تناسبها، مضت تسترق النظرات لهؤلاء النسوة: تِسع في المجموع، اثنتان تتكفّلان بالفصالة، وثلاث خياطات وأربع مطرّزات. هي تعرفهنّ جميعاً لأنهنّ يشتغلن في القصر منذ مدّة طويلة. تناديهنّ بأسمائهنّ، وتعرف مشاكلهنّ الصحيّة وأسماء أبنائهنّ وأعمارهم. ولم يكن ثمّة غير موضوع واحد لا يُثار أبداً، هو الحرب. وسلمى تتحرّق لأن تستفسرهنّ عن سبب انقلاب إغريق الأستانة على مواطنيهم الأتراك، لكنها لا تجرؤ.

كانت الشمس قد مالت إلى المغيب لمّا أحنت المرأة الأولى رأسها وغمزت بعين خبيرة لتشرع في أخذ المقاسات عن بعد، لأنّ لمس أفراد العائلة الملكية محظور عليهنّ. وإذا كان هذا الأمر لا يطرح مشكلاً بالنسبة لخياطة ملابس تقليدية فضفاضة، فإنهنّ يواجهن مشاكل حقيقية عند خياطة الملابس الأوروبية الملتصقة بالجسم، بحيث كثيراً ما تضطر السلطانة إلى تغيير مواضع الدبابيس بنفسها، وهو ما يجعلها تشعر بالحنق على هذه العادة المزعجة، وإن كانت تعتبرها ضرورية. ففي ظلّ هذا الوضع المضطرب، ينبغي الحفاظ على الأعراف أكثر من أيّ وقت مضى. فهي أساس الاحترام. الآن وقد زالت السلطة، يبقى الاحترام هو آخر عماد يسند العرش.

دأبت سلمى منذ مدّة على الخلوّ إلى نفسها لكي تحلم. وقد اختارت لذلك كشكاً صغيراً من خشب الورد محاطاً بدرابزين يحمل نقوشاً متقنة، يسمونه «جناح العندليب»، نظراً لوجوده في مكان اعتاد هذا الطائر على

أن يبني فيه عشّه. وهي لا تكلّ من سماع شدو هذه الروح المتعطّشة للحب التي تحكي الأسطورة بأنّها يئست من لامبالاة الوردة، فراحت تشدو طول الوقت لعلّها تستميلها.

كان الجوّ لطيفاً، ومضت سلمى المستلقية على السجاد التركي الذي يكسو الأرضية تُغمِض عينيها نصف إغماض وتحاول النظر إلى الشمس، وهي لعبة تحظرها عليها كلّ من روز والدادة بدعوى أنّ ذلك سيؤدي إلى إحراق حدقتيها. وفجأة تعتّمت الأشعة، ذلك أنّ ظلاً مرّ بقربها. فتحت عينيها فلمحت طيفاً يبتعد باتجاه القصر. لم تستطع تبيّن ملامحه لأنّ بصرها كان ما يزال مبهوراً، لكن خيّل إليها مع ذلك أنّه... «العمّ رعد»! كلا، غير معقول! فالعمّ رعد يوجد بالأناضول حيث يحارب مع مصطفى كمال. بل إنّ زوجته المقيمة الآن مع خديجة سلطان قرأت عليهنّ آخر رسالة وصلتها منه. دعكت سلمى عينيها. ما أشبهه بالأمير عمر فاروق! نهضت بقفزة واحدة، وراحت تتعقّبه على رؤوس أصابع قدميها.

فلما وصلت أمام الصالون الأزرق سمعت صوتاً حاداً يقول:

ـ رفضني، هذا كلّ ما في الأمر!

إنّه الأمير فاروق. يذرع الغرفة جيئة وذهاباً وقد شبك يديه خلف ظهره مغتمّاً. يظهر أنّ أسئلة زوجته وعمّته المحتشمة زادته غضباً. وصرخ فجأة:

ـ كنا سذّجاً حقاً لمّا اعتقدنا أنّ كمال سيقبل معونتنا من أجل إنقاذ تركيا! مساعدة الشيوعيين وعصابات قطاع الطرق، نعم! أمّا مساعدة الأمراء، فلا! الشعب يعرف حقّ المعرفة أنّ أسرتنا هي التي بنت مجد هذا البلد. إذا تركَنا كمال نحارب، قد نحجب أمجاده. دعانا لمّا شعر بأنّه انتهى، لكن بعد أن أنقذه تحالفه مع البلاشفة وانتصاره في إينونو، صار يقدّر بأنّه لم يعد بحاجة إلينا. بل يظن كثيرون أنّه يحاول أن يقنع الناس بأنّنا خونة لكي يتأتّى له القضاء علينا يوماً، والاستئثار بالسلطة. لكنّه لن يصل إلى مراده قريباً!

هوى الأمير بقبضته على منضدة صغيرة من شدّة الغضب، فوقعت على الأرض.

واستطرد يقول من دون أن يعيرها انتباهاً:

ـ الشعب التركي يحبنا. آه لو رأيتم الاستقبال الذي خصني به سكان إنيبوغلو لمّا نزلت على الشاطئ! بكى هؤلاء الناس الطيبون من الفرح كما لو أنّ السلطان هو من حلّ للقتال بجانبهم. خلال الأيّام التي قضيتها هناك في انتظار ردّ مصطفى كمال، كانت بنات الفلاحين يفدن من كلّ القرى المحيطة لكي يرينني، ويلمسنني، والتأكّد من أنّ الباديشاه لم يتخلّ عنهم... لم يكونوا يملّون من سماع قصة إمعان الإنجليز في تفتيش المركب الذي أقلني من الأستانة، وكيف أنّني قضيت ستّ ساعات مختبئاً في أحد الدواليب والمسدس في يدي، مصمّماً على الانتحار بطلقة في الرأس حتّى لا يأسروني.

ـ ولماذا عُدت إذن؟

نفد صبر الجنرال الأمير عثمان فؤاد الذي وصل منذ بضع دقائق. فهو لا يحبّ الحكايات التي لا يكون هو بطلَها.

التفت عمر فاروق ببطء ليتفرّس ابن عمه، ثمّ قال بفتور:

ـ وأنت أيّها الأمير، لماذا لم تذهب؟

تكهرب الجو، فتدخّلت خديجة سلطان قائلة:

ـ أرجوكما!

ثمّ التفتت إلى الأمير فاروق، وقالت بنبرة مُفعمة بالإعجاب:

ـ ماذا حصل إذن يا صاحب السمو؟

ـ مرّت بضعة أيّام، فتلقّيت رسالة من أنقرة. شكرني الجنرال بلباقة جمّة على مجيئي، وأشاد بشجاعتي، ثمّ أضاف بأنّه لا يريدني أن أخاطر بنفسي، وأنّ عليّ أن أصون حياتي لأمور أهمّ وأنفع للأمة... إنّها باختصار طريقة مهذّبة لرفض مساعدتي، وإعادتي إلى بيتي.

تنهّدت زوجة الأمير الشابة صبيحة سلطان وهي تقول:

ـ أشعر بالخوف. لا شكّ أنّ الباشا عبقرية عسكرية ولا شكّ، لكنّه أيضاً ذو طموح لا حدود له. وما حكيتَه يؤكّد هواجس والدي السلطان. لمّا بعث جلالته بكمال إلى الأناضول، وضع فيه ثقته. أمّا الآن فهو يرتاب في أنّه قادر على فعل أيّ شيء.

وخيّم الصمت على الصالون الأزرق. وتساءلت خديجة سلطان، وقد شوّشها ما حكاه الأمير فاروق، عمّا إذا لم يكن السلطان وحيد الدين محقّاً، وما إذا كان مصطفى كمال، الذي طالما دافعت عنه، بصدد خيانتهم.

١٤

تغيّرت «السلطانة الصغيرة» كثيراً في الأيّام الأخيرة إذ صارت مراهقة، والخادمات حولها يُشِدن بقدّها الممشوق وبياض بشرتها. وقد قرّرت السلطانة أن تعلّمها القيثارة فضلاً عن البيانو، وذلك حتّى تتمكّن من إظهار ذراعيها اللذين يَعِدان بأن يكونا في منتهى الجمال. أمّا سلمى فكانت تستلذّ ذلك التقريظ، وبدأت تكتشف سحرها، وتجرّب فتنتها في إغراء أحمد الذي صار أفضل أصدقائها منذ الواقعة التي وقعت لها معه.

كانت عقوبة الأسبوعين الذين قضتهما مسجونة في غرفتها امتحاناً حاسماً. فبعدما أغرقت في البكاء، وانتفضت ضدّ هذا العقاب الذي وجدته جائراً، وجدت فيه أخيراً ضرباً من المتعة: متعة أن تكون بمفردها في مواجهة الجميع، لا يفهمها أحد. قضت ساعات تحكي لنفسها قصصاً شائعة لشهداء مسلمين وأعلام من الصوفية أدانهم هم أيضاً مجتمع لم يفهمهم. وأعاد لها ما لمست بينهم وبينها من شبه، الشجاعة، وساعدها على تجاوز هذه المحنة.

كان عليها ان تستعين بكلّ هؤلاء الأبطال بعدما شعرت بفقدان تلك التي قدّستها كما لم تقدّس أحداً، أيّ أمّها. هي من كانت تبدو لها على قدر كبير من الكمال، وتشعر أمامها بالضآلة، عاقبتها على نحو جائر... ولم تبذل أيّ جهد لفهمها... ورغم أنّ سلمى قلّبت المشكلة من كلّ وجوهها، انتهت إلى أنّ إحداهما مخطئة، وهي واثقة من أنّها ليست

هي. على أنّ هذه الخلاصة التي كان من المفروض أن تشعرها بالرضا، زادتها غمّة. وتملّكها حزن لم تشعر بمثله قطّ، كاد يفضي بها إلى اليأس.

ورأت نفسها في المنام ذات ليلة داخل زنزانة مظلمة، كلّما تحرّكت، اصطدم رأسها بالقضبان. وفجأة سمعت صوتاً يقول: «لماذا لا تزيلين العصابة الموضوعة على عينيك، فتنظري حواليك، وتتجنّبي إيذاء نفسك».

لكنّها سألت نفسها: كيف تزيل هذه العصابة؟ فهي جزء منها، ملتصقة بمقلتيها بحيث إذا نزعتها قد تنزع معها عينيها. وتملّكتها حيرة شديدة: أيحسن بها أن تبقى في الظلام إلى الأبد، غير قادرة على الحركة، أم تغامر ببصرها وتنزع العصابة؟ وانتهى بها المطاف أن اختارت الحلّ الثاني، ورفعت يدها بوجل إلى العصابة. وكانت دهشتها كبيرة حينما زالت العصابة بمجرّد لمسها، فبدا لها العالم في صورة لم ترها من قبل، متوهّجاً وفي متناولها.

وفي الصباح، شعرت بأنّ حالها تحسّن كثيراً إلى حدّ أنّها لم تفهم كيف عاشت طيلة أيام ذلك الكابوس. وبدا لها العالم متوهّجاً كما رأته في الحلم، ولم تعد بحاجة إلى عيني أنيدجيم لكي تبصر.

فأمّها السلطانة ذات السلطة النافذة أخطأت، وسلمى لم تمت من جراء ذلك. وقد فتح لها هذا الاكتشاف آفاقاً من الحرية اللانهائية...

ومرّة أخرى تمكّن الكماليون من صدّ اليونانيين قرب نهر إينونو، وتوقّفت المعارك مؤقّتاً. واغتنمت الأستانة هذه الانتصارات الصغيرة لتحتفل من جديد. كان ذلك في أواسط أبريل/ نيسان. كان الضوء شفافاً والهواء ناعماً مثل شَفَتي مراهق. وعلى طول البوسفور، تضوع عناقيد الوستاريا المتدلّية على واجهات القصور بعطر خلاب، ومن وراء سيّاجات البساتين، يُعطّر الزعرور والياسمين الشوارع، ويخدّران الحواس.

واستأنف الناس نزهاتهم في «مياه آسيا الحلوة» على مراكب مكسوّة بمخمل بهت لونه قليلاً، مطرّز بخيوط الذهب. مراكب تتحرّك بنعومة وصمت على نهر قوكصو كشأنها في سالف عهدها الزاهر. العلامة الوحيدة على تغيّر الزمن هي أنّ عدد المجذّفين تناقص، لأنّ كثيراً منهم التحقوا بكمال في الأناضول.

كان النهر من الضيق بحيث تكاد المراكب تتلامس حين تتلاقى، فيتبادل ركّابها التحيّة وبعض العبارات اللطيفة. وفي بعض الأحيان يذهبون أبعد كأن يحاول شابّ إثارة انتباه إحدى الحسناوات. فإذا كانت فتاة جادّة، تسارع إلى إخفاء وجهها خلف مظلّتها، وإلا فإنّها تنظر إلى البعيد على نحو حالم. عندئذ يتناول الشاب الزهرة التي تزيّن عروة سترته، ويضعها بين شفتيه. فإذا ابتسمت له، وهو ما يدلّ على تحرّرها، تجاسر على رمي الزهرة لتقع في حجرها. لكن قبل الوصول إلى هذه الحركات الجريئة، عليه أن يلاحظ مجموعة من العلامات المقنّنة بدقّة: فإذا لعب المُغازل بقطة سكر، فمعنى ذلك: «قلبي يهفو إليك»، وإذا داعب برقوقة، فهذا معناه: «قلبي يعصره الحزن». أمّا إذا داعب منديل حرير أزرق، فكأنّه يقول: «أنا بحبك مُلتاع».

ولأوّل مرّة تتعرّف سلمى على هذه الرسائل السرّيّة، وتشعر بشيء ناعم كالمخمل في صدرها، فتستغرق في الحلم بفصول الربيع المقبلة، وهي جالسة إلى جوار أمّها مستقيمة، حابسة أنفاسها.

لكن الهدوء لم يدُم طويلاً، إذ وصل ملك اليونان قسطنطين يوم الثالث عشر من يونيو/ حزيران عام ١٩٢١، إلى إزمير برفقة خمسة وثمانين ألف رجل. لم ينزل بالمرفأ، بل في المكان الذي نزل فيه الصليبيون قديماً. وكان هدفه سحق أنقرة التي تعدّ معقل المقاومة، والاستيلاء على الأستانة. أليس الله بجانبه؟ هذا ما تزعمه نبوءة شهيرة للبابا يوهانس تؤكد أنّ الملك المسيحي الصادق سيدخل العاصمة التي ظلّ الغربيون يسمونها القسطنطينية، وسيطرد منها البرابرة. وقد عزّزت

هذه النبوءة عزمه، وشجّعته على أن يشنّ في الثالث عشر من آب/ أغسطس هجومه الكبير على أنقرة.

أخذ اليونانيون يتقدّمون بسرعة بفضل كثرة عددهم، وحسن تجهيزهم، بينما تراجع الجيش التركي، فخيّم الخوف على المدينة، وبدأت طائفة من سكّانها ذوي النزوع الكمالي، بل حتّى بعض النواب، تتأهّب للرحيل عنها وتركها. ولم يكن من مصطفى كمال إلا أن استشاط غضباً من هذا الجبن، وطالب بحقّه في القيادة العليا للجيش التي كان يستأثر بها السلطان حتّى ذلك الحين، معبّئاً سكان الأرياف بالأناضول، مجنّداً الرجال والنساء لدعم الجيش الوطني. وكانت خطته هي وقف اليونانيين عند نهر صقاريا، آخر خطّ دفاعي طبيعي يبعد عن أنقرة بمائة كيلومتر.

وفي الوقت الذي استحكم فيه اليأس من سكان الأستانة، سرت في الأحياء اليونانية المشرقيّة إشاعة تزعم أنّ مصطفى كمال أُسر. فراحوا يكرعون كؤوس الشامبانيا، وامتلأت المطاعم والملاهي، لا سيما الوردة السوداء، أفخر ملهى في المدينة، حيث تخدم حسناوات روسيات مهجّرات ـ أميرات أصيلات فيما يقال ـ ويراقصن الزبائن حتّى الفجر.

واستطاعت القوّات الكمالية الصمود لاثنين وعشرين نهاراً واثنتين وعشرين ليلة في معركة شرسة مريعة. كان الجميع يعلم أنّ مستقبل البلد يتوقّف عليها. وفي الحادي والعشرين من سبتمبر/ أيلول، لاذ الجيش اليوناني بالفرار، فنجت تركيا!

عمّت الفرحة كلّ أرجاء البلاد، وغصّت المساجد في الأستانة، واحتفل الشعب بالنصر غير عابئ بالمحتلّ. لم يعد الناس يسيرون في الشوارع ملتصقين بالجدران، بل أصبحوا يمشون في وسطها مرفوعي الرؤوس، وحين يصادفون جندياً بريطانياً يحدّقون فيه باستهزاء ولسان حالهم يقول: «وأنت أيضاً لن يطول بك المقام هنا!».

على أنّ الحرب لم تنته. فعدا العاصمة، ما زال نصف تركيا محتلاً.

إلا أنّ الحكومات في الخارج بدأت تفهم بأنّ الأمور إلى تغيُّر. وسارعت باريس إلى إرسال سفيرها فرانكلين بويون الملقّب بـ«أمير المشرقيين» للتفاوض مع مصطفى كمال، حاملاً ضمن أمتعته العشرات من صناديق أفخر الكونياك. ذلك أنّ السفارات بدأت تعرف نقطة ضعف القائد العظيم، لا سيما أنّ بويون يحمل معه وعداً بإجلاء القوات الفرنسية من منطقة قليقيا، وعرضاً بالسلام، وهو ما أثار حفيظة لندن.

توالت الشهور، وعمد كمال باشا إلى تعزيز قوّاته من دون استعجال، ومقابله كان اليونانيون يتجهّزون. لكن اعتراض الرأي العام في أثينا على الحرب كان يتزايد، كما أنّ اليأس بدأ يسيطر على النفوس في الخنادق.

وفي السادس والعشرين من أغسطس/ آب ١٩٢٢، وبعد سنة لم تطلق فيها رصاصة واحدة، عُلِم أنّ الجيش التركي شنّ هجوماً. وعلى نداءات: «هيا يا جنود! هدفكم هو البحر الأبيض المتوسط»، تقدّم الجيش التركي باتجاه إزمير، فتراجعت القوات اليونانية في جوّ من الفوضى والاضطراب.

لم يصدّق سكان الأستانة الخبر، لكن سرعان ما تأكّد أنّ مدن إيدين ومانيسا وإيسكي حُرّرت، فبلغ الحماس أوجه.

أمّا السلطان وحيد الدين فكان يقضي أيّامه في الصلاة بقصر ييلديز حيث يقيم بعيداً عن ترف طولمة باغجه. ولم يكن يتوقّف إلا ليبعث بسكرتيره الخاص لاستقصاء الأخبار: أين بلغت القوات الوطنية؟ أاقتربت من إزمير؟ هل انتصرت القوات التركية حقّاً؟

هجمت الحشود على مقرّات الجرائد، بحيث أصبح من المتعذّر الخروج لتوزيع النسخ المطبوعة حديثاً. وهكذا كانوا يعمدون إلى رميها من أعلى الشرفات. وتوقّفت الحياة تماماً، وراح الناس يتابعون تقدّم الكماليين لحظة بلحظة.

وعلم أخيراً، يوم التاسع من سبتمبر/ أيلول أنّ قوات الجنرال دخلت

إلى إزمير التي فرّ منها آخر جندي يوناني. ومضى الناس يتعانقون في الشوارع المضاءة والمزيّنة باللافتات والأعلام وهم ينتحبون. فبعد اثنتي عشرة سنة من الذلّ والخزي، صار بإمكان الشعب التركي أن يرفع رأسه من جديد. فالانتصار هذه المرّة شامل، والحرب وضعت أوزارها.

وتعالت أصوات المؤذّنين في جميع الصوامع بالتكبير، وتواصلت الاحتفالات في المساجد بدون انقطاع. وكان أبهرها الحفل الذي أقيم بمسجد أياصوفيا الذي حضرته سلمى وأمّها يوم تحرير إزمير. وقد ظلّتا هناك متلاصقتين لساعات وسط الجماهير المحتشدة، متسمّرتين في مكانهما تبكيان.

بعد ذلك بخمسة عشر يوماً، غادر الأسطول اليوناني الأستانة، وفي الحادي عشر من أكتوبر/ تشرين الأول وُقّعت اتفاقية الهدنة بطلب من قوى الاحتلال هذه المرّة.

١٥

سلمى مكدّرة المزاج. احتفلت أمس بعيد ميلادها الثاني عشر، وكان أسوأ يوم في حياتها! فقد وجدت بين الهدايا التي تكدّست بها غرفتها علبة كبيرة شبيهة بتلك التي تتلقّى فيها أمّها فساتينها من باريس. أغلقت عينيها وفضّتها بحركة محمومة، وما إن فتحتهما حتّى رأت شرشفاً حريرياً فيروزي اللون، ومعه وشاح من الموسلين.

شعرت بغصّة في حلقها، وترقرقت الدموع في عينيها وأعرضت عن هذه الهدية رغم إلحاح القلفاوات اللواتي رحن يهنّئنها على هذا الارتقاء من طفلة إلى امرأة. ورفضت رفضاً قاطعاً أن تقيس هذا «السجن المتنقّل».

مضت تعتب على أمّها استسلامها للأعراف مع أنّ عادة ارتداء الشرشف إلى زوال، إن لم يكن في المدن الصغيرة، ففي العاصمة على الأقلّ. ذلك أنّ الشابات الأنيقات حوّلن هذا الرداء إلى لباس من قطعتين ضيّقتين لم يعد فيهما الحجاب الذي تقلّص ولُفّ إلى جانب الرأس بتغنّج، غير قطعة زينة بديعة.

وتقول لها القلفاوات بتذمّر:

ـ النساء الوقحات والعاهرات، بل المثقّفات والثوريات مثل خالدة أديب ورفيقاتها... هنّ اللواتي يتجوّلن بوجوه سافرة، وتنانير تكشف عن كعابهنّ وحتّى بطات سيقانهنّ بدعوى «تحرير المرأة»!... لا يمكن للسلطانة أن تنزل إلى هذا المستوى... عليها أن تحافظ على أخلاق الإسلام وتقاليده.

الأخلاق! ما صلة كلّ هذا بالأخلاق؟ لماذا يعدّ سفور الوجه والكشف عن الشعر لا أخلاقياً بالنسبة للمرأة من دون الرجل؟ كلّ هذا جعل الغضب يلازم سلمى.

وعادت إلى القرآن بحماس من أسلم حديثاً. فهي تفهم الآن العربيّة. وقضت أيّاماً تبحث عن الآيات التي ذُكرت فيها النساء. لم تعثر على آية واحدة توجب على المرأة إخفاء وجهها ولا حتّى شعرها، هذا بينما يلحّ المشايخ على أنّ في إظهارهما معصيّة! كلّ ما يفرضه الإسلام هو أن ترتدي المرأة لباساً محتشماً. فحتى الرسول صلى عليه وسلم لم يكن يطلب من زوجته عائشة أن تحتجب، وكان يصحبها معه أحياناً حين يدعى إلى عشاء، حيث كانت تتحدّث إلى الرجال بحرّيّة. أمّا حفيدة الرسول، سكينة، فكانت ترفض رفضاً باتاً ارتداء الحجاب، وكانت تقول: «إن كان الله وهبني الجمال، فلا ينبغي أن أخفيه، وإلا كفرت بنعمته!».

بدأت المدينة تضجّ من حوالي سلمى بمظاهر الحرّيّة، وأخذ سكان الأستانة لأوّل مرّة يتنفّسون من دون أن يجثم شيء على صدورهم، وصار بإمكانهم أخيراً أن يتطلّعوا إلى المستقبل.

شعرت المراهقة بهذه الحماسة البهيجة التي هزّتهم تسري في كيانها كموجة عاصفة ترتطم بحواجز الحشمة وآداب السلوك، وأحسّت بها كتيّارٍ مندفع يتكسّر على أسوار القصر المخملية، وتهذيب القلفاوات المتأنّق وابتسامة أمّها السمحة، فتحسّ بالاختناق.

وبينما جلست في أحد أركان الصالون الصغير الوردي تجترّ أشجانها، أخذت السلطانة مكانها في مكتبها مستغرقة في إنهاء إحدى رسائلها، متظاهرة بأنّها لم تنتبه لمزاج ابنتها المكدّر.

وسُمع فجأة وقع خطى متعجّلة، وإذا بخيري بك يدخل الصالون من دون أن يعلن عن قدومه. بدا مشوّش الذهن، ولأوّل مرّة منذ أربع عشرة سنة من الحياة الزوجية، لم يُحيّ زوجته. وغمغم قائلاً:

ـ غير معقول! شيء لا يصدّق!

رشقته السلطانة بنظرة مستفهمة والقلق بادٍ عليها بينما جلس متهالكاً على أحد المقاعد.

ـ تصوّري أنّ مجلس الأمّة الكبير في أنقرة صوّت لمصلحة إلغاء السلطنة!

فانتفضت خديجة.

ـ تقصد عزل جلالة السلطان وحيد الدين؟

فردّ مشدّداً على كلّ مقطع من كلماته:

ـ كلا. صوّت على الإلغاء التام للسلطنة. منذ الآن لن يكون ثمّة سلطان في تركيا. كل ما سيبقى، خليفة يلعب دور زعيم ديني، مجرّد من كلّ سلطاته السياسية. انظري!

وناول زوجته حزمة من الجرائد أعلنت عن الخبر بالبنط العريض. ألقت عليها نظرة خاطفة وهزّت كتفيها.

ـ مستحيل! لن يقبل أحد بهذا القرار. السلطة السياسية والسلطة الدينية في الإسلام لا تنفصمان.

فردّ خيري، الذي أسخطه هدوء زوجته، بنبرة قاسية:

ـ هذا بالضبط ما اعترضت به أغلبية النوّاب. فالمحافظون، بل حتّى المعتدلون لا يشاطرون كمال رأيه. هم يريدون ملكية دستورية تحت مراقبة القوى الوطنية.

ـ إذا كانوا أغلبية، فلماذا لا يفرضون رأيهم؟

ـ لم يدّخر كمال جهداً للتغلّب على معارضتهم. صعد إلى المنبر و... سأقرأ عليك نص كلامه: «قد يكون من الأنسب أن ينضم كلّ واحد منكم إلى هذا الموقف (إلغاء السلطنة). فإذا لم تقبلوا، فإن ذلك لن يغيّر شيئاً من وقائع الحقيقة المحتومة، لكنّنا قد نشهد سقوط بعض

الرؤوس...»[1]، وبذلك أخرست الأصوات المعارضة. هم يعرفون أنّ الباشا لا يعبث. فقد سقطت رؤوس كثيرة منذ بداية الحرب الأهلية. بل بلغ الأمر بأحد النواب المعارضين أن أعلن: «عفواً. لقد كنّا نبحث القضية من زاوية أخرى. نحن نعرف الآن إلى أيّ رأي ينبغي أن ننحاز». «التافهون، ركبهم الرعب!»، وما هي إلا ساعات حتى صوّت المجلس لمصلحة إلغاء الملكية، وبالإجماع.

كانت سلمى تنصت مشدوهة. أخُلِع السلطان؟ ما معنى هذا؟ سيصير البلد بلا حاكم بحيث يفعل كلّ واحد ما يشاء؟ مستحيل! أو أنّ مصطفى كمال هو من سيحكم البلد؟ ماذا وقع... وانبثق في ذهنها فجأة بصيص أمل: إن صار مصطفى كمال هو السلطان، ألن تكون مجبرة على ارتداء هذا الشرشف البغيض؟ فزوجته لطيفة هانم لا ترتديه، وكذلك صديقتها خالدة أديب وكلّ النساء المحيطات به. فهنّ حرّات في أن ترتدين ما يهوين، ويخرجن كيفما شئن.

وفجأة شرعت سلمى تتمنى أن يكون الخبر الذي نقله أبوها صحيحاً، أن تتخلّص تركيا من سلطانها إلى الأبد ويصير كمال هو حاكم البلاد. لكنّ المزعج في الأمر هو أنّ أمراء الأسرة الذين يقضون وقتهم منتظرين يوم تنصيبهم سلاطين، لن يجدوا ما يشغلون به أنفسهم. ما أشدّ الخيبة التي سيمنى بها الخال فؤاد المسكين والخال رعد! وسعديّة؟ وشعرت سلمى برغبة لا تقاوم في الضحك. ذلك أنّ ابنة عمّها ستستشيط غضباً، هي التي ما فتئت تتحذلق منذ أن صار أبوها وليّاً للعهد.

وإذا بالسلطانة الفراشة تدخل إلى الصالون مرتدية لباساً رمادي اللون، كما لو أنّها تريد أن تظهر ما تشعر به من حزن. على أنّ سلمى لاحظت أنّ عينيها متألّقتان، ووجنتيها متورّدتان، كما لو أنّ نقل الأخبار، مهما كانت سيئة، يبهجها. جاءت من قصر يلدز حيث زارت زوجة جلالته الأولى. وقالت:

---

(١) اللورد كينروس: أتاتورك.

ـ القادين قلقة جدّاً. جاء الحاكم الجديد رفعت بك بعد الظهر ليخبر الباديشاه بعزله، فأجابه جلالته بأنّه لن يتخلّى عن العرش أبداً. والجميع يتساءل عمّا ستؤول إليه الأمور. ومصطفى كمال ليس من النوع الذي يقبل أن يتحدّاه أحد. ما وسيلة الضغط التي سيلجأ إليها؟ على كلّ حال فجلالته مستعدّ لكلّ الاحتمالات... بل إنّهم أوحوا له بأنّ حياته في خطر.

فردّ خيري بك بنبرة حزينة:

ـ هم قادرون على اغتياله واغتيالنا جميعاً. فأصدقاء كمال، البلاشفة، لم يتردّدوا في قتل أفراد الأسرة الحاكمة في روسيا. هؤلاء المتوحّشون لم تأخذهم شفقة حتّى بالأطفال الصغار!

لم تصدّق سلمى ما سمعت. ماذا؟ أهذا هو الباشا الذي دعت له هي وأسرتها بالنصر؟ يقتلهم؟ مستحيل. ولعلّ ما خفّف عنها قليلاً هو أنّ أمّها من رأيها. قالت السلطانة بضيق:

ـ صحيح أنّ الموقف خطير، لكن لا داعي للمبالغة. ثمّ دعني أقول لك يا صديقي إنّ مواطنينا الأتراك أكثر تمدّناً من أولئك الفلاحين الروس!

هتفت السلطانة الفراشة بنبرة متباكية:

ـ جرايات الأمراء والأميرات ستلغى، ولا أعرف كيف سنعيش حينئذٍ؟

فردّت خديجة سلطان بفظاظة:

ـ ستقلّصين مما تشترينه من أثواب فاخرة، هذا كلّ ما في الأمر! مهما يكن، فما أخشاه هو ألا تكوني بحاجة إليها...

وحتّى تضع حدّاً للتعليقات، عكفت على قطعة الثوب التي كانت تطرّزها.

وبعد يومين من ذلك، ترك توفيق باشا، آخر صدر أعظم، منصبه وسلّم أختام الدولة للسلطان، بينما آلت إدارة العاصمة إلى رفعت باشا، وصارت الشرطة والدرك تحت إمرته. أمّا الوزارات باختلافها، فتلقّت

الأمر بوقف كلّ أنشطتها، وانتقل مركز الحكم إلى أنقرة. ولإرضاء الشعب الذي لم يكن يفهم معنى كلمة «جمهورية»، أطلق النظام الجديد على نفسه اسم «ملكية الأمّة»...

وبعد ذلك بأيّام قُتل علي كمال. ذلك أنّ هذا الصحافي اللامع شنّ حملة على الكماليين، فأوقفوه وهو لدى حلاقه، واقتيد إلى إزمير لمحاكمته. عدا أنّ هذه المحاكمة لم تَجْرِ لأنّ الحشود الغاضبة رجمته حتّى الموت.

وقد أثار هذا الخبر السخط بين بطانة السلطان. فقد كانوا يعتبرون علي كمال رجلاً شريفاً، كلّ ما قام به هو أنّه دافع عن أفكاره. على أنّ ما أثار سخطهم أكثر هو أنّ مقتله اعتُبِر دليلاً على أنّ الشرطة لم تعد تغامر بحماية أعضاء النظام القديم من الغضب الشعبي. ولم يعد السلطان يشعر بالأمان داخل قصره. فقد قرّر المجلس الوطني الأكبر في أنقرة محاكمته بتهمة الخيانة العظمى. بل إنّ بعض النواب طالبوا بإعدام «صديق الإنجليز» هذا.

وقد لاذ عدد كبير من الخدّام بالفرار، وحتّى أعوان السلطان المقربون بدأوا يتخلّون عنه. وأخذ سراي يلدز يفرغ يوماً بعد يوم. لكن أقسى ضربة سيتلقّاها الباديشاه بلا شكّ هي رحيل الصدر الأعظم السابق الداماد فريد، خلسة، هو من طالما أساء نصحه. ولمّا أخبر بذلك، ارتسمت على وجهه ابتسامة مليئة بالمرارة، وعلّق قائلاً:

ـ هكذا إذن، لم يجرؤ حتّى على توديعي!

وفي الجمعة الموالية، قرّرت خديجة سلطان حضور حفل السلاملك بمسجد الحميدية. ذلك أنّ الباديشاه أعلن أنّه سيحضره كعادته. وهي عازمة على مساندته في هذه المحنة.

وبينما كانت السلطانة، المرفوقة بسلمى المتدثّرة بشرشفها، تهمّ بركوب العربة الخضراء الغامقة الموسومة بالشعار الملكي، تجرّأ السائق

محمد، وهو رجل ذو شنب طويل، ينحدر من الجبل الأسود، على الإشارة إلى أنه يَحسُن في ظلّ هذه الأوضاع المضطربة ركوب عربة عادية. التفتت إليه السلطانة ورشقته بنظرة قاسية، وقالت:

ـ كنت فخوراً قبل أسابيع بأنك سائق القصر، والآن أنت خائف؟ إن شئت أن تذهب، فلن أمنعك. سيدفع لك المسؤول عن المالية أجرك.

فقال الرجل معتذراً:

ـ سامحيني يا سلطانة، لديّ أطفال صغار، وليس من حقي أن أيتّمهم.

فردّت السلطانة بهدوء:

ـ حسناً يا محمد، عد إلى بيتك، لكن قبل ذلك، ابعث لي السائق الآخر.

تورّد الرجل، وراح يغمغم:

ـ الواقع يا صاحبة السمو أنّ لديه أمّاً عجوزاً هو معيلها الوحيد، وقد غادر أمس.

فقالت السلطانة وعيناها تقدحان شرراً:

ـ غادر من دون أن يُعلمني؟

ـ لم يتجاسر. شعر بالخزي، فأنت كنت دائماً طيّبة...

هكذا إذن يجازى المرء على طيبته! أصارت الأمور مضحكة إلى هذا الحدّ؟

ـ معنى هذا أنّه لم يعد لدينا سائق، لا بأس. حمداً لله أنّ زينيل ما زال هنا، هو من سيقودنا.

سوّت السلطانة الوشاح على رأسها بحركة مهيبة، وبدت كأعظم ما تكون وهي تصعد إلى العربة الملكية.

لا يبعد مسجد الحميدية إلا كيلومترين. وكان العرف يقضي بأن تتابع

النساء الحفل من خلال العربات المتوقّفة أمام القصر. ولمّا وصلت سلمى وأمّها، انفتحت أبواب قصر يلدز، ولاح السلطان في عربة مكشوفة، يجرّها حصانان يسيران بخطى منتظمة، يتبعه على الأقدام ثلاثة مساعدين وأربعة كتّاب وبعض الخصيان السود. لم يكن بينهم وزير ولا موظّف سام. نظرت سلمى مصعوقة، وتساءلت: أهذا هو السلاملك؟ وتذكّرت الحفلات الفخمة التي كانت تقام سابقاً، حيث كان الوزراء والباشوات بأوسمتهم ونياشينهم والأمراء والدامادات الموظفون السامون يمشون وراء عربة السلطان على أنغام النشيد الملكي. أمّا الآن فتخيّم على المشهد مسحة حزن تجعله أشبه بحداد. أين هي الموسيقى؟ أين هم الرمّاحون بلباسهم الأزرق الجميل، ومختلف الفرق العسكرية التي تحيط بالموكب وتؤدي التحيّة للسلطان وهي تهتف: «أطال الله في عمر الباديشاه!»؟

لم يفضل من كلّ أولئك غير بعض الجنود، وقد لاذوا بالصمت.

ترجّل السلطان وحيد الدين ببطء من العربة وقد ارتدى زيّه العسكري من دون أوسمة، كما لو أنّه يجد عنتاً كبيراً في الحركة. بدا مهزولاً ومنهكاً بحيث تساءلت سلمى عمّا إذا كان مريضاً. لا تكاد تتعرّف عليه: شاخ في بضعة أشهر.

وتوجّه إلى المسجد وهو شارد، وفي تلك الأثناء تعالى الأذان، فتوقّف السلطان، وراح ينصت إلى هذا الصوت الذي يدعو المؤمنين إلى الصلاة. «باسم أمير المؤمنين، باسم خليفة المسلمين...»

ولأوّل مرّة منذ قرون، لم يُذكر لقب سلطان الإمبراطورية العثمانية.

ودخل وحيد الدين إلى المسجد وقد حشر عنقه الطويل بين كتفيه كما لو أنّه يشعر بالبرد.

وعندما كانت العربة الخضراء عائدة، لزمت سلمى وأمّها الصمت،

متأثرتين بسحنة السلطان المخلوع الكئيبة، وبالحزن الذي خيّم على الحفل. وبدا كلّ كلام لا يليق بالمقام.

وحين اقتربوا من القصر، ولم يعد يفصلهم عنه إلا بضع مئات من الأمتار، ظهر رجلان فجأة، فجفل الحصانان، واضطر زينيل إلى شدّ الزمام بكلّ ما أوتي من قوّة لإيقافهما، فسُمع لعجلات العربة صرير قويّ. وبينما صوب أحد الرجلين مسدّساً على زينيل، اقترب الآخر، وهو يرتدي سروالاً ممزّقاً وسترة عسكرية، من نافذة العربة المشبكة، وقال للمرأتين المختفيتين في الداخل:

ـ أيّتها الخائنتان! قريباً سنقتلكما. عاش مصطفى كمال!

وسرعان ما تحلّق بعض المتسكّعين ليتابعوا المشهد، وصعقوا لمّا هتف صوت:

ـ تراجعوا أيّها الأوباش!

وتقدّم رجل في نحو الستين من عمره، فارع الطول، يرتدي لباس مزارعي الأناضول: سراويل فضفاضة وسترة قصيرة، وقد امتقع وجهه من الغضب، وقال:

ـ أيّتها الخنازير النجسة! كيف تجرّأتم على مهاجمة نساء، وليس أيّ نساء، حريم الأسرة العثمانية التي تدين لها بلادكم وكمالكم بكلّ شيء!... اطلبوا منهما الصفح وإلا سحقتكم!

أيّد الحشد كلامه، وشرع المتحلّقون يطوّقون الرجلين الذين يظهر أنّهما من الوطنيين الذين حلّوا بالعاصمة مؤخّراً، فتفاجآ، وبدا عليهما الارتباك. وما كان من زينيل إلا أن اغتنم الفرصة، وأهوى بسوطه على الحصانين، فانطلقا يعدوان على الفور.

مضت الأحداث بسرعة بحيث لم تجد سلمى الوقت لتشعر بالخوف، لكنّ الرجل نطق بكلمة جرحت قلبها: أيّتها الخائنتان! سبق لها أن سمعت الرعايا العثمانيين الذين يتعاونون مع المحتل يُنعتون بهذه

العبارة المثقلة بالحقد والكراهية. ولكن، كيف تنعت هي وأسرتها بالخيانة؟... هذه الشتيمة شوشت بالهما كثيراً.

رفعت عينيها إلى أمّها التي تجمّدت في مكانها وكأنّ على رأسها الطير، وسرحت بعينيها بعيداً، وسألت:

ـ لماذا نعتنا ذلك الرجل يا أنيدجيم بـ...

وفاجأها صوتها الخشن المرتعش، كما لو أنها تلفظ آخر أنفاسها، ولم تستطع الكلمة أن تتجاوز شفتيها، فبذلت مجهوداً واسترسلت:

ـ ... بـ«الخائنتين»؟

جفلت السلطانة وتطلّعت لابنتها بنظرة حزينة حتّى إنّ الصغيرة شعرت بالخزي، كما لو أنّ السؤال عن سبب الشتيمة نكأ الجرح. ارتبكت وخفضت عينيها، ثمّ جاءها صوت أمّها الهادئ:

ـ اعلمي يا سلمى أنّ المرء لمّا يسقط، يوجد دائماً بعض ضعاف النفوس الذين يشتمونه وينهالون عليه بالركلات. لكن اعلمي أيضاً، أنّ الأسرة العثمانية مهما كانت نقاط ضعفها وهناتها، لم تُقدم على الخيانة قطّ. بل إنّ الفكرة في حدّ ذاتها سخيفة، لأن عظمتنا من عظمة تركيا، وخيانتها هي خيانة لأنفسنا.

عند العودة إلى القصر، وجدا خيري بك بصحبة الجنرال الأمير عثمان فؤاد. فلمّا قصّا عليهما الحادثة، بدا عليهما القلق. وغمغم خيري قائلاً بينما قطّب الأمير حاجبيه:

ـ هذا ما توقّعته، وما هذه غير البداية.

ـ اسمحي لي يا عمتي العزيزة أن أنصحك بتوخّي مزيد من الحذر. تحدث في المدينة في الأيام الأخيرة بعض الاشتباكات التي يثيرها الوطنيون الراغبون في إجلاء القوات البريطانية فوراً، أو الإنجليز الذين يبحثون عن ذريعة لفرض حالة الاستثناء. وهم قلقون من الاضطرابات التي يثيرها الكماليون، بل إنّهم يعتقدون أنّ السلطان في خطر. وقد طلب

جلالته من الجنرال هارينغتون، قائد القوات البريطانية الذي ما زال موجوداً هنا، تعزيز حراسته.

فسألت السلطانة باستغراب:

ـ طلب الحماية من الإنجليز؟ ألم يعد يوجد أتراك أوفياء؟

ـ كما تعلمين يا عمّتي، فالشرطة والجيش والموظفون صاروا تحت إمرة الكماليين، بعضهم خضع لهم اقتناعاً، وبعضهم عن خوف.

كفّت الأميرة عن الإصغاء إليه، والتفت إلى زوجها وكرّرت السؤال ملحّة على كلّ مقطع من الجملة:

ـ ألم يعد يوجد أتراك أوفياء، يا خيري؟

مضى الداماد يداعب حبّات سبحته العنبرية، وقد بدا عليه الاكفهرار. فمنذ الشجار الذي كسر خلاله عكّازه، لم يزر السلطانة. كان يلزم جناحه، يُمضي معظم وقته في الحديث والسمر مع أصدقائه، ومع كبار الموظفين الذين فقدوا بين ليلة وضحاها مواقعهم ورواتبهم بسبب علاقتهم بالعائلة الملكية. ومن ثمّة لم تعد له رغبة في الحديث، لكنّه وجد نفسه مجبراً على الإجابة على سؤال زوجته المباشر. فقال وهو يتفحّص أظافره المقلّمة بعناية:

ـ أفضل ما يمكن القيام به في ظلّ هذا الوضع يا سلطانة هو الرضوخ، وإلا نشبت حرب أهليّة. أريقت دماء كثيرة في البلد خلال الاثنتي عشرة سنة الأخيرة... أظنّ أنّ حتّى أولئك الذين يرتابون في كمال يعترفون له بإنقاذ تركيا، ويتوقون إلى تجنّب مزيد من المآسي.

حدّقت الأميرة في زوجها وقد ارتسمت على محياها ابتسامة ظنّت سلمى أنّها مفعمة بالازدراء.

١٦

في الجمعة اللاحقة، أمطرت السماء على الأستانة بغزارة، وفكّرت سلمى بأنّها لن تذهب هي وأمّها إلى السلاملك، ولن تخرج للنزهة في الحديقة، وبذلك ينذر اليوم بأن يكون مملاً. تثاءبت مراراً من دون أن تخفي فمها براحتها. توجد بمفردها في البهو، واغتنمت هذه الفرصة للاستمتاع بالتحرّر من قواعد اللياقة المقدّسة. وفجأة ظهر زينيل جارياً باتّجاه جناح السلطانة، وهو ما ترك سلمى مشدوهة. ذلك أنّ الخصي لم يتصرّف بهذا القدر من قلّة اللياقة قطّ. هذه الحركة غير المألوفة جعلت جسده السمين ووجنتيه الناعمتين كوجنتي رضيع عجوزٍ يهتزّان على نحو مضحك. وقفزت من مكانها يتنازعها القلقُ والرغبة في الضحك، وصاحت به:

ـ ماذا جرى يا آغا؟

لكنّه لم يسمعها، فانطلقت جارية تجري خلفه بدورها إلى أن لحقت به لاهثة عند عتبة مخدع الأميرة بينما كان يترنّح وينحني للتّحية انحناءته الثالثة.

ـ أيّتها السلطانة المبجّلة...

وراح يلهث ويحملق بعينين يائستين:

ـ أيّتها الأميرة المبجّلة...

فتح فمه، لكن الحبسة أصابته. وفجأة أجهش بالبكاء.

أومأت السلطانة بأن يُجلب له كرسيّ، ويبلّل وجهه بماء بارد معطّر بالنعناع، وانتظرت بهدوء أن يستعيد أنفاسه. وفي تلك الأثناء دخلت بعض القلفاوات المسنّات خلسة إلى المخدع وقد شعرن بأنّ ثمّة خبراً مهمّاً. أمّا سلمى فجلست على مقعد صغير من الساتان وهي متلهّفة لمعرفة ما يحمل زينيل.

استعاد الخصيّ هدوءه بعد بضع دقائق، فوقف وهمس وقد شبك يديه على بطنه، وخفض بصره، وكل فرائصه ما زالت ترتعد:

ـ جلالة السلطان... لاذ... بالفرار!

انتصبت خديجة واقفة، وهتفت به:

ـ كذّاب! كيف تجرؤ على قول هذا؟

ولم تكد تنهي جملتها حتى اختنقت. أمّا القلفاوات فتسمّرن في أماكنهنّ حتّى إنّهنّ لم يسارعن إلى مساعدتها. عندئذ كسر صوت جليّ الصمت المخيّم:

ـ أرجوك يا آغا، هاتِ ما عندك.

تجرأت سلمى على السؤال من بين كلّ هؤلاء النساء لأنّها كانت تتحرّق لأن تعرف.

ـ غادر جلالته الأستانة هذا الصباح بصحبة ابنه الأمير أرطغرل وتسعة أعضاء من حاشيته. ركبوا بارجة حربية بريطانية تدعى: «ملايا».

وخفض رأسه بحيث لطخت الدموع لباسه الأسود الأنيق.

فصاحت سلمى:

ـ يا للعار! كيف تجرّأ على أن يفعل بنا هذا؟

كان الطباخون على حقّ إذن حين اتّهموا السلطان بالخوف. لمّا نقلت كلامهم إلى أنيدجيم، غضبت، وردّت بأنّ الطباخين لا يمكن أن يفهموا إلا تصرّفات الطباخين، وليس سلوك السلطان. والآن يتّضح أنّهم هم من كانوا

على حقّ: فالسلطان تصرّف مثل الطباخين. وراحت تدور في غرفتها وتوجّه ركلات غاضبة إلى قطع الأثاث الناعمة وهي تقول: «كيف سينظر الناس إلينا؟ وماذا سيقولون عنّا؟ أنّنا جبناء؟ لن أبرح غرفتي أبداً!».

لمّا هدأ روعها بعد ربع ساعة، غادرت غرفتها وهي تمشي على رؤوس قدميها. كان القصر غارقاً في الصمت، ومع ذلك تهيّأ لها أنّها تسمع وشوشات في كلّ ركن، وشوشات تتوقّف كلّما اقتربت منها. والتقت بمجموعة من القلفاوات تظاهرن بعدم رؤيتها، فقالت في نفسها: «إنهنّ لا يجرؤن على النظر إليّ، يشعرن بالخزي منّي!».

وودّت لو تصرخ:

ـ انظرن إليّ، فأنا لم أتغيّر! لو كنت مكانه ما كنت هربت! ما زلت كما أنا، فلماذا تتورّدون منّي خجلاً؟

لكنّها لم تقو على الجهر بذلك، فتصلّبت وتصنّعت المشي برزانة، رافعة رأسها مثلما ينبغي لأميرة أن تفعل، وإن كانت تشعر في قرارة نفسها بأنّها كسيرة كما لو كانت أمَةً حديثة الالتحاق بالقصر. فلولا التشريف والاحترام اللذان كانت تجد من الطبيعي أن تحظى بهما، لأحسّت كما لو أنّها جُرّدت من ملابسها.

وفي اليوم الموالي لم يكن لجرائد الأستانة من حديث غير حادثة «الهروب» والتعليق عليها. وبينما كانت السلطانة مستلقية على أريكتها، تدلّك إحدى الإماء رقبتها، طلبت من زينيل أن يقرأ لها كلّ المقالات من البداية إلى النهاية. على أنّ الخصيّ مضى يقفز على الكلمات القاسية إلى أن نهرته السلطانة بفظاظة حين تفطّنت لذلك. فما كان منه إلا أن رضخ مُكرهاً.

فبعد أن أدان معظم الصحافيين «الفرار الشنيع» على متن «مركب إنجليزي، مما يثبت بشكل لا مجال للشكّ فيه تواطؤ الباديشاه مع أعداء تركيا، كتبوا أنّ السلطان حمل معه في حقائبه كميّة كبيرة من الجواهر التي تعود ملكيتها للدولة. ثمّ إنّ حاكم الأستانة ختم على أبواب قصر

يلذ بالشمع من أجل القيام بجرد دقيق للأشياء التي اختفت منه. بل إنّ بعض الصحافيين ادّعوا أنّ السلطان حمل مخلّفات النبي محمد، وهي مخلّفات بدونها تفقد تركيا الحقّ في تنصيب خليفة للمسلمين، وتفقد معه الجدارة التي كانت لها على العالم الإسلامي منذ قرون.

مضت سلمى تنظر إلى أمّها مشدوهة: لا يمكن أن يتصرّف السلطان بهذا النحو، أليس كذلك؟ ولكن من المستحيل أن تخطئ كلّ الصحف أو تكذب... وشعرت بأنّها متعبة، وأنّ سائر أعضاء جسدها تؤلمها كما لو أنّها تعرّضت لضرب مبرح. وهمّت بمغادرة مخدع السلطانة حتّى لا تسمع شيئاً من ذلك، لكنّها لم تجد في نفسها القدرة على الحركة، فأغلقت عينيها، وتمنّت لو أنّ هذا اليوم لم يوجد، وأن يكون كلّ هذا مجرّد كابوس سيتلاشى بمجرّد استيقاظها، فتجد كلّ شيء قد عاد إلى سابق عهده. على أنّ صوت زينيل الرتيب القاسي واصل استعراض مساوئ السلطان الهارب، فشدّت سلمى قبضتيها بقوّة، وزمّت شفتيها حتّى تستطيع تحمّل هذا المثقاب الذي ينغرز أكثر فأكثر في رأسها. وتساءلت: لماذا تصرّ أنيدجيم على سماع كلّ هذه الأشياء المريعة، لماذا؟ وفجأة خيّم الصمت. فلمّا فتحت عينيها أبصرت نسيم آغا، خصي وحيد الدين الأسود الأثير، يدخل. لماذا لم يرافق سيّده؟ فانتصبت السلطانة وقد التمع في عينيها بصيص من الأمل. وبادرته:

ـ حمداً لله الذي أتى بك إلينا يا آغا!

وحتّى تعبر عن عرفانها لهذا الخادم العجوز الوفيّ في عالم أوشك أن ينهار، طلبت منه أن يجلس، لكنّه أصرّ على أن يبقى واقفاً: ففي غمرة هذه الظروف القاسية، وبينما تواجه الأسرة الملكية الأحقاد والنمائم، يحرص على أن يُظهر احتراماً أكثر من المعتاد. ولم تلحّ خديجة سلطان معبّرة عن امتنانها من لباقته، ومن الدرس غير المقصود الذي لقّنها إيّاه: عليها أن تتصرّف مثلما كانت تفعل في الماضي رغم اضطرابها.

وراح الخصي يحكي وقد ترقرقت عيناه بالدموع:

ـ نادى عليّ سيّدي ليلة سفره، وأطلعني على سرّه الكبير وأمرني بتجهيز بعض الحقائب. تجاسرت على النظر إليه فبدت لي عيناه محمرّتين. وقال لي: «كن مقتصداً، وخذ قليلاً من المتاع.» لم آخذ غير سبع بدلات، كما طلب منّي، والبذلة الرسمية الفخمة التي لبسها يوم تتويجه. وطلب من عمر ياور باشا أن يحسب المال المتوفّر، وقال لي ضاحكاً، وبدا كما لو أنّه يبكي: «ستلحق بنا في غضون أيّام، ولكن كن مستعدّاً يا نسيم لتحمّل كثير من المعاناة، فالله يشهد أنّني لا أملك ما يكفي من المال لإعالة أسرتي. لكن عدني وعد شرف بألا تخبر بهذا أحداً، لأنّ الشعب يقيس شرفنا بمقدار ما نملك من مال».

فقالت سلمى في نفسها: «ما أغرب هذا الكلام! فأنيدجيم لا تفتأ تقول إنّ الشرف لا علاقة له بالغنى». تركها كلام السلطان حائرة: ماذا لو كان على حقّ؟ وتذكّرت نظرة الضابط الروسي الكسيرة وابنته الصغيرة اللذين طردهما خادم المطبخ بينما كانا يطلبان منه قليلاً من الخبز. وشعرت بقشعريرة تسري في جسدها: أهذا ما ينتظرهما؟

واسترسل الخصيّ:

ـ أتذكرين يا أفندم تلك المحبرة الذهبية وحامل السجائر المطعّم بالياقوت، اللذين اعتاد الباديشاه على استعمالهما؟ أمر ياور باشا ليلة سفره بأن يعيدهما إلى خزينة الدولة، وأن يأتيه بوصل. وهو ما أثار استغراب زكي بك والعقيد ريشارد ماكسويل اللذين كانا حاضرين. نصحا صاحب الجلالة بأن يأخذ بعض الأشياء الثمينة حتّى تساعده على العيش في الخارج. فرأيت سيّدنا يمتقع من الغضب، وردّ على العقيد بنبرة فاترة: «أشكرك على هذا الاهتمام، لكن ما أحمل معي يكفيني. فالممتلكات الموجودة في القصر هي ملك للدولة!»، ثمّ التفت إلى زكي بك، وصبّ عليه جامّ غضبه: «كيف تسمح لنفسك بالتحدّث إليّ هكذا؟ أتريد أن تلطّخ شرف الأسرة العثمانية؟ اعلم أنّ عائلتنا لم يوجد فيها لصّ

أبداً. اغرب عن وجهي!»، ويوم سفره لم يكن معه سوى ٣٥٠٠٠ جنيه إسترليني نقداً[١].

وبينما هم كذلك، إذا بصوت يقول:

ـ هذا صحيح، وأنا أؤكده.

والتفت جميع الحاضرين. لاح من الباب الجنرال الأمير عثمان فؤاد مرفوقاً برجل فارع الطول، يرتدي بزّة عسكرية، هو صاحب الصوت. تبادلت القلفاوات النظرات وقد تملّكهنّ الارتباك: هل عليهنّ الانسحاب؟ لكن الفضول كان أكبر من الأعراف، واكتفين بسحب خُمرهنّ على وجوههنّ.

وبحركة آلية بحثت السلطانة عن قطعة ثوب فوق الأريكة تخفي بها شعرها الكثيف عن عيني الرجل الغريب، فلمّا لم تجد، هزّت كتفيها بكيفية لا تكاد تُلحظ: على كلّ حال، ما فائدة ذلك! فما يجري من أحداث أخطر من العناية بالشكليات. ثمّ إنها تعرف ـ فيما يبدو ـ هذا الرجل، الذي وقف في أقصى الغرفة مطأطئ الرأس. وكانت سلمى هي من أنقذتها من حيرتها.

ـ هل تذكرينه يا أنيدجيم، إنّه جرذ السقيفة!

استغرقت المراهقة بعض الوقت قبل أن تتعرّف على الشخص القوي الذي يرافق خالها. فهو لا يشبه في شيء الهارب الذي آووه سابقاً. عرفته من خضرة عينيه الغامقة، وأهدابه السوداء الطويلة التي بدت لها حينئذ كأهداب فتاة.

وراح الأمير فؤاد يعتذر مرتبكاً:

ـ اعذرينا يا سلطانة على هذا الاقتحام. القصر خال، ولم نعثر على أحد يعلن لكِ مجيئنا. والعقيد كريم يعرف تفاصيل مذهلة عن سفر صاحب الجلالة حرصت على أن يُطلعك عليها بنفسه.

---

(١) مذكرات نسيم آغا.

فردّت السلطانة وهي تبتسم ممّا لاح على وجه الأمير من استغراب:

ـ أنت محقّ يا ابن أخي. فأنا والعقيد نتعارف منذ القديم.

لطالما راقها أن تصدم مخاطبها، وهي طريقتها في الردّ على الأعراف الاجتماعية الصارمة، تلك الأعراف التي كانت تعتبر الإذعان لها الالالها ضرورياً، لكن مع بعض التلطّف في انتهاكها. وهكذا دعت الرجلين إلى الجلوس وبعثت خادمة لإحضار الشراب مما جعل سلمى تقول في نفسها: حتّى ولو كانت أنيدجيم على مشارف الموت، لن تتردّد في تقديم الشراب لمن جاءوا لتوديعها.

وإذا كانت الأميرة الصغيرة تجد عرف الضيافة المقدّس هذا مزعجاً، لأنه يفرض على المرء، حتّى في الظروف المأساوية، أن يضعه فوق كلّ اعتبار، فإن أمّها قالت لها يوماً: «إنّ الطقوس والبطء مثل وسائد مخمليّة ضرورية لامتصاص الصدمات». ذلك أنّ ما تريده الصبية من الحياة ليس جانبها الناعم، بل وجهها الخشن، وأشواكها. هذا هو ما يحفزّها ويستثيرها.

ولاح الضيق على الضابط وهو يقول:

ـ رغم أنّني ضابط بالجيش الوطني ـ وتنحنح ـ ولا أنكر المعركة التي خضناها، أودّ أن أقول لك يا سلطانة إنّني، ومعي كثير من الناس، نستنكر إلغاء السلطنة. وقد كنّا نرتاب منذ مدّة طويلة في نوايا مصطفى كمال، ولكن كان علينا أن نختار بين البلد والأسرة الحاكمة. وهو اختيار صعب، لأنّني، بوصفي ضابطاً عثمانياً، أقسمت على الوفاء للسلطان. وهذا ما حدا ببعضهم إلى الاستقالة. أمّا أنا، فرغم العلاقة التي تربطني بأسرتكم، قرّرت البقاء، لأنّ تركيا بحاجة إلى كلّ جنودها.

كان واضحاً أنّ العقيد كريم هيّأ خطابه بعناية، لكنّ الضيق كان بادياً عليه وهو يتحدّث. وخيّم على مخدع السلطانة صمت ثقيل. حبست القلفاوات أنفاسهنّ، بينما راحت السلطانة تداعب خواتمها، ثمّ رفعت رأسها فجأة، وقالت:

ـ لا أحسبك جئت لتحدّثني عن مشاعرك أيها العقيد.

جفلت سلمى. لم يسبق لها قطّ أن رأت أمّها تتعامل بهذه الفظاظة مع ضباط الدولة العثمانية. لكن لعلّها لم تعد تعتبر العقيد تابعاً للجيش العثماني بل ممثّل للنظام الجديد. ألا يكون غضبها موجّهاً لصفته هذه لا لشخصه؟

تورّد العقيد، فتوقّعت سلمى أن يقوم ويغادر. لكنّه عوض ذلك، انحنى وقد ارتسمت على وجهه ابتسامة حزينة، وقال:

ـ الواقع يا سلطانة أنّني إنّما جئتك وفاء لذكرى طيبوبتك. يبدو أنّني أخطأت، وأنّ هناك أشياء لا يمكن الجمع بينها للأسف.

عضّت خديجة سلطان على شفتيها. أعماها الجرح، وجعلها تتصرّف على نحو جائر. لكن وقد وقع ما وقع، فهي لن تمضي إلى حدّ الاعتذار! واكتفت بأن قالت:

ـ إنّني أصغي إليك.

ورغم أنّها حاولت أن تُشبع هذه الجملة بشيء من اللطف، فإنّها بدت كأمر ملكي.

وتدخّل الأمير فؤاد بنبرة ديبلوماسية، وقال للعقيد:

ـ هيّا يا صديقي، نحن نتحرّق شوقاً لسماع ما لديك.

تغلّب العقيد على رغبته في الانصراف، وسوّى جلسته على المقعد.

ـ شاءت الصدفة أن يكون الملحق البحري للسلطان صديق طفولتي. زارني هذا الصباح في بيتي وهو في غاية الارتباك. وحسبما حكى لي، يمكن أن أؤكّد لكم بأنّ أنقرة هي من حملت السلطان على الفرار.

وتعالى التهامس بين الحاضرين: ألا يهزأ بنا هذا الرجل؟ لكن العقيد تجاهل ذلك واسترسل يقول:

ـ منذ أن رفض جلالته التنازل عن العرش والحكومة الكمالية تحاول بشتّى الوسائل أن ترهبه. أذاعوا إشاعة تزعم أنّ الحشود تسعى لقتله، بل

إنّهم أمروا حاكم الأستانة، رفعت بك، بتنظيم مظاهرات معادية في محيط القصر، لكنّه رفض. حاولوا أن يُفقدوا هذا العجوز رشده، هو من أنهكته أربع سنوات من الاحتلال والتهديدات والضغوط بمختلف صورها... ونجحوا في مسعاهم. تصوّروا أيّ غنيمة غنمها الكماليون بفرار السلطان! لم يعودوا بحاجة إلى تدبير محاكمته بتهمة الخيانة العظمى، قد تؤلب عليهم قطاعاً كبيراً من الرأي العام. فبفراره، لم يُدن السلطان نفسه في أعين الشعب فحسب، بل جلب الخزي أيضاً لكلّ أفراد العائلة، وهو ما يفضّ نهائياً مسألة السلطنة، من دون أن يضطر الكماليون إلى تلطيخ أيديهم[1].

فتدخّلت السلطانة، وقد تألّقت عيناها، قائلة:

ـ ما كان على الباديشاه أن يهرب مهما كانت الضغوط.

فأضاف الجنرال الأمير:

ـ لقد وصمنا جميعاً بالعار.

---

(١) يحكي اللورد كينروس، أحد أبرز كتاب سيرة كمال، في كتابه «أتاتورك» أنّ الملحق البحري ـ الذي وضع إلى جانب السلطان ليتجسس عليه ـ رأى في يوم ١٧ نوفمبر/ تشرين الثاني ١٩٢٢ في الساعة السادسة صباحاً السلطان يخرج من الحديقة عبر باب سرّي، ويركب سيارة إسعاف إنجليزية، فجرى مذعوراً وهو ينتعل الشبشب لمسافة كيلومتر ونصف الكيلومتر، قبل أن يعثر على عربة حملته بأقصى سرعة إلى قصر الباب العالي، على بعد أربع كيلومترات من هنالك. (ولم يستغرق هذا كلّه أكثر من نصف ساعة). وقد كانت دهشته عظيمة لمّا طلب منه الحاكم أن يعود إلى سريره، بينما سيتكفل هو بإرسال برقية إلى مصطفى كمال ثمّ يعود إلى النوم. ومعلوم من جهة أخرى، من خلال برقية بعثتها السفارة البريطانية إلى لندن، أنّ الباخرة الحربية «ملايا» التي ركبها السلطان لم تبحر إلا عند الساعة الثامنة وخمس وأربعين دقيقة.
ويتبيّن بوضوح من قراءة رواية اللورد كينروس أنّ الكماليين سهّلوا فرار السلطان باتفاق مع الإنجليز. فبين إخبار الحاكم وانطلاق ملايا مضت ساعتان وربع الساعة من دون أن يبحث أحد عن السلطان.

وكانت المفارقة هي أنّ أفراد أسرة الباديشاه هم من راحوا يدينونه بينما مضى الضابط الكمالي يدافع عنه.

واسترسل يقول:

ـ لعلّ السلطان قصد بفراره تجنيب البلد حرباً أهليّة. فقد حذّره رفعت بك قائلاً: «إن لم تتنازل عن العرش، سيُراق مزيد من الدم». لعلّه كان ينوي أيضاً، بوصفه أمير المؤمنين، تشكيل حلف من الدول الإسلامية يساعده على العودة في يوم من الأيّام. على كلّ حال، فقد غادر وهو مقتنع بأنّ لا أحد من أفراد الأسرة العثمانية سيوافق على شغل مكانه، ويرضى بلقب خليفة صوري.

فافترّ ثغر خديجة سلطان عن ابتسامة توحي بالارتياب، وقالت:

ـ حقّاً؟ ستتأكّد من ذلك قريباً. لكنّني أخشى أن يكون الباديشاه واهم. فأمراؤنا ليسوا كلّهم أبطالاً!

وفي اليوم الموالي، قبل ولي العهد عبد المجيد عرض الحكومة الكمالية بأن يصير خليفة بدل وحيد الدين. وفي الرابع والعشرين من نوفمبر/ تشرين الثاني من سنة ١٩٢٢ توّج بقصر طوب قابي أمام تركة الرسول المقدّسة، وبمحضر وفد قادم من أنقرة.

١٧

كانت النار قد خبت منذ مدّة طويلة في المجمرة الفضيّة، ولن يوقدها الخدم إلا ليلاً عند وقت النوم، وذلك لأنّ الفحم صار نادراً خلال شهر يناير/ كانون الثاني من سنة ١٩٢٣، أيّ بعد مرور سنة على الاستقلال. كانت ساكنة الأستانة كلّها، غنيّها وفقيرها، ترتعش من البرد.

ورغم اعتراض السلطانة على المحسوبيّة، تعهّد خيري بك بأن يتوسّط لدى بعض أصدقائه ممّن بقوا في الوزارات، لكن عبثاً. فإذا كان الناس سابقاً يتشرّفون بخدمة الأسرة الملكية، فلا أحد يخاطر اليوم بمحاباتهم والتودّد إليهم.

جلست سلمى بلا حراك وهي متدثّرة بقفطانها المبطّن بالفرو، على بساط غرفتها الحريري، ونشرت بعناية شراشفها الثلاثة: الوردي والأخضر والفيروزي، وراحت تتأمّلها طويلاً: الآن وقد قرّرت التصدّق بها، لم تعد ناقمة عليها، بل صارت تستملِحها... وتجدها جميلة!

وتسلّلت طفلة شقراء بخطى خفيفة إلى غرفة سلمى. إنّها سيكيربولي، صديقتها المفضّلة منذ أن غادرت جلّنار، التترية المتقلّبة، قصر أورتاكوي إلى قصر يلدز.

كان ذلك منذ أشهر، لكن سلمى تستشيط غضباً كلما فكّرت في الأمر. فقد تقرّر رحيل جلّنار في غضون ساعات، وهي لم تعلم بذلك إلا في اليوم الموالي... ولم تجد الصديقتان الوقت حتّى للوداع. ولمّا سألت المراهقة بحنق السلطانة والقلفاوات، أجبنها بنفس الجواب:

جلّنار حالفها الحظّ بأن أثارت انتباه القادين، فعبّرت عن رغبتها في ضمّها إلى القلفاوات التابعات لها، ووعدت بأن تجد لها زوجاً مناسباً. ومهما يكن، فجلّنار أوشكت على إتمام الرابعة عشرة من عمرها، أيّ استوت امرأة، فماذا بوسع الإنسان أن يتمنّى لها أفضل من هذا؟

فردّدت سلمى بنبرة ساخرة:

ـ أجل، ماذا عساها تتمنّى أفضل من هذا؟ حسناً... هذا ما يمكن أن نتمنّاه!

وبحركة مهيبة أشهرت المقصّ الذهبي.

فهمست سيكيربولي مرعوبة:

ـ ما لزوم هذا؟

على أن تردّد صديقتها سيكيربولي زادها إصراراً، فأحنت على الشراشف الثلاثة بتصميم، ومضت تمزّقها بضربات مقصّ من أسفلها إلى أعلاها وهي تقول: «خذ هذه لك، وهذه لك أنت، أما أنت فخذ هذه، هكذا لن تجرُؤوا على حبسي!».

تشجّعت سيكيربولي واقتربت من سلمى لكي تساعدها. وراحت المراهقان تقطعان ذلك الثوب الثمين إرباً صامتتين وواعيتين بأنهما ترتكبان بطريقة مُمنهجة ذنباً لا مندوحة عنه. ما أطول المدّة التي استغرقتها هذه العملية! لم تتوقّع أنّها يمكن أن تستغرق كلّ هذا الوقت...

وقالت سلمى:

ـ فلنسرع، قد يدخل أحد فيحول بيننا وبين إتمام هذا العمل. وهكذا تركتا المقصّ، وأخذتا تمزّقان الثوب بأيديهما بحركة محمومة. وفجأة استغرقتا في الضحك وهما تستمتعان بكون ما يقومان به لا سبيل إلى إصلاحه أو التراجع عنه.

ـ آه ما ألطف صوت هذا الثوب الحريري وهو يتمزّق! وكم هو مؤثّر صوت الحريّة اللاذع!

وتناثرت المِزق الملونة على الأرض عند أقدامِهما كما لو أنّها شرائط عيد...

قالت سلمى:

ـ ينبغي الآن أن نجمعها في حزمتين، إحداهما لخالدة أديب والثانية للطيفة هانم. أظن أنّ هذا سيروقهما!

لطالما شعرت سلمى بتقدير خاص لخالدة أديب، تلك المرأة النحيلة التي لمّت حولها الحشود الحزينة إثر استيلاء اليونانيين على إزمير، وألهبت مشاعرهم. وسلمى ما تزال تحتفظ من مظاهرة ميدان السلطان أحمد بذكرى ذلك الانبهار. كانت في التاسعة من عمرها، وتخيّلت حينئذ كما لو أنّها ولدت في ذلك اليوم.

على أنّ من لفتت انتباه المراهقتين هذه الأيّام هي لطيفة زوجة مصطفى كمال. تلك المرأة المفعمة بالنشاط. كانتا تتابعان بشغف كلّ مبادراتها التي تتابعها الصحف النسائية بتفصيل، صحف كانت تجلبها خلسة إلى القصر الآنسة روز.

كانت لطيفة هانم مصمّمة على «تحرير أخواتها»، وعلى أن تكون قدوة لهنّ. إنّها أوّل امرأة تحضر اجتماعات مجلس الأمّة الكبير، وتثير حفيظة الجميع حين يستقبلها نوّاب الأمّة في مكتب زوجها المحاذي لقاعة الاجتماع. أيأخذون عليها اهتمامها بالسياسة؟ ردّت هازئة بأنّ النساء صار من حقهنّ، بل من واجبهنّ المشاركة في تقرير مصير بلدهنّ.

وتغمغم خديجة سلطان التي ضاقت بحذلقة زوجة الغازي[1]:

ـ ولكن النساء كنّ يساهمن دائماً في تقرير مصير بلدهنّ! كلّ ما في الأمر هو أنهنّ لم يكنّ يشعرن بالحاجة إلى الجهر بذلك من أعلى الصوامع! لقرون ونساء القصر المختفيات خلف المشربيات، يتابعن

(١) لقب مصطفى كمال (المترجم)

المشاورات الدائرة في الديوان، ويساهمن في توجيه سياسة الإمبراطورية من خلال النصائح التي تسدينها للسلطان... فكلّ امرأة ذكيّة في الشرق تعرف كيف تؤثّر في قرارات زوجه. لكنّ حكمتها تثنيها عن التباهي بذلك. ولطيفة هانم هذه تتصرّف مثل الغربيّات اللواتي لا يشعرن بوجودهنّ إلا حين يظهرن في كلّ مكان، ويجهرن بأصواتهنّ. هذا سلوك لا يأتيه إلا الأطفال والشعوب البدائية.

وتهزّ سلمى رأسها وقد تملّكتها الحيرة. كيف لا تفهم أمّها هذا الأمر؟ ما قيمة أن تكون لطيفة هانم مزهوّة بنفسها؟ المهمّ هو أن تطيح الأعراف البالية، وتكسّر القضبان، وأن تُدخل شيئاً من الهواء إلى عالم الحريم المغلق! ألا تشعرين يا أنيدجيم بالاختناق مثلي؟ أم أنّك اعتدت على الاستكانة؟ الاستكانة... كلا، فهذه الكلمة لا تليق بالرفعة الملكيّة. ألا تكون أنيدجيم قد صارت بمرور الوقت فيلسوفة...؟ أمّا أنا فما أزال شابّة، وأريد أن أحيا!

التقطت المراهقة نفساً عميقاً، وشعرت بنفسها قويّة ومنذورة لمستقبل عظيم، حتى إنّ رعدة سرت في بدنها، أشبه برعدة تعتري حصاناً أصيلاً عند الفجر أمام مروج تمتدّ أمامه على مدى البصر...

وسألت سيكيربولي:

ـ ماذا سنكتب يا ترى؟

وأعاد صوتها سلمى إلى الواقع. أجل، ماذا ستكتبان لبطلتيهما؟ فسنّهما لا يتعدّى الثانية عشرة، وهما تنتظرانهما منذ زمن بعيد، وعلى أتمّ الاستعداد لمساعدتهما. لم تعودا تطيقان البقاء حبيستين بين أسوار الحرملك بينما الحياة تغلي من حولهما. هما تتوقان للخروج والمشاركة في الكفاح، وإلا... وإلا فستموتان!

فردّدت سيكيربولي:

ـ نموت؟

فحدجتها سلمى بنظرة قاسية وهتفت:

ـ بالتأكيد!

ما عرفته خلال الأشهر الأخيرة من أحاديث التاجرات اللواتي ظللن يتردّدن على القصر، وما كانت تقرؤه خلسة في الجرائد التي تجلبها الآنسة روز، كلّ ذلك جعلها تستشيط غضباً. فبلدها يتحوّل، والأستانة تعيش ثورة، وهي مجبرة على البقاء جالسة تطرز!

لمّا عبّرت قبل أيّام عن رغبتها في الالتحاق بإحدى مدارس البنات الجديدة التي أنشأتها جمعية خالدة أديب، رشقتها السلطانة بنظرة حادّة. وتجاسرت على الإلحاح في الطلب، متعلّلة بأنّ مستوى الدراسة فيها جيّد فيما يظهر، لكن أنيدجيم لم تكلّف نفسها حتّى النظر إليها. عدا أنّ سلمى لا تيأس، وتعرف دائماً كيف تصل إلى مرادها. فقريباً ستزور خالدة أديب ولطيفة هانم أمّها لتتحدّثان إليها بهذا الشأن، وبانتظار ذلك عليها أن تستعدّ.

قرأت هي وسيكيربولي مرّات ومرّات سيرة هؤلاء النسوة الجريئات اللواتي برزن في الكفاح من أجل الاستقلال. فهما تعرفان كلّ تفاصيل حياة مونيفير صايمة المشهورة باسم «الجندية صايمة»، التي وُشّحت نظير شجاعتها منقطعة النظير، وكذلك مغامرات مقبولة التي التحقت بالثوار في الجبال مباشرة بعد عقد قرانها، ثمّ الأعمال العظيمة التي قامت بها رحميّة التي لقيت حتفها وهي تقود كتيبة من الفرقة التاسعة خلال هجوم مظفّر على قيادة القوات الفرنسية.

لقد أصبحت تبدو لهما صورة المرأة التي تعيش في الحريم ضعيفة ولا مسؤولة. صورة قديمة، بدأت تتراجع أمام صورة هؤلاء البطلات، الشهيرات منهنّ والمغمورات، اللواتي من دونهنّ ما كان لتركيا، كما يؤكّد مصطفى كمال، أن تنتصر في الحرب.

قالت لطيفة هانم: «انتهت الحرب، لكن الكفاح مستمرّ». ومن ثمّة

كان كلّ يوم يأتي بنصيبه من التجديد، تتابعه سلمى بحماس كبير. فمعركتهما هذه أهمّ من المعركة ضدّ الغزاة اليونانيين.

وقد أصدر قائد الشرطة أمراً بإزالة الستائر والمصاريع الخشبية التي تفصل بين الرجال والنساء في الترام والقطارات والعبّارات. وصار بإمكان الزوجة أن تجلس بجانب زوجها من دون أن تخشى غرامة. والأمر نفسه في المطاعم والمسارح. ومع ذلك، فعدد قليل من العائلات تجاسرت على الاستفادة من هذه الإباحة خوفاً من شتم المحافظين وتحرّشهم، وادّعائهم بأنّ كلّ هذا مخالف لأحكام الإسلام.

لكن الفضيحة الكبرى كانت لمّا صدر مرسوم يعلن عن أنّ الدروس في جامعة الأستانة ستصير مختلطة، يحضرها الذكور والإناث. ذلك أنّ قاعات الدرس كانت حتئذ مفصولة بستائر سميكة، تصون عفاف الفتيات القليلات اللواتي كنّ يتابعن دراستهنّ العليا. ووجدت العائلات المسلمة نفسها تواجه مشكلة عويصة: إمّا حرمان بناتها من الدراسة أو الحكم عليهنّ بالعنوسة. لأنّ حتّى الشباب الأشدّ تحرّراً، أولئك الذين يدافعون باندفاع واقتناع عن حرية المرأة، يتمسّكون بالتقاليد حين يتعلّق الأمر بشيء جدّي مثل الزواج، ويوكلون اختيار الزوجة لأمّهاتهم، فيخترن لهم فتيات تقليديات لا يمكن أن يتبجّح رجل بأنّه رأى وجوههنّ.

بدا ضوء الشمس شاحباً في الأفق. كانت الساعة تشير إلى الخامسة. نهضت سيكيربولي لتعود إلى بيت أمّها. فلمّا خلت سلمى إلى نفسها، راحت تتأمّل المِزق الملوّنة المجموعة بعناية في حزمتين. وبدأت الغرفة تتعتّم، فلابسَ القرارات الرائقة التي اتخذتها بعد ظهر ذلك اليوم الشكّ والارتياب...

ـ ماذا جرى يا دجيجيم؟ تبدين مغمومة؟

ـ بابا!

قامت بقفزة واحدة متناسية كلّ قواعد البروتوكول، وارتمت في

حضن أبيها. لم تره منذ أسبوع. ذلك أنّ زيارات الداماد إلى الحرملك صارت نادرة. لمّا كانت ترغب في التحدّث إليه سابقاً، حين كانت صغيرة، تجتهد في العثور على كلّ الذرائع لتتسلّل إلى جناح خيري بك. لكن منذ ذلك اليوم الحاسم الذي أكملت فيه اثنتي عشرة سنة، لم يعد يُسمَح لها بأن تتجاوز عتبة الباب الضخمة الفاصلة بين عالم النساء وبقيّة العالم.

ورغم أنّها ثارت وطلبت لقاء أبيها، واجهها الخصيان والقلفاوات بالرفض، وقالوا معترضين: «هذا لا يصحّ يا أميرة، فأنت لم تعودي طفلة!».

لم تعد طفلة؟ ما معنى هذا؟ هل يقصدون أنّها أصبحت أكبر من أن تحتاج لحبّ أبيها؟ صحيح أنّه لا يحفل بوجودها، لكن مجرّد جلوسها بجانبه وهو منغمس في القراءة أو الحديث مع أصدقائه، كان يبدو لها حظوة لا تقدّر بثمن... كانت تجلس بصمت وتتأمّله. ما أجمله! تحبّ فيه كلّ شيء، بما في ذلك سخريته اللاذعة التي تغيظها. لكنّها ترى فيها علامة على حكمة راقية. وحتى لامبالاته، يتهيّأ لها أنّها تشهد على عظمته. هي بحاجة إلى حضوره: فمجرّد النظر إليه يشعرها بالسعادة.

شعرت بدفق من الثقة، فتناولت يده وقالت:

ـ أرجوك يا بابا، ألا يمكن أن تطلب من أنيدجيم...

تصلّبت يده، وعيناه اللتان كانتا ضاحكتين قبل قليل غشاهما التجهّم، وقال بنبرة فاترة:

ـ اعلمي يا آنسة أنّني لست مرسولك!

شعرت كما لو أنّ كتلة من الحجر جثمت على صدرها. شدّت كتفيها وطأطأت رأسها وقد انقطعت أنفاسها. لماذا كلّ هذه الصلابة؟ ماذا تُراها قالت؟ وفهمت فجأة: يا لها من بليدة! فهي تعرف جيّداً أنّ والديها متقاطعان منذ بضعة أسابيع، وأنّهما لا يتواصلان إلا عبر زينيل! بل إنّها

غضبت من قلفاوتين علّقتا على هذا الوضع بصوت مرتفع... والآن هي من تتصرّف على نحو أخرق... كم كان رائق المزاج في البداية! جاء خصّيصاً لرؤيتها، لكنّها أفسدت كلّ شيء...

واستأنف الصوت بلطف:

ـ أمّا إذا كان لديك ما تقولينه لأبيك، فهو مستعدّ للإصغاء إليك.

لزمت الصمت. إن فتحت فمها، ستجهش بالبكاء، ولا شيء أبغض إليها من البكاء. ومع ذلك عليها أن تتكلّم، وإلا ظنّها غاضبة منه أو منحازة إلى أنيدجيم... وهو أمر غير صحيح. فهي لم تنحز لأيّ منهما، لأنّها تحبّهما معاً، ولكن بطريقتين متباينتين، حتّى ليتهيّأ لها أنّها تنفصم إلى شخصين في هذا الحبّ... وكثيراً ما فكّرت في هذه الظاهرة: لمّا تبسم لها أمّها، تشعر بنفسها قادرة على اكتساح العالم، وحين يبسم لها أبوها، تذوب من السعادة ببطء مثل عجينة فواكه تحت اللسان. وهي لا تعرف سبب ذلك، كلّ ما تعرفه هو أنّها لا تريد أن تختار بين هاتين الابتسامتين.

وجاهدت لترفع رأسها. حدّقت في الوجه المستطيل الشاحب، ذي الشفتين الدقيقتين، والتغضنات الكثيرة التي تشكّل ما يشبه النجمتين عند زاوية الجفنين. راحت تتفرّسه كما لو أنّها تريد أن تتشبّع به، وتحتفظ به لنفسها.

أخرج سيغاراً، وغمزها غمزة متواطئة:

ـ هيّا يا دجيجيم، حدّثيني عمّا يعذّبك.

ـ أريد أن أذهب إلى المدرسة يا بابا!

ـ هذا واضح، وبطبيعة الحال أجابوك بأنّ هذا المكان لا ترتاده الأميرات؟

فقالت سلمى بإصرار من دون أن تُلمّح إلى السلطانة:

ـ ولكن يا بابا كلّ الناس يذهبون إلى المدرسة. بل إنّ صوريا

واغوغلو التحقت بكليّة الحقوق. كلّ الجرائد نشرت صورتها، وكمال باشا هنّأها! قال «إنّ مستقبل تركيا يتوقّف على تحرّر نسائها، وبلدٌ نصف سكانه حبيس البيت، هو بلد مشلول نصفه!».

مضى خيري بك يداعب شنبه بحركة مألوفة.

ـ همم... هذا أمر من الأمور النادرة التي لم يخطئ فيها هذا اللص!

لم تعترض سلمى على الشتيمة التي رُمي بها بطلها، ولكن لا بأس. فالمهمّ هو أن يوافق والدها.

ـ هل يمكنني أن أذهب؟

ـ إلى أين؟

ـ إلى المدرسة يا بابا!

هزّ خيري بك كتفيه وقال:

ـ منذ متى كان الآباء هم من يقررون في تعليم بناتهم... لا سيما لمّا تكون الأم سلطانة؟ لا تُلحّي، فأنا لا أستطيع شيئاً في هذا الأمر.

فردّت سلمى وقد امتقع لونها من الأسى:

ـ كلا، إذا رغبت، فأنت تستطيع! ما عدت أطيق هذا الوضع يا بابا! كلّ شيء يتغيّر في البلد، وكلّ شيء يتحرّك! وما من أحد ظلّ يغط في النوم سوانا، كما لو أنّ شيئاً لم يحدث. أريد الخروج من هذا القصر، أريد الخروج!

ورانت على وجه الداماد مسحة حزن، وقال وهو يتنهّد:

ـ اهدئي يا سلمى... لربّما خرجت قبل الوقت الذي تتوقّعينه بكثير... وأخشى من أن تندمي على ذلك.

لكن لا لطيفة هانم ولا خالدة أديب أجابتا على الرسالتين التي بعثت بهما الطفلتان خلسة في سلّة إحدى التاجرات المتواطئة معهما. وفقدت سلمى وسيكيربولي كلّ أمل. أمّا الشراشف، فلم تكلّف السلطانة نفسها

حتّى السؤال عن مصيرهما، وطلبت من الخياطات إعداد شراشف جديدة، سوداء اللون.

واستمرّت الحياة في قصر أورتاكوي كما كانت في السابق، لكن المعيشة صارت أكثر تواضعاً، لأنّ الحاكم ألغى جرايات الأمراء، ولم تعُد تُصرف لهم سوى منحة تافهة حدّد قيمتها مجلس الأمّة الكبير. لم يعانوا من ذلك، لأنّ الأقارب والأصدقاء الذين فقدوا جراياتهم صاروا يواجهون نفس الصعوبات. بل إنّهم كانوا يجدون في ذلك مادّة للنكتة. وكما تقول خديجة سلطان ساخرة: «من الأفضل أن يكون المرء من الفقراء الجدد على أن يكون من الأغنياء حديثي النعمة!».

اضطرّت إلى الاستغناء عن بعض الخادمات، لكن بقي أبناء البيت والعبيد الذين كانوا مثل أفراد العائلة. ولعلّ الشيء الوحيد الذي حزّ في نفسها حقّاً هو أنّها اضطرّت إلى إلغاء «حساء الفقراء»، لا لدواع مادّية ـ إذ كان بوسعها أن تكتفي في وجباتها بطبق واحد بدلاً من أن تشعر بأنّ الناس حولها يموتون جوعاً ـ بل لأنّ الحكومة لا تنظر بعين الرضا لهذه الأعمال الخيرية، وتفرض على أفراد الأسرة المالكة ألا يثيروا الانتباه إليهم. وبذلك أمرت بأن تقدّم المساعدات خلسة لكلّ من يطرقون بابها، وهم كثر.

في سنة ١٩٢٣ هذه، ساءت الأوضاع كثيراً في الأستانة، بل وفي تركيا بأكملها. فقد أرهقت عشر سنوات من الحرب والاحتلال الناس، وأضناهم ما يعيشونه من بؤس. فكيلوغرام من الخبز الذي كان يُباع بقرش واحد، صار ثمنه تسعة قروش، وانتقل ثمن اللحم من ستّة إلى ثمانين قرشاً للأوقية. وبسبب هذا الغلاء، لم تعد تتناوله إلا قلّة قليلة من المحظوظين. وأخذ الناس يموتون من الجوع والبرد بالمئات.

وممّا فاقم هذه الأوضاع الفوضى التي استشرت في أنقرة، مقرّ الحكومة الجديدة. فكلّ السلطات التي كانت موجودة في الأستانة سابقاً، انتقلت الآن إلى تلك القرية الكبيرة الواقعة في وسط الأناضول، التي

ينوي مصطفى كمال أن يجعل منها عاصمته. ومقصوده من ذلك إدارة ظهره للماضي، وبناء بلد عصري على غرار الأمم الأوروبية الكبرى، مقتدياً بفرنسا، الجمهورية اللائكية التي ظلّت تؤثر في الإنتجلنسيا التركية منذ ما يقارب القرن.

ولكن نقطة الضعف في النموذج الفرنسي هو أنّه «جمهوري لائكي...»! فإذا كان القائد العام للجيش ورئيس مجلس الأمّة الكبير، المبجّل بانتصاراته، قويّاً في تلك الأثناء، فكثير من رفاقه في الكفاح أصبح يساورهم القلق من ميولاته «الاستبدادية». لم ينسوا كيف فرض عليهم إلغاء السلطنة بينما كان الرأي العام ينتظر ملكيّة دستوريّة وحكومة برئاسة مصطفى كمال.

والواقع أنّ جميع أعضاء مجلس الأمّة الكبير، بمن فيهم الرفاق القدامى، صاروا يتوجّسون من الغازي. فقد التفّوا حوله خلال الحرب، بعد أن لمسوا عبقريته العسكرية، لكنّهم الآن، وقد تحتم إنشاء حكومة شرعيّة، لا يعبأون كثيراً بأن يضعوا على رأسها رجلاً جرّبوا، بل عانوا، من عنفه وحرصه.

وفي ربيع هذه السنة، أرهبهم اغتيال علي شكرو بك، النائب عن منطقة طرابزون، وأحد أبرز قادة المعارضة البرلمانية، إذ كان كثيراً ما ينتقد كمال، ويدعو إلى إعادة بعض الصلاحيات الدنيوية للخليفة عبد المجيد. سيُعثر عليه ذات صباح مخنوقاً، وسيتبيّن بسرعة أنّ القاتل هو «عثمان الأعرج»، رئيس حرس الغازي الشخصي. على أنّ رجال الدرك سارعوا إلى قتله قبل أن يحاكم ويكشف عن حيثيات هذه الجريمة.

وقد أثار هذا الحادث ضجّة كبيرة، بحيث اتُّهم مصطفى كمال صراحة بتصفيّة خصم منافس. وقد اعتبر النواب المرعوبين هذا الحادث بمثابة رسالة تحذير.

ولمّا لمس كمال أنّ المعارضة بدأت تتقوّى حتّى داخل فريقه

البرلماني، بدأ يعمل من أجل إنشاء قاعدة شعبيّة صلبة. وبما أنّ اللجان التي أنشئت سنة ١٩١٩ في مختلف مناطق البلاد للكفاح الوطني تابعة له، باعتباره قائد الجيش، فقد عمد إلى تحويل هذه المنظمة شبه العسكرية إلى حزب سياسي هو «حزب الشعب»، الذي سيكون له فرع في كلّ قرية. ولبلوغ هذا الهدف، قام بجولة في كلّ تركيا، وراح يقول لممثّلي اللجان: «حذار، فالبلد مليء بالخونة! والحكم ينبغي أن يؤول إليكم أنتم أعضاء حزب الشعب!».

وفي أثناء ذلك جازف بعض الصحافيين بالأستانة، ممّن ينتقدون «الديكتاتورية الجديدة» بالتنبؤ بعودة السلطنة قريباً. وحينما رجع مصطفى كمال إلى أنقرة، حذّرهم من الاستمرار في انتقاده، لأنّ ذلك يعرّضهم للشنق. وهكذا منع الجهر بالنقد، بل حاول إلغاء الحصانة البرلمانية بعد أن ضاق ذرعاً بالنواب الذين نعتهم بالرجعيين والأغبياء. على أنّه أخفق في هذه النقطة. فهؤلاء الأغبياء لن يدَعوه يقطع الغصن الذي يقفون عليه...

ولمّا شعر رئيس الوزراء رؤوف باشا، وهو أحد أقدم أصدقائه، بأنّ الأمر يتجاوزه، قدّم استقالته. وابتعد عنه رفاقه الكبار في الكفاح الوطني أمثال رحمي وعدنان ورفعت بك وعلي فؤاد وكاراباكير. فرأى كمال أغلبيته تذوب أمام عينيه، ولاحظ أنّ الناس لم يعودوا يطيقون وحشيته وأسلوبه الاستبدادي. ولحسن حظّه أنّ الجيش يدعمه، وحزب الشعب بدأ ينشر فروعه في كلّ البلاد، لا سيما بعد توقيع معاهدة السلام.

وفي يوم ٢٤ يوليو/ تموز ١٩٢٣، وبعد ثمانية أشهر من المفاوضات، انتهى اللقاء الذي جمع بين ممثّل تركيا عصمت باشا[1] والوزراء المفوّضين الغربيين، بنجاح باهر: فقدت تركيا إمبراطوريتها، لكنّها صارت أمة مستقلّة، والشعب يعرف أنّه مدين بهذا الاستقلال لمصطفى كمال في المقام الأوّل.

---

(١) لمّا طلبت الحكومة من أفراد الشعب أن يتخذوا أسماء عائلية، تسمّى بعصمت إينونو.

ستظلّ ذكرى جلاء قوّات الاحتلال راسخة في حافظة سلمى. فقد رافقت أمّها من قصر طولمة باغجه الذي أقيم أمامه الحفل العسكري. تزاحمت هي وبنات العائلة والخالات والعمّات خلف النوافذ العاليّة المشرفة على الميدان المحاذي للبوسفور. كانت أشعّة الشمس تلاعب النافورات المرمرية، والجماهير محتشدة على الضفتين.

وفي العاشرة والنصف، قامت فرقة من المشاة الأتراك، تسبقها جوقة موسيقية تابعة للبحرية، بأخذ مكانها في الميدان، رافعة عالياً علماً أحمر يتوسّطه هلال أبيض ونجمة. وما هي إلا دقائق حتىّ تقدّم أفراد الكتيبة ٦٦ من الجيش الفرنسي، مُشهرة بفخر علمها الممزّق في المعارك، ثمّ تقدمت الفرقتان الإيطالية والإنجليزية، واصطفّوا قبالة الأتراك. وفي الجانب الآخر وقف أعضاء السلك الديبلوماسي، بزيّهم الرسمي.

وفي الحادية عشرة والنصف ظهر المفوّضون السامون: الجنرال بولي والجنرال هارينغتون والماركيز دو غاروني، شاحبين في بزّاتهم العسكرية المزينة بالذهب. وتقدّم لاستقبالهم حاكم الأستانة بخطى ثابتة لم تنجح في إخفاء توتّره.

عندئذٍ تعالت أنغام الموسيقى. عُزف النشيد الوطني الإنجليزي، فالفرنسي والإيطالي. ثمّ صدح النشيد الوطني التركي أخيراً بينما أخذ العلم الأحمر الضخم يرتفع مرفرفاً. وتقدّمت الفرق العسكرية ببطء لتحيّته، ثمّ غادروا الميدان الأبيض على نحو مهيب ليعتلوا مراكبهم.

ومضت كلّ فرقة تعزف نشيدها الوطني، وبدأت السفن الحربية تبتعد الواحدة تلو الأخرى عن الأراضي التركية التي جاءتها غازية قبل خمس سنوات. أمّا الحشود فراحت تتابعها بصمت إلى أن كادت تختفي في الأفق، وصارت تبدو كنقط صغيرة رمادية على مياه البوسفور الزرقاء...

وفي فتحة إحدى نوافذ قصر طولمة باغجة، تناولت مراهقة يد أمّها، وتبادلتا الابتسامة وقد بلّلت وجهيهما الدموع.

وبينما كانت سلمى في سريرها بعد ذلك بأيام، سمعت طلقات مدفعيّة أيقظتها مذعورة. هذا ما كانت تخشاه: تظاهروا بالمغادرة، وها هم يعودون مستعرضين قوّتهم! قفزت إلى النافذة حافية، وحدّقت في الأفق: لم تر سفناً حربية بل مراكب وسفن صيد صغيرة تجوب البوسفور في ضوء الصباح الشفاف. ومع ذلك تواصلت الطلقات على نحو منتظم وعنيف. وشعرت بصدرها يضيق من الحنق. فلتسارع إلى ارتداء قفطانها! وما هي إلا لحظة حتّى كانت في غرفة السلطانة.

ـ كلا يا دجيجيم، ليس الإنجليز ولا الفرنسيون ولا الإيطاليون من يطلقون هذه الطلقات! والحمد لله أنهم ليسوا كذلك اليونانيين! إنّها الجمهورية!

فهتفت سلمى باستغراب وقد ساورها الندم توّا على أنها لم تكن تتابع دروس الآنسة روز بما يلزم من انتباه:

ـ الجمهورية؟ على غرار فرنسا؟

وارتسم الارتياب على وجه السلطانة وهي تقول:

ـ بالنسبة لكثير من مواطنينا الأتراك، الجمهورية هي الحريّة والمساواة والأخوّة... لكنّني أخشى للأسف ألا يكون شيء من ذلك. بلغني قبل قليل أنّ رؤوف بك غاضب، لأنّ القرار اتّخذ في بضع ساعات. بل إنّهم لم يكلّفوا أنفسهم حتّى إخباره بالأمر، وكذلك الشأن بالنسبة لما يناهز مائة نائب من المعارضة. وهم يصرخون في كلّ مكان بأنّه انقلاب آخر من كمال الذي أجبر النواب على انتخابه رئيساً!

هذا ما كتبته أيضاً جرائد الأستانة. لم تكن العناوين لطيفة مع مدبّر ما سُمّي بالانقلاب: «فقد أقيمت الجمهورية بتصويب مسدّس على صدغ الأمة!» ـ «دستور صاغه كمال ومجموعة من اللئام في بضعة أيّام، أهذه هي الدولة التركية الجديدة؟» ـ «الغازي يستفرد بسلطات لم يحظ بها سلطانٌ قط!»، بل إنّ من الصحف من شبّه مصطفى كمال بالثالوث

المقدّس لدى المسيحيين، فهو الأب والابن والروح المقدّس. جمع فعلاً كلّ السلطات: فهو رئيس الجمهورية ورئيس الحكومة والبرلمان، ورئيس القوّات المسلّحة وزعيم الحزب الواحد في تركيا. وهو ما شكّل صدمة لأولئك الذين كانوا يحلمون بملكيّة دستورية، مثلما صدم من كانوا يتوقون لنظام ديمقراطي على الطراز الغربي. وأدركوا أنّ ما من شيء وما من أحد يستطيع معارضة قرارات الغازي، انطلاقاً من تلك اللحظة.

أما في الشوارع، فعمّ الحماس، وخرجت الجماهير للاحتفال بالخبر على أنغام الموسيقى، وانطلقوا في مسيرات حاملين المشاعل. لم يكونوا يعرفون معنى «الجمهورية»، لكنّهم ينتظرون منها كلّ شيء! بل حتّى المعتقلين في السجن المركزي تظاهروا وهتفوا: «عاشت الجمهورية! تحيا العدالة!»، وطالبوا بإطلاق سراحهم فوراً.

لم يكن مهمّاً بالنسبة لسلمى أن تكون تركيا جمهورية أو مملكة بما أنّ الزعيم هو مصطفى كمال. لكنّ بعض قراراته بدأت تضايقها، بما في ذلك نزوة إعلان أنقرة عاصمة بدلاً من موئل الأرستقراطية، الأستانة! صحيح أنّ الحديث عن ذلك بدأ منذ مدّة طويلة، لكن لا أحد كان يصدّق: كيف لتلك القرية النائية، الواقعة على هضبة الأناضول المقفرة، أن تعوّض المدينة الرائعة، فخر الإمبراطورية؟ هذه المدينة التي أُنشئت بناء على نبوءة أبولون ثلاثة عشر قرناً قبل الهجرة، مدينة واقعة بين قارتين، بوتقة كلّ الثقافات والحضارات، ملتقى الشرق والغرب الوحيد في العالم. لكن بالنسبة لرجل مثل مصطفى كمال، كانت الأسئلة ترفاً، لذلك كان يفضّل عليها الأجوبة. وهكذا فقدت الأستانة في الثالث عشر من أكتوبر/ تشرين الأول من سنة ١٩٢٣ الوضع الذي حظيت به طيلة قرون باعتبارها واحداً من أهمّ المراكز في العالم.

في هذه الفترة بالذات قبل أبو أحمد أن يترك عمله بوصفه سكرتيراً للداماد، وهي وظيفة لم يعد الناس ينظرون إليها نظرة احترام في زمن هيمنت فيه النزعة الكمالية الظافرة، وقبل عملاً جديداً في أنقرة. ولم تعد

سلمى ترى أحمد منذ شهور، أيّ منذ اليوم الذي أكملت فيه الثانية عشرة من عمرها. لكنهما كانا يتبادلان رسائل طويلة، انتهى الأمر بزينيل أن قبل نقلها لأنه لم يكن يستطيع أن يرفض للسلطانة الصغيرة طلباً. ومع ذلك لمّا جاءته طالبة أن يهيّئ لها لقاء مع المراهق، قطّب حاجبيه وقال:

ـ أنت تعلمين أنّك تاج على رأسي، لكنّني لا أستطيع أن ألبّي لك هذا الطلب!

ـ أنت الوحيد من يستطيع مساعدتي يا آغا! سيرحل، ولا بدّ من أن أراه لآخر مرّة!

ولم يجد الخصي أمام إغراقها في البكاء بدّاً من القبول. فبمقدار ما يعزّها، هو يحتاج إلى حبّها! إذ تكفي ابتسامة واحدة منها لتغمره بالسعادة... ما أشبه بسمتها ببسمة السلطانة.

وجرى الوداع بين المراهقين في جناح العندليب، إذ وقف زينيل يحرس الباب، ومنحهما ربع ساعة.

كان أحمد في أبهى حلله، وراح ينظر إلى حذائه شاحباً.

فقالت في نفسها: «*أيّ فكرة هذه التي خطرت لي بأن أطلب لقاءه! لا يبدو مسروراً بهذا اللقاء... آه لو كنت أعلم!... ومع ذلك فهو يكتب لي رسائل رائعة... فلماذا لا يقول شيئاً؟... ها هو يتورّد الآن... مسكين، يبدو مرتبكاً! أنا جائرة في حقّه... إنّه تعيس... ولكّنني أنا أيضاً تعيسة! تعيسة جدّاً! على كلّ حال، هو من يتركني!... يا إلهي لم أكن أعرف أنّ ربع ساعة طويلة هكذا. كلّمني يا أحمد، كلّمني، وإلا انفجرت...*»

ـ أحمد!

رفع الفتى رأسه، وبدت عيناه مغرورقتين.

ـ أرجوك يا أحمد، لا تبك. لن أسمح لك بالبكاء! فأنا من ينبغي أن تبكي!

ـ أنتِ، لماذا أنتِ يا أميرة؟

ـ لأنك تتركني!

«ما كان عليّ أن أقول هذا. هو يصمت لأنه حزين... لا يحاول حتّى أن يبرّر رحيله... كيف له أن يبرّره؟ سيُدين أباه إن فعل... هكذا هم الكبار، لا يتوقّفون عن الحديث عن مبادئهم، لكنّهم سرعان ما ينسونها إذا كان ذلك في صالحهم! ولحسن حظّي أنّ أنيدجيم ليست كذلك... وكذلك بابا... بالطبع».

ـ لا تحزن يا أحمد، ستكتسب أصدقاء كثر في أنقرة... وستنساني...

ـ أنا أنساك يا أميرتي...؟

نظر إليها نظرة فيها من العتاب ما جعله يخجل، يخجل من هذا الألم الذي سبّبته له، والذي لا تستطيع أن تشاركه فيه، مع أنّها لمّا علمت برحيله، شعرت كما لو أنّ حجراً ثقيلاً يجثم على قلبها، وفكّرت: أهذا هو الحبّ؟ بل إنّها حلمت بأنّه ربّما اقترح عليها الهرب معه... وقالت في نفسها قد تقبل منه ذلك.

وبدلاً من أن يفوه بما تنتظره منه، ظلّ جالساً يبكي... لم يعمد حتّى إلى تناول يدها... وشعرت بغصّة في حلقها، لا لأنّ أحمد راحل، بل لأنّها أدركت فجأة... أنّها لا تحبّه.

وبحركة من يدها نزعت شريط المخمل الأخضر الذي يشدّ شعرها، ومدّته له، فتهلّل وجهه، وبدت عليه فرحة عارمة آذتها، وتهيّأ لها كما لو أنّها تكذب... لكن هل تستطيع أن تقول له إنّ هذا الشريط لا يعدو أن يكون مجرّد شريط...؟ ثم ماذا تعرف هي عن هذا الأمر؟

بعد ذلك بأيّام ستفقد سلمى صديقتها العزيزة غولفيليس أيضاً. إنّها آخر صديقة عزيزة بعد رحيل أحمد. أتتها ذات صباح باكية، ضامّة رضيعها إلى صدرها، وأخبرتها بأنّ زوجها، وهو موظّف في المالية، مضطرّ إلى الالتحاق بأنقرة، وأنّها ترفض مرافقته. وقد جاءت متضرّعة لأمّها التي ربّتها لعلّها تقبل إيواءها هي ورضيعها. وقضت السلطانة

ساعات في إقناع المرأة الشابة بمرافقة زوجها، وسلمى جالسة بجانبها تنتظر من أمّها أن تلين، إلى أن اصطبغ الشفق بلون أحمر ذهبي، وحان موعد عودة غولفيليس إلى بيتها.

ولتبديد كلّ هذا الحزن، اقترحت سلمى تنظيم حفل على شرف الشركسية الحسناء، عبارة عن جولة على عربة يجرّها الثيران في الجزء الأعلى من نهر أيوب، رفقة كلّ صديقاتها بالحرملك، ونزهة في الريف المشرف على القرن الذهبي.

حلّت آخر أيّام الخريف. تتراقص أشعة النور من خلال أوراق الشجر النحاسية المحيطة بالطرقات الحجرية الضيقة، والثيران التي صُبِغت نواصيها بالحناء، وعُلّقت في قرونها قلائد خرز زرقاء درءاً للعين، تجرّ عربات ذات ألوان زاهية، زيّنتها أكاليل زهور عطرة، بحيث يتهيّأ لمن يراها أنّها عربات كبار فلاحي الريف سابقاً.

أمّا في الداخل، فجلست النساء خلف ستائر الحرير، مستلقيات على وسائد سميكة، يثرثرن ويضحكن مثلما دأبن على أن يفعلن في الأيّام الخوالي. ووحدها سيّدة الحفل جلست صامتة، شاردة وسط هذا الجو البهيج، وإلى جانبها جلست سلمى ملتصقة بها، ممسكة بيدها. ذلك أنّ نظرة تلك الفتاة تعصر قلبها. وتشبّهت لها عيناها بعيني أحمد، عينان تقولان: «لن نلتقي بعد الآن»، على الرغم من أن الشفتين تهمسان «سنلتقي قريباً»...

مرّ يوم الحفل هذا الذي توقّعت الصبيّة أن يكون يوماً بهيجاً كأيّام زيارة المقبرة. وندمت على إلحاحها عليه، وتمنّت لو أنّها احتفظت عن غولفيليس بصورة الخفة واللامبالاة، لكن تجري الرياح بما لا تشتهي السفن. وعلى الرغم من الأحاديث المازحة والوعود بعودة غولفيليس إلى الأستانة بعد عام لقضاء بضعة أيّام، وزيارة سلمى لأنقرة لمّا تكبر قليلاً، فقد كانتا واثقتين معاً من أنّ كلاً منهما ستفقد الأخرى. وكانت دموعهما كما لو أنها تقول بيقين مؤذٍ إنهما لن تلتقيا أبداً.

كان الخليفة الجديد عبد المجيد يعيش حياة هادئة في قصر طولمة باغجه. وكان هذا الرجل الخمسيني، ليّن الجانب، يوزّع وقته بين التصوير والموسيقى ومطالعة كتب الفقه. لم يكن يسعى للعب دور سياسي، بل نذر نفسه بورع للقيام بمهمّة أمير المؤمنين، مسؤول عن ثلاثمائة وخمسين مليون مسلم، أحسن قيام.

ولم يكن يخرج إلا مرّة في الأسبوع لأداء صلاة السلاملك. وحرص على أن يعيد لهذا الاحتفال ما كان عليه من أبّهة سابقاً. وهكذا كان يتوجّه كلّ جمعة في موكب غفير إلى مسجد أيا صوفيا، أو إلى أحد المساجد الكبيرة الأخرى في المدينة، تحرسه مفرزة من الخيّالة. ويحدث أحياناً أن يترجّل من عربته ويمتطي صهوة حصان أبيض، فيزدحم الناس على طريقه، يهتفون باسمه، فيبدو مزهوّاً بلحيته الطويلة البيضاء وعينيه البنفسجيتين.

وقد يعبر البوسفور أحياناً على متن المركب الملكي الأبيض المذهّب، ليتوجّه للصلاة في مسجد أسكودار الكبير. بل إنّه ارتدى مرتين أو ثلاثاً معطف جدّه السلطان محمد الفاتح وعمامته، ذلك السلطان الذي فتح بيزنطة سنة ١٤٥٣ وهو ما يزال في الثامنة عشرة من عمره.

وقد كانت هذه التظاهرات وكذا شعبية الخليفة الواضحة، تزعج سيّد تركيا الجديد، مثلما كان يزعجه استقباله السفراء والشخصيات المرموقة من الأجانب في قصره، وكذلك بعض الساسة الأتراك، بمن فيهم رؤوف باشا ورفعت بك، بطلا حرب التحرير، اللذان ظلا يخاطبانه بـ«صاحب الجلالة». بل إنّ رفعت أهداه حصاناً رائعاً، وهو ما تحدّثت عنه الصحافة في الأستانة بتفصيل كبير، مثلما كانت تتحدّث عن كلّ صغيرة وكبيرة تتعلّق بالخليفة.

ومن دون أن يشعر، كان عبد المجيد يجذب إليه كالمغناطيس، الحانقين في البلد، وهم كثر: أبناء الأسر الكبيرة، الجنرالات المتقاعدون، الموظفون المعزولون، رجال القصر السابقون، ولا سيما رجال الدين!

والواقع أنّ مصطفى كمال منذ انتصاره لم يعد يولي التديّن أهمية خاصة. بل إنه أثار مؤخّراً موجة سخط عارمة بين المسلمين حين طرد شيخ الإسلام، ورماه بنسخة من القرآن. ويحكى أنّ النساء في أنقرة كنّ يُرغمن على الخروج سافرات، وهو أمر سيعمّم قريباً على سائر البلد. وآخر فضيحة هي أنّ الغازي أمر بنصب تمثال له... وهو ما لم يتجرّأ عليه سلطانٌ قبله، لأنّ تصوير بني آدم محرّم شرعاً في الإسلام، ويعدّ ضرباً من الوثنيّة.

وشيئاً فشيئاً بدأت المعارضة تلتئم باسم الإسلام. وبدأ الخواجات والشيوخ يخطبون في المساجد والساحات ضدّ «حكومة الوثنيين». وأخذت المنشورات والكاريكاتيرات توزّع في هذه الأماكن التي ساندت كمال في كفاحه من أجل الاستقلال سابقاً. وقد أُخِذ عليه، فضلاً عن استبداده، فساد أخلاقه. ذلك أنّه طلق لطيفة هانم بعد أن ضاق ذرعاً بغيرتها، وعاد إلى عاداته قبل الزواج. صار يقضي لياليه في معاقرة الخمر والقمار ومعاشرة العاهرات.

ثمّ إنّ انتحار فكريّة في هذا الخريف من سنة ١٩٢٣ لم يعمل إلا على إضعاف صورته. ذلك أنّ قريبته الشابّة هذه، التي هامت بحبّه، عادت إلى أنقرة بمجرّد ما علمت بطلاقه. وكانت مستعدّة لقبول كلّ شيء من أجله. لكن كمال لم يتردّد في طردها من البيت ليُعثَر على جثتها في اليوم الموالي مرمية في حفرة بعد أن أطلقت على نفسها رصاصة من مسدّس.

لم يكن الفوضويون ورجال الدين وحدهم من صاروا يتطلّعون إلى الخليفة، بل أيضاً العديد من الديمقراطيين الذين ضاقوا ذرعاً بتجاوزات كمال. مهما يكن، فعبد المجيد يمكن أن يكون ملكاً دستورياً ممتازاً: فهو رجل حكيم ومستقيم، وليس له من قوّة الشخصية ما يحمله على الدخول في صراعات مع وزرائه المحتملين.

وشعر مصطفى كمال بالخطر. فهو لم يجرؤ حتئذ على مواجهة

الشعب وإلغاء الخلافة التي كان يعتبرها في قرارة نفسه «ورماً قرسطوياً»، لكنه كان يعلم بأنّ المجال لن يخلو له إلا إذا قضى عليها.

وعبد المجيد هو من قدّم له الذريعة للإقدام على هذه الخطوة حين طالب بزيادة مخصّصاته، لأنّ ما كان يتلقاه من مال، كما قال، لا يكفي للوفاء بوظائف الخلافة على الوجه المطلوب. فردّ كمال بحدّة «ينبغي للخليفة أن يعيش حياة متقشّفة. ثمّ إنّ الخلافة عفا عنها الزمن، وما من شيء عاد يبرّر وجودها».

وبذلك احتدّت المواجهة بين الجانبين. وانطلقت الصحافة الرسمية من عقالها بإيعاز من الغازي. وراحت تردّد: «وما فائدة الخلافة؟ إنّها وظيفة تكلّف الدولة غالياً. كما أنّها يمكن أن تُتّخذ قاعدة لإعادة السلطنة!»، وهو ما كانت الصحف المعتدلة تردّ عليه بـ«الخلافة كنز ثمين بالنسبة لبلدنا. فإذا ما تخلّينا عنها، ستفقد تركيا، بسكانها العشرة ملايين، أهميّتها في العالم الإسلامي. أمّا بالنسبة لأوروبا، فستصير دولة صغيرة لا قيمة لها».

وفي يوم الخامس من ديسمبر/ كانون الأول، انفجرت القنبلة، وكانت عبارة عن رسالة كتبها آغا خان، ونشرتها ثلاث جرائد بالأستانة. وفيها يحتجّ زعيم الطائفة الإسماعيلية على الإساءة لأمير المؤمنين، وطالب بأن «يُبوّأ مكانة تضمن له احترام كلّ الشعوب الإسلامية وثقتها».

لم تكن للرسالة أهمية، لكنّها بعثت من لندن، وهي فرصة وجدها مصطفى كمال مواتية! اتّهم آغا خان بالتآمر، واعتبره عميلاً للقوات الأجنبية التي تسعى لتقسيم الشعب التركي. واعتُقل مديرو الصحف الذين تجاسروا على نشر الرسالة، وجرت محاكمتهم. واستصدر قانوناً يعاقب على «الخيانة»، يقضي بأنّ كلّ من يتظاهر ضدّ الجمهورية أو لصالح النظام القديم سيحكم عليهم بالإعدام. وتوعّد القائم بالشؤون الدينية، الذي جازف بالدفاع عن الخليفة، بالشنق إن هو عاد إلى ذلك ثانية. وجرى اعتقال كثير من الضباط والموظفين ورجال الدين حتّى ليخيّل للمرء أنّ الوضع ينذر بانقلاب وشيك.

أمّا عبد المجيد، فلزم الصمت في قصره، منتظراً مرور العاصفة. لكنّ الغازي كان مصمّماً على الإجهاز عليه. فأمر حاكم الأستانة بمنع احتفال السلاملك. فإذا ما أراد الخليفة الصلاة في المسجد، فما عليه إلا أن يستأجر عربة. وحُلّت فرقة الفرسان المكلّفة بحراسته، وصودر المركب الملكي. كما قُلّصت مخصّصاته بحيث لم تعد تسمح له بأداء أجر سكرتير ولا مستشار. ونُصِح أصدقاؤه الأوفياء الذين اختاروا البقاء رغم كلّ شيء، بترك القصر في أقرب وقت، «حفاظاً على سلامتهم».

مرّ شهران، وذهب مصطفى كمال للإشراف على المناورات السنوية الكبرى في إزمير. وعاد الأمل إلى نفوس المقرّبين من الخليفة، لكنّ ذلك لم يكن إلا إنذاراً. ذلك أنّ الغازي إنّما ذهب ليستشير قادته العسكريين. وانتهى به المطاف بأن أقنعهم بعد أيّام عدة من المشاورات بضرورة القضاء على نفوذ العائلة العثمانية الديني.

وبما أنّه كسب دعم الجيش، بإمكانه أن يضرب إذن. ومجلس الأمة؟ هو موقن بأنّه يمسك بزمامه. سينتفض كثير من النواب كالعادة، لكنّهم لن يجرؤوا على العصيان. ثمّ إنّه اتّخذ ما يلزم من احتياطات. استدعى أكبر معارضيه، رؤوف باشا، أمام لجنة حزب الشعب المركزية، وأجبره على القسم على ولائه للجمهورية ولرئيسها تحت طائلة الطرد من البرلمان، والإبعاد من تركيا... وبما أنّه كان يعرف، هو ورفعت باشا، بأنّهما عاجزين عن مواجهة ما يُحاك، قرّرا مغادرة أنقرة.

وفي يوم السابع والعشرين من فبراير/ شباط من سنة ١٩٢٤، شنّ الكماليون هجومهم الأخير، إذ تعالت أصواتهم بشجب مؤامرات أنصار النظام القديم، وطالبوا بإلغاء الخلافة. وبعد أسبوع من الاحتجاجات والمشادّات، انتهى الأمر بمجلس الأمّة في أنقرة يوم الثالث من مارس/ آذار إلى الخضوع: صوّت برفع اليد على طرد، ليس الخليفة عبد المجيد فحسب، بل جميع أمراء وأميرات العائلة العثمانية.

ـ علينا جميعاً أن نرحل في غضون ثلاثة أيام!

بلغ السخط بالجنرال عثمان فؤاد مبلغه حتّى إنّه لم يعد قادراً على الاحتمال. جاء هذا الصباح إلى جناح خديجة سلطان عند الساعة التاسعة. فقد بلغه أنّ الخليفة وزوجتيه وأبناءه أُجبروا على ركوب قطار سريع ـ الشرق باتجاه سويسرا.

ـ حكى لي الحاجب أنّ الخليفة بينما كان مستغرقاً في القراءة بمكتبته في جوف الليل، زاره الحاكم وقائد الشرطة بعد أن أمرا بتطويق القصر مخافة أن يهرب! حافظ الخليفة على وقاره، وكلّ ما طلب هو أن يمهلوه بضعة أيّام لكي يرتّب أغراضه، لكنّ الرجلين واجها طلبه بالرفض! خشيا قيام ردّ فعل شعبي. وكانا قد منعا الجرائد من نشر الخبر قبل أربع وعشرين ساعة. كان يلزم أن يغادر الأمير في أقرب وقت. بالكاد تركا له الوقت لجمع أغراضه...

وفي الخامسة صباحاً جُمع كلّ من يعملون في القصر في البهو الكبير وهم يبكون. بدا الخليفة متأثراً، وصافح بعضهم، وقال: «لم أسئ لأمّتي قطّ، ولن أسيئ لها أبداً. بالعكس، سأدعو الله ما حييت من أجل رفعتها».

إثر ذلك دفعه قائد الشرطة إلى عربة. ولم يقودوه إلى محطة سيركيدجي الرئيسة، بل إلى محطة صغيرة، تبعد بخمسة وعشرين كيلومتراً عن المدينة، وذلك تجنّباً للمظاهرات.

كانت سلمى تنصت مذهولة. لم تفهم شيئاً ممّا حدث. طيلة سنوات، كان المرء يخاف من جنود الاحتلال، وينتظر أيّ شيء من الإنجليز واليونانين! أمّا الآن وقد كُسبت الحرب، فالأتراك هم من يصرفون الخليفة، ويريدون طردنا... لقد صاروا مجانين! لا بدّ أنّه سوء تفاهم! ستهدّئ أنيدجيم من روع الخال فؤاد، وستشرح له الوضع، وستسوّي كلّ شيء... ونظرت إلى أمّها نظرة مستفهمة، لكنّ السلطانة أخفت وجهها بين راحتيها، ولم تكد سلمى تسمعها تقول: المنفى؟... مستحيل...

أمّا الجنرال، فراح يدور في البهو المزيّن بأزهار النرجس كأسد متأهّب للانقضاض.

ـ لقد جُرِّدنا من جنسيّتنا، وطردنا من بلدنا إلى الأبد. صودرت أملاكنا، ولن يسمح لنا إلا بأخذ أغراضنا الشخصيّة. آه، نسيت شيئاً! ستتكرّم علينا حكومتنا الشهمة بمبلغ ألف جنيه ذهبي سيغطي نفقاتنا لبضعة أشهر! هذا هو الوضع يا عمّتي العزيزة! نُطرد من بلدنا كالمجرمين! لا سيّما من رووا منّا تراب تركيا بدمائهم!

ووضع يده على صدره المكسوّ بالأوسمة التي نالها في ساحات المعارك بينما راحت شفتاه ترتعشان. وتهيّأ لسلمى أنّه على وشك أن يبكي. وأصابها الدوار. لم تعد تفهم شيئاً... الرحيل؟ لماذا؟ وإلى أين؟ وكم سيطول؟... قال الخال فؤاد «إلى الأبد»...

وهتفت من دون أن تشعر:

ـ ما معنى «إلى الأبد»؟

وحدجتها أمّها بنظرة... ما أشدّ شحوبها...

ـ أنيدجيم!

وارتمت سلمى عند قدمي السلطانة.

ـ هذا غير صحيح، قولي لي غير صحيح!... بماذا يؤاخذوننا علينا؟... أرجوك يا أنيدجيم ويا خال فؤاد، أجيباني! ماذا جرى؟

ـ ما جرى هو أنّ مصطفى كمال...

وانتصبت سلمى وقد سكنت قليلاً.

ـ الباشا؟ لم نخسر شيئاً بعد! ينبغي أن نلتقي به ونشرح له بأنّهم خدعوه، وأنّنا لم نقم بشيء ضدّه أبداً! تذكّري يا أنيدجيم، ألم تقولي إنّه وطني كبير؟... كنت تحملينا على الدعاء له بالنصر خلال الحرب كلّ مساء... والضابط الذي أخفيناه... ينبغي أن نسافر إلى أنقرة، ونحكي كلّ

شيء للباشا. أنا متيقّنة من أنّه سيتفهّم! لماذا تشيح عنها أمّها بوجهها؟ ولماذا يهزّ الخال فؤاد كتفيه؟ لا أحد يصغي لكلامها.

وقال الجنرال الأمير قبل أن ينحني ويغادر البهو مسرعاً:

ـ تذكّري يا سلطانة أنهم لم يمهلونا سوى ثلاثة أيّام.

وعمّ الضباب... لن تذكر سلمى إلا ضباب الأنين والجزع والدموع والخزي والتفاني والوفاء غير المنتظر والخيانة...

ظلّت تائهة لثلاثة أيام، يصدّها الخصيان والقلفاوات من غرفة إلى غرفة وهم منهمكون في نزع الستائر المعلّقة، وطيّها ووضعها في الحقائب، يختصمون فيما بينهم. حاولت لثلاثة أيّام أن تهرب من هذا الضجيج وهذا الاضطراب، ومن عويل القلفاوات، لا سيما الآنسة روز التي كانت تتبعها باكية لمواساتها. وفي هذا الهرج والمرج، لم تعد تعرف قصرها الهادئ، وشعرت كما لو أنّها لم تعد في بيتها: فقد طردتها هذه الضوضاء وهذا الصراخ منه قبل الأوان.

وانتهى بها الأمر أن انفردت في غرفتها، ومضت تنظر إلى كلّ شيء من تلك الأشياء المألوفة المحبوبة لديها لعلّ صورتها تنطبع في ذاكرتها حتّى لا تنساها. لكنّها لم تعد تستطيع رؤيتها. صارت صورتها مضبّبة كما لو أنّ الحياة غادرتها... وهكذا لمّا أحضرت خادمتان الحقيبة الكبيرة، وطلبتا منها أن تختار ما ترغب في حمله، رمت بداخلها كتاب شعر وبضعة دفاتر. أمّا الباقي، فأوكلت لهما أمر اختياره. وبما أنّ خيري اشتكى من صغر حقيبته بحيث لا تسع ملابسه ولعبه، تركت له نصف حقيبتها.

ومع ذلك طفت بعض الصور كجزر صغيرة ملوّنة على ذلك الضباب المحيط بها: الخياطات عاكفات على فساتين أمّها يخفين في حواشيها بعض المجوهرات ويخطنها، ويقلن إنّه قد سمح للسلطانة بأخذها، لكن يُخشى أن يتشدّد معها رجال الجمارك! بل يتهيّأ لها أنّها رأت زمرّدة تختفي في أحد الجيوب... ثمّ زينيل، زينيل الطيّب الواقف فوق أحد

الصناديق، يصرخ في الجميع وهو يحرّك يده كرئيس فرقة موسيقية... ووسط هذه الجلبة تمرّ السلطانة من جديد باسمة، تهدّئ وتواسي.

ـ لا تجزعوا يا أبنائي، لن يتعدّى غيابنا بضعة أشهر، وسيدعونا الشعب للعودة... الشعب صامت في الوقت الراهن، والحكومة فعلت ما يلزم لكبت صوته، إذ نصّبت في كلّ المدن الكبرى محاكم استثنائية أوكِل لها إصدار أحكام بالإعدام، ووسّعت «قانون الخيانة» لينطبق على كلّ من يخوض في موضوع طرد الخليفة والأمراء.

وخلال ثلاثة أيّام توالت زيارات الصديقات لقصر أورتاكوي، على الأقلّ أولئك اللواتي تجاسرن على تحدّي المراقبة. وخلال ثلاثة أيّام ظلّوا يتساءلون: إلى أين سنذهب؟ لم يسبق لأميرة عثمانية أن غادرت بلدها من قبل، وقليلات من بين «القديمات» من واتتهنّ فرصة الخروج من قصورهنّ.

دار الحديث في البداية عن فرنسا، وبالضبط عن مدينة نيس التي تشبه الأستانة في لطف جوّها، وحيث السماء، فيما يبدو، دائمة الزرقة، ويسمّى البوسفور فيها «البحر الأبيض المتوسط». لكنّ السلطانة اختارت في النهاية بيروت، «لأنّها قريبة، وتمكن العودة منها بسرعة!».

وتساءلت سلمى عن رأي أبيها في ذلك. فهي لم تره منذ أن علمت بخبر الترحيل. لعلّ المسكين منهمك في فرز كتبه، وترتيب أوراقه... وشعرت برغبة جامحة في التحدّث إليه. لم تعد تطيق هؤلاء النسوة اللواتي لا يتوقّفن عن تقبيل يدها بعيون دامعة.

وبما أنّه لم يعد بباب الحرملك حرس، جرت على طول البهو إلى أن بلغت جناح البك. كان المكتب فارغاً، وأبوها غير موجود في الصالون، وفي الغرفة رأت الأدراج مفتوحة... وفارغة.

وانطلقت كالسهم عائدة إلى جناح أمّها، شاقّة طريقها بين القلفاوات، وما إن رأتها حتّى بادرتها:

ـ أين بابا يا أنيدجيم؟ أين بابا؟

مسحت السلطانة على شعرها بلطف غير معهود.

ـ تشجّعي يا سلمى. الدامادات تركوا لهم الاختيار... أبوك لن يرافقنا.

رنّت هذه الكلمات في الفراغ... فراغ انحفر ببرود داخل صدرها وبطنها إلى أن بلغ أطراف أصابعها... «لن... يرافقنا...».

لم تفهم... شعرت بجسدها ينشدُّ إلى الأرض بينما راح رأسها يطفو بخفّة... لم تفهم شيئاً. ذهب من دون أن يودّعها؟

الساعة تشير إلى الثامنة صباحاً، والضوء شفاف صباح هذه الجمعة، السابع من مارس/ آذار ١٩٢٤.

جلست سلمى ملتصقة بمقعد القطار الذي يقلّهم بعيداً عن الأستانة. تنظر إلى بلدها الذي يتركها... غابات صنوبر باسقة تتوالى أمام أنظارها، وأنهار متلألئة ونساء بمناديلهن البيضاء وسط حقول اللفت.

وأمام عينيها كان الرذاذ يتساقط.

الجزء الثاني

لبنان

١

تستطيع أن تصفعني ما شاءت، فلن أخفض عينيّ. بإمكانها أن تنتقم بشكاية، ولن تحتاج بذلك إلى الضرب، أو إلى أن تصفح. لن أتيح لها هذه الفرصة. سيكون ذلك بمثابة اعتراف بأنّها على حقّ...

كانت التلميذات في ساحة المدرسة يحثثن الخطو صامتات حول تلك المرأة المتدثّرة بالسواد والمراهقة ذات الشعر الأحمر. وما بدأ لعباً ولهواً سينتهي بالنحيب، وستُرى هذه الوقحة باكية أخيراً! ذلك أنّ الأم أشيله تضرب بعنف. ستكسّر يد هذه الفتاة السقيمة. فلماذا لا تصرخ البلهاء؟ ألا تعرف أنّ عليها أن تصرخ قبل أن تشعر بالألم؟ فالراهبات ذوات قلوب حنونة، ولا يتحمّلن الصراخ. شعرت الراهبة بالتعب، فتوقّفت. ورفعت سلمى رأسها وقد ارتسم على وجهها الازدراء، وراحت تنظر إليها نظرة الضحية لجلادها.

ـ ستنسُخين هذا الدرس مائة مرّة!

ـ كلا.

وبدا الذهول على التلميذات: يا لجرأة هذه التركيّة الصغيرة!

شحُب لون الأمّ أشيله.

ـ يا لك من شيطانة! سنرى ماذا ستقول الأمّ المديرة!

استدارت بحركة مهيبة، وتوجّهت إلى مكتب رئيستها. اقتربت مراهقة

سمراء من سلمى بخجل. إنّها أمل، سليلة أسرة من الدروز، أولئك الإقطاعيين الذي سيطروا على جبل لبنان لقرون. وبادرتها بنبرة قلقة:

ـ سيطردونك. ماذا سيكون ردّ فعل أمّك؟

ـ ستهنّئني!

ـ ؟؟؟

ـ لن ترضى أمّي أن تُشتم عائلتها. فأستاذة التاريخ المزعومة هذه ما هي إلا كذّابة!

أن تنعت تلميذةٌ راهبةً بالكذب، هذا ما لم تسمعه التلميذات قطّ. وانصرفت مجموعة منهنّ لكي ينقلن على وجه السرعة للأخريات هذه الشتيمة المنكرة. ولم يكن بوسع أحد أن يتصوّر ما سيترتّب عن ذلك، ولكن الأكيد هو أنّ الأمر سيكون مسلّياً.

كانت الأمّ مارك في مكتبها المكسو بخشب قاتم مستغرقة في التفكير وهي تنظر إلى الصليب، داعية أن يلهمها المسيح الصواب. إنّها حالة تمرّد مخصوصة، وهي مضطرّة لردعها. ولكن هل تستطيع أن تُجبر هذه الفتاة على قول السوء في ذويها؟ وقد سبق أن واجهت مشكلة مشابهة السنة الماضية. كان من بين تلميذات المدرسة تلميذتان مسلمتان، جاء أبواهما إثر درس حول الحروب الصليبية، وأخذاهما من دون أن ينطقا بكلمة واحدة.

المؤسّسات التي تديرها راهبات مثل الأم مارك في بيروت، أيّ مدارس أخوات بوزانسان، تستقبل الأطفال من مختلف الأديان. وهي إن لم تكن تهدف إلى تنصير الأطفال، فإنّها لا تفقد الأمل في أن يكون كلام اليسوع مثل بذور ترمى في الريح، ينتهي بها المطاف بأن تنبت في يوم من الأيّام.

سُمعت على الباب ثلاث نقرات خفيفة، ودخلت فتاة ذات شعر

كثيف ينسدل على ياقة دانتيلا بيضاء تزيّن سترة زرقاء فاتحة. خفضت عينيها وإن كان العناد بادياً عليها، وانحنت باحترام كبير.

ـ يمكنك أن ترفعي رأسك يا آنسة.

وراحت الأمّ مارك تنقر على مكتبها بأصابعها العاجية الطويلة.

ـ لعلّك لاحظت أنني في حيرة يا بنتي. ماذا عساك تفعلين لو كنت مكاني؟

لم تتوقّع نظرتها المثقلة بالعتاب، ولا جوابها اللاذع الذي لا يعدم التهذيب.

ـ ليس لي شرف أن أكون مكانك أيّتها الأمّ الرئيسة.

ـ «الأمّ»!

ـ عفواً؟

ـ أمّي المبجّلة.

والتمست لها الأمّ مارك العذر بعدم تمكّنها من اللغة الفرنسية، واسترسلت تقول بنبرة هادئة:

ـ طلبت الأمّ أشيله طردك. وأكّدت أنّ تصرفك سيؤثر على سلوك الصفّ بكامله.

لاذت سلمى بالصمت، ومضت تفكّر في أمّها. مسكينة أنيدجيم! فبعد أن رفض خيري الذهاب إلى المدرسة لأنّ الأطفال ينادونه «الحمير» عوض «الأمير»، ها هي ستتسبّب لها مشكلة أخرى... كلّ هذا جعلها تشفق من أمّها، فضعفت، وقالت بصوت مخنوق:

ـ أمّي المبجّلة، ماذا ستصنعين لو أجبروك على ترديد أنّ جدّك كان معتوهاً... وعمّ أمّك وحشاً سفّاحاً... وعمّاً آخر معتوهاً وآخرَ جباناً؟[1]

---

(١) هم آخر سلاطين الدولة العثمانية، وهم بالترتيب: مراد الخامس وعبد الحميد الثاني ورشاد ثمّ وحيد الدين.

نظرت الأمّ مارك من جديد إلى الصليب الذي عُلّق عليه المسيح، ثمّ التفتت إلى المراهقة، ونظرت إليها بعينين متألّقتين، وقالت:

ـ صُلب سيّدنا المسيح لأنّ معاصريه اعتبروه أفاكاً. فأنت ترين أنّ أحكام البشر تعكس قصورهم: ليس هناك تاريخ، كلّ ما هناك وجهات نظر. والوحيد الذي يعرف الحقيقة هو ذاك الذي ليست له وجهة نظر لأنه غير موجود في مكان محدّد، بل هو موجود في كلّ مكان. هو الله.

وشعرت الأمّ مارك التي تنحدر من عائلة اشتهرت ببلائها في الحروب الصليبية، وتضحية أبنائها بأنفسهم في سبيل الحقيقة، بالارتباك كما لو أنّها خذلتهم. وتاقت فجأة إلى إنهاء هذه الحكاية بسرعة، ولكنّ صوتها تهدّج قليلاً بينما كانت تنطق بحكمها:

ـ لن تحضري درس التاريخ بعد اليوم. ستدرسينه بمفردك... أظنّ أنّه من غير اللازم إخبار السلطانة بهذه الواقعة.

ـ شكراً لك أمّي المبجلة!

واندفعت سلمى فقبّلت يد الراهبة، ثمّ رفعتها إلى جبينها مثلما جرت به العادة في البلاط العثماني.

فهمست الراهبة باندهاش:

ـ اذهبي بسلام يا بنتي!

فأجابت سلمى على نحو عفوي، تبعاً للعادة الإسلامية:

ـ وعليك السلام يا أمّي!

وتهيّأ للأم مارك كما لو أنّ ابتسامة ارتسمت على وجه المسيح المصلوب.

بيروت بالمقارنة مع العاصمة العثمانية مدينة ريفية ساحرة، يقطنها حوالي مائة ألف نسمة، تزيّنها بيوت بيضاء ذات سقوف قرميد أحمر، وتحيط بها حدائق وارفة الظلال.

في الغرب بحي رأس بيروت، حيث استقرّت السلطانة، يلوح البحر بزرقته الشديدة، زرقة صدمت سلمى في أوّل الأمر. ثمّ أدركت الفتاة شيئاً فشيئاً أنّ بيروت بكاملها، على غرار البحر المتوسط، ضاحكة ومفعمة بالحياة، بخلاف الأستانة وبُسفورها اللذين تبعث شفافيّتُهما المتقلّبة، المشبعة بالأحلام والحنين، على البكاء من شدّة الرقة.

ثمّ إنّ السيدة اللبنانية التي أجّرتهم البيت قالت إنّها «مولعة بتركيا والأتراك!»، شأنها في ذلك شأن كلّ سكان الحيّ.

راحت تشيد بالمنزل الصغير المزيّن بأشجار التين والنباتات من دون أن تشير إلى المزاريب التي يتسرب منها الماء، فيلطّخ الجدران ببقع كبيرة من العفن، ولا حتّى إلى مصاريع النوافذ التي ينفذ منها الريح.

ومضت تشرح:

ـ في هذا الحي تعيش الأسر السنيّة التي كان أفرادها سادة بيروت منذ عهد العثمانيين إلى مجيء الفرنسيين، على امتداد أربعة قرون...! هنا تسكن عائلة الغندور التي كانت تملك شركة التبغ، وعائلة البلطجي التي تستولي على المرفأ... وهناك، توجد عائلات داعوق وبَيْهم والصلح، وهي عائلات بالغة الثراء! وهم يتقنون التركية إتقانهم العربية، بل هم يتباهون أحياناً بأنّ دماء تركية تجري في عروقهم، عبْر جدّة شركسية أو أستانيّة.

وأضافت بأنّ هذه العائلات السنيّة الراقيّة تقيم علاقات جيّدة مع العائلات اليونانية الأرثوذكسية، وهي تشكّل أقليّة نافذة. يلتقون كلّ يوم تقريباً للعب الورق، بحيث يلعب الرجال البوكر، والنساء الكنستة[1]، وبعد العصر يتنزّهون على ظهور الخيل في التلال المحيطة، لا سيّما في فصل الربيع، حين تفوح رائحة الزعتر والزعرور.

---

(١) pinacle هي لعبة تنحدر من لعبة الكنستة.

وتهزّ السلطانة رأسها تأدّباً، وهو ما تفهم منه صاحبة البيت دعوة للاسترسال في الحديث. فتسارع إلى الإشارة إلى أنّ أجمل الحفلات تقيمها عائلات سرسق وطرّاد وتويني، مالكة المصارف.

ـ تحضر هذه الحفلات كلّ العائلات البيروتية، مسيحية ومسلمة. المقصود بالمسيحيين الذين يتبعون الطقوس اليونانية، لأنّ المارونيين، باستثناء العائلات التي استقرّت في العاصمة منذ أجيال، ما زال معظمهم يعيش في الجبل. وهم فلاحون متمسّكون بأرضهم وكنيستهم.

ثمّ أضافت:

ـ وبخلاف غيرهم من اللبنانيين، لا يعتبر كثير من المارونيين أنفسهم عرباً، بل هم فينيقيون، ينحدرون مباشرة من الإمبراطورية البحرية المجيدة التي سيطرت على البحار لقرون عديدة إلى أن قضى عليها بطليموس، أحد كبار قادة الإسكندر الأكبر.

وهم يستدلّون على أصلهم غير العربي بأنّهم لم يكونوا يعرفون كلمة واحدة من العربية إلى حدود القرن السابع عشر، ولم يكونوا يتحدّثون سوى الآرامية! والواقع أنّ الانتداب الفرنسي الذي انتزع المنطقة من سلطة الأستانة هو الذي خلق لبنان الكبير، وجعل بيروت عاصمة له. وكان طبيعياً أن يعتمد على هؤلاء المسيحيين المارونيين الذين كانت فرنسا تحميهم منذ ١٨٦٠، لا سيّما أنّ أغلبيّة هؤلاء تعلّموا في مدارس البعثات التي استقرّت في لبنان، ويتقنون الفرنسية. وبمنحهم مناصب كثيرة في الإدارة الجديدة، وتسهيلات لإنشاء مؤسّسات تجارية، شجّعهم الانتداب شيئاً فشيئاً على الانتقال إلى المدينة، ليصبحوا قاعدته الأكثر ولاء. وسيشيّد هؤلاء الوافدون الجدد منازلهم في حيّ الأشرفيّة، لأنّ الأرض فيها كانت خالية، ومن ثمّة أرخص من غرب بيروت على شاطئ البحر حيث توجد منازل رائعة. ثمّ إن الأشرفيّة غير بعيدة عن الجبل حيث ترك معظمهم عائلته، وحيث يحتفظون ببيت صغير وقطعة أرض.

هكذا نشأت أحياء بيروت ونمت كجزر ثقافية ودينية لدواع عمَليّة وعاطفيّة. وهي جزر مفتوحة. ذلك أنّ الأسر المارونية التي اغتنت، كثيراً ما كانت تنتقل للاستقرار في حيّ الفنون والمهن الراقي، الواقع في قلب منطقة رأس بيروت، بينما ينتصب فوق تلّ الأشرفيّة الهادئ منذ ما يقارب القرن «حيّ سرسق»، الأبهى في المدينة. ففي منازلهم الفخمة التي تعود إلى القرن التاسع عشر، المشيّدة على الطراز الفلورنسي الفينيسي، تواصل الحسناء ليندا سرسق، وأبناء بطرس الأنيقون، والإخوان تويني الجذّابون، يواصلون تنظيم سهرات رائعة تحت الانتداب الفرنسي مثلما كانوا يفعلون تحت الإدارة العثمانية.

بيروت، وهي عبارة عن واحة هادئة واقعة بين البحر والجبل، مدينة تحمل الإنسان على حبّ التسليّة والترويح عن النفس. وينبغي الاعتراف بأنّ الفرنسيين جلبوا لهذه المدينة الريفيّة حيويّة وألقاً جعلا أجواءها أشبه بأجواء باريس!

رغم أنّ الطوائف تتعايش في تسامح في هذه المدينة، إلا أنّها تعاني من الإقصاء الاجتماعي. فالأسر العريقة تمتعض من أولئك الفلاحين الذين نزلوا من الجبل بعد أن منحهم الانتداب الفرنسي كثيراً من الامتيازات، وصاروا من الأغنياء محدثي النعمة، لكنّهم يعدمون الأصول والتهذيب.

وكانت الهوّة بين البيروتيين القدامى والبيروتيين الجدد كبيرة، مع أنّ الإدارة الفرنسية لم تكن تشجّع المارونيين فحسب، بل كانت بحاجة إلى مساندة قويّة من المسلمين أيضاً. وكانت تدرك أنّها لا يمكن أن تعوّل على دعم البرجوازية السنيّة الراقيّة. فالفرنسيون حين أنشأوا لبنان، فصلوه عن المملكة العربية التي وعدت بها إنجلترا العرب، والتي كان من المفروض أن تضمّ سوريا ولبنان وفلسطين. ولتثبيت وجودها، اضطرت سلطات الانتداب الفرنسي إلى تقليص امتيازات أغنياء الطائفة السنّيّة، وإن كانت علاقتها بهم ظلّت مع ذلك عادية، بل طيّبة أحياناً، بحكم أنّ

اللبنانيين عُرفوا دائماً بلباقتهم ودبلوماسيّتهم. عدا أنهم حين يخلون إلى بعضهم بعضاً، يتّهمون فرنسا بإلحاق الضرر بثروات البلاد، لاسيما عندما عوّضت الليرة الذهبية بليرة ورقيّة تابعة للفرنك الفرنسي. كما أنّهم مستاءون من قصر المناصب العليا في السياسة والقضاء والجيش على المسيحيين. بالمقابل عمدت إلى منح امتيازات إلى أبناء الطبقة البرجوازية المتوسّطة السنيّة التي ما كانت لتطمع في عهد العثمانيين في تقلّد وظائف مهمة، وهو ما مكّنها من كسب ولائهم.

هكذا وجدت خديجة سلطان نفسها تعيش في هذا المجتمع البيروتي المتغيّر المحكوم بالسادة الجدد و«الأصدقاء»، بمعيّة ابنتها وابنها وزينيل وقلفاوتين.

وقد أثارت كثيراً من الفضول والتعاطف. مهما يكن، فمراد الخامس لم يقمع أحداً، لا لشيء إلا لأنّ المسكين لم يحكم غير ثلاثة أشهر... أمّا ابنته المسكينة، التي حبست لثلاثين سنة، ثمّ عاشت عشرين سنة مع رجل كان بلا شكّ يضربها، وآخر يخونها، فضلاً عن الحرب والثورة، ها هي تعيش الآن في المنفى! كل هذا جعل نساء الطبقة الراقية يرثين لحالها، ويتسابقن لزيّارتها.

لكنهنّ إن كنّ ينتظرن من الأميرة إطلاعهنّ على أسرار مثيرة، وتفاصيل مجهولة عن الكيفية المخزية التي عوملت بها العائلة الملكيّة، أو على الأقلّ أن يسمعن منها التأوّه والشكوى، ويرين في عينيها نظرات حزينة تسمح لهنّ بأن يتناولن يدها ويقسمن لها على صداقة أبديّة، فإنّ انتظارهنّ مُنِيَ بالخيبة.

استقبلتهنّ السلطانة في الصالون ذي الستائر الحريريّة الصفراء الباهتة بابتسامتها اللطيفة، ووقار ملكة جاءها رعاياها لتقديم فروض الطاعة والولاء. وكانت تجيب على أسئلة زائراتها التي كانت في البداية رسميّة، ثمّ أخذت تصير مع مرور الأيّام بعد نفاد صبرهن متطفّلة أكثر فأكثر، بهدوء ورباطة جأش. ليس لديها ما تحكيه لهنّ. لم يفعل كمال إلا ما قدّر

أنّه واجبه. أمّا عن إمكانية قيّام ثورة مضادّة تعيد النظام السابق، فذلك متروك للإرادة الإلهية. والخلافة، من سيتولاها؟ كادت تطرح عليهنّ هذا السؤال... فغداة مغادرة عبد المجيد، أعلنت الصحف أنّ أبناء الملك حسين، ملك الحجاز، ولّوا أباهم هذا المنصب. والآن يتحدّثون عن تولية فؤاد، ملك مصر. وتردّ السلطانة على هذا بالقول: «لا صلة لي بهم. لست أعرف أكثر ممّا تعرفون».

وكانت الزائرات يعُدن أدراجهنّ وقد استبدّت بهنّ الحيرة، يسيطر عليهنّ شعور بأنّ السلطانة راوغتهنّ، وهو شعور يكذّبه ما استقبلتهنّ به من أدب وكياسة. وكانت بعض نساء الطبقة الراقية يدعونها إلى بيوتهن قائلات: «أدعوك لشرب الشاي. أنا مستعدّة لاستقبالك بعد ظهر أيّ يوم تختارينه. أودّ أن أقدّم لك بعض الصديقات؟». فتردّ السلطانة بنبرة آسفة:

ـ إنّه للطف كبير منك، لكنّني لم أعد أخرج... لكن إن قدمت لزيارتي، فسيكون ذلك دوماً مصدر سعادة كبيرة لي.

ظلّ الصالون الأصفر لبضعة أسابيع حاشداً بالزائرات، ثمّ بدأت المدّة بين الزيارات تطول. فهذه الأميرة التي قيل إنّها ذكية، وأشاد الناس بشخصيتها القوية، خاوية الوفاض، وليس لها في نهاية المطاف ما تقول! وهكذا ضاقت بها ذرعاً نساء الطبقات البيروتية الراقية، ورحن يبحثن عن شخصيات أخرى تثير اهتمامهنّ، باستثناء بعض المتحذلقات من الطبقة المتوسّطة اللواتي كنّ يزرنها أحياناً، ويتبجّحن أمام معارفهنّ المنبهرات بالحديث عن «صديقتهنّ السلطانة التي أصابها الزكام» أو أنّها «كانت ترتدي بالأمس فستاناً حريرياً أضفى عليها جلالاً ملكيّاً!».

وفي الهدوء الذي عاد ليخيّم على البيت من جديد، مضت السلطانة تضحك في صمت.

ـ لقد لقّنت درساً لهؤلاء المغفّلات اللواتي كنّ يردن التباهي بصداقة السلطانة. أيدعونني لزيارتهن؟ يا للخبل! أيحقّ أن تتنقّل أميرة في سنّي

من بيتها؟ تذكّري يا سلمى هذا الأمر: ليس لأنّنا لم نعد نملك المال سنغيّر طريقة سلوكنا وتصرفاتنا. لا يعزُبَنّ عن ذهنك أبداً أنّك أميرة.

وتتنهّد سلمى... ما معنى أن تكون أميرة وهي لا تملك مليماً واحداً؟ إنّني مسخرة الصف كلّه. ينادونني «صاحبة السمو ذات الجوربين المرتوقين».

واكتفت بأن أجابت:

ـ من الصعب أن أنسى ذلك يا أنيدجيم.

فتنظر إليها خديجة باندهاش.

ـ هل الأمور في المدرسة ليست على ما يرام؟

ـ كلا يا أنيدجيم، المدرسة في غاية الروعة.

لم تكن تريد أن تشقّ على أمّها. فالسلطانة حافظت على شموخها، لكن بمرور الشهور، رانت على نظراتها، التي كانت تفيض حيويّة في الماضي، مسحةٌ من الحزن. لم تعد تفهم شيئاً ممّا يقع، ولا تقبَل صمت شعبها.

كانت تنصت للمذياع صباح مساء لعلّها تتلقّى أخباراً عن تركيا. وقد ساءها القضاء على المدارس والمؤسسات الدينية، وإغلاق الأديرة، لكنّها شعرت بنشوة النصر لمّا علمت بأنّهم أجبروا النساء على التخلّي عن الحجاب، وفرضوا على الرجال ترك الطربوش، رمز الانتماء إلى الإسلام، تحت طائلة الشنق!

هذا سيدعو الأتراك إلى التمرّد لا محالة!

لكنّ الأتراك رضخوا هذه المرّة أيضاً... ويوماً بعد يوم، كانت التغضّن البادي عند زاوية شفتي خديجة ينحفر أكثر فأكثر. لمّا غادرت بلدها، كانت واثقة من أنّ الشعب سيضيق ذرعاً بكمال، ولن يلبث أن يُطالب بعودة العائلة الحاكمة. لكن ها قد مضت سنة تقريباً على نفيهم، وهو ما زال يلزم الصمت.

كانت السلطانة تتألّم وهي تقول في نفسها: من المؤكّد أنّ المحاكم

الاستثنائية منتشرة في كلّ مكان، وأنّ المعارضة والصحف مراقبة بقسوة، ولكنّ الأتراك... عشرة ملايين تركي... أيُمكن حقّاً إخضاعهم؟

وإذا كانت قد تأثّرت بهجران زوجها وشعرت بالمرارة، فإنّ ما يعذّبها أكثر هي لا مبالاة شعبها.

أمّا سلمى، فأقسمت قسم فارس شجاع على أن تحمي أميرتها. فما كانت تكنّه لها من تبجيل تحوّل في الفترة الأخيرة إلى حنانٍ قلِق، كما لو أنّها صارت تخشى من أن يصيبها مكروه.

لم تكن تغادر البيت بعد انتهاء الدروس. إلى أين ستذهب حتّى لو أرادت الخروج؟ فهي ليست لها صديقات. كانت تجلس على وسادة صغيرة عند قدمي السلطانة، وتقضي ساعات تبتدع قصصاً لعلّها تسلّي أمّها. لم يسبق لها أن قضت مثل ذلك الوقت بقربها. ذلك أنّ المراسم وحضور القلفاوات المستمرّ في قصر أورتاكوي لم يكن يسمح بمثل هذه الحميمية. وقالت في نفسها على سبيل العزاء إنّ المنفى قرّب بينهما على الأقلّ. لكنّها كانت تعلم أنّ ذلك غير صحيح، وأنّ السلطانة ما من مرّة بدت لها أبعد ممّا هي الآن.

وعادت سلمى ذات يوم إلى البيت ساعة قبل موعدها بعدما ألغى أستاذ الرياضيات الحصة لأنه كان مريضاً، فوقفت عند عتبة الباب مذهولة. سمعت ضحكات عالية! اقتربت ببطء ورأت... أنيدجيم... رأت أنيدجيم تضحك مثلما لم ترها منذ غادرت الأستانة! وعند قدميها جلس زينيل على وسادتها وهو يتحدّث وقد تهلّل من السعادة.

وأحسّت المراهقة بغصّة في حلقها، وساروها شعور بالخديعة، وتساءلت: لماذا لا تستعيد أمّها بهجتها القديمة إلا مع زينيل بينما لا تُظهر لها هي غير سحنة كئيبة؟ وتقدّمت منهما شاحبة. قام الخصيّ، وتوقّفت السلطانة عن الضحك.

ـ ماذا بك يا سلمى؟ أأنت مريضة؟

...تتظاهر بالقلق... بما أنّ زينيل هنا، فهي لا تحفل بي حتّى لو مت...

أمّا خيري الذي لم تكن سلمى قد انتبهت إلى وجوده، فقال ساخراً:

ـ إنّها تغار، هذا كلّ ما في الأمر! ألا تعرفين يا أنيدجيم بأنّ الآنسة لا تطيق أن تهتمّي بأحد سواها حتّى ولو كنت أنا؟ حين تبتسمين لي، يصفرّ لونها كسفرجلة قديمة!

ورشقت سلمى أخاها بنظرة شزراء. فقد كانت تستهين بقدرة هذا الولد البدين على الملاحظة. ولكنها ستجعله يدفع الثمن! وبانتظار ذلك، حريّ بها أن تنقذ الموقف.

ـ أنا أغار؟ يا لها من فكرة سخيفة! أنا لست مغيارة! كلّ ما في الأمر هو أنّني اندهشت... وفرحت من سماعك تضحكين يا أنيدجيم.

وشعرت بأنّ صوتها يفضح حقيقة مشاعرها. ولكي تتخلّص من الحرج، ادّعت بأنّ عليها أن ترتّب كتبها، وانسحبت إلى غرفتها.

فلحقت بها خديجة سلطان قلِقة.

ـ ماذا بك يا سلمى؟

واغرورقت عينا المراهقة.

ـ آه يا أنيدجيم! لن تتصوري مقدار حبّي لك. فهو يتجاوز كلّ الحدود، وأنا بحاجة إلى أن تبادليني نفس الحب...

فردّت السلطانة:

ـ ولكنّني أحبّك يا سلمى. ما أحبّ أحداً مثلما أحبّك أنت وخيري!

ثمّ أضافت بنبرة فاترة:

ـ عدا أنني لا أطيق المساومة في العواطف، لا من أبنائي ولا من سواهم. أمّا الأهواء، وهذا ما كنتِ تتحدّثين عنه، فإنني كنت أعتبرها دائماً غير لائقة. باستثناء هوى المرء لبلاده!

طأطأت سلمى رأسها... كيف لأمّها - بالغة الطيبة - أن تبدي مثل هذه القسوة أحياناً...؟ كان بابا يقول إنّها لا تنتبه لقسوتها حين تغضب... بابا... الذي كنت أحبّه وتخلّى عنّي مثلما تخلّت عنّي هي الآن... وعضّت على شفتيها: عليها أن تُجهد نفسها لتخفي اضطرابها... آه لو كنت قادرة على أن أحبّها بقدر أقلّ! وألا أكون خرقاء ومتلهّفة لإرضائها! لو كنت أستطيع التظاهر باللامبالاة... لأحبّتني. هذا أمر لا شكّ فيه. لكن يبدو كما لو أنّني أثقل عليها... فكم من مرّة لامتني على أنّني أرهقها!

التقطت نفساً عميقاً، وقالت في نفسها إنّها لن تستسلم.

- ألم تكوني تحبّين أباك بلهفة يا أنيدجيم؟

- أبي...؟

والتمعت في وجه خديجة بسمة لطيفة. وبَدَت فجأة كفتاة صغيرة.

- نعم، كنت أموت في حبّه... كان رجلاً رائعاً، من أولئك الناس القلائل الذين يتعلّق بهم المرء ولا يتعب من حبّهم..

ومضت سلمى تنظر إليها في صمت.

...هذا بالضبط هو ما أشعر به نحوك يا أنيدجيم، فلِم تنكرينه عليّ؟... فقد قُلتِ ذات يوم: أن يكون المرء إلهاً، معناه أن يعيش في الجحيم. كلّ أمل العالم، كلّ حبّ الإنسانية معلّق بأهداب فستانك، فما أثقل ذلك! شيء من اللامبالاة من فضلك! فقد ضحكت كما لو أنّ الأمر يتعلّق بمزحة. أفهم الآن مقدار صدقك... آه! يشعر الإنسان أنّه مخطئ دائماً، إمّا لأنه لا يحبّ كفاية، أو لأنه يحبّ أكثر من اللزوم.

٢

ـ إنّهم يقتلون أهلنا بالمئات!

سحبت أمل سلمى إلى زاوية من الساحة، وكان وجهها أشدّ شحوباً من المعتاد.

ـ أحرق الفرنسيون قرى بكاملها في الجبل من دون أن تأخذهم الرأفة بالنساء والأطفال. سيجعلهم الدروز يندمون على ذلك. سينتقمون منهم شرّ انتقام!

وحطّت كرّة عند أقدامهما، ومضت تلميذتان تتدافعان لأخذها. إنّها أيّام الخريف الأولى، والشمس ناعمة كالحرير.

تناولت سلمى يد أمل صديقتها الوحيدة في مدرسة راهبات بوزانسان، الوحيدة التي تجرّأت على كسر عزلة فرضتها عليها بقية التلميذات. شعرت المراهقة بمعاناة سلمى، لأنّها مرّت بهذا الوضع هي أيضاً، هي من تقول عنها الراهبات: «أمل فتاة جميلة وذكيّة، من المؤسف أن تكون المسكينة مسلمة!»، رفضت في البداية أن تظلّ هناك، وكانت لا تتوقّف عن البكاء، لكنّ أباها لم يلِن: فأفضل المدارس في لبنان هي مدارس البعثات المسيحيّة، والأسر المسلمة الموسرة تتباهى بإرسال بناتها إليها.

سألتها سلمى بلطف:

ـ اشرحي لي يا أمل، لماذا يقاوم الدروز الانتداب الفرنسي في الوقت الذي تقبله بقية اللبنانيين؟

ـ إنّها قضية شرف!

وتلألأت العينان الزرقاوان.

ـ لم نكن في البداية ضدّ الوجود الفرنسي، لكنّ المندوب السامي الجنرال ساراي أهان زعماءنا.

ففي ربيع سنة ١٩٢٥، حلّ وفد من سوريا ليتدارس وضع الطائفة الدرزية. واحتجّ الوفد على مبادرة حكومة كاربيي الفرنسية التي لا تحترم التقاليد الموروثة، وطالبوا بإنشاء حكومة درزية كما تنصّ على ذلك اتفاقية ١٩٢١.

لكنّ المندوب السامي استقبلهم بفتور، وقال إنّه يبارك إصلاحات كاربيي، وإنّ اتفاقية ١٩٢١ صارت متجاوزة. وتوالت الوفود إثر ذلك على بيروت من دون أن تنجح في مقابلة ساراي. فالدروز في نظر هذا «الجنرال اليساري» الوطني والمعادي للكنيسة، أناس متوحّشون، شأنهم في ذلك شأن زنوج إفريقيا الذين سبق له التعامل معهم. فوقته أثمن من أن يبدده معهم.

وبينما كان يحاول ذات يوم أن يتجنّب لقاء مجموعة من الأعيان مرفوقة بنحو مائة فارس، خرج من باب مستتر، فوجد نفسه وجهاً لوجه معهم على السلّم. وكان ذلك بالنسبة للدروز إهانة لا تحتمل، فرموا بكوفياتهم على الأرض، معلنين بذلك الحرب على الفرنسيين. ولتسوية هذا الأمر، أمر المندوب السامي نائبه في دمشق بأن يستدعي أبرز قادة الدروز بدعوى فحص مطالبهم، وأن يلقي عليهم القبض. ووقع في هذا الكمين ثلاثة من أرفع زعمائهم.

كانت هذه هي النقطة التي أفاضت الكأس. وفي السابع عشر من يوليو/ تمّوز، انطلق التمرّد بزعامة الرجل الرهيب سلطان باشا الأطرش.

فبعث الفرنسيون عدّة كتائب للقضاء عليه، لكنّه تمكّن من إلحاق الهزيمة بها والقضاء عليها.

واستطردت أمل متوعّدة بنبرة شرسة وهي تقطّب حاجبيها الدقيقين:

ـ لم يتوقّف الأمر عند هذا الحدّ! فقد انضمّ بعض دروز الشوف اللبناني إلى دروز جبل سوريا. عددهم يقدّر اليوم بأكثر من خمسين ألف رجل!

فقالت سلمى:

ـ سينتصرون إذن لا محالة! فلماذا أنت قلِقة؟

فردّت أمل وهي تتنهّد:

ـ لأنّ الحكومة الفرنسية بدأت تدرك، مثلك، بأنّنا يمكن أن ننتصر... فبعثت بالجنرال غاملان على رأس فرقة من الخيّالة الشراكسة، وسريّة من الجنود التونسيين وسبع كتائب من المشاة. وهم مجهّزون بأحدث سلاح مدفعية، وبدأوا يقصفون قُرانا حتّى يدكوها دكّاً. ورغم أنّ رجالنا يقاومونهم كالأسود، إلا أنّ بنادقهم لا تجدي نفعاً أمام المدافع...

وطوّقت سلمى كتفي صديقتها بذراعها. هي أيضاً ما زالت تذكر... الاحتلال والإهانة والتمرّد والعجز... ثمّ النصر! وضمّت إليها صديقتها بأقصى ما تستطيع من قوّة.

ـ ستنتصرون يا أمل، مثلما انتصرنا نحن في تركيا على القوى الأجنبية!

نحن... من نحن؟ مضت سنوات وسلمى لا تستطيع، ولن تستطيع، أن توفّق بين عقلها وبين ما يبدو لها مفارقة صارخة: انتصار بلدها وطرد أسرتها. لا شكّ أنّ التاريخ ضلّ طريقه في مكان ما...

واستأنفت أمل قائلة:

ـ الأدهى هو أنّ الفرنسيين واثقون من أنّهم على حقّ. هم يقسّمون أرضنا وشعبنا، ومع ذلك يزعمون أنّهم في الواقع...

فقاطعتها سلمى:

ـ أيّ واقع؟ الواقع الذي يدفعهم إلى قتلكم؟ الواقع الذي قاد كمال إلى طردنا؟ اعتقدتُ أنا أيضاً لمدّة طويلة أنّ ثمّة سوء فهم، وأنّه يلزم أن أفسّر لهم، وكنت ألوم أمّي على لزومها الصمت عوض الجهر عالياً ببراءتنا... كم كنت غبيّة! كنت أصغر من أن أفهم... لا تضحكي... صحيح أنّ عمري لم يتجاوز الرابعة عشرة، لكن الأعمار لا تقاس بالسنوات. لقد شخت لمّا اكتشفت أنّ النيّة الحسنة لا تجدي نفعاً، وأنّ السؤال الذي ينبغي أن يطرح ليس هو: «ما هي الحقيقة؟» بل: «من الأقوى؟» عندئذ توقّفتُ عن الأنين، وأقسمتُ أن أكون ذات يوم أنا الأقوى.

اقتربت منهما تلميذتان وقالتا بنبرة ساخرة:

ـ أنتما تتآمران إذن؟

إنّهما ماري لور وماري أنييس، الفتاتان الجميلتان المتغطرستان، بنتا ضابطين ساميين فرنسيين.

وانتصبت أمل في وجههما وهي مستعدّة للعراك.

ـ يا لذكائكما! نحن نتحدّث فعلاً عن السبيل الأنجع لطردكم من لبنان.

فنظرت إليها ماري لور بتعالٍ، وقالت:

ـ هوّني عليك يا صغيرتي! لولانا لكان العثمانيون ما زالوا يستعبدون بلدكم!

فتدخّلت ماري أنييس:

ـ كُفّا عن هذا الحديث، هناك من يتنصّتُ علينا. إن علِمَت الأمهات الراهبات بأنّنا نتكلّم في السياسة، سنُطرد جميعاً!

فاحتجّت سلمى بنبرة حادّة:

ـ من الأولى أن تنسحبا الآن بعد أن شتمتُمانا!

فردّت ماري لور مستهزئة:

ـ انظري كيف تطلب أن نتركها وشأنها! حسناً، أقترح أن نسوّي هذه المشكلة في ملعب الرياضة، وأترك لكما اختيار السلاح الذي يروقكما: الركض أو القفز؟

ـ القفز بالمظلّة.

تجاوزت ماري لور سلمى بأقل من عشر سنتمترات، وسلمى تعلم أنّ حظوظها منعدمة في الركض.

يقع ملعب الرياضة بعيداً عن البنايات الرئيسية، وذلك حتّى تتمكّن التلميذات من ممارسة الرياضية من دون أن يزعجهنّ أحد. توجد في جانبه الأيمن كومة رمل كبيرة وسقالة تثبّت عليها دعامات معدنية يمكن التحكم في ارتفاعها.

واقترحت ماري لور:

ـ هل نبدأ بمترين؟

ـ حسناً.

ـ اقفزي أنت أوّلاً، بما أنّك تعتبرين نفسك تعرّضت للإهانة!

تبادلت المراهقتان نظرات تشي بالتحدّي، ونسيتا أمل التي تسبّبت في هذه المبارزة. أهي سبب أم ذريعة؟ منذ مدّة طويلة وماري لور وسلمى تتلهّفان للمواجهة. فهما متشابهتان، كلتاهما متغطرستين، سريعتي الغضب وحادّتي الطبع. وقد كان من الممكن أن تكونا صديقتين في ظروف مخالفة، لكنّهما الآن لا تطيقان بعضهما بعضاً.

تجمّعت التلميذات حولهما مترقّبات. وتطوّعت زميلتان لرفع الدعامة المعدنية عشرين سنتمتراً بعد كلّ قفزة ـ لا سيما أن مدّة الاستراحة على وشك الانتهاء ـ بينما تكلّفت أخريان بمراقبة قدوم الأمّهات الراهبات.

كانت القفزة الأولى سهلة كلعبة أطفال.

وأعلنت التلميذة التي انتُدِبت للتحكيم:

ـ متران وعشرون سنتمتراً!

ارتمت سلمى بخفّة، وتبعتها ماري لور ذات الساقين القويّتين.

ـ متران وأربعون سنتمتراً!

بدأت الأمور تتّخذ منحى جدّيّاً. وراحت الفتاتان تقفزان بتركيز الواحدة تلو الأخرى.

ـ متران وستّون سنتمتراً!

وبينما كانت سلمى واقفة على الدعامة الحديدية، سمعت أحدهم يهمس لها. وميّزت بين المراهقات الحاضرات وجه أمل الصغير، فأومأت لها بيدها لكي تُطمئِنها. وشعرت بالتوتّر: ما من مرّة قفزت من هذا العلوّ، لكن بوجود هذه الكومة الكبيرة من الرمل، لا داعي للخوف. طوت ركبتيها، وعدّت واحد، اثنان، هوب!... ربحت الرهان!

وما كادت تنهض حتّى حطّت ماري لور خلفها. تبادلتا النظرات، وتردّدتا لبرهة، ثمّ افترقتا.

ـ متران وثمانون سنتمتراً.

صعدت سلمى درجات السلم ببطء، وشعرت برعشة غريبة في صدرها. أمّا في الأسفل، فعمّ الصمت: ومضت العيون تحدّق فيها. لا مجال للتراجع.

التقَطت نفساً عميقاً، وارتمت في الهواء!

وما كادت تنطلق حتّى عرفت ما ينتظرها. سمعت فرقعة، وشعرت بما يشبه لسعة سوط، وبألم لا يطاق، لكنّها أحست في ذات الآن بنوع من الارتياح: انتهت المبارزة، لا داعي لن تشعر بالخوف مجدّداً.

تعالت الهتافات، وبدأ كلّ ما حولها يدور، كلا، لن تتقيّأ... أين

هي؟ وماذا جرى لها؟ لماذا تبلّل الأم الراهبة جين وجهها بالماء المثلج؟ ولماذا هذه السحنة المرعوبة؟

وذكّرها ألم في ساقها اليمنى بالواقع.

ـ لا تتحرّكي يا صغيرتي، لن تتأخّر سيّارة الإسعاف في الوصول. لكن، يا له من تهوّر! كنت ستموتين، لماذا قفزت من ذلك العلو؟

قطّبت سلمى وهي تجيب:

ـ كنت أتمرّن... لأشارك في الألعاب الأولمبية.

وتنطلق أسارير التلميذات القلقات ويُغرقن في الضحك، وهو ما لم تستحمله ماري لور، فقالت:

ـ الخطأ خطئي يا أماه. أنا من...

فقاطعتها سلمى:

ـ أنت من شجّعتني على ممارسة للرياضة، لكن كان عليّ أن أدرك أنني لست في مستواك.

فهمست الأمّ جين:

ـ انظري يا بُنيّتي إلى أين تقود الغطرسة.

ووصلت سيارة الإسعاف أخيراً، فحُمِلت المُصابة بحذر كبير، وتسابقت بنات الصفّ لتوديعها بينما راحت أمل تنتحب، وبجانبها وقفت ماري لور بالغة الشحوب.

ـ إلى اللقاء يا سلمى، عودي لنا بسرعة.

تبادلتا النظرات، وابتسمت إحداهما للأخرى. وفوجئت سلمى من أنّها شعرت بالسعادة من انكسار ساقها.

كان الكسر سيئاً حتّى إنّ الطبيب أمرها بأن تستريح في البيت لستة أسابيع كاملة، تقضيها بدون حراك. وكانت أمل تزورها كلّ يوم بعد

الفراغ من الدراسة. واستحالت مشاعر الصداقة التي كانت تكنّها لها إلى شغف.

ـ لن أنسى أبداً ما فعلتِه من أجلي. التلميذات في المدرسة لا يتحدّثن إلا عن شجاعتك، وهنّ يقدّرن سكوتك، وعدم بوحك بحقيقة الحادثة. لقد لقّنتِهُنّ درساً رائعاً!

وتضمّ سلمى بين ذراعيها، وتسوّي بحنان خصلة شعر متدليّة على جبينها المبلّل بالعرق، وتطبع على يديها قُبلاً. وتنخرطان في أحاديث لا تنتهي وهما جالستان أمام الدفاتر المنشورة. على سلمى أن تتابع دراستها، وأمل تأتيها بملخصات الدروس، على أنهما لا تكفّان عن الحديث.

لا تذكر أمل شيئاً عن أمّها التي توفيت وهي ما تزال في الثانية من عمرها. وقد ربّتها خالتها، ابنة عمّ الست نظيرة، سيّدة الدروز.

ـ لم أر الست نظيرة إلا مرّة واحدة في قصرها بالمختارة، في قلب جبل الشوف، لكنّني سأظلّ أذكرها ما حييت... كانت وهي جالسة على أريكة واطئة، بفستانها العادي الأسود ووشاح رأسها الأبيض، أشبه بملكة.

وما زالت أمل تذكر أنّ ما يقارب مائة رجل من زعماء العشائر حلّوا في بيتها لاستشارتها، وقد وضعوا بنادقهم وذخائرهم عند مدخل الصالون احتراماً لها. وما زالت تتراءى لها وجوههم المتغضّنة التي لوّحتها الشمس، والتي لم يعد المرء يصادفها مثلها اليوم في المدن. ومع ذلك كانوا يبدون أمام هذه المرأة النحيفة مذعنين خائفين كالأطفال.

ـ كانت الست نظيرة تتحدّث إليهم مطوّلاً. تتكلّم مع كلّ واحد منهم على حدة، وتطرح عليهم نفس الأسئلة وهي تحدّق فيهم بعينيها الصافيتين. فكانوا يهزّون رؤوسهم موافقين على ما تقول، ثمّ يسجدون لها ويقبّلون ثوبها دلالة على ولائهم. وما دُهِشتُ له هو أنّها ما من مرّة رفعت صوتها أو قامت بحركة.

فهمست سلمى بنبرة حالمة:

ـ إنّها تذكّرني بأمّي، أو بالأحرى بما كانت عليه أمّي. مسكينة أنيدجيم! لقد تغيّرت منذ أن نُفينا...

ـ وأبوك؟

واستحال لون عيني سلمى إلى زرقة غامقة.

ـ ليس لي أب.

فقالت أمل بلهجة آسفة:

ـ اعذريني، لم أكن أعلم...

ـ لا أحد يعرف ذلك غيري.

عادت سلمى إلى المدرسة بعد شهرين وهي تعتمد على عكازين، فاستقبلتها سائر التلميذات بحرارة حتّى من لم يكلّمنها قطّ.

ومن أقصى الساحة تقدّمت نحوها ماري لور غير مبالية، وقالت:

ـ أنا سعيدة بعودتك.

جملة مألوفة، لكن صدورها عن رئيسة بنات الرابطة المارونية، معناه أن المصالحة تحقّقت.

ومرّ ذلك اليوم بالنسبة لسلمى كيوم عيد. فحتّى الراهبات أحطنها بعناية خاصة.

وفي المساء دعتها ماري لور لأن ترافقها. ذلك أن سيارة بسائقها كانت تنتظرها كلّ يوم عند باب المدرسة، شأنها في ذلك شأن سائر التلميذات الفرنسيات. وكادت تقبل الدعوة لولا أنّها لاحظت نظرات أمل الحزينة.

ـ أشكرك على هذا اللطف. لكنّني أفضل أن أمشي قليلاً في الهواء الطلق، ثمّ إن أمل اقترحت عليّ أن تحمل عنّي كتبي.

على أنّ هذا الكلام لم يكن ليخدع ماري لور، لذلك هزّت كتفيها وقالت:

ـ مع الأسف، كنت أظنّها فرصة لنتحدّث قليلاً!

ثمّ أضافت بلهجة غير مبالية لم تنجح في إخفاء خيبتها:

ـ لكنّك على حق، على المرء أن يضع الوفاء في المقام الأوّل!

ومضت سلمى تنظر إليها وهي تبتعد. وشعرت بقلبها ينقبض لأنها رفضت اليد التي مُدّت لها، وساورها إحساس بأنها أخطأت. ورغم أنها حاولت تحكيم عقلها، وبحثت عن مبرّرات لسلوكها ـ أكان عليها أن تتخلّى عن أمل التي ظلّت إلى جانبها في أحلك اللحظات؟ ـ فقد تبدّدت بهجة ذلك اليوم، بل حتّى الشمس فقدت شيئاً من حرارتها.

ولمّا قالت الدرزية الصغيرة ساخرة: «انظري إلى هذه الجميلة اللامبالية، ألا تكون غيرانة؟»، انطلق غضب سلمى من عقاله، فردّت:

ـ احتفظي بتعليقاتك لنفسك من فضلك!

لكنّها لم تلبث أن تمالكت نفسها أمام ذلك الوجه الصغير المكلوم، وقالت في نفسها: «لقد آذيتها هي أيضاً. ماذا أصابني؟ لماذا تقوم الصداقة على الإقصاء؟ لماذا يُفرض على المرء أن يختار بين معسكرين؟».

بعد ذلك بأيّام، وبينما كانت الأم تيريزينا منهمكة في تشرح درس الأدب، مبرّرة التعارض بين أخلاق شخصيات كورني ولاأخلاقية شخصيات راسين التي تسقط ضحية أهوائها، انفتح باب القاعة، فدخلت الأم المديرة برفقة رجل بالغ الأناقة، يضع على رأسه طربوشاً، وفي يده عكازة ذات مقبض فضّي.

وما كادت الأمّ تيريزينا تضرب بيدها الضربة الأولى، حتّى وقفت جميع التلميذات، وعند الضربة الثانية، حاولن الانحناء قليلاً في المكان

الضيق بين الكراسي والمكاتب تعبيراً عن الاحترام، بينما راحت عيونهنّ المخفوضة تسترق النظر إلى الرجل الغريب.

وهمست الأم مارك بصوتها الرخيم:

ـ نعتذر على مقاطعة الدرس، فصاحب الفخامة الداماد أحمد نامي بك، حاكم سوريا، شرّفنا بزيارة مؤسّستنا. ابنة أخته[1] موجودة في صفكم. تعالي لتسلّمي على خالك يا سلمى.

اقتربت المراهقة وهي تستند إلى عكازتيها وقد توردت من الخجل، وانحنت انحناءة خرقاء قاطعتها ضحكة عالية من الحاكم.

ـ لم تكوني خجولة في صغرك هكذا يا ابنة أختي! لا داعي لهذه الحركات وإلا كسرت ساقك الأخرى!

وقرص وجنتها بحدب أبوي.

ـ هيّا، احكي لي ما وقع لك؟

ودّت سلمى لو أنّ الأرض تنشق وتبتلعها. ها هي الأنظار تُسلّط عليها من جديد في وقت بدأت فيه التلميذات يقبلنها بينهنّ. وغمغمت:

ـ لا شيء، يا صاحب السعادة. كلّ ما في الأمر أنّني قفزت من مكان مرتفع قليلاً.

ـ أشاركت في مسابقة؟

ـ ما يشبه ذلك...

فأضاف بخبث وهو يقصد أن يُسمع الراهبات:

ـ برافو! هذا دليل على أنّ دماء عثمانية تسري في عروقك. واصلي على هذا المنوال يا ابنة أختي!

امتقعت سلمى. وما زادها ارتباكاً هو أنّ مصوّرين كانا يرافقان سعادته

(١) ابنة أخت زوجته بالأحرى. (المترجم)

أخذا يلتقطان لهما الصور، بينما وضع الداماد يده على كتفها. كانت تستشيط غضباً. فقد ذهب كلّ ما بذلت من جهود أدراج الرياح. ستعود زميلاتها إلى معاملتها كفتاة وقحة.

لكنّها اندهشت لمّا بدت التلميذات في اليوم الموالي معجبات بها. ذلك أنّ صحيفة الشرق l'orient نشرت في صفحتها الاجتماعية صورة سلمى والحاكم، مع تعليق ينعتها بـ«الأميرة الصغيرة المقدامة». سأل الآباء بناتهم عن ابنة أخت الداماد الذي تُعقَد عليه اليوم آمال كثيرة. فقد عيّنه المندوب السامي الفرنسي هنري دو جوفونيل حاكماً على سوريا. قدّر أن أحمد نامي بك العثماني الأصل، القريب من زعماء الدروز وصديق فرنسا، هو الرجل الأنسب للتفاوض على حلّ لهذه الحرب المدمّرة في الجبل.

كانت الأحاديث حول موائد الإفطار حافلة. وبينما سأل أكثر من أب ابنته: «لماذا لا تدعين هذه الأميرة إلى البيت؟ إنّها علاقة جديرة بالاهتمام!» وافقت الأمّهات على الاقتراح، وأضفن: «إنّها مسلمة، لكن مهما يكن، فهي أميرة...».

وفي ظرف أسبوع تلقّت سلمى ستّ دعوات تقريباً، هي مَن مضى عليها عام وهي تسمع رفيقاتها يتحدّثن عن خرجاتهنّ وحفلاتهنّ من دون أن تكلّف إحداهنّ نفسها عناء دعوتها. ورغم أنّها ودّت لو تلعنُهنّ، شكرتهنّ بأدب، واكتفت بأن ردّت إنّها ستطلب الإذن من أمّها.

رأت من بعيد ماري لور تومئ لها إيماءة صغيرة، كما لو أنّها تقول: «لا تأخذي هذا على محمل الجدّ!»، هي على الأقل لم توجّه لها دعوة، وسلمى تحفظ لها هذا الجميل.

وأنا؟ أليس لي وجود؟ ليس لي اعتبار عندهنّ إذن. أأنا مجرّد لقب؟ أنا من ظننت نفسي نِلت مودّتهن! كم كنت بليدة!

وراحت سلمى تضرب بعكازيها، من شدّة الغضب، ما تصادف من

أحجار في الطريق، غير عابئة بأمل التي أمسكت بيدها، وقد راعها رؤية الدموع لأوّل مرّة في عيني صديقتها.

ـ لا تحزني، هنّ غير جديرات بهذا الشرف!

ـ أعرف أنهنّ غير جديرات بهذا الاهتمام، لكنّ الأمر يتجاوزني، أنا بحاجة إلى من يحبّني...

فقالت أمل باستحياء:

ـ أنا أحبّك، يا سلمى. وأنا مدركة بأنّ هذا لا يمثل شيئاً ذا بال.

ـ كلا، هذا شيء كثير، وأنا أقدّره حقّ قدره!

وأجهدت سلمى نفسها لتبتسم، لكنّ فمها المرتعش حوّل ابتسامتها إلى تكشيرة، فتشبّثت بيد رفيقتها... هل صحيح يا أمل أنك تحبينني؟ ولكن لماذا؟ ألأنني بطّة عرجاء مثلك وسط سرب من الإوزّ؟ ألأنّنا مسلمتان بين مسيحيّات تكرهننا؟

وتراءى لها من خلال دموع لم تعد تقوى على إمساكها «سلطانة صغيرة» مشاكسة في قصر أورتاكوي تفرض الحبّ والإعجاب على سائر الأطفال. كم بدا لها هذا بعيداً ...*أما زلتما، أنت يا غولفيليس، وأنت يا أحمد، تذكران سلمى ذلك العهد؟ كنتما تحبّاني، وكان يبدو لي ذلك شيئاً عادياً... أمّا الآن فلم يعد لي أحد... حتّى بابا... كلا! لا أريد أن أتذكّره. هزّت رأسها، وبحركة من يدها مسحت دموعها.* ماذا تقول؟ بقي لها أهمّ إنسان في حياتها: *أنيدجيم... أنيدجيم التي تحبّني!... لأنّني ابنتها طبعاً... لو لم أكن ابنتها، أكانت ستحبّني؟ أكانت ستحبّني لذاتي؟*

وانهالت عليها الدعوات في الأسابيع الموالية، لكنّ سلمى، ولدهشة أمّها، كانت ترفض حتّى أن تلقي عليها نظرة. زعمت بأنّها تشعر بالملل في تلك اللقاءات التي تتنافس فيها البنات على أن يكنّ الأفضل مظهراً، وحيث يكون الموضوع المفضّل للحديث هو النميمية في الغائبات.

ولم تكن السلطانة تلحّ عليها. أدركت من عناد ابنتها أنّها مكلومة،

لكنّها كانت تعرف أنها لن تتكلّم إلا حين تقرّر ذلك. وحدّثت نفسها: «*هي من كانت واثقة من نفسها، كم صارت متحفّظة! أقول في نفسي أحياناً إنّه خطئي، لا أحيطهما، هي وأخوها، بما يكفي من العناية... لم أعد أملك الشجاعة لذلك... ولا الرغبة... ثمّ ماذا عساني أقول لهما؟ وعبثاً بحثت في نفسي، إلا أنني لا أجد سوى الصمت...*».

تتأمّل سلمى الجالسة بين زينيل والقلفاوتين زخارف السجّاد، وتبدو كما لو أنّها ترقص! سمعت ماري أنييس تقول إنّ أستاذاً يحضر في تلك الحفلات التي ينظّمنها ليعلّمهُنّ الشارستون، فتتخيّل الضحكات والموسيقى، فتشعر كما لو أنّ ساقيها تتنمّلان... لكن ما جدوى الحلم؟ فهي لن تذهب إلى تلك الحفلات.

ثمّ إنّها لا تملك فستاناً مناسباً ترتديه، هذا فضلاً عن أنّ قبول هذه الدعوات يستلزم تنظيم حفلات تستدعي إليها من دعونها، وهي لا تملك المال لذلك.

فالأسرة تعيش على ميزانية صغيرة. إذ تستقبل السلطانة كلّ شهرين أو ثلاثة أشهر، بوساطة أحد أبناء عمومة ميمجيان آغا، صائغاً أرمينياً ضئيلاً قضى شبابه في الأستانة، وكان مخلصاً للأسرة، فتبيعه قطعة مجوهرات تتسابق النساء المارونيات حديثات العهد بالثروة على شرائها. ولم يكنّ يفعلن ذلك لأجل جمال الأحجار الكريمة، بل من أجل الحظوة بارتداء مخلّفات هذه الأسرة العثمانية التي حكمت بلادهنّ لأربعة قرون.

على أنّ مخزون الجواهر لم يكن معيناً لا ينضب. وقد كان يحدث أحياناً أن تتكلّم السلطانة عن الأمور المالية بنبرة قاسية، وهو ما كان يضحك كلّ من في البيت، لأنّها لا تعرف شيئاً عن المال. لطالما رفضت مراجعة الحسابات، وتقول: «أتعتبرونني تاجرة؟» أو تقول: أتطلب منّي أن أعالج هذه «الأوراق المقرفة»؟

تولّى زينيل مالية البيت بحكم أنّه الرجل الوحيد في الأسرة. فعلى

الرغم من بلوغ خيري السادسة عشرة من عمره، ما زال مجرّد طفل بدين دائم الوجوم. أمّا السلطانة التي سعدت بالتخلّص من هذه المهمّة «المرهقة»، فتركت له كامل الحرية، ومن ثمّة لم تعد تلقي بالاً لما يقدم على المائدة، ولا تعلّق على هزالته. وآثرت أن تترفّع عن هذه التفاصيل.

في المقابل لم تكن تضنّ على الفقراء الذين يطرقون بابها. فقد كان كرمها معروفاً في كلّ أنحاء الحي. ولم يجرؤ أحد على تنبيهها إلى أن الحال تغيّر، وأنّ عليها التخلّي عن ذلك الكرم، لا سيما سلمى. فقد نشأت وهي تراها تتكرّم على كلّ من يحيطون بها من أصدقاء وخدم وعبيد ومعوزين. كان الجود في محيطها شيئاً مألوفاً، يدخل في السير الطبيعي للأشياء. أما اليوم وقد نفد المال، أيكون ذلك داعياً للتغيّر؟ فهي لم تكن تستطيع، شأن أمّها، مقاومة النظرات المتوسّلة. كما أن العطاء يدخل على قلبها سعادة غامرة.

وذات يوم هتفت بها إحدى صديقاتها وقد تضايقت من رؤيتها تفرغ حافظة نقودها كلّما مدّ لها شحاذ يده:

ـ ألن تكفّي عن تمثيل دور الأميرة!

اندهشت سلمى من هذا القول في تلك اللحظة، لكنّها تساءلت لاحقاً عمّا إذا كانت تعطي فعلاً من أجل التميّز عن الآخرين، والتبجّح بوضع لم يعد له وجود. وقد أرهقها هذا السؤال لفترة من الزمن، ثمّ انتهى بها الأمر إلى أن قالت في نفسها إنّها إنّما تستجيب لفطرتها: فكما أنّ دور الجندي هو القتال، ودور الطبيب هو العلاج، فمن طبيعة الأمير أن يأتي أفعال الأمراء.

جاء خادم سوداني أسود حاملاً رسالة، ووقف منتصباً أمام باب الصالون، مزهوّاً ببذلته الحمراء التي تظهر لونه الداكن بينما مضت السلطانة تفتح الظرف المزيّن بتاج مذهّب سميك.

وقالت في نفسها بمرح: صحيح أنّ «الخديوي» صار يحظى بلقب

«ملك مصر» بفضل الإنجليز. لعلّه إن استمر في الخضوع، سيتمكّن في يوم من الأيام من الظفر بلقب «إمبراطور»! واصطبغت اليوم السماحة الساخرة التي تستقبل بها عادة مثل هذه التفاهات بشيء من الخيبة: هي غير مستعدّة لنسيان أنّ السلطان الجبان رفض في ربيع ١٩٢٤ استقبال العائلة العثمانية في المنفى.

يشي رسم الحروف الرفيع المضغوط بشخصيّة مزهوّة بنفسها. إنّها ابنة أخت السلطان فؤاد، الأميرة زبيدة التي «تسعد»، وهي في زيارة لبيروت، بطلب مقابلة السلطانة.

«لمّا كنّا سادتهم في فترة ليست بالبعيدة، منذ اثنتي عشرة سنة، كانوا «يتشرّفون» بأن نستقبلهم! أمّا الآن فهي تقول إنّها «تسعد»! مهما يكن، سنستقبلها على نحو لائق، لكنّني لست واثقة من أنّها... ستسعد!».

وارتسمت على وجه السلطانة ابتسامة ماكرة وهي تتناول ورقة من آخر ما تبقى لها من أوراق تحمل شعار الإمبراطورية، وكتبت عليها بضعة أسطر تدعو الأميرة إلى زيارتها في وقت تناول الشاي.

كان عقد الزمرّد الثقيل الذي تتوسّطه ماسّة في حجم بيضة سمّان يتلألأ بمختلف الألوان.

ووقفت الأميرة زبيدة عند عتبة الباب مذهولة بحيث لم تستطع تحويل بصرها عن عنق السلطانة.

ـ ادخلي يا عزيزتي، مرحباً بك.

ولمست زبيدة في صوتها فوراً النبرة الملكية التي تمزج على نحو عفوي بين اللباقة والتشامخ، تلك النبرة التي كانت تملؤها في شبابها بالإعجاب والحسد، والتي لم تستطع، رغم ما بذلت من جهد، أن تحاكيها يوماً.

وعلى مقعدها العالي في أقصى الصالون، كانت السلطانة تنتظر بلا حراك. تتمالك الأميرة نفسها بسرعة وتنحني برشاقة مقدّمة أسمى

التحيّات والمتمنّيات، وقد وضعت يدها على قلبها ثمّ على شفتيها وعلى جبينها. ولمّا انتصبت، التقت نظراتها بنظرات السلطانة الفاترة المستفهمة. ذلك أنّ المضيفة كانت تتوقّع ثلاث انحناءات تبعاً للمراسم المعمول بها في البلاط العثماني. ففي هذا الصالون الضيق من منزلها البيروتي، حرصت السلطانة على الظهور بمظهر «سلطانة» أكثر من أيّ وقت مضى بحيث اضطرت الزائرة الشابة إلى الانقياد لهذا العرف على مضض، مراعية في حركاتها ضيق المكان. لقد عرفت السلطانة كيف تعيدها إلى مكانها بصمت، لكن على نحو جلي، وهو ما جعل وجه زبيدة يمتقع من الحرج.

وابتسمت السلطانة أخيراً، ثمّ أومأت لها بلطف بأن تجلس إلى جوارها على مقعد صغير. ولم تنتبه الضيفة إلى أنّ هذا المقعد أقلّ ارتفاعاً من مقعد السلطانة إلا عند جلوسها عليه، بحيث وجدت نفسها مضطرّة إلى أن تشرئبّ بعنقها لكي تتكلّم معها.

وبينما كانت الأميرة الزائرة تتساءل، بعد أن اشتدّ انزعاجها، عمّا إذا كان عليها أن تعتبر هذا إهانة، وتُظهر تذمّرها، مضت السلطانة تشكرها بصوت بالغ اللطف على التضحية بجزء من وقتها الثمين لكي تزور امرأة منفيّة مسكينة. أتراها تتهكّم؟ ولكن كيف لها أن تنتفض أمام هاتين العينين المتلألئتين وهذا الكلام المعسول...؟

وكانت الساعة الموالية بالنسبة لزبيدة أطول ساعة عاشتها في حياتها. هي من جاءت مستعرضة مظاهر ثروتها وجاهها، ساعية للتفرّج على نكبة أسرة طالما غبطتها، مظهرةً الشفقة والتعاطف، بل منتشية بالتكرّم عليها بمبلغ بسيط خبّئ في قاع حقيبتها، ها هي تُستقبَل بتعاظم وغطرسة تفوق ما كان عليه الحال أيّام حكم الإمبراطورية.

وتساءلت الأميرة عن الكيفية التي تستقبل بها السلطانة نمائم الناس وأحاديثهم عن فقرها، بل بؤسها. صحيح أنّ المنزل ليس واسعاً، لكنّ مجوهرات السلطانة وفخامة الاستقبال، حيث تتوالى المشروبات

والحلويات التي يسهر على تقديمها ثلاثة من الخدم المتأنّقين في أوانٍ فاخرة. كلّ ذلك لا يشي بالانزعاج. فكيف تصنع؟ سؤال مثير من المستحيل أن تطرحه عليها.

وما إن واتت الفرصة الأميرة لكي تستأذن بالانصراف حتّى شكرت السلطانة من دون أن تنسى مراسم التحيّة، بحيث انحنت وراحت تسير إلى الخلف من دون أن تولّي ظهرها للسلطانة المنتصبة فوق مقعدها وقد ارتسمت على وجهها ابتسامة ذات طيبة ملكية.

ما لم تسمعه الأميرة العاثرة الحظّ، وما لم تتخيّله، هي ضحكات خديجة سلطان المتعالية فور انصرافها.

ـ لن تصدق هذه البلهاء ما رأت عيناها! أظنّ أنّني لقّنتها درساً جيّداً، ومن ثمّة سنطمئنّ إلى أنّنا لن نتلقّى زيارات من هذا النوع مستقبلاً. هيّا يا أبنائي، تعالوا، ما ألذّ هذه الحلوى!

فهبّت سلمى وخيري وزينيل والقلفاوتان المتنكرتان في لباس الخدم إلى المائدة، وتبعهما رجل ضئيل أجلسته خديجة إلى يمينها، وملأت بنفسها صحنَه. إنّه صائغها الأرميني الوفيّ الذي أعارها العقد والأواني الفاخرة خصّيصاً لهذه المناسبة.

٣

تساءلت سلمى باندهاش وهي تنظر إلى الطابع البريدي العراقي: «رسالة لي أنا؟» من بعثها لها يا ترى؟ فهي لا تعرف أحداً هناك.

بينما كانت الصبيّة خارجة من البيت إلى المدرسة أوقفها ساعي البريد مع أنّه اعتاد أن يضع الرسائل في صندوق البريد الأخضر الذي يملك زينيل مفتاحه. وبادرها:

ـ ينبغي أن تدفعي عشرة قروش! خذي، وقّعي ها هنا. شكراً آنستي.

ثمّ انطلق على دراجته الهوائية مُصفِّراً في ضوء هذا الصباح الرائع من صباحات مايو/ أيار.

رازت سلمى الظرف بفضول، وبدا لها الخطّ الجميل الرشيق مألوفاً، ومع ذلك... سارعت إلى دسّه في جيبها: فقد تأخّرت عن امتحان الهندسة.

حثّت الخطو، وما إن انعطفت في زاوية الشارع، واختفت عن أنظار القلفاوتين اللتين تطلان من النوافذ، حتّى راحت تركض: أسرعي، لم يعد أمامك سوى عشر دقائق قبل أن يدقّ الجرس.

كانت المسألة سهلة. ولمّا خرجت التلميذات من قاعة الامتحان، مضين يتبادلن الإجابات فيما بينهنّ. أمّا هي، فلم تكن شغوفة هذا اليوم بالمثلثات متساوية الساقين وأشباه المكعّبات.

ـ اعذريني، إنّهم ينتظرونني.

بهذا النحو تخلّصت من أمل التي كانت متلهّفة للتأكد من إجابتها. لماذا قالت: «إنهم ينتظرونني» هي من تكره الكذب؟ من ينتظرها غير هذه القطعة من الورق المُخبأة في جيبها؟

وعوض أن تقصد البيت، انطلقت باتّجاه الكورنيش. مشت ببطء مستمتعة بالشمس. فهي تملك الوقت الكافي. كانت ترفض، وقد ارتسمت البسمة على وجهها، عروض باعة المثلجات والمشروبات الذين يربحون مالاً وفيراً خلال هذا الفصل. ووصلت إلى مكان غير بعيد من فندق باصول. هي تعرف زاوية هادئة هناك.

راحت تلعب بالرسالة وهي جالسة على مقعد خشبي. كانت تعجبها هذه اللحظة التي تسبق الأحداث المهمّة. تستطيع أن تتخيّل فيها العاشق الولهان الذي رمقها من بعيد، فبعث بالرسالة ليعلن عن حبّه، لكن حين ستفضّها، ستجدها آتية لا محالة من ابنة عمّ أو خال تحكي فيها عن حياتها التافهة، أو من خالة أو عمّة تعاتبها بلطف عن عدم مراسلتها، وانقطاع أخبارها عنها. أمّا أبناء الأعمام والأخوال، فلا يكاتبون أبداً.

وتفتح سلمى الظرف.

«بغداد في الفاتح من مايو/ أيار ١٩٢٦.

بنيتي العزيزة،

أبعث لك بهذه الرسالة كما لو أنّي أرمي بزجاجة في البحر. كتبت لك مراراً خلال السنتين الأخيرتين، لكن عبثاً. تُرى هل ضلّت رسائلي الطريق، أم أنّك أعرضت عن الإجابة؟

ينبغي أن تعلمي أنّ أباك في غاية التعاسة لأنه فقد سلمى بُنيّته. الخطأ خطئي طبعاً، لأنّني اخترت بلدي، اعتقاداً منّي أنّه بحاجة إليّ. يا لغروري...

ومنذئذ لا يكاد يمضي يوم من دون أن آسف على قراري. هل يمكن

أن تتفهّمي... وتصفحي؟ أشعر بوحدة قاتلة. تمنّيت لو كنت قربك بحيث أراك وأنت تكبرين. كنتِ طفلة فاتنة، ولا بدّ أنّك الآن فتاة يافعة جميلة.

فكّرت في أنك ربّما ترغبين أنت أيضاً في لقاء أبيك الشيخ بعد هذا الفراق الطويل. أنا الآن قنصل في بغداد، وهي مدينة رائعة، فهل يروقك أن تتعرّفي عليها؟ إن كان الأمر كذلك، فأخبريني حتّى أبعث لك فوراً بطاقتي سفر، لك وللقلفة التي سترافقك. بإمكانك أن تقضي هنا بضعة أشهر أو أكثر إن أردت. سيغمرني ذلك بسعادة لا مثيل لها.

أنتظر ردّك بفارغ صبر.

أبوك الذي يحبّك.

ملاحظة:

اشتقت أيضاً إلى خيري، لكن عليه أوّلاً أن ينهي دراسته. أعوّل عليك في تبليغ احتراماتي للسلطانة حفظها الله!»

أبتي...! أبتي...!

صعقت سلمى من الضغينة والسعادة... *لماذا تتصرّف معي هكذا؟ ماذا فعلت لك؟ تهجرني ثمّ تريد أن تستعيدني، أحببتني ثمّ كففت عن حبّي، وتعود فتحبّني من جديد... ماذا أمثّل لك إذن؟*

كان ثمّة طيف صغير جالس على المقعد، يحضن الرسالة متكوّماً وهو يبكي بكاءً مرّاً ولذيذاً في آن... أحببتك كثيراً وكرهتك كثيراً لأنّك لم تعد تحبّني!

انقبضت أسارير وجهها، وانفتح فمها ليصدر صرخة خرساء، وخيّم صمت خانق.

خفّف أحد المارة من سيره وقد أثارت فضوله هذه الفتاة التي استبدّ بها اليأس. لم تنتبه لوجوده. فالشيء الوحيد الموجود بالنسبة إليها هو هذا الشيء في يدها.

...*«تقول إنّك اشتقت إليّ؟ وأنا؟ هل تساءلت كيف تحمّلت بنتك*

العزيزة خيانتك؟ لأنك خنتني. شعرت منذ زمن بعيد بأنك تحلم بالاختفاء. وصار غيابك يتكرّر أكثر فأكثر، وكلّ شيء في البيت يرهقك. كنت تتوق لاستعادة حرّيّتك. أمّا النفي فلم يكن بالنسبة إليك سوى ذريعة.

أبي...

ما عتبت عليك إلا لأنّك غادرت من دون أن تقبّلني... لو أنّك تكلّمت، لكان كلّ شيء أسهل بكثير.

أظننتني لا أفهم؟ أتجهل طبعي إلى هذا الحدّ؟ لمّا تبلغ الفتاة الثالثة عشرة لا تعود صبيّة، فهي تدرك الأمور أحياناً أفضل من الراشدين الذين يتظاهرون بالجهل لحماية أنفسهم.

أمّا أنا فكنت أدرك الأشياء كما هي. كنت أسعى لأن أشعر بها مباشرة، وأن أنفُذ إلى أعماقها حتّى أميّز الأكاذيب والأضاليل، لكي أصل إلى... ماذا؟ لست أدري. كلّ ما أعرفه هو أنّ هذا هو المعنى الحقيقي للحياة، وأنّه ما من طريق آخر يقود إليه.

إن تحمُّلَ كلّ هذا أمرٌ بالغُ القسوة، يتطلّب كثيراً من القوّة... وأنا لا أكون قوية إلا حين أشعر بأنّني محبوبة. لذلك سلبتني قوّتي حين هجرتني من دون أن تقول شيئاً.

ليتك تعلم كم تعذّبت يا بابا...

ومن دون أن تشعر، صرخت. تراءت لها الشمس تدور من خلال دموعها، وأحسّت فجأةً بتعب شديد، ورغبة في أن تغور في الأرض، وتختفي في أعماقها بهدوء.

كم قضت من الوقت جالسة على هذا المقعد؟ لم تقرّر العودة إلى البيت إلا حين بدأ لون البحر يميل إلى الحمرة.

استقبلتها القلفاوتان بصرخات مجنونة: «أين كنت؟ ماذا جرى لك؟ أجُرحت؟»، وراحتا تحومان حولها كما لو أنّها كتكوت ضائع. أمّا زينيل

الذي كان في الصالون يحاول عبثاً الاتصال بمفوضية الشرطة، فظلّ فاغر الفم بينما انفجر خيري ضاحكاً:

ـ ألم أقل لكم إنّها ذهبت لتتنزّه! ما كان من اللازم أن تثيروا كلّ هذه الدوشة!

وأدركت السلطانة من نظرات ابنتها الغريبة أنّ أمراً خطيراً حصل.

ـ ماذا جرى يا سلمى؟

لكن الفتاة لم تسمعها، بل التفتت نحو زينيل، وحدجته بنظرة قاسية.

ـ من أخفى الرسائل التي بعثها لي أبي خلال سنتين؟

وخيّم صمت ثقيل. لأوّل مرّة يجرؤ أحد في المنفى على ذكر خيري رؤوف بك بحضور السلطانة. لكنّ سلمى لم تعد تحفل بقواعد اللياقة، وكرّرت سؤالها وقد استشاطت غضباً:

ـ من أخذ رسائل أبي؟ من؟

فقاطعتها السلطانة بفتور:

ـ عودي إلى رشدك أيّتها الأميرة، وكُفّي عن اتّهام زينيل. أنا من أخذت الرسائل ومزّقتها.

فمضت سلمى تنظر إلى أمّها مصعوقة.

ـ أنت يا أنيدجيم؟ ولكن لماذا؟ مع أنّك كنت تعلمين أنّ صمته يعذّبني!

ـ كنت ستتعذّبين أكثر!

واستعادت السلطانة هدوءها، فأمسكت بيدي سلمى.

ـ كنتِ ستتمزّقين يا بنيّتي. كنتِ ستطرحين على نفسك ألف سؤال. قدّرت أنّه من الأولى أن يكون الفراق بيّناً بما أنّه واقع. أعلم أنّ الأمر كان قاسياً في البداية، لكنّك استسلمت شيئاً فشيئاً بعدما تأكّد لك أنّه قدر محتوم، وبدأت تنسين.

ـ أنسى؟ آه يا أنيدجيم، كيف خطر لك أنّني يمكن أن أنسى أبي؟

فردّت السلطانة بتردّد:

تصرّفت على النحو الذي يراعي مصلحتك، و... ما زلت أظنّ أنّني على صواب: انظري إلى حالتك الآن!

...*ليس بسبب خطئك، بل عميتك!* وتلألأت عينا سلمى، فزمّت شفتيها. لا ينبغي أن تنطق بكلام يترك جراحاً لا تندمل... أتهرب؟... على أن الباب بدا لها في منتهى البعد... أتلوذ بغرفتها، وتغلق على نفسها بالمفتاح، ولا ترى أحداً... ولم تلبث أن انهارت على الأرض.

«ستقتلين أباك وأمّك!» ماذا كانت تقول الأمّ بارنابي، أهي الوصيّة السادسة أم السابعة؟

ـ ما أشبه رأسك بالمصفاة حقاً!

ـ نعم يا أمّ أشيليه.

ولكن حينما سيأتي جدي

سيُمسكك من رجليك

ويعلّمك

أن تردّدي في كلّ مكان

بأن السلطان مجنون.

كم أشعر بالبرد...

في الصباح بردانة

مثل شيطانة

في المساء حرّانة

مشنوقة في خزانة

ما أكثر الناس! من هؤلاء النساء المتدثّرات بالبياض اللواتي يبكين؟

وهذا الثقب الذي يتّسع أكثر فأكثر، أهو...؟ كلا، لا تدفنوني، فأنا لست ميّتة، توقّفوا!

ـ المسكينة، لا تعي أنّها ميتة.

ـ لكنّني لست ميّتة!

ـ وها هي تصاب بالجنون علاوة على ذلك! أيّ عذاب ستُسبّب لأمّها الرائعة! لم تتصرّف قطّ كفتاة عاقلة.

ـ ثم إنّ أباها مات من الحزن: هي من قتلته.

ـ كلام فارغ! أبي يحبّني! أنا بُنيّته العزيزة.

وتعالت القهقهات في الصفّ. حتّى أنت يا أمل تنضمّين إليهنّ؟

ماذا يُغنّين الآن؟ «ليحفظ الله الملكة»؟ هذا شيء لطيف! كيف؟ ألا يُغنّين هذه الأغنية من أجلي؟ ألست ملكة؟ بلى، بما أنّ أبي هو الملك فأنا ملكة. وأمّي؟ مسكينة ماما، ماتت وهي ما تزال في ريعان الشباب. لست أنا من قتلتها.

ـ أرجوك يا دكتور، قل لي الحقيقة، ستشفى؟

علا الشحوب سحنة خديجة سلطان. فهي تسهر منذ أسبوع على سلمى، وترفض أن تتركها ولو للحظة، كما لو أنّ حضورها هو ما سيحول دون استفحال المرض.

ـ لست أدري يا سلطانة. لقد تعرّضت الفتاة لصدمة، وهي أصلاً ضعيفة البنية. هل في الأسرة حالات مماثلة سابقة؟

ـ ليست مماثلة تماماً... لكنّ أبي كانت... تنتابه نوبات من الاكتئاب.

ـ المعذرة يا سلطانة، ينبغي أن أعرف الحقيقة: هل كانت تنتاب أباك نوبات هذيان؟

وشعرت خديجة سلطان بأنها توشك أن يُغمى عليها.

ـ لا علم لي. لمّا كانت حال أبي تسوء، كانوا يبعدوننا عنه. وقد شفي فيما بعد.

وانتصب الدكتور من جديد وقد اتّخذ هيئة لا تخلو من خيلاء.

ـ فأنت لا تعرفين إذن ما إذا كانت تصيب أباك نوبات من الجنون، وابنتك لا تعرف ذلك أيضاً في نظرك. هذا يفسر كلّ شيء!

ـ لم أفهم قصدك.

ويسوّي الدكتور نظارتيه، ويقول مباهيا:

ـ لا أظنّك سمعت بالدكتور فرويد. طبيب نفساني نمساوي أحدثت نظريّاته ثورة في مجال الأمراض العقلية. وقد درستها، وقارنتها مع ملاحظاتي الشخصية، واستخلصت خلاصات عمليّة لا أخفيك سروري بها.

ثمّ رفع صوته وأضاف بنبرة متفاصحة:

ـ فحسب الدكتور فرويد، وهو ما أراه أنا أيضاً، يمكن القول إنّ ابنتك تواجه مشكلة لا تعرف كيف تحلّها. وهي حالة عادية، كلّ شخص يتجاوزها بأسلوبه الخاص، عن طريق الانغماس في اللذة أو العمل أو الكحول أو شيء من هذا القبيل. لكنّ بعض ذوي الإحساس الرهيف قد يختارون الجنوح إلى الجنون.

ـ أيختارون ذلك؟

ـ أجل يا أميرة. يمكن القول إنّ الأمر يتعلّق باختيار، رغم أنّه ليس واعياً تماماً. هناك درجات من الوعي، وهنا تتجلّى براعة الدكتور فرويد! إنّها فكرة ذكيّة، أليس كذلك؟

ـ ولكن... بنتي؟...

كان الطبيب مستغرقاً في خطبته، فلم يسمع سؤال السلطانة، واسترسل يقول:

ـ كنت أقول: لماذا هذا الاختيار وليس اختياراً آخر أكثر «معقولية»؟ الواقع أنّه قد تكون خلفه دوافع متعدّدة، وربّما يعود أحياناً إلى تأثير شخص يُعجب به المريض، ويتماهى معه. هذا هو ما يبرّر سؤالي عمّا إذا كانت ابنتك تعرِف بنوبات الجنون التي كانت تنتاب جدّها. فإذا كان الجواب بالإيجاب ـ علماً بأنّ الخدم لا يحفظون سرّاً ـ، أمكن أن نأمل في ألا يدوم هذا التماهي طويلاً. لأنه ليس متمكّناً بل قائم على «ربّما». فإذا ما خفّت التوتّرات، أستطيع أن أؤكّد لك، أنا الدكتور أوخان، بأنّ هذا التماهي المؤذي سيختفي من تلقاء نفسه.

وهنا صار صوته خفيضاً.

ـ لكن ثمّة دوراً ينبغي أن تضطلعي به يا سلطانة.

ـ مستعدّة لفعل أيّ شيء يا دكتور، هيّا قل لي...

ـ احرصي على ألا تفعلي شيئاً! اخلدي للراحة، واتركي الأهل يعتنون بابنتك. فرغم كونها في هذه الحالة، وربّما بسبب أنها في هذه الحالة، فهي تشعر بتوتّرك، وهذا يفاقم إحساسها بالذنب اتّجاهك. هي لا تعرف كيف يمكنها أن ترضيك من دون أن تسيء لأبيها، والعكس بالعكس. لهذا فهي تهرب من الواقع. نصيحتي هي أن تتركيها لحالها.

ـ تعتقد أن وجودي إلى جانب سريرها يؤذيها؟

ـ أنا لا أعتقد، بل أجزم، مع احتراماتي يا سلطانة.

مضت السلطانة تذرع صالونها جيئة وذهاباً وهي تميز من الغيظ.

ـ هذا الطبيب حمار، وهو إلى ذلك شخص سمج! كيف يؤذي حبّ أمّ ابنتها؟ لمّا أراهم يعتبرونه أفضل طبيب نفسي في المدينة...!... وما العمل الآن؟

فجازف زينيل بالقول من دون أن يجرؤ على النظر إلى سيّدته:

ـ إذا سمحت يا سلطانة، فمع أنني لا أصدّق كلمة من هرائه، أنت

بحاجة إلى الراحة، فالتعب واضح عليك. لا تشغلي بالك، سأسهر على الأميرة وسأخبرك بأيّ طارئ.

«عليك أن تكفّري عن خطيئتك!» وخرجت أشباح بلا شكل من الجدران البيضاء، وأحاطت بسلمى.

ـ ولكن، ماذا فعلت؟

ـ ها ها ها! تسأل عمّا فعلتْ!...

ـ يا له من ضحك أبله! حذار من إغضابهم.

وقالت بصوت اجتهدت في أن تجعله ألطف ما يكون:

ـ أقسم لكم أنّني لا أعرف.

ـ لن تعرفي أبداً، هذه هي عقوبتك: أن تعرفي أنّك ارتكبت جرماً شنيعاً، ولكن من دون أن تعرفي طبيعته.

ـ لست أفهم قصدكم...

ـ الأمر في منتهى البساطة: إن عرفت خطأك وعوقبت به، تكون العقوبة تكفيراً عنه. بحساب بسيط، تضعين في الميزان الأذى الذي تسببت فيه والأذى الذي حلّ بك، وبعد مدّة تقدّرين أن ذمّتك برئت. الأمر في غاية البساطة: بفضل العقوبة يزول الجزع والقلق، وتعود الأمور إلى نصابها. هكذا فنحن لن نعاقبك: أنت تستحقّين الجحيم، والجحيم هو غياب العقاب.

فقالت سلمى متضرّعة ومرعوبة:

ـ كلا، أرجوكم لا تفعلوا بي هذا!

وحاولت أن تمسك بقطعة من الظل، لكنها، لم تستطع الحراك مهما حاولت.

وقالت متأوّهة:

ـ أريد أن أموت.

ـ ألم تسمعي ما شرحنا لك؟

وتستطيل الأصوات بصفير حانق.

ـ ما هو حقيقي لا وجود له في عالمنا، ولا حتّى في غرفتك أو بلدك. لا يوجد موت ولا حياة، لا حقّ ولا باطل، لا بداية ولا نهاية. وما اقترفته في نهاية المطاف، لا أهمية له، لأنه لا وجود لطيّب ولا خبيث في هذا العالم، لا عدل ولا ظلم. إنّه عالم لا نهائي، ومن ثمّة فهو بلا قواعد.

فقاطعتهم سلمى قائلة:

ـ إذا لم يكن لِما اقترفت أهميّة، فلماذا لا تسامحوني!

ـ إنّها فكرة ثابتة! اعلمي أنّنا حتّى لو أردنا، لا نستطيع. ميزتنا هي أنّنا أحرار تماماً، وهذه الحرية تمنعنا من اتّخاذ أيّ قرار. نحن أشبه بميزان لا يثقله شيء.

دفنت رأسها في وسادتها، وقالت مستنكرة:

ـ كلّ هذا لا معنى له!

ـ ربّما، ولكن أعرفت أنت يوما كلاماً ذا معنى؟ كيف لكلماتكم البئيسة التي صاغتها عقول قاصرة أن تستوعب الحقيقة؟ لا تفكّري في ذلك، واستمرّي في لهوك، ولا تحاولي الخروج من صندوقك الثلاثي الأبعاد. فمن حاولوا ذلك كفونا أمر التدخل لمنعهم، لأنّ إخوانهم حبسوهم خلف القضبان، واعتبروهم مجانين، بل أحرقوهم أحياناً أو صلبوهم.

صدّقيني، من الأفضل أن تبقي هادئة في مكانك. لعلّه مملّ ومحدود، هذا صحيح، لكنّك تعرفين أنّ اللانهائي مملّ أيضاً، عبارة عن فضاء لا حدود له، بلا جدار يمكن الاستناد إليه، ولا أبواب يمكن إغلاقها، وقد يموت المرء من البرد من دون أن يجد غطاء يتلحّف به، وما من شيء يحدّ شيئاً. فهذا اللانهائي شيء مرهق في نهاية المطاف.

«...نامت أخيراً. كم هي متورّدة ومبلّلة بنتي الصغيرة المسكينة!...»

وسحب زينيل الغطاء برفق على سلمى ليحمي جسمها النحيل، ليس من برودة غير متوقّعة، بل من تأثيرات سيّئة يشعر بها تحوم حولها. لمّا كانت تصرخ قبل قليل، وتتصارع مع الأشباح، أمسك الخصي مصحفه باليد اليمنى، وأشعل جميع الأنوار، وراح يفتّش كلّ الخزنات. رغم ما يُقال هذه الأيام من أنّ الأشباح من خلق عقول النساء الساذجات، فإن زينيل ما زال يذكر كيف أنّ الناس في قريته بألبانيا لم يكونوا ينامون من دون أن يضعوا عند باب الغرف خبزاً وفواكه لصرف الأرواح الجائعة عن الدخول. وكثيراً ما كانوا في الصباح لا يعثرون على شيء ممّا وضعوا.

ولامس بسبابته الممتلئة خدّ المراهقة، فاقشعرّ بدنه لهذه الجرأة. ماذا سيقول لو فاجأه أحد وهو على هذه الحال وسأله عن هذه الوقاحة؟ أهي لحظة شرود أم نزوة كهل في لمس بشرة طريّة؟ حتّى لو عُذّب، فلن ينطق بالحقيقة أبداً!... إنّه لسرّ رهيب ولذيذ، بمقدار ما ينهشه فهو يسحره، ويجعله حتّى في أحلك المحن ينتصب مثل ملك أو إله أو رجل!

ـ بابا!

وانتصبت سلمى وهي تصرخ عالياً وقد ابيضّت عيناها من الفزع.

ـ لا تقتلني! أبعد عنّي هذا الخنجر، أنا ابنتك الصغيرة. ألا تذكرني؟ انظر! سأنزع هذه البشرة!

ومضت تخمش وجهها باهتياج وهي تدفع بقوّة الخصيّ الذي حاول شلّ حركتها.

ـ انظر، هذه أنا! ألا تذكر رضيعتك الصغيرة؟

وتكوّمت على نفسها واضعة ركبتيها تحت ذقنها وشدّت ذراعيها حول كتفيها.

ـ أما زلت تراني؟ فأنا أنكمش بسرعة، وما هي إلا هُنيهة حتّى أصير مجرّد صدفة وردية يمكنك أن تحملها في جيبك. أعدك بأنّني لن أزعجك. ولكن قل لي، أستداعبني بين الفينة والأخرى؟

ـ نعم يا صغيرتي، سأداعبك، لا تخافي...

ووضع زينيل يده بمنتهى اللطف على جبين المراهقة التي تئِن.

ـ إنّهم يدقّون مسامير في رأسي لكي يمنعوني من التفكير. بابا لا تتركني!

ـ أنا هنا معك يا دجيجيم، اهدئي، لن أتركك أبداً.

تشبّثت به وضغطت نفسها إليه وهي ترتعش.

ـ إنّني أحبّك كثيراً، ولا أحبّ أحداً سواك!

وحضنها وقد شوّش الانفعال عينيه الواسعتين، ومضى يهدهدها بحنان:

ـ لو تعلمين كم أحبّك! مثلما لم يحبّ أب فلذة كبده قطّ...

أب... هو من تسخر الخادمات منه خلسة... أحَلِم بذلك تلك الليلة المباركة أم عاشه حقّاً... قبل ستّ عشرة سنة؟

كانت سلطانته نائمة في سرير واسع تحيط به ستائر من ضباب، وهبّت ريح شديدة عصفت به وحملته إليها، إلى عشيقته وملكته. ووضع هذا الرجل المجهول، زينيل، الذي شعر بنفسه أشدّ حرية وأقرب إلى نفسه أكثر من أيّ وقت مضى، وضع شفتيه على الجبين الأبيض. وأحسّ بما يشبه الانبهار... ولم يعد يذكر شيئاً ممّا وقع بعد ذلك.

وبعد تسعة أشهر من ذلك، ولدت سلمى. وانبهر الجميع بشدّة شبهها لخيري بك. ولزم زينيل الصمت، لكنّه شعر بنداء يدعوه إلى هذا الكائن الصغير، كما لو أنّه قطعة قدّت من لحمه.

لطالما صدّ هذه التخيّلات المجنونة، لكنّها صارت تلحّ عليه أكثر فأكثر في السنوات الأخيرة، لاسيما بعد أن جعل منهم المنفى... أسرة واحدة.

واليوم، ها هي ابنته الصغيرة تناديه. ولكي يتأمّلها جيّداً، انفصل عنها قليلاً وهو مشوّش البال.

ـ حبيبتي سلمى!... أنت معجزتي وهالتي، وهِبَة من الله لا تُصدّق. أنت دمعة ذرفها الإله على شقائي...

أمّا الصبية فكانت تصغي إليه بافتتان.

ـ واصل يا بابا! قل أشياء جميلة...

ـ أيّتها الزهرة الصغيرة، يكفيك شعاع شمس واحد لكي تتفتّحي... فارتاحي على كتف باباك. أتفهمين الآن؟

فهمست وعيناها نصف مغمضتين:

ـ نعم.

ـ يا له من عذاب! ولكن ماذا عساني أقول لك؟ لن تصدّقيني. كان يلزم أن تكتشفي بنفسك سرّنا.

ـ سرّنا؟

تكوّمت على نفسها أكثر، وتنفّست الصعداء.

ـ عديني بأنّك لن تفشي السرّ. سيعتبروننا مجنونين. وهل يؤمن الكفّار بقدرة الخالق الجبار على إيتاء المستحيل؟

وانتصب الخصي. ذلك أنّ تذكّر هذه المعصية جعل دمه يغلي من الغضب. وفتحت سلمى عينيها مندهشة: لماذا امتقع لونه فجأة؟ لماذا يتحدّث بصوت مرتفع؟

ـ يقولون إنّنا مجنونان. لا شأن لنا بحكمتكم يا ديدان الأرض التي تَعْمَه في ضلالها!

وأمسك بيدي سلمى.

ـ باركي معي الجنون يا ابنتي. إنّه الطريق الملكيّ إلى اللانهائية، إلى النقطة الأخيرة التي يلتبس فيها كلّ شيء، ويتّضح كلّ شيء... لنشكر الله على أنّه أعاننا على الحركة، ولنحمده على هذه القطرة من الزئبق التي

تدور في رأسينا المربّعين. فلتتضاعف ولتنفجر إلى ألف شظيّة مومِضَة! فليسطع النور يا رحمان!

ـ لو تعلم أيّ حلم غريب رأيت يا زينيل...

وتمطّت سلمى وهي تتثاءب باستمتاع وقد تورّدت، ثمّ قالت:

ـ كم الساعة الآن؟ أموت من الجوع. هل الجوّ جميل؟ صباح الخير يا ليلى هانم، هل يمكن أن تجلبي لي شيئاً من مربّى التوت؟

ـ مربّ...

واتسعت عدقتا القلفة من الدهشة وفغرت فاها.

ـ أتُراكِ تعرّفت عليّ يا أميرة؟

فردّت عليها سلمى باستغراب:

ـ أتُراني عرفتك؟ إنّك ليلى هانم. أأنت بخير؟

ـ ما شاء الله! ما شاء الله!

وانطلقت القلفة جارية وهي ترتعش من الانفعال.

ـ شُفيت الأميرة يا سلطانة! شُفيت الأميرة!

ـ ماذا تقول؟ أكُنتُ مريضة؟ ماذا أصابني يا زينيل؟

ـ لا شيء ذا بال... مجرّد وعك خفيف... أشبه بالزكام، هذا كلّ ما في الأمر.

ـ كم تسيء الكذب يا زينيل! هذا شيء مُخزٍ بالنسبة لرجل طيّب مثلك!

ـ لماذا تنظرين إليّ هكذا يا أنيدجيم؟

ودخلت السلطانة إلى الغرفة.

ـ أخبريني، ماذا جرى؟

لماذا تضمّها أمّها بين ذراعيها بهذا الحنان غير المألوف؟

ـ شيء من الحمّى يا حبيبتي، هذا كلّ ما في الأمر.

لاذت الفتاة بالصمت. لماذا تخفي عنها السلطانة الحقيقة؟ لا بدّ أنّ أمراً خطيراً وقع. وبذلت قصارى جهدها لتتذكّر: لا شيء، لا تذكر شيئاً... باستثناء ذلك الحلم الذي كان يقول فيه زينيل... ولكن ماذا قال؟

لم تقرّر سلمى الردّ على رسالة أبيها إلا بعد مرور شهرين. أخبرته بأنّها لا تستطيع الذهاب إلى بغداد بسبب الدراسة... ولكن لماذا لا يأتي هو لزيارتها في بيروت؟ وكتبت له «هذا يُسعدني». أهذه هي العبارة المناسبة لوصف انقباض قلبها وغزارة دموعها؟ أما بقيّة الكلمات، فلن تكتبها... عبارة «يسعدني» المخطوطة على مئات بطاقات الدعوات تتّسم بالالتباس، ولا تحيل على شخص محدّد، ليفهم منها أبوها ما شاء له أن يفهم.

وما إن مضت بضعة أسابيع حتّى عادت لها رسالتها مرفوقة بكلمة من السفير: لقد استقال خيري بك من منصبه وغادر البلاد. لم يعد إلى الأستانة، ويُجهل عنوانه.

صُعقت سلمى للخبر، وظلّت تحدّق في الحروف السوداء المكتوبة على الورق الأنيق ذي اللون العاجي... ها هي تفقده من جديد، وهذه المرّة بسبب خطئها.

لم تشعر بالرغبة في البكاء. كلّ ما شعرت به هو البرد.

٤

يمكن للمرء أن يشاهد مرفأ بيروت بهدوء من أعلى صخرة مشرفة على البحر بشاطئ مينة الحصن. ففي كلّ يوم خميس تُفرغ سفينة «بيير لوتي» القادمة من الأستانة ما تحمله من ركاب. ولا تكاد تمضي بضع ساعات حتّى تكون قد امتلأت بالسلع والمسافرين، فتنطلق من جديد نحو العاصمة حاملة معها أحلام مراهقة جلست وقد أسندت ظهرها إلى الجدار الصخري وهي تتابعها ببصرها إلى أن تختفي في الأفق.

كانت سلمى في البداية تنزل حتّى المرفأ حيث تذوب في الزحمة، وتترك الناس يدفعونها ويهدهدونها وقد أغلقت عينيها محاولة استحضار أصوات بلدها وروائحه، حتّى إذا شعرت بأنّها تشرّبتها، تسمح لنفسها عندئذ بأن تكتفي بالنظر.

يتهيّأ لها أنّها تعرف كلّ هذه الوجوه، فتروح تتأمّلها بهمّة واحداً واحداً، محاولة أن تلتقط في النظرات صوراً تحدّثها عن مدينتها، وأن تعثر في بسمة من الابتسامات المشبعة بالحنين على روعة غروب الشمس في القرن الذهبي. وتجد عنتاً كبيراً في أن تتمالك نفسها من أن تسأل: «هل الناس سعداء في الأستانة؟»، أو من أن تستجدي كسرة خبز بالسمسم بارز من إحدى السلل، أو تشحذ وردة ذابلة...

كانت تحدّق بعينين بائستين في هؤلاء المسافرين المجلّلين بتخيّلاتها، الذين يمرّون بمحاذاتها وقد ملأهم الاستغراب والتذمّر.

بعد ذلك صارت تفضّل أن تلوذ بصخور هذا الشاطئ المُقفر. وهكذا

استعادت حُلمها بعيداً عن هذا الحشد الذي يفضي بسرّه، وعن هذا العملاق الحفيّ الهادئ. وظلّت لشهور تعود إلى هذا المكان فيما يشبه الحج. لم تشأ أن تنسى، إذ لا يحقّ لها النسيان...

وشيئاً فشيئاً فقدت سفينة «بيير لوتي» بريقها، ولم تعد تختلف في شيء عن غيرها من السفن، مثلما صارت وجوه ركابها عاديةً وراضية شأن وجوه ركّاب أيّ سفينة قادمة من أيّ ركن من العالم. وأجهدت نفسها طيلة أسابيع لكي تستعيد ذلك الشعور والعذاب اللذين يطمئنانها، ويصلانها بسلمى التي كانتها من قبل، لكن عبثاً. يساورها الآن شعور بأنّها فقدت كلّ شيء، بما في ذلك حزنها.

ولم تتساءل عمّا إذا كانت تأتي إلى هذا المرفأ لكي تغذّي عذاباتها أو بالعكس من أجل التخلّص منها، والتحرّر من إسارها.

لم يرْتَب أحد في البيت من هذه النزهات الأسبوعيّة. فقد كان يوم الخميس يوم عطلة، وكانت تزعم أنّها تمضيه مع أمل في بيتها. كانت قلفة ترافقها إلى هناك في الصباح، ولا تعود إليها إلا عند الغروب.

تعيش أمل مع أخيها مروان الذي يكبرها بثلاث سنوات في منزل ضخم يقع وسط حيّ الدروز. وقد أودت ذبحة صدرية بحياة أمّهما لمّا كانا ما يزالان طفلين. وبعد مرور بضع سنوات مات أبوهما إثر سقوطه من صهوة حصان، وهو ما دعا إحدى العمّات إلى المجيء للاستقرار في المنزل الكبير الواقع في شارع مار إلياس لكي تعتني باليتيمين. ولمّا كانت شديدة المحافظة، فقد ربّتهما تربية تقليدية. ولم يكن في المدرسة من تتقن انحناءة الاحترام، أو تتورّد عندما يخاطبها راشد مثلما كانت أمل. على أنّ العمة كانت طاعنة في السنّ، تمتدّ بها القيلولة إلى وقت الغروب، ما يترك لهاتين الصبيّتين شيئاً من الحرّيّة.

وبما أنّ أمل طفلة وحيدة، كانت تفهم حاجة سلمى إلى الوحدة. لم تسألها قطّ عن نزهاتها السرّيّة. وكانت تكتفي بالإمساك بيد صديقتها لمّا

تعود محمرّة العينين أحياناً، متورّمة الجفنين، وتقبّلها من دون أن تنبس. ولمّا كانت أمل لا تسألها عن شيء من ذلك، بدأت سلمى تبوح لها شيئاً فشيئاً. حدّثتها عن أبيها، واعترفت لها بأنه لم يمت كما أوهمتها، وأنه منذ غادر العراق، لم تعد تأتيها أخباره إلا كلّ بضعة أشهر، عبر رسالة يبعثها من الطرف الآخر من العالم.

ـ جاءت الأولى من البرازيل والثانية من فنزويلا. وبالأمس توصّلت بواحدة من المكسيك. لا أستطيع الإجابة على رسائله، لأنني لا أعرف عنوانه. وعدني بأن يبعثه لي بمجرّد ما يستقرّ. أمّا الآن فهو يتجوّل بين البلدان بسبب أعماله. قال إنّ أمريكا الجنوبية قارّة رائعة، يستطيع فيها المغامرون أن يصيروا أثرياء، وأنّه عمّا قريب سيبعث في إثري لأنه يرغب في أن يعيدني إلى حياة الأميرات من جديد... لم يسألني قطّ عن رغبتي.

وهل تعرف هي نفسها فيما ترغب؟ كلّ شيء يبدو لها لا واقعيّاً؛ هذه الرسائل التي لا تنتظر جواباً، وهذا الأب المنفلت، وهذه المشاريع العظيمة، وهذه الوعود...

ـ أتمنى أحياناً أن يكفّ عن مراسلتي، حتى لا أعيش هكذا بين الأمل واليأس... لكنّه إن لم يراسلني، أظنّه...

وأضافت بصوت لم يكد يُسمع:

ـ تصوّري يا أمل، أنّني أحبّه... وحين أفكّر في أنه قادر على التخلّي عنّي من جديد... أجد نفسي فجأة أكرهه، وأتمنى موته.

ووضعت رأسها بين يديها بعنف، ثمّ قالت:

ـ لا أستطيع أن أحتمل ألا يُحبّني! ما عدت أعرف شيئاً عن حالي ولا فيما أفكّر!

وطوّقت أمل كتفي صديقتها، وطبعت قبلة نديّة على جبينها. وظلّتا متعانقتين فوق الأريكة حتّى المساء. ولم تقل أمل شيئاً لأنها كانت تدرك بالفطرة أنّ الكلام لن يزيد جرحها إلا إيلاماً، وأن كلّ تشجيع، أمام هذا

الألم، سيكون غير لائق، وكلّ نصيحة سيكون لها وقع الشتيمة. فما تحتاجه صديقتها، وما هي مستعدّة لتقديمه لها، هو الحبّ.

ولما جاءت القلفة في آخر النهار لمرافقة الأميرة، لم تلحظ شيئاً. كانت سلمى مرتاحة وهادئة. فقد أعاد لها حنان أمل عنفوانها.

ثمّة عربة تنتظر أمام باب الحديقة الصغيرة الحديدي. من جاء لزيارة السلطانة؟ فهي قليلاً ما تستقبل زوّاراً في بيتها منذ أن صدّت نساء بيروت المتبجّحات! وقد كانت سلمى فخورة بكون أمّها رفضت الانخراط في هذه اللعبة، لكنّها تتساءل أحياناً عمّا إذا لم تكن تؤدّي ثمن ذلك غالياً. فهي تعاني من الوحدة. هي من كان قصرها ـ قصر أورتاكوي ـ لا يفرغ، ومن كانت توزّع وقتها بين الأعمال الخيرية والمناقشات السياسية ومجالس الأسرة، ولقاء الصديقات، هي من كان تحت إمرتها جيشٌ من الإماء والخدم، وتسهر شخصياً على تسوية مشاكل كلّ واحد منهم، ها هي تجد نفسها منذ سنتين حبيسة هذا المنزل، ليس لها من رفقة سوى قلفاوتين وخصي... والحقيقة أنّ زينيل لم يكن مجرّد خصي، بل صار أمين البيت وكاتب السلطانة ومستشارها في كلّ ما يتعلّق بالحياة اليومية، وهو أيضاً صديقها. أكان أمين سرّها؟... تعرف سلمى أمّها حقّ المعرفة. فرغم ما تشعر به من يأس، لن تظهر الضعف أبداً... أمام تابع من أتباعها، ليس تكبّراً، فمنزلة زينيل عندها أعلى من منزلة عدد كبير من أمراء أسرتها، بل لتشبّثها بنسق جامد من القيم، راسخ بحيث لا يستطيع شيء أن يحرّكه: لا يليق أن يطلب المرء العون ممّن يُفترض أنّه يحميهم. يمكن أن يقتسم معهم أفراحه، لكنّه لا يقتسم معهم أبداً أتراحه.

أبصرت شخصاً جالساً في الصالون، جليل المظهر، أسود الشعر: إنّها نائلة سلطان، بنت السلطان عبد الحميد. لم تكن الأسرتان تتبادلان الزيارات في الأستانة، لكنّ المنفى قرّب بينهما. ما أقلّ عددهم في بيروت! ذلك أنّ معظم الأمراء والأميرات تبعوا الخليفة إلى نيس حيث أنشأ بلاطاً صغيراً. إلى هناك توجّه الخال فؤاد، إلى بلد «النساء

الجميلات» كما يقول، ليخفي خيبته، وكذلك السلطانة الفراشة التي طالما حلمت بزيارة الكوت دازور. وكثيراً ما كانت سلمى تتذكّر هذه الخالة، البالغة المرح والأناقة، والتي كانت من شدّة أناقتها تناسب أحياناً بين لون فرش عربتها ولون فستانها. كيف تُراها الآن؟ أهي سعيدة في فرنسا؟ وتجد المراهقة صعوبة في أن تتخيّل حياتها هناك. وبينما لم تكن أخبار فهيمة سلطان تصلهم إلا نادراً، كانت فاطمة سلطان تراسلهم باستمرار. فقد استقرّت مع زوجها وأبنائها الثلاثة في صوفيا، وهي تعيش حياة هادئة، تستنير بحضور شيخ كبير من شيوخ الدراويش، تواظب على زيارته عدّة مرّات في الأسبوع، بمعيّة رفيق بك. كتبت تقول: «كلّما تقدّمتُ في هذا الطريق، زادت لا مبالاتي بما عداه...».

«ما عداه» ـ أيّ المنفى والعودة المنشودة ـ هو ما كانت تخوض فيه خديجة سلطان مع ابنة عمّها الأميرة نائلة. فالأخبار الوافدة من الأستانة لا تبشّر بخير. ذلك أنّ مصطفى كمال، اعتقل أبرز معارضيه بدعوى التآمر عليه. وبعد محاكمة صورية، أعلن فيها القاضي «علي الأصلع» للصحافة أنّ الإدانة ثابتة في حقّ المتهمين على كلّ حال. وهكذا نُصبت المشانق، ونُفّذ حكم الإعدام صباح السابع والعشرين من آب/أغسطس سنة ١٩٢٦. وهو خبر نقلته إذاعة لندن موضّحة أنّ البلد هادئ، وأنّ «محاكم الاستقلال» تُعقد في كلّ مدن تركيا.

علقت خديجة سلطان بحنق:

ـ ألم يبق أحد من أولئك الأبطال الذين ناضلوا من أجل استقلال تركيا؟

ـ على كلّ حال بقي الوزير الأوّل عصمت إينونو. لُقّب بـ«سوط الغازي» لأنه بالغ القسوة مع من يخرجون عن الخط. وقد اختار كثير منهم، أمثال رؤوف باشا ورحمي والدكتور عدنان وخالدة أديب، المنفى منذ بضعة أشهر. أدركوا بعدما حلّ كمال الأحزاب السياسية أنّه لم يعد لهم مكان هناك، وأنّ حياتهم في خطر.

فقالت السلطانة وهي تتنهّد:

ـ مسكينة تركيا. لمّا أفكّر في أنّ هذه الحكومة بلغت بها الوقاحة إلى حدّ تغيير اسم الله باسم «تنري»، وإجبار الناس على الصلاة له في المساجد بدعوى أنه اسم أشدّ تركية!... ولقد انتظرت طويلاً أن يتحرّك شعبنا، لكنّني اقتنعت الآن أنّه مكبّل تماماً...

وخفت صوتها وهي تقول:

ـ ويبلغ بي الأمر إلى أن أتساءل عمّا إذا كنا سنعود إلى بلدنا يوماً...

كانت هذه هي المرّة الأولى التي تعترف فيها السلطانة بشكوكها. اقتربت منها سلمى وقد تشوّش ذهنها، وقبلت يد عمّتها، وجلست على الوسادة إلى جوار أمّها.

ـ سنعود طبعاً إلى بلدنا يا أنيدجيم! كلّ الناس في الأستانة غاضبون، الطلبة والمثقفون ورجال الدين، لا سيما التجّار! تذكّري ما كتب ميمجيان آغا إلى ابن عمّه: جميع تجّار البازار ناقمون على النظام، ولمّا يشرع البازار في التحرّك، يكون القادة في خطر. سنعود قريباً إلى تركيا، سترين يا أنيدجيم!

كانت المراهقة تتحدّث وقد أجهدت نفسها لتجعل نظرتها تعكس بأنّها مقتنعة كلّ الاقتناع: لا ينبغي أن تفقد أمّها الأمل. أمّا السلطانة فمسحت على شعرها الأحمر بحنان.

ـ أنت محقّة يا بنيّتي. تنتابني في بعض الأحيان نوبات من الحزن، لهذا لا تأبهي بما قلت.

وشعرت سلمى بقلبها ينقبض: أمّنت على كلام أمّها حتّى لا تحزنها. فرغم أنّهما تمثّلان بعضهما على بعض، هما تعرفان معاً الحقيقة... تعرفان؟ وتنتصب من الحنق، وتتساءل: ماذا تعرفان؟ لا شيء! كلّ ما في الأمر أنّهما تتجرّعان الهزيمة. على أنّ سلمى تأبى أن تعترف بذلك!

كانت أنيدجيم تقول في السابق: «ينبغي على المرء أن يكافح، فكلّ شيء ممكن».

تملّكها غيظ شديد فقامت واقفة، وأحسّت فجأة بحاجة ملحّة لأن تناضل، كما شعرت بنار متّقدة في صدرها، إن هي لم تعبّر عنها، ستخنقها. ماذا لو لحقت بخالدة أديب أو رؤوف باشا؟ ماذا لو حاولت العودة إلى تركيا متنكّرة؟ ماذا لو انضمّت إلى آلاف الغاضبين ونظموا جميعاً صفوف المعارضة؟ كلّ شيء ممكن!

ظلّت صاحية إلى ساعة متأخّرة من الليل ترسم خطط المعركة. جلست إلى مكتبها الصغير تسوّد في مذكراتها الصفحة تلو الصفحة. كم ردّدوا على مسامعها: حسبُ المرء أن يملك العزيمة لكي يبلغ هدفه! وهي عازمة على العودة إلى الأستانة، ومصمّمة على عدم الاستسلام!

ومن خلال النافذة المفتوحة وصلها عبق الياسمين المُسكر، فاستنشقته بملء رئتيها، وتنسّمت حرارة الليل، واستسلمت لهبّات نسيم عليل داعب بشرتها بينما اخترق كيانها كلّه صرير الجداجد. ثمّ ذاب جسدها تدريجياً في العتمة الزرقاء، فشعرت بأنّها صارت هائلة... وأنّها تحلّق ببطء مع النجوم، فتلاعبها وتذوب في ضوئها المتلألئ، ولا يعود شيء يفصلها عن هذا الجمال الذي اتّحدت به...

وهكذا لم تنم إلا عند الفجر راضية مبتهجة.

وعاشت سلمى الأيام الموالية كما لو أنّها في حلم. الآن بعد أن «عرفت»، صارت المشاكل اليومية تبدو لها تافهة! كلّ من كان يراها في البيت أو في المدرسة، يُعجب من ابتهاجها. هي من كانت تثور لأبسط ملاحظة صارت في منتهى السماحة. هي من كانت سريعة التبرّم من كلّ القواعد والتمرّد عليها، ها هي تبدو بالغة الترفّق كما لو أنّ الأبدية بين يديها. وحتّى أمل نفسها لم تعد قادرة على تخمين ما تخفيه هذه الابتسامة المتدثّرة بلطف غير معهود، كما لو أنّ صديقتها لم تعد حاضرة هناك.

ثمّ استيقظت ذات صباح منهكة قانطة من دون سابق إنذار. جالت ببصرها في غرفتها المؤثّثة على نحو عاديّ، وقالت في نفسها: «هذا هو الواقع!» واجتاحها اليأس دفعة واحدة، فارتمت على وسادتها وراحت تنتحب. لشدّ ما تكره لبنان! هذا البحر الأزرق وهذه الشمس العنيدة وهذا المرح! لشدّ ما تكره كلّ هؤلاء الناس الذين يستضيفونها في «بلدهم»، كلّ من يستطيعون أن يقولوا «أهلنا، بلدنا، وطننا» من دون أن تنتابهم الرغبة في البكاء، كلّ من لهم انتماء... لن تعود إلى الأستانة أبداً، ولن تنتمي أبداً إلى... لقد كانت تكذب على نفسها كلّ هذه الأيام: لا يمكن للمرء أن يناضل إلا لمّا تكون له أرض يقف عليها، أرض يسقط عليها ويقوم من سقطته. لكن، لمّا لا يجد كلّ ما يحيط بك صدى في نفسك، لمّا لا تستطيع يداك أن تمسك شيئاً في ملكيّتك، لمّا يُحكَم على كلامك أن يكون مجرّد ضجيج... كيف لك أن تناضل؟ ضدّ ماذا؟ وضدّ من؟

كانت تُمنّي نفسها بالأوهام، والأحلام بالنسبة لمن هو في المنفى ليست مشاريع، ليست سوى سبُل للهروب. هي من كانت تظنّ نفسها شجاعة، وتمقت من يتكيّفون مع «الواقع»... ألا يكون معنى الشجاعة هو القبول بالواقع كما يزعمون؟ لم تعد تدري، ولم تعد تعرف فيما تفيد الشجاعة، ولِما ينبغي للمرء أن يبتسم حين تستبدّ به الرغبة في الصراخ. كلّ ما تعرفه هو: حتّى الحيوانات تملك وكراً أو إقليماً لا تستطيع العيش من دونه.

ـ ولكن، من سرق البسمة من وجه ابنة عمّي الجميلة؟

كان صاحب السمو الملكي الأمير أورهان، حفيد السلطان عبد الحميد، قد وصل على متن سيارة دالاهاي بيضاء فاخرة. فهو يشتغل سائق طاكسي، وهي طريقة يخدم بها كلّ الناس من دون أن يخدم أحداً بعينه. لم يكن يتردّد، بقامته القصيرة وقوّته البدنيّة الخارقة وطبعه الحادّ، حين يخاطبه زبون بنبرة غير لائقة، في أن يمسك بخناقه ويخرجه من

سيارته. هكذا كان يجد بعض الزبائن أنفسهم مطروحين أرضاً من دون أن يفهموا ما يقع لهم، لا لشيء إلا لأنّ سموّه شعر بالإهانة.

وسلمى مفتتنة به. فهو غريب الأطوار، لا يلتزم بالمواضعات الاجتماعية، بخلاف ابن عمّه خيري الذي لا يرتدي، وهو ما يزال في الثامنة عشرة من عمره، سوى البدلات الداكنة، والياقات المنشّاة، حتّى في عزّ الصيف. أمّا أورهان، فرغم كونه في العشرين من عمره، لا يأخذ أمور الحياة بمأخذ الجدّ، ويرفض الحديث عن تركيا ساخراً من تقلبات مزاج ابنة عمّه الصغيرة.

ـ إنّه دمك السلافي! جميع تلك الحسناوات الأوكرانيات والشركسيات اللواتي زيّن بهنّ أجدادنا حريمهم، نقلن لنا شيئاً منه! هيّا أيّتها الأميرة، استفيدي من حرّيّتك! أنت تعرفين حقّ المعرفة أنّك لو كنت في الأستانة لكنت محبوسة ولما نعمت بهذه الحرّيّة! هيّا، تزيّني، سآخذك في نزهة.

وركبا السيّارة البيضاء وهما يضحكان، بينما مضت السلطانة تتابعهما بنظراتها المتسامحة: فابنتها الصغيرة بحاجة إلى أن تتسلّى قليلاً مع أورهان. إنّها بين يدين أمينتين.

توجّها إلى دمشق عبر طريق ملتوٍ صاعد بين أشجار الجاكاراندا ذات الأزهار البنفسجية، والرنف والعرعار. وقد طلبت سلمى من ابن عمّها بصوت اجتهدت في أن تجعله أعذب ما يكون أن يسوق بأقصى سرعة، ويمضي أبعد ما يمكن. كانت تعرف أنّ أورهان يفضل التوقّف في المنتجع الصيفي الجميل «عاليه» الذي يبعد بعشرين كيلومتراً عن بيروت. لكنّها تعلم أيضاً أنّها لمّا تبسم له وهي ترمش بأهدابها الطويلة، لا يستطيع أن يرفض لها طلباً. التقطت نفساً عميقاً وخفضت زجاج النافذة، وعرّضت وجهها للريح. وبمقدار ما كانا يصعدان في الجبل، تنخفض الحرارة، ويصير الضوء أكثر صفاء، ويترك السرو والصنوبر مكانه لأشجار التنوب العظيمة وأشجار الخروب ذات الجذوع الملساء

والأوراق الخضراء البرونزية الناعمة الملمس، بحيث تبعث في الناظر الرغبة في مداعبتها.

تجاوزا بحمدون، فانتصبت أمامهما سلسلة جبال لبنان، وقد جعلها الضباب تبدو أميل إلى الزرقة، برزت منها تحت أشعة الشمس قمة جبل صنين مكسوّة بالثلج.

قفزت سلمى من السيارة، وراحت تجري في الطريق الضيّق بين الأعشاب العالية وشجيرات الرتم، وقد رفعت رأسها إلى السماء، وفتحت ذراعيها كما لو أنّها تريد أن تعانق كلّ هذا الجمال، وأن تنغمس فيه وتتملّكه. مضت تجري وتجري كأنّما لا تريد أن تتوقّف. وسمعت أورهان يناديها من بعيد، لكنّها لم تلتفت إليه. تريد أن تستفرد بهذه الطبيعة التي أعادتها إلى نفسها، ووجدتها آنس إلى نفسها من أقرب صديقاتها. هذه الطبيعة التي يمكن أن تسلّم لها نفسها من دون أن تخشى فراقها، وتشعر بها تنفذ إلى جسدها من كلّ مسامه، فتهبها القوة والعنفوان.

ارتمت على العشب، ومضت تستنشق رائحته الرطبة، فشعرت بالدوار. وصعدت إلى ساقيها وبطنها اهتزازات الأرض الساخنة، وتهيّأ لها أنّها تنصهر فيها. لم تعد سلمى، بل صارت أكثر من ذلك. إنّها قشّة من العشب، وورقة من الأوراق، وغصن يرتفع عاليا في السماء ليلامس السحاب. إنّها شجرة تضرب بجذورها في الأرض إلى أن تبلغ الأغوار المظلمة العجيبة حيث ولدت، وصوت النبع الهادئ، وماءه الصافي الذي يهرب دون أن يبرح مكانه. إنّها لمسة الشمس ودوران الريح. لم تعد سلمى، بل هي كائن موجود وحسب.

وفي طريق العودة، لم تنبس الفتاة ببنت شفة. حاولت أن تحمي بهجتها كما لو أنّها شعلة واهنة. أمّا أورهان، فاجتهد في تسليتها معتقداً أنّها حزينة. حكى لها قصصا عديدة لم تسمع منها شيئاً، وودّت لو أنّه صمت... لكن كيف لها أن تشرح له أنّ الصمت يمكن أن يكون خير

رفيق، وأشدّ الصحاب انتباها، وأكرمهم، وأنّ هذه الطبيعة الرائعة، بمشاهدها وشمسها أدعى للوحدة.

لمّا ستتذكّر هذه المرحلة من مراهقتها لاحقاً، ستقول في نفسها إنّ هذا الرابط العميق الذي كان يشدّها إلى الطبيعة هو الذي حماها من اليأس، وردّها إلى نفسها. فلولا هذا الهروب إلى ذلك العالم الساحر، لما أمكنها أن تتحمّل فراق كلّ ما كانت تحبّ، ولما استطاعت، بلا شك، أن تصمد أمام الكآبة القاتلة التي كانت تلقي بظلالها شيئاً فشيئاً على المنزل الواقع في شارع رستم باشا.

وكان انهيار السلطانة يزداد يوماً بعد يوم. وأصابتها إعادة انتخاب مصطفى كمال رئيساً للجمهورية للمرّة الثانية سنة ١٩٢٧ بصدمة لن تبرأ منها. اضطرت منذئذٍ أن تعترف بأنّ الشعب التركي لن يكافح من أجل عودة الأسرة العثمانية... ممّا فاقم حالتها الصحيّة. قال الطبيب إنّها مصابة بمرض القلب، فردّت باسمة لكي تُطمئن زينيل والقلفاوتين: «الأمر يتعلّق بالقلب فعلاً يا دكتور». ورضيت بأن تتناول كلّ يوم حبوباً وقطرات صُفّت زجاجاتها على منضدة سريرها.

ما كان يقلق سلمى أكثر من المرض هو ذلك الانقياد غير المعهود الذي صارت تلمسه في أمّها. وهو انقياد لا يرجع إلى أملها في الشفاء، بل إلى لا مبالاة عميقة، إلى ما يشبه الاستقالة. وقد كانت هذه الحالة تؤذي المراهقة، وتجعلها تلقي باللائمة على السلطانة لتَخلّيها عن الكفاح. فليس من حقّ من كانت تلَقَّب بـ«جيهانجير» أيّ «غازية العالم»، المرأة الصلبة التي لا تلين، أن تستسلم وتتنكّر لنفسها! لا يحقّ لها أن تُظهر الضعف مثل سائر الخلق، بل عليها أن تظلّ «السلطانة». إذا بدأ الصنم يتصدّع، فالعالم كلّه من حولها سينهار.

هذا اليوم، الثلاثون من أيار/ مايو من سنة ١٩٢٨، هو آخر يوم من السنة الدراسية. وقفت التلميذات اللواتي أنهين دراستهنّ في مدرسة بوزانسان في جماعات صغيرة بساحة المدرسة مع الراهبات. كانت

عيونهنّ المتلألئة تشيء بالابتهاج من ترك عالم المدرسة و«الدخول إلى الحياة»، لكنّها كانت تشي أيضاً بالتأثّر... فقد كنّ هنا يحظين بالعناية والدلال. ورغم ما كان يصيبهنّ من توبيخ وتقريع أحياناً، كنّ يشعرن بالحماية. فالراهبات طيّبات، حتّى أكثرهنّ صرامة. وهنّ يشعرن بالحزن لفراقهنّ. نسين العقوبات والمظالم والبكاء. نسين كلّ ذلك، ورحن يشكرنهنّ ويعدن بزيارتهنّ، وأحسسن بالارتباك، بل بالذنب من ابتهاجهنّ بالمغادرة. لكن الراهبات أظهرن التفهّم، ومضين ينظرن إلى الفتيات بحنان، ويعبّرن عن فخرهنّ بهنّ، ويقلن إنهنّ صرن الآن شابّات ناضجات... لم تلمس الفتيات مثل هذا القرب من الراهبات قطّ.

ولكن ما معنى أن تكون الفتاة في السابعة عشرة من عمرها وتبدأ الحياة؟

بعضهنّ سيغادرن لبنان. فماري آنج ستعود إلى فرنسا، بينما ستذهب ماري لور إلى بيونيس إيريس حيث عُيّن أبوها مُلحقاً عسكريّاً.

ـ بوينيس إيريس؟

ـ أليس هذا أمراً رائعاً؟ يبدو أنّها مدينة بيضاء وبهيجة!

ـ نعم، هذا هو الظاهر...

فمن مدينة بيونيس أيريس هذه تلقّت سلمى آخر رسالة من والدها منذ ما يزيد عن السنة. قال لها إنّه اكتشف فيها أرض أحلامه، وأنّه قرّر أن يحطّ رحاله فيها، ويتخلّى عن حياة التشرّد. وهو بصدد البحث عن منزل جميل لأميرته الساحرة، وأنّه سيراسلها بمجرّد أن يستقرّ. لكنّها لم تتلقّ منه خبراً منذئذ. أتُراه مرض؟ أم أصابه مكروه؟... ومضت تضع فرضيات، بل تساءلت عمّا إذا كان... كلا، هذا غير ممكن! فكيف السبيل إلى العثور عليه؟ لا يمكنها أن تستشير أمّها في الأمر، فإلى من تلجأ إذن؟

ها هي ماري لور ذاهبة إلى تلك المدينة التي شغلت بال سلمى منذ

شهور: لعلّها تستطيع أن تساعدها. فمنذ واقعة «القفزة» نشأت بينهما صداقة، ليست حميميّة مثل علاقتها بأمل - إذ لم تبح إحداهما بأسرارها للأخرى قط - لكنّها قائمة على التقدير والاحترام، أشبه بالعلاقة التي تربط بين رفيقي السلاح، تقوم على الشجاعة والثقة أكثر ممّا تقوم على الرقّة والحبّ.

ستنتظر سلمى ماري لور ريثما تفرغ من الحديث مع الأم أشيليه، وتنتحي بها ركناً من أركان الساحة وتشرح لها الأمر. نظرت بارتباك إلى الوجه الأشقر ذي العينين الشاحبتين والجبين الناعم، والفم المتغطرس، فتمثّلت لها كفارس باسل مصمّم على عبور المحيط، والعودة بأبيها... ستشرح لها كلّ شيء، وتحكي لها...

ماذا ستحكي لها؟... بأنّ أباها هجرها؟ وأنّه موجود في بيونيس إيرس، ولم يبعث لها قطّ بعنوانه؟ وأنّه توقّف عن مراسلتها؟... فتجمّدت الكلمات في ذهنها. تخيّلت حركة شفة ماري لور الخفيّة، حركة لا تعبّر عن الشفقة بقدر ما تنمّ عن عدم فهم لما يبدو أنّه طلب معونة، وخيبةً أمام هذا الضعف والصفاقة. أيحقّ لسلمى المتكتّمة القويّة، سلمى الصلبة كالماس أن تظهر بمظهر الضحية؟

لن تتكلّم، ليس صوناً لكرامتها فحسب، بل لاقتناعها بأنّ ذلك لن يجدي نفعاً. فماري لور تملك قوّة أولئك الذين لم يعرفوا التعاسة أبداً، ومن ثمّة فهي لن تطيق هذا الضعف.

كثيراً ما تساءلت سلمى لاحقاً عمّا إذا كان قرار الصمت قراراً صائباً. ألم تكن ماري لور هي فرصتها الأخيرة؟...

وهكذا انقطعت عنها أخبار أبيها إلى الأبد.

لا توجد وسائل تسلية كثيرة في بيروت، لاسيما بالنسبة لفتاة في السابعة عشرة من عمرها، أميرة وفقيرة. كانت سلمى تنتظر بفارغ الصبر العطلة المدرسية للتخلّص من صرامة مواقيت الدراسة واللباس المدرسي

ودفتر العلامات، وتفكّر بحماس في كلّ ما ستفعله حين ستتحرّر، حين ستبدأ الحياة، الحياة الحقيقيّة. أمّا الآن وقد انفتح أمامها أفق الزمن اللانهائي، فما عليها إلا أن تستمتع به، منتبهة لجريانه الساكن، ناعمة بهذا الفراغ المفتوح على كلّ الممكنات. واكتشفت باندهاش أنّ تسليتها المفضلة هي ألا تفعل شيئاً، أن تعيش الحياة في عريها التامّ، مجرّدة من كلّ ما يثقلها ويزيّفها، وأن تشعر بذبذبات العالم، متحيّنةً كلّ ثانية لكي تتذوّق الخلود.

كانت السلطانة تراقب ابنتها من مقعدها الذي صارت تلازمه معظم أوقاتها، فتشغل بالها لا مبالاة هذه الطفلة التي كانت في منتهى الحيوية سابقاً: أتُراها ورثت عن أبيها ـ شأن خيري ـ مزاجه الخمول؟... يكفيها ما تشعر به من مشقّة حين تلاحظ أنّ خيري لا يصلح لشيء، ولا تريد أن تصيبها نفس الخيبة من ابنتها. فقد عقدت عليها كلّ أملها، وعليها من ثمّة ألا تُخيّب ظنّها فيها. ولهذا كانت تلحّ عليها أن تشغل وقتها.

ـ ينبغي أن تحسّني مستواك في الإنجليزية والإيطالية. فنطقك في غاية السوء. كما أنّني طلبت من ليلى هانم أن تعلّمك شيئاً من التطريز. أمّا الخط العربي الذي كنت موهوبة فيه، فألاحظ أنّك صرت تهملينه... انتبهي يا سلمى، فأنت جميلة وذكيّة وأميرة، ينتظرك مستقبل زاهر. عليك أن تتهيّأي له، ولا تركني للخمول!

لو كانت سلمى تملك الجرأة، لأغلقت أذنيها. فهي لم تعد تطيق عبارات من قبيل: «ينبغي أن، وعليك ألا». تشعر كما لو أنّ حياتها تُسلب منها. لماذا لا تحاول أمّها أن تفهمها؟ ألم تكن شابة مثلها ذات يوم؟

من حسن حظّها أن زيارات أمل وأخيها مروان المتواترة، كانت تسلّيها. وقد أحبّتهما السلطانة. فهما مهذّبان على نحو رائق! والسلطانة لا يمكن أن تعثر لابنتها في هذه المدينة الغريبة على رفقة أفضل منهما. وقد بلغت ثقتها بمروان، الذي يبدو في نضج الرجال رغم صغر سنّه، أنّها لم تعد تطلب من زينيل أن يلعب دور المرافق لمّا يخرجون للتنزه في

المدينة بعد الظهر. وهي ما كانت لتوافق على أن تخرج سلمى قليلاً لولا ما صار يساورها من قلق على حساسيتها المفرطة، وصمتها وميلها إلى الهروب من الواقع. لطالما رفضت السلطانة أن تعترف بأنّ البنت تشبه جدّها السلطان مراد أكثر ممّا تشبه أباها خيري بك. لكنّها اضطرت في الأخير إلى التسليم بهذه الحقيقة. عندما تراها مستغرقة في العزف على البيانو لساعات، وتلاحظ تقلّبها من الحماسة إلى اليأس، أو العكس، تقرّ بشيء من الانقباض، بأنّ هذا الخليط من القوة والضعف، إن لم يجد له متنفساً، أيّ قضيّة تشغفه، قد ينقلب وينتكص.

لهذا لم تعترض على الولع الذي بدأت تبديه سلمى بالسينما. وقالت في نفسها لئنْ يتغذّى خيال ابنتها من هذه القصص الرومانسية الجميلة خير من أن يتغذّى من الوحدة في منزل كلّ شيء فيه يذكرها بالماضي. ذلك أنّ الفن السابع كان قد عرف قفزة نوعيّة؛ إذ تمكّنت شركة هوليودية كبيرة، وهي شركة وورنر بروس، من تحقيق نجاح باهر بإنتاج فيلم ناطق هو فيلم «مغني الجاز» الذي يتكلّم فيه الممثّلون.

وهكذا دأبت سلمى وأمل على الذهاب إلى السينما لحضور العرض المخصّص للنساء في الساعة الثالثة بعد الزوال من كلّ جمعة. يقلّهما مروان في سيارته الفاخرة ذات علامة النسر الذهبي الشهير إلى باب السينما، ويعود إليهما بعد انتهاء الفيلم.

لكن العروض كثيراً ما كانت تتخلّلها مشاكل فنية تصيب الشابتين بالملل من طول الانتظار في القاعة المظلمة، فتخرجان للتّنزه في ضوء الشمس.

إنّ التجوّل في هذا الحي الواقع في المدينة القديمة، حيث تتجمّع كلّ قاعات السينما، يشكّل في حدّ ذاته مغامرة. وهو يبدأ من ميدان المدافع الذي سُمّي أيضاً ميدان الشهداء منذ أن شنق فيه الحاكم التركي جمال باشا أحد عشر معارضاً وطنياً سنة ١٩١٥. ويعدّ من أكثر أحياء بيروت نشاطاً ونبضاً بالحياة، حافل بالمقاهي العربية حيث يقضي رجال

مطربشون يومهم جالسين إلى الموائد يلعبون الطاولة، ويدخنون النرجيلة. وفيه أيضاً توجد مطاعم وملاهٍ ليليّة تنعتها نساء رأس بيروت المسلمات بـ«بيوت الرذيلة»، حيث ترقص نساء عاريات. تمسك سلمى بيد أمل وقد تسارعت دقات قلبها، ذلك أنّ مجرد التجوّل في هذه الأمكنة يعدّ اجتراءً على تذوّق الفاكهة المحرّمة. ويخيّل إليهما أنّ كلّ العيون مصوّبة عليهما، فتجتهدان في التظاهر باللامبالاة وهما تعبران على مهل الميدان صوب المطعم الفرنسي الكبير، «الملهى المرح جدّاً»، على حدّ وصف أورهان الذي زاره مرّة. وهو مكان ترتاده الطبقة الراقية من المجتمع البيروتي. فبعد العرض المسرحي الذي تقدمه في الغالب فرقة قادمة من باريس، يرقص الزبائن على السطيحة المشرفة على البحر إلى الساعة الخامسة أو السادسة صباحاً. وتلقي سلمى نظرة كلّها شغف إلى الملصق الذي يعلن بحروف حمراء بارزة: «الآنسة نيني روكامبول في رقصتها المثيرة!».

وقالت وهي تتنهد:

ـ يا له من رقص عجيب! لا بدّ أنّه مُسلٍ.

لكن لن يسمح لهما للأسف بارتياد مكان كهذا أبداً. فهو لا يليق بالفتيات، لا سيما إذا كنّ مسلمات.

وبينما كانتا تتجوّلان في هذا الحيّ ذات يوم، قصدتا السراي الصغير، وهو عبارة عن بناية طويلة من الحجر الأحمر، ذات أبواب ونوافذ مقوّسة. إنّها مقر الحكومة اللبنانية، وهي شبه فارغة إلا من بعض الشواويش الذين يمضون معظم وقتهم غافين. فمن ذا الذي يقبل أن يضيّع وقته هناك، لا سيما حين يكون واثقاً من أنّ كلّ القرارات تُتّخذ في السراي الكبير الواقع أعلى الهضبة المشرفة على المدينة، حيث توجد مكاتب المفوّض السامي هنري بونسو؟

لمّا لمح مجموعة من الجنود الفرنسيين المنتشين الفتاتين الجميلتين

تتسكّعان بمفردهما، تعقّبوهما، فحثّت البنتان الخطى وقد تورّدتا، وتظاهرتا بعدم فهم مغازلاتهم الخليعة. ولم تتخلّصا منهم إلا حين ذابتا في زحمة سوق الفرنج، وهو الاسم الذي يُطلق على سوق الأجانب. وهو سوق حافل بالخضار والأزهار، ولكن أيضاً بالسلع الوافدة من أوروبا. تقصده نساء الطبقة البرجوازية اللبنانية للتسوّق، فيتجوّلن وخلفهّن صبي يحمل سلّة على ظهره. عدا أنّ الشابّات يفضّلن عليه سوق المجوهرات حيث يجلس صناع صغار، تعالج أيديهم الماهرة خيوط الذهب والفضة. كذلك يستهويهنّ التجوّل في السوق الطويلة حيث يوجد الخياطون وصنّاع الأحذية من الأرمن الذي لا يُضاهَون في محاكاة آخر الموضات الباريسية، وباعة التحف الذين يعرضون مختلف الأشياء، التافه منها والأصيل.

وحين تميل الشمس إلى المغيب، تبدأ النساء في الخروج للتسوّق أو استنشاق هواء المساء المنعش، ويعرض بائع الماء المنسّم بزهر البرتقال وكذلك بائع الدبابيس الصغير سلعهما، وتتّخذ المدينة مظهرها الاحتفالي المعهود الذي يزيد الجوّ اللطيف بهاء.

هكذا تذوب سلمى في الزحمة برفقة أمل، وتستمتع بطعم الحرّية: فقد نسيت الأستانة.

تعدّ عائلة أمل ومروان من أعرق العائلات اللبنانية. وهي ما تزال تهيمن على جزء كبير من منطقة الشوف. وبذلك فإنّ الطفلين اليتيمين يُستقبلان بالأحضان في الدوائر الراقية ببيروت. وأمل، التي أكملت الثامنة عشرة من عمرها، بدأت تخرج، وتودّ لو تصطحب معها صديقتها الفاتنة.. يكفي أن يراها الناس لكي تنهال عليها الدعوات من كلّ حدب وصوب. ولكن كيف السبيل لإقناع السلطانة بأنّ أميرة عثمانية يمكن أن تخالط بعض أبناء العائلات اللبنانية العريقة من دون أن يحطّ ذلك من شأنها؟

وقد واتتها الفرصة حين نظّمت ليندا سرسق حفل شاي راقصاً في

قصرها بالأشرفيّة. تحدّثت الشابتان طويلاً في الموضوع: البدء بحفلة شاي راقصة فكرة لا بأس بها، قد تقبلها السلطانة بلا مقاومة بخلاف لو تعلّق الأمر بسهرة راقصة. ثمّ إنّ ليندا سرسق من الأقارب تقريباً، بحيث يناديها مروان وأمل «خالة»، ومن ثمّة يمكن تقديم هذا الحفل كما لو أنه لمّة عائلية!

خطّطت الفتاتان لأن يصادف وصول بطاقة الدعوة وجود أمل في بيت صديقتها. سألت السلطانة بنبرة دالة على الامتعاض:

ـ من يكون هؤلاء السرسق؟ لعلّهم تجّار؟

فردّت أمل بلطف:

ـ كلا يا صاحبة السمو. هم إحدى أكبر العائلات في بيروت. استقرّوا هنا منذ قرون، وهم يملكون مصارف ويقومون بأعمال كبيرة في...

فقاطعتها السلطانة بخشونة:

ـ هذا ما قلت، هم تجار إذن!

ومن حسن حظّهما أنّ السيدة غزاوي كانت موجودة، وهي لبنانية ولدت في الأستانة ومتزوّجة من أحد الموظّفين السامين. مضت تشرح بأناة بأنّ عائلة سرسق هم «من خيرة عائلات لبنان»:

ـ هم من اليونان الأرثوذكس طبعاً، لكنّهم لا يقلون رقيّاً عن أفضل العائلات السنّيّة. لا يمكن للمرء أن يصادف في صالوناتهم إلا صفوة المجتمع البيروتي. وإذا شاءت سلمى أن تخالط الناس يوماً، فلن تجد أنسب من قصر سرسق. لكن إن كنتم تقدّرون يا صاحبة السمو أنّ عليها أن تلزم البيت...

ودّت سلمى لو تُقبّل السيدة غزاوي لدفاعها هذا، لكنّها اكتفت بتقليب أوراق إحدى المجلات، متظاهِرة باللامبالاة، كما لو أنّ هذا الحديث لا يعنيها.

تردّدت خديجة سلطان: فالسيدة غزاوي تعرف المجتمع اللبناني

الراقي حقّ المعرفة، وصدقت مراراً حصافة نصائحها. لكنّ ملاحظتها الأخيرة زعزعت السلطانة، لأنها تتعلّق بالهاجس الذي صار يشغلها في الأيّام الأخيرة، بل يمنعها من النوم أحياناً: مستقبل سلمى.

لم يكن هذا الأمر يؤرقها حين كانت البنت في المدرسة، مشغولة بدروسها. لكنّ الآن؟ الآن وقد طال المقام في المنفى، وبدأت العودة إلى تركيا تبدو محالاً، فما مصيرها؟

عليها أن تعثر لها على زوج، مسلم بالطبع، وغنيّ، على أن يكون أميراً على الأقلّ. ثلاثة شروط يستحيل أن تجتمع لأحد هناك في بيروت حيث لن تجرؤ حتّى العائلات السنية الكبيرة على التفكير في مصاهرة العائلة العثمانية. ربّما أمكن ذلك مع العائلة الملكية المصريّة أو إحدى الإمارات الهنديّة...؟

وفي انتظار ذلك، فالسيدة غزاوي محقّة، لا ينبغي أن تظلّ سلمى حبيسة البيت. ينبغي أن تتدرّب منذ الآن على دورها في المجتمع. ما يمكن أن تلقّنه السلطانة إياها لا يكفي، ينبغي أن تواجه الشابّة الواقع. لو أنّها ظلّت في قصر أورتاكوي الذي كان عبارة عن بلاط صغير، لاستطاعت أن تنال خبرة بالعلاقات الإنسانية، وتكتسب الصفاء اللازم للأمراء. لكنّ في عزلة بيت رأس بيروت، بين زينيل والقلفاوتين، ماذا عساها أن تتعلّم عن العالم الذي ستعيش فيه يوماً؟

والتفتت السلطانة بلطف إلى أمل، وقالت:

ـ عودي غداً يا ابنتي، وستجدين الجواب.

كانت السلطانة قد اتّخذت قرارها: ستسمح لسلمى بالذهاب إلى حفل آل سرسق، على أنّ ثمّة مشكلة ما زالت مطروحة: ماذا ستلبس؟ هي لا تملك المال لتشتري لها فستاناً مناسباً، مع أنّ ابنتها ينبغي أن تظهر بمظهر يليق بمقامها بين هؤلاء اللبنانيات المثقلات بالحلي، والمتدثّرات بأرفع الملابس الباريسية! لكن السيدة غزاوي، المرأة المحنّكة، خطرت لها فكرة.

ـ إذا سمحت يا صاحبة السمو، لماذا لا تسلّمين أحد فساتينك الملكية القديمة لليلى هانم ذات الأصابع الذهبية وتطلبين منها أن تسوّيها على مقاس سلمى؟ فهذه الملابس الفاخرة ستتعرّض للتلف إذا ظلّت مخبأة في الخزنات.

استحسنت السلطانة هذا الاقتراح. واختارت سلمى من بين عشرات الفساتين الرائعة فستاناً حريرياً أزرق، يُظهر لون عينيها.

وما إن علم سورين آغا بالأمر حتّى حضر. فقد صار هذا الأرميني من أصدقاء الأسرة منذ أن نصح السلطانة، رغم أنّ ذلك يعارض مصالحه، بأن تشتري بالمال الذي تحصل عليه من بيع مجوهراتها أسهُماً تدرّ عليها بعض الأرباح. بل إنّه تطوّع لمساعدة زينيل في هذه العمليّة. وقد أكسبه وفاؤه وإخلاصه هذا ثقة كلّ أهل البيت.

بدا ذلك اليوم مشغول البال، يذرع المكان جيئة وذهاباً وهو ينظر إلى القلفاوتين وهما مستغرقتان في إصلاح الفستان الحريري. بدا كما لو أنّه يريد أن يقول شيئاً، لكنّه لا يجرؤ. وجازف في الأخير بالقول، وقد تورّد وجهه:

ـ اعذري جرأتي هذه يا سلطانة، فالأميرة سلمى بالغة الحسن، وينبغي أن تبدو أجمل الحاضرات! هل تقبل بأن تختار من بين الحلي التي بحوزتي ما يناسبها؟ أنا مستعدّ لأن أضع رهن إشارتها كلّ ما أملك من مجوهرات، متى شاءت. سيكون ذلك شرفاً عظيماً لي.

وتأثّرت السلطانة بهذا القول، فابتسمت للرجل الضئيل ومدّت له يدها، فأمسك بها وراح يقبّلها بحماس.

٥

ـ الآنسة أمل الدرزي! الآنسة سلمى رؤوف! السيد مروان الدرزي!

هكذا أعلن المنادي، ذو الهيئة المتصلّبة في لباسه الأسود، عن أسماء القادمين وهو يتابع بعين حائرة الشابة التي ترافق الأخوين الدرزيين. لم يسبق له أن رآها في الحفلات التي تنظّمها ليندا سرسق كلّ أربعاء، وهو ليس بالأمر الغريب عليه لأنّ المنزل يستقبل كلّ أسبوع أصدقاء جدداً. هو من مارس هذه المهنة منذ ثلاثين سنة، يفخر بأنّه يستطيع أن يحزّر من دون خطأ مَنْ تتظاهر بأنّها دوقة وهي حديثة النعمة، أو الدوقة التي تلبس على غرار الشابات حتّى تبدو أصغر من سنّها، ها هو يجد نفسه الآن حائرا: فهذه المخلوقة تعرف كيف تمشي، وفي هيئتها ضرب من العجرفة تشي بأصولها النبيلة، لكن يبدو أن هذا الفستان الغريب تسلّمته توّاً من إحدى الخياطات الصغيرات الموجودات بباب إدريس، وهو لا يناسب تماماً عقد الياقوت الأزرق، وينمّ عن ذوق سقيم شاذّ لا يليق بمثل هذه الحفلات!

وهرعت المضيفة لاستقبال القادمين.

ـ أمل! مروان! عزيزيّ، ما أسعدني بلقائكما! وصديقتكما الآنسة... رؤوف؟ مرحباً بكم! بما أنّك رفيقة هذين العزيزين، اعتبري البيت بيتك. كانت أمّهما من أعزّ صديقاتي، بل أختي...

وتنهّدت، وندّت عنها حركة جعلت بعض خصلات الشعر الأحمر الشهير تنفلت من الوشاح اللامع... فليندا سرسق، وهي في الأربعين من

العمر، تعدّ إحدى أشدّ نساء بيروت جاذبيّة، ليس بجمالها فحسب، بل بفكرها وسحرها وإقبالها على الحياة أيضاً. وهو إقبال تُشيع ألسنة السوء أنّه تضاعف منذ أن ترمّلت وهي ابنة الرابعة والعشرين. لكنّ جميع الناس يعترفون لها بسعة القلب، إذ يعتبر صالونها من أكثر الصالونات ارتياداً في المدينة.

ـ المعذرة، أنا مضطرّة لترككم، ها هو سيادة رئيس الأساقفة قد وصل!

وهفت لتقبّل الخاتم المتلألئ في اليد العطرة.

قال مروان:

ـ لقد نلت إعجابها.

ثمّ أضاف وقد التمعت في وجهه ابتسامة صغيرة:

ـ إنّها تحبّ الأتراك.

لم تفهم أمل النظرة القاتلة التي رشقت بها أمل أخاها. ولن تعلم بأنّ هذه المرأة اللامعة كانت صديقة حميمة لجمال باشا، الحاكم العثماني الذي عُهِد إليه بإعادة الأمن والنظام إلى لبنان خلال الحرب، إلا عندما تغلغلت في المجتمع البيروتي.

كان ثمّة حشد من الناس على قدر كبير من الأناقة، يزدحمون في الصالونات المتراصّة، المزيّنة بشجر الغردينية الوردي الفاتح. وفي الأقصى، يوجد صالون عربي فاخر يتردّد فيه خرير نافورة تتوسّط حوضاً رخامياً، وتنشر برودة منعشة. وقد فتح الخدم النوافذ الزجاجية المطلّة على الحديقة الواسعة التي يتصاعد منها عبق أشجار البرتقال والياسمين العربي والميموزا.

وقاد مروان الشابتين إلى الشرفة، وهي مكان مثالي للاستمتاع بمشهد هؤلاء المدعوين الذين يشكّلون خليطاً متعدّد الألوان. ومضى يدلّ سلمى على الأعيان:

ـ ذلك الرجل المفعم بالحيوية الذي يضع قرنفلة بيضاء في عروة سترته، هو نيقولا بطرس، هو أيضاً من عائلة يونانية أرثوذكسية تنافس عائلة سرسق في بذخ حفلاتها... وإلى جانبه المركيزة جان فريج، نبيلة بابوية تلقّبها ألسنة السوء بـ«المركيزة الحديثة العهد بالنبالة». انظري هناك، أبعد منها، ذلك الرجل الضئيل، الذي توجد لطخة نبيذ على فكّه، إنّه هنري فرعون، رئيس النادي الأدبي. قد تستخفّ به العين، لكن لا تنخدعي بالمظاهر، فهو يملك أكبر تشكيلة فنية في لبنان، وربّما في سوريا أيضاً. يشتري قصورا قديمة في دمشق وحلب، وينزع أبوابها ونوافذها ومدفآتها لكي يزين بها صالوناته. ومنزله قرب السراي الكبير حافل بالتحف النادرة، لا يدخله إلا المحظوظون، لأنه قلّما يستقبل فيه أحداً. بينما يعدّ من رواد ميدان سباق الخيول، يتردّد عليه كلّ خميس. فهو يملك إسطبلاً يضمّ مئتي حصان، يروقه أن يراقبها وهي تُروَّض من برج تظلّله عريشة خضراء يجلس تحتها هو وأصدقاؤه يرتشفون فناجين القهوة. ويشاع أنّ سياسة لبنان تصنع في ذلك المكان.

انظري! الأميرة شهاب وصلت. هي سليلة أعرق أسرة أميرية بالجبل، وها هي الحسناء لوسي طرّاد بصحبة جان تويني، ذلك العجوز المميّز الذي كان سفيرا للإمبراطورية العثمانية لدى قيصر روسيا، وهو صديق مقرّب من إدوارد السابع. وهل ترين ذلك الرجل الواقف إلى الشِّمال، ذا الشعر الأحمر؟ إنه نيكولا سرسق، أحد الوجوه اللبنانية الأصيلة. وقد أبى الفنان فان دونجن إلا أن يرسم له صورة... على أنّ هذا لا يمنع من القول إنّه زير نساء، لكن لا تخشي شيئاً، فهو لا يؤثر الفتيات الصغيرات!

وراحوا يضحكون من دون أن ينتبهوا إلى رجلين واقفين في الجانب الآخر من الشرفة كانا يحدّقان فيهم باهتمام.

ـ قلت لك إنّها فرنسية! انظر إلى قوامها الممشوق وبشرتها البيضاء. يا للجمال!

ـ أنت لا تعرف شيئاً في النساء يا أوكطاف! هاتان العينان الواهنتان، والشفتان المكتنزتان، اللتان تنضحان براءة وإثارة، لا يمكن أن تكونا إلا لامرأة شرقيّة!

ـ فلنتراهن إذن يا أليكسي! لكن عوض أن نتراهن على أصولها، فلنتراهن بالأحرى عمّن يستطيع استمالتها.

ـ هذا أقلّ ما يمكن أن يُنتَظر من ضابط فرنسي. فأنت دائماً متأهب للهجوم، أليس كذلك؟ لكن حذار، فقد أنعمت النظر في يدها، فلاحظت أنّها غير متزوّجة. انتبه، الفتيات العازبات عندنا... لكنّها قد تُسرّ بإثارة اهتمام ألمع ممثّلي الحلقة... أنت محقّ يا أوكطاف، هلمّ بنا نجرّب حظّنا!

اقتربا منهم بكلّ أريحيّة.

ـ ها أنت ذا يا صديقنا مروان!

وربتا على كتف الشابّ على نحو حميمي، وانحنيا أمام أخته، ووقفا متردّدين أمام سلمى.

ـ هلا قدمت لنا الآنسة؟

فسارعت أمل إلى القول:

ـ الآنسة رؤوف. أقدم لك يا سلمى أليكسي، ابن عم مضيفتنا الصغير، وهذا النقيب أوكطاف دو فيربري.

وانغمسوا في الحديث. ولم يكن الوافدان الجديدان يتمتّعان بالنباهة فحسب، بل كانا وسيمين أيضاً. وبعدما كانت سلمى متردّدة في المجيء إلى هذا الحفل بسبب الخجل والخوف من الضجر، ها هي تشعر بالخفّة أمام نظراتهما المفعمة بالإعجاب. وسألها أليكسي خلسة:

ـ يبدو أنك مستقرّة في بيروت. لا بدّ أنّ أباك ديبلوماسي؟

ـ كلا. أبي... رحمه الله.

فقال متأسّفاً:

ـ المعذرة. لا بدّ أن السيدة أمّك تشعر بالوحدة. أنا واثق من أنّ أمّي ستسرّ بدعوتها لحفل شاي. ألا تخرج من البيت؟ أهي مريضة؟ شيء مؤسف حقّاً! فأنت إذن زهرة جميلة وحيدة...

وتورّدت سلمى. لم تسمع مثل هذا الكلام من رجل قطّ. ذلك أنّ الفرصة لم تواتها أبداً للحديث مع رجل باستثناء إخوة صديقاتها الذين يعاملونها معاملة الأخت. وشعرت بقلبها يخفق: أهذا هو ما يسمّونه الغزل؟

وفي تلك الأثناء تذكّر مروان، الذي لم يلحظ شيئاً ممّا يجري، أنّه لم يسلّم على الخالة إميلي.

ـ أترين يا سلمى تلك العجوز التي يحتشد حولها الحاضرون؟ إنّها عميدة آل سرسق. يروقها أن تحكي كيف كانت ترقص مع نابوليون الثالث عندما كانت شابّة! إن لم نذهب أنا وأمل لتقبيلها، ستعتبر ذلك إساءة لجلالتها. نتركك إذن بين هذه الأيدي الأمينة. اعذرينا للحظة.

قال أليكسي مبتسما وهو يشيّع مروان:

ـ مروان سيّد مهذّب حقّاً.

فردّت سلمى من دون أن تفهم التلميح، وهو ما سلّى أوكطاف كثيراً:

ـ هذا صحيح.

وجازف أليكسي بالقول:

ـ ألا ترين يا آنسة أنّ هذه السهرة فيها شيء من الملل. ليس فيها موسيقى رائقة. أتحبّين الرقص؟

فأجابت سلمى التي تفضل الموت على أن تعترف بأنّها لم يسبق لها أن رقصت إلا مع رفيقاتها في الصفّ:

ـ أحبّه كثيراً.

ـ أقترح عليك إذن شيئاً أكثر تسلية بكثير من هذه الحفلة البائخة. سننظّم حفلاً صغيراً في بيتنا بمشاركة بعض الأصدقاء والشابّات الفاتنات. أتوفّر على آخر الأغاني الباريسية. أؤكد لك بأنّك لن تشعري بالضجر البتّة.

احمرّت سلمى، وندمت على ادّعائها: ما حاجتها إلى الزعم بأنّها تحسن الرقص؟ ماذا سيكون ردّ فعل أمّها لو علمت بذلك؟ ستمنعها من الذهاب... وقالت متلعثمة:

ـ لا أدري ما إذا كان مروان وأمل...

فغمز أوكطاف وهو يقول:

ـ إنّهما من ذوي الذهنيات القديمة. لسنا بحاجة إلى إخبارهما بالأمر. سنرافقك في طريق العودة. فبيتك يقع في طريقنا. وستنطلي عليهما الحيلة.

وشعر أليكسي أنهما تسرّعا، لكنّهما كانا يسابقان الزمن. فمروان سيعود في أيّ لحظة. لذلك قرّر أليكسي أن يلعب كلّ أوراقه.

فهمس لها وقد تظاهر بالاستياء:

ـ لا تقولي إنّك لا تثقين بنا!

الواقع أنّه لم ينزعج من تمنّعها. فهو لا يحبّ الفتوحات السهلة. لكن، لا ينبغي أن تتحوّل إلى فتاة سخيفة. هو خبير بالنساء. إن كانت صاحبة هاتين العينين والشفتين ما تزال عذراء، فهي ليست بريئة على كلّ حال! ومن حسن حظّه أنّ الأمّ عاجزة والأب ميّت، ومن ثمّة فلا رقيب ولا حسيب. إنّها طريدة سهلة.

ـ هيّا يا جميلتي، ألم نعجبك؟

اقترب أوكطاف دو فيربري من سلمى، وبحركة أثبتت جدواها أكثر من مرّة، طوّق خصرها بذراعه.

فقفزت سلمى من مكانها وهي ترتعش من السخط.

ـ لا تلمسني أيّها المقرف!

هذا هو سرّ لطافتهما وتودّدهما إذن! كان عليها أن تتفطّن لذلك منذ البداية. لكن كيف لها أن تشتبه في أنّهما يعتبرانها... فتاة... وشعرت بنفسها كما لو أنّها دُنّست وامتُهِنت. وحذتها الرغبة في البكاء.

ـ أهذه أنت يا أميرة؟ ماذا تفعلين هنا؟

اقتربت منها امرأة فارعة، وما لبثت سلمى أن تعرّفت عليها: إنّها خالتها نائلة سلطان. هي من تخرج نادراً، أيّ معجزة جعلتها تحضر هذا الحفل الذي نظّمه آل سرسق؟ لم تكن سلمى تعلم أنّ السلطانة تعرف الخالة إميلي منذ كانت في الأستانة، وأنّها أرادت أن تشرفّها، لهذه المرّة فقط، بحضور حفل هذا المساء. رغم أنها شُدهت، انحنت مع ذلك باحترام كبير وقبّلت اليد الممدودة إليها، بينما انبهر الشابان، وأنحنيا وهما يقولان:

ـ صاحبة السمو.

نظرت إليهما نظرة ارتياب، ثمّ قالت لهما بنبرة فظّة:

ـ سآخذ منكما ابنة أختي أيّها السيدان. لم أرها منذ مدّة طويلة...

ثمّ أمسكت بذراع سلمى، وأرغمتها على مرافقتها.

ـ هل جننت يا صغيرتي؟ تقفين في شرفة معتّمة مع رجلين يشتهران بسمعة سيئة؟ إذا كنت لا تبالين بشرفك، فشرف عائلتنا يعنيني كثيراً! عديني بأن تتصرّفي مستقبلاً على نحو يحفظ كرامتك، وإلا فإنّني سأضطرّ إلى إخبار أمّك المسكينة، وإلى نصحها بحبسك في غرفتك إلى أن يتقدّم عريس لخطبتك!

وبينما هم عائدون في السيارة، قالت لها أمل مستنكرة:

ـ لماذا تضعيننا يا سلمى في هذه الموقف الحرج؟ لماذا تصرّين على أن نقدمك باسم الآنسة رؤوف؟ لقد أغضب ذلك العمّة ليندا. أمّا

أليكسي، فاستشاط غضباً، واتّهمني بأنّني هزأت به. أرجو أن تشرحي لي السبب الذي دعاك إلى أن تتنكّري؟

لكنّ سلمى تكوّمت في طرف المقعد، وراحت تنظر أمامها بعنين جامدتين وقد لزمت الصمت رغم إلحاح أمل.

ـ هل سمعت يا أمل بهارون الرشيد الذي كان خليفة في بغداد في القرن السابع الميلادي؟ كان يروقه أن يتنكّر في ثياب شخص من عامّة الشعب، ويتجوّل ليلاً في عاصمة حكمه. قيل إنّه كان يفعل ذلك ليعرف رأي الشعب في الحكّام. أما أنا فأرى أنّه ما كان يفعل ذلك إلا بحثاً عن نفسه. كان يلتقي بالناس من دون أن تزيّف المنفعة أو التملّق أو الخوف علاقتهم به. كان يتعرّف على أصدقاء يقدرون فضائله، وأعداء لا يتحرّجون من مواجهته بعيوبه، وآخرين لا يأبهون به لأنّهم لا يجدون له فضلاً. كان يتعلّم التعرف على نفسه من خلال عيون هؤلاء الناس الذين لا يعرفونه، ويعثر بواسطتهم على المرآة التي طالما حُرمها... لقد تعلّمت أشياء كثيرة هذا المساء يا أمل.

بعد هذه التجربة القاسية، حبست سلمى نفسها في البيت. نقمت على الناس أجمعين لأنّهم لا يحبّونها، وهو ما لم يكن صحيحاً: قد يصحّ أنهم لا يحبّونها، لكنهم يبجّلونها. وسرعان ما شاع خبر هذه الأميرة الشابة ذات العينين اللازورديتين الواسعتين، الشرسة والمتغطرسة، فبدأت تتوّصل كلّ يوم بدعوات تحمل أسماء من الطبقة الراقية. ذلك أنّ ظهور وجه جديد في مجتمع صغير ملّ الناس فيه بعضهم بعضاً من شدّة ما يلتقون، يكون مثاراً للفضول والاستطراف.

وأقسمت المراهقة على ألا تقبل دعوة أبداً، لكنّها ما إن أكملت الثامنة عشرة من عمرها حتّى غيّرت رأيها، وقرّرت أن تستمتع بالحياة. كانت قد استغلّت الأسابيع التي أمضتها حبيسة البيت في شحذ أظافرها. وقد سجّلت في مذكّرتها بأنّ عهد الطفولة قد ولّى.

ولكي تبرز انتقالها إلى عالم الكبار، أخذت موعداً مع الحلاق

خلسة. على الرغم من أسفه على شعرها الطويل، لم يجد الرجل المسكين بدّاً من تنفيذ أمرها، فقصّه قصيراً «كما يفعل الرجال»، جرياً على الموضة الجديدة في باريس. وببضع ضربات مقصّ، تحولت الفتاة الرومانسية إلى مقاتلة بخوذة نُحاسية، مزيج من اللين والصلابة، مع شيء من الغموض تستلزمه روح العصر، قمين بإحباط كلّ من لا شاغل له غير الجري وراء النساء.

ولمّا عادت إلى البيت، هتفوا من شدّة استغرابهم من مظهرها. لكنّها لم تأبه بلوم أمّها ولا بانتقادات صديقاتها، اللواتي غِرْنَ من جسارتها أكثر ممّا خِفْنَ على تخييب أمل المعجبين بها. وهي غير نادمة على شيء. فبفعلها هذا قصدتْ إلى صرف الصورة الأسطورية التي طالما ألألفألهمت الرسامين، صورة جارية حسناء يسحبها رجل قويّ من شعرها الطويل.

هي الآن مستعدّة لمواجهة العالم.

ستتبوّأ سلمى في غضون أشهر مكانة مرموقة تُحسد عليها في المجتمع البيروتي الراقي. لم يكن ذلك بسبب كونها الأجمل بين النساء - فحسّادها كانوا يعيبون أنفها الأميل إلى الطول، وذقنها مثلث الشكل - بل لأنّ الرجال لا يلقون بالاً لهذه التفاصيل. هم يولعون ببسمتها الساحرة التي تجمع بين البراءة والإثارة، ورشاقتها التي لا تخلو من خرق، وطبعها المتحفّظ الذي يراوح بين الخجل والوقاحة.

وقد قرّرت الاستفادة من لقبها. فهي لن تكلّف نفسها تنظيم حفلات تدعو إليها من حضرت حفلاتهنّ، ولن تسدّد ما عليها من دين لهؤلاء المغفّلين: يكفيهم فخراً أنّ أميرة جلست إلى موائدهم. تفكّر أحياناً أنّ مثل هذا السلوك يحطّ من قيمتها، لكنّها تسارع إلى طرد هذه الأفكار المزعجة من ذهنها. أتملك خياراً آخر غير هذا؟ وحين تسألها أمل:

- ما أشدّ ما تغيّرت يا سلمى! ألأنت سعيدة؟

فتنهرها سلمى، وتجيب بأنّها طبعاً سعيدة! فهي تشعر بسلطتها تزداد

يوماً عن يوم، وولعها بالإغراء لا يتوقّف: لم تكن تعرف أنّه ممتع إلى هذا الحدّ!

أمّا السلطانة التي حثّتها على الخروج في البداية، فبدأ يساورها القلق، لأنّها لم تر بين هؤلاء الشباب الموسرين في بيروت من يناسب ابنتها. وكم ستكون الفضيحة كبيرة لو أنّها تتعلّق بمسيحي أو أيّ سنّيّ!

وتسأل الأم حين تروي لها ابنتها عن الحفلات التي ترتادها:

ـ أحقّاً أن لا أحد من هؤلاء الشباب أثار اهتمامك؟

فتردّ سلمى مُطمْئِنة وهي تضحك:

ـ لا تخشي عليّ يا أنيدجيم. فلدي قلب من حجر!

لم تخبرها بأنّها أقسمت على ألا تحبّ أبداً حتّى لا تتعذّب. فخلف قناع الأميرة اللامبالية تتخفّى المراهقة ابنة الثلاثة عشر ربيعاً التي هجرها حبيب العمر، وتركها تبكي.

كان الناس المحيطون بالسلطانة ينتقدونها على السماح لابنتها بكلّ هذه الحرية. فبالنسبة لهاته الأسر البرجوازية السنيّة التي ما زالت نساؤها يلبسن الحجاب، يمثّل تطور العادات الذي صاحب حلول الفرنسيين تهديداً لشرف الفتيات، ولتوازن العلاقات الموروثة، ومن ثمّة للمجتمع بأسره.

تقول بعض النساء إنّ هذه ليست هي المرّة الأولى التي يدفع فيها المستعمر الأوروبي الشعوب المستعمَرة إلى الفساد حتّى يسهل عليه التحكم فيها. فإذا قيل لهنّ إنّ الفرنسيين يعيشون كيفما يحلو لهم، ولا يجبرون أحداً على تقليدهم، أجَبْن بأنّ مجرّد الاطلاع على أسلوب حياتهم يعدّ إجباراً غير معلن بالنسبة للعقول الفتيّة.

وتعتب هؤلاء النساء على السلطانة، ويرين أنّ عليها، بحكم مكانتها، أن تكون أوّل من يحافظ على التقاليد. بل سألت إحداهن زينيل: «إن لم تكن قادرة على مراقبة ابنتها بسبب مرض قلبها، فلم لم

تعهد إليك أنت بذلك؟»، وتمالكت نفسها من أن تقول له: «أليس من أجل هذا نزعوا خصيتيك!».

فأجاب زينيل قبل أن يدير ظهره لهذه المرأة الوقحة:

ـ السلطانة خبيرة بما تفعل.

والواقع أنّه هو أيضاً كان يقدّر أنّ السلطانة تركت لسلمى كثيراً من الحرية. صحيح أنّها لم تخرج إلا بصحبة خيري، الذي كان يحرص على أن يلعب دور الوصي على أحسن وجه، أو مع «إخوانها وأخواتها الذين تبنّتهم العائلة»، مثل مروان وأمل. فلا خوف عليها إذن. بل إنّه هو من كان يرافقها في البداية إلى بعض الحفلات، وكان يمكث واقفاً أمام باب الصالون بزيّه التركي إلى جانب الخدم، ينظر إلى الشباب والشابات يرقصون. وسرعان ما أدرك أنّ وجوده هناك ليس مهيناً له فحسب، بما أنّه يقف مع الخدم وهو ليس بخادم، بل لا فائدة منه. ذلك أنّ الأمّهات كنّ يجلسن حول مضمار الرقص يثرثرن، ويحرُسن بناتهنّ، ولا يحوّلن عنهنّ عيونهنّ لحظة.

لكن ما كان يستهجنه زينيل هو المبدأ الذي تقوم عليه هاته الحفلات. فهو لا يفهم هذا الرقص الغربي، ولا يمكن أن يقبل هذا الاحتكاك الجسدي بين الرجال والنساء. وكان يجنّ جنونه لمجرّد التفكير في أن تتجرّأ يد رجل على الإمساك بذراع الأميرة، أو تطوّق خصرها. فهي من الطهارة بحيث لا يخطر ببالها ما يوجد خلف غطاء التربية الرفيع في أذهان الرجال. أمّا هو فيعرف.

هو يريد بطبيعة الحال أن تكون سلمى هي أجمل الفتيات، وأشدّهنّ إثارة للأنظار، لكنّه يريدها أيضاً شريفة ومحترمة. وهو حين يرى أولئك المعجبين بأنفسهم يحومون بها، يشعر بالرضا والاستياء في آن. يريدها أن تحظى بالإعجاب، لكنّه لا يطيق أن تُلمس. تتراءى له في خياله مثل تماثيل العذراء الصغيرة الهشّة التي يضعها النصارى داخل غلاف

زجاجي، ويعبدونها. فمن واجبه أن يحمي طفلته الصغيرة، حتى ولو كان ذلك ضدّ رغبتها. وهو سيفاتحها في ذلك.

ما كاد الخصي يشرع في الكلام حتّى نظرت إليه سلمى مشدوهة. على أنّ دهشتها سرعان ما تحوّلت إلى غضب: بأيّ حق يتحدّث إليها هكذا؟ لم تقبل قطّ اللوم إلا من أمّها، وأحياناً من أبيها، وإن كان ذلك منذ زمن بعيد. فكيف يجرؤ زينيل على عتابها؟ لقد أفقدته مسؤولياته الجديدة وثقة أمّها رشده... حتّى إنّه نسي من يكون هو ومن تكون هي!

لم تجبه، ولم تشرح له بأنّ مظهرها الجريء إنّما هو طريقة للدفاع وإخفاء رهافة حسّها. وهي لن تتنازل وتبرّر له سلوكها. لقد أغضبها تجاسره على انتقادها، وشعرت كما لو أنّه شتمها، كما لو أنّه تخلى عن وفائه لها، هو من ينبغي أن يبدي لها إعجابه الدائم، وإخلاصه الثابت.

ارتدت معطفها بحركة تنمّ عن التحدّي، ووضعت على رأسها القبعة الخضراء، ثمّ خرجت وصفقت الباب.

ـ ماذا جرى يا آغا؟

سمعت السلطانة التي كانت جالسة في الصالون الصغير حيث تقضي فترة ما بعد الظهر ضجيجاً غير مألوف. فلمّا رأت سحنة زينيل الممتقعة، استشعرت أنّ ثمّة أمراً خطيراً. ارتبك الخصي، فكان عليها أن تلحّ عليه لكي يتحدّث.

عندئذ انطلق يحكي لها كلّ شيء دفعة واحدة. حدّثها عن انتقادات الجارات، والثرثرات والتلميحات المخادعة وكذا عن شكوكه هو: هل يعقل أن تتصرّف أميرة عثمانية مثل أيّ فتاة من فتيات الطبقة الموسرة اللبنانية؟ ألا يتعيّن عليها أن تحافظ على مسافة بينها وبينهنّ، وتُعرض عن مخالطة من ليسن من طينتها؟ إنّ رؤية سلمى تضحك وترقص مع شباب ما كان لهم أن يحظوا بشرف النظر إليها لو لم تتغيّر الأحوال، يُحنقه ويثير حفيظته.

كان يتوقّع أن تؤيّد السلطانة رأيه أو أن تفهم قصده على الأقلّ. حين يفقد المرء ثروته، أليست كرامته هي كلّ ما يتبقى له؟ لم يكن ينتظر منها تلك النظرة الغاضبة والنبرة الفظّة.

ـ أنت لا تفهم شيئاً من هذا الأمر. أمّا الجارات، فلا تعنيني نمائمهنّ. لم أكن أظنّك تصغي إلى أحاديثهنّ بهذا الشغف!

شحب وجه زينيل، ولم تلبث السلطانة أن عادت إلى رقّتها.

ـ اسمع يا زينيل، لقد عرفتني حبيسة قصر جراغان... ألا تذكر كم كنت حزينة؟ حين يقضي المرء شبابه محبوساً مثلي، يعرف قيمة الحرية. لقد كنت حرّة في أرتاكوي رغم أنني لم أكن أخرج. أريد أن تشعر سلمى أيضاً بأنّها حرّة، وعليك أن تفهم أنّ الحرية في بيروت ليست هي نفسها في الأستانة. إن كان بوسع ابنتي أن تتسلّى في حدود معيّنة ـ وأنا أثق بها من هذه الناحية ـ فذلك يبهجني.

على أنّ خديجة سلطان لم تشر إلى المبرّر الثاني لتسامحها، وهو مبرّر مرتبط بمرضها. هي تعلم أنّها قد تعيش عشرين سنة أخرى، لكنّها تعلم أيضاً أنّ أزمة يمكن أن تلمّ بها في أيّ وقت، وقد تؤدي بحياتها. فإذا بقيت ابنتها ساذجة وبريئة مثل معظم الفتيات اللواتي تغالي أسرهنّ في حمايتهنّ، واللواتي لا تعرفن شيئاً من الحياة، فماذا سيكون مصيرها إذن؟ ذلك أنّ المآسي التي عاشتها السلطانة منذ طفولتها، وطلاقها مرّتين، وانهيار الإمبراطورية، والإفلاس والنفي، كلّ ذلك خلّصها من الأحكام المسبقة. لا يسوؤها أن تتمرّس سلمى وتخبر الحياة، حتّى إذا ما وجدت نفسها ذات يوم وحيدة، تكون قادرة على المواجهة.



٦

ـ فيلاديتين تيدريك إيديرنيم! بارك الله يوم ميلادك! ولتزهر طويلاً ورود خدودك، ولتملأ عطور الجنان أنفك، ولتكن حياتك عسلاً وحليباً!

اجتمعت الأسرة في الصالون الأصفر الذي زينته القلفاوتان بباقات أزهار الجلجل والداتورة احتفالاً بعيد ميلاد سلمى العشرين. وقدُ رصّت الهدايا التي تلقتها بعناية على المائدة الخشبية المذهّبة، ولُفّت في الورق الصقيل. أهدتها نيرفين وليلى هانم مناديل رفيعة من الباتيستا، طرّزتا عليها اسم سلمى يعلوه تاج. وأهداها زينيل قارورة عطر فاخر من نوع «كريب دو شين» الذي تُصنّعه دار ميلو. فقد اضطر إلى حرمان نفسه من التبغ لأسابيع حتّى يتمكن من شرائه. وقدّم لها شقيقها خيري علبة فواكه معسّلة، وهي هدية يمكن أن يفيد منها كلّ أفراد البيت. أمّا السلطانة فنشرت على مقعدها معطف فرو رائع تذكّرت سلمى أنّها رأته على أمّها عندما كانت تحضر حفلات طولمة باغجه، فقالت معترضة:

ـ لماذا يا أنيدجيم...؟

ـ لم أعد أرتديه يا حبيبتي، ويسرّني أن أراه عليك.

ثمّ أضافت وهي تضحك:

ـ لطالما قلت في نفسي إن ارتدى هذا الفرو الجميل وجه تملؤه التجاعيد سيسيء إليه. أمّا إن لامسته بشرة غضّة، فستبعث فيه الحياة من جديد!

وأوقدت نيرفين هانم العشرين شمعة التي تعلو حلوى الشكولاطة الضخمة. كانت قد استيقظت عند الفجر لكي تحضرها، وهي تعلم مقدار نهم أميرتها. قالت في نفسها إنّه من غير اللائق أن تقدّم في عيد ميلادها حلوى أُعدّت في اليوم السابق.

راحت سلمى تتأمّل الشُّعلات المتراقصة، وشيئاً فشيئاً لاحت لها كما لو أنّها أخذت تتحوّل وتكبر وتتكاثر. وتراءت لها مئات الشُّعلات المتلألئة في ثريات قصر أورتاكوي البلّورية. كانت توقَد كلّها على شرفها في أعياد ميلاد طفولتها. وعادت بها الذاكرة إلى كلّ تفصيل من تفاصيل تلك الحفلات الباهرة: استيقاظها على أنغام الفرقة الموسيقية النسائية، واستمتاعها بالمعزوفات التي تروقها بينما تنهمك الخادمات في تزيينها، ثمّ القلفاوات الصغيرات الاثنتا عشرة اللواتي يتسربلن باللباس الجديد الذي أهدتهنّ السلطانة إيّاه، فترافقنها إلى قاعة المثلّجات حيث ينتظرها أبوها وأمّها وكلّ العاملين بالحرملك. وعند دخولها، تعزف الفرقة معزوفة عيد الميلاد، وكانت عضوات الفرقة يلحنّ في كلّ سنة معزوفة جديدة. وبينما تعبر سلمى القاعة، تمطرها القلفاوات بأزهار الياسمين، فيعبق المكان بعطرها.

ثمّ يبدأ توزيع الهدايا، هدايا انتقتها سلمى مع السلطانة لكلّ خادمة من خادمات القصر. ذلك أنّ الناس في الشرق يسعدون بتقديم الهدايا أكثر من سعادتهم باستقبالها، ويحرصون على أن تكون حفلات أعياد الميلاد لحظة يفرح فيها كلّ من يحيطون بصاحب الحفل. وعند الانتهاء من التوزيع وسط هتافات الفرح، تتقدّم خادمتان وتسحبان بساطاً حريرياً يخفي جبلاً من العلب ذات أشكال وألوان متباينة.

يتطلّب فتح هذه العلب والاطلاع على ما فيها ساعتين أو ثلاثاً. وهي تضمّ هدايا بسيطة تقدّمها القلفاوات والإماء الصغيرات، وعلباً فارغة التي يقدّمها خيري على سبيل المزاح، ثمّ هناك الهدايا الرائعة التي تقدّمها السلطانة ورؤوف بك. وما زالت سلمى تذكر على الخصوص عيد

ميلادها الثالث عشر، أيّ الأخير... فقد كان أبوها قد استقدم من كارتيي، بائع المجوهرات الباريسي الشهير، ساعة عجيبة لم تعرف الصبية ما هي من أول نظرة، ذات ميناء بلوريّ يحيط به لؤلؤ وماس. أما عقاربها فكانت من الماس أيضاً، ورقّاصها من الذهب، معلّق بين عمودين صغيرين من الكوارتز الوردي، وهو ينعكس في قاعدة من البلّور الصخري.

وعند مغادرة الأستانة، وهبت سلمى، بقلب منقبض، هذه الساعة لغولفيليس: لم تكن تريد أن تحتفظ بشيء يذكّرها بهذا الأب الذي لم يعد يحبّها. لكنّها اليوم نادمة على هذه الجوهرة التي تشهد على رفعة ذوق ذاك الذي لا تستطيع نسيانه... ماذا تراه كان سيهديها في عيد ميلادها العشرين؟

رأت نفسها من خلال الشعلات المترنّحة في فستان ذي ذيل طويل، وعلى جبينها تاج، تمشي وسط حديقتها المزّينة بباقات أزهار زاهية الألوان، على إيقاع أنغام رومانسية تعزفها فرق مختفية بين الأشجار، وقد عرّضت وجهها لنسيم البوسفور، تحفّ بها نساء يرتدين قفاطين مطرّزة بخيوط الذهب، يسرعن الخطو مبتهجات بسعادتها...

ويبدأ الشمع في الذوبان على حلوى الشوكولاطة، فتستجمع أنفاسها وتنفخ نفخة واحدة تطفئ كلّ الشموع، فتمضي القلفاوتان تصفّقان بحرارة متنبّئتين بزواج الأميرة في تلك السنة.

تتزوّج؟ ممّن؟... تعلم سلمى أنّ أمّها عادت إلى التراسل مع إحدى عائلات الأمراء، كانت تابعة للإمبراطورية، وهي تحدس أنّها تمثّل موضوع تلك المراسلات، لكنّها تتظاهر باللامبالاة. فهي تعتبر نفسها ما تزال صغيرة على الزواج، لا سيما أنها بدأت تستمرئ مغازلات الشبان، ولا ترغب في أن تضع حدّاً لذلك بهذه السرعة!

على أنّها حين علمت بزواج أمبرطو، أمير إيطاليا، من ماري

جوزي، أميرة بلجيكا، وأنّ عشرة ملوك وستين أميرة ساروا في موكب عرسهما، لم تستطع أن تتمالك نفسها من أن تغبطهما، وقالت في سرّها إنّها لن تحظى بعرس مهيب كهذا أبداً، رغم أنّها تفوق هذه المدعوة ماري جوزي جمالاً، ولا تقل عنها نبلاً وشرفاً! فهي لا تملك شيئاً تهديه للعريس غير نفسها...

كانت الإضرابات والمظاهرات تشلّ مدينة بيروت في هذا الخريف من سنة ١٩٣١. وراحت قوّات الشرطة تصطدم بالمواطنين لأتفه الأسباب أحياناً، من قبيل انتفاض الطلبة من أجل الحصول على تذاكر السينما بثمن أرخص. وقد قاد مجموعة من التجار والطلبة والأعيان حملة مقاطعة الترام والكهرباء دامت إلى نهاية شهر يونيو/ حزيران. وللتضامن معهم عقد البرلمان بعض جلساته تحت ضوء الشموع، حتّى إنّ الحكومة التي عيّنها المندوب السامي الفرنسي اضطرت إلى التنازل ومطالبة الشركة صاحبة الامتياز بخفض الأسعار. وهي شركة أجنبية فرنسية بلجيكية على غرار معظم الشركات التي تتحكّم في اقتصاد لبنان منذ بداية الانتداب. والواقع أنّ ما كان يشجبه اللبنانيون هي هذه الشركات الأجنبية، ويتّهمون فرنسا بأنّها إنّما بسطت نفوذها على لبنان لكي تفرض ضرائب ثقيلة تدفع منها رواتب «جيش من الموظفين الذين لا يرجى منهم خير»، وتُصدّر ما تعيشه من تضخم بربط الليرة اللبنانية بالفرنك الفرنسي. كذلك يتّهمونها بعدم احترام الدستور الذي أقرّته للبلاد سنة ١٩٢٦. ذلك أنّ المندوب السامي هنري بانصو، الذي حلّ محلّ هنري جوفينيل، ألغى البرلمان، وعزّز السلطة التنفيذية على حساب السلطة التشريعية، وفرض إعادة انتخاب تابعه شارل دباس.

كان مروان الذي يدرس الحقوق في الجامعة الأمريكية يعود إلى البيت كلّ يوم حانقاً. ذلك أن الطلاب، بمن فيهم زملاؤه المارونيون بدأوا يظهرون التذمّر من وضع بلدهم تحت الانتداب. كان يتحدّث همساً إلى أخته وإلى سلمى عن شخص يدعى أنطوان سعادة، وهو لبناني

مسيحي في نحو الثلاثين من عمره، نشأ بين البرازيل وألمانيا، عاد إلى بيروت، وأسّس جمعية سرية انضمّ إليها شباب من مختلف الديانات: هدفهم هو التخلّص من الاستعمار الفرنسي، وبعث سوريا العظمى التي تضمّ، حسب تصوّرهم، لبنان وفلسطين. يحلمون بسوريا موحّدة، تحفّز العالم العربي وتقاوم كلّ تدخّل أجنبي.

كانت سلمى تتفهّم نقمة أصدقائها، هي من عانت في تركيا من المطالبة بالاستقلال، وفضيحة الاحتلال الذي أطلقوا عليه ديبلوماسياً اسم الانتداب. أصبحوا جميعهم مولعين بالسياسة، لذلك لربّما تغيّرت الأوضاع في السنة القادمة إثر الانتخابات.

كان معظم من تقدّموا للانتخابات الرئاسية من المارونيين. وكان أشهرهم هو إميل إدّة، رجل ضئيل في السابعة والأربعين من عمره، معروف باستقامته وتعاطفه مع الفرنسيين، وكذلك بشارة الخوري، وهو محام مرموق، أكثر انفتاحاً على العالم العربي، وشديد الانتقاد للانتداب. ولأوّل مرّة يتقدّم لمنافستهم مرشّح مسلم هو الشيخ محمد الجسر، رئيس البرلمان. وهو رجل وسيم، ذو لحية بيضاء، يحظى باحترام المسلمين والمسيحيين على حدّ سواء. ذلك أنّه قدّم خدمة جليلة للطائفة المارونية، وحال دون نفي بطريركها لمّا كان نائباً في العهد العثماني، ثمّ نائباً لحاكم بيروت. وهو فضلاً عن ذلك لا يحظى بدعم الشيعة والسنة والدروز فحسب، بل حتّى بتأييد كثير من الإغريق الأرثوذكس والمارونيين. وهو يملك حظوظا كبيرة في الفوز بالرئاسة مقابل المعسكر المسيحي الذي لا يجتمع على كلمة سواء.

أيُمكن أن يتقلّد منصب رئاسة لبنان مسلم؟ بالنسبة لكثير من المسيحيين اللبنانيين، وكذلك بالنسبة لفرنسا التي اقتطعت لهم بلداً على المقاس لكي توجِد لنفسها حليفاً موثوقاً به في الشرق الأوسط، هذا أمر غير وارد تماماً، لأنّ ذلك قد يلقي بالبلد في فلك سوريا والعرب!

لم يكن الأمر وارداً بحيث إنّ المندوب السامي هنري بانصو لمّا رأى

البرلمان، بعد سنة من ذلك، على وشك أن ينتخِب الشيخ الجسر ـ بعد أن قرّر حتّى إميل إده مساندته لأسباب تتعلّق بالاستراتيجية الانتخابية ـ فضّل تعليق العمل بالدستور ثلاثة أيّام قبل الاقتراع. وبذلك استمرّ شارل دباس رئيساً للبلاد عشرين شهراً أخرى، يحكم بمراسيم وقرارات تصاغ مسبقاً في السراي الكبير. لكنّ نجاح الإضرابات في هذا الصيف من سنة ١٩٣١، شجّع الناس على الجهر بإدانة سلطات الانتداب الاستبدادية.

كانت سلمى تنفق ساعات طويلة في النقاش مع مروان وأمل، معبّرة عن سخطها من موقف الفرنسيين، ومتحمّسة للشيخ الجسر الذي كان صديقاً للسلطانة. وكان يبذل كلّ ما في وسعه لإعانتها منذ أن حلّت بلبنان. ذلك أنّه لم ينس تلك الليلة التي قضاها في قصر دولمة باغجة، وهو ما يزال في الرابعة من عمره، برفقة أبيه الذي نزل ضيفاً على عبد الحميد. وظلّت سلمى تصطفّ في معسكر المؤيّدين الأكثر حماساً للشيخ إلى أن نهرها ابن عمّها أورهان الذي جاء مع خيري إلى شارع مار إلياس.

ـ كلّ هذا لا يعنيك أيّتها الأميرة، ولا شأن لك به!

ومضى أورهان يؤنّبها طيلة طريق العودة.

ـ أجننت يا سلمى؟ أترغبين في أن نُطرَد جميعاً من هنا؟ إلى أين سنذهب؟ أرجو أن تحفظي لسانك. فنحن هنا لسنا في بلادنا.

كانت تتصرّف كما لو أنّها نسيت ذلك! لكن عليها أن تعترف بأنّ أورهان كان على حقّ. فالناس ما زالوا ينظرون إلى أفراد الأسرة العثمانية بوصفهم السادة القدامى، ومن ثمّة لا يحقّ لهم التحيّز لجهة على أخرى. ثمّ أضاف:

ـ عليك أن تلزمي الحياد حتى لما تكونين مع أصدقائك. فلا شيء يُحفظ في السرّ.

تدرك سلمى أنّ هذا هو التصرّف السليم، لكنّها تجد مشقّة في قبوله. ذلك أنّها ورثت عن أمّها وأسلافها الولع بالسياسة والكفاح من أجل

قضية كبرى. هذا الولع الذي ظهرت مخايله منذ أن كانت في التاسعة من عمرها، لمّا آلت على نفسها أن تنقذ تركيا عند رؤية الجماهير تبكي في ميدان السلطان أحمد. لكنّها لا تعرف الآن ماذا ستصنع بهذا الولع بعد أن فقدت بلدها، وصارت مجرّد ضيفة...

لم يعد لها غير العلاقات الاجتماعية. تنصرف في الليل إلى العشاءات والحفلات حيث يروقها أن تتألّق، وفي النهار تلوذ بالسينما، لأنّها تكره لعب الورق أو لقاء صديقاتها لشرب الشاي والخوض في النمائم. كما أنّها لا تملك المال لتقضي وقتها لدى الخياطة أو الحلاق. ولولا عروض الأفلام في ريالطو وماجيستيك لبدت المساءات طويلة.

كانت هوليوود قد فرضت نفسها عاصمة للفن السابع منذ عشر سنوات. وقد وصف ونستون تشرشل، الذي كان قد اعتزل السياسة مؤقتاً، وزار الولايات المتّحدة، في مقال نشر في يومية «لوريفاي» le Réveil، إحدى أكبر جريدتين في لبنان، هذه المدينة الجديدة بأنّها عبارة عن «حفل تنكري في بلاد الجنّيات». فـ«الاستديوهات تغطي آلاف الفدادين، وتؤوي آلاف الممثلين والمتخصّصين الذين يحصلون على رواتب عالية. وهناك جيوش من العمّال يشيّدون بسرعة شوارع صينية ولندنية وهندية. ويجري تصوير عشرين فيلماً بشكل متزامن. إنّه عالم لا شيء يسمو فيه على الشباب والجمال».

ومهما يكن، فقد صارت نجمات هوليوود هنّ إمبراطورات هذا العالم. هنّ من يفرضن معايير الموضة النسائية في العالم بأسره. فإذا ظهرن على الشاشة، اهتزّت لظهورهنّ الجماهير. وما من ملكة، مهما كانت شعبيّتها، بلغت يوماً ما بلغته «الملاك الأزرق» أو «المرأة الإلهية» «la Divine»... وقد شاهدت سلمى مراراً كلّ فيلم من أفلامهنّ. فمارلين تهزّ كيانها وتفتنها. وقد كان تجسيدها لشخصية «لولا»، بصوتها الأجش وشبقيّتها المربكة لمّا تغني «مترعة بحبّك من رأسي إلى قدمي»، اكتشافاً حقيقيّاً بالنسبة للفتاة المراهقة. أيمكن أن تصيب امرأة حقّاً الرجال بكل

هذا الجنون؟ لكنّها تجدها أجمل في فيلم «موروركو» حين سحرت، وهي ترتدي السموكنغ، الجندي غاري كوبر، أو لمّا شاهدتها في فيلم «ماتا ـ هاري» تؤدّي دور رُبّانة طائرة ببزّتها الأنيقة، ودور امرأة ساحرة قاتلة، مُستعملة شفرة سيف الضابط المكلّف بإعدامها كمرآة لتسوّي أحمر شفتيها الجميلتين.

على أن الممثلة التي تفتنها أكثر هي غريتا غاربو، بحيث كانت تحلم بأن تشبهها. لذلك نتفت حاجبيها، وحلقت شعرها على منوالها. وكانت تقضي ساعات أمام المرآة تحاول تقليد حركاتها التي لا تخلو من نزق، ومشيتها الرشيقة، وتعابير وجهها اللامبالية التي تخفي شعلة تلمس فيها سلمى ما يكتنفها من شغف. وتبعاً لما تؤدّيه من أدوار في أفلامها، كدور آنا كارانينا الخليعة في فيلم «الحب»، أو دور المومس في الفيلم الذي يحمل نفس العنوان (*La Courtisane*) أو «ماتا ـ هاري»، يتغيّر مزاج سلمى وتصرّفاتها، بحيث تبدو مرهفة رومانسية تارة، ومنفعلة وقحة أخرى، حتّى إن زينيل والقلفاوتين يروحون ينظرون إليها باستغراب من دون أن يفهموا لهذا التقلّب سبباً.

وبينما كانت سلمى في إحدى الحفلات التي تنظّمها أسرة طرّاد، وهي أسرة يعدّ أفرادها من أشهر أصحاب المصارف في بيروت، أثار انتباهها رجل في نحو الخمسين من العمر، لم يكفّ عن النظر إليها طيلة العشاء. وعند انتقالهم إلى الصالون لاحتساء القهوة، دنا منها وبادرها:

ـ أظنّ أن أصحاب البيت نسوا تقديمنا... أنا ريشار مورفي، المدير الفني لشركة ميترو غولدوين ماير، حللت ببلدكم الرائع لبضعة أسابيع. اعذريني إن كنت تطفّلت عليك. منذ بداية السهرة وأنا أراقبك، أأنت ممثلة؟

سُرّت سلمى بهذا التقريظ، وندّت عنها ضحكة خفيّة.

ـ أبدوت لك كذلك؟

ـ أنت جميلة بكلّ تأكيد، لكن ليس هذا هو المهمّ. فأنت تتمتّعين

بـ«جاذبية» خاصة، وهذا أمر نادر جداً. هل فكّرت يوماً في العمل بالسينما؟

ـ لا أظنّني قادرة على ذلك...

ـ لا تبالغي في التواضع! فالحركة أمام الكاميرا حرفة تُكتسب. لكنّ ما ينقص هوليوود هو وجود شابّات مثلك يجمعن بين الحيويّة والرشاقة، ولاسيما الأبّهة! اسمحي لي أن أقول لك أمراً قلّما قلته لأحد: تملكين كلّ مقومات النجمات الكبيرات. ما اسمك؟

ـ سلمى...

ـ ممتاز! في غضون سنة سيشتهر هذا الاسم في العالم بأسره، لأنّني سأقودك يا آنسة سلمى إلى المجد. هل تسمحين لي بذلك؟

ما لم يقله ريشار مورفي هو أنّه استخبر عن سلمى، وعرف من تكون، وهذا هو ما يهمّه بالمقام الأوّل. فإذا كان جمال الشابة وحده لن يجعل منها في الغالب إلا ممثّلة تافهة... فإن الشيء الأهمّ هو أنها أميرة! أميرة في هوليوود!... وراح يحزّر من الآن عناوين الصحف. ذلك أنّ الأمريكان يعشقون كلّ ما يفوح برائحة الأرستقراطية. وهكذا، فحتّى إن كانت أفلام حفيدة السلطان سخيفة، ستتمكّن شركة ميترو غولدوين ماير من التفوق على شركات كولومبيا ووارنر وفوكس!

على أنّ الأمر لم يكن بهذه السهولة. فالسلطانة المعروفة بتشدّدها، لا يمكن أن تسمح لبنتها بممارسة مهنة تعتبر أقرب إلى مهنة المومسات. هذا علاوة على أنّها ستضطرّ إلى السفر إلى الطرف الآخر من الكرة الأرضية، إلى هوليوود، معقل كلّ الرذائل! وابتسم ريشار مورفي في سرّه وهو يقول: «ماذا لو قبلت الأمّ مرافقة البنت لكي تراقبها؟... سلطانة عجوز محجّبة في هوليوود؟ سيكون ذلك رائعاً، ولكن... لا ينبغي الاستغراق في الأحلام: ينبغي إقناع الفتاة وإغراؤها بما يمكن أن تصيبه من مجد بحيث يصير بمستطاعها الاستغناء عن أمّها إن لزم الأمر.

فهي راشدة على كل حال، وها هو الحظ يمدّ لها يده، ويضع مصيرها كلّه على المحك.

هذا ما سيحاول ريشار مورفي أن يقنع سلمى به. سيقيم عند عائلة طرّاد، وسيدعوها لشرب الشاي كلّ يوم. لا ينبغي أن يترك لها الوقت لكي تفكّر، وهو يعرف الخطوات التي يجب أن يتّبعها مع مثيلاتها من الفتيات الطموحات الساذجات اللواتي لم يعرف الفشل معهنّ قطّ.

استوت السلطانة على مقعدها مقطّبة كما لو أنّها تحاول أن تتعرّف على الشخصية الغريبة التي تتحدّث إليها، وقالت:

ـ لا بدّ أنّك جننت تماماً يا سلمى!

وتستأنف سلمى للمرّة الثالثة شرحها.

ـ أرجوك يا أنيدجيم، حاولي أن تفهمي كلامي: ميترو غولدوين ماير هي أكبر شركة سينمائية في العالم، وهم يريدونني أن أشتغل معهم، وعرضوا علي عقد عمل من ذهب! خمسة أفلام في السنة، أؤدّي في كلّ منها دور البطولة. هل تعلمين كم سيمنحونني؟ ١٠٠٠٠٠ دولار في السنة! سنتمكّن من شراء قصر يا أنيدجيم، وستعيشين في هناء إلى آخر أيامك.

ـ أنت ما تزالين طفلة، ولا تعرفين الوسط الذي يعيش فيه الممثلون وما فيه من فجور وفساد...

فهتفت سلمى:

ـ ولكنّني أعرف كيف سأفرض عليهم احترامي! هذا فضلاً على أنّني اشترطت عليهم ألا أؤدّي أدواراً جريئة، وقبلوا الشرط.

ـ أدواراً جريئة!... وقبلوا!... هذا لطف منهم. يخيّل إليّ الآن أنّني أنا من أصبت بالجنون حقّاً! كفى، لن أناقش هذا المشروع الأخرق.

شعرت سلمى بالدموع تترقرق في عينيها، فلم تحاول تمالكها. قامت وعبرت الغرفة بخطوات واسعة حانقة.

ـ لقد بدأتُ أضيق ذرعاً بهذه الحياة! وضجرتُ من حفلات الشاي الراقصة والسهرات... أربع سنوات مرّت على مغادرتي المدرسة، وأنا الآن في الواحد والعشرين من عمري. الوقت يمضي بسرعة وأنا ما زلت لم أفعل شيئاً يفيدني في حياتي!

شعرت السلطانة أمام نوبة الغضب هذه بمرارة وإحباط حرّكا مشاعرها. هي أيضاً مقتنعة بأنّ ابنتها لا يمكن أن تكتفي بهذه اللقاءات والحفلات لفترة طويلة. فقالت بصوت أرادته أن يكون مفعماً بالحنان:

ـ هيّا يا سلمى، لا تنظري إلى الأمور بهذه العين السوداوية... فأنت تملكين شخصية أقوى من أن تستمرّي في العيش هكذا... ينبغي أن تتزوّجي.

فتوقّفت وسألت بنبرة هازئة:

ـ وأين هو عريس الأحلام؟

فأجابت السلطانة من دون أن تتخلّى عن هدوئها:

ـ فكّرت في أنّه يلزمك ملك.

تطلّعت إليها سلمى مذهولة، إذ لم تعهد في أمّها المزاح، وقالت:

ـ ملك؟ ولكن...

واسترسلت السلطانة متظاهرة بعدم ملاحظة ذهول ابنتها قائلة:

ـ ما زال يوجد بعض الملوك على الأرض بفضل الله. ومن فكّرت فيه عريساً لك هو زوغو، ملك ألبانيا. لقد جرت بيننا بعض الاتصالات السرّيّة بطبيعة الحال. أنت تعلمين أنّ أخته تزوّجت من خالك الأمير عبيد، أصغر أبناء السلطان عبد الحميد. وهذا سهّل المفاوضات... لا أخفيك أنّ الملك زوغو ليس من كبار الملوك، إذ إنه لا يحكم سوى مليونين من الرعايا تقريباً. لكنّه شابّ وسيم. ويبدو أنّه حسن التربية، ولا شيء يشينه. وهو علاوة على ذلك يتحدّث اللغة التركية بطلاقة، لأنه درس في الأستانة، ويكنّ لأسرتنا كلّ الاحترام.

يزعم بعضهم أنّ الملك زوغو أو أحمد زوغلو حديث النعمة، ينحدر من أسرة ليست على قدر كبير من النبل، وأنّهم استولوا على الحكم إثر انقلاب، لكنّهم نجحوا في إعادة النظام إلى هذا البلد الفقير الذي ظلّت تمزّقه منذ استقلاله سنة ١٩١٣ الصراعات بين الفصائل. إنّه رجل شجاع. يُشاع أنّه ليس فائق الذكاء، لكن هذا أفضل على كلّ حال: سيسهل عليك الهيمنة عليه. فما رأيك؟ أيسرّك أن تكوني ملكة؟

«يا له من دور!»، جفا النوم سلمى وقضت ليلتها تتقلّب في الفراش. وبدت لها أضواء هوليوود فجأة خدّاعة وتافهة: ستصير ملكة حقيقية لا ملكة سيلولويد! وقرّرت أن تخبر منتج ميترو غولدوين ماير بأنّها لم تعد ترغب في توقيع العقد، وأنّ لديها ما هو أفضل! وتخيّلت دهشته: سيفغر فاه بحيث يصير أوسع من فم الأسد الذي جعلت منه الشركة شعارها، وسيطرح عليها مئات الأسئلة. وبطبيعة الحال لن تجيب عنها.

ستغوص سلمى خلال الأسابيع الموالية في كلّ الكتب والمجلات التي تتحدّث عن ألبانيا. قامت بصحبة أمل، وهي الوحيدة التي أطلعتها على السرّ، بالطواف على كلّ مكتبات المدينة. وقضتا وقتاً طويلاً في القراءة والنقاش. ولم يكن ما اكتشفتاه يبعث كلّه على الفرح. من المؤكّد أنّ هذا البلد الجبلي بالغ الجمال، وسكّانه، الذين يتميّزون بالخشونة والوفاء، عرفوا كيف يحافظون على عاداتهم الموروثة وعلى معنى الشرف. لكن إذا كان البلد الذي طالما مزّقته الصراعات الداخلية بين الأسر الإقطاعية الكبيرة قد استعاد هدوءه، فلأن الملك زوغو، كما تذكر بعض الصحف، لا يتردّد في التخلّص ممّن يزعجونه. بالمقابل تشيد جرائد أخرى بكرمه، وتشير إلى أنّه حين يقدّم هدايا لأصدقائه وأفراد عائلته، لا يفرّق بين ماله الخاص والمال العام.

ولم تصدّق سلمى شيئاً من كلّ ذلك. فالناس مولعون بنواقص العظماء ومثالبهم. ولا أدلّ على ذلك من النمائم التي أشيعت حول أسرتها خلال السنوات الأخيرة التي قضوها في تركيا. ألم يفتروا على

السلطان وقالوا إنّه حمل معه جزءاً من ثروته ومخلفات الرسول؟ استفادت من كلّ ذلك أنّ ما يقدّم على أنّه وقائع موثوقة لا يعدو أن يكون في الحقيقة بهتاناً باطلاً.

وفي المقابل أثارت الأرقام والتفاصيل التي تتعلّق بفقر البلد وتأخّره انتباهها. فهو بحاجة إلى المستشفيات والمدارس. وراحت تتخيّل منذ الآن البسمة الواثقة للنساء والأطفال الذين قرّرت أن تنقطع إلى العناية بهم. هي تعلم أنّ مهمّتها لن تكون سهلة، إذ عليها أن تغيّر العادات، وتواجه الأعراف المتمكّنة، لكن عليها أن تكافح. وشعرت بنفسها فجأة قويّة بالحب الذي يكنّه لها شعب بكامله.

وبنوع من الاندفاع تطوّق خصر صديقتها، وتقول:

ـ لن تنسيني وستأتين كثيراً لزيارتي، أليس كذلك؟

فتقبّلها أمل برقة.

ـ أعدك بأن آتي.

كانت تشارك سلمى سعادتها. على أنّها تشاركها أيضاً هواجسها من هذا المستقبل الذي لم تكونا قادرتين على تصوّر تفاصيله رغم مطالعاتهما وما جمعتاه من معلومات من هنا وهناك.

وقد كانت أمل تعرف، بحكم انحدارها من جبل الدروز، مدى خشونة طباع أبناء الجبل. أمّا سلمى فهي بنت الحاضرة، نشأت على رقّة المدن الشاطئية ذات الإيقاع الشرقي البطيء والأخلاق المهذّبة. فكيف ستواجه هذه الخشونة التي لم تعتد عليها؟ وراحت تداعب، وهي مستغرقة، الخصلات الحمراء والكتفين الناعمين. وتساءلت عمّا إذا كانت السلطانة قد قامت بالاختيار الأمثل، وما إذا كان هذا المستقبل المشرق سيجلب السعادة إلى هذه الفتاة التي تحبّها أكثر من أختها. لكنّها لن تقول شيئاً. فإذا كان مقدّراً لسلمى أن تصير ملكة، فلا مندوحة من أن يتحقّق ذلك.

صارت سلمى منذ ذلك الحين تختلي بزينيل بمجرّد ما تعود إلى

البيت، ويستغرقان في الحديث لساعات عن «بلدهما» وغاباته المترامية وشلالاته وقراه الجميلة، المشيّدة من الحجارة البيضاء، الجاثمة على منحدرات الجبال، وعن ليالي الشتاء الطويلة حول المدفأة حيث يروي الناس حكايات فرسان شجعان تحميهم الجنّيات، وقصة العنزة الصغيرة التي تزّوجها الأمير، لأنّ خلف فروها وقرنيها تختفي «حسناء الأرض»، وقصة «الدبّ التائب» و«المُهر الساحر»...

كان زينيل ما يزال في الثالثة عشرة من عمره لمّا أخذه جنود السلطان إلى عاصمة الإمبراطورية. وقد حاول أن ينسى، ونجح في ذلك جزئياً. لكنّه الآن يتذكّر كلّ التفاصيل، كما لو وقع ذلك بالأمس...

هذا الزواج في نظر الخصيّ إشارة من السماء تؤكّد ذلك اليقين الأهوج الذي تملّكه تلك الليلة في قصر أورتاكوي بالأستانة حين كان هو... والسلطانة...

هكذا ستعود ابنته الصغيرة إلى أصول دمها. وهي تجهل بأنّ كيّانها هو من يدفعها إلى هذا البلد المجهول الذي تنحدر منه. وبذلك سيصير هو، ذلك الفلاح الصغير الذي كان يجري حافياً في الجبل، ينهشه الجوع والبرد، ولم يجرؤ قطّ على رفع عينيه في المختار، حاكم القرية، سيصير صهر ملكه!

فينشرح صدره زهواً وفرحاً، وتتملّكه الرغبة في الغناء، فتنبعث في أغوار ذاكرته بقايا أغانٍ قديمة يغنينها لطفلته التي ستصير ملكة. فيشرع يردّد بصوته الرخيم الكلمات التي كان يسمع أمّه تغنّيها في صغره.

أريد أن آتي عندك أيتها النعجة الصغيرة ذات العينين الكحيلتين
أريد أن آتي عندك أيتها المكتنزة
وأجلس على كرسي
لأشرب خمراً
في كوبورديّ

لكي تسعدي طول حياتك أيّتها النعجة الصغيرة
طول حياتك يا مكتنزة.

فتبادره سلمى:

ـ واصل يا آغا، واصل!

ويعجب من رؤية سلمى متعلّقة بشفتيه، مستعذبة هذه النتف من أغانٍ مبتورة، ويقول في نفسه إنّها تشعر في أعماق فؤادها بأنّها أغانيها.

ومرّ شهران من دون أن تصل أخبار من ألبانيا. فبعد أن أبدت السلطانة موافقتها المبدئية، ترفض الآن أن تكون هي من تستأنف المراسلات. هي تعلم أنّ هذه المحادثات صعبة بطبيعتها، وتحتاج إلى وقت، وتعرف أنّ عدم التريّث فيها قد تكون له عواقب كارثية.

وذات يوم وصلت أخيراً الرسالة التي طالما انتظروها، مختومة بالخاتم الملكي. بعثها كاتب للملك الخاص، وهو رجل مميّز عرفته السلطانة مذ كان يعمل في الأستانة. يقول فيها بعد عبارات المجاملات المعتادة والتمنيات بالصحة والرخاء للأسرة الإمبراطورية:

«إنك تعرفين أيّتها السلطانة أنّه بعد زواج أخت جلالته بصاحب السمو الأمير عابد، قرّر مصطفى كمال قطع العلاقات مع ألبانيا. غير أنّ الملك مضطرّ لأسباب متعدّدة لا تجهلينها إلى إعادة العلاقات مع تركيا. وبذلك فإنّ الزواج من أميرة عثمانية سيفسد إلى الأبد ذلك التفاهم الضروري بين بلدينا.

لهذا فإنّ جلالته مضطرّ ـ ببالغ الأسف ـ إلى صرف النظر عن هذا المشروع العزيز على قلبه. وأنت تعلمين أنّ الملك يقدم مصلحة البلاد على أمانيه الشخصيّة.

تقبّلي أيتها السلطانة...».

مدّت السلطانة وقد علاها الشحوب الرسالة لسلمى، فتناولتها. وما إن قرأتها حتّى انفجرت ضاحكة ثمّ مزّقتها بكلّ هدوء.

٧

حلّ الغسق، ولاحت في السماء كتائب سحب وأنوار ورماد تتّجه في صفوف مرصوصة نحو الغرب. أمّا العصافير فراحت تحوم مذهولة للحاق بالشمس. وتنفّست الأرض أخيراً بعدما تخلّصت من وطء الإنسان، فتركت النسغ يصعد من أعماقها، ويضوع بالعبق.

كانت سلمى جالسة في شرفة غرفتها وقد استندت إلى الشبّاك تنصت للآذان تتخلّله رنّات نواقيس كنيسة القديس لويس القريبة من المسجد، معلنة عن قدّاس المساء. عليها أن تلبس لتخرج، ذلك أنّ عائلة ثابت، وهي من أغنى العائلات، تقيم حفلاً على شرف المندوب السامي الجديد، الكونت داميان دو مارتيل. ويقال إنّه دبلوماسي محنّك، حادّ الذكاء وذو طبع فكاهي، يتوسّمون فيه أن يعيد العمل بالدستور الذي عطّله سلفه، ويسهر على إجراء الانتخابات الرئاسية.

هذا الحفل ستحضره صفوة المجتمع البيروتي، سواء من عالم السياسة أو الأعمال، وهما سيّان في الواقع. فمن بين الحاضرين سيكون إميل إدة وصديقه وغريمه بشارة الخوري، علاوة على فؤاد أرسلان، نائب الدروز، ورياض الصلح، النائب السنّي، وهما معاً من أشدّ منتقدي الانتداب، وكلاهما يهيم بحبّ يمنى الخوري، أخت المرشح للرئاسة. كما سيحضر ذئب السياسة الشابّ كميل شمعون الذي يشاع أنّه لا يوجد رجل في الشرق الأوسط يفوقه وسامة، وأنّه حين تزوّج بنت نيكولا ثابت، حطّم الكثير من القلوب.

ولتزيين الحفل، دعا أصحاب البيت ألمع حسناوات بيروت: إيفون بوستروس وموود فرج الله ونجلاء حمدان، وهي درزية دعجاء، وإيزابيليتا، عشيقة ملك إسبانيا ألفونس الثالث عشر السابقة، التي صارت زوجة روبير الصباغ الرعناء. وغيرهن كثيرات... ذلك أنّ بيروت حين ترغب في الإغراء، لا حدود لكرمها، إذ تقدمّ لمن وقع عليه اختيارها أجمل جواهرها، تبهره بمَرَحها، وتسحره بذكائها الخلاب، وتسلب عقله بشبكة من الصداقات المفاجئة التي تجمع بين كونها خالدة وعابرة، وهما صفتان بنفس المعنى، لأنّ اللبنانيين، بوصفهم شرقيين أقحاحاً، يدركون أنّ الخلود يتجسّد في اللحظة.

على أنّ نجم الحفل هذه الليلة الذي تسعى بيروت إلى نسج شبكتها البراقة حوله هو سيّدها الجديد، وقد دُعيت سلمى لتكون أحد عناصر هذا البناء العنكبوتي الذي حيك لكي يلُفّه، بل ليأسره إن أمكن.

وهذا يسلّيها بعد أن كانت ترفض قبل سنتين أن تُستغل في مثل هذه المناسبات، وترى أنّها ينبغي أن تُستدعى وتُحبّ لذاتها لا لشيء آخر!... لكنّها نسيت كلّ ذلك اليوم بعد أن تكسّرت الكثير من المرايا... مرآة هوليوود البرّاقة التي كانت تنعكس فيها ملكة هوليوود الباهرة، والمرآة الذهبية الباهتة التي كانت تريها صورة ملكة ألبانيا الشابة ذات الوجه اللطيف الوقور، بل تحطّمت حتّى مرايا قصر أورتاكوي، حيث كانت سلطانة صغيرة تسوّي خصلات شعرها قبل أن تنطلق لاكتشاف العالم.

وبحركة مفاجئة رمت سلمى بخصلات شعرها خلف رأسها. هي الآن في الثانية والعشرين من عمرها. لم تعد تلك المراهقة التي تنافح من أجل البحث عن حقيقة نفسها، التي حين اعتقدت أنّها اكتشفت سلمى خلف الأميرة العثمانية الصغيرة، سرعان ما شرعت تتساءل عمّن يختفي وراء سلمى هذه! إنّ الأمر أشبه بالدمية الروسية، إذا فتحتها عثرت بداخلها على دمية أخرى، وإذا فتحت هذه، وجدت دمية أخرى بداخلها، وهكذا ودواليك. لا توجد إلا أغلفة، أمّا الدمية الأصلية، فلا وجود لها. ولكن،

هل توجد حقّاً دمية أصلية؟ ومن يستطيع أن يزعم أنّ ثمّة سلمى حقيقيّة خارج الأدوار التي تختارها لنفسها؟ هي لا تستطيع على كلّ حال أن تُقرّ بذلك، وترفض الاستمرار في هذا البحث العبثي.

إنّها شابّة، وتعدّ من بين النساء الأكثر حظوة في بيروت، ومن ثمّة لا تريد أن تشغل بالها بالتفكير. ألم تقل نيرفين هانم إنّ ذلك يسبّب الشيخوخة المبكّرة، ويغضّن الوجه؟ كلّ همّها الآن هو أن تتسلّى.

دخلت أمل إلى الغرفة وقد بدت فاتنة في فستانها الضيّق الذي خيط وفق آخر تقليعة أطلقها مصمم الأزياء الباريسي الكبير لوسيان لولانغ، وبادرت سلمى:

ـ يا إلهي! أما زلت لم تجهّزي نفسك؟ إنّها الساعة التاسعة! لقد طرقت الباب، ولمّا لم تردّي دخلت. ماذا جرى؟ أأنت مريضة؟ أنت تعرفين أنّنا ينبغي أن نصل إلى بيت ثابت على الساعة التاسعة والنصف، قبل وصول المندوب السامي!

فردّت سلمى:

ـ لتقديم التحيّة العسكرية، فيما أظنّ! كلا يا أمل، لست مريضة... ولكنّني أريد أن أصل متأخّرة هذه الليلة.

فلمّا لاحت علامات الاستنكار على محيّا صديقتها قالت ساخرة:

ـ كلّ ما أسعى إليه هو أن أقدم للحاضرين خدمة: فهؤلاء الناس كما تعلمين لا يجدون مواضيع تشغل أحاديثهم. وبذلك فإنني سأمنحهم بتأخّري فرصة لكي ينمّوا. أتظنين أنّ هذا قد يجعلهم لا يدعونني مرّة أخرى؟

كان في نظرتها من الغطرسة، وفي صوتها من التحدّي ما حمل أمل على الإعراض عن الجواب. ليست هذه الغريبة المتبجّحة هي صديقتها. هي من كانت مرهفة رقيقة صارت قاسية غليظة منذ أن تعثّر مشروع زواجها بملك ألبانيا، وتلاشى حلمها بأن تصبح ممثّلة في هوليوود. ولم تعد تتحدّث عن هذين المشروعين إلا ساخرة، رغم أن الغطرسة تمنعها

من إظهار خيبتها. كانت كما لو أنها تؤاخذ نفسها على استسلامها للحلم، وتلقي باللائمة على أمل لأنها اطّلعت على تلك الأحلام. وصارت تبدو كما لو أنها قرّرت ألا تسمح للآخرين قطّ باكتشاف سذاجتها، وأن تعمد إلى استفزازهم وصدّهم حتّى لا تترك لهم فرصة لصدّها.

وأصبحت بفعل ذلك ذات شعبية كبيرة في هذا العالم الصغير الذي يحمِل كلُّ شيء فيه ـ الحبّ والثروة والنجاح ـ الإنسان على الملل من فرط سهولة الحصول عليه. كان الرجال من حول سلمى يراقبون بعضهم بعضاً: أيّهم سيفوز بحظوة هذه المرأة القاسيّة؟ لم يروا مثل برودتها قطّ. لا يستطيع أيّ منهم أن يتباهى بأنّه سرق منها قبلة أو حتّى أمسك بيدها. وهم ممتنّون لها في قرارة أنفسهم بذلك، لأنّهم يعرفون أنّ لامبالاتها ليست سوى خطة تتوخّى إغواؤهم، وهو ما يضاعف متعة الظفر بها.

وتقول أمل في نفسها وهي تتأمّل وجه صديقتها المتجهّم: «إنّهم مخطئون. لامبالاتها ليست مصطنعة... وحتّى لمّا تتسلّى، يتهيّأ لي أنّها إنّما تفعل ذلك بحكم الواجب».

طُرِق الباب، فإذا بخيري ومروان يدخلان ليسألا عمّا إذا كانتا جاهزتين. ولاحظت سلمى بسخرية أنّ خيري ارتدى سموكينغ الشانطون فشدي اللون لإثارة انتباه أمل.

كان قد أسرّ لأخته قبل أيّام: «أنا مغرم بها! هل تظنّين أنّها ستسعد بأن تصير أميرة؟»، فأجابت سلمى: «أظنّ أنّ هذا هو آخر شيء يمكن أن يخطر ببالها». وهو ما اعتبره خيري بطبيعة الحال مجرّد خبث من أخته.

لذلك قرّر أن يواصل تودّده لأمل. كان قد دأب منذ أسبوع على إرسال باقة ورد أحمر كلّ يوم إلى شارع مار إلياس، وكان يتوقّع أن تبتسم في وجهه، فينتهز الفرصة ليطلب منها أن تراقصه بعد العشاء.

على أنّ أمل لم تبتسم، وهو ما فسّره خيري بخجلها. وحين انتحى

به مروان جانباً فيما بعد، وأخبره بأنّ أخته تكره الورد، لأنّ رائحته تسبّب لها الصداع، تأثّر لهذه النعومة، وتضاعف هيامه بها.

وبينما كانوا ينتظرون سلمى، لم يستطع أن يخفي سخطه منها، لأنّها «تتعمّد التأخّر بقصد إثارة انتباه الحاضرين!» فردّت بنفاد صبر:

ـ اذهبوا إن شئتم. سألحق بكم. سأستقلّ العربة المكشوفة برفقة زينيل.

تردّد مروان. فهو لا يحبّ هذا البريق في عيني سلمى، مثلما لا يحبّ ضحكتها الجديدة المتكلّفة القصيرة. كان ينوي التحدّث إليها هذا المساء، لكنّه آثر أن يبعث لها «مرسولاً» أوّلاً. ثمّ أخرج من جيبه علبة رفيعة.

ـ لقد أتيتك بكتاب فريد الدين العطار، أكبر شعراء الصوفية الدروز. إن اخترت ألا تأتي إلى الحفل، سيكون لك خير أنيس.

يحكي الكتاب عن اجتماع كلّ طيور العالم للبحث عن ملكها، طائر السيمورغ، الذي اختفى منذ زمن طويل. ولا أحد منها يعرف مسكنه إلا طائر واحد طاعن في السن. لكنّه لا يستطيع أن يذهب إليه بمفرده لأنّ الطريق محفوف بالمخاطر، وعليهم من ثمّة أن يذهبوا أجمعين. والواقع أن السيمورغ يقطن في القاف، وهي سلسلة جبلية تحيط بالأرض، للوصول إليها ينبغي اختراق حجب نارية، والسباحة في سيول جارفة، ومحاربة جيوش من التنانين الضاريّة.

وقد ذهبت الطيور بالآلاف، لكنّ معظمها نفق خلال الرحلة التي دامت سنوات، ولم يصل بعد صعوبات جمّة إلى قصر السيمورغ في جبال القاف إلا ثلاثون طائراً، هم الأكثر حكمة. وهناك اكتشفوا مشدوهين آلاف الشموس والأقمار والنجوم. وفي ضوء هذه الأجرام رأوا بعضهم بعضاً، وأبصروا السيمورغ، فتملّكتهم الحيرة، لم يعودوا يعرفون أظلّوا هم أنفسهم أم تحوّلوا إلى سيمورغ، إلى أن أدركوا أخيراً بأنّهم هم والسيمورغ شيء واحد، وأنّ ملكهم، الإله الذي انطلقوا للبحث عنه بعيداً موجود بداخلهم...».

وتركت سلمى الكتاب يسقط من يدها.

... في إحدى التكايا الواقعة في ضاحية الأستانة تُقبّل طفلة صغيرة راحة شيخ عجوز... فيبهر الضوء عينيها فجأة، وتشعر بأنّها إن أبقتهما مفتوحتين ستذوب فيه، وهي لا تريد أن تذوب، فينتابها الخوف. تغلق عينيها، فإذا بالأشياء تعود إلى نظامها المعهود المطمْئِنّ.

وقد ظلّت منذئذ نادمة على ذلك الانبهار، خجلى من خوفها. وهو خجل هي فخورة به مع ذلك، خجل تتعهّده وتداعبه، لأنّ الشعور بالخجل دليل على رفعة الروح الباحثة باستمرار على تجاوز نفسها.

منذ مدّة طويلة وهي مسكونة بالبحث عن الوحدة، لكنّها كانت تقف دائماً عند العتبة. تخشى من أن تضع عليها لإصبعها، فتأخذها بكاملها. وهي تعرف أنّ المرء حين يبحث عن المطلق، لا يستطيع أن يضع حدوداً لبحثه، ويكون مهدّداً بالضياع، مثلما وقع لهذه الآلاف من طيور السيمورغ التي ماتت قبل أن تدرك النور.

لكن ألا يهدّد التطبيق الصارم للدين بنسيان نعمة عدم الأمان؟ صرّح لها مروان يوماً، وهو من «العُقّل»، أي المتفقّهين في العقيدة الدرزية، بأنّ التديّن والأخلاق هما السبيلان المضمونان لكي لا يلقى المرء الله أبداً. وقال إنّ «الأوامر والنواهي هي أسوار ترفع لبلوغ السماء، لكن بمقدار ما تعلو تلك الأسوار، تضيق السماء حتّى لا تعود سوى مربّع أزرق تافه، لا يمثّل شيئاً. فهم يحدّثوننا عن سلالم من الرخام، وعن عرش من الذهب، أيّ عن عالم ميّت كأخلاقهم. هم لا يفهمون أنّ السماء هي الحياة في تنوّعها اللانهائي، فكيف تكون الطريق المفضية إلى اللانهائي مطوّقة بالأسوار؟».

وتشعر سلمى بالدوار. لماذا جاءها مروان بهذا الكتاب؟ كانت مرتاحة البال، سعيدة بوجود من يحيطون بها وبما تلقاه منهم من دلال، فلماذا أفسد عليها حياتها؟ أما كان حريّاً به أن يتركها تعيش مثلما يعيش سائر الناس، وتنعم بالسعادة؟

السعادة... فقدت هذه الكلمة بالنسبة إليها معناها، وصارت مبتذلة، بل بذيئة... وحقّاً فإنها ستظلّ تتعجّب باستمرار! لم تسقط بعد إلى هذا الدرك حتّى تكتفي بهذه السعادة!

لقد رأت في قصور الأستانة كثيراً من النسوة ذوات النظرة الساهمة من القلق، وهنّ لا يختلفن في شيء عن نسوة صالونات بيروت الأنيقات. وتتساءل: أتُراها ستصير مثلهنّ؟... فتسري في أوصالها القشعريرة، وتتذكّر قول شيخ الصوفية جلال الدين الرومي: «لن أفقدك أبداً أيها الألم الهانئ الأثمن من الماء، يا حرقة الروح التي بدونها لن نكون إلا خشباً ميّتاً!».

ونزلت إلى الحديقة الصغيرة، فألفَت الليل متنبّهاً، والنجوم لم تعد غريبة عنها، وشعرت بأنّها تعود إلى نفسها بعد غياب طويل.

نزلت العربة الشارع بمرح، ومضى الحوذي يستحثّ الحصان بطرف سوطه وقد بدا فخورا بأن ركبت عربته هاتان الشابتان الجميلتان اللتان لفَتتا أنظار جميع المارّة.

أمل هي من راودتها الفكرة. سمعت قبل أسابيع بهذه المرأة ذات القدرات المدهشة. يقولون عنها كاهنة أو رسولة أو ربّما شيطانة. فقرّرتا زيارتها من دون إخبار مروان الذي كان سيغضب لو علم بالأمر.

وما إن وصلتا إلى المنزل ذي النوافذ المغلقة حتى أدخلهما غلام، وقادهما من دون أن ينبس إلى غرفة معتّمة توجد فيها مباخر تنبعث منها عطور تصارع عبثاً روائح عطنة يمتزج فيها العرق بالأنفاس.

كانت المرأة العجوز جالسة بارتياح على سريرها والمريدون متزاحمون حولها. وكانت تقطّر كلامها وصمتها نقطة نقطة، شرابَ محبّة يُحيي ويميت في آن. تندلق من بين شفتيها الرقيقتين كلمات يعقب فيها الحلو الحامض، بينما تنفذ عيناها المتّقدتين إلى العيون، وتخترق الصدور لتصل إلى القلوب.

وقفت الشابتان في العتمة قرب الباب، لكنّ العجوز لمحتهما، واستشعرت بغريزتها بأنهما لُقمة سائغة. فأشارت لهما بيدها الممتلئة أن تقتربا، وتدخلا إلى حلقة المكرّمين الذين يحيطون بالسرير. لكن هاتين المتمرّدتين رفضتا الاقتراب!

ابتسمت العجوز. هذه هي الفرائس الأثيرة لديها، وقحاتٌ صفيقاتٌ، مثل أطفال عراة ينتصبون في الضوء. هي مغرمة بهؤلاء الأطفال الغافلين الذي يعتقدون أنّ الله يحبّهم. فهم من يمنحونها الحياة. أمّا هؤلاء العبيد الراكعون المحيطون بها، فلا تأبه بهم، لأنّها نهشتهم حتّى بلغت أحشاءهم، وتحوّلوا إلى أذرع تستخدمهم حسب هواها، يجوبون المدينة لنشر كلامها، ويأتونها بفرائس جديدة متعطّشة لسماع أقوالها، هي المُلهمة.

لكنّ بعض الجالسين حول السرير متردّدون: من يتملّك يا تُرى هذه العجوز الرهيبة والرائعة التي تتحكّم فيهم؟ أهي روح إلهية أم شيطانية؟ وشيئاً فشيئاً تفرض الفكرة نفسها. مهما يكن فالروحان روح واحدة، بما أنّ الله هو النور المطهّر من كلّ الخبائث التي تنشأ من تفسّخها الشياطين. ولا يُقبل على هذا السفر الذي لا عودة منه إلا أشدّ الناس إقداماً وأقلّهم حذراً، حيث يكون يقينهم الوحيد هو أنهم سيحترقون إلى ما لا نهاية، إمّا في لهب جهنّم أو في لظى الحبّ الإلهي...

أمّا المماطلون، فلن يتخلّصوا أبداً من شعورهم المقزّز بالضيق من يقينهم بأنهم لن يبلغوا السعادة القصوى أو الشقاء الأقصى، لا فرق. والعجوز تقدم لهم جميعاً، سواء من تخطّوا عتبة الخوف الأولى أو من لم يجرؤوا على ذلك، هديّة ملكية: القلق الأبدي.

التفتت الفتاة ذات الشعر الأحمر إلى رفيقتها وهمست: «لنرحل، الضوء هنا أسود».

هل سمعتها العجوز؟ استوت في جلستها، وانبعثت من فمها تلك اللعنة المنحوسة:

ـ ستُطأطئين رأسك أيّتها المتغطرسة! سآتي إلى بيتك بعد ليلتين، تذكّري أنني سآتي بعد ليلتين!

لم تستمتع سلمى منذ زمن بعد مثلما استمتعت هذه الليلة. كان موضوع الحفل التنكّري الذي نظمه جان تويني هو: «الهند المتأنّقة»، وهو مستلهم من أوبرا «رامو». تنكّرت في هيئة مهراجا، إذ ارتدت سروال فروسية ضيّقاً من الساتان الأبيض واعتمرت عمامة ذات قنزعة انتزعتها من منفضة ريش نيرفين هانم. وزيّنت عنقها بستّة عقود من الدرّ استعارتها من سورين آغا، ثمّ تقنعت بقناع ذئب أسود، فلم يعرفها أحد. ولمّا نُزعت الأقنعة في آخر الحفل، أدهشتهم جميعاً، مع أنّها كانت على وشك أن تعتذر عن الحضور. ذلك أنّ تهديدات الساحرة ظلّت تؤرقها. رغم أنّها حاولت التخلّص منها، إلا أنّها كانت تعود باستمرار. وقضت أمل النهار تحاول إقناعها بأنّ تلك العجوز إنّما تستمد نفوذها من خضوع المحيطين بها، وأنّها حين شعرت بطبع سلمى المتمرّد، قالت ما قالت لإرهابها.

ـ تعقّلي قليلاً! هي لم تتقبّل تحدّيك لها أمام قطيعها الوديع! ثمّ كيف لها أن تأتي إلى بيتك؟ على كلّ حال هي من السمنة بحيث لا تستطيع الحركة.

بدت سلمى متردّدة. وحين حدّثتها عن نساء يملكن قدرات شرّيرة في تركيا، استشاطت أمل غضباً رغم طبعها الرقيق، وقالت:

ـ إنّك مُحبِطة حقّاً! ما أشبه سذاجتك بسذاجة نساء الريف.

ولما علم مروان بالأمر أخيراً، نجح في إقناع سلمى بألا تبقى في بيتها، وأن تحذّر زينيل والقلفاوتين بألا يفتحوا الباب لأحد مهما كانت الذريعة!

كان آخر ما ختمت به الفرقة الموسيقية عزفها مقطوعة تانغو. كانت الساعة تشير إلى الرابعة صباحاً، ومعظم المدعوين قد انصرفوا. وفي الشمعدانات الفضيّة توشك الشموع أن تنهي احتراقها، ملقية على السجاد الذي يزيّن الجدران ظلالاً متراقصة، فتبدو كما لو أنها تتحرّك. وكانت

ذراع الشاب الوسيم إبراهيم سرسق تطوّق خصر سلمى، تراقصه وهي منقادة لحركاته. إنّها أفضل لحظة في السهرة بعد أن غادر الضيوف، ولم يبق غير حلقة صغيرة من الأصدقاء. كان الأمر كما لو أنّ سهرة أخرى أكثر حميمية بدأت.

وأخرج موسى دو فريج قيثارته لكي يرافق هنري فرعون الذي يملك صوتاً جميلاً، ويغنّي أغاني عاطفية عصرية. أمّا إبراهيم ثابت فحكى لهم حكايات مضحكة بينما أخرجت إيزابيليتا نقّاراتها وفستانها الأحمر المكشكش ورقصت لهم الفلامينكو.

ولمّا طلع الفجر، وقدّم الخدم فناجين قهوة ساخنة، افترق الحاضرون على مضض. لم يسبق لسلمى أن تأخّرت في العودة إلى البيت حتّى هذا الوقت. ذلك أنّ خيري يشير لها بالعودة إلى البيت عادة نحو الثانية صباحاً. لكنّ أمل هذه الليلة، وبتواطؤ مع سلمى، راقصته مراراً حتّى أنسته ما اعتاد عليه.

توقّفت السيارة السوداء أمام البوابة الحديدية. كان باب المنزل مُشرعاً، والأنوار ما تزال موقدة. ترجّلت سلمى بقفزة واحدة وانطلقت جارية. عبرت البهو من دون أن تصادف أحداً، وبعد أن صعدت الأدراج رُباعاً رُباعاً، تسمرت في مكانها أمام غرفة أمّها: كانت متيقنة من أن مصيبة وقعت... إنّها الكاهنة...

دفعت الباب وهي ترتجف. كانت الغرفة غارقة في العتمة بحيث لم تر في البداية غير ظهر عريض يرتدي كنزة صوفيّة رمادية، ثمّ لاح لها شيئاً فشيئاً زينيل والقلفاوتين، فأومأوا لها بأن تصمت. وبينما كانت تتقدّم بمهل وهي تبحث عن أمّها، استدارت تلك الكنزة الرمادية، وإذا بنظارة تتفحّص هذا الغلام المعمّم. لكن سلمى تنتبهت إليه، بل استمرّت تقترب حتّى أبصرت فجأة هيئة متصلّبة ممدّدة على الأرض... ميّتة!

وصرخت: «أنيدجيم!» واندفعت نحوها، لكنّ يداً قويّة أمسكت بها قبل أن تصل إلى الجثّة.

ـ لا داعي للعويل!

إثر ذلك دفعها الرجل بكلّ ما أوتي من قوّة بين ذراعي زينيل، ثمّ جلس القرفصاء واستأنف فحصه. هي لا تذكر أبَعْدَ ساعات أم بعد دقائق، نهض واقفاً وطلب أن يأتوه بالأغطية.

ـ من المستحيل نقلها في هذه اللحظة، لكن تنبغي تدفئتها.

وتقدّم خيري برصانة، ولأوّل مرّة أعجبت به سلمى عندما قال بصوت هادئ:

ـ أنا ابنها يا دكتور. أرجو أن تخبرني بالحقيقة.

تطلّع إليه الطبيب وهزّ رأسه ثمّ قال:

ـ أمك أصيبت بنوبة قلبيّة خطيرة، ولحسن حظّها، قلبها تحمّل. ستعيش، ولكن...

ـ ولكن ماذا؟...

ـ أخشى من أن تُشلّ.

جلست سلمى أمام البيانو بلا حراك. كانت قد عزفت المرتجلة الثانية والخامسة من مرتجلات شوبير، تلك التي تفضّلها أنيدجيم. كما عزفت تنويعات «ليست» على معزوفة هايدن. أصغت إليها السلطانة وعيناها نصف مغمضتين في وضع يوحي بالغبطة وهي جالسة على مقعدها المتحرّك الذي لم تعد تبرحه إلا حين يحملها زينيل بين ذراعيه ليضعها على سريرها.

كانت قد مضت ستّة أشهر على شللها النصفي، من دون أن تسمعها سلمى يوماً تتبرّم. ولم تشعر بها قطّ قانطة أو محطّمة. بالعكس، لأوّل مرّة منذ بداية المنفى قبل إحدى عشرة سنة، تبدو لها أمّها مبتهجة وراضية.

ومع ذلك تتذكّر سلمى أمّها «السلطانة» بألم وهي تنظر إلى هذه المرأة العجوز العاجزة عن الاعتماد على نفسها. تتراءى لها أميرة باهرة في فستانها ذي الذيل المطرّز، يزيّن صدرَها وشاح إمبراطوري، ملكة

هادئة ورائعة تمنع الشرطة من دخول قصرها، وتغامر بحياتها من أجل شخص مجهول. إلهة رحيمة، يعتورها الضعف الإنساني، لكنها لا تعرف غير الشرف. لم تكن لطيفة، لكنّها كانت باهرة!...

لم تعد سلمى تخرج منذ ستّة أشهر، ولم تعد ترغب في الخروج. ظنّت في البداية أنّها تلزم البيت لتؤنس أمّها، ثمّ اعتقدت أنّها إنّما تفعل ذلك تكفيراً عمّا جنته عليها: هي تعلم أنّ المصاب بمرض القلب معرّض للنوبات، لكنّها مقتنعة مع ذلك بأنّ الساحرة هي من انتقمت.

ثمّ إنّها قلقة. ذلك أنّ الطبيب أخبرهم بأنّها إن تعرضت لنوبة أخرى، فقد تودي بحياتها. وشيئاً فشيئاً شقّت الفكرة المستحيلة المقرفة طريقها إلى ذهن الفتاة. وانتهى بها الأمر إلى أن فهمت مرعوبة أنّ الموت يتهدّد أمّها، وأنّ تلك الصخرة التي حملتها، وكانت العنصر الذي لا يتغيّر في حياتها، يمكن أن تختفي وتتركها تترنح على شفا الهاوية. كانت هذه هي أوّل مرّة تراودها هذه الفكرة. لم يكن الموت يصيب في ظنّها قبلئذ غير الآخرين. أمّا أن تموت أمّها... فالأمر أشبه بموت جزء من كيانها.

أوّل ما شاع خبر مرض السلطانة، راسلتها بعض صديقاتها، ومنهنّ من جاءت لزيارتها. وبعد مرور شهر، ريثما نسيت حزنها، عدن لدعوتها لحفلاتهنّ. وبما أنّها لم تستجب، يئسن ونسينها. وحدهما مروان وأمل واصلا زيارتها في بيتها بشارع رستم باشا. ساورهما القلق من رؤيتها تنطوي على نفسها، وتقضي الأمسيات في تأليف صوناتات صغيرة وتلحين أغنيات حزينة.

وذات يوم انتحت السلطانة بمروان، وقالت له:

ـ ينبغي أن تخرج من البيت لكي تتسلّى قليلاً! أرجوك، ابحث عن وسيلة لإخراجها وإلا فإنّها ستمرض.

ثمّ أضافت وهي تضحك:

ـ هذا البيت لا يستطيع أن يتحمّل مريضتين. ينبغي أن أحافظ على امتيازاتي فيه!

لم يكد فصل تنظيم الحفلات في الهواء الطلق يبدأ. حلّ الربيع فتجنّد جيش من البستانيين في بيوت حيّ سرسق الجميلة للعناية بشجيرات الكوبية المستوردة من أوروبا، وتشذيب أسيجة الدفلى والزعرور.

على أنّ الحفل الأكثر أصالة وتسليّة هو بلا شكّ حفل الأميرالية الذي يُنظّم كلّ سنة على متن سفينة جين دارك الفرنسية المخصّصة للتدريب. ويجري انتقاء المدعوون إليه انتقاء دقيقاً. وقد كان مروان وأمل على قائمة المدعوين: فالحرب الفرنسية الدرزية لم تعد إلا ذكرى بعيدة. ذلك أنّ الجبل حصل منذ سنة ١٩٣٠ على دستور مستقلّ، والانتداب الفرنسي حريص في لبنان وسوريا على تجنّب إغضاب سادة الجبل.

وقد تدبّر مروان أمره لكي يجري استدعاء سلمى إلى تلك السهرة. كان يتوقّع رفضها، لكنّه تظاهر بالاستياء:

ـ لا ينبغي أن ترفضي لي هذا الطلب! إنّه عشاء حُجِزت كلّ مقاعده منذ شهر.

وتدخّلت أمل مؤيّدة:

ـ أجواء هذا الحفل الذي يُقام فوق الماء مختلفة تماماً. هو أشبه برحلة بحرية. ثمّ إنني أريدك أن تلتقي بابن عمّي وحيد الذي قبِل بعد إلحاح النزول من الجبل. وهو أيضاً من أقرباء الستّ نظيرة. سترين، إنّه غريب الأطوار، لكنه جذّاب!

وانتهى الأمر بسلمى أن قبلت الدعوة.

٨

كانت جين دارك تلوح في المرفأ المعتّم الذي لا تنيره سوى بضعة مصابيح كشجرة عيد ميلاد تزيّنها الأنوار. وعلى ظهرها وقف الأميرال محاطاً بضباطه وقد ارتدوا لباس الاحتفالات، وأبعد منهم قليلاً كانت فرقة «بحرية بلاد الشام» تعزف فاتحة الحياة الباريسية لـ«أوفنباخ».

وكانت النساء بكعابهنّ العالية وفساتينهن الطويلة يرسلن صرخات صغيرة، من الخوف والفرح، وهنّ يمشين على الممرّ الضيق تحت أعين رفاقهنّ اليقظة. أمّا الأميرال الذي كان في أبهى حلله، فمضى يستقبل الضيوف ويرحّب بكلّ واحد منهم وقد بدا عليه كامل الرضا: كلّ شيء يوحي بأنّ السهرة ستكون موفّقة. ذلك أنّه جمع في رقعة لا تتجاوز ثلاثمائة متر مربع صفوة بيروت. وقد تكفّل ضباط شباب بمرافقة الضيوف إلى أماكنهم.

كان الجميع قد جلس إلى موائد مكسوّة بأغطية دمشقيّة تكاد تختفي تحت باقات ورد ضخمة وأوانٍ فضية وأخرى من الفخار الفرنسي الرفيع. لم تبق إلا مائدة واحدة فارغة توجد على مسافة من الفرقة الموسيقيّة، هي مائدة الدروز. فقد تأخّروا. وما إن ظهروا حتّى تعالت الهتافات:

ـ تأخرتم حتى ظننّا أنكم لن تأتوا!

وصاح شاب نحيل:

ـ أهذه أنت يا أمل! يا للعجب! لم تتأخّري غير ساعة واحدة، هذا تقدّم ملموس!

ـ أنا متأكّدة من أنك ستعذرني يا وحيد إذا علمتَ أنني أتيتك بسلمى. أقدّم لكِ ابن عمّي يا سلمى. اطمئنّي، فطبعه ليس سيئاً كما يبدو.

هبّ الرجل الطويل واقفاً بفتور، وانحنى وهو يقول بنبرة متكلّفة لفتت أنظار من يجلسون في الموائد المجاورة:

ـ آه أيّتها الأميرة! لو أنّ أجدادي استطاعوا أن يحلموا بك، لجُنّب أهلنا قروناً من الحروب. ولكان مقاتلونا العتاة استسلموا على الفور.

وحدجت العينان الزرقاوان سلمى بنظرة تجمع بين الإعجاب والسخرية. وبنوع من السلطوية مضى يغيّر ترتيب المائدة ليُجلِس الشابة إلى يمينه، وينشغل بها عن بقية الضيوف بحيث لم يعد ينظر إلا إليها. وأمطرها بوابل من الأسئلة عن حياتها وأنشطتها وذوقها. وبدا مفتوناً بها، غير آبهٍ بما سبّب لها من ضيق، بحيث لم تعد تدري كيف تواجه هذا الغزل المفضوح.

على أن معاناة سلمى لم تدم طويلاً، كما لو أنّ فضوله أُشبع فجأة، وهِمّته فترت. ولم يلبث أن أدار لها ظهره، واستغرق في نقاش سياسي محتدم مع أصدقائه.

واستغلّ الرجل الضئيل المميّز الجالس إلى يمين سلمى الفرصة. لم يسمع اسم هذه الفتاة الساحرة، لكن لا ضير! سيستعلم عنها لاحقاً.

ـ اسمحي لي بتقديم نفسي: اسمي شارل كورن، وأنا شاعر. هل تحبّين الشعر يا آنسة؟

ابتسمت سلمى وقد تنفّست الصعداء. فبعد الإعصار الدرزي، ها هي النبرة البيروتية اللطيفة، وردّت:

ـ كثيراً.

ـ يلقّبونني بـ«شاعر فنيقيا». هل قرأت ديواني الأخير الجبل الملهَم؟ لقد تشرّف بالحصول على جائزة إدوار ألان بو.

فأجابت سلمى مجاملة:

ـ سمعت عنه.

ـ هل ترغبين في أن أنشدك بعض المقاطع؟

فتجيب وهي متعجّبة من غرور الكتّاب والشعراء الذي يتجاوز كلّ الحدود:

ـ بكلّ تأكيد.

تنحنح الشاعر قليلاً لكي يجلو صوته، وشرع في الإنشاد وهو مستغرق في النظر إلى الرداء الأبيض في الأفق:

هلا قلت لي كيف
استطاع فلاحونا أن يحفظوا لِما يناهز ألفي سنة
الصليب وسط العمامة
في لبناننا وحده
من بحر الصين إلى المتوسّط
افهم صراحتي يا أخي المسلم
أنا لبنان الحقيقي، المخلص التقيّ
لبناني حتّى النخاع، يرمز إيماني
إلى قلب البجع...

انتفضت سلمى. أيمكن أن يكون هذا الرجل المهذّب محرّضاً؟ لكنّها تمالكت نفسها من أن تضحك أمام نظرته الحسيرة الساذجة: يبدو أنّه لم يدرك ببساطة من تكون.

وتستخفّ الرجل إيقاعات أشعاره، فيروح يحرّك رأسه، ويرفع صوته:

لغتي اللبنانية هي لغة الفراعنة
التي لا صوت لحروفها تحت الأقبية المرصّصة

لغة العصر الذهبي أنت، منك
تحدّر ألفباء كلّ اللغات
امنحينا الثقة يا لغة بلادي
واجعلينا نؤمن بأنفسنا وأجدادنا
واحفظي لنا مكانتنا وكلمتنا مسموعة
على مائدة الآلهة!

وتتذكر سلمى أنّ بعض تلميذات صفّها المارونيات كنّ يرفضن أن يُعتبَرن عربيات، ويقلن إنّهن فينيقيات، ينحدرن من الشعب الذي سيطر على البحر الأبيض المتوسط، الذي خبَتْ حضارته قبل ألفي سنة. وحَدَتها رغبة مفاجئة في أن تتسلّى وتنتقم لـ«العمامات».

ـ ولكنّ الفينيقيين في حدود علمي يا سيدي، لم يكونوا نصارى ولا مسلمين.

حاول الشاعر أن يشرح لهذه الشابّة الجاهلة، وقد تورّد، بأنّ «المسيحيين ظلّوا مخلصين لأصولهم. وإذا كان لبنان تعرّب للأسف، فقد ظلّوا هم اللبنانيون الحقيقيون...». التفتت سلمى، فإذا بعينيها تقعان في عيني وحيد الذي حدجها بنظرة متواطئة. ذلك أنّه إنما تظاهر باللامبالاة بينما كان في الواقع يتابع حديثها. فشعرت بقلبها يخفق على نحو لم تجد له تبريراً. هذا الرجل يتصرّف بفظاظة، فكيف تسامحه من أوّل بسمة؟ أي شيء يستهويها في هذا الشاب الشهواني؟ أهو غموضه؟ أم مظهره الهازئ بكلّ شيء؟

انتهى العشاء، وطاف النُدل على الموائد عارضين القهوة والأشربة. أمّا فرقة «بحرية الشرق» التي عزفت حتئذ أنغاماً هادئة، فانتقلت إلى إيقاعات صاخبة من التونغو اليوناني.

وبدأ الأزواج في النزول إلى الحلبة. وراحت سلمى تنظر إليهم بفضول. ودّت لو تجرّب، لكنّها وعدت أمّها بألا تلفت إليها الأنظار في

هذه الحفلات الخليعة. ذلك أنّ السلطانة لم تكن تسمح لها إلا برقصات الفالس، وهو ما كان موضوعاً يتندّر به أصدقاؤها فيعلّقون بأنّ أمّها لا تسمح لها إلا بالرقص الذي «يُسبّب الدوار».

وانتقلت الفرقة إلى عزف مقطوعة فالس لستراوس، فراحت سلمى تتابع الإيقاع بضربات من رجلها وهي تسترق النظر إلى جارها. أتُراه سيدعوها لتراقصه؟ لكنّه لم يلتفت إليها. كان مستغرقاً في الحديث مع أصدقائه.

- هل تسمحين برقصة أيتها الأميرة؟

رفعت بصرها فإذا بها ترى ضابطاً فرنسياً ينحني أمامها. يبدو في أبهى حلّة ببزته البيضاء، وقامته الرشيقة، وبشرته التي لوّحتها الشمس، وبسمته الساحرة.

- ألا تذكريني؟ سبق أن التقينا في بيت بوسطروس. اسمي جورج بوي، نقيب في سلاح الفرسان.

ليس من عادة الفتيات أن يقبلن دعوة رجل غريب عن المجموعة، لكن لا ضير! فهي ترغب في الرقص... لا سيما أن تُظهر لوحيد أنّها لا تأبه بتقلّبات مزاجه.

عزفت الفرقة الموسيقية ثلاث مقطوعات فالس متتابعة، فاستسلمت سلمى باستمتاع للإيقاع الموسيقي البطيء. كانت تعلم أنّ الألسن ستتكلّم، لكنّها رقصت مع الضابط الوسيم حتّى النهاية.

وما كادت تعود إلى المائدة وهي تشعر بدوار خفيف حتّى التفت إليها وحيد كما لو أنّ نابضاً يُحرّكه، وقال:

- من الغريب أن تُرى فتاة مسلمة، بل أميرة عثمانية، وهي تراقص ضابطاً فرنسياً. يعجبني هذا التفتّح وهذا النبل المنسي!

تورّدت سلمى. أما بقيّة الضيوف فراحوا ينظرون إلى وحيد مشدوهين، فتدخّل مروان مرتبِكاً، محاولاً إنقاذ الموقف:

ـ ما هذا؟ وحيد بك يقدّم دروساً في الأخلاق؟ أهذه هي آخر بدعك؟ كنت أعرفك صاحب دعابة، لكن ليس إلى هذا الحدّ!

فردّ وحيد بفتور:

ـ هذه ليست دعابة.

كزّ مروان على أسنانه. لن يشتم صديقه لأنّ تضامن العشيرة يحرّم ذلك، لكنّه لن يقبل بإهانة ضيفته. وقال لسلمى:

ـ هل يمكن أن تتفضلي عليّ برقصة أيّتها العزيزة؟

قامت سلمى على نحو آلي بينما راح وليد ينظر إليهما بامتعاض وهما يبتعدان.

واستؤنفت الأحاديث على المائدة صاخبة لعلّها تخفي ما شعر به الحاضرون من ضيق. أمّا وحيد فلاذ بالصمت، وراح يشرب. كان يحتسي كوبه الرابع أو الخامس لمّا وضع الكأس على المائدة بعنف فتكسّر.

ـ أيها النادل، هذا الكونياك رديء، أحضر لي غيره.

تقدّم النادل مشدوهاً وقال:

ـ إنّه كونياك معتق يا بك، وليس لنا غيره.

ـ لا شكّ أن سادتنا يقدّرون أننا نحن اللبنانيين لسنا على حظ من الحضارة مثلهم حتّى نميّز بين الجيّد والرديء.

ورفع وحيد صوته بحيث لفت إليه كلّ الأنظار، واسترسل يقول:

ـ يقدّمون لنا شراباً رديئاً، وينصّبون علينا حكومة من الدمى، ويضعون لنا دستوراً صورياً، فرفقاً بهؤلاء البدائيين! ولا أظن أنّهم سيزعمون بعد كلّ هذا أنهم يحكمون أنفسهم بأنفسهم!... لكنّني أقول لكم أيّها السادة إنّنا تحمّلنا أكثر مما نطيق، وإنّنا نرغب في أن تتركونا وشأننا بأسرع ما يمكن. قد يأتي يوم لن نطالبكم بذلك بمثل هذا اللطف!

خيّم الصمت على الحاضرين. وحتّى الفرقة الموسيقية توقفت عن

العزف كما لو أنّها تعمّدت ذلك. ولم يجرؤ أحد على الحركة. أمّا الزعيم الدرزي الشاب فانقلب على مقعده وانفجر ضاحكاً وهو يرفع كأسه ويقول:

ـ فلنشرب أنخاب استقلال لبنان!

فهمست سلمى لمروان الذي كان يرافقها إلى المائدة:

ـ يا إلهي، لقد ثمل تماماً!

ـ كلا، إنّه لا يثمل أبداً. لا أعرف أحداً يصمد للكحول مثله. كلّما شرب زاد ذهنه صفاءً. الكلام الذي قاله نؤمن به جميعاً باستثناء بعض الأسر التي تدين بارتقائها الاجتماعي للانتداب. فقد وعدتنا فرنسا قبل الحرب بأن تمنحنا الاستقلال. والآن ماذا تفعل؟ تفرض حدوداً مصطنعة بين لبنان وسوريا، مع أنّ المنطقتين شكّلتا طوال قرون وحدة سياسيّة واقتصاديّة وماليّة، ثمّ تفرض علينا الوصاية! وهي بالطبع وصاية ساذجة. ما فعلت ذلك إلا لأنّنا نحن اللبنانيين مسالمون ونؤثر نيل حقوقنا بالحوار عوض السلاح. وها قد مرّت خمس عشرة سنة من دون أن نحصل على شيء، حتى إنّ المارونيين أنفسهم أصبحوا يضيقون ذرعاً.

ـ لكن أمِنَ الحكمة أن يقال هذا الكلام على ظهر سفينة فرنسية؟!

ـ هذا هو طبع وحيد، يحبّ الاستفزاز. وما يسلّيه أكثر هو علمه بأنّهم سيتظاهرون باعتباره ثملاً، ومن ثمّة سيتلافون طرده من الحفل. وبما أنّ الأمر لم يتجاوز الكلام، سيتجنّب الفرنسيون إلحاق الأذى بالزعيم الدرزي. فهم لم ينسوا حرب الجبل الدامية. ومع ذلك كنت أظنّ أنّ وليد سيحافظ على هدوئه...

ثمّ أضاف وهو يتطلّع بخبث إلى سلمى:

ـ وأظنّ كذلك أنّنا مدينون لك بهذه الغضبة.

ـ أتمزح؟

ـ أبداً. لقد استشاط وحيد غضباً لمّا رآك تراقصين ذلك الضابط

الفرنسي. رغم مظهره العصري والمتفتح، فهو يبقى ذا عقلية إقطاعية، ومتشبّثاً بالتقاليد وفكرة الشرف الموروثة. فتربيته الراقية ومقروءاته المنتقاة لم تغيّر منه شيئاً.

وفي اليوم الموالي رنّ جرس باب المنزل الواقع في رأس بيروت، وانتصب عند عتبته رجل ملتح يتأبّط بندقية ويحمل باقة زهر حمراء ضخمة، لا يكاد يظهر خلفها. وقال لزينيل الذي وقف مبهوراً أمام هذا المنظر غير المعتاد.

ـ أمرني الرئيس بأن أحمل هذه الباقة إلى الأميرة.

ـ أيّ رئيس؟

فردّ الرجل بنبرة تشي بالاستياء وهو يتخلّص من الحمل الثقيل ويضعه بين ذراعي الخصي:

ـ الرئيس وحيد بك.

ثمّ ضرب الأرض بكعبيه وانطلق بوقار مبتعداً.

بعد أن فرغت سلمى وأمل من التسوّق بمتجر بيرانجي الذي يعرض الألبسة الباريسية، جلستا في المقهى البيروتي الوحيد الذي تستطيع النساء ارتياده، وهو المقهى السويسري، لتستريحا وترتشفا مشروباً.

وقالت سلمى التي كانت تتحرّق منذ الظهر للحديث عن وحيد:

ـ ما أغرب أطوار ابن عمّك وحيد!

فردّت أمل باسمة:

ـ لدينا مختلف الطباع. من الناس من سيقول لك إنّه مجنون، لكنّني أعتقد أنّه إنّما يتظاهر بذلك بينما هو في الحقيقة أذكى أفراد العائلة. هو ينتمي إلى فرع يدّعي أنّه الفرع الشرعي الذي أزيح منذ قرن ونصف إثر سلسلة من المؤامرات والاغتيالات، وهي ممارسات مألوفة لدى قبائلنا. ما زال له أنصار، ورغم أنّهم قلّة، فهم مخلصون له كلّ الإخلاص. كانوا يجلّون أباه حمزة بك، وهو بطل من أبطال القضيّة العربية، قتل

قبل أن يُكمل وحيد العاشرة من عمره. ولمّا اغتيل فؤاد بك، زوج الست نظيرة، كانوا يأملون في أن يحلّ وحيد محلّه. لكنّ الست نظيرة وابنها كمال، وكان ما يزال رضيعاً، حظيا بولاء معظم أفراد القبيلة، مثلما حظيا، وما زالا يحظيان، بدعم فرنسا.

ولكن من يدري؟ لربّما انقلبت الأوضاع بسرعة. إنّ حدث شيء لكمال، سيصير وحيد هو الزعيم والقائد. وهكذا سيعامله الناس جميعاً، ومنهم الفرنسيون، معاملة خاصة...

وراحت سلمى في الأسابيع الموالية تكثر من الخروج آملة، من دون أن تقرّ بذلك، أن تلتقي بوحيد. على أنّه لم يمض حفل ولا استقبال لم تلتق فيه بهذا البك الشاب. لكنّه كان يكتفي بتحيّتها بأدب جمّ، ومجاملة مبالغ فيها، من دون أن يحاول العودة إلى المحادثة التي دارت بينهما في لقائهما الأوّل.

ثمّ إنهّ كان دائماً محاطاً بالنساء اللواتي تجذبهنّ إليه لامبالاته. وإذا كانت بعضهنّ يعتبرنه ذميماً، بجبهته التي انحسر عنها الشعر مبكّراً، وأنفه المعقوف كمنقار نسر، وعينيه الزرقاوين الحادتين، فإن معظمهنّ يعترفن له بجاذبيّة لا تقاوم. تسحرهنّ بسمته الشبيهة ببسمة مراهق خجول، ونظرته المدهوشة التي تبتهج عند أبسط كلمة لطيفة، كما لو أنّه لا يجرؤ على تصديق أنّ الناس يمكن أن يحفظوا له الودّ. لكن ما إن تتعلّق به إحداهنّ، وتظهر الألفة في التعامل معه، حتّى تصير البسمة ساخرة، وتصدر عنه ملاحظة فظّة تعيد المرأة المتجاسرة إلى مكانها.

وككلّ امرأة تحاول أن تغري، تشعر سلمى أحياناً بأن نظرته ترهقها، فتبالغ في مداعبة الشباب الذين يحيطون بها، فلا يجرؤون على تصديق سعادتهم بذلك.

وذات مساء اقترب منها وحيد، وسألها بصوت اجتهد في أن يجعله كئيبا:

ـ لماذا تهربين منّي يا أميرة؟ أما زلت غاضبة عليّ؟ ألم تلاحظي أنّ فظاظتي ليلة حفل البحرية لم تكن إلا بسبب الغيرة؟

ومرّة أخرى تكذّب البسمة الساخرة ما يظهر في المقال من جدّيّة. على أنّ النظرة كانت قلقة. وأدركت باندهاش أنّ هذا الولد الوقح شخص خجول في الواقع، وهو خجل يجعله يبدو ساخراً على الدوام رغم صدق سريرته.

ـ غاضبة عليك؟ لماذا؟ سهرة البحرية؟ لقد مرّ عليها زمن طويل... نسيتها تماماً!

ـ لن ترفضي إذن مراقصتي؟

أتراه يمزح؟ ونظر أحدهما إلى الآخر، وانفجرا ضاحكين. وقادها إلى المضمار... يا إلهي، ما أسوأ طريقة رقصه!

٩

حلّ الصيف، وحمل الحرُّ الناس على ترك المدينة التي صارت خانقة. ذلك أن كلّ من تتوفّر له الإمكانات يرحل إلى الجبل، ويستقرّ لأربعة أشهر في الفنادق الكبرى، مثل صوفر وعالية وبكفيا، أو في البيوت الفخمة المحفوفة بالحدائق ذات المصاطب المتدرّجة. وحتّى الحكومة نفسها تترك العاصمة.

دعت أمل سلمى إلى المنزل العائلي العتيق الذي يشرف على الوادي في رأس المتن. هذا القصر الذي شهد جانباً من تاريخ الشعب الدرزي غادره جدّ أمل، وكان أوّل من تعلّم في المدارس في القرن التاسع عشر، ليستقرّ في بيروت. فتحوّل منذئذ إلى مجرّد إقامة صيفية.

يعيش الناس هناك حياة اجتماعية ريفيّة أحفل من تلك التي توجد في المدينة. لا شاغل لهم سوى البحث عن الملذات والمتع؛ إذ يتبادل الجيران الزيارات ببساطة كبيرة. وخلال النهار يتجوّلون بالعربات في الطرق الجبلية الضيقة، وينظّمون نزهات ضخمة على جنبات عين صافية أو في أحد تلك الفنادق الريفية التي تستأجر العائلة كلّ غرفها حتى لا يزعجها أحد. أمّا بالنسبة لمن يعشقون الرياضة أو تستهويهم المغامرة، فينطلقون على صهوات الخيل صباحاً ولا يعودون إلا في المساء.

لكن العرف جرى بأن يلتقي الناس في المساء، وينضمّون إلى الحفلات التّي تنظّم في كلّ مكان. ولمّا كانوا يحرصون على إرضاء بعضهم بعضاً، لم يكونوا يتردّدون في قطع عشرات الكيلومترات من

الطرق المتعرّجة لينتقلوا من هذا الحفل إلى ذاك، بحيث يسهرون حتّى الهزيع الأخير من الليل وهم يرقصون. وعند طلوع الفجر، يضع الخدم في كلّ غرفة أفرشة قطنيّة. فلا وجود للشكليات في الجبل، والمنازل من الضخامة بحيث تسع كلّ الضيوف. وهم لا يغادرون إلا في وقت متأخّر من النهار بعد أن يأخذوا قسطهم من الراحة، ويتناولوا فطوراً فاخراً مؤلّفاً من طيور مشوية وفول وحمّص.

يقع قصر وحيد غير بعيد من رأس المتن. ولم يحالف الحظّ إلا قلّة قليلة من اللبنانيين لدخوله. تستقرّ فيه أمّه طوال السنة، وهي تعيش في عزلة عن الناس. ويقال إنّه لا يدخله إلا بعض الفلاحين الدروز الذين يعيشون في محيطه، وبعض الشيوخ الموالين للأسرة.

وما أدهش سلمى هو أن البك الشاب الذي يزور بيت أمل وسلمى كلّ يوم تقريباً، لم يدعُهم إلى قصره قط.

قالت لها أمل ساخرة:

ـ هو يخشى أن نصدم أتباعه لأنّنا لا نرتدي الحجاب.

بدت كما لو أنّها تمزح، لكن تهيّأ لسلمى أنّها تقول الحقيقة. ومهما يكن، فإنّ وليد لم يعتد على الإكثار من التردّد عليهم في رأس المتن مثلما صار يفعل. أتُراه يأتي من أجل سلمى كما يؤكّد مروان؟ إذا صحّ ذلك، فما أغربها من طريقة للتودّد إليها! ذلك أنّه لا يكاد يوجه إليها الكلام. فهو يبدو بانشغاله معظم الوقت بمسابقات الرماية، أو استغراقه في نقاشات سياسية لا تنتهي، أميل إلى تفضيل رفقة الذكور. لكن يكفي أن يقترب أحدهم من سلمى، ويبقى معها أكثر ممّا تقتضيه المجاملات، حتّى يسارع إلى الالتحاق بهما ويشارك فيما يخوضان فيه من حديث. بل إنّه يعمد أحياناً إلى مقاطعته قائلاً:

ـ المعذرة يا عزيزي...

ثمّ يلتفت إلى سلمى ويقول:

ـ أريد التحدّث إليك على انفراد يا سلمى.

ثمّ يمسك بذراعها، ويجبرها على مرافقته.

في المرّة الأولى التي قام بـ«اختطافها» بهذا النحو، انتفضت وقالت له:

ـ ماذا أصابك يا وحيد؟ ألا تلاحظ أنّك تتصرّف كما لو أنّك تملكني!

نظر إليها وقال:

ـ أيزعجك ذلك إلى هذا الحدّ؟

ولمّا لزمت الصمت، تناول يدها وقبّل راحتها، فسَرَت في جسدها قشعريرة لم تشعر بمثلها من قبل. أغمضت عينيها وقالت في نفسها: «نعم، سأهبك نفسي».

ثمّ استرسل يقول همساً:

ـ ينبغي أن تعلمي يا سلمى كم أنت مهمّة بالنسبة إليّ! لا تتركي هؤلاء الأغبياء يغازلونك.

ثمّ عاد إلى أصدقائه على نحو مباغت.

قالت لها أمل منبّهة بعد أن لاحظت تزايد شرودها يوماً عن يوم:

ـ حذار يا سلمى، فوحيد لم يعرف قطّ مراده. لا أريدك أن تتعذّبي.

لكنّ المرأة العاشقة تحسب نفسها دائماً الاستثناء، وسلمى تعشق لأوّل مرّة في حياتها. فالقوقعة التي طوّقت بها نفسها في السنوات الأخيرة، وراحت تراقب بإشفاق لا يخلو من ازدراء الأذى الذي يسبّبه الحبّ من حولها، تكسّرت فجأة. شعرت كما لو أنّها صارت عارية، واندهشت للسعادة الكبيرة التي غمرتها من ذلك.

أمّا وحيد فبدا كما لو أنه دُجّن. كلّما رآها، ينسى ابتسامته الهازئة، وتطفح عيناه بالحنان. كثيراً ما كانت ترافقه في نزهات طويلة، غير عابئة

بما يثيره ذلك من نمائم. فيروح يحدّثها عن طفولته، وعن أبيه الذي منعه من الحياة لمدّة طويلة حتّى بعد وفاته.

ـ لا أتمنى لأحد أن يكون ابن بطل. لا يمضي يوم من دون أن يهتف لي أحدهم عن حسن نيّة: «كان أبوك رجلا وأيّ رجل!»، ثمّ يتفحّصني ويقول في نفسه: «أمّا هذا فلا يبلغ منه مبلغ الحزام!».

وبحركة تلقائية خلّل شعره بأصابعه الدقيقة، وقال:

ـ قضيت فترة طويلة وأنا أحاول التخلّص من شبحه. ويتهيّأ لي أحياناً أنّني لم أنجح في ذلك تماماً.

يبدو وحيد في هذه اللحظات على درجة من الضياع حتّى إنّ قلب سلمى ينقبض. فتتناول يده وتغوص بعينيها في عينيه، ثمّ تقول:

ـ أنا متأكّدة يا وحيد من أنّك ستنجز أعمالاً جليلة. المهمّ هو أن تثق بنفسك.

فيبتسم لها شاكراً.

ـ أنت مختلفة كثيراً عن سواك من النساء. يتوهّم من يراك أنّك ضعيفة، لكنّك في منتهى القوة...

وتريد سلمى أن تعترض، لكنّه لا يترك لها المجال، فيقول:

ـ أعلم أنّك قويّة، ولهذا أحببتك.

بينما كان يريدها هو دفعة واحدة، من دون تردّد ولا خوف، كانت ترغب هي في أن تبدو على حقيقتها، متجرّدة من شخصية الأميرة المتغطرسة، الواثقة من نفسها. لكن كلّما كشفت له عن أكثر جوانبها رقّة وصدقاً، بدا لها منسحباً كما لو أنّه خائف، كما لو أنّه يتوق لأن يراها صخرة صلدة لا صدع فيها، الصخرة التي يحلم بها ويتوق إلى أن يصير مثلها في يوم من الأيّام...

عندئذ تلزم الصمت، وتمضي تنصت إليه مستغربة ممّا تلمسه في نفسها من صبر النساء. أهو مظهر قوّة أم ضعف؟

ـ هل خاض معك في موضوع الزواج على الأقلّ؟

إلهي، كم هي مُرهِقة أمل، بأسئلتها!

ـ إذا كنت تصرّين على أن تعرفي، فهو لم يذكر كلمة زواج، لكن كل أحاديثه وحركاته تشير إلى ذلك.

ـ أنت تعلمين أنّ الدروز لا يتزوّجون إلا من داخل الطائفة، سوى في حالات نادرة جدّاً. وأمّ وحيد امرأة بالغة المحافظة. لن ترضى بأن يتزوّج من أجنبيّة، لا سيما أنّها تحرص على تعزيز شرعيّة ابنها وذريّته في حال ما استعادت عشيرتها السلطة يوماً.

ـ لا تبالغي يا أمل! فوحيد هو أكثر الرجال استقلالية فيمن لقيت حتّى اليوم. هل تعتقدين حقّاً أنّه سيسمح لأمّه بأن تملي عليه قراراتها؟

هزّت أمل رأسها بإحباط وقالت:

ـ إمّا أنّ الحب أعماك أو أنّك لا تفهمين شيئاً من طباع رجالنا!...

تركت هذه المحادثة انطباعاً بغيضاً في نفس سلمى. لماذا لا تكفّ أعزّ صديقاتها عن تحذيرها عوض أن تبتهج لسعادتها؟ لماذا تشكّك في حبّ وحيد لها؟ أتُراها تغار منها؟ فأمل تعرف البك الشاب منذ الطفولة ـ هو لا يكبرها إلا بأربع سنوات ـ كان يلعب مع أخيها مروان. لعلّها تشعر على نحو لا شعوري بأنّه ملك لها.

ولم تستطع أن تخفي ما دار بينها وبين أمل عن وحيد. حكت له ذلك مازحة، وأطلعته على شكوكها. فردّ بسخرية متعجّباً:

ـ تغار؟ هي تغار طبعاً، لكنّني أظنّ أنّك أخطأت في تقدير موضوع الغيرة. هي لا تحبّني أنا يا عزيزتي، بل تحبّك أنت!

لو أنّه صفعها لما شعرت بصدمة أكبر. وراحت تنظر إليه مذهولة وقد امتقع لونها: كيف له أن يفكّر في مثل هذه الفظاعات؟ فهي تحبّ أمل، وأمل تحبّها. حبّ من الصفاء بحيث لن تسمح له بتلويثه. تراجعت إلى الخلف وقد استبدّ بها الغيظ.

ـ يخيّل لي أنك تتسلّى بتدمير كلّ شيء!

فردّ وحيد بسخط:

ـ كلا! لا تلوميني أنت أيضاً على صراحتي! ما يعجبني فيك هو قدرتك على مواجهة الحقيقة، وأنّك...

ـ ... أنّني قوية؟ نعم. أعرف هذا. فلتعلم إذن أنّني ضقت ذرعاً بهذه القوّة! أنا أيضاً بحاجة إلى الرقة لا إلى الدوس على ما هو عزيز عليّ بذريعة الصراحة.

وأدارت له ظهرها. فهي لن تبقى مع هذا الرجل ولو ثانية أخرى. ولكن إلى أين تذهب. هي لا تريد أن تلقى أمل، بل لا تريد أن تلقى أحداً. كلّ ما تريده هو أن تخلو إلى نفسها.

غادرت رأس المتن من دون أن تلقى وحيد. وهي مدينة بهذا لأمل التي كادت للحظة أن تخونها. وهي ترغب في نسيان الكلام المقزّز الذي كشف فيه الدرزي عن حقيقته وأساء إلى صديقتها. كانت تعرف أنانيّته، لكنها لم تكن تتخيّل أنّه قادر على مثل هذه النمائم القذرة. وقضت الليل كلّه تبكي من الغضب والخيبة. وقرّرت ألا تلقاه أبداً.

ومع ذلك شعرت بالضيق وهي تقبّل أمل لحظة توديعها. ضمّتها بين ذراعيها وقد ساورها انطباع بغيض بأنّها تنافقها. ولمّا رفعت نحوها أمل وجهاً قلقاً، تمالكت نفسها حتّى لا تصرخ فيها: «ألن تكفّي عن حبّي!».

أمن أجل جملة ما كان ينبغي أن تقولها، ستفقدهما معاً؟

ولم تكد تمضي ثلاثة أيّام على عودة سلمى إلى بيروت حتّى طرق بابها الرجل الذي يتقلّد بندقية، وسلّمها رسالة كُتِب فيها:

«لا أطيق فراقك. ما كان عليّ أن أقول ما قلت. هلا غفرت غلطتي! ستجدينني بانتظارك في قاعة شاي فندق سان جورج عصر هذا اليوم، ابتداء من الساعة الرابعة. أتضرّع إليك أن تأتي.

وحيد».

أيظنّ أنّ بإمكانه أن يستبيح أيّ شيء، ويكفيه بعدئذ أن يقول: «سامحيني» لكي تهرول إليه؟ أيعتقد أنّ الأمر بهذه السهولة! لن تذهب إليه بالتأكيد! لقد انتهى ما كان يجمعهما. ثمّ إنها لم تعد تشعر نحوه بأيّ شيء، بل لا تفهم كيف وجدته شخصاً جذّاباً!

قضت اليوم كلّه في أعمال البيت وهي تغنّي. منذ فترة طويلة لم تظهر مبتهجة هكذا. ومضت تتخيّل باسمة وحيد بانتظارها: سيحزن ويصيبه الإحباط، وسيمطرها بالرسائل والورود. أمّا هي، فلن تجيبه. هي الآن تعرفه، ولن تتركه يتجاوز الحدود!

وعند الساعة الرابعة وخمس دقائق، دفعت سلمى باب فندق سان جورج وهي ترتدي ثوباً حريرياً أخضر زاد لون بشرتها بهاء.

بعد أن ظنّ كلّ منهما أنه فقدَ الآخر، ها هما يلتقيان من جديد. لم يشعرا بمثل هذا التقارب قطّ. ولم يعد وحيد يستبدّ بالكلام، ولأوّل مرّة راح يصغي إليها، فتستسلم للحديث وعلامات السعادة ظاهرة عليها.

أصبحا يتقابلان كلّ يوم. وكانت تقول لأمّها إنها ذاهبة إلى بيت أمل. كانا يمشيان لساعات على رمل الشاطئ الأحمر، ثمّ يستريحان في مطعم من المطاعم الصغيرة التي تقدّم المازة والفلفل المشويّ. أو يصعدان إلى هضبة السراي الكبير المشرفة على بيروت بأكملها، ويتركان السيارة هناك، ثمّ يركبان الترام الذي ينزل مهتزّاً ومُصدراً ضجيجاً يصمّ الآذان. وعند بلوغ ميدان المدافع، يستهويهما التجوّل في أزقة المدينة القديمة الضيقة التي لا يعرفهما فيها أحد. يفتح كلّ منهما قلبه للآخر، ويخطّطان لمشاريعهما.

وبينما كانا عائدين ذات يوم عبر شارع فيغان، إذا بسرب من الفرسان يلبسون برانس سوداء يظهرون فجأة، ويجبرونهما على التنحّي من الطريق. إنهم صبايحية المندوب السامي، على جيادهم العربية القصيرة. كان عددهم نحو الثلاثين، يرافقون سيارته الرسمية في كلّ تنقلاتها. ولم يتمالك وحيد نفسه من شتمهم، ثمّ أضاف بصوت خفيض ونبرة واثقة:

ـ يا لهم من مغفّلين! لا يشكّون في أنّنا ستتخلّص منهم قريباً!

استغربت سلمى كلامه، وتطلّعت إليه بنظرات مستفهمة، فحدّق فيها طويلاً، ثمّ قال أخيراً:

ـ إن وعدتني بأن تحفظي لسانك، سآخذك معي غداً مساء، وستفهمين قصدي.

تمثل حانة نادي الطيران ـ ذات المقاعد الجلدية والأثاث الخشبي الداكن ـ المكان المفضّل الذي يقصده كلّ المتآمرين في المدينة. وقد صار الناس يتجنّبون فندق سان جورج منذ أن تردّدت إشاعة تقول إنّ أفضل نادل في العاصمة، واسمه بيير، يتلقّى عمولات من كلّ مصالح الاستخبارات في الشرق الأوسط التي تحفل بها بيروت.

لفت وصول وحيد مع سلمى الأنظار، لأنّ اجتماع هذا المساء استثنائيّ. ذلك أنّ ممثّلي مختلف الفصائل المعارضة للانتداب عازمون على الاتّفاق حول عمل موحّد. وراح الحاضرون ينظرون إلى بعضهم بعضاً حائرين: هل من الحكمة أن يسكتوا على حضور امرأة غريبة بينهم؟ لكن كيف لهم أن يرفضوا حضور هذه الفاتنة؟ فاللبنانيون مجبولون على النخوة وتقدير النساء. ثمّ إنّها ترافق وحيد، وسيكون من باب الإساءة إليه إبداء الحذر منها! لذلك أفسحوا لها مكاناً شرفيّاً بينهم. ثمّ وزعوا كؤوس شامبانيا وشرعوا في النقاش.

ومضى وحيد يقدم لسلمى الشخصيات الحاضرة بصوت خفيض.

ـ ذلك الرجل ذو الشعر المخرّص ماسوني، بعثه محفله الذي اتخذ في الآونة الأخيرة موقفاً واضحاً ضدّ الانتداب. وبجانبه جبران تويني، مدير النهار، أوّل جريدة لبنانية مناوئة للانتداب. وهو يحضر بصفته صحافياً ملاحظاً، ويعرف حقّ المعرفة دوائر السياسة الفرنسية. وقد يكون رأيه ثميناً بالنسبة إلينا. أمّا ذلك الرجل قبالتنا، ذو الملامح الصارمة، فهو أنطوان سعادة الشهير، مؤسّس الحزب الشعبي السوري الذي يطالب

بإنشاء سوريا الكبرى التي تضمّ فضلاً عن سوريا، لبنان وفلسطين. وفكرة سوريا الكبرى هذه تعود إلى الماضي السحيق، زمن الكنعانيين، وتستند إلى كتابات أحد اليسوعيين البلجيكيين، وهو الأب لامنس. والشخصان اللذان يجلسان إلى يمينه من دعاة القومية العربية، الذين يرون أنّ سوريا الكبرى ليست إلا خطوة في طريق وحدة العالم العربي بكامله...

وراحت سلمى تحدّق في وجوه هؤلاء الأبطال المستعدّين للتضحية بأرواحهم في المستقبل من أجل «تحرير بلادهم من براثن الأجانب». وهي لم تكن تتخيّلهم بهذه الأناقة: بقمصانهم ذات الياقات البيضاء المنشّاة، المجلوبة من باريس، وبدلاتهم بالغة الأناقة. وودّت لو أنّ مظهرهم يشي بميولاتهم الثوريّة. لكنّها سرعان ما استدركت: يا لها من فكرة سخيفة! فالمتآمرون لا ينبغي أن يفضحهم مظهرهم. على أنّ هذا لم يمنعها من أن تلاحظ أنّ أناقة المكان، وأجواءه الفاخرة، والسيغارات الفخمة، تتعارض مع المواقف الجذرية التي هم بصدد اتّخاذها. وبدا لها أنّ أنطوان سعادة هو الوحيد الذي يبدو عليه الاستعداد للتضحية بكلّ شيء من أجل أفكاره. هو الوحيد الذي يمكن أن تثق به فضلاً عن وحيد طبعاً، الذي مضى يتحدّث في تلك الأثناء باسم الدروز:

ـ إنّنا على اتّصال مستمرّ بإخواننا في سوريا. نحن نملك الأسلحة. على أنّ كثيراً من فلاحينا ما زالوا متردّدين خائفين، لأنّ قيام مملكة سوريا العربية الكبرى ستحوّلهم إلى أقليّة بلا صوت ولا حقوق، غارقة في بحر المسلمين السنّة. وهم على كلّ حال لم ينسوا أنّ الانتداب الفرنسي هو الذي مكّن العقيدة الدرزية من اكتساب وضع رسمي. والست نظيرة لا تفتأ تذكّرهم بذلك. لكنهّم يرغبون مع ذلك في الاستقلال. فالمهمّ إذن هو أن نوحّد كلّ قوانا ضدّ الوجود الفرنسي: الشعب ساخط، والوضع صار ناضجاً.

كانت إضرابات ١٩٣٥ عسيرة للغاية. فالكساد الاقتصادي والتضخّم القادمان من أوروبا أفرغا الجيوب، وقدّما مبرّرات لتحرّك الساسة. ففي

زحلة، تسبّبت الضريبة الجديدة المفروضة على اللحم في إضراب الجزارين الذي تحوّل إلى أعمال شغب. ذلك أنّ المتظاهرين عمدوا إلى اقتحام مكاتب الحكومة، فردّت الشرطة بإطلاق النار متسبّبة في سقوط كثير من الجرحى. أمّا في بيروت، فدامَ إضراب سيّارات الأجرة أسابيع عدّة بإيعاز من الجماعات الشيوعيّة. ثمّ تبعه إضراب المحامين الذين تظاهروا احتجاجاً على فتح المحاكم اللبنانية أمام المحامين الفرنسيين.

على أنّ ما أجّج غضب البرجوازية، المسلمة والمسيحية على السواء، هي قضية شركة التبغ. فحقّ الامتياز الذي صادرته فرنسا سنة ١٩٢٠ انتهى العمل به تلك السنة، فألّحت أوساط الأعمال اللبنانية على أن تسترجعه. بل نظّمت مقاطعة للتبغ... على أنّ المندوب السامي لم يعبأ بكلّ ذلك، ومنح من جديد امتياز تجارة التبغ لمجموعة فرنسية، ولمدّة خمس وعشرين سنة!

ومضى المتآمرون يفركون أيديهم في الحانة ذات الأضواء الخافتة: لقد بلغ السخط على الانتداب مداه، ولم يعد يحتاج إلا لمن ينظّمه ويوجّهه.

ودارت بقيّة النقاش حول: من يدعون؟ وأين يجتمعون؟ وأيّ أشكال النضال الجديدة يعلنون؟ على أنّ سلمى شردت ولم تتابع الحديث بتركيز. راحت تنظر بإعجاب إلى وحيد الذي تكلّف، برفقة أنطوان سعادة، بإدارة العمليّات. الآن فهمت سبب تعلّقها به.

ولمّا سألها بصوته الجهوري وهما عائدان في السيارة: «ستكون المعركة حامية، أأنت مستعدّة للكفاح معي؟»، وضعت يدها في يده وقد استبدّ بها الحماس.

كانت الساعة تقارب الثانية عشرة ليلاً حين دخلت سلمى إلى البيت على رؤوس أصابع قدميها. وجدت أمّها تنتظرها في الصالون، وسألتها بفتور عن صحّة أمل. وقبل أن تبادر بالجواب، قاطعتها:

ـ لا داعي لأن تكذبي عليّ من جديد. هذه ثاني مرّة يبلغني أنك شوهدت وحيدة مع ذلك الدرزي. هل يوجد شيء بينكما؟

لم يعد بوسع سلمى أن تخاتل. وشعرت في قرارة نفسها بشيء من الارتياح، إذ لم تعد تطيق إخفاء علاقتها بوحيد.

ـ بيننا علاقة حبّ يا أنيدجيم.

قطّبت السلطانة وقالت بنفاد صبر:

ـ ليس هذا هو القصد من سؤالي. هل ينوي الزواج منك؟

ـ بالطبع...

وتملّكها الارتباك من جديد. فوحيد لم يُفصح عن هذه الرغبة صراحة. لكنه يرغب في الزواج منها طبعاً!

ـ فلِمَ لم تأت أمّه لتفاتحني في الأمر؟

ـ هي تسكن في مكان بعيد، في عين زحلتا، إحدى قرى الجبل. وأظنّ أن حالتها الصحية لا تسمح لها بالسفر.

ـ حسناً. ائتيني غداً بهذا الشاب في ساعة الشاي.

ـ ولكن يا أنيدجيم...

ـ لا يوجد لكن. إمّا أن تنفذي ما طلبت منك، وإلا لن تخرجي من البيت إلا مرفوقة بزينيل أو إحدى القلفاوتين. واعتبري نفسك محظوظة أنّي رضيت استقباله. ولولا أنك عرّضت نفسك للشبهة ما كنت فعلت. الله شاهد عليّ أنني كنت أحلم لبنتي الوحيدة بزوج آخر! لمّا أفكّر في أنّه درزي... ليس مسلماً حتّى!

ـ ولكنّ الدروز مسلمون يا أنيدجيم!

ـ هذا ما يدّعونه. إلا أنّهم لا يقرّون بأركان الإسلام الخمسة، ويؤمنون بالتناسخ مثل الهندوس! هيّا، اغربي عن وجهي، وإلا صببت عليك جامّ غضبي!

كانت المقابلة كارثية. فرغبة وحيد في الزواج من سلمى صادقة، لكنّه يرفض أن يرضخ للإملاءات. ولمّا سألته السلطانة عن حياته ومشاريعه، أجاب بطريقة مراوِغة ومُبتسرة، حتّى إنّه بدا أحياناً أبعد ما يكون عن اللباقة. وما من مرّة ذكر اسم سلمى. ومضى يداعب بحركات آلية الهرّ الفارسي الذي التصق بساقه وهو يخرخر. عضّت السلطانة على شفتيها وقد وجدت صعوبة كبيرة في كظم غيظها.

لقد حكمتْ عليه من أوّل نظرة: رجل لا مسؤول وحالم! أمّا هو، فيكره هؤلاء النسوة المتسلّطات. وتساءل حول ما إذا كانت قوّة الشخصية التي تظهر على سلمى اليوم ما هي إلا إشارة تنذر بالأسوأ... ثمّ إنّه يشعر بالضيق في هذا المنزل. صحيح أنّه لم يكن ينتظر أن يجده باذخاً، لأنه يعلم أنّهم فقدوا كلّ شيء، لكنّه كان يتوقّع أن يجد فيه بعض الأشياء الثمينة على الأقلّ، تشهد على مجدهم السابق: لوحات قديمة، أوانٍ فضيّة بديعة... تثبت للزائر هويّتهم وماضيهم. لم يكن يتصوّر أن يكون أثاث البيت بهذه الوضاعة، ولم يتخيّل بأن تعيش أميرته في مكان كهذا... وعندما تأمّل سلمى وأسرتها في ضوء تفاهة المكان، ساوره شعور بأنّه خُدع. وأخذ يتصيّد الفرصة لكي يغادر.

ولمّا أعلن لسلمى التي رافقته إلى الباب بأنّه سيذهب إلى الجبل في اليوم الموالي لأمور في غاية الأهمّيّة... وأن حضوره ضروري، فوجئت، واستغربت عدم إخبارها بذلك من قبل.

ـ لم أتوصّل برسالة تخبرني بذلك إلا هذا الصباح... هيّا! لا داعي لأن تحزني، فالشوف على مرمى حجر من هنا!

ـ ومتى ستعود.

ـ لا أعرف. ربّما بعد ثلاثة أسابيع أو أربعة. سأتّصل بك بمجرّد عودتي.

وتهيّأ لسلمى أنّه يكذب.

ـ أرجوك يا وحيد، أخبرني بالحقيقة: ألم تعد تحبّني؟

ضحك، وبدا من جديد جذّاباً وهو يقول بشيء من السخرية:

ـ خيالك مجنّح يا حبيبتي، ألا تدركين كم أنت غالية عندي؟

وتناول يدها بحركة صارت مألوفة، وطبَع في راحتها قبلة رقيقة.

ـ ألقاك قريباً أيّتها الأميرة الصغيرة!

وظلّت واقفة على العتبة تتابعه بعينيها وهو يبتعد إلى أن بلغ أقصى الشارع. لكنّه لم يلتفت.

ومضى شهر من دون أن تتوصّل بأخباره. هي تعلم أنّه يكره كتابة الرسائل، ومع ذلك بدأ يخامرها القلق: لعلّه مرض أو جُرح. ففي الجبل يطلق الناس الرصاص لأتفه الأسباب، ووجود وحيد يضايق كثيراً من الناس. اللهم إلا إذا كانت أمّه استحوذت عليه من جديد، وأقنعته بأن ينذر نفسه لقبيلته في المقام الأوّل، وعثرت له على خطيبة درزية...

لقيت سلمى ذات مساء خلال حفل عشاء مروان وأمل اللذين أهملتهما في الأيام الأخيرة. وبينما كانت تنصت باستمتاع إلى آخر أخبار العاصمة وإشاعاتها، سمعت اسم وحيد، فانخلع قلبها. كانت امرأة شقراء لم يسبق لها أن رأتها تتحدّث بصوت عال:

ـ هل سمعتم الخبر؟ لقد تزوّج!

وصمتت لحظة إلى أن توقّفت المحادثات، ثمّ استرسلت تقول:

ـ لن تستطيعوا تخمين من تكون العروس! إنّها شابة أمريكية ثريّة، ابنة مدير شركة إير آم، وهي شركة طيران عملاقة. هو من كان بحاجة إلى المال لكي ينطلق في السياسة، ينبغي الاعتراف بأنّه عرف كيف يتدبّر أمره!

وحيد؟... تزوج من أمريكية؟... وشعرت سلمى بقلبها على وشك أن يتوقّف. وقبالتها كان مروان يحدّق فيها متضرّعاً وملحّاً.

لا تخش شيئاً يا مروان، فأنا أعرف أنّهم ينظرون إليّ، ولن أمنحهم فرصة التفرّج عليّ. ثم إنّ كلّ هذا لا أساس له من الصحة. من المؤكّد أنّ هذه المرأة مخطئة، وأنّ الأمر يتعلّق بدعابة أخرى من دعابات وحيد.

فهو مولع بإشاعة أخبار خاطئة ليثير حوله الأحاديث... ولكنها... تقول رأته. أيعقل أن يكون عزيزي وحيد في بيروت ولا يهاتفني!

أغمضت عينيها. فقد شعرت بالدوار، ولم تعد قادرة على لمّ شتات أفكارها، واقتنعت فجأة بأنّ ما تقوله هذه المرأة صحيح.

ورافقها مروان وأمل من دون أن ينبسا. ماذا عساهما أن يقولا؟ لا شيء في الحقيقة.

قضت سلمى اليوم الموالي كلّه جالسة إلى جوار الهاتف تنتظر. سيتّصل بها... من المستحيل ألا يتّصل، على الأقل ليبرّر لها فعلته... لكنّها لم تتوصّل إلا بمكالمة واحدة من أمل أكدّت فيها الخبر مصعوقة. شكرتها سلمى من دون أن تعرف للشكر سبباً، ثمّ نهضت وعبرت الممرّ كالمسرنمة، ولاذت بغرفتها.

استلقت على سريرها وعيناها مفتوحتان، وشعرت كما لو أنها تطفو في الهواء. لم تكن تشعر بالألم، إلا أنّها راحت تتساءل ببساطة لماذا فعل بها ما فعل. كانت ستتفهّم موقفه لو أنّه تزوج من فتاة درزية لدواع سياسية. لكن أن يتزوج من هذه الأمريكية الثريّة... أيُمكن أن يكون مجرّدَ طمّاع تافه، يتزوّج المرأة من أجل مالها؟ وفي هذه الحالة، ماذا تراه ينتظر منها؟ وتذكّرت كلّ كلمة من كلماته، لا سيما صمته، وأبسط تفاصيل الأشهر التي قضياها معاً، يوماً بيوم. هي واثقة من أنّه كان صادقاً في ذلك الحين. أيُعقل أن ينساها بمجرّد ابتعاده عنها؟ أم أنّه ضحّى بحبّهما بسبب حاجته إلى المال من أجل مواصلة الكفاح؟

ليته جاء وشرح لها هذا. لربّما صدّقته، وتقبّلت تصرّفه... ربّما تفهّمت كلّ شيء. لكن أن يواجهها بهذا الصمت وهذا الجبن، أن يهجرها من دون أن يقول شيئاً، فهذا أمر لا يمكن أن تقبله.

وساورها ألمٌ لم يكن غريباً، أشبه بألم جرح قديم، جرح كانت تعلم أنّه سيُنكأ في يوم من الأيام، وتنتظر ذلك بفضول مقرف، وبخضوع هادئ.

وتلاشى وجه وحيد... وبنظرة لامبالية عابثة قال خيري بك:

ـ لماذا تتّهمين دائماً الآخرين؟ إن هجروك، فلربّما بسبب خطئك!

ربّما... لكن رغم بحثها الدؤوب، لم تعثر على الخطأ الذي ارتكبت، ولا على سبب تخلّي وحيد عنها، مثلما تخلّى عنها والدها من قبل.

أيّ ذنب اقترفت؟ وأيّ قانون خرقت؟ وضربت جبينها بقبضة يدها: لا بدّ أن يكون ثمّة سبب، وإلا فإنّ هذا العالم مجنون، بلا موجّهات ولا قوانين. وهو ما لا تستطيع ولا تريد أن تتصوّره. وتُفضّل أن تستسلم لهذا الأمر البديهي الغامض مُطمئِن مع ذلك: وهو أنّها مخطئة.

كانت السلطانة الملازمة لمقعدها تراقب ابنتها بقلق. مضت أيّام وهي ترفض تناول الطعام. تسجن نفسها في غرفتها أو تتجوّل في ردهات البيت ساهمة. ينبغي أن تتدخّل قبل أن تؤذي صحتها، وتمرض.

قالت لها ذات صباح وقد بدت لها أقلّ سهوماً:

ـ لا تظنّي أنّ هذا الشاب كذب عليك: من الواضح أنّه كان متعلّقاً بك. وأنا أقدّره لأنه استطاع أن يتّخذ هذا القرار الحكيم بإنهاء علاقته بك.

وتطلّعت سلمى إلى أمّها بنظرة معاتبة.

ـ ليس لديّ مزاج للمزاح يا أنيدجيم.

ـ أكرّر لك بأنّه أحبّك. لكنّه لم يكن واثقاً بأنّه يستطيع أن يرهق نفسه بامرأة من طينتك. هو بحاجة إلى امرأة مطيعة، لا تسأله إن تغيّب ثمانية أيام لأجل مهمّة سريّة، أو للصيد مع أصدقائه، أو مع عشيقته. فإذا ما عاد استقبلته بالابتسامة. ما كُنتِ لتصمُدي شهراً واحداً في أداء دور الزوجة الوديعة هذه. فالمرأة في عائلتنا كانت دائماً فرساً حروناً.

كانت خديجة تنظر إلى ابنتها وهي تتحدّث إليها. أمّا سلمى فمضت تحدّق في أطراف أصابعها بوجه عابس. كان عليها أن تُعيد لها الثقة بنفسها حتّى لو كلّفها الأمر أن تكذب قليلاً. واسترسلت تقول:

ـ لقد خاف هذا الشاب. وهو إن كان «هجرك» كما تؤثرين القول، فليس لأنه لم يعد يُحبّك، بل بالعكس، لأنه يبالغ في حبّك!

١٠

فازت الجبهة الشعبية هذا الربيع من سنة ١٩٣٦ بالانتخابات الفرنسية، فشكّلت الحكومة برئاسة ليون بلوم. وتساءل الناس في بيروت، حيث كانوا يتابعون الأحداث باهتمام بالغ، عمّا إذا كان هذا الفريق «الاشتراكي» سيمنحهم الاستقلال أخيراً.

وخطت البلاد خطوتها الأولى: فمنذ العشرين من يناير، صار للبنان رئيس حقيقي هو إميل إده، وهو الرئيس الأوّل المنتخب منذ عشر سنين. وقد اضطرّ المندوب السامي داميان دو مارطيل ـ الذي أعاد العمل بالدستور بطريقته الخاصة، ونصّب نفسه رئيس الدولة، وحوّل البرلمان إلى قاعة للتسجيلات ـ إلى السماح بتنظيم انتخابات تحت الضغط الشعبي.

لكنّ اللبنانيين ما عادوا يقنعون بهذا. صاروا يشعرون بأنّهم قادرون على تدبير شؤونهم، ولم يعودوا يرضون بالقيود التي يفرضها عليهم الانتداب. وفي فبراير/ شباط من سنة ١٩٣٦، قرّر البطريرك الماروني في عريضة أن يعقد مؤتمراً للأساقفة، عملوا فيه على صياغة بيان وجّهوه إلى المندوب السامي، يطالبونه بالاستقلال الفعلي للبنان، وصياغة دستور جديد يضمن حرية الصحافة والتجمع وتشكيل الأحزاب السياسية.

وحتّى الرئيس إميل إده، الذي كان مؤيّدا للانتداب ـ مقدّراً أنّ البلاد مقسّمة بين الوطنيين اللبنانيين والقوميين العرب الذين يطالبون بالوحدة مع سوريا، ومن ثمّة ما تزال البلاد غير مستقرّة لكي تستغني عن الوجود الفرنسي ـ اصطدم باستبداد الكونت دو مارطيل.

وتقول أمل ساخرة:

ـ السبب الحقيقي لكره أحدهما للآخر هي رايسكا في الواقع!

ورايسكا دو كيرشوف هذه هي زوجة القنصل البلجيكي. امرأة روسية بيضاء هام بحبّها الكونت. وقد كانت الأوساط السياسية والاجتماعية تتابع بشغف حلقات هذه القصة الغرامية المليئة بالمفاجآت. ذلك أنّ رايسكا ذات المزاج المتقلّب، كثيراً ما كانت تغلق باب بيتها في وجه الكونت، فيصيبه الإحباط. والشخصان الوحيدان اللذان لم يكونا على دراية بهذه القصة هما الزوج «ريبيرتيتو» الوديع، والذميمة الكونتيسة دو مارطيل.

على أنّ إميل إده أهان رايسكا إهانة بالغة. إذ يشاع أنها لم تدّخر جهداً في تأييد ترشيحه، لا سيما لدى الكونت دو مارطيل. على أنّ هذا الجاحد أغفل دعوتها إلى حفل الغداء الذي أقامه غداة فوزه، الذي استدعى إليه كلّ أعيان بيروت! وهذه غلطة لا تغتفر. وتهامس الناس بأنّ المندوب السامي لم يعتبر أنّ إده أهان عشيقته الحسناء فحسب، بل أهان شخصه هو أيضاً. وسلمى تعرف رايسكا حقّ المعرفة. بل إنّها التقت بوحيد مؤخّراً، ولأوّل مرّة، خلال حفل عشاء في بيتها. ذلك أنّ الأميرة لم تحبس نفسها حزناً وكمداً، بل راحت، وبدافع التحدّي، تحضر كلّ الحفلات. وحتّى صديقاتها اللواتي كنّ عازمات على مواساتها، سرعان ما أعرضن عن ذلك: فهي لم تَبدُ بمثل هذا الألَق أبداً!

وبينما كانت داخلة إلى صالون آل كيرشوف ذلك المساء متأخّرة كعادتها، لمحت طيف ذلك الرجل الطويل الذي لم يكن غريباً عنها، مستنداً إلى المدخنة، فشعرت كما لو أنّ قلبها سيتوقّف. استقبلتها رايسكا التي كانت مستغرقة في الحديث مع وحيد قائلة ببعض الذهول ربّما:

ـ أظنكما تتعارفان.

وتوقّف كلّ من حولَهما عن الكلام. أمّا سلمى فاجتهدت في أن تتمالك نفسها، ومدّت يدها إلى وحيد باسمة. وقالت وهي تحرص على ألا يبدو صوتها متهدّجاً:

ـ كلّ التهاني، علمت أنّك تزوّجت!

شحب لونه، ومضى يشكر بارتباك من دون أن يجرؤ على رفع بصره إليها. وتمثّل لها فجأة جباناً سخيفاً. ثمّ التفتت ضاحكة إلى الرجل الذي كان يمدّ لها ذراعه ليرافقها إلى غرفة الطعام، وأحسّت بسعادة غامرة، وبأنّها خفيفة مثل زغب الإوز، وقالت في نفسها: ما أجمل الحياة!

جاءت أمل بعد ظهر ذلك اليوم حاملة خبراً مهمّاً. فهي ستتزوّج أحد أبناء عمّها من آل الأطرش، أقوى الأسر الدرزية في سوريا. لم تلتق به إلا مرّتين منذ سنوات، وكل ما تتذكره منه هو أنّه ولد فارع الطول، عريض المنكبين، ساحر الابتسامة، يكبرها بثماني عشرة سنة. تقول عنه خالتها التي حرصت على عقد هذا القران قبل موتها: «شجاع كالأسد، وصاف كالذهب». وهي تحرص على ذلك لا لأنّها مريضة، بل لاعتقادها بأنّ من هي في سنّها ينبغي أن تكون مستعدّة لما تخبّئه الأيام. وهما سيسكنان في دمشق، جوهرة الشرق الأوسط، وقلب العالم العربي، والشاهد الحيّ على عظمة الخلفاء الأمويين.

وتُعلّق أمل وهي باسمة:

ـ الزواج شرّ لا بدّ منه.

لكنّها سرعان ما تتدارك، فتنظر إلى صديقتها مقطّبة حاجبيها.

ـ وأنت يا سلمى؟

ـ أنا؟... دعيك من هذا يا أمل... فالعالم مُشرع أمامي!... أقول في نفسي أحياناً إنّني يمكن أن أصير سائقة سيّارة سباق، أو أتفرّغ للعناية بالمجذومين... لكنّ المشكلة هي أنّني أخاف السرعة وأتقزّز من المرض... أأكون ملكة؟ فقد جرّبت ذلك، لكنّه لم ينجح... أو نجمة؟ نفس الشيء... أم عاشقة؟ ذلك أدهى... إن كانت لديك فكرة أخرى، فأنا مستعدّة لتجريبها.

راحت سلمى تتحدّث كيفما اتّفق لكي تداري ارتباكها، وفي نفسها

شيء من العتاب على أمل التي ستتركها. والواقع أنّ هذا الزواج اضطرّها إلى مواجهة حقيقة طالما هربت منها: لقد بلغت الخامسة والعشرين، وهي الوحيدة من بين بنات مجموعتها التي ما تزال عازبة. ليس معنى هذا أنّها متحرّقة للزواج، فقد غُرّر بها بما فيه الكفاية... وسواء أكان مردّ ذلك إلى زهوها بنفسها أم إلى الخوف من المعاناة، فهي لا ترغب في أن تجرّب الخيبة للمرّة الثالثة. أمّا أن ترهن حرّيتها لمجرّد «التخلّص من حياة العزوبة»، كما تقول أمل، فهذا ما هي غير مستعدّة لقبوله.

ومع ذلك فهي لا يمكن أن تستمرّ طويلاً في هذه الحياة... وعندما تُنعم النظر في السنوات الأخيرة التي عاشتها، يتهيّأ لها أنّها كانت تدور في حلقة مفرغة، وأنّها صرفت وقتها في حضور الحفلات وفي الأمور التافهة، لعدم وجود بديل أفضل يشغلها... ومن ثمّة صار توقها لترك بيروت يتزايد يوماً عن يوم. فرغم كونها عاصمة كبيرة، أضحت بالنسبة لسلمى قرية لا تَعِدُ بجديد.

ليتها كانت تملك المال! لأمكنها إذن السفر إلى باريس ونيويورك وهوليود... ليس بمفردها طبعاً، بل بصحبة زينيل. على أنّ وضعهم المادي للأسف لم يعد يدعو إلى القلق فحسب، بل يوشك على أن يصير مأساوياً. تكاليف الحياة تزداد غلاء، ومداخيل التوظيفات المالية التي يتكفّل بها سورين تتضاءل.

وبدأت تراود سلمى فكرة... العمل، إذ كان يتردّد أنّ بعض نساء الطبقة البرجوازية يعملون. هي لا تعرفهنّ، لكنّها سمعت بهنّ. ماذا لو اقترحت الأمر على السلطانة؟ هي لا تستطيع حتّى أن تتصوّر ردّ فعلها. لكن ماذا عساها أن تشتغل؟ هي لا تعرف شيئاً على كلّ حال.

سألت بنبرة مستفزّة:

ـ أتظنين بأنّهم يقبلونني كخادمة؟ فأنا أعرف التطريز وترتيب باقات ورد رائعة...

قامت أمل واقفة، وضمّتها بين ذراعيها.

ـ لا تكوني ثقيلة الظلّ يا عزيزتي! هناك عشرات الرجال يتمنّون الزواج منك. ألا يروقك أحدٌ منهم؟

ـ لا أحد.

وحتّى تخفّف ما قد يشي به كلامها من غرور، أضافت:

ـ في الحقيقة، أنا أختنق في بيروت. وددت لو أسافر إلى الطرف الآخر من العالم، أمريكا مثلاً، بما أنني لا أستطيع العودة إلى الأستانة.

وتطلّعت إلى صديقتها بعينين متلألئتين، واسترسلت تقول:

ـ أرغب في التغيير يا أمل. الحياة هنا هادئة جدّاً. أتذكرين كم كنت مثاليّة وطموحة؟ أمّا الآن فلم أعد سوى امرأة تقضي كلّ وقتها في ارتياد الحفلات والاستقبالات. بدأت أكره نفسي...

وتظاهرت أمل بالنظر إلى سير حذائها، وسألت:

ـ ألا يكون ذلك بسبب وحيد؟

فانفجرت سلمى ضاحكة.

ـ كلا. يا لها من فكرة! لقد تخلّصت من وحيد كما يتخلّص المرء من لباس رثّ، إلى حدّ أنني أتساءل عمّا إذا كنت أحببته هو أم الكفاح الذي كنت أتخيّل نفسي سأخوضه بجانبه. كلا يا أمل. أنا لست من نوع النساء العاطفيات... لكن إن تقدّم إليّ رجل، وعرض عليّ أن أقاسمه مشروعاً عظيماً، فسأتبعه إلى طرف العالم... ليس الرجل هو المهمّ في نظري، بل المشروع!

ابتسمت أمل.

ـ ما أعزّك إلى نفسي! لم أعرف في حياتي فتاة رومانسية مثلك!

ومن دون أن تترك لسلمى الوقت الكافي لكي تغضب، طبعت على خدّها قبلة، وانسحبت.

جاء مروان هذا اليوم بسيّارته الحمراء لمرافقة سلمى إلى المدينة لكي تتسوّق. ذلك أنّ سائقها المفضل أوهران اختفى منذ بضعة أسابيع. أبحر إلى ألبانيا! فبعد حنق مصطفى كمال الذي عمّر طويلاً، استؤنفت العلاقات مع تركيا. وفكّر الأمير عابد، صهر الملك زوغ الأول، في ابن أخته الذي كان يعمل سائقاً في بيروت، ودعاه ليكون حارساً مرافقاً لجلالته.

ونظرت سلمى بحنين لسفر ابن عمّها الأثير إلى ألبانيا، ذلك البلد الذي طالما حلمت به. ومضت لتجلب الكتب والمجلات التي دأبت على انتقائها بحماس متّقد منذ أربع سنوات، والتي لم تقو على التخلّص منها.

قالت في نفسها بلامبالاة متصنّعة: هذا سيحرّر أدراج مكتبي. أمّا زينيل الذي لم ينس ذلك الزواج الذي لم يكتمل، فراح يدعو بالويل والثبور على الطاغية الذي حال دون أن تصير صغيرته سلطانة.

لكن ألبانيا تراءت لها بعد ظهر هذا اليوم الخريفي بعيدة جدّاً. وما كادت السيارة تنعطف عند زاوية الشارع، حتّى نزعت سلمى قبّعتها، ووضعت رأسها على مسند المقعد الجلدي. كم تحبّ أن تعبث الريح بخصلات شعرها! وكم تشعر بالراحة لمّا تكون مع مروان! فهو على الأقل غير متشدّد في تمسّكه بالأعراف، بخلاف خيري الذي لو رآها كاشفة عن شعرها في الخارج، لأقام الدنيا وأقعدها، ولوشى بها إلى السلطانة.

وهمست له:

ـ لطالما تمنّيت أن يكون لي أخ مثلك. أمّا أخي، فلم يقُم أبداً بشيء من أجلي...

فاعترض مروان قائلاً:

ـ إنّك تظلمينه. أظنّك لا تشعرين إلى أيّ حد تُرهقينه؟

فردّت مستنكرة:

ـ أنا أرهقه؟ أهي غلطتي إن كان بطيئاً كالحلزون؟

ابتسم مروان، ولم يعقّب. فهو يدرك استحالة إقناع شخص حادّ

المزاج مثل سلمى بأنّ للحلزون أيضاً مزايا. هو نفسه لا يتعاطف كثيراً مع خبري، لكنّه حين رآه ذلك المساء، عند إعلان خطوبة أمل، يتظاهر برباطة الجأش، غير قادر على إخفاء ضيقه، أشفق من حاله.

تسوّقا من باب إدريس الواقع في وسط المدينة، ثمّ اقترح عليها أن يذهبا إلى أجامي الذي يقدّم أفضل المشروبات في بيروت. وبينما كانا يعبران ميدان المدافع، أوقفتهما مظاهرة: نحو خمسين شاباً يلبسون شورتات وقمصاناً زرقاء غامقة، يقومون باستعراض أشبه بالاستعراضات العسكرية.

ترجّلا من السيارة، فقالت سلمى:

ـ تعال لنرى.

انضمّا إلى الفضوليين الذين كانوا يتابعون المظاهرة ويتبادلون بعض التعليقات الساخرة.

ـ مليشيات ابن الجميّل من جديد! منذ أن ذهب إلى الألعاب الأولمبية في برلين، لم يعد يتمالك نفسه!

ـ أتعرف ماذا يسمّيهم؟ الكتائب! مثاله الأعلى هو الفوهرر. يدّعي أن جمعيته مجرّد جمعية رياضية ذات هدف اجتماعي، لكنّه يريد أن ينظّم في الواقع الشبيبة اللبنانية على غرار الشبيبة النازية. شبيبة متطرفة، ومتعصّبة للوطن.

ـ ما هذا الهراء؟ نحن جميعاً وطنيون!

ـ لا تخطئي! ففي نظر هؤلاء الشباب، من يسعون إلى الوحدة مع سوريا، أيّ نصف الشعب، هم لبنانيون فاسدون. لهذا هم يقتصرون على تجنيد الشباب من الوسط الماروني، رغم أنّهم نجحوا في جذب بعض المسلمين إلى صفوفهم.

ـ يا للسخافة! حريّ به أن يساعد أباه في الصيدلية.

ـ الصيدلية؟

ـ تلك الموجود قبالتك، في مدخل الحيّ الماروني. بل إنّ موقع هذه الصيدلية المميّز هو ما جعل الناس يلقّبون صاحبها، أيّ الأب جميّل بـ«مَلِك الواقي من الأمراض الجنسية!».

فانفجرا ضاحكين.

سألت سلمى:

ـ ماذا يقولون؟

ـ لا شيء. تعالي.

سحبها بسرعة وقد بدا شارداً.

كانت السلطانة تنتظرهما في شارع رستم باشا بنفاد صبر. على أنّ سلمى اندهشت من أنّ أمّها، التي اعتادت على المغالاة في إكرام زوّار البيت، لم تدعُ مروان لتناول الشاي. ذلك أنّ الشاب استأذن بالانصراف بعد بضع دقائق من الحديث.

وما كاد باب البيت يُغلق حتّى نادت على ابنتها وأخبرتها بصوت مرح على غير العادة بأنّها تريد أن تتحدّث إليها في أمر جادّ. وهذا النوع من المقدّمات يحمل سلمى على الاحتراس، لكن أنيدجيم تبدو اليوم رائقة المزاج.

ـ لعلك تظنين يا ابنتي أنّ أمّك لا تهتمّ كثيراً بمستقبلك... كلا، لا تقاطعيني! كلّ صديقاتك تزوّجن، وحتّى أمل توشك أن تتركك... لقد تلقّيت في الواقع في السنين الأخيرة طلبات كثيرة، لم أخبرك بها لأنّني أبيت أن أرضى لك بأيّ زوج. أردت لك شخصاً يليق بمقامك وجمالك. وقد بحثت طويلاً، ولعلّني عثرت لك اليوم....

لم تتمّ جملتها على غرار الممثّل الذي يتوقّف ليلاحظ أثر كلامه على الجمهور. وأمام صمت سلمى، استأنفت حديثها بنبرة لا تخلو من تفخيم:

ـ لعلّني عثرت عليه أخيراً!

كانت تنتظر أن تسارع سلمى إلى سؤالها أو أن تبدي شيئاً من الفضول على الأقلّ، لكنّها ظلت صامتة. هكذا هي ابنتها، تدهشها دائماً بتقلّبها، متّقدة حيناً، وفاترة آخر. شعرت بشيء من الخيبة، فعادت تلحّ:

ـ ما رأيك إذن؟

تنهّدت سلمى وقالت:

ـ هل يجب أن أتزوّج حقّاً يا أنيدجيم؟

ـ يا له من سؤال! بطبيعة الحال يجب أن تتزوّجي، اللهمّ إذا كنت تفضلين أن تظلّي عانساً! لا تقولي لي إنّك ما زلت متعلّقة بذلك الشاب الدرزي! هيّا يا سلمى، كوني عاقلة قليلاً! لقد تجاوزتِ سنّ المزاج والأهواء، وعليك أن تفكّري في بناء حياتك، وأنت تعلمين جيّداً أنّ هذا لا يتمّ بالنسبة للمرأة إلا من خلال الزواج.

وأخرجت من حقيبة يدها ظرفاً طويلاً أزرق.

ـ إليك الرسالة، أظنّها ستثير اهتمامك. إنّها من صاحب السعادة مولانا شوكت علي، مؤسّس حركة مناصرة الخلافة في الهند. هو من توسّط، إذا كنت تذكرين، في زواج بنتي عمّك نيلوفر ودورروشهفار بابني مهاراجا حيدرأباد، أكبر ولايات الهند. ومولانا رجل متحفّظ ومخلص لأسرتنا. وهكذا فقد اتّصلت به قبل سنة، وبعثت له بصورتك. عدا أنّ أخباره انقطعت، فنسيت الموضوع. إلا أنّني توصّلت بردّه هذا الصباح. هل ترغبين في معرفة فحواه؟

فأجابت سلمى بنبرة متردّدة بحيث حدجتها أمّها بنظرة ساخطة:

ـ طبعاً يا أنيدجيم.

لكنّ السلطانة تمالكت نفسها لكي لا تنطق بتعليق قد يستفزّها: المهمّ هو أن تسمع الردّ. إثر ذلك ينبغي إقناعها بلقاء الشاب، وهي مهمّة لن تكون سهلة بالنظر إلى حالتها النفسية الآن.

ـ حدّثني سعادته عن راجا في الثلاثين من عمره، وسيم وغني

بالطبع، وهو فضلاً عن ذلك مثقف وعصري. قضى نصف حياته بإنجلترا في إيطون ثمّ جامعة كامبردج. يُدعى أمير ويحكم ولاية بادالبور القريبة من الحدود النيبالية. على أنّه يستقرّ معظم الوقت في قصره بلوكنو، إحدى أهمّ المدن الهنديّة. ويضيف سعادته أنّه من أسرة شهيرة، تعود أصولها إلى حفيد النبي الحسين بن علي. ويعدّ أجداده من أوائل الفاتحين العرب الذين بلغوا الهند في القرن الحادي عشر.

وماذا أقول لك أكثر من أنه رأى صورتك وتعلّق بك، فبعث يطلب يدك حسب الأصول. وقد أجبت بطبيعة الحال أنّ عليكما أن تلتقيا. لكنّه حالياً مشغول بحملته الانتخابية، لأنّ الإنجليز سمحوا بإجراء انتخابات لأوّل مرّة منذ احتلالهم للهند. وستُقام في نهاية السنة. وبذلك فإنه سيزور بيروت بمجرّد الفراغ منها.

فقالت سلمى بلهجة صارمة:

ـ لا داعي لذلك.

ـ كوني لبيبة أرجوك. وافقي على اللقاء معه على الأقلّ. لن يعلم بهذا أحد، ومن ثمّة إذا لم يرقك، أمكنك أن ترفضي بكلّ حريّة. ومن يدري؟ لعلّه يعجبك. من النادر أن تجدي رجلاً يجمع كلّ هذه المزايا. فمعظم أمراء الهند لهم عقليات متخلّفة، بينما تربّى هو في أوروبا...

ـ لم تفهمي قصدي يا أنيدجيم. قلت لا داعي لأن يأتي، فأنا راضية بالزواج منه.

لا شيء كان يمكن أن يثني سلمى عن قرارها، لا تحذيرات السلطانة القلقة من هذا القرار المتسرّع، ولا توسّلات زينيل ونحيب القلفاوتين. ثبتت على رأيها وهي مندهشة من جزعهم عليها مع أنّ كلّ زيجات نساء العائلة كانت تُرتّب، وأنّ الاستثناءات القليلة لم يحالفها النجاح. أليس كذلك؟...

لم تغضب السلطانة من ردّ ابنتها الفظّ، فهي تدرك أن ابنتها مُرهَقة. لكي تغيّر موقفها، من الأفضل عدم معاكستها. وهكذا تسلّحت السلطانة،

التي اعتادت من ابنتها الامتثال والطاعة، بكثير من الصبر لكي تحاول إقناعها.

ـ فكّري يا سلمى. فأنا لم أحدّثك عن الراجا إلا لأخرجك من حزنك، ولكي أثبت لك بأنّ هناك رجالاً جديرين بالاهتمام... لا لكي تندفعي بعينين مغمضتين إلى زواج في الطرف الآخر من العالم، في بلد لا تعرفين عنه شيئاً.

ـ لقد فكرت يا أنيدجيم. إن بقيت في بيروت، سأجنّ. أنا بحاجة إلى أن أغيّر حياتي. كما كنت تقولين عن وحيد: لا ينبغي الخلط بين الحبّ والزواج. فكلّ ما حكيته لي عن هذا الراجا يبدو مقنعاً. فلِمَ المماطلة؟

كانت خديجة سلطان تنصت مصعوقة. فهي تعرف طبع ابنتها المتّقد، وحساسيّتها المفرطة، ونزوعها المزعج إلى الانتقال من طرف إلى نقيضه من دون أن تعبأ بما يترتّب عن ذلك. وخشيت من أن يدمّر مزاجُها المتقلّب حياتها. لكن وهي تستمع إلى المنطق البارد في ردّ ابنتها وهي تنقض ما تعرض من حجج وأدلة واحداً واحداً، ماذا عساها تجيب؟

وانتهى بها الأمر أن قبلت بالأمر الواقع، وقالت:

ـ كما تشائين إذن، بما أنّ الاختيار اختيارك! فأنت في الخامسة والعشرين من العمر، ولا بدّ أنك تعرفين ما تفعلين. ولكن خلال هذه الأشهر التي سيتعيّن فيها على الراجا أن يبقى في الهند، تراسلا، وحاولا أن تتعرّفا. لن نذيع الخبر. لكن لا تنسي أمراً في غاية الأهميّة يا سلمى وهو أنّك بعد الزواج، لن يكون بمقدورك العودة إلى الوراء. إن قدّمت وعداً بمحض إرادتك، فعليك الوفاء به حتّى لو تبيّن لك لاحقاً أنّك أخطأت.

كان الراجا يكاتبها كلّ أسبوعين بانتظام رأت فيه سلمى كثيراً من التكلف وانعدام العفويّة، بينما قدّرت السلطانة أنّه فأل خير. وكانت رسائله عبارة عن مذكّرات تطغى عليها الوقائع السياسية التي تهزّ الهند في غمرة كفاحها من أجل الاستقلال. ويبدو منها أنّ همّه الأوّل هو أن يُطلِع

الخطيبة على مشاكل بلده الكبرى، وكذلك الصعوبات والبهجة التي يجدها في قيادة ولايته، ولاسيما الأمل في أن يدحر بالتدريج، هو وبعض أصدقائه الذين درسوا مثله في الخارج، الظلامية والأفكار المسبقة، ويقيموا في يوم من الأيام دولة عصرية.

أمّا ذوقه وحياته الشخصية، فلم يكن يتطرّق إليهما أبداً، كما لو أنّها أمور ثانوية بالنظر إلى المشاكل التي يتخبّط فيها بلده. وبعدما كانت سلمى في البداية تقرأ رسائله بفضول لا يخلو من ريبة، صارت تهتمّ بهذا العالم الغريب الذي يصفه لها بشغف كبير، وبدأت تحلم بالدور الذي يمكن أن تلعبه إلى جانبه.

وهي ممتنّة له على أنّه ليس عاطفياً. فذلك لا يليق بزواج مرتّب. وهي تُمنّي نفسها بأنّه شغفها حبّاً من أوّل ما وقعت عينه على صورتها. فما جذبه إليها بلا شكّ هي فكرة الزواج من أميرة عثمانية. إذ إنّ العائلة الملكية بالنسبة لمسلمي الهند ما تزال هي عائلة الخليفة رغم خلعه. فهو خليفة الله في أرضه، ومن ثمّة فالارتباط بها يمثل مزيّة لا تنكر بالنسبة لمن يريد الانخراط في الحياة السياسية. أمّا من جانبه فلا بدّ أنّه عالم بأنّ مكانته وثروته تشكلان بالنسبة للخطيبة اعتبارين حاسمين في الاختيار.

وتذكّرت سلمى بنوع من السخريّة الممزوجة بالسخط المبادئ التي ربّتها عليها أسرتها وكذلك راهبات بوزانسان: «لا يضير المرء في شيء فقدانُ الثروة والمكانة إنْ سلِمَ شرفه». وقد ظلّت تحاول الإيمان بذلك إلى حدود الأشهر الأخيرة... وهو أمر تدين به لوحيد: فقد أعادها إلى الواقع، وإن كان ذلك بكيفية لا تخلو من قسوة.

ومرّ الشتاء بهدوء. وبدأت سلمى تتأهّب للسفر. ورغم نصيحة أمّها بالكتمان، أخبرت بعض صديقاتها اللواتي لم يتأخّرن في إشاعة خبر خطبتها لراجا هندي. فالهند بأمرائها وثرواتهم الخيالية تحمل على الحلم. وبعدما كانت النساء يشفقن عليها، صرن يغبطنها. بل تلقت رسالة من وحيد يهنئها ويقول: «أتمنى أن تكوني صفحت عنّي. لا يمكن أن

تتصوّري كم كان ذلك القرار الذي أملته الضرورة قاسياً علي. فأنت المرأة الوحيدة التي أحببت، ولن أتعافى أبداً من شقاء فقدانك».

لم يتغيّر: ما زال لا يتحدّث إلا عن نفسه... وأحرقت الرسالة ببطء بشيء من الحزن وكثير من الازدراء.

رغم أنّ العرس كان من المفروض أن يقام في الهند بسبب مكانة الراجا الاجتماعية، قدّرت السلطانة أنّه سيأتي إلى بيروت لأخذ عروسه على الأقلّ. لكنّه شرح بأسف كبير في رسائل طويلة أنّ الوضع السياسي العصيب يمنعه من مغادرة بلاده لأشهر أخرى. والعرس مقرّر في أبريل/ نيسان، فهل يلزم تأخيره؟

رفضت سلمى رفضاً قاطعاً رغم إلحاح والدتها التي خشيت من أن تتركها تلقي بنفسها في مغامرة كهذه مع أنّها لم تر الرجل الذي سترتبط به. لكنّ الأميرة كانت تحرص على ألا تترك لنفسها مجالاً للعودة إلى الوراء. فبما أنّ الراجا لا يستطيع أن يأتي، فستذهب إليه لوحدها مع زينيل والسيدة غزاوي، التي تطوّعت لمرافقتها. وأحسّت السلطانة بأنّ ابنتها الصغيرة لا تقلّ عنها خوفاً من هذا العالم البعيد الذي قرّرت أن تعيش فيه. لكن من الآن فصاعداً، لا أحد يستطيع أن يحملها على تغيير رأيها.

ومضت الأيّام الأخيرة في حمّى الاستعدادات الأخيرة التي تشغل الناس عن العواطف. ومع ذلك لمّا دخلت سلمى إلى الصالون لتودّع أمّها، لم تتمالك السلطانة دموعها: وضمّتها بين ذراعيها بقوّة.

- هل أنت متأكّدة يا عزيزتي من...؟

- هذا قرار حُسم يا أنيدجيم!

وحشرت سلمى رأسها في حضن أمّها وهي ترتعش، وراحت تستنشق العطر الذي رافق كلّ طفولتها.

- تعرفين يا أنيدجيم أنّه يجب... وأنّني لا أملك خياراً آخر.

ثمّ انتصبت، ومضت المرأتان تحدّقان بعضهما في بعض طويلا

بحيث ذابت السنون، وحلّت إحداهما في الأخرى من جديد، كما كانتا من قبل، في اكتمال دافئ.

- بنيّتي...

أغلقت سلمى عينيها. لا ينبغي أن ترقّ. وتخلّصت بلطف من ذراعي أمّها، ثمّ قبّلت يديها الجميلتين بشغف.

- لا تخافي يا أنيدجيم، سأعود. انتظريني!

ثمّ انطلقت مسرعة كما لو أنّها هاربة.

الجزء الثالث

الهند

١

ـ ولكن، أين هو قطار المهاراجا؟

خالت سلمى أنّها قضت ساعات وهي تمشي في هذا العفن المُشمس وهذه الجلبة التي تختلط فيها الألوان والأصوات، وسط هذا الهرج والمرج الذي يمكن أن يجرفها في أيّ لحظة لولا الطوق الذي ضربه حولها عشرة حراس تقريباً، عظام الخلقة وذوو شوارب طويلة، لم يكونوا يتورّعون عن استعمال السياط والعصي لشق الطريق أمامها. كان ذلك في شهر مارس/ آذار، وكانت محطّة قطار بومباي في ذلك الجوّ الحارّ أشبه بمضمار فروسية منه بمحطّة شبكة سككيّة تليق بجلال الإمبراطورية البريطانية. وتحت القباب القوطية العالية، وبين تيجان الحجر الرملي والأعمدة الفكتورية المنقوشة بالأزهار، يتسابق حشد صاخب صامّاً آذانه عن نداءات باعة الحمّص، وغير آبه بالرائحة المقزّزة التي يمتزج فيها عطر أكاليل الياسمين بنتن العرق والبول.

ورغم شعور سلمى بالاختناق، فهي متشبّثة بوجودها في هذا المكان، ولا تريد عنه بديلاً: هذا هو وطنها الجديد! بعد أن ابتعدت عن صالونات الرخام الأبيض، ونافورات فندق تاج محل حيث أُنزِلت فور ترجّلها من السفينة لتستريح، هي الآن تشعر بأنّها تطأ أرض الهند حقّاً. تفتح عينيها جيّداً وتحاول أن تحفظ في ذاكرتها شريط الصور المتصادمة تحت الشمس في خليط متنافر من الألوان: عمائم قرمزية عريضة على رؤوس حمّالين لا يكادون يظهرون وهم يتهادون تحت أحمال ضخمة

من الأمتعة، وثياب النساك الصفراء الزاهية، و«ساريات» الشابات الحديثات العهد بالزواج الحمراء، وأسراب المتسوّلين الرمادية التي تتزاحم حول البقع البيضاء الناصعة التي تشكّلها جلابيب مسافري الدرجة الأولى.

وتشعر بنفسها مترعة بهذا الجمال والقبح الطافحين... ولم تعد تميّز شيئاً أمام هذا البؤس الرائع، وهذا التنوّع الذي يجمع بين الرقّة والقسوة في آن واحد: ألم تر قبل قليل عجوزاً يسقط أرضاً وسط الحشد، فلا يأبه به أحد، ويواصلون تقدّمهم كما لو أنّهم يتحركون في حلم رجل مكفوف؟

ماذا تخفي هذه الجباه الكالحة وهذه العيون الحادّة التي تتفرّسها؟ أحسّت بالارتباك، فالتفت نحو رشيد خان، رجل ثقة الراجا الذي جاء لاستقبالها عند وصولها من بيروت، كأنّما لتسأله، فردّ على سؤالها الصامت ـ وكيف لها أن تصوغ سؤالاً بهذا الإطلاق؟ ـ بابتسامة مطمئنة، ثمّ قال:

ـ لا تخشي شيئاً يا صاحبة السمو. فالهند تمثل صدمة لكلّ قادم جديد. ستتعوّدين عليها.

ثمّ أضاف كأنّما يخاطب نفسه:

ـ شريطة أن يستطيع الإنسان التعوّد على ما لا يقبل التفسير...

كانت توجد في طرف الرصيف عربة خاصة بانتظارهم، يحرسها رجال مسلّحون، يرتدون الزيّ الرسمي الأزرق الذي يحمل شعار ولاية بادالبور، وهم يصدّون حشداً يحاول مداهمة العربة.

حاولت سلمى أن تخفي دهشتها. ذلك أنّها كانت تتوقّع أن تجد بانتظارها قطاراً بكامله، كما هو الشأن بالنسبة لابنتي عمّها نيلوفر ودوروشهفار، زوجتي أميري حيدر آباد. لكنّ دهشتها تبدّدت لمّا أخبرها رشيد خان بأنّ الرحلة ستستغرق ثلاثة أيّام وليلتين، وأنّهم سيقطعون ثلاثة آلاف كيلومتر الفاصلة بين بومباي ولوكنو: ذلك أن هذا القطار

البطيء، المسمّى ادّعاء إكسبريس، يتوقّف عند كلّ قرية من القرى الموجودة في طريقه!

وساورها شعور غامض بأنّها أهينت، وهو نفس الشعور الذي خامرها في اليوم السابق حين لاحظت عند وصولها غيّاب الراجا.

نظرت إلى مرافقها الذي ابتسم لها ملاطفاً من دون أن يرتاب في الغضب الذي يتراكم في صدرها. وقد زادها هدوؤه قلقاً: من البديهي أن يبدو لمساعد الراجا كلّ شيء على ما يرام.

أتراها ضُلّلت؟ كانت تتوقّع أن تستقبل استقبال الملكات. أليس خطيبها ملك ولاية في شساعة لبنان تقريباً؟ ثم إنّ مبعوثه مولانا شوكت علي حدّثها طويلاً عن ثراء الأمراء الهنود الفاحش، وما يملكونه من قصور وخزائن مليئة بالأحجار الكريمة... وهي أوصاف ذكّرتها ببذخ طفولتها، وحملتها على التمسّك بقرارها.

لكن ها هو كلّ شيء يتبخّر في غبار هذه المحطّة، وعند عتبة هذه العربة المتداعية التي يفترض أنّها ستقودها إلى المجد...

وسرت داخل العربة حركة غير عادية. ذلك أنّ الخدم المعمّمين اندفعوا من مرقاة العربة متلهّفين لرؤية أميرتهم الجديدة. ومن خلفهم تعالت أصوات حادّة لنساء يكدن يختنقن تحت الألحفة السوداء التي تخفي أجسادهنّ.

ـ هؤلاء حشمك يا صاحبة السمو. فقد أبى الراجا إلا أن يأتين لاستقبالك ومرافقتك. لكنّ لا يحقّ لهنّ الخروج. فلنصعد إلى القطار من فضلك. الانطلاق وشيك.

وبينما مضى القطار يتحرّك، تنفّست سلمى الصعداء في ضوء العربة الخافت. كان المكان مريحاً: مغشّى بخشب الأكاجو المرصّع بنحاس لامع ومصابيح من الكريسطال. ومن الواضح أنّ المقاعد المخمليّة وستائر الحرير الثخينة تناسب أجواء إنجلترا الباردة أكثر ممّا تلائم هذا

المناخ الحارّ. لكنّ كلّ شيء هنا آتٍ من بريطانيا التي تصدّر بسخاء إلى مستعمراتها كلّ ما تقدّر أنّه تقادم.

كان ثمّة ستّ نساء مقرفصات على فراش أبيض بُسط على الأرض قبالة الأميرة، يتفرّسنها، ويتبادلن التعليقات بصوت أجش. ولمّا تجردن من الحجاب، تلك الخيمة السوداء التي تجعلهن أشبه بالغربان، بَدَوْن في ثياب متعدّدة الألوان، وقد غطّت أعناقهنّ وآذانهنّ وأذرعهنّ الحلي الذهبية. ورحن يُشرن باندهاش واستنكار ظاهر إلى ذراعي سيّدتهنّ العاريين، وعنقها الذي لا يزيّنه غير عقد بسيط من اللؤلؤ، فابتسمت لهنّ سلمى ابتسامة لا تخلو من ضيق: كيف لها أن تشرح لهؤلاء الغريبات أنّ المبالغة في ارتداء الحلي... لكنّهنّ لم يمهلنها وسارعت بعضهنّ إلى نزع أساورهنّ، وأخريات أقراطهن الذهبية، وما هي إلا لحظة حتّى ألفت نفسها مثقلة بالحلي كوثن معبود. أمّا هنّ فمضين يصفّقن ويردّدن:

ـ روبسورات، باوت، روبسورات! (ما أجملها! ما أجملها!)

لم تكن سلمى تفهم من الأوردية غير هذه الكلمة التي سمعت الناس يردّدونها حولها منذ وصولها. على أنّ هذا الإطراء لم يكن ليخفّف من شعورها بأنّهنّ يلعبن بها مثلما تلعب طفلة بدميتها. على أنّ الوصيفات كنّ يقُمن بذلك بقدر كبير من البراءة بحيث استسلمت لهنّ، وراحت تضحك معهنّ.

ليت السلطانة أمّها تراها! آه لو رأتها القلفاوتان! ما أشدّ الفرق بينهنّ وبين نسوة البلاط العثماني المزهوّات اللواتي لا يمكن أن يجترأن على مداعبتك بهذا النحو ولو كنّ يعرفنك منذ الطفولة! ومع ذلك فإنّ مرافقاتها الجديدات لسن راضيات كلّ الرضا: ذلك أنّ الحرير الذي ترتديه سلمى، وهو طراز من آخر تقليعات الأناقة الباريسية، بدا لهنّ لا يبشّر بخير. أليس اللون الأبيض هو لباس الأرامل؟ نهضت أصغرهنّ سنّاً، وهي مراهقة ذات وجنتين مستديرتين، وأخرجت من أحد الصناديق فستاناً بلون ورديّ زاهٍ، مطرّز بالفضة. فتردّدت في العربة همهمة استحسان: هذا لباس يليق بشابّة مقبلة على الزواج!

ورغم احتجاج سلمى عندما هممن بتجريدها من لباسها، اعتبرن ذلك علامة على الخجل. وما إن سُمِع طرق على الباب حتّى تطايرت الورود المتعدّدة الألوان التي كانت تحيط بها، واختفت كلّ منهنّ خلف حجابها، ليتحوّلن إلى غربان من جديد.

وقف رشيد خان عند عتبة الباب وقد لاحت في عينيه التماعة إعجاب سارع إلى إخفائها، وسأل باحترام:

ـ هل ترغبين في شيء يا صاحبة السموّ؟ إنّ مرافقتك السيدة غزاوي وزينيل آغا يستريحان في العربة المجاورة، وهما يريدان معرفة ما إذا كنت بحاجة إليهما؟

ـ شكراً خان صاحب.

يشي مظهر مساعد الراجا بأصوله الأرستقراطية، وسلمى المتعوّدة منذ الطفولة على أعراف القصور لا يمكن أن تعامله كعامل بسيط.

ـ كلّ ما أنشده الآن هو قسط من الهدوء.

كانت قد أتعبتها التصرفات الغريبة لهؤلاء النساء اللواتي جيء بهنّ ليُرافقنها. لذلك ودّت لو تخلو إلى نفسها، ولكنّ كيف لها أن تخبرهنّ بذلك من دون أن تجرحهنّ؟ ابتسم رشيد خان، وقال:

ـ سأشرح لهنّ بأنّك ترغبين في النوم.

وقد نجح في إخراجهنّ من العربة رغم إصرارهنّ على البقاء، ورفضهنّ فكرة أن تبقى سيّدتهنّ بمفردها كأيّ امرأة بائسة، وقلن إنْ لم يكن من نومها بدّ، فلا مناصّ من أن يسهرن عليها.

تخلّصت سلمى من الأقراط الثقيلة ومن العقد الذي ثنى رقبتها، ثمّ استلقت وهزّت خصلات شعرها الأحمر، وعرّضت جبينها المبتلّ للمروحة المتقادمة.

كانت الحقول التي أحرقتها الشمس تمرّ من خلال النافذة، يدفع فيها مزارعون نصف عراة محاريث عتيقة تعود إلى فترة ما قبل التاريخ،

تجرّها ثيران مهزولة. وفي قرى سقفت بيوتها بالقش، قرفصت نساء نحيلات سوداوات، منهمِكات في صنع فطائر صغيرة يلصقنها في الجدار لكي تجفّ، ثمّ ينقلها بشكل متوازن على رؤوسهن في سلال عميقة. تتابعهنّ سلمى ببصرها وهنّ يتقدّمن مزهوّات في أثواب ذات ألوان زاهية، رشيقات ومنتصبات، وتقول في نفسها إنّ كثيراً من الملكات قد يغبطهنّ على هذه المشية. وفي مكان أبعد ترى جواميس سوداء ضخمة تخوض في بركة ماء بجانب بقرات بيضاء ذات قرون طويلة مصبوغة بالحنّاء، فتتخيّلها أشبه بخصيان قصر طولمة باغجة وهم يحرسون أزهار الحريم الناصعة...

«هل سيكتب لي أن أراك ثانية ذات يوم يا جميلتي الأستانة؟ فقد كنت قريبة منك في بيروت، وكنت أحلم ليلاً بأنّني سأعود إليك. لكن ها أنا اليوم أبتعد عنك لأعيش في عالم غريب كما لو أنّني يئست من لقائك».

ثمّ اختفت الحقول ومزارع الأرز من خلف النافذة، وعوّضتها مناظر أخرى. وأخذت تتوالى قرى أخرى تتأمّلها طفلة صغيرة ذات شعر أحمر، متكوّمة في زاوية قطار آخر، قطار عبر تركيا قبل ثلاث عشرة سنة ليحملها إلى المنفى...

وانتصبت فجأة. لن تقضي كلّ حياتها في الأنين مثل خالاتها وعمّاتها الأميرات العجائز! فهي شابّة وفاتنة، ولديها من القوة ما يفوق ما لدى أبناء عمومتها وخؤولتها مجتمعين، الذين يصرفون وقتهم في الشراب والتفكير في ثورة غير محتملة الوقوع. أمّا هي فستربح، ولكن ماذا؟ لا تعرف على وجه التحديد. كلّ ما تعرفه هو أنّ عليها أن تستعيد مكانتها. لا أحد أجبرها على ترك عذوبة لبنان الناعمة. فهي من قرّرت أنّ عليها أن ترسّخ جذورها من جديد، وتجد لنفسها وطنا أو بالأحرى مملكة تعتلي عرشها، وتحظى فيها بالحبّ.

وهي إذ لم تعد تؤمن بحبّ الرجال ـ ذلك أنّها لم تتعاف من جرح

خيّانة والدها، وهو جرح نكأه تخلّي وحيد عنها ـ فإنّها تطمح إلى الظفر بحب شعب بكامله. فأن تكون المرأة ملكة معناه أن تكون مشمولة بالحب لا محاطة بالثروة والشرف كما يتخيّل السذّج.

كانت السلطانة تقول إنّ الأبهة لا فائدة منها إلا بمقدار ما تجلب من جمال وأحلام للبائسين، كما لو أنّ جنّيّة طيّبة تنحني على آلامهم عوض أن ينحني عليها موظّف كئيب أو امرأة محسنة يظهر على محيّاها من الغمّ ما يفوق ما على وجوه من تحاول مواساتهم! عدا أنّ الفقراء لا ينتبّهون للهديّة الثمينة التي يقدمونّها للأمراء: فهم بحاجة إلينا! ويشعروننا بأنّهم لا يستطيعون الاستغناء عنّا!

رغم الحرّ، تشعر سلمى بالرعشة: كيف سيستقبلها شعب بادالبور؟ ويبلغ القطار إلى سلسلة هضاب الغات التي تمتدّ من غرب الهند إلى شرقها، فيصير العشب أكثر اخضراراً، وتظهر قطعان غنم وماعز ترعى، يحرسها رعاة يضعون على رؤوسهم عمائم أرجوانية. وفي البعيد يظهر وسط الحقول معبد صغير مشيّد من الحجر الأبيض، تحيط به أعلام ترفرف في الهواء، وتتماوج كالسراب.

لم يتبقّ على حلول الغسق غير ساعة، وهي لحظة الهدوء واعتدال الحرارة والاسترخاء. قرّبت سلمى وجهها من القضبان الحديدية التي تحمي النافذة، ومضت تتنفّس لأوّل مرّة نسائم الهواء الطرية بشراهة، وتستمتع بكلّ لحظة وكلّ انطباع جديد، منصرفة عن التفكير في الوجه الذي ينتظرها عند الوصول.

لم تكن الخيبة التي شعرت بها عندما لاحظت غياب أمير قد تبدّدت. ألا يكون هو أيضاً متلهّفاً للقائها؟ أم تُراه لا يرى فيها غير السلطانة؟ ألا يكون هذا الزواج مجرّد صفقة؟

وقالت في نفسها وهي تعضّ خصلات شعرها بعصبيّة: «ثمّ، لماذا سألومه؟ ألم أتزوّجه أنا أيضاً لماله؟»، وغالبت الدموع في عينيها. «سيكون من العبث أن نمثّل دور العاشقين في هذه المهزلة مع أنّنا لم نلتق من قبل!».

ومهما حاولت أن تتمالك نفسها، لم تستطع كبح شهيق البكاء الذي يخنقها: هي تشعر بأنّها وحيدة... فيم يجدي أن تكذب على نفسها، وتتظاهر باللامبالاة؟ إنّها في قرارة نفسها رومانسية حتّى النخاع...

لقد حلمت بهذا الراجا الألمعي الشجاع، وخفق قلبها حين حدّثها في رسائله عن مشاريع الإصلاح وطموحه إلى النهوض ببلده. ثمّ لماذا ستنكر حقيقة أنّ وسامته فتنتها؟

وأخرجت رصيعة من علبة مخملٍ، ومضت تتفرّسها باهتمام شديد: عينان غامقتان مشدودتان إلى الصدغين، وأنف دقيق معقوف قليلاً؛ وشفتان ممتلئتان تبدوان ناعمتين فوق تلك النقرة الصغيرة في الذقن... لمّا جاءها رسول قبل شهرين بهذه الصورة من بادالبور، سرت في جسدها رعشة من اللذة. هي من كانت تقول عن نفسها باردة وبالغة الحذر، ها هي تدرك الآن بأنّ سحر هذا الوجه الغريب، الشبيه بوجه إله شرقي، قد أقنعها وملك عليها نفسها.

ولكن، لِمَ اكتفى بإرسال مساعده؟

مسكين رشيد خان! كان بالغ اللطف والغرابة. عند وصولها، استقبلها مثقلاً بباقة ورد عظيمة، ونطق دفعة واحدة جملة ترحيب بالتركية، بدا أنّه حفظها عن ظهر قلب. ولكن عوض يلقي بين يديها «عبارات التشريف والاحترام»، عرَض قلبه الملتهب. ولمّا لاحظ الذهول على محيّا الأميرة، أدرك أنّ أصدقاءه دبّروا له مقلباً. ومن شدّة تورّده، راحت سلمى تضحك. وقد كسرت هذه الواقعة الكلفة بينهما، ونشأت بينهما علاقة صداقة منذ تلك اللحظة.

أعادت هذه الذكرى لسلمى مزاجها الرائق. فهذا الزواج سينجح لا محالة: ألا تتوفّر له كل شروط النجاح؟

دام السفر ستّين ساعة... نهار خانق وليل شديد البرودة. وقد توقّف القطار في عشرات المحطّات المتشابهة، بحشودها المتعدّدة الألوان،

وباعتها الصغار الذين يعرضون الشاي والكعك، لا سيّما شحّاذوها الذين يتعلقون من خلال القضبان الحديدية بكمّ سلمى، ويحدّقون فيها بنظراتهم الحادّة. أمّا هي فتُسائِل، بغصّة، هذه العيون الشاردة الآتية من عالم تجهله. من يستطيع أن يحسم في أنّها نظرات حكماء أم مجانين؟ ولكي تتخلّص من هذا الإغراء الذي شرع في الاستحواذ عليها، تحشر في الأيدي الممدودة بعض القطع النقدية. على أنهم يستمرّون في تأمل هذه الإلهة البيضاء المذهّبة، القادمة من عالم روحي سامٍ، ويظلّون متسمّرين في أماكنهم طويلاً بعد اختفائها في الأفق.

- سنصل إلى لوكنو في غضون ساعتين.

عدا أنّ قامة رشيد خان الضخمة التي ظهرت في فتحة الباب جعلت سلمى تجفل. فقد كانت الرحلة من الطول بحيث فقدت الإحساس بالزمن. «بلغنا لوكنو إذن؟»، تسارعت دقّات قلبها، وحدجت مساعد الراجا بنظرات متوسّلة، فسارع إلى طمأنتها من جديد.

- سترين، كلّ شيء سيجري على ما يرام.

ما ألطفه! وافترّ ثغرها عن بسمة ساحرة، لا لتشكره فحسب، بل لترى في عينيه كذلك تلك الشعلة الصغيرة التي تقول لها إنّها فاتنة، وأنّها قادرة على الإغراء.

- هلاّ دعوت السيدة غزاوي بسرعة من فضلك!

كانت أشعّة الشمس الأولى في الخارج تبعث الرعشة في حقول القمح. ما عاد المجال يتّسع للأحلام، لم يتبق لها إلا ساعتان لكي تستعدّ، وهي تريد أن تبهر فارس أحلامها. قلّما قضت كلّ هذا الوقت في تصفيف شعرها وتزيين وجهها، ومع ذلك لم تكن راضية عن مظهرها رغم ما بذلته وصيفتها من جهد. كما أنّها قلّما تردّدت أمام الفساتين العديدة المعروضة أمامها تردّدها هذا اليوم. وهتفت في الأخير:

- يبدو أنّني فقدت عقلي، عليّ أن أرتدي الساري!

فالساري هو اللباس القومي لوطنها الجديد بالطبع، وسيكون ذلك تكريماً لعريسها الذي ينتظرها في المحطّة برفقة كلّ حاشيته من جهة، ولكي تظهر للصحافيين وجماعة الفضوليين المحتشدة لاستقبالها بأنّها صارت هنديّة من جهة ثانية...

ودخل القطار المحطّة وسط الضجيج المتعالي المعهود، فراحت سلمى تصيخ السمع بنفاد صبر. ووجدت صعوبة في المكوث في العربة التي أسدل رشيد خان كلّ ستائرها. ثمّ سُمع هرج ومرج فجأة في العربة. أهو أمير؟ وشعرت بقلبها يوشك أنّ يتوقف. لكنّه لم يكن غير رشيد. انتظري يا صاحبة السموّ لحظة ريثما تُهيَّأ النجود.

ـ تُهيَّأ ماذا؟

لكن الرجل بدا منزعجاً، ولم يجب. أمّا السيدة غزاوي فراحت تغمغم بأنّ هذا الأمر غير طبيعي، فتضيق سلمى بكلامها وتنهرها لتسكت. ذلك أنّها منذ أن حلّت بالهند لم تتوقف عن الشكوى، ساخطة ربّما من أنّهم لا يولون الأميرة ما يلزم من تعظيم.

لكن ها هنّ الوصيفات الهنديات بظهرن من جديد، وإذا بهنّ يستعدن الحقّ الذي انتزع منهنّ بصفاقة خلال الرحلة. ومددن لسلمى بوجوه مفعمة بطيبة لا مثيل لها، عباءةً سوداء شبيهة بتلك التي تخفي أجسادهنّ من الرأس إلى القدمين. ولمّا مضت الشابّة تحدّق فيهنّ بنظرات متسائلة، أحطن بها وقد زاد إصرارهنّ. فصرخت فيهنّ:

ـ كلا، كلا!!!

كانت صرختها من الحدّة بحيث اخترقت محيط العربة، فهرع رشيد خان من العربة المجاورة ليجد سلمى ترتعش من السخط وهي تحاول تمزيق الحجاب الأسود، وقبالتها وقفت النساء ذاهلات لا يعرفن كيف ينبغي أن يتصرّفن معها. لم يستطع مساعد الراجا أن يتمالك أعصابه: فالرحلة مرّت على أحسن ما يرام، وها هنّ هؤلاء الغبيّات يفسدن كلّ شيء! ماذا سيظنّ القصر إن وصلت العروس باكية؟

ومع أنّ الرجل بالغ الدماثة، أمرهنّ بصوت حازم بالخروج فوراً. وبعد مقاومة ملحوظة لم يجدن بدّاً من الامتثال، فخرجن حانقات مستنكرات. مرّة أخرى منعهنّ من القيّام بواجبهنّ. ولمّا اختلى رشيد خان بسلمى، حاول أن يواسيها ويطمئنها قائلاً:

ـ لا بأس يا صاحبة السموّ. أرجوك أن تهدئي. لن تحتاجي لارتداء هذا البرقع. هل تشعرين بأنك على ما يرام لتترجّلي من العربة؟ كلّ شيء جاهز لاستقبالك.

رأت سلمى أمام باب عربة القطار ملاءتين ملوّنتين طويلتين رُفعتا لتشكلا ممرّاً يفضي إلى سيارة بانتظارها، بحيث تستطيع عبور المحطّة من دون أن يراها أحد. وقد بلغت بها الدهشة أنّها بالكاد لاحظت رشيد خان ينحني، ويقول:

ـ مع السلامة يا صاحبة السموّ، دمت في حفظ الله.

ما كادت تلتفت حتّى كان قد اختفى، وحلّت مكانه امرأة قصيرة وبدينة قدّمت لها نفسها ـ بيغوم نُصرت ـ وأحنت على يديها لتكسوهما بالقبل، ثمّ غمغمت بإنجليزية ركيكة:

ـ إنّه أجمل يوم في حياتي يا هوزور، صاحبة الشرف.

فهمت سلمى من كلامها أنّها زوجة حاكم بادالبور.

على أنّ سؤالاً ألحّ عليها بحيث لم تستطع مقاومته. ورغم علمها بأنّ عليها أن تلزم الصمت، لم تتمالك نفسها، وسألت:

ـ أين هو الراجا؟

ـ ماذا، هوزور!

وبدت المرأة مغتاظة، ثمّ أضافت:

ـ لا يمكن أن تلتقي به إلا بعد عقد القران! لكن اطمئني، سيقام الحفل في أقرب وقت، في غضون أسبوع بالتحديد. وفي انتظار ذلك، ستقيمين في القصر، عند أخت سيدنا الكبرى، راني عزيزة.

بالكاد استطاعت سلمى مداراة خيبتها وهي جالسة بذهول في إحدى زوايا سيارة فاخرة ضخمة، ذات واقٍ ومصابيح مكسوّة بالذهب. على أنّها لم تلاحظ شيئاً من هذه الفخامة سوى الستائر المسدلة على النوافذ، الشبيهة بعربات طفولتها في الأستانة. وبدأت تشعر بالحنق يتملّكها شيئاً فشيئاً: أعليها أن تقبل، بعد كلّ هذه السنوات من الحرّيّة، ما رفضته وهي في الثانية عشرة من عمرها؟ مستحيل! لكن، ألا تكون هذه مجرّد مظاهر خادعة؟ فقد رأت صور ابنتي عمومتها نيلوفر ودوروشهفار التي تنشرها الصحافة كلّ يوم وهما تفتتحان معارض أو تترأسان حفلات عشاء. فتحاول أن تطمْئِن نفسها، وتسيطر على الخوف الذي بدأ يستبدّ بها، لكنّها تشعر بضيق في التنفس، ولا تستطيع أن تنسى نظرة رشيد خان المشفقة، وصمته المرتبك أمام بعض أسئلتها... ولأوّل مرّة منذ حلولها بالهند تحسّ بأنّها اقترفت غلطة فادحة...

خفّفت السيارة من سرعتها، فأزاحت سلمى الستارة من دون أن تأبه بنظرات مرافقتها العاتبة، ولمحت «قيصرباغ» أيّ «حديقة الملك». وهي عبارة عن مساحة شاسعة مربّعة يكسوها العشب والأزهار، يقال إنّها أوسع من حديقتي اللوفر والتويلري معاً، تحيط بها قصور الأمراء.

وقيصرباغ... ثمرة من ثمرات حلم واجد علي شاه، آخر ملوك «أود». وهو موسيقي وشاعر، عزله الإنجليز سنة ١٨٥٦ من دون أن يعرف لذلك سبباً. ونظراً لأنّ شغفه بالفنّ كان أكبر من ولعه بالسياسة، سعى لأن يجعل من عاصمته ثامن عجائب الدنيا، ومن قيصرباغ منافساً لقصر فرساي. وقد شيّد لنسائه الأربعمائة هذا الجناح الضخم من الحجارة الحمراء، زيّنه بشرفات وأقواس مكشكشة، مزخرفة برسوم من عجين المرمر الأبيض والأصفر الفاتح.

وقالت سلمى في نفسها كلّ هذا كان من المفروض أن يجعل البناية في منتهى البشاعة، لكنّها، بخلاف ذلك، تبدو في منتهى الروعة! رهيفة ورفيعة على غرار هذا المجتمع الذي استسلم شيئاً فشيئاً لأولئك البرابرة ذوي السترات الحمراء القادمين من الغرب، عوض أن يقاومهم.

أمّا الجناح الذي ستحلّ به من قصر بادالبور فيشكل إحدى بناياته الباروكية. قالت بيغوم نصرت مفسّرة:

ـ إنّه المسكن المدني للراجا، وموطئ قدمه بلوكنو التي تمثّل اليوم المركز الإداري البريطاني، مركز تتبع له نحو خمسين ولاية. وممّن يسكنون بجوارنا نواب[1] داليور الذي يملك أجمل إسطبل في المدينة، وراجا ديلواني، المشهور بتنظيم أغرب معارك السمّان، وقبالته يقطن مارادجا مهدأباد، الشغوف بالشعر الكلاسيكي.

وبينما كانت بيغوم نصرت تذكر هذه الأسماء شعرت سلمى بأنّها تتلذّذ بذلك، كما لو أنّ استنشاق نفس الهواء الذي يتنفّسونه، ومعرفة عاداتهم يجعل منها فرداً من أفراد أسرهم.

ومن حسن حظّ سلمى أنّ السيّارة توقّفت. كانت قد بدأت تضيق ذرعاً بتلك الثرثرة التي لا تنتهي وهي ما تزال على عتبة حياتها الجديدة. ما أحوجها إلى الخلوة! ومُدّت أمامها من جديد البُسُط الملوّنة، وفي أقصى الممرّ أمام باب ضخم، عند فتحة مضيئة، أنحنى خصيّان أسودان حتى كادت عمامتاهما تلامسان الأرض.

ما أشبههما بخصيان طفولتها!... وتهيّأ لها فجأة أنّها عادت خمس عشرة سنة إلى الوراء. لولا هذه السراويل الواسعة والبرانس الزرقاء التي عوّضت السترابولين الأسود لظنّت نفسها في طولمة باغجة... لكنّها ما إن شرعت في ارتقاء السلم الحجري الضخم حتّى تبدّد هذا الإحساس. وعادت الهند إلى الظهور من خلال هذه الشرفات المنحوتة الشبيهة بالدانتيلا، والمقصورات المطلّة على الفناء حيث يتعالى خرير النافورات، وتتزاحم جماعات من النساء لتقبيل يد الراني الجديدة، أو

(١) كلمة أوردية ذات أصل عربي على الأرجح، كانت تطلق على الأمراء والأرستقراطيين الهنود المسلمين. (المترجم)

الاكتفاء بلمس طرف ثوبها، بينما مضى أطفال نصف عراة يحدّقون فيها بعيونهم السوداء الواسعة المكحولة. لكن بيغوم نصرت كانت تدفعهم بنفاد صبر وهي تردّد: علينا أن نسرع، فالراني عزيزة بانتظارنا!

كانت سلمى متلهّفة لمعرفة كلّ التفاصيل عن راني عزيزة أخت عريسها... وبيغوم نصرت لم تكن تنتظر إلا أن تسألها.

ـ الراني أخت غير شقيقة للراجا. لكلّ منهما أمّه. وهي تكبره بخمس عشرة سنة. لمّا فقد والديه وهو ما يزال صغيراً في حادث غامض، صارت له بمثابة الأمّ. إنّها سيدة عظيمة، لا تقلّ عن الرجال ذكاء! لمّا نجا أميرنا، وكان في الرابعة عشرة، من الموت مسموماً بعد أن دسّ له السمَّ، على الأرجح، عمُّه الذي تقلّد الحكم ريثما يبلغ سن الرشد، قرّرت أن ترسله لكي يتابع دراسته بإنجلترا، وتولّت هي شؤون القصر. وقد كان القيّمون على الشؤون المالية يخشونها أكثر ممّا يخشون الراجا العجوز الذي لم يطالبهم بالحساب قطّ، لأنه كان يقدّر أنّ ذلك يحطّ من شأنه.

وخفضت بيغوم نصرت صوتها وهي تقول:

ـ وهم يأملون أن يكون سيّدنا الشاب ألين منها. فالمسكين لم تمض على عودته إلى البلد إلا فترة قصيرة بعد غياب دام اثنتي عشرة سنة، ومع ذلك فهؤلاء الأوغاد منهمكون في التخطيط لخداعه. من حسن حظّه أنّ الراني موجودة!

«*وأنا لا يُحسب لي حساب إذن!*» وساور سلمى شعور بأنّها لن تحبّ أبداً الراني عزيزة حتى قبل أن تتعرّف عليها.

مشتا أزيد من ربع ساعة قبل أن تدخلا إلى غرفة ذات سقف عالٍ، توجد فيها حوالي اثنتي عشرة امرأة جالسات أرضا تثرثرن وهنّ تكسّرن جوز التنبول بكسّارات فضيّة. وما إن رأين سلمى حتّى ندّت عنهنّ همهماتُ تعجُّب مبتهجة، ثمّ أحطن بها، وطوّقنها بأذرعهن وهنّ يُثنين على جمالها. أمّا هي، فبعثت حرارة هذا اللقاء في نفسها شعوراً بالذهول

والطمأنينة في نفس الآن، ولم تجد بدّاً من الاستسلام لهذه الجماعة المغتبطة. ثمّ فُتحت أمامها ستارة أخيرة من الحرير، فألفت نفسها في قاعة واسعة تُزيّنها الفسيفساء والصدف ومرايا على شكل طيور وأزهار. لمحت نساء جالسات على أسرّة من حبال قائمة على أرجل فضيّة، يتجاذبن أطراف الحديث وهنّ يقضمن البان، وهي حلوى وطنية مصنوعة من جوز التنبول وأوراق مُرّة، أو ينتشين بِسُحُبِ أنفاس تبغ معطّر من أنابيب نارجيلة من الكريسطال. وفي أقصى القاعة، استلقت امرأة وسط الطنافس على سرير عالٍ تلمع أرجله الذهبية في العتمة، بينما وقف خلفها عبدان يهزّان مراوح عريضة من ريش الطاووس.

أدركت سلمى على الفور من خلال ملامحها القاسية أنّها بحضرة الراني. ما تزال تلوح عليها بعض مخايل الجمال: تقاسيم حادّة، وعينان عميقتان، وثغر لا تنجح البسمة في إخفاء تشامخه.

ـ تعالي اجلسي بجانبي يا بنتي.

الصوت جهوريّ، لكنّ النبرة فاترة. وراحت تسألها عن السفر بإنجليزية ذات لكنة غريبة وهي تتفحّصها من رأسها إلى قدميها، ثمّ قالت أخيراً:

ـ ما أجملك!

تعمدت رفع صوتها كما لو أنّها تقصد إلى أن تسمعها جميع الحاضرات، وأضافت:

ـ ينبغي أن تتعلّمي ارتداء الغرارا(*)، فنحن مسلمات. أمّا الساري فهو لباس الهندوسيات.

وشعرت سلمى بوجهها يتورّد: أتُذكّرها بأنّها مسلمة وهي حفيدة الخليفة؟! لو أنّها صفعتها لما أحسّت بمثل هذه الإهانة.

(*) تنورة طويلة تلبسها النساء المسلمات في الهند.

والتقت نظرات المرأتين، فأدركتا منذ الآن بأنّ العداوة بينهما ستستحكم.

وجيء بحلوى مصنوعة من اللوز والعسل، وبشاي بالغ الحلاوة. فقالت سلمى في نفسها وهي تبلل به شفتيها: «العلّهم فعلوا هذا لتحلية حموضة اللقاء». وأجابت بشرود على أسئلة الراني المهذّبة عن صحّة أمّها السلطانة، وعن حياتها في بيروت. ثمّ لا لاحظت أنّ الحديث طال، فجازفت بالسؤال:

ـ عذراً سيّدتي، أنا مُتعبة من السفر، هل يمكن أن أذهب إلى غرفتي؟

قطّبت الراني، وأجابت:

ـ لكنّ غرفتك هنا يا ابنتي. فأنت ستمكثين معي هذا الأسبوع. ماذا بك؟ أليست الغرفة واسعة بما فيه الكفاية؟

وفي تلك الأثناء أحضرت الخادمات غرارا خضراء زمرديّة، فأعفين بذلك سلمى من الجواب.

ـ خذي هذا، وغيّري ثيابك. هذا اللون يناسبك على نحو عجيب. ثمّ إنّه لون الإسلام...

فقاطعتها سلمى بتذمّر:

ـ أعرف.

ـ لعلّك تعرفين أيضاً أنّنا ننحدر من الدوحة النبوية مباشرة، عبر الحسين، حفيد الرسول. نحن شيعة بينما أنت سنيّة طبعاً...

ثمّ تنهّدت على نحو ظاهر التكلّف وأضافت:

ـ لكن مهما يكن، فنحن جميعاً مسلمون!

إلامَ تلمّح هذه الأفعى؟ إلى أنّني غريبة، وأنّها هي السيّدة هنا؟

وسرعان ما استبدّت بسلمى الرغبة في الاستحمام. تذكّرت الأباريق الفضيّة المليئة بالماء الساخن المُعطّر، والرغوة ذات الألوان الناعمة،

وزيوت العنبر في زجاجات الكريسطال، وبالجملة كلّ طقوس الحمام كما عرفتها في طفولتها. ما ألذّ الإحساس الذي كانت تشعر به بعد الاستحمام في قاعة الحمّام العادية ببيتها في بيروت. تغمض عينيها فتنسى كلّ ما يحيط بها، وتستسلم لأيدي الإماء الخبيرة، ثم تنظر إلى صورتها في المرآة بعد أن يُزلن الشعر عن جسمها، ويدلّكنها ويصفّفن شعرها ويزيّنها، فتروقها صورتها ما عدا... هذه الخصلات! ولكن، أين هي السيّدة غزاوي؟

حين سألت عن مرافقتها، طمأنتها الراني قائلة:

ـ لا تقلقي. فقد أخذوها لتستريح. هي تسكن في الجانب الآخر من البهو، بعد جناح النساء الثاني.

ـ لماذا أخذوها؟ فهي مرافقتي، وينبغي أن تظلّ بجانبي.

ـ ألا تكفيك كلّ هاته الخادمات؟ يمكنك أن تحصلي على عشر أو عشرين أو ما شئت. وإذا لم تعجبنك، يختفين ونأتيك بغيرهنّ.

ترقرقت عينا سلمى بالدموع. فالسيّدة غزاوي وزينيل هما صلتها الوحيدة بالماضي، وبدونهما تشعر بالضياع. على أنّها تفضل الموت على أن تظهر الضعف. وهنا تلوح بسمة خفيّة على شفتي الراني الدقيقتين.

ـ ألست مرتاحة بيننا؟ نحن الآن عائلتك، وعليك أن تنسي البقيّة.

لاذت سلمى بالصمت. ذلك أنّ الخصم سجّل نقطة. هل تستطيع قضاء ثمانية أيام بجانب هذه المرأة، وتحت مراقبة نظراتها الحقودة؟ عليها أن تصمد إذن ثمانية أيّام إلى أن تلقى أمير. لا شك في أنّه سيساعدها حين ستشرح له الوضع. وفي انتظار ذلك، لعلّ رشيد خان... بالطبع! هذا هو الحلّ! فكيف لم يخطر على بالها من قبل؟

انتصبت وسألت بصوت شاءت أن يكون واثقاً:

ـ هل يمكن إخبار رشيد خان بأنّني أرغب في التحدّث إليه؟

ـ مَنْ...؟ اعلمي أيّتها الأميرة أنّه إذا كان مساعد أخي قد جاء

لاستقبالك في بومباي، فلضرورة وجود رجل يرافقك. لكن من الآن فصاعداً، لا يسمح لك بلقائه ثانية. فالزنانا(*) لا يدخلها الرجال... مثلما لا يسمح للنساء بالخروج منها...

نزلت سلمى إلى الحديقة بدعوى أنّها مرهقة. ومن شدّة شعورها بالاختناق، نزعت الوشاح الذي كان يغطّي عنقها. صارت سجينة، سجينة فعلا! فقد ألقت بنفسها في الفخّ كالعمياء... لكن ما زال بإمكانها أن تخلّص نفسها منه. ستتراجع عن قرارها. لن يستطيعوا إجبارها على البقاء! وبينما كانت تلتقط أنفاسها وهي جالسة على العشب، شعرت بيد تمسك بيدها.

ـ لا تخشي شيئاً، هوزور. فالراني ليست بالسوء الذي تحسبين. كلّ ما تريده هو الحفاظ على التقاليد التي هي أساس المجتمع.

إنّها زوجة الحاكم التي لحقت بها وقد ارتسمت على وجهها المستدير ابتسامة ساحرة.

ـ اصبري لأسبوع واحد فقط. فعريسك رجل عصري كالرجال الإنجليز! ستعيشين معه حياة حرّة، وستكونين أنت السيدة الأولى. أمّا الراني فلن يكون بوسعها أن تقول شيئاً. هي تدرك ذلك جيّداً، وهذا هو سبب شعورها بالمرارة. ما عليك إلا أن تصبري لأسبوع واحد يا هوزور... وأنت قادرة على ذلك بكلّ تأكيد.

هي على حقّ. *لن أترك هذه المرأة تطيح بي*. ولاحت على وجه سلمى ابتسامة مقدامة. على أنّ ما عاشته من توتّرات قاسية هذا اليوم جعلت الرعشة تبدو على شفتيها الباسمتين... ثمّ راحت تبكي وقد نسيت مكانتها كأميرة سليلة الأسرة الإمبراطورية.



(*) جناح النساء.

٢

همّت سلمى مراراً خلال الأسبوع الذي سبق العرس بأن تتخلّى عن كلّ شيء. ما ثناها عن ذلك ليس أمير على الأرجح، بل اعتقادها بأنّ الراني تتلاعب بها، وتحاول إرهاقها لكي تحملها على الرحيل.

هي تكرهها بكلّ تأكيد. وقد قرّرت أن تفاتح بيغوم نصرت في الأمر. فهي الوحيدة التي تتحدّث الإنجليزية عدا الراني. وقد اكتشفت سلمى أنّها تتمتّع برجاحة عقل كبيرة وحسّ سليم بخلاف ما يظهر عليها من تفاهة وغرور.

تملّكت الحيرة زوجة الحاكم: فالكلام يقتضي منها أن تنحاز لأحد الطرفين. وبما أنّها كانت أوّل من استقبل الأميرة الشابّة، فقد صارت تعتبر نفسها حاميتها. لكنّ الراني ذات نفوذ، ولا تغفر لمن يسيء إليها. ومكانة بيغوم نصرت وزوجها تتوقّف على القرار الذي عليها أن تتّخذه هذه اللحظة. فهل تملك الأميرة ما يكفي من الدهاء لكي تزيح الراني؟ أليست الزوجة أكثر تأثيراً من الأخت؟ ومع أنّ بيغوم نصرت تكره المجازفة، لم تجد بدّاً أمام إلحاح سلمى من أن تحسم أمرها. وقالت وهي تتنهّد:

ـ لا شكّ أنّ بارفان هي السبب في كلّ هذا.

ـ من تكون بارفان هذه؟

ـ هي ابنة أخت الراني عزيزة. تربّت في القصر، وتعتبرها بمثابة ابنتها. لطالما تساءلتُ عمّا إذا كان دافعها إلى ذلك هي عاطفة الأمومة ـ

لا سيما أنها تخلّت عن الزواج لكي تتفرّغ لأخيها وتسهر على حسن تدبير شؤون القصر ـ أو أنّ بارفان بالأحرى مجرّد أداة طيّعة كانت تشحذها لكي تستخدمها في الوقت المناسب.

ولمّا لاحظت الحيرة بادية على سلمى، أضافت:

ـ أجل! جميع الناس هنا يعلمون أنّ بارفان كانت منذورة للزواج من الراجا، وهو اختيار كان ثمّة إجماع على أنّه موفق. فالبنت جميلة ومثقّفة، وسليلة الأسرة الأميرية، هذا فضلاً على أنّها شبّت في القصر، وتعرف مراتبه وأعرافه. وبذلك كانت ستُجنّب القصر تلك المشاكل التي تطرح لما تكون العروس آتية من بيت آخر، أو الأدهى من ذلك، آتية من مدينة أخرى. ثمّ إنّ الراني مطمئنّة إلى أنّ ابنة أختها هذه، المُدينة لها بكلّ شيء، ستعزّز نفوذها. لكن...

وبدا التردّد على بيغوم نصرت. خشيت من أن تجرح سلمى، لكن بما أنّها مصرّة على أن تعرف...

ـ ... تدخّل مولانا الشيخ شوكت علي. لست أقدح في الرجل، فمؤسّس الحركة من أجل الخلافة رجل رائع، لكنّ تدخّله أفسد كلّ الخطط. فنظراً لحرصه على تعزيز العلاقات بين الطائفة المسلمة الهندية والخلفاء العثمانيين، صمّم على تزويجك بالراجا الذي يعقد عليه آمالاً سياسية كبيرة لقيادة جيله. لا شكّ أنّ ذلك يمثّل شرفاً كبيراً لبيت بادالبور، لكنّه يشكّل مصيبة بالنسبة للراني عزيزة. لم تُزَح ابنة أختها فحسب، بل راني بادالبور الجديدة أجنبية، وهي لا تستطيع إخضاعها ولا سحقها كما كانت ستفعل لو أنّ الراجا تعلّق بأيّ فتاة إنجليزية. هي تعلم أنك، بحكم مقامك ومقام أسرتك و... طبعك السلطوي الذي لم تنجح كياستك البالغة في إخفائه، تستطيعين الاستيلاء على مكانها بسرعة.

شعرت سلمى بغصّة في حلقها. هي من كانت تظنّ أنّها ستلقى الحفاوة والترحيب، ها هي تكتشف فجأة مقدار ما يمثّله وجودها من

إزعاج... ليس للراني وحدها، بل لكلّ هذا المجتمع الصغير الذي يحلم ويعيش وفق قوانين لم تتغيّر منذ قرون. وسيطر عليها من جديد ذلك الشعور القديم بأنّها منبوذة... فهل قدرها هو أن تبقى غريبة حيثما حلّت؟

من حسن حظّها أنّ زينيل والسيّدة غزاوي موجودان معها ليؤنسانها. فقد ظهرا من جديد في اليوم الموالي لوصولهم، بتدخّل من رشيد خان على الأرجح. كيف عرف أنّ سلمى طلبت لقاءهما؟ كيف لا شيء يخفى في هذا القصر الشاسع؟

صار الثلاثة يقضون معظم وقتهم مجتمعين في أحد أركان القاعة الكبيرة يتحدّثون بالتركية ويضحكون، وهو ما ضاعف انزعاج الراني، وأشعرها بأنّهم يسخرون منها. وقد حاول رشيد خان أن يفاتح زينيل في الأمر لعلّه يعقّل سلمى. قال لها:

ـ كلّ شيء في الهند يقوم على الصبر والتسامح. أمّا التمرّد، فلا خير يرجى منه: كوني أعقل من خصمك.

ـ لماذا سأداهن؟ لقد اعتدت على المواجهة المكشوفة جرياً على عادة الأتراك منذ قرون!

فجفل الخصي.

ـ تقصدين مثل الأقوياء، مثل أولئك الذين يستطيعون فرض إرادتهم لأنّ القوّة بجانبهم، بينما على الضعفاء أن يُظهروا المكر والمرونة، بل الخبث أحياناً حتّى يتمكّنوا من البقاء. قد يكون في ذلك شيء من الإذعان والخضوع، لكن لا خيار لهم. وأنا غير متأكّد يا أميرة من أنّك ما زلت تملكين خياراً!

وخيّل لسلمى أنّها لمست التشفّي في نبرة الخادم العجوز .*كلا! ما هذه الأوهام؟ كلّ ما في الأمر أنّ زينيل ضاق ذرعاً ـ هو أيضاً ـ بهذا الجوّ العدائي الذي تشيعه الراني.*

ومع ذلك فالراني تدبّر الأمور بأريحيّة كبيرة، وانتهى الأمر بسلمى أن

نسيت هذه الضغائن، وانشغلت باختيار ما يناسبها فيما جلبه ألمع صاغة المدينة من جواهر وحلي فاخرة. لما كانت في لبنان، وكانت تلاحظ أنّ الحليّ التي رأتها على أمّها أيّام عزّ الإمبراطورية تختفي الواحدة تلو الأخرى، كانت تقول في نفسها إنّها لن تملك مثلها أبداً. لكن ها هي الحكاية العجيبة تبدأ من جديد، وتنفتح أمامها العلب كاشفة عن وديان من الماس الأزرق واللآلئ والزمرد البالغ الصفاء، وكلّها لا تنتظر إلا أن تعجبها.

كانت متردّدة بين الحلي، تجرّب العقود تارة، والقلادات أخرى، من دون أن يقرّ قرارها على اختيار محدّد. من حسن حظّها أنّ السيّدة غزاوي حاضرة بجانبها تنصحها. فبفضل خبرة هذه المرأة، ستختار أغلى الحلي، وأجمل الأحجار، متجنّبة القطع البسيطة التي يمكن أن يميل إليها ذوق سلمى، أو أن تختارها تواضعاً.

ونهرتها همساً:

ـ لا تتصرّفي كالصبيان يا أميرة. الحليّ هي ضمان المرأة الوحيد. هذا أمر ما كان ينبغي أن يخفى عنك.

تنهدت سلمى وقد اقتنعت بأنّ عليها ألا تُحكم ذوقها فتختار ما يناسبها من تلك المجوهرات الصغيرة المنقوشة، بل عليها أن تختار تلك الحلي ذات القيمة المالية الكبيرة حتّى وإن لم تناسبها. فهي التي ستمثّل رصيدها البنكي.

وبينما كانت العلب تتكدّس، همست الراني:

ـ ألا ترغبين في شيء آخر حقّاً؟

وبينما تردّدت السيدة غزاوي أمام هذه اللهجة الساخرة، ثارت سلمى وقالت:

ـ بإمكانك أن تأخذي هذه الحلي كلّها، لا حاجة لي بها!

ـ اهدئي يا صغيرتي. ينبغي أن تلبسيها سواء أكنت بحاجة إليها أم لم تكوني. لا أريد أن تبدو زوجة أخي فقيرة.

فاستشاطت سلمى غضباً.

ـ في هذه الحالة، بلّغي أخاك أن يبحث عن زوجة غيري. لقد ضقت ذرعاً بملاحظاتك الساخرة هذه.

ثمّ التفتت إلى زينيل:

ـ أخبر رشيد خان فوراً بأن يتدبّر لي تذكرة سفر على متن أول باخرة متوجّهة إلى بيروت. وفي انتظار ذلك، اطلب منه أن يعثر لي على غرفة في أحد الفنادق!

وما إن رأت الرضا الذي اجتهدت الراني في إخفائه، حتّى تنبّهت إلى أنّها أسعدتها أيّما سعادة، وأنّها انهارت بسرعة في حرب الأعصاب هذه. لكن الأمر ما عاد يهمّها: لم تعد ترغب إلا في شيء واحد: أن تهرب وتعود إلى بيروت، إلى شرف بيت أمّها وبساطته. فهي لم تُخلَق لِلُعبة السلطة والمال هذه.

عُلِم في اليوم الموالي أنّ الراني عزيزة مريضة، وأنّهم نقلوها إلى الطرف الآخر من الزّنانا، وأنّها لا ترغب في لقاء أحد. لم تستطع سلمى أن تعرف شيئاً ممّا وقع، وكلّ ما بلغها هو أنّ الراجا غضب، وأنّ هذه هي المرّة الأولى التي تضطرّ فيها أخته الكبرى إلى مطاوعته.

قوّى تمرّد سلمى مكانتها داخل القصر أكثر مما قوّاه ما أظهرته من رقّة ودماثة. فالنساء اللواتي لم يكنّ يعترفن إلا بالراني، ويسايرنها على نحو أعمى في صداقاتها وعداواتها، شرعن يعتبرنها سيّدتهن الجديدة، خلافاً للأعراف التي تقضي بألا يكون للعروس الشابة أيّ اعتبار.

وبعد انصراف باعة الجواهر والصاغة، تردّد على القصر باعة الأقمشة المطرّزة وأثواب الحرير والدانتيل لعرض بضائعهم. وانهمك الجميع في التفصيل والخيّاطة والتطريز. لم يعد أمامهم غير خمسة أيام لتحضير جهاز العروس الذي يستغرق تهييئه عادة بضع سنوات. عليهم أن يجهّزوا

الغرارات والسترات القصيرة المصنوعة من الشاش الناعم الذي يمكن أن يمرّر في عين خاتم من فرط نعومته، والشالات المنبّتة بالذهب واللآلئ.

لم يسبق لهؤلاء النساء المتعوّدات على الخمول أن اشتغلن بمثل هذه الهمّة. استعنّ بالقريبات والجارات، وتحوّل الزنانا بكامله إلى معمل. فجَهاز عاديّ يتطلّب مائة لباس على الأقل، لكنّ أميرة الأحلام هذه التي سلبت لبّهُنّ بجمالها، هل يكفيها ثلاثمائة لباس؟ تحكي النساء المسنّات وقد ارتسمت على وجوههنّ تكشيرة استخفاف، أنّ جدّة الراجا لم تلبس نفس اللباس مرّتين قطّ، وأنّها لمّا ماتت، بعد عشرين سنة من الحياة الزوجيّة، ظلّت عشرات الصناديق من جهازها على حالها، لم تفتح، فما بالك بثلاثمائة غرارا، إنّها لا شيء!

واحتدّ النقاش بين النساء: ألم يكن من الأولى تأخير الزواج لتجهيز الراني الجديدة كما ينبغي؟ فهذه السلطانة حفيدة الخليفة التي شرّفتنا بانضمامها إلى العائلة تُجهّز بهذا الجهاز البئيس؟ ولكن ما العمل؟ فالراجا يرفض أن ينتظر يوماً إضافياً. فقد صار نافد الصبر «كواحد من الإنجليز». كنّ متذمّرات، لكنّهنّ كنّ في غاية الزهو: فهذا القِران يضع بلاط بادالبور في مرتبة نظام[1] حيدر أباد الذي يعدّ الأغنى والأقوى في البلاد. ولم تكن ثمّة امرأة لا تعرف تفاصيل حياة الأميرتين نيلوفر ودروشهافار، وقريباً سيعرفن كلّ شيء عن الأميرة سلمى.

والواقع أن الإنجليز كانوا قد طردوا الأسرة المغولية الحاكمة من دلهي قبل قرنين، وأنّ مسلمي الهند كانوا يعتبرون الأسرة العثمانية هي أسرتهم الملكية. ذلك أنّ عظمة الإمبراطورية التركيّة، شأنها في ذلك شأن السلطنة المغولية، كانت تواسيهم من الإهانات التي يتعرضون لها في بلادهم. ولمّا كان الخليفة مهدّداً في تركيا سنة ١٩٢١، ثارت الجماهير على نحو عنيف وغير مسبوق في الهند ضدّ المحتلّ البريطاني.

(١) يعني الملك، إذ لم يكن في الهند إلا نظام واحد هو نظام حيدر أباد.

وقد شكّلت هذه الحركة، بعد أن ساندها غاندي، وانضمّ إليها الهندوس، بداية المظاهرات الكبرى المطالبة بالاستقلال.

ولم يبق بمنأى عن هذا الصخب سوى فتاة واحدة. كانت بضّة الجسم، شديدة بياض البشرة، ذات شعر فاحم مزيّت يبلغ أسفل ظهرها. كانت تجسّد معايير الجمال كما هو متعارف عليها هنا، رغم استدارة أنفها، وثخانة ذقنها. وقد احتاجت سلمى إلى بعض الوقت لتفهم أنّ معيار الجمال هنا هو بياض البشرة، وأنّ المرأة ذات الملامح الدقيقة إن كانت سمراء، عُدّت في منتهى القبح. وقد شرحوا لها أنّ لون البشرة يحظى بأهمية كبيرة لأنه يُظهر نبل العِرق أو وضاعته، ويُعتدّ به أكثر من شجرة النسب. فإذا كان كلّ غزاة الهند من آريين وعرب ومغول جميعهم بيضاً، فبشرة السكان الأصليين الذين خضعوا لهم داكنة. وهو ما رسّخ في الأذهان أنّ البياض هو لون السادة بينما السواد لون العبيد.

ورأت سلمى الفتاة تشيح عنها بوجهها.

«*أتراها...؟ لا بدّ أن تكون هذه هي بارفان بالطبع. لقد تنبّهت في الأيّام الأخيرة إلى أنّها، بخلاف الأخريات، لم تتوجّه إليّ بالكلام ولو مرّة واحدة. مسكينة! بما أنّهم ربّوها على أنّها ستصير زوجة الراجا، لا بدّ أنّها مغرمة... لكن ها هي وافدة جديدة تسرق منها حلمها، مع أنّها لا تفوقها بشيء، اللهمّ الأصل!*

ماذا سيكون مصيرها؟ وعدها رجل بالزواج ثمّ تخلّى عنها، فمن سيرغب فيها الآن؟ أيّ أسرة محترمة ستجازف بطلب يدها بعدما «دنّستها» رغبة رجل آخر؟ فهي، في منظورهم الضيّق، لم تعد عذراء تماماً!».

وقد حاولت سلمى عبثاً أن تتقرّب منها، تبتسم لها وتكلّمها، لكنّها لم تظفر منها حتّى بنظرة. فبارفان لا ترضى أن تبدو موضع شفقة. وانتهى الأمر بسلمى أن صرفت عنها النظر وقد راودها ما يشعر به الناس الطيبون من انزعاج حين لا يقدّر الآخرون حنانهم.

ثمّ إنّ ذهنها مشغول بأمور أخرى. إذ بينما كانت تتجوّل في أروقة القصر، لفت انتباهها أنّهم يهيّئون غرفة زفافها في وسط الزنانا، بجوار غرفة الراني تماماً، بحيث تستطيع أن تراقب حركات العروسين على هواها.

وثارت ذات صباح وهي تلتفت إلى زوجة الحاكم، قائلة:

ـ أتراني سأتزوّج الراني أم الراجا؟ ألا توجد حياة خاصّة في هذا البلد؟ في تركيا، لمّا كانت السلطانات يتزوّجن، تحظى الواحدة منهنّ بقصرها وخدمها، وتصير مستقلّة!

ـ أتوسّل إليك يا هوزور، هذه مجرّد تفاصيل. سيكون كلّ شيء على ما يرام. فزوجك ليس له بفضل الله تعالى إلا أخت واحدة. تصوري لو كانت لك حماة، حتّى لو كان يهيم بحبك، لن يستطيع الاعتراض على إرادتها... ولكن، لِمَ تريدين أن تكوني بمفردك؟ أيوجد في الحياة شيء أشدّ مشقّة من العزلة؟ فالعائلة هنا موجودة لتساعد المرء إذا اعترضته مشكلة أو حلّت به مصيبة...

فهتفت سلمى متذمّرة:

ـ كلا، على الأقل اتركوني أواجه مشاكلي!

وقدّرت البيغوم أنّ مزاج سلمى مكدّر، وأنه حريّ بها أن تنصرف.

زاد اقتناع سلمى بأنّ التدليك يداوي أوجاع الروح مثلما يداوي أوجاع الجسد. هكذا تبدّدت همومها تحت الأيدي الرشيقة الناعمة. استسلمت لها بالتذاذ وتركتها تدهنها بطبقة سميكة من عجين أصفر عَطِر، أُعِدّ من الكركم وحبّ الخردل المنقوع في الحليب فضلاً عن ستّة توابل أخرى مطحونة، ومسحوق خشب الصندل وعطور أخرى نادرة. وقد دلّكنها بهذا الخليط من رأسها إلى أخمص قدميها، حتّى صارت كلّ قطعة من بشرتها في منتهى النعومة، وفاحت كلّ مسامّها برائحة سماويّة. وخلال الأيّام الخمسة التي تلت ذلك الحمام، لم يسمح لها بالاغتسال

رغم احتجاجها. قيل لها إنّ عليها أن تترك المرهم العجيب، المخصّص للعرائس، ينفذ إلى لحمها، ويطهر دمها. وفي صباح يوم العرس، حين سُمح لها بالاستحمام أخيراً، خرجت من الحمام باهرة مثلما تخرج فراشة من شرنقتها بعد نضج طويل.

جلست القرفصاء على السرير ذي الأرجل الذهبية إلى جانب الراني عزيزة التي جاءتها هذا الصباح باسمة، وهي تقول: «يا لفرحتي برؤية أميرتي الجميلة!»، لكنّ سلمى لاذت بأحلامها. كيف لها أن تتحمّل الأيام الطويلة التي تفصلها عن يوم زفافها، لا سيما أمام نظرات وتعليقات النساء الفضوليات القادمات لزيارتها؟ كلّ نساء أعيان لوكنو سيأتين للتفرّج على جمال السلطانة الشابة التي ينبغي أن تظلّ جالسة لساعات، خافضة عينيها من دون حراك. ظنّت في البداية أنّها ستُجنّ، ثمّ شرعت، على غرار ما كانت تفعل في قصر طولمة باغجة، في رواية قصص لنفسها، أو بالأحرى قصتها هي؛ ذلك أنّ كلّ شيء ما عدا ما تعيشه الآن، يبدو لها بلا طعم. وهي لا تني تتخيّل لحظة لقائها الأوّل بأمير: سيحضنها بين ذراعيه، ويقبّلها طويلاً حتّى تشعر بالدوار. وستكون عيناه مثل بحر داكن، وصوتُه أجشّ وهو يحدّثها عن مقدار ما يحمل لها من حبّ...

«ها هي الراني الشابة وصلت!».

وتعالت صيحات الفرح في الصالون. ماذا حدث يا ترى؟ وأغمضت سلمى عينيها وهي شاردة في حلمها، متشبّثة بكتف أمير الذي راح يداعب شعرها. وتمسّكت بعناد بالصورة اللامعة، حتّى إنها بالكاد شعرت بيد خفيفة تلمس ذراعها وصوت يقول لها بإنجليزية بالغة الصفاء:

ـ انظري إليّ يا «آبا» (apa)، أنا أختك الصغيرة زهرة.

فتنبّهت سلمى إلى فتاة نحيلة جاثية أمامها، وشعرت برعشة تسري

في جسمها: صحيح، لقد حدّثوها عن أخت للراجا تصغره بعشر سنوات، وهي الآن تقيم مع جدّتها المريضة في بادالبور. تفحّصت وجهها المفعم بالحيوية وعينيها الحالمتين. ما أجملها! وما أشدّ شبهها بأمير! أمّا زهرة، فلم تستطع إخفاء إعجابها بسلمى، وقالت:

ـ يا لك من حسناء!

ومن فرط حماسها، أمسكت بيد سلمى وراحت تقبّلها، وهو ما أصابها بالذهول. لكن الحرارة التي بدأت تغمرها شيئاً فشيئاً، والشعور بالارتياح الذي بدأ يحلّ محلّ ما انتابها من توتّر في الأيام الأخيرة، كلّ ذلك جعلها تتخيّل أنّها عثرت أخيراً على صديقة تؤنسها في هذا العالم الغريب.

وخلال الأيام اللاحقة، ستذلّل زهرة لسلمى، بسحرها ومرحها، العديد من الصعوبات. إنّها فتاة متعلّمة، تربّت على يد معلّمة إنجليزية. وهو أمر فرضه أمير رغم الاعتقاد السائد بأنّ تعمّق الفتاة في الدراسة يضرّ بها أكثر ممّا ينفعها. وزهرة مولعة بالأدب الأجنبي بحيث قرأت لكيتس وبايرون وستاندال وكلّ روايات بالزاك. ورغم أنّها لا تغادر الزنانا إلا لتذهب إلى زنانا آخر في سيارة مغلقة، فهي تنمّ عن معرفة لا بأس بها بالحياة.

وأحسّت على الفور بانزعاج سلمى المحجوزة بين هؤلاء النسوة، وبذلت ما في وسعها لكي يؤذن لهما بالخروج معاً للنزهة في الحدائق الداخلية من دون تلك المرافقات الثرثارات، على أن يتبعهما على مسافة مناسبة خصيّ واحد. وشعرت سلمى، بعد أن تخلّصت من الخمار الذي ينبغي أن يغطي شعرها حتى في هذا المكان الخالي، بأنّها عادت إلى الحياة.

وفي غمرة اضطرابها، فكّرت بأن تُسرّ بما في قلبها لهذه المراهقة التي تظهر نُضجاً عجيباً، وأن تحدّثها عن أمير وعن مخاوفها وآمالها. على أنّها سرعان ما تنبّهت إلى أنّ خبرة زهرة المستمدّة من الكتب، تخفي في الواقع سذاجة كبيرة. فالفتاة تبجّل أخاها، وهي مقتنعة بأنّ

سلمى ينبغي أن تكون أسعد زوجة في العالم، ومن ثمة فإنّ أيّ تحفظ على هذا الزواج سيؤذيها. لذلك أبت أن تكون أنانية فتعكر صفو هذه الطفلة، وآثرت أن تحتفظ بهواجسها لنفسها.

استيقظت هذا الصباح عند الفجر على ضحكات الفتيات. ما زال الجوّ بارداً، والياسمين على طول الشرفة يفوح بعطره. لكن، ما سِرُّ هذا الحزن الذي يملأ قلبها يا ترى والصباح يَعِدُ بنهار جميل؟

ـ استيقظي يا «آبا»، وهات يديك ورجليك لكي نرسم عليها بالحناء كلّ شارات السعادة. هيّا، افتحي عينيك على أسعد يوم في حياتك!

وانهمكن في العمل حول السرير وهنّ يردّدن أغاني حبّ جرت العادة على الترنّم بها أثناء تجميل العروس. وبينما كنّ يرسمن في راحتيها نقوشاً حمراء، مضت سلمى تنظر إليهنّ كما لو أنها تتابع مشهداً لا يعنيها... وبمقدار ما كانت تجهد نفسها لكي تهتمّ بحفل زفافها، يستحوذ عليها شعور بأنّها تعيش أحداثاً لا واقعية.

ورأت، كما لو أنّها في حلم، الراني عزيزة تقترب منها وتضع في رسغها سواراً دقيقاً من القماش وهي تنطق ببطء العبارة التي رسّختها القرون:

ـ أقدّم لك هذا السوار. فهو يحتوي على أرز سيجلب لك الرخاء، وعشب أخضر سيضمن لك الخصوبة، وخاتم من حديد عربوناً على الوفاء.

واستبدّ التأثر بالنساء، فصمتن ورحن يتذكّرن...

ودوّت فجأة ضربات شديدة قُرعت على الباب النحاسي الفاصل بين الزنانا وجناح الرجال، فهرعت الفتيات وهنّ يهتفن من الفرح، تحمل كلّ منهنّ وردة في يدها: إنّه العريس يحاول أن يدخل ليخطف الحسناء، وهنّ مكلّفات بصدّه بعنف رمياً بالأزهار. وبعد محاولة أو محاولتين فاشلتين، ولّى الأدبار على نحو مثير للسخرية ليلحق بذويه ومعارفه

المتجمّعين في «الحسينية» العائلية، وهي عبارة عن مقام من الرخام والفسيفساء، مجاور للقصر، يُقام فيه الحفل الديني.

وقد تُركت سلمى بمفردها في غرفة موجودة فوق صالون النساء، وهو المكان الذي تجلس فيه العروس عادة محاطة بصديقاتها المقرّبات، لتستعيد ذكريات المراهقة وتبكي قليلاً على الحياة التي ستودّع. لكن سلمى تركت صديقاتها في مكان بعيد... وهي لم تعد تطيق البكاء. أمّا في الطابق السفلي، فكانت المدعوات يصلن تباعاً. وكانت سلمى تستطيع أن تسمع من الغرفة الصرخات التي يطلقنها إعجاباً بالهدايا المعروضة في كلّ صالون من الصالونات الخمسة. فالأعراف تقضي بأن تطّلع كلّ مدعوة على الهدايا التي قدّمتها عائلة العريس للعروس، وتحكم على مقدار كرمهم نحوها. فالحليّ والفضّيات والبلّوريات والألبسة الحريرية متراكمة كما لو أنها شاهد على كبريائهم وعزّتهم. ذلك أنّ الحديث عن الأعراس يستمرّ لسنوات، بل لأجيال، حتى إنّ ذلك قد يرفع من الأسرة أو يزري بها.

كانت سلمى تنتظر من دون أن تعرف كم سيطول بها هذا الانتظار! أمّا السيدة غزاوي الجالسة إلى جانبها فكان صبرها ينفد بمقدار ما كان يتعالى ضجيج أواني المطبخ المعلن عن قرب وقت الطعام. وقالت متأوّهة:

ـ يا للعار! كلّهم يتسلّون ويحتفلون ويتركونك وحيدة! يا لهم من همج! أتوسّل إليك أيّتها الأميرة، أعرضي عن هذا الزواج التافه، ما زال أمامك متّسع من الوقت.

ـ اسكتي من فضلك!

لم يكن مزاج سلمى رائقاً لتحتمل نواح رفيقتها، رغم أنّ تقاليد البلد بدت لها هي أيضاً في منتهى الغرابة. «إنّ زفافي وشيك، فلِمَ لم يحضر أحد لمساعدتي على إعداد نفسي؟ متى سيحمّمونني ويلبسونني ويجمّلونني؟ هؤلاء النسوة فرحات بلقاء بعضهنّ بعضاً وبالثرثرة فيما بينهنّ، فهل يُعقل أن ينسين العروس؟...

وهتفت زهرة بصوتها الصافي:

ـ استيقظي يا «آبا»! لقد وصل المولوي.

أسدلت النساء ستاراً حول سلمى حتّى لا يراها الشيخ. لكن، أين هو العريس؟ وراحت زهرة تضحك أمام الحيرة التي علت سلمى.

ـ لا عليك يا «أبا»، سترينه غداً.

غداً؟ لم تفهم سلمى، لكن الوقت لم يعد يسمح بالسؤال. فقد لاحظت في الجانب الآخر من الستار حركة حثيثة وهمساً وسعالاً. وتعالى أخيراً وسط الصمت المخيِّم صوت جهوري يرتّل آيات من القرآن، ثمّ توقّف فجأة وناداها:

ـ هل ترضين يا سلمى، بنت خيري رؤوف وخديجة مراد، بأمير ابن أمير علي من بادالبور وعائشة سليمأباد زوجاً؟ هل تقبلينه؟

«كلا، لا أرضاه!».

ظنت سلمى أنّها جهرت بما جال في خاطرها. لكنّها لم تلمح على النسوة من حولها أيّ ردّ فعل. أصابها الذعر، فراحت تبحث بعينيها عن زهرة، فلم تبصر غير وجه الراني عزيزة القاسي، وأدركت أنّ عليها أن تجيب. وتنبّهت فجأة إلى أنّها كانت تمثّل إلى حدود تلك اللحظة دور العروس، لكنّها كانت تحتفظ في قرارة نفسها بقرارها إلى آخر لحظة لمّا تكون أمام المولوي، حيث يمكنها أخيراً أن ترى أمير، وتقرأ في عينيه...

أتراها خُدعت؟... أم أنّها أخطأت التقدير؟ عادت تفتّش في ذاكرتها، فتذكّرت: صحيح... لا يلتقي الخطيبان في التقاليد الإسلامية الأصيلة إلا بعد إبرام عقد النكاح، وبعد أن يصرّح كلّ منهما للشيخ بأنّه يقبل الآخر قبل أن يراه. أمّا في البلاط العثماني، فكان الأمر مختلفاً. لهذا ظنّت...

وكرّر الصوت السؤال:

ـ هل تقبلين أن تتزوجي يا سلمى بـ...

ألا يستطيعون إمهالها لحظة لكي تفكّر؟ وخيّل لها أنّ النساء من

حولها يضحكن ملء أفواههن، والسخرية بادية في عيونهن. «العلهنّ يعتقدن أنّني خائفة؟».

ـ نعم أرضاه.

أتراها هي، سلمى، من تكلّمت؟ كرّر الشيخ سؤاله ثلاث مرّات، وسمعت نفسها تكرّر بصوت حازم ثلاث مرّات: «نعم أرضاه»، حتّى إنّ النسوة مضين ينظرن إلى بعضهنّ بعضاً باستغراب: ما أغرب طريقة هذه العروس في الجواب!

لم يدم هذا الطقس طويلاً، بالكاد خمس دقائق. وها هو الشيخ يحثّ الخطى الآن نحو «الحسينيّة» حيث ينتظره العريس وأقرباؤه وأصدقاؤه في زيّ «الشرواني» الخاص بالاحتفالات، وتبعته النسوة بدافع الفضول. إذ بإمكانهن المرور من سلالم خفية لبلوغ البهو الدائري الذي تحيط به مشربيّة مشرفة على المقام. ومن هناك يستطعن متابعة كلّ ما يجري من دون أن يراهنّ أحد.

ولم تبق مع سلمى إلا زهرة. أمسكت بيدها في صمت كما لو أنّها تتفهّم وضعها. وظلّتا على هذا الحال تحلمان لساعات. ولمّا بدأ الظلام يخيّم في الغرفة، أوقدت زهرة مصباحاً نحاسياً، وشرعت تنشد بهدوء أشعاراً للشاعر الصوفي جلال الدين الرومي. أشعار لم تسمعها سلمى منذ أن تركت الأستانة، وإن كانت تعرّفت بتأثُّر على كلّ بيت من الأبيات.

عشقك يجعلني أصدح كالأرغن
وأسراري تنكشف بلمسة من يدك
وكل كياني المنهك يشبه قيثارة
كلما لمست وتراً تأوّهت
ومن العدم مضت قافلتنا تحمل العشق
يضيء ليلَنا إلى الأبد خمرُ الوصال

ذلك الخمر الذي لا يُحرِّمه دين العشق
وستظلّ شفاهنا مبللة حتى فجر العدم
نحن في الحقيقة روح واحدة، أنا وأنت
نظهر ونختفي، أنا فيك وأنت فيّ
هذه هي حقيقة علاقتي بك
لأنّه لا يوجد بيني وبينك لا أنا ولا أنت.

كانت شعلة المصباح الزيتي تتهادى، والهواء خفيف، وهدوء عجيب يخيّم على المكان، فهدأت أعصاب سلمى، وخلدت للنوم.

«وأخيراً، ها هو الماء!»، لم تستطع سلمى انتزاع نفسها من هذه الرطوبة التي تتدفّق على جسمها كلّه. منذ أيام وهي تحلم بها. شعرت كما لو أنّها تبعث فيها الروح من جديد، فاقشعرّت من اللذة. أتراه الماء أم انتظار أمير الذي شوشها هكذا؟

دُهن جسمها بالعطور من جديد. أُلبِست غرارا زفاف حمراء مذهّبة، وعُلِّقت في عنقها وأذنيها كثير من المجوهرات، وحُلّي ذراعاها النحيلان من الرسغ إلى الساعد بعشرات الأسورة الذهبية. وحتّى كاحلاها أثقلا بالسلاسل الذهبية، ووُضعت على أصابع قدميها أحجار كريمة لامعة. ولم يعد ينقصها سوى زمام الأنف الذي لا غنى للعروس عنه لتستكمل زينتها. لكنّ سلمى حين أرادت النسوة أن يثقبن أنفها قبل أيّام، ثارت في وجههنّ، فأعرضن عن ذلك.

كانت الشمس قد ارتفعت في السماء عندما فرغت النساء من تجميلها وتزيينها بحيث اختفت رقبتها في الغرارا المتصلّبة من كثرة التطريز. هي الآن جاهزة تنتظر. فهل سيأتي أميرها الوسيم يا ترى؟

ولكن، أهي حقّاً جاهزة؟... ليس تماماً. اقتربت منها امرأة تمسك في يدها بوَرَع وشاحاً من الموسلين الأحمر مكسوّاً بطبقة من الورد والياسمين تعلوها أشرطة مذهّبة. إنّه حجاب العروس الذي سيستُر وجهها

طيلة الحفل. ورغم شعور سلمى بالاختناق تحت هذا اللباس السميك، كانت تعلم أنّ ليس بمقدورها اليوم أن ترفض رمز العذريّة هذا.

وشرعت الفتيات في الغناء بينما رفعها ساعدان قويّان وحملاها برفق كعلبة صغيرة حمراء مذهبة إلى ما خيّل لها أنّه بهو الزنانا الأوسط. وعندما كانوا يجلسونها بحذر شديد، رمقت من خلال الحجاب الكرسي المخصص للعروسين ينتصب فوق مصطبة. عليها منذ هذه اللحظة ألا تتحرّك أو تتنهّد. من المفروض أن تبدو في منتهى اللطف والرهافة والإذعان والصبر.

تحلّق حولها النساء والأطفال، ومضت سيدة الحفل الراني عزيزة ترفع طرف الحجاب بين الفينة والأخرى لتسمح لهم برؤية جمال سلمى والإعجاب به. كانوا يتزاحمون ويتدافعون ويعبّرون عن إعجابهم. أمّا سلمى فكانت تتورّد، وتشعر كما لو أنّها معروضة في سوق والناس يتساومون على ثمنها، لا سيما أنّ كلّ امرأة تطلّ عليها تضع عند قدميها، حسبما يقضي العرف، عدداً فردياً من القطع الذهبيّة حتى تدفع عنها النحس.

ولكي تقاوم الدوّار، اغتصبت ابتسامة، فبادرتها الراني عزيزة:

ـ اخفضي عينيك. العروس المتواضعة لا ينبغي أن تبتسم!

ثمّ أضافت بتذمّر كما لو أنّها تحدّث نفسها: «هذه المغفّلة ستجلب لنا الخزي. ألا تفهم أن إبداء العروس السعادة بترك حياة العزوبة قلّة حياء؟ وأنّ إبداء التعاسة يسيء لعائلتها الجديدة؟ مع أنّها أمور بسيطة لا تحتاج إلى كثير من الفطنة!».

كان الحرّ يشتد، وسلمى لا تكاد تستطيع أن تتنفّس. ولم تعد تستحمل هذا الصراخ والتزاحم والروائح العطنة التي تختلط فيها العطور برائحة العرق، وشعرت بنفسها على وشك أن يغمى عليها...

كم قضت وهي مغشي عليها يا ترى؟ وحين استعادت وعيها شعرت كما لو أنّ رأسها ينفجر من صخب الأصوات الحادّة والضربات الصماء،

وأنّ النهار يظلم في أمامها. وفتحت عينيها وهي تقاوم الغثيان بعناء، فرأت كتلة ضخمة تعلوها نقطة متلألئة تغلق باب الزنانا. وفي صمت مطبق أخذت الكتلة تتهادى ثمّ مالت ببطء. وبما أنّ الأنظار كانت منشغلة عنها، اغتنمت الفرصة وأزاحت طرف الحجاب، فأبصرت قبالتها الفيل الملكي مكسوّاً بالوشي والرسوم الملوّنة، مثقل القوائم بالأسورة الذهبية. وبينما كان يهمّ بأن يجثو بلطف، أطلّ من الهودج طيف طويل القامة، يخفي وجهه بوشاح من القماش الشفاف والورد والياسمين.

إنه أمير!...

راحت النساء يرششن الماء الذي تحمّمت به العروس عند قدمي الراجا، ثمّ أفسحن له الطريق بإجلال، فتوجّه بخطى خفيفة ليجلس حيث كانت سلمى تنتظره، محاذراً أن يلمسها. لم تكن تراه، لكنها كانت تسمع أنفاسه اللاهثة. أتراه مشوّش البال مثلها؟

وغطوهما بشال قرمزي كبير أخفاهما عن أعين الحشد، ووقفت عند رأسيهما امرأة تمسك بمصحف، وعند قدميهما وضعوا مرآة حتّى يرى فيها كلّ منهما الآخر لأوّل مرّة. «... *أأرفع حجابي؟ لعلّه ينتظر هو أيضاً أن يُزاح الوشاح عن وجهه. أخيراً سأراه، فمِمّ الخوف؟*».

وتوالت في مخيّلة سلمى صور مريعة: يختفي خلف وشاح زوجها وجه أشبه بوجه قرد، شوّهته بثور الجذري... كائن ممسوخ. قلبها يحدّثها بذلك، وهي متأكّدة! لماذا لم تفكّر في هذا من قبل؟ هذا هو سرّ الامتناع عن لقائها قبل عقد القران! والصورة التي وصلتها؟ مزوّرة، إنّما بعثوها لإقناعها...

ما من مرّة بدت لها يدها أثقل عندما استجمعت قواها ورفعتها إلى حجابها، فما كان من أمير إلا أن سارع إلى الكشف عن وجهه بحركة متعجّلة كما لو أنه لم يكن ينتظر غير هذه الإشارة. وفي المرآة شدّ وجهَهُ المتوهّج عينين زمرديّتين يتلألأ الدمع فيهما.

لم تسمع سلمى نهاية الدعاء، وما كادت تنتبه إلى أنّ الطقس قد انتهى حتّى كانت امرأتان قد أمسكتا بها وأجلستاها في الهودج إلى جانب عريسها.

بإمكانها الآن أن ترى من خلال الستائر التي تحجبها عن الأعين موكب المدعوين: نواب[1] وراجاوات يتلألؤون بما عليهم من أحجار كريمة وهم يمتطون فِيَلتهم المكسوّة بالأغطية المزركشة، يتبعهم حملة أعلامهم ورمّاحوهم وخدمهم بثيابهم الرسمية، وخلفهم رجال الأرستقراطية الصغيرة على خيولهم العربية الأصيلة، جاءوا من مختلف أنحاء المنطقة. وفي آخر الموكب فرقة موسيقيّة هندية، تلبس ثياباً حمراء وسراويل قصيرة بيضاء كما لو أنّها ذاهبة للصيد. وبإشارة من رئيسها ـ الذي يضع على رأسه شعراً مستعاراً معفّراً بالمساحيق ـ تتعالى ضربات الطبول وأنغام الصنوج والمزامير والأبواق الفضيّة الطويلة، تعزف سمفونية عجيبة، تمزج بين الأنغام المحليّة وإيقاعات آتية من أعماق اسكتلندا. وبعد أن يتوقّف الموكب قليلاً، تحرّك تحت هتافات الحشد الذي تجمّع للاستمتاع بالمشهد. إنّها أكثر لحظات الحفل تأثيراً: لحظة مغادرة العروس بيت ذويها إلى الأبد لتستقرّ في بيت زوجها. على أنّ سلمى لا أهل لها ولا بيت في البلد، لذلك اكتفى الموكب بأن طاف على حديقة القصر خمس مرّات قبل أن يعود إلى نقطة انطلاقه.

وداخل الهودج على ظهر فيل، بعيداً عن الأعين الفضولية والانتقادات، أزاحت سلمى حجابها ونظرت إلى زوجها باندهاش وسعادة. هو أيضاً انتهز الفرصة وتخفّف مما وضعوه على رأسه من زينة، وابتسم لها ابتسامة متواطئة، فغمرتها البهجة: إنّه يفهمها، ويدرك ما تتحمّل من مشقّة!

---

(١) كان أمراء الهند المسلمون يدعون في العادة نوابا. لكن كثيراً منهم في منطقة أود كانوا يسمّون راجاوات مثل أمراء الهندوس.

توقّف الفيل، وبينما كان يجثو ببطء، نصبوا على جانبه سلّماً ذهبيّاً. وفي الأسفل كانت مجموعة من الوصيفات ينتظرنها لكي يحملنها إلى جناحها. وما إن لمست قدماها الأرض حتّى حاولت أن تتخلّص منهنّ، وتمشي على قدميها، لكنّ أمير اعترض قائلاً:

ـ ينبغي أن تحترمي التقاليد!

كانت هذه هي أوّل جملة يخاطبها بها. لن تنساها أبداً.

كانت أكوام الورد تملأ غرفة الزفاف، وعلى أطباق فضية ضخمة، رتّب الكعك والحلوى بشكل هرمي. وفي الأركان الأربعة وضعت مباخر يفوح منها عبير المسك والصندل. أمّا الوسط فيحتلّه سرير ضخم، مزيّن بالساتان الأبيض والتخاريم. قالت سلمى في نفسها وهي تتذكّر الأعمال السينمائية الهوليودية الضخمة: «*إنّه سرير ملكي حقيقي*».

حواليها كانت النساء منهمكات في العمل. ألبسنها قفطاناً حريرياً، ومشطن من جديد شعرها الأحمر الذي سحرهن، ورُحن يردّدن: «شمس غاربة تُجلّل بهالتها قمراً»، ملمّحات إلى بشرتها البيضاء المشرقة «إشراق البدر في ليلة حالكة».

جُهّزت العروس، ومضى عليها وقت طويل وهي مستندة إلى وسائدها تنتظر. ماذا يفعل أمير يا ترى؟

جلست النساء حول السرير يثرثرن ويلُكن التنبول ويبصقن سائلاً أحمر في أوانٍ مبثوثة هنا وهناك. كلّما سمعتهنّ سلمى يصقن، ينخلع قلبها لهذا الصوت الذي يصدرنه: لن تتعوّد عليه أبداً! وهو ما كان يضحك النساء. «*أيسخرن منها؟*».

كان الوقت يمضي. هل ستظلّ تنتظر هكذا في هذا السرير الضخم؟ رغم شعورها بالإهانة، شدّت على شفتيها: لا ينبغي أن تُظهر الاضطراب!

وظهر أمير أخيراً بعد ساعة. كان عند أخته الراني عزيزة، وزعم أنّ

مشكلة طارئة بدرت لها، وهو ما أثار امتعاض سلمى. لا شكّ في أنّها مشكلة اختلقتها لكي تستبقي أخاها، وتظهر للناس نفوذها عليه مقارنة بالزوجة الجديدة! وبينما كانت النسوة يغادرن الغرفة وهنّ يتمازحن بابتهاج حول الليلة الآتية، أجهشت سلمى بالبكاء.

وقف أمير بجانب السرير، وراح ينظر إلى عروسه الشابّة بقلق وقال:

ـ ماذا بك يا عزيزتي؟ أأنت مريضة؟

لكنّ سلمى دفنت رأسها في الوسائد وهي تشهق.

ـ سأنادي الطبيب.

ـ كلا!

اعتدلت في جلستها وقد تورّدت، فالتبس عليه الأمر واستبدت به الحيرة. كيف ينبغي أن يتصرّف؟ تبدو غاضبة. أتراه قال شيئاً ساءها؟ ألم تكن في غاية السعادة قبل قليل خلال الحفل؟ ماذا جرى؟ ودّ لو يضمّها بين ذراعيه، ويواسيها، لكنّه لم يجرؤ: ستصدّه بلا شكّ.

«لِمَ هو واقف ينظر إليّ هكذا؟ أشعر بالبرد، ليته يضمّني إليه ويقبّلني ويدفئني...».

قال في نفسه: «يا لغبائي! كلّ ما في الأمر أنّ المسكينة مرعوبة. لعلّها تتوقع أنني سأرتمي عليها، وأقضي منها وطري... هي لا تدرك أنّني أحترمها، وأنّني غير مستعجل. سأنتظر إلى أن تتعوّد عليّ».

جلس عند طرف السرير وقال:

ـ كان اليوم مرهقاً. أنتِ بحاجة إلى النوم، لذلك لن أزعجك.

نظرت إليه مذهولة. هل يهزأ بها؟ ألهذا الحدّ هي غير جذّابة؟ يا لغبائها! هي من طالما حلمت بهذه اللحظة... ألم تكن تعرف أنّ هذا الزواج لم ينشأ عن حبّ؟ وها هو يُفهِمها أنّها لم ترُقه!

هزّت كتفيها وقالت بنبرة لا مبالية:

ـ أنا منهكة فعلاً. طابت ليلتك.

وبينما كانت تتكوّم على نفسها في الطرف الآخر من السرير، سمعت أمير يتنهّد بعمق. كان يأمل أن تواجهه بابتسامة على الأقل، وتقول له كلمة رقيقة تشهد على أنّها تقدّر دماثته. استلقى بلطف لكي لا يزعجها. لقد مضت شهور وهو يتأمّل صورتها وينتظر أن يكون بجانبها... ما هكذا كان يتوقّع ليلة زفافهما.

٣

تتسلّل من خلال ستائر الغرفة أشعّة الشمس، وحول السرير تتحرّك أطياف بصمت. همست سلمى وهي بين اليقظة والنوم:

ـ أنيدجيم؟ ليلى هانم؟

فأجابتها وشوشات وضحكات مخنوقة ذكّرتها بأنّها ليست في غرفتها الوردية ببيروت بل في الهند، وأنّها صارت منذ الأمس... زوجة. ولكن ماذا تفعل هؤلاء الخادمات هنا؟ لماذا لا يتركنها بمفردها مع أمير؟

ومدّت يديها بفتور، جسّت الأغطية ثمّ نادت:

ـ أمير!

وما إن استيقظت تماماً حتّى انتصبت وسألت:

ـ أين هو أمير؟!

اقتربت منها الخادمات وهنّ يتبادلن الغمزات والتعليقات المرحة، فشعرت بنفسها تتورّد: كيف سمحت لنفسها بأن تتصرّف بهذا النحو؟ منذ أن كانت في الأستانة، لطالما أخذت القلفاوات عليها اندفاعها، وكنّ يقلن لها: «*الروح الصافية لا تتغيّر، تحافظ على هدوئها في السعادة والشقاء*»، ويضربن لها مثلاً خديجة سلطان. لكن رغم الإعجاب الذي تحمل لأمها، تعتقد بأنّ النبل يفقد الروح جزءاً من كيانها.

وشوّش غياب أمير ذهنها: أتراه غاضب منها؟ مع أنه التصق بها تلك الليلة بعد إطفاء الأنوار، وداعب شعرها بلطف، ممّا بدّد كلّ التوتر الذي

تراكم بداخلها، فتنهّدت بعمق، وتوسّدت كتفه، وبقيا على تلك الحال طويلاً ينصتان لصرير المروحة. ثمّ... لا بدّ أنّها نامت.

ولكن هو؟ أظلّ يداعبها؟ هل...؟ وفجأة انقطعت أنفاسها: هل يمكن أن يكون... خلال نومها؟ وأدخلت يدها خلسة تحت الأغطية، جست بطنها وفرجها. راحت تتحسّس جسدها وهي في منتهى القلق. كان كلّ شيء عادياً، ومع ذلك... «*كم تزعجني هؤلاء النسوة يا إلهي! لا أستطيع حتّى أن أرى ما إذا...*».

أمّا الخادمات، فلم يكنّ يعرفن مثل هذا الحياء. دفعن سلوى، وسحبن عنها غطاء الزفاف، فإذا به ناصع البياض!

بدا عليهنّ الاستغراب، ورحن يردّدن تعليقات تعبّر عن الخيبة وهنّ ينظرن إليها نظرات مريبة، فتوزّدت ولاذت بمنضدة زينتها وتظاهرت بتجاهلهنّ. ابتعدت النسوة بصخب وهنّ يحملن دليل الإثبات إلى جناح الراني عزيزة.

مضت العروس تعالج المشط وقناني العطر وعلب البودرة بحركات محمومة وهي تشعر بمزيج من الخزي والغضب. ماذا سيقولون؟ لم تعجب العريس؟ أو أدهى من ذلك، ليست بكراً؟ وفي غمرة الجزع الذي انتابها، أمسكت على نحو آليّ بتخاريم المنضدة، وراحت تمزّقها إرباً.

ـ ماذا تفعلين يا «آبا»؟

ظهرت زهرة عند عتبة الباب، وجرت نحو سلمى.

ـ ماذا جرى؟

وراحت تسبر بقلق غور العينين الزمردتين الحزينتين. ما سرّ هذا الحزن يا ترى؟

سألتها سلمى:

ـ أين أمير؟

اطمأنّت زهرة وهي تخفي ابتسامة، وأجابت:

ـ ذهب ليركب الخيل ككلّ صباح بين السادسة والثامنة قبل اشتداد الحرّ.

فانتفضت سلمى وقالت وقد اتّقدت عيناها:

ـ ككلّ صباح! كنت أحسب أنّه في يوم زفافه...

فتملّك زهرة الذهول.

ـ إن شاء الزوج، فمن حقّه أن...

لم تفغر زهرة فمها من الدهشة فحسب بل ومن الإعجاب أيضاً: «ما أجملها من إمبراطورة غاضبة!».

وحتى تتجنّب العاصفة، قالت:

ـ تعالي معي لنزور الزنانا. فأنت لم تري نصفها.

تردّدت سلمى. فهي ترغب في الخروج، لكنّها لا تجرؤ لاقتناعها بأنّ كلّ الناس لا يتحدّثون إلا عن ذلك الغطاء اللعين... كلا، هي لا تشعر قطعاً بأنّها تملك الشجاعة لمواجهة الوجوه الهازئة، المشفقة أو المستنكرة...

فقالت زهرة مُلحّة:

ـ ستبتهج ضيفاتنا بلقائك.

ثمّ أضافت بمكر:

ـ فهن ينزلن بالجناح المقابل لجناح الراني عزيزة. هيّا بنا!

أمسكت بيد سلمى، وعبرت بها ممرّات لا تنتهي نحو الجزء الذي لا تعرفه من القصر. هو عبارة عن متاهة من الأروقة تفصل بينها أفنية داخلية وشرفات يمكن الصعود إليها بواسطة سلالم حلزونية. ثمّ بلغتا أخيراً بهواً داخلياً ذا أقواس تنفتح على غرف تؤوي كلّ منها أسرة. منذ متى تعيش هذه الأسر ها هنا؟ ومن تكون هؤلاء الجدّات ذوات الشعر المحمرّ بالحناء وهاته النسوة المحاطة بالأطفال؟

كانت زيّارة سلمى بالنسبة لهنّ بمثابة هديّة ملكيّة. أحطن بالأميرة الجديدة ورحن يتنازعنها. أمّا الأطفال فتفرّقوا جارين يزفّون الخبر، وهبّت نساء من الأروقة المجاورة في فوضى بهيجة، وأخذن يتنازعن اصطحاب الراني إلى غرفهن ليقدّمن لها الشاي. ولولا وجود زهرة التي وضعت حدّاً بديبلوماسية كبيرة لهذا الكرم العاتي، لوجدت سلمى نفسها مضطرّة لقبول عشرات الدعوات.

لكن الأميرة الصغيرة مضت بها لتقفا عند باب كلّ غرفة مدّة قد تطول أو تقصر حسب مكانة من يحتلونها. ولم تكن تدخل إلا إذا كانت المرأة من الأقرباء أو تمثّل عائلة نبيلة.

بعضهنّ وصلن قبل أيّام لحضور حفل الزفاف، لكنّ معظمهنّ قدمن منذ شهور بل سنوات. حضرن بمناسبة حفل من الحفلات وبقين بعد أن طاب لهنّ المقام. ثمّ إنّ الزيارة هنا، على غرار سائر مناطق الشرق، تشريف للمُضيف. بل كلّما طالت، كان التقدير أكبر. بعض أولئك النسوة عجائز، أرامل في الغالب، استقررن هناك مدى الحياة. كنّ يُعلنّ للراني في بداية مُقامهن عن تصميمهنّ على السفر، فتجيب ساخطة: ألأنّ الأجواء لا تبعث على الراحة؟ ألم يُعتن بهن كما ينبغي؟ فيؤجّلن السفر قليلاً لإرضائها. وما إن تمضي بضعة أشهر حتّى يصرن من أهل البيت، ويصبح رحيلهن أمراً غير لائق، بل مهيناً للمضيف.

هناك أيضاً القريبات المعوزات وأبناؤهن. وهنّ يحظين بكامل الحقّ في الإقامة. ففي هذه الأسر الملكية التي لا تُوزّع فيها الممتلكات، وحيث يرث الابن البكر كلّ شيء، يجد أبناء عمومته البعيدون أنفسهم أحياناً في حال من العوز، فيتوجّب على الراجا الوفاء بكلّ حاجاتهم: يتكفّل بتعليم أبنائهم، وتجهيز بناتهم، وإيوائهم، إن رغبوا، في هذا القصر الذي لو شاء الله لكان من حظّهم.

وصارت هؤلاء النسوة يعتبرن سلمى، من بساطتها وطيبوبتها، بمثابة بنتهنّ أكثر من كونها سيدتهنّ الجديدة. يضممنها إلى صدورهنّ، ويلمسن

صدغيها، ويُلححن عليها لتجلس، لكنّ زهرة لا تلين. لا ينبغي العبث بالمقامات.

أمّا الشاي، فلم تقبلا شربه إلا عند راني كريمبور العجوز التي يحكم ابنها إحدى أكبر دول «المناطق المتّحدة»، وعند مرضعة أمير، وهي امرأة مسنّة سحرت على الفور سلمى بلطفها البالغ.

دامت الجولة أربع ساعات تقريباً لم ترتكب فيها سلمى أخطاء كثيرة بفضل زهرة التي كانت تهمس لها في كلّ مرّة الكيفيّة التي ينبغي أن تتصرّف بها. ما كانت لتعرف من دونها، أمام هذا السيل العارم من الأسماء والألقاب وروابط القرابة والصداقات القديمة، من ستسلّم عليه باحترام كبير، ومن ستبتسم في وجهه بحنان، ومن ستكتفي في تحيّته بانحناءة ودود من رأسها؟

ولمّا عادت أخيراً إلى جناحها، انهدّت من التعب. فقد أثلجت هذه العاطفة الفيّاضة والعفوية صدرها. ما أشدّ توقها إلى أن تكون محبوبة! لم تلق مثل هذا منذ بداية المنفى...

لكن أمير لم يعد. قالت زهرة مبرّرة تأخّره:

ـ هو منشغل بتصريف أعمال الولاية، لا سيما أنه يواجه في الوقت الحاضر بعض الصعوبات.

هي تحاول أن تخفّف من خيبتها، وتحرص على ألا تثير هواجسها. لم تقل لها إنّ المزارعين في شمال الهند بكامله بدأوا، بتشجيع من حزب المؤتمر، يتمرّدون على كبار الملاكين المعارضين في معظمهم لسياسة غاندي، لأنهم يعتبرونه شيوعياً.

لكن، مهما تكن أمور الولاية في هذا اليوم، فهي لا تعني سلمى في شيء؛ ذلك أنّ الفرح الذي يغمر قلبها تلاشى بعدما أهملها زوجها غداة زفافها.

ستقضي طيلة فترة ما بعد الظهر في انتظاره. كانت مقتنعة بأنّه سيأتي

ساعة القيلولة، لذلك استحمّت وتعطّرت بعناية، لكن حان وقت الشاي من دون أن يعود. ولكي تداري عذابها، تظاهرت بالقراءة، وصمّمت على ألا تسأل عنه مهما تألّمت.

وهبّ نسيم عليل، فقالت:

ـ لنخرج يا زهرة. أرغب في زيارة المساجد والحُسينيات.

سُرّت المراهقة بهذا الورع الذي لم تتوسّمه في زوجة أخيها، فاستجابت لطلبها على الفور، وأمرت أحد الخصيان قائلة:

ـ اذهب يا سليم إلى الراني عزيزة، واسألها أيّ عربة يمكن أن نركب!

فحدجتها سلمى بنظرة قاسية لم تعرف لها سبباً.

يستغرق تجهيز العربة ساعة تقريباً. وقد وجدت الراني طلب الأميرة «غريباً»، لكنّها علّقت بصوت عالٍ بأنّها لا تريد أن ترفض للعروس طلباً، مهما كان. على أنّها تصرّفت كما لو أنّ العثور على عربة من بين العربات الاثنتي عشرة التي يملكها القصر مهمّة شبه مستحيلة، متذرّعة بأنّ استعمالها يقتضي إذناً من الراجا.

ولمّا خرجت الأميرتان أخيراً، كانت الشمس قد مالت إلى الغروب، ممّا أضفى على القصور والمساجد لوناً ذهبياً. كما أنّ رائحة العشب الذي سقاه قبل ذلك بقليل جيش من البستانيين، بدأت تعطّر الجوّ. وفي وسط الأحواض، وبين الشجيرات المقصوصة على شكل حيوانات عجيبة، بدت الفسقيات الرخامية البيضاء والأكشاك ذات الأعمدة الرفيعة كما لو أنّها تنتظر متنزّهين قد لا يأتون.

كانت العربة تتقدّم ببطء، متجاوزة ضريحي نوّاب تقي خان وزوجته، وقصر لال برادري المشيّد بالحجر الرملي الأحمر، الذي كان يستقبل فيه ملوك أوده الأمراء والسفراء. ومرّت بجوار الحسينية الصغيرة ذات القباب الأنيقة، وكذلك أمام تلك القصور الهشّة التي تبدو وسط الحدائق الهادئة كما لو أنّها تفتّت مثل نغمات سوناتة رومانسية.

أمّا «مسجد الجمعة» فبني وسط حقول اللفت فوق هضبة تشرف على المدينة. وقد أعجبت سلمى بجماله وبالصمت المخيم عليه، فطلبت من زهرة أن تتوّقفا للصلاة.

ـ مستحيل يا «آبا». لا يحقّ لنا ذلك.

ـ ألا يحق لنا أن نصلّي؟

ـ بلى، ما لا يحقّ لنا هو الدخول. ذلك أنّ دخول المساجد مقصور على الرجال، أمّا النساء فيصلّين في البيوت.

ما هذا الهراء؟ ترجّلت سلمى وسوّت حجابها، وكمجاهدة مصمّمة على الاستشهاد دفاعاً عن عقيدتها ضدّاً على تأويلات الفقهاء، أزاحت من طريقها المرافقات اللواتي هممن باعتراضها: سترى إن كانوا سيمنعون حفيدة الخليفة من دخول المسجد!

كانت الشمس قد غابت، والباحة الكبيرة المربّعة خالية، والسماء الصافية تضفي على سلمى من نعومتها بينما راحت العصافير تزقزق احتفاء بطراوة الليل.

ـ لا إله إلا الله، أنت الأزل الصمد، علّة وجود كلّ شيء.

جثت على ركبتيها. وفي رحاب هذا الجمال وهذا الصمت، تفجّرت الكلمات التي طالما تكرّرت، وغمرتها بنورها. وعندئذ شعرت بالسكينة والرضا، وذابت في اللحظة الحاضرة. لم تر الطيف الذي كان يتحرك بجوارها ولم تسمعه، وشعرت فجأة بأنّ أحدهم يسحبها من كمّها. التفتت فإذا بها أمام ذبابة ضخمة سوداء تختلج. أغمضت عينيها وعادت لها السكينة. لكن المولوي الحانق بدأ يصرخ.

انتصبت وتساءلت: كيف لهذا الحمار أن يقطع عليها استغراقها في التأمّل؟

ـ ألن تصمت أيّها الشيطان؟ المساجد مفتوحة للنساء في كلّ البلاد الإسلامية! ألا تعلم أنّ فاطمة ابنة نبينا السموح كانت تصلّي في الكعبة

بجانب الرجال؟ أتجرؤ، أيها الحقير، على تحريم ما أحلّ محمد، والاعتراض عليه؟

وقف المولوي ينظر مذهولاً إلى هذه الشيطانة البيضاء، هذه الكافرة التي تدنّس بوجودها هذا المكان المقدّس. ماذا تقول؟

ـ ترجمي له يا زهرة، ترجمي له كلّ كلمة قلتها!

استشاطت سلمى غضباً، فراحت تهزّ ذراع الفتاة.

ـ قولي له إنّه وأمثاله يسيئون إلى ديننا الحنيف بنفاقهم وغبائهم. ثمّ، من أعطاهم الحق في الوجود؟ فالإسلام لا يعرف الكهنوت، ولا الوسطاء بين الله وعبيده. عماده القرآن الكريم والسنّة النبويّة. أمّا المولويّة والملالي والأئمة، ما هم سوى دجالين يستغلون جهل الناس ليبسطوا عليهم نفوذهم!

مضى أسبوع وهي تكبت غضبها، وها قد عثرت على قضية مناسبة لتفريغه.

وبينما ولى المولوي الأدبار شاحباً، راحت سلمى تستمتع بحلاوة غضبها.

لمّا عادت إلى القصر، توجّهت رأساً إلى جناحها من دون أن تعرّج على الراني لتحيّتها، وهو ما سارعت الخادمات إلى إخبار سيدتهم به. أمّا سلمى فوجدت أمير يذرع الغرفة جيئة وذهاباً، وما إن رآها حتّى سألها بنبرة تشي بغضب اجتهد في إخفائه:

ـ أين كنت؟ منذ مدّة وأنا أنتظرك.

ـ أما أنا فانتظرتك طيلة اليوم! ولم أخرج إلا لساعة.

سكت أمير وهو مغتاظ من أن سلمى لم تظهر الصبر أمام الآخرين على انتظاره كما ينبغي لزوجة شابة أن تفعل. لم يخبرها بأنّه يواجه مشاكل خطيرة: فهذه أشياء لا تقال للنساء، وهو لم يعتد على تبرير تأخره! ثمّ إن نفاد صبر سلمى يؤذيه، كما لو أنّها لا تثق به.

«...*لماذا كلّمتُه بهذا النحو؟ بدا فجأة كطفل وبّخته أمّه... طيلة اليوم وأنا أحلم به، فلمّا عاد، أسأت معاملته. آه، ينبغي أن أطلب منه المعذرة، وأحدّثه عن مقدار شوقي إليه...*»، ومضت تحدّق في طرف حذائها... «*كيف لي أن أشرح له؟ أليس نفاد صبري دليلاً واضحاً على حبّه؟*».

وقال أمير في نفسه: «*كم كانت بهيّة وهي نائمة ليلة البارحة، بجمالها الطفولي المختلف عن جمال نسائنا الكالح*». بقي سهران يتأمّل هذه البراءة وهذه النعومة. هي الآن غضبى، وهو لا يعرف سبب سخطها... كانوا قد حذّروه من مزاج التركيّات المتقلّب بخلاف طبع الهنديات الدمث... لكن، عمّ تراه يبحث؟ من الطبيعي أن تكون متوتّرة. فكلّ شيء جديدٌ بالنّسبة إليها. ينبغي أن يصبر عليها حتّى تتعوّد...

هو من أجّل مشاغله ليخلو إلى عروسه ويقضي معها سهرة طويلة، حافلة بالعناق والقُبل، ها هو...

ينهض على مضض، ويقول:

ـ أنت متعبة، سأتركك ترتاحين. هل ترغبين في تناول العشاء هنا، أم عند أختي التي دعتك لجناحها؟

انعقد لسان سلمى. ودّت لو تصرخ: «إلى أين أنت ذاهب من جديد؟»، لكنّها تمالكت نفسها، وزمّت شفتيها.

ـ سأتعشى هنا. شكراً.

وحين انصرف ظلّت تحدّق في الجدار الأبيض قبالتها من دون حراك. الجدار السميك الذي يفصل بينها وبين أمير. وتملّكها شعور بألم لا لزوم له. لماذا يتعذّر التواصل؟

تتنهّد السيدة غزاوي وتقول لها مهوّلة:

ـ أميرتي المسكينة، يا بلبلي المحبوب، كم يهملك هؤلاء الهمج! ألم تتنبأ بفشل هذا الزواج! شعرت بذلك من أوّل يوم. ماذا يمكن أن

يجمع بين حفيدة السلطان وهؤلاء القوم الذين لا يملكون ما يشترون به قطاراً! كانت سلمى تعرف أنّ السيدة غزاوي تبالغ، وأنّها تكره الهنود الذين لا يظهرون لها احتراماً تقدّر أنّهم مدينون لها به بحكم بياض بشرتها. وإذا كانت سلمى قد دأبت على نهرها، فهي محتاجة هذا المساء لمن يرثي لحالها.

كان زينيل واقفاً عند أحد أركان الغرفة شابكاً يديه على بطنه باحترام ينظر إليهما. «أيّ خطأ أرتكبناه حين جئنا بهذه المخبولة. ما من شيء تلمسه إلا وتنفث فيه سمّها. تستطيع أن تزرع العداوة بين الشمس والقمر. لقد حذّرت السلطانة... لكنّ سلمى أصرّت على أن ترافقها. تعلّقت بهذه الدساسة التي أدركت على الفور نقطة ضعف الصبيّة: حبّها للمجاملة والدلال كما لو أنّها ما تزال أميرة في البلاط العثماني. وإذا لم تجد هذه المرأة من يوقفها عند حدّها، ستُحقّق مبتغاها: ستدمّر هذا الزواج، وستعود بسلمى إلى بيروت. لن أسمح لها بأن تحطّم قلب سلطانتي».

- لنَتَعَشّ نحن الثلاثة في مخدعي.

قرّرت سلمى أن تنسى أمير وتتسلّى قليلاً. إنّها المرّة الأولى التي يجدون فيها أنفسهم لوحدهم، بعيداً عن النظرات والتعليقات الحاقدة. المرّة الأولى التي تشعر فيها بالحريّة منذ وصولهم إلى الهند.

- سنحتفل هذا المساء، فلنترك الحزن والجدّ جانباً!

صفّقت السيدة غزاوي وهي تهتف:

- برافو! الآن نطقتْ أميرتي الشجاعة!

ثمّ أضافت مقلّدة صوت الراني عزيزة: «من المؤسف أن هذه المسكينة سنّيّة بينما نحن شيعة...».

وتعالت قهقهات الثلاثة، ذلك أنّ السيدة غزاوي مقلّدة ماهرة.

كان العشاء بهيجاً، استُعيدت فيه الذكريات الجميلة، ورُسمت مشاريع رحلات: إلى بيروت أوّلاً، لزيارة السلطانة، ثمّ إلى باريس.

الآن بعد أن صار المال متوفراً، بدا أنّ عالماً من الملذات والمُتع انفتح أمام سلمى. أمّا أمير، فلن تجد صعوبة في إقناعه. فهي حين تصمّم على أن تستحوذ على لبّ أحدهم، لا شيء يقف في طريقها.

وشعرت بنفسها فجأة شابّة لامبالية من دون أن تعرف لذلك سبباً. فقبل قليل كانت تعيسة... وها هي الآن تهفو إلى الغناء والرقص.

ـ سأطلب منهم أن يأتوني بآلة بيانو أضعها هنا، وسننظّم سهرات موسيقية. في انتظار ذلك، هات قيثارتي بسرعة يا زينيل!

إنّها قيثارة ناعمة وأصيلة، تلقّتها هدية من عازف أندلسي ذات مساء في «الكريسطال»، أحد النوادي الليلية البيروتية الراقية. وتذكّرت على نحو حالم العهد الذي كان بإمكان الرجال أن يعبّروا فيه عن إعجابهم بجمالها. كم يبدو هذا الزمن بعيداً!

ـ لنغنّ، وليذهب الحزن إلى الجحيم!

وقفت سلمى وأسندت رجلها إلى أحد المقاعد، وعزفت بعض الأنغام. وتعالى صوتها الدافئ الأرنّ يغني: «لدي حبيبان: بلدي وباريس...» لجوزيفين باكر وتينو روسي اللذين رأتهما مراراً في السينما، حتى إنّها حفظت كلّ أغانيهما وكلّ لحن من ألحانهما عن ظهر قلب. ولمّا غنت «آه كاترنيتا بيلا، تشي تشي، أنصتي إلى الحب الذي يناديك، تشي تشي، لماذا ترفضين الآن، آه آه يا كاتيرنيتا الجميلة!»، صار صوتها متودّداً، فطرب له رفيقاها، وراحا يصاحبان الإيقاع بالتصفيق.

ـ اصمتوا!

أطلّ من خلف الستارة وجهان مذهولان، خادمتان من خدم الراني. لم تصدّقا عيونهما وهما تبصران الأميرة تغنّي. ومن شدّة ارتعابهما، أومأتا إليها بأن تكفّ.

لكنّ سلمى استأنفت الغناء هازئة بهما واستمرّت تغني بأعلى صوتها: «آه لو كنت أعرف في ذلك الوقت يا كاترنيتا الجميلة!».

لاذت الخادمتان بالفرار، وسرعان ما ظهرت خادمتان غيرهما، جاءتا تطلبان من سلمى السكوت، ثم اثنتان أخريان، لكنهنّ لم يزدن سلمى إلا إصراراً، بحيث مضت ترفع صوتها أعلى فأعلى: هي بحاجة إلى أن تتسلّى هذا المساء، ومستعدّة لتحدّي الأرض ومن عليها!

ـ ماذا يجرى هنا؟

دوّى الصوت، فتسمّرت سلمى في مكانها؛ ذلك أنّ الراني جاءت بنفسها وراحت تحدّق فيها.

ـ إنني أتسلى يا أختاه. أنا متعوّدة على العزف والغناء. لا أظنّك ترين في هذا مانعاً؟

ـ أنا فلا أرى فيه ضيراً، ولكن ينبغي أن تأخذي في اعتبارك الجهلة المحيطين بنا. العزف والغناء بالنسبة لهم علامة على التفسّخ الأخلاقي، لا تُقبل عليه إلا النساء الفاسدات. صحيح أنّ لوكنو مدينة منفتحة على الفنون، لكن أن ترضى سيّدتهم الراني لنفسها بهذا، فتلك فضيحة ما بعدها فضيحة!

ـ إن شئن أن يعتبرن هذا فضيحة، فذاك شأنهنّ. فأنا لا آتي فاحشة ولا منكراً.

ـ الفاحشة مفهوم نسبي يتغيّر معناه من مكان لآخر. أكرّر لك أن العزف هنا أمر غير مقبول، وأنت بهذا تعبثين بالتقاليد. ستدفعين الناس إلى عدم احترامك، وعدم الاحترام هذا سينعكس على أمير... وهو ما لا أسمح به.

الإنذار واضح: لك أن تختاري بين القيثارة والزواج.

ثمّ أضافت الراني عزيزة بصوت أرادته أن يكون لطيفاً:

ـ كوني حكيمة، فأنت مقبلة على حياة جديدة. اعرفي كيف تستفيدين من المزايا الكبيرة، وهي كثيرة، وتتحمّلين السلبيّات.

وسارعت بالمغادرة قبل أن تتمكّن سلمى من الردّ.

لكن ماذا كان بوسعها أن تقول؟ فرغم كرهها للراني، عليها أن تعترف بأنّها محقّة ربّما في هذا الأمر. لكن ماذا تقصد بـ«المزايا الكبيرة» لهذا الزواج؟ أهو تلميح إلى المال؟ أهذا هو السلاح الذي يشهرونه في وجهها في كلّ مرّة؟

وتبدّد فرح تلك السهرة، ولم يعد لأحد منهم الرغبة في اللهو، فصرفت سلمى صديقيها. لم تعد ترغب إلا في النوم.

وراحت تحلم... بزوجها الوسيم يتسلّل إلى السرير بجوارها، ويقبّلها خلسة على صدغها، فتسارع هي إلى فتح ذراعيها، والالتصاق به. يا لنعومة جسده! ويا لرائحته الزكيّة! وها هو يداعبها ويطبع قُبلات على خدّيها ورقبتها وكتفيها ويهمس لها بأنّه يحبّها. وقالت في نفسها إنّه مندفع ورقيق كجرو صغير. هي تريد أن تضحك؟ أيضحك الإنسان وهو نائم؟ لكن حينئذ...

فتحت عينيها، فإذا بأمير بجانبها، عاكف عليها بوجه عابس يضيئه ثقبان لامعان، أشبه بملاك متجهّم.

ـ أمير!

مدّت له يديها. أتراه يراها؟ عيناه غريبتان مطموستان مثل مرآتين لا تعكسان غير نفسيهما. لماذا لا يقبّلها؟ لماذا يقف متسمّراً؟

وهمست بنبرة شاكية:

ـ أحبّني يا أمير.

لم تكن تعرف على وجه التحديد ما تقصده بهذا الطلب. كلّ ما تعرفه هو أنّها بحاجة إلى الاطمئنان، وأن تدفع عنها بالكلمات الشرّ الذي تشعر أنّه مُحدق بها.

وأمسك بيديه الطويلتين الدقيقتين رقبتها، وراحت أصابعُه تلاعب جيدَها المشيق، ثمّ انحدرت ببطء وأزاحت التخاريم وأحكمت قبضتها على النهدين وبدأت تداعبهما و...

- كلا!

وانتصبت سلمى بقفزة واحدة. على صدرها ارتسمت خمسة خطوط حمراء. تطلّعت إلى زوجها: مجنون! لقد تزوّجت رجلاً مجنوناً!

خفض أمير عينيه، وعندما رفعهما، كانتا قد فقدتا بريقهما، وأضاءتهما بسمة ودود. وغمغم بارتباك:

- سامحيني يا حبيبتي، فجمالك أفقدني رشدي. مضى زمن طويل وأنا أحلم بك...

ضمّها بين ذراعيه، ومضى يهدهدها، وطبع قبلات رقيقة خجلى على تلك الخطوط.

ثمّ أضاف:

- لا تلوميني، فهذه علامات اللوعة. ما أقلّ النساء اللواتي يستطعن الافتخار بإثارة موجة عاتية من العواطف كهذه! أشعر بالخجل، وأحسّ في نفس الوقت بسعادة غامرة... لم أحسّ بمثلها قطّ.

كانت سلمى تتطلّع إليه من خلال رموشها الطويلة. بدا مضطرباً حقاً...

وانتهى بها الأمر، من شدّة ما لاطفها، أن بدأت تهدأ شيئاً فشيئاً. كان ينظر إليها بعشق حتى إنّها خجلت من شكّها فيه.

ابتسمت له وقالت:

- أحبّك.

ضمّها إليه بشدّة كما لو أنّه يخشى فقدانها. أمّا هي فكانت متعطّشة للحنان... ذلك أنّ القلفاوات في طفولتها كنّ ينهرنها حين كانت تهرع إليهن لتكسوهنّ بالقبل. فمثل هذا الابتذال لم يكن مسموحاً به في البلاط العثماني. وأبوها كان يكتفي في أحسن الأحوال بأن يداعب خدها بينما كانت أمّها تعبر عن أقصى درجات الحنان بتقبيل طفليها على الجبين.

وتنزلق سلمى بلطف إلى النهر، لتجرفها الدوامة المتثاقلة. وهبّت ريح دافئة عبثت بخصلات شعرها، نزعت قميصها، ومضت تداعب بطنها. كان الظلام حالكاً، ورأت نجوماً تتراقص أمام عينيها.

وإذا بألم حادّ يخرجها من حلمها. كان أمير يعتليها، بعينين مغمضتين، وملامح مشدودة.

أتراه يتألّم هو أيضاً؟ حاولت أن تخلّص نفسها من تحته. ماذا يفعل؟ ولماذا يتمادى في فعله؟ فهي تتألم!

وصاحت به:

ـ كُفّ عنّي!

لكنّه لم يتزحزح، كأنه لا يسمعها، فتملّكها الخوف. وراحت تضربه بقبضة يدها وتخدشه لعلّه ينزاح عنها، لكن لا يبدو أنّه لاحظ شيئاً من ذلك. فلمّا أخذ منها الإرهاق مأخذه، ارتمت على وسائدها وقد غمرت الدموع عينيها من شدّة الذهول والألم. ما من مرّة وجدت نفسها مضطرّة للخضوع بالقوّة.

وبينما كانت تشكو وتتأوّه، تهاوى أمير، فحاولت أن تخلّص نفسها من تحت جسده الضخم الذي يكاد يسحقها بثقله. ولم تكن تفكّر إلا في شيء واحد: أن تهرب وتذهب لتغتسل، تغتسل من الدم والعرق وهذا الوسخ.

دفعته عنها، وقامت جارية إلى الحمام. فتحت صنابير الماء إلى أقصاها، ومضت تغتسل على نحو محموم، كما لو أنّها تريد أن تخلّص بشرتها من هذا الخزي. هل تستطيع أن تتطهّر منه يوماً؟ أهذا هو الحبّ؟

كلا، مستحيل. فالرجل الذي يحبّ امرأة يتطلّع إليها ويكلّمها بحنان، ويسأل عن شعورها، ويقضي معظم وقته بقربها. فسلمى تعرف أسرار النساء المتزوّجات انطلاقاً مما قرأته من روايات فرنسية محظورة.

شعرت بالغثيان، لكن من دون أن تلح عليها الرغبة في البكاء.

مضى الدم ينزف بلا توقّف... وخيّل لها أنّها لن تكفّ عن غسل هذا الجسد الذي صارت تشمئزّ منه فجأة. وخَدَتها رغبة عارمة في معاقبته وبَتر بعض أعضائه. فهو سبب كلّ هذه الفظاعات.

ماذا لو استمر هذا النزيف وأودى بحياتها؟ لو تسبّب أمير في موتها؟ واستسلمت لحظة لهذه الفكرة اللذيذة. يا له من انتقام! يا له من جمال! أمّها تبكيها وهي مكفّنة في ثوب ناصع البياض. أمّا هي، سلمى، فتنظر إليها بقلب منفطر. «سامحيني يا أنيدجيم، لم أتعمد هذا...»، ما أشدّ ما سيتعذب هؤلاء المساكين!...

وجاءها صوت قلق من خلف الستارة:

ـ ألا تشعرين بنفسك على ما يرام يا حبيبتي؟

ـ كلا، كلا، أنا قادمة.

وبحثت بسرعة عن قطعة قطن وقميص نوم جديد. ينبغي أن تخفي هذا الجرح. مهما يكن، فلن تستدرّ العطف.

كان مستلقياً على عرض السرير وقد افتر ثغره عن ابتسامة شهوانية، غير شاعر بالمأساة التي تسبّب فيها.

ـ أأنتِ سعيدة؟

هزّت رأسها وهي تشيح عنه بعينيها، وهو ما اعتبره خفَراً ساحراً.

ـ تعالي بقربي.

سحبها بلطف، فطاوعته بانقياد كما لو أنّها لم تعد تتحكّم في عضلاتها وأعصابها. مسح بيده على بطنها، فشعرت بقشعريرة تسري في جسدها، وراح يضحك مسروراً. تهيّأ له أنّه أوقد فيها نار الشهوة من جديد.

ـ انتظري لحظة، دعيني أستريح قليلاً!

فتورّدت وراحت تغمغم: «ولكنني لم...»، فندّت عنه ضحكة عالية. ما أبغض هذا الاعتداد إلى نفسها!

ـ هذا البطن البهيّ سيلد لنا أولاداً في منتهى الجمال، أليس كذلك؟

وتشعر بتعب شديد بحيث لم تعد قادرة على الإحساس حتّى بالألم. كل ما تستطيعه هو الإحساس بحالها الآن: هي مجرّد بطن ينجب ورثة لولاية بادالبور... لم تنتفض. ما عادت تفهم كيف أزرَت بنفسها وبلغت هذا المبلغ. وفيما يشبه الغشية سمعت «كيانها» القديم يردّد، كما لو أنّه ينتقم:

ـ أطفال في منتهى الوسامة أو طفلات في منتهى الحسن.

وضحك الرجل الجالس بجوارها من جديد.

ـ إن كانت البنات يعجبنك، فلا بأس، ولكن بعد...

وشعرت على نحو واضح أنّ المسألة ليست مزحة بل أمراً عليها أن تنفّذه.

ومضت تتأمّل هاتين العينين اللتين تستطيلان على نحو لا يكاد يُلحظ، ولا تتوقّفان عن الاستطالة، وهذا الوجه الذي يستدقّ حتى يكاد يصبح مثلّثاً... وفجأة ندّت عنها صرخة: رأت قبالتها الكوبرا الإلهة تهدّدها.

شعرت أنّ النظرة تشفطها وقد شلّت حركتها. عليها أن تقاوم، أن تختبئ في أعماق ذاتها. استجمعت كلّ ما أوتيت من قوّة، وشدّت قبضتها، ونجحت، وهي ترتعش من الإجهاد، في خفض جفنيها. لقد نجت!

وجاءها صوت ساخر من بعيد؟

ـ يبدو عليك الإرهاق يا عزيزتي. اسمحي لي بالانسحاب.

وأحنى رأسه انحناءة رشيقة ثمّ اختفى. والكوبرا؟ أتراها كانت تحلم؟ أأصابها مسّ؟...

٤

نذير بالأبدية، نذير بالجحيم...

ستقضي سلمى أسبوعين جالسة على سريرها ذي الأرجل الذهبية تستقبل القريبات والصديقات والجارات والنمّامات اللواتي يأتين بأعداد كبيرة لرؤية ما ترفل فيه من سعادة. من رأينها قبل العرس لا يتورّعن عن التعليق بأنّها ازدادت جمالاً: «كانت شديدة الشحوب، انظروا إلى وجنتيها الآن كيف توردّتا، وكيف اكتسبت عيناها بريقاً، وزادت شفتها انتفاخاً. بل حتّى جسمها زاد امتلاءً! الحبّ يصنع المعجزات حقّاً، وأميرنا الوسيم يملك قدرات عجيبة في هذا المضمار!».

كانت النساء يضحكن ويتمازحن وهنّ يغبطنها. وبينما كنّ يلكن التنبول الملبّس بطبقة فضيّة دقيقة، مضين يعلّقن على حليّها واحدة واحدة، وعلى ملابسها الفاخرة. ذلك أنّ العروس ينبغي أن تظهر أجمل قطع جهازها، وتعرض نفسها على أنظارهم. وكان على سلمى أن تغيّر ملابسها عدّة مرّات في اليوم لكي ترضي فضول النساء.

أمّا الراني عزيزة، فبدت مستبشرة كما لو أنّها تحتفل بانتصار شخصي. تأمر الخدم، فيُؤتى بصوانٍ فضيّة مذهّبة مليئة بالبلايكي جيلوريان، وهو عبارة عن مخاريط من القشدة الطريّة المحشوة بالجوز والمعطّرة بالهال، والحلوى والموتنجان، وهو مربّى مصنوع من لحم الجدي، وكلّ الأطعمة الشهيّة المخصّصة للأعراس.

وبعد تكرار الدعوة سبع مرات ـ فلوكنو تفخر بأنّ أهلها أشدّ سكان

الهند احتراماً لآداب السلوك ـ، تُقبل هؤلاء النسوة أخيراً على الأكل، ولكن باعتدال شديد. ويظهر من سحناتهم المتطلّقة أنّ طباخي القصر لم يخيّبوا ظنّهنّ.

وتروح سلمى تتابع باشتهاء تقديم هذه المأكولات الرائعة لكن من دون أن تصيب منها؛ إذ يفترض في العروس أن تفقد الشهية من فرط السعادة التي تملأ قلبها.

ومن حسن حظّها أنّ أيّام الاحتفال ستُقلّص بسبب حلول شهر محرّم، ودنوّ فترة حداد ذكرى مقتل الحسين بن علي وكلّ أفراد أسرته سنة ٦٨٠م على يد جيش الطاغية يزيد بن معاوية. وهي مناسبة يبكي فيها المسلمون الشيعة طيلة سبعة وستين يوماً من يعتبرونه الوريث الروحي للنبيّ محمد. فهم يعتبرون الخلفاء الراشدين الثلاثة الذين خلفوا النبي، المبجلين لدى أهل السنة، مجرّد مغتصبين لحقّ أهل البيت في الخلافة.

فخلال هذه السبعة وستين يوماً، لا تقام حفلات، ولا توضع حليّ، ولا تلبس ثياب ملوّنة، ويكتفى بإقامة المواكب الجنائزيّة، وعقد مجالس يصلي فيها الناس، وتتردّد فيها أصوات المرتّلين الشجيّة التي تستدرّ دموع الحاضرين باستعراض فضائل الشهداء ووقائع كربلاء المأساويّة. ذلك بأن لوكنو تشتهر في الهند بأسرها بجمال احتفالاتها المؤثّرة.

إن السير هاري ويغ، حاكم «المناطق المتّحدة» يساوره القلق هذه السنة. فيوما التاسع والعاشر من محرّم، أيّ ذروة الحداد، يوافقان احتفال الهولي الكبير الذي يقيمه الهندوس بمناسبة حلول الربيع، ويخشى نشوب مواجهات بين الطائفتين.

والواقع أنّ أهل لوكنو أناس متسامحون، مقبلون على متع الحياة، ومحترسون احتراساً كبيراً من كلّ ما يتّسم بالجدّ، لا سيّما السياسة. لذلك لم تصل الاضطرابات، التي عصفت بكثير من مناطق الهند منذ سنوات، إلى هنا. على أن عدداً كبيراً من المسلمين يأسفون على هذا

التزامن بين المناسبتين، الذي سيمنعهم من المشاركة في الاحتفال الهندوسي جرياً على عادتهم كلّ سنة، بحيث يرشّون بعضهم بعضاً باللونين الوردي والأحمر، لوني اليمن والتفاؤل. كما أنّ كثيراً من الهندوس الذي دأبوا على متابعة مواكب محرّم، أسفوا على هذه المصادفة. ولم يكن سبب أسفهم الفرجة التي ستفوتهم، بل إجلالاً لشهيد كبير استرخص حياته من أجل عقيدته. وهم لا يأبهون بكون هذه العقيدة ليست عقيدتهم. فهم مقتنعون بأنّ الديانات على اختلافها إنّما هي «طرق متباينة تفضي إلى الغاية نفسها».

لكن خلال هذا الربيع من سنة ١٩٣٧، حيث أثارت انتخابات الحكومات الإقليمية المستقلة القلاقل في كلّ أرجاء البلاد، وحيث كان مؤتمر جواهر نهرو ورابطة محمد علي جناح الإسلامية يتواجهان حول تشكيل هذه الحكومات، كان من شأن أبسط حادث أن يتسبب في انفجار الأوضاع.

وهكذا قرّر السير هاري ويغ تطبيق القرار ١٤٤ القاضي بمنع حمل السلاح والعصيّ، وتعزيز الشرطة، ومنع التجمعات والمسيرات. ونظراً لاستحالة منع التظاهرات الدينية أيضاً، فقد اشترى للجيش أطناناً من الأسلاك الشائكة للفصل بين احتفالات الطائفتين. وهي فكرة أثنى عليها من استشارهم من الهنود.

إنّ السير هاري خبير بشؤون الهند التي عيّن للخدمة بها منذ عشرين سنة. فبخلاف معظم مواطنيه الذين يمرضون من الحرارة والرطوبة، لا سيما من رؤية حشود الأجساد المهزولة ذات النظرات الحادّة، يحبّ هو هذه الأرض الغريبة التي نعتها ذات مساء وقد حضره شيطان الشعر بـ«الجوهرة السوداء في قلب الإمبراطورية».

وإذا كان تعيينه حاكماً على لوكنو شرفاً ودليلاً على الثقة التي يحظى بها ـ لأنّ المناطق المتّحدة باشتمالها على الله أباد، مدينة آل نهرو، وعلى أليغار، أكبر الجامعات الإسلامية، الواقعة في قلب الحياة السياسية

الهندية ـ فإنه يُعدّ على المستوى الاجتماعي، بخلاف ذلك، إقباراً له. وقد كان بودّ السير هاري، لا سيما زوجته ليدي فوالي، لو عُيّن في بومباي أو دلهي أو حتّى كلكوتا. ذلك أنّ الجالية الإنجليزية خلقت لنفسها في هذه المدن الكبرى بيئة تتّسم بما يلزم من غرائبية، حيث الهنود ـ من يخالطون تلك الجالية على الأقل، وقد تخرجوا في معظمهم من الجامعات البريطانية ـ أقلّ تشبّثا بهويّتهم الهندية، وأميل إلى نمط حياة الإنجليز!

أمّا لوكنو فظلّت في المقابل محافظة على طابعها «المحلي» حفاظاً شديداً، والغريب هو أنّها تفخر بذلك. وما يأسف له السير هاري هو أنّ هذه المدينة كانت في الماضي منارة ثقافية في شمال الهند، حلّت محلّ دلهي التي عزل الجيش البريطاني ملكها «المغولي العظيم». فلوكنو التي اشتهرت باحتفالاتها المهيبة حيث يشارك أشهر الفنانين، واعتُبرت جوهرة حضارة «غانغا ـ جامني» ـ هما اسما نهري الغانج والجامنا اللذين يعبرانها، نهرا الذهب والفضة ـ تُعدّ رمز انصهار التقاليد الهندوسية والإسلامية، انصهار شجّعت عليه الطبقة الشيعية المهيمنة.

أمّا اليوم فلم تعُد غير عاصمة منطقة ريفيّة، رغم أنّ أمراءها ونوابها الذين يعشقون المسابقات الشعرية والحفلات الموسيقية، ما زالوا يحافظون لها على بريق ثمين واهن.

والسيد الحاكم لا يحضر هذه اللقاءات الموسيقية التي تطول وتطول، تُرتجَل فيها الأشعار، وتُنشد بصوت رتيب، فتغمر الحاضرين، وهم جميعهم رجال، بنشوة لا حدود لها.

في بداية إقامته بالهند، أراد السير هاري، بدافع الفضول وكذلك بحسن نيّة كانت تُضحِك مواطنيه، تعلّم الثقافة الهندية. لكن رغم معرفته العميقة باللغة الأوردية، ظلّ هذا الشعر مستغلقاً عليه، إمّا لأنّ عباراته لا تفهمها إلا الصفوة، أو لأنّ صوره لا توحي له بشيء، بل تبدو له مضحكة أحياناً. أمّا الموسيقى، فكانت تصيبه برغبة لا تقاوَم في النوم...

ثمّ ما لبث أن أدرك بأنّه لن يظفر بودّ الهنود، وبدرجة أقلّ احترامهم، بالإقبال على فهم أذواقهم واهتماماتهم وأسلوب عيشهم. أيعود هذا إلى الاستعمار الذي دام قرناً ونصف القرن، وعلّمهم الإعجاب بالقيم والأخلاق الغربية، رغم أنّهم يتمرّدون أحياناً، وعلى نحو غير متوقّع، على هذا الاستعباد الفكري؟ أم تراه الكبرياء الذي جعلهم يقدّرون ـ عن حقّ ربّما ـ أنّ الأجانب غير قادرين على استيعاب ما تتفتق عنه أنفسهم، نفوس غذّتها لآلاف السنين تقاليد وطرق تفكير بالغة الاختلاف؟

إنّ المبدأ الذي حكم المجتمع الهندي على مدى تاريخه هو أنّ لكلٍّ مكانه المحدّد.

وأجلى ما يظهر ذلك في نظام الطبقات الذي لا مهرب لأي هندوسي منه. هذه «القدرية» لم يجد لها السير هاري تفسيراً. فأن يولد الإنسان في طبقة نبيلة، كاهناً أو محارباً، أو أن يولد من المنبوذين، فذلك راجع حسب تعاليم الفيردا ـ أي النصوص المقدّسة ـ إلى أعمال ارتكبها في حياة سابقة، ومن ثمّة لا ظلم في ذلك. فلا يحقّ للمرء أن يتمرّد على قدره، لأنّ ذلك سيجرّ عليه مصيراً أسوأ، كأن يبعث دودة أرض أو صرصوراً. لكنّه إذا امتثل وقبل حياة النبذ، ورضي خاضعاً بالخزي والبؤس، قد يضمن في الحياة اللاحقة أن يكون من طبقة أوفى حظّاً.

إنّ هذا الأمر من الرسوخ في الذهنية الهندية بحيث حتّى المسلمين الذين تقوم عقيدتهم، شأن المسيحيّة، على المساواة، تأثروا بهذه المعتقدات، فنشأ عندهم بدورهم ما يشبه الطبقات، بحيث يكون المرء إمّا من الأشراف أو من الأجلاف، حسب انحداره من الفاتحين أو من الطبقة الهندية المنحطة التي أسلمت.

إنّ مثالية الشاب هاري ويغ وأفكاره الديمقراطية لا مكان لها في الهند، ومن ثمّة انتهى الأمر بالحاكم الإنجليزي إلى الاقتناع بأنّ هذه الحال هي الأفضل ربّما. فهي قمينة، على الأقلّ، بأن تضمن استقرار مجتمع يحبُل بكلّ بذور الانفجار.

فلكلّ مكانه، ومن العبث أن يحاول موظّف من موظفي صاحب الجلالة فهم ذهنيّة الهندي، مثلما كان من المتعذّر على السيد أن يفهم العبد في الماضي. فهذا ليس أمراً عبثياً فحسب، بل وخطيراً أيضاً. لكنّه لا يمنع من قيّام علاقات «وديّة» شريطة أن يفهم كلّ واحد إمكانيات اللعبة وحدودها. ومن فضل السماء أنّ كثيراً من هنود الطبقة الراقية استوعبوا «أسلوب الحياة» هذا!

والسير هاري يتباهى بأنّه نسج شبكة من العلاقات الشخصية المهمّة، بخلاف كثير من مواطنيه الذين يتفادون مخالطة الأهالي خارج العمل والاستقبالات الرسميّة. فبحكم تفتّحه، كان ناقماً على هذا الميز العنصري «لاسيما أنّه لولا لون بشرة بعضهم، لنسي المرء أنّهم هنود!» وهم ـ في معظمهم ـ أرستقراطيون تربّوا في إنجلترا، شأن راجا جهراباد ـ رئيس الحزب الوطني الفلاحي الذي يضم كبار ملاك الأراضي ـ وهو رجل في منتهى التهذيب، ينظّم رحلات رائعة لصيد النمر، أو نوّاب سيربور الذي لا يقدّم في عشاءاته سوى الشامبانيا الفرنسية، أو كذلك راجا بادالبور، الشابّ الألمعيّ، الذي حقّق نجاحين في نفس الوقت: انتُخب في المجلس التشريعي وتزوّج من أميرة عثمانية!

سحب السيد الحاكم نفساً عميقاً من غيلونه وهو يقول في نفسه: «أمير هذا، يا له من رجل! ينبغي أن أدعوه للعشاء. أنا متشوّق للتعرّف على سلطانته...».

وتوغّل الهودج في الدروب الحالكة وهو يتمايل تبعا لخطى الحاملين الخفيفة والرشيقة. وبداخله كانت سلمى تراقب من خلف الستائر المزركشة بخيوط الفضة: فهذه هي الليلة التاسعة من شهر محرّم، ليلة مقتل الحسين وآخر من بقي معه من المحاربين في كربلاء، وبذلك فنصف المدينة يسارع نحو الحسينية الكبرى للذكرى والبكاء والصلاة. يقصدها أيضاً الآلاف من سكان القرى المجاورة. فما من مكان آخر في الهند يُحتفل فيه بمحرّم بمثل هذه الأبهة والحماس مثلما يفعلون في

لوكنو، مركز الإسلام الشيعي منذ ١٧٢٤، منذ أن اتّخذها ملوك أود، ذوو الأصل الإيراني، عاصمة لهم.

اضطرّ الحمّالون إلى التوقّف على بعد أمتار من الحسينيّة بسبب الازدحام الشديد. صرخوا وضربوا وركلوا ودفعوا بمرافقهم لشقّ الطريق، لكن عبثاً. فحقّ المرور المعمول به لم يعد يُجدي نفعاً هذه الليلة. ما عاد ثمّة فرق بين الأمراء والسقّائين، وتحوّل الأمير إلى مجرّد مؤمن بين المؤمنين. ومن ثمّة على الراني ومرافقتها البيغوم النبيلة أن تترجّلا وتمشيا على الأقدام...

ابتهجت سلمى بهذه الفرصة. وبينما كانت تهمّ بالنزول من الهودج، سمعت صوتاً يذكّرها بالواقع:

- النقاب يا أميرة!

أوقفتها البيغوم ياسمين في الوقت المناسب. كانت ستخرج سافرة الوجه وسط كلّ هؤلاء الرجال! وغمغمت في مزيج من السخط والارتباك:

- نسيته، فأنا لم أعتد عليه.

فابتسمت رفيقتها.

- ستعوّدين عليه بسرعة، لا سيما حين ستكتشفين أنّ برقعنا هو في الحقيقة أداة للحرية.

أهذا السجن الحريريّ الأسود أداة للحرية وهو لا ينفتح على الخارج إلا بواسطة مستطيل مشبّك عند العينين؟ ماذا تقصد هذه المرأة الغريبة الأطوار؟

وأمسكت البيغوم بيد سلمى.

- كوني واثقة. أنا أعرف كم هي صعبة عليك هذه الحياة الجديدة، لكنّني بجانبك لأساعدك. أتقبلين صداقتي؟

ومضت تحدّق فيها. واندهشت سلمى من هاتين العينين الرماديتين

اللتين تشوبهما زرقة في هذا الوجه الكئيب. أهي جميلة؟ هي مثيرة للإعجاب على كلّ حال. امرأة في الخامسة والثلاثين تقريباً، طويلة القامة ونحيفة بخلاف النساء هنا، اللواتي لايكدن يتزوّجن حتّى يتضاعف وزنهنّ. تنبعث منها قوّة لا تستطيع سلمى أن تجزم فيما إذا كانت تثير الإعجاب أم القلق. أمّا أمير، فيبدو أنّه يُكبرها لأنّها زوجة أفضل أصدقائه.

قام الحمالون بشقّ ممرّ لهما في الزحمة بأجسادهم إلى أن بلغنا إلى عتبة الفناء الشاسع، وهو مكان مقدّس يتدفّق عليه الرجال والنساء للصلاة فيما يشبه سيلين أسودين منفصلين.

وفي أقصى الفناء تنتصب الحسينيّة متألّقة بكلّ أضوائها، تتلألأ في واجهتها المزيّنة بمئات الأقواس ثُريّات ذهبيّة وشمعدانات بلّوريّة. ذلك أنّ هذا الضريح الضخم يستيقظ من سباته مرّة في السنة، فينفض عنه الغبار ويتجمّل ويلبس زينته كملك في يوم تتويجه، احتفالاً بانتصار التضحيّة والموت.

«يا حسين! يا حسين!».

ويتعالى بالأناشيد الدينية صوتُ الحشود الحزين الأجشّ كالنحيب، حماسيّاً كصرخة حرب. وتشرع الأيدي تضرب الصدور في إيقاع بطيء يتسارع شيئاً فشيئاً، ثمّ ينطلق ويتحرّر إلى أن تصير الأجسام لاهثة والوجوه منتشية، فتلتهب المشاعر فجأة.

«يا حسين! يا حسين!».

وهكذا يتسارع الصخب، ويتعالى وتتقطع أجزاؤه، ويدور إلى أن يبلغ أعلى الصوامع والنجوم، ويتوغّل عميقاً إلى أن يصل إلى قرار القلوب. وترى النادمين يمشون على الجمر المتوهّج ببطء كما لو أنّهم يسيرون على بُسُط من الحرير. إنّها معجزة من معجزات الإيمان. أمّا الجمهور فيحبس أنفاسه وهو لا يكاد يصدّق ما يرى.

ثمّ يفرض مولانا الصمت من أعلى المنبر، ويجمع الحاضرين

بأكملهم في كفّ يده. ثمّ يشرع يذكّر بصوته القويّ بآخر لحظات حفيد النبي، وبوقائع المعركة الأخيرة، بالبطولة والدم الفائر من آلاف الجراح، وبضربة الرمح، أكبر تدنيس لأقدس المقدّسات، وما يثيره ذلك من اشمئزاز... وإذا بالجمهور المستغرق في الإنصات يأخذ في التنهّد والأنين، ثمّ يجهش بالبكاء إلى أن يوشك على الاختناق، فيهدّئه ويهدهده ويشلّه من جديد إلى أن يبلغ به إلى أقصى درجات الألم.

وسرعان ما تظهر جِمال مسرّجة بالأسود. يا له من بؤس! إنّها جمال قافلة الشهداء التي قتل كلّ رجالها، ولم يسلم من الموت حتّى رضيع في شهره السادس. أمّا النساء، نساء آل البيت، فأسرن...

ويُستأنف ترديد الأناشيد: «يا حسين!» على نحو عنيف يصمّ الآذان، وتعود الأيدي لتنهال على الصدور، وتمزق الأظافر اللحم إلى أن تبلغ المأساة ذروتها، ولا يعود لهذا الألم شبيهاً في الوجود...

أمّا سلمى فحاولت أن تقاوم بكلّ ما أوتيت من قوّة. شعرت بالامتعاض في بادئ الأمر: «هذا هو الهذيان الشيعي العبثي والهستيري. من حسن حظّنا نحن أهل السنة أنّ لا شيء من هذا في مذهبنا»، ثمّ بالسخرية: «لو أنّ صديقاتي الفرنسيات يرينني!»، وحتّى تغالب الرعشة المخاتلة التي تملّكتها، استغاثت عبثاً بذكريات بيروت السعيدة، واستنفدت مخزون فكرها الساخر، ودفعت ازدراءها لهذه الشعائر إلى حدّ التجديف. ولم تعد تقوى على تمالك دموعها المنهمرة التي حجبت بصرها. ولكن لماذا تبكي؟ لماذا؟ ما شأنها بالحسين! فهي لا تحمل له أيّ تبجيل خاص. حتّى لو كان الحشد يحتفل بعيسى أو بوذا بمثل هذا الحماس، لبكت على الأرجح مثلهم... ولم تعد تحاول التحكّم في نفسها، وأعرضت عن التفكير. استبدّ بها الانفعال، وجرف عقلها كالطوفان. لم تعد تشعر بنفسها غريبة، بل صارت تحسّ كما لو أنّها من صميم هذا الحشد، منصهرة في جسمه الضخم النابض، محمولة بسلام بعيداً عن نفسها.

وطلع الفجر كاشفاً عن وجوه شاحبة منهكة، مؤذناً بنهاية الليلة. لقد حان وقت الخلود للراحة، لكن لساعات فقط، قبل أن يُستأنف الاحتفال.

ـ لا مجال للخروج اليوم يا عزيزتي. ليست هذه الليلة كالبارحة. الظلام البارحة كان دامساً، ومن ثمّة ما من أحد كان يستطيع أن يراك، هذا فضلاً على أنّني ما قبلت بخروجك أمس إلا لأنّ بيغوم ياسمين رافقتك. فهي امرأة حكيمة، وأنا أعلم أنّه لن يمسّك مكروه معها. لكن هذه الليلة لا يمكن أن تجازف سيّدة من المجتمع الراقي، مهما كانت، بالخروج إلى الشارع.

ـ مع أن الاستعراض سيكون رائعاً؟

ـ فعلاً، فمواكب الولايات، بما فيها موكبنا، باهرة، لكنّ جحافل الهمج والبدائيين الذين يتبعون المواكب يفسدون الفرجة. أمّا إذا كنت مصرّة على متابعة الاستعراض، فما عليك إلا أن تجلسي على نحو مريح في الشرفة الرئيسية، وتتابعي ما يجري كما يحلو لك. ستلحق بك ولا شكّ أختي الكبرى. لست أفهم لماذا تعشق النساء رؤية الدماء؟...

وقبل أن تتمكّن سلمى من الردّ، كان الراجا قد اختفى. هزّت كتفيها. لو رآها تبكي الليلة السابقة لحسبها قطعاً مجنونة! يا له من كائن محيّر! أتراه جاهل حقّاً بمشاعر شعبه، وعديم الإحساس كما يتظاهر بذلك؟

كانت أرجاء الشرفة قد احتشدت بخدم الراني عزيزة. فقد احتللنها منذ الساعات الأولى من الصباح حتّى لا يفوتهنّ شيء من الحفل. ومضين ينتظرن بعيون متألّقة وشفاه لا تكفّ عن الثرثرة. ودّت لو تتفادى لقاء الراني عزيزة، لكنّ مكانها الشرفي كان معدّاً سلفاً بجوارها. وعندما ظهرت الراني بلباسها الأسود، لم يسعها إلا أن تلبي دعوتها الصامتة.

وسرعان ما انتهت إلى سمعهنّ من بعيد أصوات الطبول الجنائزية، ثمّ لمحن سحابة غبار، وإذا بالفيلة تتقدّم مجلّلة بالسواد، يعتليها رجال

يحملون أعلام الولايات، يلوّحون بها في الهواء، كما يحملون الألوية التي غُنمت في ميادين المعارك، ووُرثت جيلاً عن جيل.

ثمّ تبعهم الفرسان على الجمال البطيئة، يرفعون رايات مقدّسة طرزت عليها آيات قرآنية تعلوها كفّ برونزية مفتوحة. أهي كفّ العباس، أخو الحسين غير الشقيق الذي قطعت يداه بينما كان عائداً من حملة لجلب الماء للعطشى المحاصرين؟ أم تراها أصابع اليد الخمسة، رمز الخماسي الشيعي: النبي محمد وابنته فاطمة وزوجها عليّ وابناهما الحسن والحسين؟ لا أحد يستطيع أن يجزم بالجواب. ثمّ، ما أهميّة ذلك بالنسبة لحشد متزاحم مندفع؟

وتظهر فرقة موسيقية تلفت النظر بلون لباسها: سترة حمراء وعمامة موسلين سوداء، وهم يردّدون مراثيهم التي هي عبارة عن شكوى رتيبة، يتقدّمهم ذو الجناح، فرس الحسين الرائع الفريد، يسير منكّس الرأس، منهكاً ويائساً وقد تضرّجت ذؤابته بالدم.

وما إن يراه الحشد حتى يهبّ للمسه في اهتياج. فهو آخر من رافق الإمام. كما يهبّون للمس الضريح، وهو مجسّم مصغّر لقبر الحسين بكربلاء، يُصنع من الشمع الملوّن أو من ورق الذهب والفضة، ولمس مهد الرضيع المقتول والأعلام الملطّخة بدم الشهداء. إنّهم بحاجة إلى أن يتمثّلوا احتضارهم، ويتشبّعوا بتضحيتهم. وبينما يحاكي المنشدون موت الأبطال ويتغنّون بها، تهوي الأيدي على الصدور بضربات مؤلمة.

ثمّ يأخذ موكب المتفجّعين المؤلّف من رجال ومراهقين وأطفال عراة الجذع، يمسكون في أيديهم سياطاً وسلاسل تنتهي بخمس شفرات مشحوذة، في الاقتراب. وما إن يصلوا تحت الشرفة حتّى يتوقّفوا، ويروح الحشد يهتف:

ـ يا حسين!

فيجيبه الموكب:

ـ يا حسين!

وبحركة واحدة تنهال السلاسل على الظهور العارية، وتشقّ المُدى اللحم، فيفور الدم.

ـ يا حسين! وبينما يتسارع إيقاع الهُتاف، تشتدّ الضربات أكثر فأكثر، فتتحوّل الخدوش إلى جراح، وينزف الدم حتى يسيل على الساقين، ويتجمّع فيما يُشبه بِركاً سوداء على الرصيف.

ـ يا حسين!

وينهار رجل، وقد شحب لونه، ثمّ يتلوه آخر، وهو ما يزال طفلاً يافعاً، فيُحملان على نقالتين مُرتجلَتين. وتتضاعف الضربات، ويشرع النائحون في ضرب صدورهم بأيديهم على نحو محموم وهم يلهثون، لا يرون ولا يسمعون سوى آلامهم ومحاولاتهم المجنونة اليائسة لتحطيم الجسد، وبلوغ الحالة القصوى التي يتّحدون فيها بالواحد.

متّى سيكفون عن هذا؟ تكوّمت سلمى على نفسها وقد توتّرت أعصابها وهي لا تستطيع تحويل بصرها عن هذا المشهد. تشعر بطعم الدم في فمها، ويتملّكها الغثيان، فهل سيغمى عليها؟ بجوارها جلست الراني عزيزة هادئة الأعصاب، ترتشف من فنجان الشاي بينما تعلّق خادماتها على ما يجري وهنّ يتناولن الحلوى ومعجون الفواكه. لم تعد سلمى تحتمل فقامت من مكانها لتغادر، لكنّ يد الراني الصلبة أجبرتها على الجلوس من دون أن تنظر إليها وقالت بنبرة آمرة، وعيناها شبه مغمضتين وقد علت وجهها ابتسامة غريبة:

ـ لم ينته الاستعراض بعد. ينبغي أن تتفرّجي حتّى النهاية.

صمت الحشد في الخارج بينما كفّ هؤلاء الرجال عن ضرب أنفسهم ريثما يلتقطون أنفاسهم. وراحوا يبتعدون وهم يمسحون جروحهم لكي يستأنفوا احتفالهم الدامي تحت شرفة أخرى، حيث تجلس نساء أخريات يتفرّجن ويقضمن الحلوى.

ـ يا حسين!

وفي هذه المرّة لم يعد الأمر يتعلّق بهتافات التمجيد وصيحات الحرب، بل بهمهمة واهتزاز طويل مشوب بالإجلال والخوف. ثمّ ظهر نفر من الرجال يُشهرون سيوفاً. وبينما استغرقوا في التأمّل، لاذ الحشد بالصمت.

«أيّها القيصر، المقبلون على الموت...»[١]، وتهزّ سلمى رأسها بضيق: لماذا ترهقها هذه الجملة؟ وبحركات محكمة، راحت السيوف تهوي على الجماجم، وتشقّ فروات الرؤوس، فيسيل الدم على العيون والأنوف، ويحجب النظر ويخنق الأنفاس. وترتفع الأذرع بصمت من جديد ثمّ تضرب، فتزداد بقعة الدم سُمكاً حتّى ليتعذّر على الناظر تمييز العيون الجاحظة في الوجوه. وينزلق أحد السيوف، فيبتر أذناً، ولم يعد يبدو غير ثقب أسود يفور منه سائل أحمر. عندئذ يتسمّر الحشد في مكانه ويحبس أنفاسه.

وعند ضربة السيف الثالثة، يخرّ رجل أرضاً بلا حراك وقد فلقت هامته.

ويتعالى صفير حادّ، وتظهر جماعة من الجنود تستعمل عصيّها لشق الطريق وسط الحشد، وتنقض على الرجال المغشي عليهم فتُحكم وثاقهم، وتسوقهم إلى سيارات عسكرية قبل أن يستوعب المتجمهرون ما حصل.

فعلّقت الراني:

ـ كان عليهم أن يتوقّعوا هذا! فالحكومة منعت هذه الأمور بسبب كثرة الوفيات كلّ عام. ولكن كيف لها أن تمنع من يرغبون في الموت؟

إنّها فكرة لا معنى لها بالنسبة لسلمى التي علاها الشحوب بينما كانت تتقيّأ في المبصقة المرصّعة...

---

(١) العبارة كاملة هي: «مرحباً أيها القيصر، المقبلون على الموت يحيّونك»، يُزعم أن المصارعين كانوا يردّدونها أمام القيصر قبل الشروع في القتال. (المترجم)

قالت في نفسها وهي جالسة أمام منضدة زينتها:

ـ يا لها من فكرة غريبة أن يختار السير هاري دعوتنا هذا المساء! ألا يعلم أنّ هذا هو يوم الحزن الكبير؟

تجمّلت وتعطّرت، وكانت متوتّرة: فهذه هي خرجتها الأولى منذ زواجها!

قال أمير ساخراً وهو يحاول أن يعقد ربطة عنقه بعد أن فشل مرات عدّة:

ـ لعلّ هذه الدعوة ضرب من الدعابة الإنجليزية.

لقد اختار هذا المساء أن يلبس على الطراز الأوروبي، لأنّ الأمر لا يتعلّق باستقبال رسمي، بل بعشاء بين الأصدقاء، وإن كان لا يشعر بالراحة في هذا اللباس. في المقابل سترتدي سلمى الساري، وهو عبارة عن قطعة حرير سميك أزرق فاخر. أمّا الغرارا، مهما كانت فاخرة، لا تليق بمثل هذه المناسبات، لأنّها ستبدو مغرقة في التقليد، بل تجاوزها العصر. ذلك أنّ المسلمات العصريات في المدن الكبرى تخلّين عنها واخترن الزيّ الهندوسي، معبّرات بذلك عن سعة أفق يقدّرها أمير بحكم أنه رجل عصري وعلماني.

بدت إقامة الحاكم في أقصى الحديقة الواسعة متألّقة بأنوارها. وعلى طول درج المدخل وقف حرّاس معمّمون، بسحناتهم الجامدة. إنّهم من سيباعية[1] الجيش الهندي، حفدة أولئك الذين ثاروا هنا في لوكنو سنة ١٨٥٧، وفتكوا بالحامية العسكرية الإنجليزية، مشعلين بذلك شرارة المعارك التي ألهبت شمال البلاد.

وقالت سلمى في نفسها وهي تتفرّس نظراتهم الساهمة:

ـ فيم يفكرون؟ ولمن يحفظون ولاءهم؟ كيف لهم أن يعملوا تحت

---

(١) تعريب كلمة cipayes التي تطلق على جنود الجيش البريطاني من الأهالي بالهند.

إمرة البريطانيين اليوم، في سنة ١٩٣٧ بينما تطالب الهند كلّها بالاستقلال؟

لكنّ السير هاري ويغ لا يخامره شكّ في هذا الأمر. قال موضّحاً وقد علت محيّاه ابتسامة ماكرة:

ـ هؤلاء الرجال مخلصون لنا. ثمّ إنّ الهنود مسالمون. وهم إن جنحوا للحرب، يفضّلون مقاتلة بعضهم بعضاً.

واستغربت سلمى كيف أنّ لا أحد من هؤلاء الرجال اعترض، واكتفوا بالضحك، بل شعرت بالخجل مكانهم.

ومع ذلك بدأت السهرة بداية حسنة، إذ قُدّم فيها معجون الكبد والخمر والديك البرّي المسقيّ بخمر البورغوني. فالسيد الحاكم يعرف كيف يكرم وفادة ضيوفه. ثمّ إنّه بالغ التأنّق مع النساء! وكانت سلمى قد كادت تنسى السرور الذي تبعثه مخالطة الرجال في نفس المرأة، لا سيما لمّا تقدح في عيونهم تلك الشرارة المتّقدة! فتشعر بأنوثتها من جديد.

ولكن لماذا بدأوا الحديث بالسياسة؟ والسير هاري الذي ألِفَته قبل قليل ذكياً، بل جذّاباً، بدا لها فجأة مغروراً ومتغطرساً. ها هو يتحدّث الآن عن مُحرّم، ويجرؤ، أمام هؤلاء الأمراء المسلمين، على نعت الشيعة، بل الإسلام برمته، بالتزمّت!

وإذا كان راجا جهراباد، الذي يتبجّح بمعرفة مصدر كلّ أنواع الويسكي أكثر من أيّ اسكتلندي، لم يعترض عليه، فماذا عن راجا ديلواني ونوّاب ساهربور؟ رغم تضايق هذين النبيلين المتشبّعين بالعادات البريطانية، واللذين ما زالا متشدّدين في فرض الحجاب التقليدي على زوجتيهما، لاذا بالصمت هما أيضاً.

ـ وأنت يا أمير، أنت من أعتبرك ذا فكر عقلاني، ما رأيك؟

ـ إنّ شعبنا يا سيّدي ما زال جاهلاً، لهذا فهو شديد التشبث بدينه. ليس له مرجع آخر غيره...

ثمّ صمت. لم يجد داعياً لأن يوضّح أكثر.

ويتواجه الرجلان بالنظر، فيتردد الحاكم وتلوح على محيّاه ضحكة مغتصبة.

ـ لو كان هؤلاء الذين يطالبون بالاستقلال مثلك يا عزيزي، لمّا تردّدنا في المغادرة ونحن مطمئنين على أنّ بلدينا سيظلان صديقين، يشتركان في نفس المصالح ونفس المثل العليا. لكن مع هؤلاء المخابيل الذين يقودون اليوم الحركة التي ينعتونها بالوطنية، يتحتّم علينا أن نحمي شعبكم من نفسه.

أحنى أمير رأسه قليلاً، وقال:

ـ هذا كرم بالغ منكم سيدي الحاكم.

وتدخّل رجل شاب جالس في أقصى المائدة، لفت انتباه سلمى بكونه الوحيد الذي يرتدي الشرواني، قائلاً:

ـ نحن نقدّر الاحتياطات التي اتّخذتموها يا سيدي لمنع المواجهات بين الهندوس والمسلمين. لكن هل انتبهتم إلى أنّ عيد الفصح سيحلّ بعد يومين؟ وهل طُوّقت مسيراته بالأسلاك الشائكة أيضاً؟

قال هذا بمنتهى التهذيب وبغاية البراءة، لكنّ الحاكم امتقع مع ذلك، وردّ بجفاء:

ـ لا صلة لهذا بالموضوع.

عضّت سلمى على شفتيها، ونظرت إلى الشاب في أقصى المائدة وابتسمت له ثمّ انضمت إلى المعركة قائلة بصوت ناعم:

ـ هل صحيح يا صاحب السعادة أنّ المسيحيين الذين يكفّرون عن ذنوبهم في إسبانيا ينزلون إلى الشوارع ويجلدون أجسادهم إلى أن تنزف إحياء لذكرى موت المسيح مثلما يحيي الناس هنا ذكرى موت الحسين؟

فأجاب السير هاري بصوت متلعثم من شدّة الحنق:

ـ الفرق كلّه كامن في التفاصيل الدقيقة، وأخشى أن تكون غائبة عنك في هذه المسألة.

يا لها من طريقة رائعة لإنهاء النقاش! هذا هو سرّ برودة أعصاب البريطانيين: الوثوق بالتفوّق على المخاطب بحيث لا تعود ثمّة حاجة للنقاش. لو كان الرجل فرنسيّاً ـ وتذكّرت سلمى الفرنسيين الذين عرفتهم في بيروت ـ لكان استشاط غضباً. وبما أنّه أقلّ ثقة بذاته، كان سيدافع بكلّ ما أوتي لكي يقنع، ولبدا مضحكاً على الأرجح، لكنّه سيكون ألطف بكثير...

ـ وكيف وجدتم مباراة البولو الأخيرة؟

أجل البولو... الذي لم يفكر فيه أحد لأنّهم انشغلوا بمناقشة التفاهات. وإذا بكلّ الحاضرين يتحمّسون، ونسي الحاكم غضبته.

كان العشاء على وشك أن ينتهي، فانسحب الرجال، تبعاً للعرف، إلى قاعة التدخين بينما توجّهت النساء إلى الصالون الصغير، حيث ستقدّم لهنّ الليدي فيوليت مشروب البابونج. وباستثناء ربّة البيت، لم تعرف أي من تلك السيدات من تكون هذه الشابّة الحسناء ذات النبرة الفرنسية، التي خاطبها الحاكم بكثير من الاحترام. مهما تكن، فقد دعاها بـ«الأميرة»، وهذا كاف لتبدو لهنّ فاتنة، تنبغي دعوتها. ذلك أنّه لا توجد هنا كثير من وسائل التسلية!

تجاسرت امرأة شقراء ضئيلة، أكثر فضولاً من الأخريات، وسألت:

ـ هل تركت فرنسا يا أميرة ـ ما أعذب نطق هذه الكلمة! ـ منذ زمن بعيد؟

نظرت إليها سلمى بذهول وقالت:

ـ لم أذهب إلى فرنسا قطّ.

وأمام اندهاشهنّ أضافت:

ـ أظن أنكنّ ظننتنّ ذلك بسبب نبرتي. الحقيقة أنّني نشأت في بيروت.

فتنهّدت امرأة وقالت:

ـ آه! بيروت! إنّها باريس الشرق الصغيرة! لقد نجح الفرنسيون حقّاً في تمدين هذه الحاضرة. لعلّ السيد أباك كان موظفاً سامياً أو ديبلوماسياً، أو ربّما ضابطاً؟

فأجابت سلمى من دون أن تعرف مناسبة هذا الحديث:

ـ أظنّ أنّ أبي لم يفعل في حياته شيئاً آخر سوى العناية بخيوله.

وأمّنت السيدات على كلامها قائلات: بالطبع، فهو أمير...

ـ ما هو إلا داماد، أمّي هي السلطانة.

ما معنى داماد وسلطانة؟ ما معنى هذا؟ أتُراها تسخر منّا؟...

ـ فأنت لست فرنسية إذن؟

ـ لا طبعاً. أنا تركيّة.

تركيّة! فتتغضّن الأفواه ازدراءً: تركيّة! لقد هزأت بنا. ولكن من أين أتت بهذه البشرة ناصعة البياض؟ فمن المعروف أنّ بشرة الأتراك تضرب إلى السمرة. لا شكّ أن أمّها سافحت أحد جنودنا أيام كنّا نحتل الأستانة...

وإذا بامرأة طيّبة تهبّ إلى نصرة هذه الشابة المسكينة ومساعدتها للخروج من هذا الموقف الحرج، فسألتها:

ـ تقصدين أنّك تركية من أصل يوناني مسيحي؟

فهتفت سلمى مستنكرة:

ـ إطلاقاً. أنا تركية مسلمة مائة في المائة. جدّي هو السلطان مراد.

لم يحرّك هذا ساكناً في الحاضرات. إذ التركي المسلم بالنسبة لهؤلاء البورجوازيات الإنجليزيات، حتّى لو كان سلطاناً، لا يمكن أن يبلغ أبداً كعب أيّ مواطن بريطاني.

وسألت إحداهنّ بنبرة مشفقة:

ـ وماذا تفعلين هنا بمفردك؟

ـ لست بمفردي. أنا متزوّجة.

إذا كان الأمر هكذا، فمن الممكن إذن معاشرتها. لا شكّ أنّ زوجها فرنسي.

ـ أنا زوجة راجا بادالبور.

زوجة أحد الأهالي إذن! أجل... ماذا بوسع تركيّة... مسلمة أن تأمل أكثر من هذا؟ وأعرضن عنها. وإذا بهنّ ينتبهن إلى أنّ ثمّة العديد من الأمور الشخصية التي تستحقّ الاهتمام، ويستغرقن في الحديث عنها. ولم تعد المرأة اللطيفة تتجاسر على التحدّث إليها خوفاً من سخط صديقتها، وانشغلت بما تعمله من تطريز.

لم يسبق لسلمى أن واجهت عنصرية صريحة كهذه حتّى لما كانت في بيروت. انذهلت لذلك في بادئ الأمر، ثمّ كتمت ابتسامة وهي تفكّر بأنّ مثل هؤلاء النسوة، زوجات الموظّفين، ما كنّ ليحلمن بمجالستها أيّام كانت في الأستانة. إنّه فعلاً أمر غريب...

غريب؟

وفجأة استحوذ عليها الشكّ، ولم تعد واثقة من ذلك... من حسن حظّها أنّها تربّت على كبرياء مقامها ومحتدها. ولكن ماذا عن أولئك الذين غُرس في نفوسهم، جيلاً بعد جيل، الشعور بدونيتهم؟ أولئك الذين أقنعوهم بأنّ لون بشرتهم ومعتقدهم ونمط حياتهم المختلف يحطّ من شأنهم، ويجعل منهم نصف آدميين...؟

ولم تعد سلمى ترغب في الضحك. فقد كان الأوروبي بالنسبة إليها حتّئذ الخصمَ الذي يُقاوَم بأسلحة مماثلة لأسلحته، أو قريبة منها. وإذا كانت الشعوب المستعمرة هُزمت، فبسبب عوامل ملموسة وقابلة للقياس، من قبيل ضعف تجهيزها، وإفلاس اقتصادها، وارتكابها أخطاء سياسية أو استراتيجية، أيّ أن الهزيمة يمكن إرجاعها لأي سبب مقبول. لكنّها اكتشفت فجأة خلال هذه السهرة الخزي والفضيحة: شعب يخضع لا لشيء إلا لأنه مقتنع في قرارة نفسه بدونيّته. ورغم أنّه يجهر بالعكس،

ويقول إنّه شعب يطالب بالاستقلال، فهو فاقد روحه، كلّ طموحه هو التشبّه بأسياده الذين يزعم توقه إلى التخلّص منهم.

كرِهَتهم كلّهم: أميراً وأصدقاءه المتشبهين بالبريطانيين، وكذلك السير هاري الذي شرّفهم بصداقته، والليدي فيوليت، التي تفضّلت وأشفقت عليها في هذه اللحظة، وقبلت مجالستها والتحدّث إليها. ما من مرّة شعرت بمثل هذه الكراهية.

قال لها أمير وهما في طريق العودة إلى القصر:

ـ ينبغي أن تحترسي يا عزيزتي. رأيتك تبتسمين لذلك الهندي الشاب. أنا متأكّد أنّك فعلت ذلك بكلّ براءة، لكنك لا تعرفين هؤلاء الناس، فهم سرعان ما تلعب الأوهام برؤوسهم.

هؤلاء الناس...

لم تحدث شجارات في مهرجان الألوان بلوكنو. في المقابل تعدّدت أعمال الشغب في المدن والقرى المحيطة. ذلك أنّ مواجهات وقعت بين المسلمين والهندوس في باطنا وباريلي وراتناغاري. تواجهت الطائفتان في كلّ مكان، هنا لأنّ فرقة موسيقية هندوسية عزفت «عمداً» بالمزمار والطبل أمام مسجد بينما كان المؤمنون يصلون، وهناك لأنّ شباناً رشّوا، في غمرة حماس حفل الربيع، مواكب العزاء بالمساحيق الملوّنة. على أنّ الحادث الأخطر وقع قرب أورونغاباد لمّا طوّق ثمانمائة هندوسي مسلّحين بالعصيّ والمذاري قرية مسلمة ذبح أهلها ثوراً احتفالاً بنهاية محرّم. وقد أُنقذت القرية في آخر لحظة بفضل تدخّل البوليس، لكن بعد أن سقط عشرون شخصاً بين قتيل وجريح. وقد أدان الرأي العام المسلم نهرو الذي أعلن أنّه «لا يستطيع أن يمرّ أمام مسلخ ويواسي كلّ الناس المرهفين الذين يشمئزّون من ذلك». كما أنّه اتّهم غاندي بلزوم الصمت، وعدم الدعوة إلى نبذ العنف إلا اتّجاه الإنجليز.

هكذا كان التعصب يشتدّ والضغائن تتراكم لدى الجانبين معاً.

٥

تنعكس أشعة الشمس الغاربة على صفحة الماء في النافورات، فيبدو ذهبي اللون. وها هي سلمى مستلقية على الرخام الأبيض تستمتع بطراوة المساء. ففي هذه الحديقة الداخلية، وهي الأخيرة بعد أجنحة النساء، لم تعد الخادمات يأتين لإزعاجها. لذلك جعلت منها ملاذها الذي تحلم فيه وتبكي وتكتب رسائل إلى أمّها تحدّثها فيها عن سعادتها.

اليوم تحل ذكرى مرور شهرين على زواجها... لقد مضيا بسرعة!... وتملّكها الجزع فجأة، فانتصبت وهي تتساءل عمّا تفعله هناك، وعمّا تصنع بحياتها... حياة ليس فيها إلا الشاي ونساء كثيرات لطيفات لا جامع بينها وبينهنّ، وابتسامة زهرة ومناوشات الراني. ثمّ هناك... أمير. أمير النهار وأمير الليل، الراجا الساحر، الرجل المهذّب المشغول بالسياسة وتدبير شؤون ولايته، وهذا الجسم الضخم الغامق الصامت النّهم اللامبالي. فمنذ صدمة الليلة الأولى اعتادت على تلك الكلمة المريعة...

لكن ماذا بوسعها أن تفعل إذا كان زوجها مصاباً بالصمم والبكم والعمى؟ وتناهى إلى سمعها وقع خطوات على الأرضية. من يجرؤ على...؟

ـ آه، هذا أنت يا زينيل؟ زينيل الطيب، لماذا هذه السحنة الكئيبة؟

ـ الهموم يا أميرة. السلطانة وحدها في بيروت، وصحّتها...

مسكين زينيل، ما أشدّ قلقه! هناك قلفاوتان تعنيان بأنيدجيم ليل

نهار، لكن صحيح أنّها صارت منذ مرضها مثل ابنته. ولم تتمالك سلمى نفسها من معاكسته، فقالت:

ـ أترغب في التخلّي عنّي؟ ألم تعد تحبّ سلماك؟

تورّد وعضّ على شفتيه، فندمت على قولها.

ـ لا تغضب، مجرد مزاح. أنا أيضاً أظنّ أنّ عليك أن تعود إلى بيروت. سأطمئنّ أكثر إن كنتَ مع أمّي.

نظر إليها وقد بدا عليه اليأس.

ـ وأنت يا أميرة؟

ـ وما لي أنا أيّها العجوز المغرور؟ أتحسب أنّني لا أستطيع الاستغناء عنك؟

وضحكت ضحكة بادية التكلّف.

ـ ألا ترى كيف أنّني مدلّلة؟ أخبر أنيدجيم بأنّني زوجة في منتهى السعادة.

وترقرقت الدموع في عيني زينيل.

ـ عديني على الأقل بأن تخبريني إن لم تمض الأمور على ما يرام، فأعود فوراً.

ـ أعدك، ولكن كفّ عن تعذيب نفسك، وإلا غضبت. وأنت تعلم يا زينيل أنّني إن غضبت... أما زلت تذكر غضباتي لمّا كنت طفلة؟ كنت تقول بأنّ أنفي يستطيل، وأنّني أعود أشبه السلطان عبد الحميد... فاهدأ... تعال اجلس إلى جانبي، وقل لي: أتظنّ أنّنا سنعود يوماً إلى الأستانة؟

يصمت زينيل وهو يعرف أنّها لا تنتظر جواباً، وأنّها إنما تحتاج إلى استعادة ذكرياتها. فهو هنا صلتها الوحيدة بالماضي، ولهذا سيترك غيابه فراغاً في حياتها، ولهذا أيضاً حريّ به ربّما أن يرحل.

ـ نسيت، السيدة غزاوي تريد أن تتحدّث إليك.

ـ أتريد أن تغادر؟ هي محقّة، ليس لها ما تصنع ها هنا.

ذلك أنّ الأمر انتهى بسلمى أن ضاقت ذرعاً بانتقاداتها وتبرّمها المستمرّ. ومنذ أن أنّبتها زهرة بشدّة، وعاتبتها على إثارة الفتنة والشقاق، وهي متجهّمة. والواقع أن سلمى ترغب في قرارة نفسها أن تبقى بمفردها، لأنّها اختارت أن تعيش هنا، ومن ثمّة عليها أن تترك الحنين للضعفاء والأغبياء. إنّها تريد أن تكافح، لا سيّما أنّ هذا البلد يحتاج لأمور كثيرة. لا ينبغي أن تلقي بالاً للراني عزيزة! فالراني الآن هي سلمى.

كاد أن يفوتهما القطار. ذلك أنّ حقيبة فقدت ثمّ عُثِر عليها في آخر لحظة جنّبت ذرف كثير من الدموع. ها هما الآن قد أخذا مكانهما على متن القطار، وعلى الرصيف وقفت سلمى منتصبة في حرارة شهر مايو/ أيّار الخانقة، باسمة لهما. أمّا أمير فلم يفهم لِم أصرّت زوجته على مرافقة «خدمها» إلى المحطّة. مسكين أمير!

ولمّا همّ القطار بالانطلاق، أطلّ زينيل من النافذة بعينين منتفختين، وراح يلوّح بمنديله وهتف:

ـ إلى اللقاء يا أميرة... إلى اللقاء! إلى اللقاء!...

وشعرت سلمى بغصّة في حلقها، ألأنّهما غادرا أم لأنّها لم ترافقهما...؟

أمسكت بيغوم ياسمين بيدها، وشدّت عليها بلطف وقالت:

ـ لا تحزني، فلديك أصدقاء هنا.

التفتت سلمى إليها. كانت قد نسيت وجودها، مع أنّها هي من يسّرت لها المجيء إلى المحطة بفضل تدخل زوجها الذي أقنع الراجا.

ـ أفهم ما تشعرين به من جزع. فكلّ شيء جديد هنا بالنسبة إليك. إنّ أمير في غاية اللطف، لكنّه حادّ الطبع. تعالي عندي كلّما شعرت بالوحدة، سيسعدني ذلك.

وقالت سلمى في نفسها: «يا لتفاني هذه المرأة! مع أنّني لم أطمئنّ إليها أوّل الأمر».

صارت سلمى في الأيّام الموالية كثيرة التردّد على البيغوم ياسمين، لتملأ ما كانت تعيشه من فراغ في أوّل الأمر، ثمّ أخذت تجد متعة في ذلك لاحقاً. كان الجوّ في بيتها أروق وأهمّ من أجواء القصر.

وقد عرفت البيغوم، وهي امرأة ذكية ومحبّة للاطلاع، كيف تجمع حولها عدداً من النساء المثقفات. وهي نفسها لا تنتمي إلى الأرستقراطية، بل إلى عائلة من الجامعيين والكتاب المشهورين، وزوجها هو أفضل محام في لوكنو بلا منازع، وقد حصّل ثروته من عرق جبينه. وهو الآن بالغ الثراء، وكلّ شيء في مسكنهما الفاخر يدّل على ذلك، لكن على نحو عصري ومريح، وفق الطراز البورجوازي الذي لا يثقل نفسه بالموروثات. ولولا التزام البيغوم بالبرقع، واقتصارها على استقبال النساء دون الرجال في بيتها، لظنّت سلمى أنّها في بيروت.

وقد سرّ أمير بهذه الصداقة الجديدة: فزوجته الشابّة بدأت تتأقلم وتتكيّف مع إيقاع الحياة ومع عادات المجتمع. ثمّ إنّه لم يعد يجد الوقت هذه الأيام للعناية بها. فتدبير شؤون الولاية يشغل كلّ وقته.

فلكي يظفر حزب المؤتمر بأصوات الفلاحين، شرع يوغِر صدورهم على الأمراء الذين يصوّرهم كأنّهم أعداء التحرير. وقد كثّف دعايته في المناطق التي رفضت فيها الطبقة الحاكمة، المسلمة في معظمها، السياسة القائمة على الديانة الهندوسية، واعتبرتها خطرة، وانصرفت من ثمّة إلى الرابطة الإسلامية بزعامة علي جناح.

وقد تمرّد كثير من الفلاحين على الإدارة، وامتنعوا عن دفع الضرائب. بل إنّهم عمدوا في المحافظة المجاورة لبادالبور إلى نهب مخزون القمح. أمّا في بادالبور، فكلّ شيء يبدو هادئاً الآن، لكنّ استعلامات الراجا نبّهته إلى أنّ بعض الأشخاص الغرباء بدأوا يعقدون اجتماعات سرّية.

أخبر الراجا زوجته بما يشغله، فهتفت مستغربة:

ـ لماذا لا تذهب بنفسك لتقف على حقيقة الوضع وتتحدّث إلى الفلاحين؟

أضحكته براءتها، فقال:

ـ أتحدّث إلى الفلاحين؟ ماذا أقول لهم؟ بأنّ ثمّة من يحرّضهم؟ لن يصدقوني. هذا سيُخِلّ بما بقي من توازن، وسيؤكّد لهم بأنّني قلق. وهو أمر سيستغلونه: فحتّى أشدّ الناس خضوعاً يتجبّر حين يلمس في سيّده ضعفاً. كنت أظنّك تعلّمت هذا من تاريخ الإمبراطورية العثمانية.

ـ بل تعلّمت أنّ السلطان لو كان قريباً من شعبه، لما أطاح به كمال... أخشى أنكم ترتكبون هنا الخطأ نفسه!

وأحنى أمير على سلمى بحركة غير متوقّعة، مفعمة بالحنان، وقال:

ـ لعلّك ترينني طاغية، أليس كذلك؟ مع أنّني كنت أشدّ مثالية منك فيما قبل...

كان لا بدّ من وقوع أحداث أخطر بكثير من الشغب والاضطرابات الدينية، ومن تمرّد الفلاحين. وقائع لا يمكن تصوّرها، لكي يستيقظ مجتمع لوكنو من غفلته. إنّه موسم منافسات الطائرات الورقية. فقد بدأت تدور في السماء منذ أسبوعين معارك ضارية تستهوي كلّ المدينة. فما من أسرة أميريّة، وما من بيت أرستقراطي لا يشارك فيها. ولوكنو مشهورة بهذه المنافسات التي تدوم شهوراً أحياناً، يأتي الناس لمتابعتها من أماكن نائية.

على شرفة البيغوم ياسمين المفروشة بسجّاد خراسان جلست نساء يتجاذبن أطراف الحديث وهنّ يراقبن السماء. لم يسبق لسلمى أن رأتهنّ في مثل هذا الحماس، يدلّ بعضهنّ بعضاً على طائرة راجا مهرار الورقيّة، الموشاة بهدب من ورق الذهب الرفيع، والمزينة بأوراق نقدية من فئة عشر روبيات. ويقضي العرف بأنّ من أمسكها يحقّ له الاحتفاظ بها. وقد فقد الراجا ما يقارب خمسين منها هذا الموسم بسبب ما تحمل من زينة، ممّا

جعلها أثقل من غيرها، والتحكّم فيها أصعب. لكنّه لا يلتفت لهذا؛ ذلك أنّ طائراته الورقية لا تشارك في هذه المسابقات بغاية الفوز، بل لتكون الأجمل، ولتقدّم صورة لكلّ سكان المدينة عن ثرائه وكرمه.

علّقت إحدى السيّدات:

ـ يقال إنّه على وشك الإفلاس، وإنهّ سيؤول إلى ما آل إليه النواب يوسف علي خان.

يوسف علي خان! صار هذا الرجل أسطورة منذ أن باع، قبل خمس عشرة سنة، ثماني وأربعين قرية لكي يعتني بطائراته. فقد كان بحوزته مائة ألف طائرة ورقية، يتحدّى بها كلّ سنة جميع سكان لوكنو حتّى يهبّوا لمنافسته. وقد دامت أشهَر مباراة ستّة أشهر، خطر له خلالها أن يربط في ذنب كلّ طائرة مصباحاً صغيراً لكي لا يضطرّ إلى التوقّف ليلاً. وقد ورث عنه ابنه ديوناً ضخمة كما ورث ولعه بالطائرات. فهو يشارك في كلّ المسابقات، ويحتلّ فيها مراتب بارزة، لكنّ المقرّبين منه يزعمون أنه إنّما يفعل ذلك إكراماً لأبيه، حتّى لا يُقال إنّه تنكّر له. وقد تزّوج إحدى قريباته، وهي بالغة الثراء، ويُشاع أنّه بصدد تبديد ثروتها.

لقد أفلس كثير من الناس بسبب هذه اللعبة. ذلك أن صناعة طائرة ورقية بهذا الإتقان مكلّفة للغاية. ورغم تحريم الإسلام للرهان، يراهن كثير من الناس على مبالغ ضخمة. عدا أنّ من يصيبهم الإفلاس، يتقبلونه ويبرّرونه فلسفياً. فهم إن اكتسبوا الشعبية والاحترام، حظوا بالتكريم في الأوساط الراقية بالمدينة طيلة حياتهم.

وقالت سلمى في نفسها: «يا لها من هواية سخيفة!»، لكنّها لم تتمالك نفسها مع ذلك من الإعجاب بمشهد هذه الطيور الملوّنة الضخمة التي تتحرّك برشاقة في السماء، ثم تنقضّ فجأة على طائرة الخصم، وبحركة ماهرة تقطع الخيط الذي يشدها إلى الأرض. وتشرح لها بعض النسوة أنّ التقنية تطوّرت: لم تعد الطائرات بتوالي السنين أمتن وأخف

فحسب، بل صارت خيوطها أخطر، إذ يغمسونها في بياض البيض، ويرصّعونها بقطع من الزجاج الحادة كالشفرات، مما يجعلها أفتك.

وأضافت البيغوم:

ـ كان الهدف الوحيد في الماضي هو أن تطير وتكون جميلة. وكان بعضها يحمل صور شخصيات مشهورة، كما كان الهندوس يحبّون على الخصوص أن يصوّروا عليها آلهتهم. ثمّ جاءت موضة المعارك من دلهي، فتبنّيناها. ربّما لأنّها المعارك الوحيدة التي نستطيع خوضها...

تختلف هؤلاء النساء المحيطات بسلمى عمّن دأبت على ملاقاتهن في قصرها: نساء وبنات صفوة الطبقة النبيلة في أوده. وقد أعجبت بهذه الشعبية التي تملكها البيغوم في دوائر متباينة كلّ التباين. يقول عنها أمير إنّها امرأة ديبلوماسية رائعة، وزوجها يعترف بأنّها خير عون له... ولكن كيف عرف أمير ذلك؟ لمّا سألته عن الأمر، ضحك.

ـ إنه الهاتف يا عزيزتي، هذه الآلة الشيطانية التي هاجمها فقهاؤنا، والتي ترفض النساء التقيات الصادقات استعمالها. لعلهنّ محقّات: فالصوت قد يكشف أحياناً أكثر مما يكشف الوجه، ويحمل المرء على الحلم... لا تغضبي يا حبيبتي، فعلاقتي بصوت البيغوم لا تتجاوز الجانب المهني... أنت تعلمين أنّ الاتصال بيني وبين زوجها لا ينقطع... فهو ليس أفضل أصدقائي فحسب، بل ومستشاري القانوني أيضاً.

سلمى تعرف هذا بالطبع، لكنّها شعرت مع ذلك بشيء من الغيرة. فبعض هؤلاء النسوة المنقّبات يملكن من القوة والتأثير ما قد تحسدهنّ عليه كثير من النساء الغربيات. قد تكون لأزواجهنّ حياة فاعلة في المجتمع، وحضور متألّق، بحيث يتّخذون القرارات المهمّة، عدا أنهنّ هنّ من يحرّكن الخيوط في الخفاء. وبما أنهنّ غير معروفات، متخفّيات خلف النقاب، فإنّ قوتهنّ أشدّ وأفتك، وتعطّشهنّ إلى السلطة والنفوذ أكبر، لا سيما أنهنّ يعشن في حلم لا عوائق فيه. ومن ثمّة يتحوّل الأزواج إلى أداة يتحكّمن بواسطتها في العالم.

طلبت البيغوم أن يأتوها بعلبة فضّيّة مرصّعة بالذهب. إنّها علبة التنبول، وهي آنية لا غنى عنها في البيوت الهنديّة، مقسّمة إلى مربّعات تحتوي على مختلف المكونات الضرورية لإعداد هذا المستحضر الوطني الذي لا غنى للهنود عنه، حتّى قال بعضهم: لو شاء الإنجليز شلّ حركة التحرير حقّاً، ما عليهم إلا تدمير حقول التنبول. فلا تكاد تمضي أربع وعشرون ساعة حتّى يستسلم الشعب قاطبة.

لم تتمكّن سلمى قط أن تفهم سرّ تعلق الناس بهذه النبتة الليفية المرّة. تنظر إلى الراني وهي تختار بعناية الأوراق الأشدّ خضرة، ثمّ تطليها بالجير وتضيف لها الكاطها، وهي معجون نباتي مستخلص من قشرة أحد أنواع الشجر، يُكسِب التنبول لونه الأحمر وطعمه البالغ المرارة. بعد ذلك تضيف قطعاً من جوز التنبول وقليلاً من التبغ وحبتين من الهال، كما تضيف شيئاً من الأفيون، وفي الأخير تلفّ ورقة التنبول في شكل مخروط متقن تقدّمه بأصابعها المرهفة للمدعوات الأثيرات اللواتي تريد إكرامهنّ على وجه خاص.

تعود أصول مضغ التنبول إلى الهند القديمة، لكنّها لم تكتسب طابعها النبيل إلا في بلاطات المغول. ذلك أنّ السلطان المغولي لمّا كان يريد إظهار الرضا على من قدّم له خدمة جليلة، يهبه أوراق التنبول مع الهدايا الفاخرة.

على أن سلمى تفضل النارجيلة الهندية، إذ تستلقي على الطنافس، وتنعم بلحظات ممتعة. لم تدخن قط مستحضراً في روعة هذا الذي وجدته في لوكنو. فالتبغ ليس ممزوجاً بدبس السكر فحسب، ممّا يعطيه مذاقاً قريباً من مذاق العسل، بل يُخلط بعد ذلك بتوابل ذات نكهات عديدة متباينة، يحرص صانعوها على حفظ سرّها بعناية كبيرة.

تنظر سلمى بعينين نصف مغمضتين إلى النساء المستلقيات بقربها اللواتي أجبرهنّ الحر على التخفّف من ملابسهن، فتلاحظ أنّ بعضهن فاتنات. يمشطن شعورهنّ الطويلة المزيّتة، ويدلكن سيقان وأذرع وأكتاف

بعضهنّ بعضاً، بحرية سمح بها غياب نظرات الرجال. وهنّ يتمازحن ويتبادلن الأسرار في سعادة غامرة.

كانت ثمّة امرأة شابّة، ذات بشرة بيضاء وعينين صافيتين، جلست على مبعدة منهنّ قليلاً تنظر إليهنّ لاهية. قيل لسلمى إنّها زوجة راجا نامبور الجديدة، اختارها لجمالها رغم أنها ليست من أسرة أميرية. ثمّ أضفن باستعلاء أنّ أمّها إنجليزية. ولمّا فاجأت الشابّة سلمى تحدّق فيها، نهضت وهبّت للجلوس بجانبها.

قالت:

ـ لطالما رغبت في لقائك. كيف تشعرين هنا؟ ألا تحسّين بالغربة؟

وبشّت لها سلمى على الفور. فهي تملك وجهاً ودوداً طلقاً، ربّما لأنّ الأخريات يتجاهلنها. ودّت لو تسألها عمّا إذا كان من الصعب أن يكون الإنسان نصف إنجليزي، وما إذا لم تكن تشعر بنفسها موزّعة، لكن التجربة علّمتها أنّ الحساسيات العرقية في الهند متأجّجة، وخشيت من أن تجرح مشاعرها.

ـ ينبغي أن تزوريني فأعرّفك على حماتي. إنّها امرأة رائعة، شغوفة بالسياسة، ومعجبة أيّما إعجاب بمحمّد علي جناح والرابطة الإسلامية. وهي لا تبدّد وقتها في اللقاءات مثل هؤلاء، وتقول إنّ للنساء أيضاً دوراً تلعبنه بالنسبة لمستقبل هذا البلد.

فسألتها سلمى:

ـ ولكن، ألا تلبس البرقع؟

ـ بلى، هي تلبسه بالطبع. وما دخل ذلك؟

لم تفهم سلمى قصدها. فالبيغوم قالت لها نفس الشيء ذات يوم، وفي تلك الأثناء لمحتها قادمة نحوهما وهي تقول:

ـ هكذا إذن أيّتها الماكرة! تستفردين بضيفتي الشرفيّة! تعالي اجلسي بجانبي أيّتها الأميرة!

وبدت هذه النبرة الودودة كما لو أنّها تخفي شيئاً من الانزعاج. أهي الغيرة؟

بدأ الظلام يخيّم، فجاءت الخادمات بمصابيح الزيت، وشرعن في بسط صواني كبيرة لتقديم العشاء. وفي السماء كانت تلوح الطائرات الورقيّة مثل كرات ناريّة.

ـ يا لجمال منظرها!

ومن شدّة الحماس، أمسكت البيغوم بخصر سلمى وهي تقول:

ـ انظري ما أسرع تلك الطائرة الصغيرة! ستدمّر لا محالة الطائرة الكبيرة! ها هي تدمّرها، لقد صدق ما توقّعت!

كانت ترتعش من الحماس. أمّا سلمى المذهولة، فمضت تحاول التخلّص منها، لكن البيغوم كانت تحكم قبضتها عليها، فلم تشأ إغاظتها. لكنّها مضت تؤنّب نفسها في سرّها على هذا الانزعاج. فهل جعلتها تربية الراهبات متشدّدة بحيث ترى في كلّ احتكاك جسدي بالآخرين شيئاً مخلاً بالآداب؟ إنّ الأمر مألوف هنا، وحرية الأجساد هذه، وكذلك الحركات الودودة بين النساء من دون سوء نيّة، لهي أسلم نفسياً! لقد أفسدت المسيحية كلّ شيء. أمّا الإسلام فلا يخجل من الجسد، لأنه لو فعل لكان في ذلك إساءة للخالق...

نهضت البيغوم بخفّة لكي تحتفي بباقي المدعوات. وشعرت سلمى بالخزي من أنّها شكّت، ولو للحظة، في صفاء صداقتها.

اركضي يا أحصنتي الجميلة وأسرعي في الركض!

كانت العربة الأنيقة تجري مكسّرةً صمت ممرّات قيصرباغ، مارقة بين الحدائق المزهرة والقصور النائمة ساعة القيلولة. أسرعي، فما من شيء يفعله المرء سوى استنشاق الهواء من خلال مصاريع النوافذ. ما زالت الساعة لم تجاوز الرابعة، وبذلك ستكون فترة ما بعد الظهر طويلة.

وسلمى متوجّهة إلى سوق أميناباد لتختار باقات ورد. ذلك أن الورود في هذا السوق هي الأنضر في المدينة.

ودخلت العربة من الباب الغربي لتجتاز دروب المدينة العتيقة الضيّقة. لم يعد بإمكان الأحصنة أن تركض هنا. عليها أن تسير ببطء لتتجنّب الباعة الصغار المقرفصين بين سلال الفاكهة، والبقر المستلقي وسط الطريق، والصبيان شبه العراة الذين يركضون بين العجلات.

سوق أميناباد عبارة عن ميدان واسع تحيط به بيوت مغراء اللون، ذات شرفات منمّقة، تسندها أقواس تؤوي تحتها مئات الدكاكين. إنه المركز التجاري الرئيسي بالمدينة، الأكثر جلباً للمتسوّقين بعد سوق هازيرغانج بالطبع، حيث توجد متاجر أنيقة تعرض السلع المستوردة. وهو سوق يكاد لا يرتاده إلا الإنجليز. وسلمى تحبّ التجوّل فيه، والتنقّل بين متاجره، والبحث بفضول بين معروضاته من دون أن تشتري شيئاً أحياناً. وهو أمر لا يزعج الباعة. فهم معتادون على ذلك؛ إذ إنّ الزبونات هنا مزاجيات، ولا أحد يلومهنّ على ذلك. وكم يَسعَد كبار التّجار باستعراض مواهبهم التجارية أمام سيّدة ذات بشرة بهذا البياض.

فإذا كانت سلمى ترضى بارتداء البرقع، فإنها ما إن تنعطف في أقصى الشارع حتّى تنزعه، فتتحوّل الخيمة السوداء الضخمة إلى رداء فضفاض طويل لا يعدم الأناقة. أما الخادمة التي ترافقها في نزهاتها الطويلة فلا تجرؤ على الجهر بهذا السرّ، لأنها تعرف بأنّ ذلك سيتسبب في تسريحها على الفور. وكانت قد اختارت هذه الشابّة لخدمتها الخاصة لأنّها حديثة العهد بالقصر، ولم تخضع بعدُ لنفوذ الراني عزيزة. لم تطلب منها الأميرة شيئاً صراحة، لكنّها كانت تغمرها بالهدايا الصغيرة.

هناك عدد قليل من الناس اليوم في السوق، ونصف الدكاكين مغلقة. لم تكن سلمى تعلم أنّ عيد محرم لا ينتهي إلا في اليوم الموالي. وكان هناك في حديقة صغيرة غير بعيدة رجل يخطب في جماعة مزدحمة من الناس، مشدودة الانتباه إليه.

وتعالى الصراخ فجأة في الطرف الآخر من الساحة، ولاح نحو مائة شخص مسلحين بالعصي، اندفعوا في صخب وراحوا يبعثرون المعروضات، ويضربون من دون تمييز المسنّين والنساء والأطفال وكلّ من يعترض طريقهم. أمّا في الحديقة فوقفت الجماعة بهدوء، وانتظمت ومضت تنتظر الهجوم.

ـ تعالي يا هوزور! أسرعي!

سحب سائق العربة سيّدته من كمّها. أمّا سلمى فنظرت من حولها، وتنبّهت إلى أنّ الدكاكين أغلقت أبوابها، والساحة خلت من روادها في رمشة عين، وأنّهم بقوا بمفردهم. فاندفعت إلى داخل العربة بسرعة في الوقت المناسب. ذلك أنّ الحجارة بدأت تتطاير، وسُمِع دويّ طلقات نارية، وهو ما أجفل الأحصنة، وجعل الحوذي يلهبها بسياطه. ومن خلال النافذة الصغيرة، رأت سلمى المنازل تشتعل ناراً، والناس يفرّون في كلّ صوب، كما لو أنّ مسّاً أصابهم. وما هي إلا لحظة حتّى تحولت السوق إلى ميدان معركة.

انطلقت الأحصنة جارية وقد علا الزبد أفواهها حتىّ إنّ الحوذي صار يجد صعوبة في التحكّم فيها. وراح المارّة يلتصقون مذعورين بجدران المنازل في الأزقة مخافة أن يُدهَسوا. وأغلقت سلمى عينيها وهي تنتظر الأسوأ. على أنّ العربة توقّفت فجأة، وبدا من النافذة وجه الحوذي شاحباً وهو يتصبّب عرقاً، بينما كانت الخادمة تنتحب في الجانب المقابل من العربة. يستحسن ألا يعودوا إلى القصر في هذه الحال أن شاءوا تجنّب الأسئلة والعتاب.

قالت سلمى:

ـ لنذهب إلى بيت البيغوم. فهو غير بعيد من هنا. ولكن قبل ذلك، قل لي يا أحمد علي، من بادر بالهجوم، المسلمون أم الهندوس؟

خفض الحوذي رأسه وقد بدا عليه الغيظ.

ـ من؟

ـ المسلمون يا هوزور، كلهم مسلمون. لا يوجد بينهم هندوس.

شعرت سلمى بالسخط وكرّرت السؤال. ماذا أصاب هذا الرجل؟ أقتله الخوف بحيث لم يعد يعي ما يقول؟

ـ أؤكد لك يا هوزور بأنّهم مسلمون، لكنّهم ليسوا من المؤمنين. فقد مضى يومان وهم يتعاركون في حيّ تشوك القديم. لكن لم يخطر ببالي قطّ بأنّهم سيأتون إلى أميناباد القريب من القصر.

ـ ولِمَ يتعاركون؟

ـ السنّة هم من بدأوا بالاعتداء. هاجموا تظاهرة دينية شيعية زاعمين بأنّهم يشتمون عمر بن الخطاب، خليفة الرسول الثاني. وقد خلّف ذلك فيما يبدو قرابة عشرين قتيلاً ومئات الجرحى. لم يسلم منهم نساء ولا أطفال... ولم يتورّعوا عن إضرام النيران في جزء من حيّ تشوك... وبطبيعة الحال، لم يستسلم الشيعة! التجوال محظور الآن في الحي، ولكن الأمر المحيّر هو لِمَ تأخرت الشرطة في التدخّل...

تكوّمت سلمى في أحد أركان العربة من شدّة الجزع، كما لو أنّ المواجهات بين الهنود والإنجليز، وبين الهندوس والمسلمين لا تكفي! ها هي المعارك تنشب الآن بين المسلمين! لم يكن ينقص غير هذا!

كان صالون البيغوم ياسمين بعد عصر هذا اليوم مفعما بالنشاط على نحو خاص. ذلك أنّ الجرائد أعلنت عن مآل القصة الغرامية التي غذّت كلّ الأحاديث في سائر أصقاع الإمبراطورية، من غربها إلى شرقها، وزرعت الخلاف بين الأصدقاء، والفرقة بين الأسر، وجعلت الناس يبكون ويحلمون ويتحمّسون ويسخطون على هذه الشجاعة وهذا الجبن، أو ذاك الإجلال لأنبل ما في الإنسان، وعلى ما هو إساءة للربّ والواجب، أي تنازل الإمبراطور إدوارد الثامن عن الملك من أجل عيون

أمريكية مطلّقة مرّتين، وتصميمه على عقد قرانه بها «في جو حميمي» يوم الثالث من يونيو/ حزيران بقصر كاندي في فرنسا.

لمّا دخلت سلمى، كانت امرأة قصيرة القامة، ممتلئة، تشرح أنّ الحبّ... الحبّ...! وتساءلت حانقة «ماذا تعرف عن الحبّ؟ بل ماذا أعرف عنه أنا نفسي؟» جلست على مبعدة منهنّ، واستغربت كيف تتحمس هؤلاء الهنديات، ويتفاعلن مع الحياة الخاصة لأسرة تُحكم قبضتها على بلدهم منذ قرن ونصف، وتنشر جيشها الذي يعتقل ويسجن ولا يتورّع أحياناً عن قتل المتمرّدين.

وبينما تحدث في الآونة الأخيرة مواجهات دامية بين الهندوس والمسلمين في كلّ أرجاء الإقليم، لا تدور أحاديثهنّ ونقاشاتهنّ إلا عن الغراميات الإنجليزية. وهو أمر يثير حفيظة سلمى. ورغم أنها قررت أن تلزم الصمت تأدّباً، لم تتمالك نفسها اليوم، فانفجرت قائلة:

ـ لا أهمية لكلّ هذه الترهات! انظرن إلى ما يجري حولكنّ، في مدينتكنّ، وتحت نوافذكنّ: الناس تتقاتل! لقد جئت توّاً من أمينأباد حيث كدت أفقد حياتي!

وفجأة لم تعد أعصابها تحتمل، وأصابها الاختناق، فهرعت إليها النسوة، ورحن يبحثن عن الماء البارد والأملاح... وهدّأن روعها أخيراً، فراحت تحكي لهنّ عمّا رأت. استغربن ذلك، وعبّرن عن استنكارهنّ. «أبينَ المسلمين؟» لم يحدث مثل هذا منذ ثلاثين سنة، منذ أن مُنِعت، سنة ١٩٠٨، تلاوة «مدح الصحابة» علناً، وهي قصائد سنية تشيد بالصحابة الأوائل تقدّر الطائفة الشيعية أنّها تسيء لشهدائها، فتردّ بتلاوة نصوص تصف هؤلاء الخلفاء بالمغتصبين. فماذا وقع الآن؟ لماذا تجدّدت هذه الفتن؟

حدجت البيغوم ياسمين راني نامبور الشابّة بنظرات قاسية، وقالت:

ـ إنّها مكيدة من مكائد الإنجليز فيما أظنّ، لكي يبثّوا الفرقة بين

الهنود ويجدوا ما يبرّرون به بقاءهم حين نطالبهم بالاستقلال. سيقولون إنّهم لا يمانعون في مغادرة البلاد، ولكن ينبغي أن نتّفق أوّلاً فيما بيننا.

فردّت الراني بهدوء:

- في نظري، إنّها حيلة دبّرها حزب المؤتمر. هو من يستفيد من بثّ الفرقة بين المسلمين بحيث يصيرون غير قادرين على تنظيم أنفسهم والدفاع عن مصالحهم ضدّ الهيمنة الهندوسية.

إنّ زوج الراني شاهينا هو أحد مسؤولي الرابطة الإسلامية، بينما زوج البيغوم عضو من الأعضاء المسلمين القلائل في حزب المؤتمر. وهو يقدّر أن التحرّر من الاستعمار الإنجليزي يحظى بالأولويّة. أمّا المشاكل الطائفيّة فتمكن تسويّتها لاحقاً. وهكذا بدا أنّ الحجج السياسية التي تقدّمها المرأتان تخفي صراعات شخصية بين زوجيهما.

ولتخفيف التوتّر سألت سيّدة عن الأمراء الذين سيسافرون إلى لندن لحضور حفل تتويج الملك الجديد. وسرعان ما أنساهنّ هذا حديث السياسة، ورحن يذكرن، وقد تألّقت عيونهنّ، أسماء كبار المراجات: غواليور وباتيالا وجايبور وإندور وكابورطالا ونظام حيدرأباد بطبيعة الحال. سيتوجّه إلى لندن وفدٌ رفيع يرأسه مراجا بارودا العجوز.

وقالت سلمى في نفسها: لا شك في أنّ نيلوفر ودروشهفار ستحضران الحفل أيضاً. وتمنّت لو أنّ البريطانيين يوجّهون لها الدعوة فتهينهم برفضها. لكنّها كانت تعلم بأنّها لن تحظى بهذه الفرصة. وألقت باللائمة فجأة على أمير لأنه لا يعدو أن يكون أمير ولاية صغيرة.

وفي الثاني عشر من مايو/ أيار، يوم تتويج الملك جورج السادس الذي خلف أخاه إدوارد الثامن، ازدانت لوكنو بالأنوار وباقات الزهر. وفي هذا المساء نظّم الحاكم حفل استقبال باذخ، حضره جميع الأرستقراطيين والوجهاء، لتقديم التهاني والتبريكات للإمبراطور.

طرق أمير باب سلمى وهو يرتدي الشيرواني، وبادرها قائلاً:

ـ ألم تجهّزي نفسك بعد؟ أسرعي وإلا فإنّنا سنتأخر!

حدّقت في عينيه وقالت:

ـ بإمكانك أن تذهب. أمّا أنا فلن أرافقك.

أصابه الذهول. ماذا حلّ بزوجته؟ ألا تدرك بأنّ غيابها سيكون بمثابة إهانة للحاكم!

ـ ألا تفهم؟ ما لا يحيّرني هو كيف تُسوّل لكم أنفسكم حضور هذا الاستقبال؟ كلّ خطاباتكم حول الاستعمار الإنجليزي، وكلامكم عن النضال من أجل الاستقلال، مجرّد كلمات! لا يكاد الحاكم يشير لكم بأصبعه حتى تتسابقوا كلّكم إليه. وها أنتم تحتفلون بتتويج السيد الأجنبي الذي تزعمون الرغبة في التخلّص منه، بنفس الحماس الذي كنتم ستحتفلون به لو أنّه منكم وأنتم من اخترتموه!

امتقع أمير، وتقدّم خطوة نحو هذه المرأة التي تشتمه. أتُراه يهمّ ضربها؟ تمالك نفسه وشدّ على قبضتيه.

ـ إنك تخلطين بين الأمور يا أميرة. فالهند ليست تركيا المستعمرة. الإنجليز قاموا بأشياء كثيرة من أجل تطوير البلد. كلّ ما في الأمر هو أنّنا نقدّر الآن بأنّنا بلغنا مستوى من النضج يسمح لنا بحكم أنفسنا. نحن لسنا في حرب معهم، بل نتفاوض على نقل السلطة إلينا في أحسن الشروط الممكنة.

ـ أتسمّون ما يقترفه جنودهم من اعتقالات واغتيالات مفاوضات؟

ـ الخطأ خطأ هذا المجنون المدعو غاندي، هذا المتنوّر الذي يصرّ على دفع الشعب إلى المعركة، بينما يمكن تسوية الأمور بهدوء وبطريقة مهذّبة.

صمت لحظة ثمّ سألها:

ـ لا تريدين مرافقتي إذن؟... حسناً!

وخرج غاضباً.

٦

كان السفر من لوكنو إلى بادالبور يستغرق سابقاً ثلاثة أيام. ثلاثة أيّام لقطع مائة ميل بإيقاع الفيلة البطيء، التي ترفع أعلام الولاية، تتبعها هوادج يحملها ثمانية عبيد أقوياء، وجمال تنوء بأحمالها الثقيلة.

كانت القافلة تنطلق عند الفجر، وتتوقفّ حين يشتدّ الحرّ في وسط النهار، ويصير السير متعذّراً. عندئذ يضرب الخدم خيّاماً واسعة، ويغطّون العشب بِبُسط زاهية الألوان، وينامون حتّى غروب الشمس، ولا يستأنفون السير إلا عند تراجع الحرّ. ولحماية الموكب الذي يسير على ضوء النجوم في الظلام، يتقدمه بعض الحراس فيما يشكل آخرون حاجزا على طوله.

أمّا اليوم فيمكن قطع المسافة في أربع ساعات على متن السيارة البيضاء الفاخرة، الفسيحة مثل صالون صغير مع الركن الخاص بالمشروبات، وطاولات صغيرة مصنوعة من الأكاجو، وطقم الشاي وزجاجات ماء الورد المصنوعة من البلور. وتأسف سلمى على الطابع الشاعري الذي كان يسِمُ الأسفار في الماضي. وإذا كان بعض الأمراء ما زالوا يتمسّكون بأساليب السفر القديمة، فإنّ الراجا، بحكم أنه رجل عصري، يفضّل التنقّل بسرعة وعلى نحو مريح.

على أنّه يتنازل مع ذلك احتراماً للتقاليد وإرضاء للشعب، فيوقف السيارة على بعد ميل تقريباً من الحدود لينتظر الفيلة الملكية التي انطلقت مع الفجر من قصر بادالبور لكي تلحق به وترافقه.

ويشرح أمير مزهواً لزوجته الشابة كيف أنّ بادالبور التي لم تعد تضمّ، فضلاً على عاصمتها ذات الثلاثين ألف نسمة، سوى مئتي قرية تقريباً، كانت في الماضي إحدى أكبر الولايات الهنديّة.

ـ لقد أرهقتنا الحروب التي خاضها أجدادي ضدّ ملوك الدكن الأقوياء، ثمّ ضدّ الغزاة الإنجليز. لم نخضع قطّ لجبروت أحد. وفي سنة ١٨٥٧ فقد جدّ أبي ألفين وستّمائة قرية، بمساحة تعادل مساحة سويسرا. وقد سجّل الجنرال الإنجليزي في مذكّراته حينئذ: لا ينبغي، بأيّ حال من الأحوال، الوثوق براجاوات بادالبور: «سيتظاهرون بقبول سيطرتنا، لكنّهم سيتمرّدون دوماً».

ولاحت على وجه أمير ضحكة خفيفة مشبعة بالحنين.

ـ إنّها أجمل شهادة على مجدنا... لكن ما كادت تمضي بضع سنين حتّى صرنا تحت وصاية التاج البريطاني..(١)..

ها هي السيارة تدرج على نحو مهيب تحت أقواس شكّلتها أغصان الأشجار المرصّعة بالأزهار، يتقدّمها ستّة فيلة مجلّلة بالذهب، وفرقة الراجا الموسيقية التي تعزف نشيد الولاية. وعلى طول جانبي الطريق وقف حشد غفير من الناس، هندوساً ومسلمين، انحنوا من دون صراخ ولا هتاف. ذلك أنّ الصمت في هذه البلاد الصاخبة هو أفضل علامة على الإجلال والتقدير.

جلس الراجا متسمّراً في مقدّمة السيارة، ينظر بعيداً أمامه. فهو يظلّ في عيون رعاياه السيّد المهاب الذي بيده الثواب والعقاب، رغم أن

---

(١) بين أول تمرد على الإنجليز سنة ١٨٥٧، والاستقلال سنة ١٩٤٧، خضعت معظم الولايات الهندية للنفوذ البريطاني. وبذلك صارت تدفع الضرائب، وفقدت الحقّ في أن يكون لها جيش. وإذا كان الراجاوات قد حافظوا على ألقابهم كملوك، فإنهم تحولوا في الحقيقة إلى مسؤولين يسهرون على حسن سير ولاياتهم تحت إشراف الحاكم الإنجليزي.

الإنجليز هم السادة الحقيقيون في الواقع. أمّا سلمى فجلست في الخلف تحجبها ستائر البروكار التي من شدّة ثقلها لا يستطيع الريح تحريكها، تراقب هذا الشعب الذي لا يحقّ له أن يرى ملكته.

ولمّا بلغوا مشارف العاصمة، زاد الحشد كثافة. وتحت قوس الحجر الأحمر الذي يشكّل مدخل المدينة، وقف رجل عجوز يرفع يده مراراً إلى جبينه تعبيراً عن الاحترام، ثمّ فتح حقيبة وشرع ينثر بملء راحته روبيات فضيّة، محدثاً بذلك ازدحاماً وتدافعاً شديدين. ورغم أنّ أمير تظاهر بعدم رؤيته، وحافظ على ملامحه الجامدة، سمعته يغمغم:

ـ أيّ طلب يرجوه هذا المجنون، حميد الله، لكي يُبدي كلّ هذا الكرم؟

ومضى الموكب يتقدّم في الشارع الرئيسي المحفوف بمتاجر تزيّنها لافتات بألوان علم الولاية. وفي كلّ أرجائه ظهرت صور الراجا. أمّا في الشرفات، فراحت النساء يلقين على السيارة وابلاً من حبّات الأرز، رمز للرخاء والخصوبة، وهنّ يهتفن: «راجا صحاب زيندباد! عاش راجانا!»، ويستبدّ الحماس ببعضهنّ، فيهتفن: «راني صحاب زيندباد! عاشت رانينا!»، لكنهنّ سرعان ما صُرِفن عن ذلك: يا للعار! كيف يذهب سوء الأدب بهؤلاء الغبيّات إلى حدّ الإشارة علناً إلى زوجة ملكنا؟ ليته لا يغضب علينا!

وخرجت السيارة من المدينة متّجهة صوب القصر الواقع على بعد عشرة أميال تقريباً. ذلك أنّ الراجاوات كانوا يستقرّون إلى حدود القرن الماضي في القلعة القديمة الواقعة في وسط المدينة. لكنّ حريقاً شبّ فيها ذات مساء صيفي ـ من دون أن يُعرف ما إذا كان مدبّراً أم بسبب الإهمال ـ أتى عليها وعلى الحي العتيق المحيط بها. عندئذ أمر راجا ذلك العهد، لأسباب أمنية، وطلباً للهدوء، ببناء قصر في الريف قرب بحيرة الزنابق.

تحمي القصر عن الأنظار أسوار عالية. وفي وسط الحديقة المغولية تنتصب أقواس بيضاء وشرفات مخرّمة، يعلوها إفريز من الخزف الأخضر

والذهب، يصوّر رماحاً موجّهة إلى السماء، وقرونَ خصبٍ وحشداً من الحيوانات الممجّدة أو التي تجلب اليمن كالطواويس والنمور والأسماك. وتحيط بأركان القصر الأربعة شرفات تُطلّ على الحقول والقرى، تظهر منها في البعيد ظلالُ جبال الهملايا. وعلى مسافة من القصر الرئيسي توجد قصور صغيرة تظهر كما لو أنها مهجورة، كان قد احتفظ بها الراجا العجوز لنسائه ونساء ورثته. أمّا اليوم فهي مخصّصة لاستقبال الضيوف.

أعجبت سلمى على الفور بإقامتها الجديدة، بهذا البياض الهادئ وأحواض الأزهار التي تخترقها قنوات ضيّقة من الفسيفساء، يجري فيها ماء زلال، وهذه المماشي الظليلة المزروعة بالنباتات العطريّة، وكذا هذا النخيل الذي يتعالى في السماء مثل طيور شعثاء.

أدى ما يقارب خمسين حارساً التحيّة وقد اصطفّوا أمام القصر بأزيائهم الرسمية: بسترات وعمائم زرقاء، وشوارب لامعة، يتأبّطون بنادق طويلة تعود للقرن الماضي. وعند أوّل الدرج انحنى جيش من الخدم بثيابهم البيضاء التي زادها الحزام الأزرق والعمامة جمالاً. وهناك أيضاً السوّاس والفيالون والطباخون ومساعدوهم والبستانيون والحلاقون ورؤساء الخدم. بل حضر أيضاً، ولكن في الخلف، حتّى الكنّاسون ونفّاضو الغبار والمسّاحون. وفي الجانب الآخر من الدرج وقفت نساء بوجوه مكشوفة، وهو ما اندهشت له سلمى. لم يكن عددهنّ يتجاوز العشرين بين خادمات ووصيفات وخيّاطات، لكنهنّ مرصودات لخدمة الراني الجديدة فقط.

ـ سعدنا وتشرّفنا بمقدمك يا هوزور!

اندفعت كرة من الحرير الأحمر باتجاه سلمى، وكست يديها بالقبل. إنّها بيغوم نصرت، زوجة حاكم بادالبور التي استقبلت الأميرة يوم وصولها. أمّا زوجها، فلا بدّ أن يكون هو ذلك الرجل الوقور الذي يرتدي الشرواني، ويتحدّث مع أمير. وتساءلت سلمى في سرّها: «لِمَ لم يحيّيني؟»، شعرت كما لو أنّها غير مرئيّة. فلا يبدو أنّ أحداً من الرجال

الحاضرين، سواء من أكانوا من أصحاب المقامات الرفيعة أم من الخدم، انتبه إلى وجودها. السبب بطبيعة الحال هو الاحترام، لكنّ الأميرة لم تستطع أن تمنع نفسها من الإحساس المزعج بأنها لا توجد. عليها أن تتعوّد على هذا الأمر. ومهما يكن، فهي تفضّل هذا على ارتداء البرقع! وإن كان ارتداؤه في بادالبور ليس بالمفروض مثلما هو الحال في المدن حيث يعتقد الرجال أنّه يحمي نساءهم من النظرات غير المحتشمة. فلا أحد هنا يمكن أن يتجرّأ على إساءة الأدب عليها أو حتى يخطر بباله ذلك. فهي هنا ليست امرأة، بل راني.

وتحثّها البيغوم نصرت قائلة:

ـ تعالي يا هوزور، فالراني سعيدة تنتظرك، وهي متلهّفة للتعرف عليك. ينبغي أن أقدّمك إليها. لن يكون من اللائق أن تزوريها مع الراجا. ظهور الزوج والزوجة معاً يعدّ هنا أمراً خارج اللياقة. فإذا كانت الزوجة عند حماتها، وأعلن عن مجيء زوجها، عليها أن تحتجب وتغادر قبل دخوله.

الراني سعيدة هي جدّة أمير التي أدارت شؤون المملكة من خلف الحجاب لخمس عشرة سنة بينما قامت الراني عزيزة بتسيير شؤون القصر في لوكنو. وقد بلغ سلمى أنّها سيّدة مقتدرة، ولذلك هي أيضاً متشوّقة للتعرّف عليها.

قالت البيغوم نصرت:

ـ تعالي من هنا يا هوزور!

ارتقت سلمى الدرج الرخامي برفقتها، وعبرت صالة الاستقبال الصغيرة المليئة بالمقاعد ومناضد الخشب المذهّب، ثمّ صالة المجلس المؤثّثة بالأرائك الواطئة والسجاد الفارسي وموائد على الطراز الشرقي، ثمّ اخترقتا أخيراً قاعة العرش القديمة. ومضت البيغوم تريها، لتثير إعجابها، كرسي العاج الضخم الذي نقشت عليه مشاهد الصيد والمعارك، تحيط به أعمدة صغيرة مجدولة ترفع ظُلّة من المخمل

الأزرق. لاذت سلمى بالصمت: قلّما أتيحت لها فرصة رؤية أشياء بمثل هذا القبح. نظرت إلى صور الأجداد التي تكسو الجدران. كلّ راجوات بادالبور حاضرون هنا، من أوّلهم، الذي تُوّج على العرش سنة ١٢٣٠ إلى والد أمير، الذي توفي سنة ١٩١٢. واستغربت شدّة الشبه بينهم. وحين انحنت لتنعم النظر في الصور، كادت أن تنفجر ضاحكة لولا أنّها عضّت على شفتيها: فكلّ هؤلاء الملوك الذين يغطون فترة تاريخية تمتدّ سبعة قرون، رسمهم نفس الفنان، رسّام يدعى عزيز خان. فإمّا أنّ هذا الرجل عاش عمراً مديداً على نحو غير معهود، أو أنّ أب أمير خطر له ذات يوم، ولأسباب غامضة، أن يُقيم هذا المعرض لأجداده، لكنّه نسي أن يمسح توقيع الفنان، وهو ما ينمّ عن سذاجة بالغة... فهل أمير... وحاولت سلمى أن تتخلّص من شعورها بالانزعاج. كلا، ما من مرّة حدّثت نفسها عن أمير بهذه الألفاظ.

- اقتربي يا بنيتي.

تعلّقت سلمى بالعجوز من أوّل نظرة. كانت ترتدي ثوباً أبيض يليق بالأرامل، ولا تضع أيّ حلية. كلّ ما تجمّلت به كعيكة خلف رأسها جمعت بها شعرها، وشدّته بمشط مرصّع بالفيروز الأزرق، الحجر الكريم الأثير لدى الشيعة.

- تعالي قبّليني!

تلألأت العينان الزرقاوان في الوجه الوضّاء الذي تعلوه تجاعيد ناعمة. قالت سلمى في نفسها: لا بدّ أن تكون كشميريّة الأصل. فما من مكان آخر في الهند تملك فيه النساء بشرة بهذا البياض. فلماذا اختار الراجا الأب زوجته من هذا المكان البعيد مع أن العرف وتأمين الحدود كانا يفرضان المصاهرة بين الممالك المتجاورة؟

وانحنت باحترام، فأنهضتها العجوز وضمّتها إلى صدرها الواسع الذي تفوح منه رائحة ورد طيبة، فشعرت سلمى كما لو أنّها عادت إلى بيت أمّها.

أمسكت الراني بذقنها وراحت تتفرّسها ثمّ قالت:

ـ كنت أخشى أن تكوني جميلة وحسب... لكنّني ألاحظ أنّك أكثر من ذلك بكثير. أمير محظوظ، وهو بحاجة إلى امرأة مثلك. ستساعدينه في تحمّل الأعباء، أليس كذلك؟ وستطمئنينه بعد أن أذهب إلى دار البقاء؟

أهي من ستطمئن أمير؟ لا بدّ أنّ الدهشة علت وجه سلمى.

ـ أنا أعني ما أقول. فأمير لم ينل حظّه من الحب. منذ أن مات والداه وهو في السادسة من عمره، وجد نفسه محاطاً بحاشية تتملّقه بحضوره، وتهزأ منه إذا غاب. وقد كان يشعر بذلك من دون أن يفهمه. كان طفلاً مرهف الإحساس ومتقدّماً على سنّه. كنت الوحيدة التي لا تنتظر منه شيئاً. حتّى أخته عزيزة كانت تبذل قصارى جهدها لكي لا تعارضه أو تعاكسه مخافة أن ينطبع ذلك في ذاكرته... لكن الصدمة الرهيبة حدثت لما كان في الخامسة عشرة من عمره حين حاول عمّه، وكان شديد التعلّق به، أن يسمّمه لكي يستولي على العرش. ظلّ منقبض الصدر لأسابيع، يبكي ويردّد: «لا أريد أن أكون راجا، سأرحل إلى مكان بعيد حيث لا يعرفني أحد، وحيث سأجد من يحبّني لذاتي».

وسرت القشعريرة في أوصال سلمى: لطالما تمنّت هي أيضاً أن تكون فتاة يتيمة من دون اسم ولا أصل، لكي تطمئن إلا أنّ من يحبّونها يحبّونها لذاتها.

واسترسلت الراني تقول:

ـ هذه هي الفترة التي قرّرنا فيها إرساله إلى إنجلترا. لم نفعل ذلك من أجل سلامته الجسدية فحسب، بل من أجل توازنه النفسي أيضاً. ذلك أنّ موتَ والديه، الذي كان يعتبره بشكل لا واعٍ تخلّياً عنه، ونفاقَ حاشيته وغدر عمّه، ثمّ ـ وهذا ما زاد الطين بلة ـ حبّاً تعيساً لبنت عمّ كانت تظهر له الغرام بينما تضرب مواعيد لشخص آخر خلسة، انتهى كلّ هذا بأن حطّم ثقته بنفسه، وأضعف قدرته على المقاومة وتقبّل الفشل. باختصار، هزّ ثقته برجولته.

لمّا غادَرَنا، كان مراهقاً مرتاباً، ضعيف الشكيمة، لكنّه عاد إلينا رجلاً راشداً حيويّاً، رابط الجأش وعقلانيّاً بمقدار ما هو متحمّس... لطالما تهيّأ لي أنّه يلجم نفسه، ويخشى من أن يستبدّ به حسّه المرهف. أهو الصدع الذي أصابه في الصغر ما زال قائماً؟ وأنّه إنّما تعوّد على إخفائه؟ بودّي لو يسمح أميري المسكين لنفسه بأن يكون سعيداً! عديني بأن تكوني له خير عون!

صار الحرّ في نهاية شهر يونيو/ حزيران هذا خانقاً، وهو ما جعل البهائم والناس يتطلّعون إلى السماء الزرقاء بيأس. وظلّت السماء على ذلك الحال لأسابيع أخرى. ولم يكن من المأمول سقوط الأمطار الموسميّة في هذا الوقت المبكّر إلا إذا رحم الله هذه الحقول المحروقة، والأرض المتشققة، وهذه المخلوقات المنهكة التي تتجرجر في القيظ الشديد.

تغمر سلمى نفسها في الحوض النحاسي الكبير المملوء بالماء البارد عدّة مرّات في اليوم، وهي لحظات استراحة ممتعة تشعر فيها باستعادة آدميّتها من جديد. لكنّها لا تكاد تغادر الحوض حتى تتبخر قطرات الماء من على بشرتها، فتلفي نفسها ثانية وسط هذا الجوّ الحارق.

تستلقي على السرير حريصة على تتجنّب كثرة الحركة، وتمدّ وجهها بشغف نحو هبّات الهواء الخفيفة التي تبعثها البانكا، وهي مروحة تقليدية يحركها طفل يجلس القرفصاء خارج الغرفة بواسطة حبال، مع أنّ الكهرباء موجود في كلّ أرجاء القصر، وأنّ أمير جهّز، منذ عودته من إنجلترا، جميع الغرف والصالات بمراوح فولاذية ضخمة من آخر طراز. لكن منذ وصولها، لم يشغل الكهرباء سوى ليلة واحدة حتّى إنّها يئست من أن ترى يوماً أجنحة المراوح اللامعة المشدودة إلى السقف تتحرّك.

على أنّها أحبّت بادالبور أكثر من لوكنو بكثير رغم القيظ. فالحياة هنا بسيطة، بعيدة عن تفاهات الراني عزيزة، وعن الثرثرات والمكائد. ورغم مشاكل السياسة وهمومها، يبدو أمير مرتاحاً هنا هو أيضاً. فهما يركبان الخيل في الصباح الباكر، لمّا يكون الجوّ ما زال بارداً، ويخرجان للنزهة

في الحقول والغابات. وفي بعض الأحيان ترافقهما زهرة، فتشعّ ضحكاتها البريئة نوراً. وهكذا تستهويهم الحرية، فيركضون بأحصنتهم، حتّى إذا ما مرّوا أمام الفلاحين، راحوا يحدقون فيهم مدهوشين.

إنّها أول مرّة يقيم فيها الراجا في بادالبور صيفاً، مع أنّ كلّ من تتوفّر لهم الإمكايات يُغادرونها هرباً من الحرّ الخانق، ليلوذوا بمحطّات الاصطياف الجبلية الأنيقة الموجودة في الهملايا. بل إنّ نائب الملك وحكومته أنفسهم ينتقلون إلى سريناغار، عاصمة ولاية كشمير، حيث يقيمون في منتجعاتهم الصيفيّة.

لكنّ الأرياف هذه السنة تعرف اضطرابات يقف خلفها حزب المؤتمر الوطني. وهو ما جعل أمير يقدّر أنّ من الحكمة أن يبقى بين رعاياه ينظر في مطالبهم، علماً بأنّ فلاحي بادالبور أحسن حالاً من غيرهم. فالراجا أعدل وأكرم من معظم ملوك الولايات المجاورة. لم يطالبهم بأداء الضريبة كاملة بسبب ضعف المحاصيل، وكثيراً ما يؤدّي لمرابي القرية ديون من استدانوا بسبب زواج إحدى بناتهم أو أقعدهم المرض عن العمل. لكن قبل بضعة أشهر، أخذ يتردّد على القرى أشخاص متعلّمون، يعرفون القراءة والكتابة، يحرّضون الفلاحين على التوقّف عن دفع الضرائب، ويزعمون لهم أنّ من حقّهم الاحتفاظ بمحاصيلهم كاملة لا ينقصون منها كوز ذرة أو حبّة قمح! بطبيعة الحال لم يصدّق الناس كلامهم، ولم يجرؤ أحد على إخبار السيد بذلك، لكن هذا الكلام يبعث على القلق مع ذلك.

راح الناس يتذرّعون بالمطر والبرد والحرّ والجفاف لكي يزعموا بأنّهم لن يستطيعوا الأداء هذه السنة. هكذا، بعد أن يجمع الراجا مجلسه ويتداول مع الديوان وأمين المال ورئيس الشرطة، يفتح بابه لكلّ راغب في مقابلته من دون حاجة إلى التقدّم بطلب لذلك. لا فرق بين كبار الملاك وعمداء القرى وبين صغار الفلاحين، فهم يأتون لعرض مشاكلهم، والحصول على مساعدة أو تحكيم لتسوية نزاع من النزاعات.

وكانت سلمى تحبّ أن تنظر إلى أمير وهو يستقبل رعاياه. تتسلّل إلى الشرفة وتجلس بصمت تراقبه وهو جالس في الأسفل وقد ارتدى قميصاً خفيفاً من الموسلين، مرصّعاً باللؤلؤ الناعم، يروّح عليه خادمان معمّمان بينما يقف خلفه بلا حراك ستّة حراس مسلّحين. وهو أمر متّصل بالبروتوكول أكثر ممّا هو ضرورة أمنيّة. فكما يقول أمير، لا ينبغي تخييب انتظار الشعب، مهما يكن، فهم آتون لزيارة ملكهم!

وقد استغربت سلمى هذا الصباح وجود امرأة بين المتظلّمين. ماذا تفعل هناك يا ترى؟ فالأمور تسوّى دائماً بين الرجال. تخفي أسفل وجهها بقطعة قماش سوداء، تتدلّى مستقيمة على نحو غريب. والأغرب من ذلك أنّ نساء الفلاحين لا يرتدون الخمار في العادة، لأنهنّ يشتغلن إلى جانب الرجال في الحقول. ثمّ إنّ الحجاب ولزوم البيت هما في الواقع رمزان يدلان على وضع المرأة الاجتماعي، أيّ أنّها ليست مضطرّة للعمل.

وحول المرأة ذات الخمار الأسود يوجد رجال يومئون بأيديهم، ويبدون كما لو أنهم يتشاتمون. وانضمّ رجال آخرون إلى المجموعة، وراح كلّ واحد منهم يحكي قصّته، ويعطي وجهة نظره. أمّا المرأة فبدت متصاغرة. يطرح الراجا بعض الأسئلة بتروٍّ، وينصت إلى الأجوبة، ثمّ يحكم أخيراً: أداء غرامة بقيمة ثلاث روبيات. يهدأ الرجال وينسحبون، تتبعهم المرأة مهرولة صامتة.

ولما صعد أمير أخيراً إلى الغرفة، سألته سلمى بحيرة:

ـ ماذا جرى؟

ـ لا شيء ذا بال. الرجل يتّهم زوجته بخيانته، ولكي يعاقبها، جدع أنفها بضربة من سيفه. وهي تقسم بأغلظ الأيمان بأنّها بريئة، وقد جاءت عائلتها تشكوه.

حدّقت سلمى في أمير بامتعاض.

ـ وكيف حكمتَ عليه بثلاث روبيات فقط مع أنّه جدع أنف المرأة؟

ـ لقد خرجت بأقلّ الأضرار. فلو صحّ أنها مذنبة، كان بوسعه أن يقتلها من دون أن أستطيع إدانته. هذا هو العرف هنا.

ـ وإذا كانت بريئة؟

ـ هي على كلّ حال مذنبة لأنّها أثارت حولها الشبهات بسبب تصرفاتها، وأساءت لشرف زوجها.

راحت سلمى تنظر إلى أمير مصعوقة: مستحيل! هو من يحمل فكراً عصريّاً متطوراً، من درس في أرقى جامعات إنجلترا يبارك هذه السلوكات القرسطوية الموروثة؟

... ولاحظ اضطرابها.

ـ لا أستطيع أن أنطق بحكم آخر. لو تعاملت مع الزوج بصرامة أكبر، ما من أحد كان سيفهم تصرّفي، حتى الزوجة نفسها وعائلتها أنفسهم.

ـ لكن كان عليك أن تشرح لهم وتُفهمهم. فأنت الوحيد المؤهّل لهذا الأمر!

ـ أأنا سأغير عقليّتهم؟ أتمزحين؟ هذا يتطلّب قروناً! ثمّ من أكون حتّى أحكم على قيمهم وعلى قانون الشرف لديهم، وأسعى إلى تغييره؟ كلّ ما بوسعي أن أفعله هو أن أحملهم على احترامه على الأقلّ.

فردّت سلمى بصوت متهدّج:

ـ ولكن من غير المعقول أن تباركهم فيما يفعلون؟

فقال الراجا وهو يتطلّع إليها بطرف عينه:

ـ اطمئنّي يا عزيزتي. لئن أراكِ ميّتة خير عندي من أن أراك مجدوعة الأنف. فهؤلاء الناس ليس لديهم أيّ إحساس بالجمال!

ثمّ أضاف وهو مستغرق يداعب حبّات سبحته:

ـ ... ولكنني لست متأكّداً من أنّهم مخطئون في أمور أخرى كثيرة...

لا تكاد تبعد قرية أوجبال بميل واحد عن القصر، إذ تستطيع سلمى

أن ترى من الشرفات منازل الطوب المسقوفة بالقش، وأفنيتها الداخلية حيث تجلس النساء مقرفصات أمام النار لتحضير فطائر القمح التي تشكل مع البصل أساس الغذاء هناك.

لم تتخطّ أسوار القصر منذ أن حلّت في بادالبور قبل أسبوع، باستثناء جولاتها مع أمير على صهوة الحصان. وهي تشعر بنفسها كما لو أنّها خارج الحياة الحقيقية، الحياة التي تجري هنالك، في تلك القرية حيث تكدح النساء بجانب الأطفال وهم يلعبون، وحيث يجتمع الرجال حول كأس شاي يتجاذبون أطراف أحاديث لا تنتهي، بينما تذهب بنات رشيقات، وقد حملن جراراً من النحاس على رؤوسهن بتوازن، لجلب الماء من البئر، تتبعهنّ جماعات من الشبان متظاهرين بعدم الاكتراث بوجودهنّ.

كان كلّ شيء في الأيّام الأولى جديداً: سحر الريف وجمال هذا القصر الأبيض، متعة أن تكون هي الراني لا تلك الغريبة التي يتحمّلون نزواتها مكرهين. وقد استمتعت بكلّ هذا أيّما استمتاع. أمّا الآن، فيبدو لها الزمن ثقيلاً، لا سيما بعد سفر زهرة إلى لوكنو للدراسة.

وتفكّر في أن تفعل شيئاً، ولكن كيف؟

كانت الراني سعيدة تستقبل النساء في فترة بعد الظهر، لأنهن يكنّ منشغلات بأعباء البيت أو بالعمل في الحقول صباحاً. ولمّا أطلعتها سلمى على شعورها، قالت لها:

ـ أخبريهنّ بأنّك مستعدّة لمساعدة كلّ من ترغب في المجيء...

ثمّ ضحكت قبل أن تسترسل:

ـ أعلمك سلفاً بأنّ بيتك سيحتشد بالنساء. ستستبدّ بك الحيرة ولا تعرفين ما تصنعين! غير أنّك محقّة، فهذا واجبك بوصفك راني. أنا أيضاً فعلت هذا في الماضي، لكنّ سنّي المتقدّم لم يعد يسمح لي بذلك...

وكدّر الحزن زرقة عينيها لحظة.

ـ إنّهن بمثابة بناتنا، وتنتظرن منّا كلّ شيء. وددت لو أنني استطعت أن

أفعل أكثر ممّا فعلت، لكن في حياة الراجا زوجي، لم يكن ذلك ممكناً، وفيما بعد فترت همّتي... أمّا أنتِ، فما زلت شابّة، وقد جُبت العالم، ومن ثمّة تستطيعين تغيير أشياء كثيرة هنا. عندئذ أستطيع أن أموت مرتاحة البال، متيقّنة من أنّ نساء بادالبور وأطفالهن لن يطاولهم الإهمال.

وكما توقّعت الراني سعيدة، صارت الصالة التي هيأتها سلمى في الطابق السفلي لا تفرغ أبداً. ذلك أنّ نساء الفلاحين يأتين في كلّ حين برفقة أسراب من الأطفال. يجلسن عند قدم الراني، ويشرعن يسردن لها قصصاً لا تنتهي، لا تفهم منها شيئاً. لهذا طلبت مساعدة ابنة بيغوم نصرت الكبرى التي تعلّمت الإنجليزية في مدرسة الراهبات، وهي من أفضل المدارس في لوكنو. كما حرصت على تعيين خادمتين لتقديم الشاي. وهما إن كانتا سعدتا بتعيينهما في خدمة الراني، إلا أنّهما استاءتاأنهأ التي كثيراً من تكليفهما بخدمة هؤلاء النساء القذرات البدائيات، واعتبرتا ذلك إزراءً بهما. لكنّ سلمى أظهرت الحزم: فواجب الضيافة يقضي بأن يُقدّم فنجان شاي على الأقل لهؤلاء النساء اللواتي تحمّلن عبء المجيء للقائها، وهو شاي بالغ الحلاوة، مطبوخ مع كميات كبيرة من الحليب والسكر، يرتشفنه بمتعة كبيرة.

بعض هؤلاء النساء يأتين من قرى بعيدة. وقد فُرشت أرضية غرفة كبيرة من أجلهنّ بأفرشة بيضاء حتّى يتمكنّ من المبيت قبل الانصراف في اليوم الموالي. على أنّ بعضهنّ يطيب لهنّ المقام، فيعدلن عن الرجوع إلى قراهنّ، لا سيما العجائز اللواتي لا أزواج لهنّ ولا أطفال يعتنين بهم. أليست الراني أمهنّ وحاميتُهنّ؟ وهكذا بدأ القلق يساور سلمى وهي ترى القصر يمتلئ. سينتهي الأمر بأمير بأن يلاحظ ذلك، فيغضب ويطردهنّ. فما العمل إذن؟ فاتحت الراني سعيدة في الموضوع، فانفجرت ضاحكة.

ـ ولكنهنّ لن يرحلن يا بنيتي ما لم تقدّمي لهنّ هديّة صغيرة! اؤمري بتحضير علب فيها شيء من الكباب والحلوى، وأضيفي لها خمس روبيات، واحرصي على إخبارهنّ بأنّها هديّة الوداع.

ـ ... ألن يسوؤهنّ ذلك؟

ـ يسوؤهنّ؟ يا لها من فكرة! بالعكس، سيشرفهنّ. أنا واثقة من أنهنّ سيحتفظن بالعلبة لكي يرينها لجاراتهنّ. احرصي على تزيينها بشريط أحمر، فهذا هو لون السعادة...

السعادة... فهل لهؤلاء النساء اللواتي يتردّدن طيلة اليوم على القصر فكرة عن السعادة؟ يقصصن، الواحدة تلو الأخرى، مآسيهن الناجمة عن الفقر: فهذه على وشك أن تفقد طفلها بسبب نوبة برد، رغم صلوات البراهمة، وتلك ابنتها طلّقت لأنها لا تنجب؟ يقال إنّ في المدينة طبيبات، ولكن أين هو المال؟ وثالثة تقول إنّ زوجها عاطل، والأطفال يموتون جوعاً، والمرابي الذي أقرضهن خمس روبيات يهدّد بالحجز على المنزل... وينظرن إلى الراني وهن مفعمات بالأمل: فهي تبدو طيّبة، وستساعدهن بكل تأكيد.

في بادئ الأمر، استجابت سلمى للمطالب، فكانت تقدّم عشرين روبية لهذه، وثلاثين لتلك، وهي مبالغ أصغر من أن تخفّف هذه المحن. ثمّ لاحظت أنّ مواكب هؤلاء البئيسات تتزايد، وأنّ هذا البؤس لا نهاية له، أشبه بهوّة سحيقة لا قرار لها، وأنّ حتّى صناديق الدولة، على فرض أنّ لها صناديق، لن تكفي. وأدركت أنّها لن تستطيع حلّ هذا السيل الجارف من المشاكل. فكيف لها أن تُفهمهنّ أنها لا تستطيع مساعدتهنّ جميعاً؟ لن يصدّقنَها. لن يعلقن بشيء، ولكنهنّ سيقلن في أنفسهنّ إن الراني لا تختلف عن باقي الأغنياء، وأنهنّ أخطأن حين أملن في مساعدتها. سيحدّقن فيها بنظراتهنّ الحزينة المذعنة... نظرة الفقراء الذين اعتادوا على الخيبة.

ولمّا أسرّت سلمى لأمير ذات مساء بما تشعر به من ضيق، أجابها بحزن قائلاً:

ـ أفهم شعورك... ولكنّك ستتعوّدين على هذا مثلما تعوّدنا نحن

جميعاً. هذا هو الجانب الأكثر مأساوية في الأمر: حتّى أشدّنا رهافة وحساسية تقسو قلوبهم وتتصلّب في النهاية. وماذا عسى الإنسان أن يفعل؟ أن يرحل إلى مكان آخر، ويعيش في المنفى؟ أن ينتحر؟ أن يشمل طيلة اليوم لكي لا يرى أوضاعاً قد يصيبه الجنون إن تأمّلها؟ ليست لديّ أي فكرة. لا شيء مما تعلمناه ونؤمن به، ممّا يكوننا كمخلوقات إنسانية، لا شيء يمكن أن يبرّر آلام هذا الشعب، واحتضاره الطويل. لمّا كنت طالباً في إنجلترا، كنت أعتقد أنّ الشيوعيّة هي الحلّ. وكان أصدقائي يسخرون منّي ويلقبونني «الراجا الأحمر». وحين عدت إلى بلدي، أدركت بسرعة بأنّ لا أحد يرغب في الثورة، لا سيما الفلاحين. فقد أقنعَتْهم قرون من العبودية والعجز بأنهم مهما صنعوا، لن يغيّروا شيئاً.

ـ أتُراهم مخطئين لأنّهم يتّبعون المهاتما!

ـ هم مخطئون بالطبع. فغاندي بفلسفته القائمة على اللاعنف هو الوقاء الوحيد الذي وجدته بورجوازية الأعمال لمُقاومة الثورة الاجتماعية. لهذا فهي تموّله هو وحزبه بسخاء. تموّله من أجل هذا طبعاً ومن أجل طرد الإنجليز الذين يتحكّمون في اقتصاد البلد ويحولون دون أن يملأ هؤلاء التجار الهندوس جيوبهم كما يشاءون. ولكن لا تكوني واهمة. إن خرج الإنجليز، سيجد الشعب نفسه في نفس البؤس الذي كان فيه، مع فارق وحيد هو أنّ من يستغلونه سيكونون أناساً من نفس لونه.

ـ من يستغلونه اليوم هم أناس من نفس لونه: الملاكون الكبار والأمراء...

فأجاب أمير وقد قطّب جبينه وهو يحدجها بنظرة قاسية:

ـ طبعاً، من يستغلّه هو أنا وأنت. فماذا تنتظرين لكي تتركي هذا القصر وتلبسي سارياً من قماش وضيع، وتنزلي إلى الفلاحين لتحرضيهم على التمرّد؟ سيعتبرونك مجنونة وقد يقتلونك في نهاية المطاف!... صدّقيني، الأمر أعقد ممّا نتصوّر... قد تُشعِرنا التضحية الشخصية بالمتعة، لكنّها لن تفيد في شيء.

وارتسمت معالم الريبة على سحنة سلمى. فأضاف أمير وهو يهزّ كتفيه:

ـ ألا تصدقيني؟ حسناً! جرّبي بنفسك وسترين!

لفتت نظر سلمى شابتان جميلتان من بين النساء اللواتي يأتين لزيارتها بانتظام. كبراهما قد تكون في السادسة عشرة من عمرها، تلمع على جبينها تيكا[1] حمراء تميّز عادة المتزوّجات. أمّا الثانية، وهي بالكاد في سنّ المراهقة، فترتدي سارياً أبيض، ولا تضع أيّ زينة، بما في ذلك الأسورة الزجاجية التقليدية التي تشعر الهنديات من دونها وكأنّهنّ عاريات. تجلس الشابتان الواحدة بجوار الأخرى لساعات وهما تحدّقان في سلمى، ما شغل بالها، وانتهى بها أن سألتهما إن كانتا ترغبان في شيء.

ـ كلا يا هوزور، كلّ ما نريد هو أن ننظر إليك. هذا مصدر بهجة بالنسبة إلينا. فأنت بالغة الجمال.

أخبرتاها بأنّ الكبرى، وتدعى بارفاني، متزوّجة من رجل يكبرها بأربعين سنة. وهو يعاملها بطيبة ولا يرسلها إلى العمل في الحقول، ويهديها كلّ سنة، في مهرجان الأنوار أو الديوالي، سارياً من حرير. أمّا الصغرى، وتسمى سيتا، فأرملة. تزوّجت في الحادية عشرة من عمرها، ولم تكد تمضي ستّة أشهر تقريباً على زواجها حتّى فقدت زوجها، وهي تسكن مع عائلته، وتقوم بجميع أشغال البيت إلا الطبخ بطبيعة الحال... يا لها من مسكينة! وتتطلّع إليها سلمى بإشفاق. لم يمض على إقامتها في الهند وقت طويل، لكنّها تعرف المصير الذي تؤول إليه الأرامل الهندوسيات. إن حالفهن الحظ وأفلتن من «السوتي»، الذي يقضي بأن يحرقن مع جثث أزواجهنّ ـ وهي عادة منعها الإنجليز منذ ١٩٢٨، لكنّها ما زالت تمارس بعد قرن من ذلك ـ سيعشن بقيّة حياتهنّ منبوذات. إذ

---

(١) علامة تضعها النساء الهندوسيات على جباههن، وهي خاصة بالمتزوجات وتعني السعادة وعين الحكمة.

يُعتقد أنهنّ مسؤولات عن موت الأزواج بسبب خطايا ارتكبنها في حياتهن السابقة. ومن ثمّة ما دمن نجسات، لا يحقّ لهنّ الطبخ ولا الأكل مع الآخرين ـ إذ يكتفين ببقايا الطعام ـ بل لا تحقّ لهنّ حتّى العناية بأطفالهنّ.

قالت سيتا وهي تبتسم:

ـ من حسن حظّي أنني لم أنجب، وحماتي ليست سيّئة بحيث إنّها لم تسجنّي ولم تحلق رأسي جرياً على ما يُفعل بالأرامل. لكن ما ينقصني هي الاحتفالات... فأنّا شديدة الولع بالموسيقى والألوان! صرت ممنوعة من حضور الحفلات، يقولون إنّني نذير شؤم.

فقالت سلمى مستنكرة:

ـ يا له من غباء! تعالي اجلسي بقربي.

تردّدت سيتا، وألقت نظرة خائفة على النساء الأخريات، وودّت لو أنها موجودة في مكان بعيد من هنا، لكن كيف لها أن تعصي أمر الراني...؟ واقتربت منها وهي ترتعش.

قالت امرأة تلبس الغرارا بصوت عال:

ـ مسكينة هذه الطفلة! الأرامل عندنا لا تُساء معاملتهنّ، بالعكس، فنحن نقدّرهن بل نسمح لهنّ بالزواج من جديد. وقد أعطانا نبينا المثال لمّا تزوج خديجة، أولى نسائه، وهي أرملة.

وضجّ الجمع، ولم يجرؤ أحد على التعليق: أليست الراني مسلمة؟

وتقدمت خلف سيتا رفيقتها بارفاتي.

ـ لماذا لا تزورين قريتنا يا هوزور؟ هناك نساء كثيرات يرغبن في رؤيتك، لكنهنّ لا يجرؤن على المجيء إلى القصر. ثمّ هناك الأخريات، المنبوذات اللواتي منعهنّ شيخ القرية من إزعاجك بمجيئهنّ.

ـ المنبوذات؟

ـ نعم، أولئك اللواتي لا يقترب منهن أحد لقذارتهن، بل حتّى ظلهن نجس... لن تستطيعي زيارتهن في بيوتهن بطبيعة الحال، لكنّك ستسمحين لهنّ برؤيتك من بعيد على الأقل، وهو أمر سيدخل الفرحة على قلوبهنّ!

كيف السبيل لإفهام هذه الطفلة أنّ الراني لا يحقّ لها تجاوز أسوار القصر؟

ـ أعدك يا بارافاتي بأنّني سآتي.

ـ لن تذهبي. أتظنّين بأنّك ستفيدين هؤلاء الناس بشيء إن أنت اختلطت بهم؟ بالعكس، ستصدمينهم، هذا كل ما في الأمر.

ـ سأذهب.

استشاط أمير غضباً، لكنّ سلمى قرّرت ألا تتنازل هذه المرّة. هناك نساء بئيسات ينتظرنها هناك، أيحقّ لها أن تُخيّب أملهنّ، وتتركهنّ يعتقدن أنّها لا تبالي بهنّ؟

ـ نيلوفر ودوروشهفار لا تقيّدهما هذه القيود، يزرن المشافي وملاجئ الأيتام...

ـ هنّ لا يزرن القرى.

ـ بلى، وقد رأيت صورهنّ!

كذبتْ، ولكن لا بأس، فقد كسبتْ نقطة: كلّ الهند معجبة بزوجتي ابني النظام، وما تفعلاه لا يستهجنه أحد.

وتملكت أمير الحيرة.

ـ حسناً، فلنطلب من الراني سعيدة رأيها في الموضوع.

وهو يثق ثقة تامة بحكم المرأة العجوز. ألم تسيّر الدولة لمدّة خمس عشرة سنة؟ هي تعرف، أكثر من أيّ كان ردود أفعال الفلاحين الذين

يشكّلون بالنسبة لأمير، الموزّع بين حساسيته الهندية وثقافته الإنجليزية، ألغازاً مبهمة.

أجابت الراني:

ـ دعها تذهب، فالزمن تغيّر. أنا نفسي لو أتيحت لي الفرصة لأتأكد ممّا كان يُحكى لي لما كنت ارتكبت كثيراً من الأخطاء.

قطّب الراجا حاجبيه. فقد أدهشته جدّته بتفتّحها، هي التي لم تخرج من القصر طيلة حياتها. لكنّه وعد بالعمل بنصيحتها. وقال لسلمى بنبرة جافّة:

ـ حسناً، ستذهبين، لكن سيرافقك حارسان مسلّحان.

٧

كتبت سلمى إلى أمّها: «لا يمكن أن تتخيّلي قرية هندية. فمن شرفات القصر تتراءى بيوتها طينية مسقوفة بالقش ذات مسحة شعرية خاصة. لكنك ما إن تقتربين منها حتى تحبس أنفاسك رائحة لاذعة، رائحة البراز البشري الذي يمكن أن تعلق فيه قدمك إن لم تسيري بحذر شديد. ذلك أنّ الفلاحين يتغوطون حيثما اتّفق، وهم يفضلون أقرب الأماكن إلى القرية. ثمّ إنّهم لا يستترون، . فهم يعتبرون ذلك عملاً طبيعياً لا يتحرّجون منه. وهكذا إذا مررت في الهودج، ترينهم مقرفصين على طول الطريق، تشي ملامحهم باستغراقهم في التأمّل. على أنّني لم أر نساء في هذا الوضع.

وليست للمنازل نوافذ. لها باب صغير يفضي إلى فناء داخلي يعيش فيه جميع أهل الدار. فهو المطبخ وقاعة الأكل وقاعة الاستقبال، وفي الصيف يتحول إلى غرفة. بل إن معظم المنازل لا تضمّ غير غرفة واحدة، وقد تضمّ غرفتين بالنسبة للأغنياء، يتزاحم فيها الرجال والنساء والأطفال عند حلول البرد. لكنها واسعة بما فيه الكفاية بما أنّها خالية من الأثاث، باستثناء سرير أو سريرين من الحبال، وصندوق لحفظ ملابس الاحتفالات والأعياد.

تملّكتني الحيرة وأنا أرى من بعيد النساء يقضين ساعات مقرفصات يعجنّ شيئاً أشبه بالوحل، ويصنعن منه فطائر مبسّطة كبيرة، يلصقنها على جدران بيوتهنّ. فإذا ما جفّت في الشمس، رتّبنها في الفناء على شكل

أهرام ذات نظام بديع. أتعرفين ماذا تعجن أيديهنّ العارية بكلّ هذه العناية؟ إنّه روث البقر! يبدو أنّه وقود ممتاز، يُستعمل للتدفئة وطبخ الطعام. أتضحكين؟ لعلّنا نحن من نثير الضحك باشمئزازنا من كلّ ما يخرج من الجسد.

لعلك اطّلعت على ما تحكيه الجرائد من اضطرابات بين الهندوس والمسلمين. اطمئنّي، القُرى ها هنا تمثّل نموذجاً للتسامح الطائفي. إنّ ٦٠٪ من ساكنة أوجبال من الهندوس، و٤٠٪ من المسلمين، وهم يعيشون في وئام وتفاهم. مساكنهم وآبارهم منفصلة. مساكن المسلمين تحيط بالمسجد بينما تحيط مساكن الهندوس بمعبدهم. لكنّ هذا لا يمنعهم من اللقاء وتبادل الزيارات، وإن كانوا لا يأكلون طعام بعضهم بعضاً. إذ يعتبر الهندوس المسلمين ـ بمن فيهم أنا أميرتهم ـ أنجاساً. بل إنّهم هم أنفسهم مقسمون إلى طبقات، ويعتبرون بعضهم بعضاً أنجاساً، باستثناء البراهمة الذين يشكلون الطبقة العليا التي تشارك الآلهة قدسيتها، ويلقب أفرادها بالعلماء ذوي الاطلاع الواسع حتى ولو كانوا أمّيين.

وفي أدنى السلم توجد مخلوقات تعيسة ينبذها الجميع، ولا تكاد تُحسب على البشر. إنّهم أولئك الذين لا ينتمون إلى طبقة من الطبقات، والذين لا مكان لهم في المجتمع. وهم يُنعتون أيضاً بـ«المنبوذين». وكلّ من ابتلي بلمسهم والاتصال بهم، عليه أن يتطهّر عبر اتّباع جملة من الشعائر. أمّا مساكنهم فتوجد في أقصى القرية، وهي عبارة عن أكواخ حقيرة. وهم منذورون للقيام بالأعمال «المُخزية» مثل تنظيف المراحيض وإصلاح الأحذية... ولا تحقّ لهم الصلاة في المعبد ولا حتّى جلب الماء من نفس البئر الذي يستسقي منه الآخرون. فإذا ما جفّت بئرهم، وهو ما حدث مؤخّراً، تعيّن على نسائهم أن يمشين أميالاً وأميالاً للعثور على بئر أخرى.

لمّا زرت القرية لأوّل مرّة، أثرتُ ثورة حقيقية بإلحاحي على الذهاب إليهنّ ولقائهنّ. كنت أعتقد بأنّهن سيسعدن بذلك، على أنهنّ شعرن أكثر

بالخوف، ليس منّي بل من الآخرين الذين سينتقمون منهنّ لخروجهنّ عن الأعراف. أما الآن، فقد اعتدن على هذا الأمر. آه لو تعلمين كم هنّ ممتنّات لحضوري بينهنّ أكثر ممّا أجود به عليهن! لن تتصوري كم هنّ مرهفات! لكنهنّ لم يقدّمن لي قط كأس شاي مخافة أن «تلوّثنني».

وحتّى لا ألوّث مساكن الآخرين، أحرص على تأجيل زيارتهنّ إلى الأخير. أظنّ أنّ هذا حلّ المشكلة. إنها المرة الأولى منذ حلولي بالهند التي أشعر فيها بسعادة حقيقيّة. وها أنذا أشعر بنفسي أخيراً مفيدة ومحبوبة».

صارت سلمى تتردد على القرية عدّة مرّات في الأسبوع. تحمل معها أدوية وملابس، وكذلك دفاتر وأقلاماً للأطفال. وقد تدبّرت أمرها بحيث صارت تتخلّص من الحارسين بمجرّد الوصول إلى مدخل القرية. تتركهما يذهبان لشرب الشاي مع كبار السنّ من الرجال. فإذا تحرّرت، جلست مع النساء لساعات. تتنازع العائلات شرف استقبالها، فيتعيّن عليها أن تحاذر من إثارة الحساسيات بينها. على أنّ لديها من تؤثر زيارتهنّ: الشابتان الهندوسيتان اللتان اقترحتا عليها أوّلاً زيارة القرية، لا سيما سيتا، تلك الأرملة الصغيرة التي منحتها حمايتها، وكنيز فاطمة، تلك المسلمة الحيويّة وحادّة الذكاء التي لا تخشى من إعطاء رأيها حتى وإن كان ذلك يثير عليها العداوات. فهذه المرأة المكتنزة ذات الوجه الناعم أنجبت أحد عشر طفلاً، وبنتها البكر، ذات الأربعة عشر ربيعاً، رزقت بولد مؤخّراً. ولم تتمالك سلمى نفسها، فسألتها عن سنّها. بعد تفكير أجابت:

ـ أذكر أنّني كنت أبكي لمّا غادَرَنا والدي ليذهب للقتال مع الجيش الإنجليزي في بداية الحرب الكبرى. كنت على الأرجح في الثالثة من عمري.

نظرت إليها سلمى مذهولة وقالت في نفسها: كان عمرها ثلاث سنوات في ١٩١٤! فهي في مثل سنّها...

جاءت كنيز فاطمة ذات يوم بصحبة عشر نساء أخريات، وانتحين بسلمى وقلن لها:

ـ أنت تعرفين أشياء كثيرة يا راني صحيبة ونحن فلاحات بئيسات جاهلات...

وضحكت سلمى من هذه المقدمة. لقد تنبّهت منذ زمن طويل إلى أنّ هؤلاء النسوة يتفوّقن على كثير من المثقفات فطنةً وحكمةً. لكنّها إن قالت لهن ذلك، سيعتقدن بأنّها تسخر منهنّ. فهنّ يحملن إعجاباً لا حدود له لكلّ من يعرف القراءة والكتابة.

ثمّ استرسلن قائلات:

ـ نودّ أن تكون حياة بناتنا أفضل من حياتنا. وكيف لهنّ ذلك إن كنّ لا يعرفن غير فلاحة الأرض وتحضير الطعام؟ فتح الراجا الراحل مدرسة للأولاد. والنتيجة هي أنّ رجالنا يحتقروننا الآن رغم أنهم لا يعرفون أكثر من كتابة أسمائهم. نريد يا راني صحيبة مدرسة لبناتنا.

ورحن يحدّقن في سلمى بعيون يتلألأ فيها الأمل. فالمدرسة بالنسبة إليهنّ هي دواء كل الأدواء، هي المدخل إلى الجنة.

ـ وما رأي أزواجكنّ؟

ـ لم نذكر لهم شيئاً من هذا. لو سمعونا لضربونا. لا ينبغي أن يعلموا بأنّنا فاتحناك في هذا الموضوع.

ـ وبقية النساء، موافقات؟

ـ كلهنّ تقريباً، لكنهنّ يزعمن بأنّ الرجال لن يسمحوا بذلك أبداً... اللهم إلا إذا قرّر الراجا ذلك؛ حينئذ ماذا بوسعهم أن يفعلوا؟

وعدتهُنّ سلمى بأن تفاتح الراجا في الموضوع، فارتمين بحماس على يديها يقبّلنهما، وهن واثقات من كسب المعركة. وشرعن يتناقشن في التفاصيل: أين ستشيّد المدرسة؟ وكم عدد التلميذات اللواتي ستستقبل؟ وأين ستعثرن على المعلمين؟ وسايرتهنّ سلمى في حماسهنّ:

كلّما أمعنت في التفكير في الأمر، زاد اقتناعها بأنّ المدرسة هي أفضل وسيلة لمساعدتهنّ.

كان شغف سلمى بأنشطتها الجديدة من الشدّة بحيث صارت تجد صعوبة كبيرة في الاهتمام بما يحدثها عنه أمير حين يلتقيان في المساء، ويشرع في إخبارها بالأحداث التي تهزّ العالم. فنجاحات هتلر وتهديده لأوروبا، والحرب الأهلية الإسبانية والمشروع الإنجليزي القاضي بتقسيم فلسطين بين اليهود والعرب، كلّ هذا يبدو لها كما لو أنّه يقع في عالم آخر، عالم لم تعد تربطها به أيّ علاقة. ثمّ إنها لا تفهم، ولم تفهم قطّ، كيف يقلق الإنسان على أمور لا سلطان له عليها. فتنظر إلى أمير بشيء من الشفقة، أمّا هو فيقول في نفسه بانزعاج إنّ النساء حيوانات صغيرة لا تفكّر إلا أوكارها.

لكنّ وكر سلمى الآن هي بادالبور، والهند عموماً. على أنّها سرعان ما تخلّت عن لامبالاتها حين أخبرها أمير بهواجسه اتّجاه ما اتّخذه حزب المؤتمر من مواقف.

ـ أعضاء الرابطة الإسلامية غاضبون من المؤتمر الذي قرّر مؤخّراً تشكيل حكومات محلّيّة مؤلّفة من أعضائه فقط، هذا في الوقت الذي كان فيه الحزبان قد اتفقا في هذا الشتاء على توحيد قواهما ضّد الحركات الرجعية الموالّية للبريطانيين. كما كان من الواضح ضمنيّاً أنّ منتخبين من الرابطة سيشاركون في الحكومة. ففي ما يخص حكومة لوكنو مثلاً، كان من المفروض أن تضمّ عضوين مسلمين من أصل سبعة. لكنّ نهرو، رئيس المؤتمر يزعم الآن بأنّ هذا شيء مستحيل، ويناقض مبادئ حزبه، ويقول إنّه إن وُجِد مسلمون في الحكومة، فعليهم أن يتركوا الرابطة، ويصيروا أعضاء في المؤتمر. بل بلغت به الوقاحة أن ردّد جلمته الشهيرة: «ليس في الهند سوى حزبين: المؤتمر والحكومة (أي الإنجليز). أمّا البقيّة، فعليها أن ترضخ». وهو يرفض التسليم بأن هذا الأمر يشكّل مصدر قلق للأقلّيّة المسلمة.

ما مصير هذه الأقلية في هند يقودها الهندوس؟ يطالب جناح أن يحدّد هذا الوضع مسبقاً، فيردّ عليه نهرو باستخفاف بأنّ الطائفتين لا يوجد بينهما أيّ مشكل، وأنّ الرابطة الإسلامية منظّمة من مخلّفات القرون الوسطى، ولا مبرّر لوجودها.

ـ وما رأي غاندي؟

ـ غاندي لا يهتمّ بهذه التفاصيل، هو يبحث عن الحقيقة. يقرأ كلّ صباح البهاغافاد غيتا(*) والإنجيل والقرآن. وبالنسبة إليه، كلّ الناس إخوة، والمشاكل ستحلّ إن اتّبعوا توجيهاته وبذلوا ما في وسعهم لبلوغ النقاء الأخلاقي.

لكنّ جناح وعدداً متزايداً من المسلمين يزعمون أنّ المهاتما دجّال يستغلّ الدين لأهداف سياسية. وأنا لا أتّفق معهم. غاندي بالنسبة إليّ رجل مجنون، يجري وراء يوطوبيا لا أساس لها من الواقع. على أنّ هذه اليوطوبيا تملك جاذبية شديدة، وتأثيرها على الحشود كبير. إنّ غاندي هو الشرارة التي ستُشعل النار. أمّا المؤتمر فيرسم بعناية الطريق التي يتعيّن على هذه النار أن تتّبعها. وأنا أعتقد أنّ غاندي غير واعٍ بالكيفية التي يستغلّونه بها.

استدعى كبار القرية هذا المساء أرباب الأسر كلهّم، مسلمين وهندوساً، باستثناء المنبوذين طبعاً، وهو ما استنتجت منه النساء أنّ شيئاً خطيراً وقع، لكنّهنّ لم ينجحن في معرفته رغم ما بذلنه من مساعي.

جلس الرجال ساهمين على أكياس القنّب، وكانت النرجيلة تنتقل من فم إلى آخر. القضية بغاية الأهميّة، ويمكن أن تكون لها تداعيات خطيرة على مستقبل الجماعة، لذلك لا ينبغي إطلاق الكلام على عواهنه.

(*) Gitâ- Bhagavad تعني حرفياً بالسنسكريتية «نشيد الرب»، وهي عنوان الجزء الأوسط من ملحمة المهابراتا. كما أنّها تعد من النصوص المؤسسة للعقيدة الهندوسية. (المترجم)

قال أحد الشيوخ متنهّداً:

ـ الزمان تغيّر. لم يخطر ببالي قطّ أنّني سأرى مثل هذا في حياتي.

ـ ماذا ترى يا عمّ؟ لم يتقرّر شيء بعد!

وقال آخر:

ـ منذ البداية كنت أعرف أنّ الأمور ستنتهي نهاية سيئة. هذه الطريقة التي تأتي بها الراني إلى القرية لم نشهدها عند أيّ راني قبلها. وليتها اكتفت بزيارة العائلات المحترمة، هي تجالس المنبوذات! لقد أنزلت بنا العار حتى صرنا أضحوكة بين القرى.

وأمّن الرجال على كلامه وقد علا الوجوم وجوههم.

ثمّ أضاف أحدهم:

ـ مع أنّها ليست سيّئة... لم تعتن أميرة قطّ بنسائنا وأطفالنا مثلها.

ـ أهكذا يكون الاهتمام بنسائنا؟ بحشر رؤوسهنّ بمثل هذه الأفكار الهدّامة! ثمّ ماذا يمكن أن ننتظر من إنجليزيّة؟

ـ ليست إنجليزيّة. هي مسلمة.

ـ ربّما، لكنها في العمق إنجليزيّة!

وقف شيخ القرية وقال:

ـ أقترح أن تنتدبوا بعض الحكماء لبرافقوني فنفاتح الراجا في الأمر. ينبغي أن تتصرّفوا بسرعة قبل أن يُتّخذ القرار ويفوت الأوان. بعد ذلك لن يكون أمامنا سوى الإذعان للأمر الواقع.

وأمّن الجميع على قوله. ذلك أنّ شيخ القرية رجل ثاقب الفكر، يعرف كيف يعثر على حلول لأكثر المشاكل استعصاء. وانتُقِيَ بعض الرجال من دون جدل ولا نقاش. فالجميع يعرفون من هم الحكماء. وانفضّ الجمع، وراح كلّ إلى سبيله مرتاح البال: لن يكون الراجا إلا من رأيهم. رغم ثقافته الإنجليزية، فهو واحد منهم على كلّ حال!

ـ كان عليك أن تخبريني بالأمر! يأتون لمفاتحتي في «مشروع» لا أعلم عنه شيئاً!

استشاط أمير غضباً. شعر كما لو أن سلطته مُرّغت في التراب أمام هؤلاء الفلاحين، والأدهى هو أنّ ذلك بسبب امرأة!

ـ لقد تحدثت مع الراني سعيدة في الموضوع، وكنت أنوي مفاتحتك فيه.

لم يكلّف الراجا نفسه السؤال عن رأي جدته، فهو يعلم أنّ العجوز مفتتنة بسلمى.

ـ بطبيعة الحال أخبرتُ أولئك الفلاحين بأنها لا تعدو أن تكون فكرة عابرة، وأنها لن تعرف طريقها إلى التنفيذ.

فانتصبت سلمى وقد امتقعت، وقالت:

ـ ولماذا؟

ـ لأنّ مجتمعنا غير المجتمع الغربي. البنات هنا لا يذهبن إلى المدرسة.

ـ ولكنّني لست أنا من اقترحتُ ذلك. إنه طلب نساء القرية.

قطّب الراجا حاجبيه مندهشاً، وقال:

ـ معنى هذا أنّ الأمور تتغيّر حقاً في الهند. وهذا ما لم تقنعني به خطابات رجال السياسة...

ثمّ أضاف متنهّداً:

ـ بودّي لو أستطيع السماح بإقامة هذه المدرسة، لكنّني لا أملك لذلك سبيلاً رغم أنّني الراجا. فخلف خطاب الوفد المفعم بالاحترام، لمست الرفض القاطع. هم يعتقدون أنّ تعليم الفتيات سيؤدّي إلى تمردّهنّ وفساد أخلاقهنّ، وسيتسبّب في تفسّخ الأسر وشقاء الأطفال

واندثار التقاليد. باختصار إلى خراب المجتمع. وأنا لن أنجح أبداً في إقناعهم بالعكس!

ليس أمامكِ إلا الاكتفاء بالأعمال الخيريّة. أعلم أنّ ذلك لن يؤدّي إلى نتيجة، ولكنّني نبهتك إلى أنّنا لا يمكن أن نعاكس إرادتهم. ثمّ إنّني أواجه مشاكل كثيرة هذه الأيام، فلا داعي لأن تخلقي لي المزيد...

وشرح أمير لسلمى أنّ حكومة المؤتمر صوّتت مؤخّراً على قانون يمنع الأمراء وكبار المُلاك من طرد الفلاحين الذين لا يؤدّون الإيجار.

ـ معنى هذا أنّنا لم نعد نملك أيّ وسيلة للضغط عليهم، وأنّهم إن قرّروا عدم الدفع، فستفرغ صناديق الدولة بين عشية وضحاها. أنت تعلمين أنّني أرفض استعمال العنف.

ثمّ مسح على شنبه واسترسل:

ـ الأمر الغريب هو أنّني طالما كنت من المساندين لإصلاح زراعي وتوزيع مناسب للثروات، لكنّني لا أطيق أن أُجبَر على ذلك، لا سيما حين يكون من يُجبرني هم كبار رجال المؤتمر، من صناعيين ورجال أعمال، وهم في الغالب أغنى من كبار ملاك الأراضي وملوك الولايات الصغيرة. وبطبيعة الحال نحن من نُتّهم بأننا المستغلون الأنذال...

بدأت قرى بادالبور تستقبل في الأسابيع الموالية زيارات غريبة. تفد مجموعات مؤلّفة من شخصين أو ثلاثة في أوّل الليل، ويطلبون لقاء شيخ القرية، وهم يعرفون اسمه. يقدّمون أنفسهم باعتبارهم مبعوثين عن حزب المؤتمر، حزب الحرّيّة الذي سيطرد الإنجليز من الهند. ثمّ يُخرجون من حقائبهم الجلدية أوراقاً مسوّدة بعلامات صغيرة، تحمل أختاماً فخمة، يقولون إنّها القوانين التي تمّ التصويت عليها لمصلحة الشعب. ويطلبون استدعاء كلّ رجال القرية، فيشرحون لهم بأنّ ساعة العدالة قد أزفت، وأنّ عليهم أن يتمرّدوا على الراجا الذي يستغلّهم على نحو مخزٍ، ويمتنعوا عن أداء الضريبة. وأنّهم لن ينالهم مكروه بفضل هذا

القانون الذي يمنع الطرد أو الملاحقة. فإذا ما حاول الراجا إرهابهم، سيهبّ حزب المؤتمر القويّ إلى نجدتهم.

ويروح الفلاحون ينصتون بين متحمّس ومتحفظ. كيف لهم أن يثقوا بأناس لا يعرفونهم جاءوا من المدينة؟ أمّا الفئة الثالثة فلا تخفي عداءها لهؤلاء الغرباء: كلّ هذه الحكايات لن تجلب لهم سوى المتاعب. فالراجا أقوى من حزب المؤتمر. هذا علاوة على أنّهم ليست لهم مآخذ عليه: هو يعاملهم دائماً بعدل وتفهّم. فيجيب الغرباء:

ـ راجاكم عادل؟! ولكن العدل يقتضي أن تعود ملكية الأراضي إليكم! وهذا ما يعدكم به المؤتمر. ولهذا السبب يمتعض سيّدكم منّا ويساند الإنجليز: هو لا يرغب في استقلال الهند لأنه واثق من أنه سيفقد ممتلكاته، وأنكم، أنتم الفلاحون، سترثونها. أخبروني، ألا تتوق نفوسكم إلى السكن في قصره؟

فينفجر الفلاحون ضاحكين أمام هذه الفرضية المغالية في الخيال، لكن الحجج تبدأ في التأثير في العقول.

ـ الدليل على أنّ راجاكم يعادي حركة التحرّر هو أنّه متزوّج من إنجليزية! كيف تريدونه أن يسعى إلى طرد الإنجليز من الهند إذن؟

فتتعالى الغمغمات، ويُؤمّن بعضهم على هذا القول بصوت عال.

ثمّ يسترسل الغرباء قائلين:

ـ إن من يقبلون أداء الضريبة ليسوا وطنيين. هم يخونون القضيّة. إنّهم لا يدمّرون مستقبلهم فحسب، بل حتى مستقبل أبنائهم وأحفادهم. هيّا، كونوا رجالاً! حزب المؤتمر سيساعدكم، وما عليكم إلا أن تتّبعوا تعليماته حرفيّاً لأنّ همّه الوحيد هي مصالحكم.

فيردّ أحد السامعين:

ـ بعد مصالحه بالطبع!

وبدت هذه الجملة مشبعة بالسخريّة. رغم أنّها لا تتألّف إلا من ثلاث

كلمات، كانت كافية لكي تبدّد السحر، وتفتح العيون. وبدا الارتباك على الغريب الذي كان يتكلّم، وشعر بأنّ الفلاحين عادوا إلى الشكّ في ما يقول، فخفض صوته وأضاف:

ـ حسناً، أنتم أحرار! فكّروا في الأمر، وسنعود إليكم.

واستمرّ الأمر على هذه الحال لأسابيع، ينصت الفلاحون بعضهم لبعض، ويتجادلون فيما بينهم، ويلجّون في الحديث أحياناً، ويوفدون مبعوثين إلى القرى المجاورة ليستطلعوا رأيهم، لكن من دون أن يصلوا إلى قرار. بل كادوا يلجؤون للراجا طالبين مشورته. فقد كان لهم دوماً خير ناصح.

ولم يكن أمير غافلاً عمّا يقع، إذ كانت له عيون مبثوثة في كلّ قرية، يسمّيهم «رجال الثقة». ولكن، هل ينقلون له الحقيقة كلّها؟ أم تراهم يخفون عنه الخطر لكي يُحسن الظنّ بهم، أو يهوّلون لكي تزداد أهمّيّتهم لديه؟ وقد دأب على استشارة سلمى التي تتوفر بلا شكّ على معلومات أوثق تستقيها من نساء لا مصلحة لهنّ في تحريف الحقائق ولا في تهويلها. وأغلبهنّ يُدِنّ تردّد أزواجهنّ. ويرين أنّ لا حاجة لهنّ بهذا الحزب الذي لم يسمعن به قطّ، ولا بالإنجليز الذين لم يرينهم قط، وسلطتهم بالنسبة إليهن شيء بالغ التجريد. في المقابل، ما هو واقع عيان ويؤثّر في حياتهنّ بشكل يومي، هي سلطة الراجا وطيبة الراني. وهنّ عازمات على الوفاء لهما، مثلما كان حال أمهاتهنّ وجداتهنّ وأسلافهنّ عموماً على مرّ الأجيال. فكيف نسي أزواجهنّ الأغبياء كلّ هذا، وتركوا خطابات أولئك الغرباء المنمّقة تلعب برؤوسهم؟ وهنّ يعرفن كيف سيُعِدنهم إلى رشدهم!

وجاءت الأمطار الموسمية، فخلّصت السماء من ذلك الحرّ الشديد الذي أرهق الناس والبهائم طيلة شهرين. وتهاطل على القرى وابل من المطر ثقب سقوف القشّ، وأغرق البيوت. وفي غمرة ذلك تقيم النساء

رفوفاً مرتجلة من العيدان يضعن عليها الصناديق وأكياس الحبوب، لكن الماء بلل مع ذلك الملابس وأفسد المؤن.

يبدو الريف كئيباً ومكفهرّاً. لكنّ السماء تستنير أحياناً بين وابلين، فيظهر قوس كبير يجمع بين الأشعة البنفسجية والذهبية الصفراء والوردية، ويمضي الأطفال يصفّقون من الفرح. وتلوح الشمس من جديد، ناعمة لطيفة. فتتلألأ من نورها أوراق الأشجار المغسولة من الغبار، وتستعيد الطبيعة ألوانها، فيخرج الرجال لاستنشاق الهواء النقيّ ورائحة الأرض المبلّلة الطيبة. ويبدو العالم وكأنه خلق جديد.

وتستغلّ سلمى فترات توقّف المطر هذه لتقوم بجولات على القرى توزّع فيها أغطية وملابس تكون حاجة الناس إليها مُلحّة أكثر من أيّ وقت آخر. ولا مجال لاستعمال العربة بعد أن تكون الطرق قد تحوّلت إلى مستنقعات، ولا يعود أمامها إلا الداندي، وهو شيء أشبه بكرسيّ يحمله أربعة رجال تغوص أرجلهم أحياناً في الوحل حتّى الرُّكب. منذ أن حلت بالهند قبل ستة أشهر وهي تشعر بالخزي من رؤية بشرٍ يعوّضون البهائم. لكن جميع الناس، وحتّى هم أنفسهم، يعتبرون هذا العمل كسائر الأعمال. وكان أمير قد شرح لها بأنّ الإفراط في الهواجس لن يفيد في شيء، وأنه لن يعمل إلا على حرمان هؤلاء الرجال من مصدر عيشهم. ورغم أنّها لم تقتنع تماماً، استسلمت للأمر الواقع، وحاولت إخفاء شعورها بالذنب خلف ابتسامات مغتصبة وزادت من إغداقها على هؤلاء المساكين.

وبمجيء الأمطار الموسمية، ظهرت في القرى الزواحف والجرذان السوداء. ورغم أنّ السكان كانوا يقتلونها رمياً بالحجر، لا يكاد يمضي يوم دون أن يُلدغ طفل، ولم تكن كمّادات الأعشاب ومستحضرات الحكيم تجدي دائماً.

وبينما كانت سلمى تستريح بعد ظهر ذات يوم، لحقت بها كنيز فاطمة شاحبة.

ـ ماتت امرأتان في القرية يا راني صحيبة. منذ يومين وهما تتقيآن سائلاً أسود، الله يحفظنا. أظنّ أن المرض أصابهما.

ـ أيّ مرض؟

ـ ذلك المرض الذي لا يشفى منه المصاب به.

فكّرت سلمى: ينبغي أن إخبار أمير حالاً. ولم تكد تمرّ لحظات حتّى وصل، واستوضح المزارعة طالباً منها مزيداً من التفاصيل. وبينما كانت تجيبه، أخذ وجهه يتجهّم. وقال:

ـ ينبغي إحضار طبيب من المدينة فوراً. أخشى من أن يكون الطاعون.

ـ الطاعون...؟

وتسمّرت سلمى في مكانها. أهو الطاعون حقّاً؟ كانت تظنّ أنّه مرض يعود إلى الأزمنة الغابرة! وتعود بها الذاكرة إلى حكايات الأوبئة والمدن المنكوبة، ومنظر آلاف الجثث المتناثرة في الشوارع، فتنظر إلى كنيز فاطمة مرعوبة: ينبغي الهرب في أسرع وقت! ولمّا رأى أمير اضطرابها، حاول طمأنتها قائلاً:

ـ الأمر خطير، لكنّنا لم نعد في القرون الوسطى. صحيح أنّ الطاعون وباء فتّاك، لكنّ الإنسان صار قادراً على مواجهته بواسطة الأدوية واحترام قواعد النظافة وحفظ الصحة احتراماً صارماً. هل ترغبين في العودة إلى لوكنو؟

ـ وأنت؟

ـ ينبغي أن أسهر أوّلاً على توفير شروط مقاومة الوباء. لا يمكن أن أترك الفلاحين الذين يعيشون في القرى التابعة لي من دون إغاثة، وإلا هلكوا جميعاً.

وتغلق سلمى عينيها. تهرب! تشعر بالخزي، لكن الخوف أكبر.

ـ أظنّ أنني سـ...أبقى.

ما الذي دفعها لتنطق هذه الكلمات؟ كانت تودّ أن تقول العكس. إنّها نزوة أخرى من نزوات كبريائها! أهي لهجة أمير أم نظرة كنيز فاطمة؟

ستذكر سلمى الأيام التالية مثل ليلة طويلة مأهولة بالكوابيس. كان الطبيب الذي جاء من المدينة شاباً. ذلك أنّ زملاءه الأكبر سناً وخبرة لم يعد يعنيهم الذهاب إلى الريف، لا سيّما أنّ الأمر يتعلّق بوباء بهذه الخطورة، ولم يروا أيّ داع قد يدعوهم للمخاطرة بحياتهم. أمّا الدكتور رضا، فطبيب مختلف تماماً، يُغلق عيادته مرّتين في الأسبوع، ويركب سيارته الصغيرة بعد أن يملأها بالأدوية، ويتوجّه إلى القرى. وقد سمع به الراجا، فالتمس منه المجيء.

وبعد أن حقن سلمى بمصل «موثوق بنسبة ٩٥٪»، طلب منها، كما لو أنّ الأمر عاديّ تماماً، أن تساعده.

ـ وإلا فإنّني سأجد صعوبة في دخول بيوت الفلاحات، إذ إنّ معظمهنّ يفضّلن الموت على أن يفحصهنّ رجل. وقد حاولت أن أعثر على زميلة ترافقني، فلم أعثر عليها...

لا بدّ أن سلمى أصيبت بالذهول، فابتسم وقال بصوت هادئ:

ـ على كلّ حال فأنت رانيهنّ، وكما يقول النصارى لمّا يتزوجون: «في السراء والضراء...».

ورغم أنّ سلمى شعرت باضطراب كل جسدها، أجابت بالموافقة.

وهكذا ظلّت لأيّام تتبع الطبيب بلا توقّف مثل آلة ميكانيكية وقد حشرت يديها في قفازتين، وحمت أسفل وجهها بقطعة ثوب. كانا يدخلان إلى المنازل، ولاحظا أنّ المرض قد أصاب ضعاف الصحة من أطفال ونساء وعجزة. كانت وجوههم أرجوانية، وهم يختنقون ويتبرّزون سائلاً أسود، ويفوحون برائحة لا تطاق كانت تُجبِر سلمى على الخروج مرعوبة لاستنشاق الهواء. أمّا الطبيب الشاب، فكان يجسّ نبض المرضى برباطة جأش، ويفحص حناجرهم وآباطهم وثنايا أفخاذهم، ويشقّ الغدد

التي تتفجّر بالقيح. ينظّف الجروح ويمسح العرق، ثمّ يشجّعهم ويطمئنهم. وقد تطوّعت كنيز فاطمة وامرأتان أخريان لمساعدتهما. كانت سلمى تنظر إليهما وهما تحملان الأحواض وتسخّنان الماء وتغسلان الصديد والبراز. أمّا هي، فلم تكن تقوى على إتيان أبسط حركة، وتتذكّر الأستانة ومستشفى هاسيكي حيث كانت تأخذها أمّها لزيارة الجنود الجرحى، كما تتذكّر امتعاضها وخوفها.

لكن الدكتور رضا لا يدعها.

ـ إننا بحاجة لمساعدتك، أعطني الضمادات.

وينتظر، فتقترب من السرير على مضض، وتُناوله القطن ولفائف التضميد.

ـ ابقي بجانبي من فضلك، وناوليني الأدوية.

فتنفّذ الطلب بانقياد. وتروح تراقبه لدقائق تبدو لها بلا نهاية وهو منهمك في القيام بمهمته بمنتهى الرقة، ثم ينتصب أخيراً، ولأوّل مرة تبتسم عيناه وهو ينظر لسلمى، ويقول لها:

ـ شكراً...

وتهزّ رأسها فجأة وقد أربكتها هذه الطيبة وهذا الذكاء.

ـ كلا، أنا من ينبغي أن أشكرك.

وظلّت إلى جانبه في الأيّام اللاحقة. لم يطلب منها قط أن تلمس مريضاً. كلّ ما كان يطلبه منها هو أن تبقى بجانبه، تكلم المرضى وتبتسم لهم.

وفي غضون أسبوعين، حوصر الوباء. لم يتوف من ألفي مصاب سوى خمسين شخصاً. إنّها معجزة! وهكذا قرّر أمير أنّ الوقت حان للعودة إلى لوكنو، طلباً لمزيد من السلامة.

وفي صباح يوم السفر، جاء الطبيب لتوديع سلمى، فقالت له:

ـ هل تصدّق؟ أكاد أشعر بالحزن وأنا أغادر.

ـ وماذا أقول أنا وأفضل ممرضاتي تتركني؟

كانا يتمازحان، لكنّ ضحكاتهما كانت بادية التكلّف. فلقد شعرا بنفسيهما خلال هذه المدّة قريبين جذاً على نحو نادراً ما يحدث بين الأزواج. لكّن على كل منهما الآن أن يعود إلى العالم الذي ينتمي إليه. ولعلّهما لن يلتقيا أبداً، وهذا أفضل، إذ ماذا يمكن أن يجمع بين الراني والطبيب الشابّ؟

كان المطر يسقط بغزارة لمّا غادرت السيارة القصر. ومضت سلمى تنظر بقلب منقبض إلى الهيئة الضئيلة الواقفة تحت المطر.

٨

مضت الراني عزيزة تتفرّس بعين ثاقبة وجه سلمى التي جاءت فور عودتها من بادالبور لتقديم الاحترامات.

ـ أراكِ شاحبة يا ابنتي! أتمنّى ألا تكوني أصبت بالمرض!

ثمّ أضافت وهي تتفحّص هيئتها الدقيقة:

ـ أم تراكِ في وضعية... تشغل بالك؟

فلما لم تجب سلمى، تنهدّت الراني واسترسلت:

ـ واضح أنّ الأمر ليس كذلك. لعلّه الملل. لقد مضت ستّة أشهر على زواجك! ولا أخفيك، الناس بدأت تتكلّم...

ما دخلها في هذا؟ وعادت سلمى إلى غرفتها غاضبة. فبعد القليل من الحرية الذي نعمت به في بادالبور، لم تعد تطيق جوّ الحصار السائد في قصر لوكنو وخبث حماتها. كما ضاقت ذرعاً بهذا الجناح الذي تقيم فيه، والذي لا أبواب له، ولا يفصله عن جناح الراني عزيزة سوى الستائر! لقد حان الوقت لإنهاء هذا الوضع! نادت على الخصي الناعس عند مدخل غرفتها، وقالت له:

ـ ائتني بنجّار فوراً!

وما هي إلا دقائق حتّى عاد الخصيّ معلناً عن حضور النجار، وأنّه ينتظر عند باب القصر بما أنّ الدخول إلى الزّنانا محظور. وتنبّهت سلمى إلى أن الغضب أنساها هذا التفصيل. فمن يستطيع مساعدتها يا ترى؟ أمير

منشغل مع مستشاريه ومن ثمّة لم يعد أمامها غير رشيد خان، هذا الرجل الطيّب المستعدّ دائماً لخدمتها. لكن لا ينبغي أن تعلم الراني بأمر الباب قبل تثبيته. فخطّت على عجل كلمة لرشيد.

ـ احمل هذه الرسالة إلى رشيد خان.

انحنى الخصي بفتور من دون أن تبدو على وجهه الدهشة من هذا الجرم الذي لا يغتفر: سيّدته الراني تراسل رجلاً! ما كان لفضيحة كهذه أن تحدث زمن السيّد المرحوم، لأنهم لم يكونوا يسمحون للنساء بتعلم القراءة في ذلك العهد حتّى يمنعوا حدوث هذا النوع من التجاوزات.

ولمّا عاد أمير مساء قال لها:

ـ لقد تسبّبت في ثورة حقيقيّة في يا عزيزتي. لم تُثبّت أبواب قطّ في هذا القصر إذ اكتُفي فيه دائماً بالستائر... هذا فضلاً على أنّ الستائر تسمح بدخول الهواء. إنّ أختي ساخطة، وهي تجهر أمام الجميع بأنّها لن تترك أحداً يغيّر القصر إلى مسكن إنجليزي.

ـ ولكن، أليس من حقّي أن تكون لجناحي باب؟

ـ إذا كنت تصرّين على ذلك... ولكن، هل يستحقّ هذا التفصيل أن تثيري عليك من أجله عداوة الجميع؟

ـ تفصيل! ألا ترى بأنّ هذا يتّصل بحياتنا الخاصة؟

وبدا التأثر على أمير لكن من دون أن يقتنع.

ـ ربّما... إلا أنّ الحياة الخاصة هنا لا وجود لها. فنحن نعيش في عائلة كبيرة. على كلّ حال، سنرى...

وما كادت تمرّ بضعة أيام حتّى حصلت سلمى على الباب. وعلمت من بيغوم ياسمين التي جاءت لزيارتها بأنّ ذلك تمّ بفضل تدخّل رشيد خان. فقد أقنع الراجا بأن يقبل بهذه الأمور التافهة حتّى لا يضطر ذات يوم إلى القبول بما هو أخطر.

جلست سلمى في مخدعها تلتذّ بنعمة الهدوء الذي استعادته. لكنّها

ستحتاج إلى أسابيع طويلة لكي يتعوّد الخدم على طرق الباب قبل الدخول. وهم إن كانوا يحرصون على فعل ذلك في الغالب، إلا أنهم لا يطرقونه إلا بعد أن يدخلوا... أمّا الراني عزيزة فاعتبرت هذه الباب شتيمة في حقّها، وظلّت لفترة طويلة لا تكلّم سلمى، وهو ما استمرأته الأميرة الشابّة.

عادت سلمى إلى زيارة البيغوم، لكنّها سرعان ما بدأت تتضايق من نزوعها إلى التملك. لذلك صارت تؤثر الخروج مع وزهرة، رغم أنها كانت تدرس طول النهار، إذ لم يعد يفصلها عن الامتحان النهائي سوى بضعة أسابيع. وإذا كانت زهرة قد تابعت كلّ البرنامج الدراسي داخل القصر على يد أساتذة خصوصيين، فإنّها ستجتاز الامتحان في الكلية، على أن ترتدي البرقع وتصحبها مربيتاها. فالراجا حريص على أن تنال أخته تعليماً رصيناً، لأنّ تعليم الفتاة في الأوساط الأرستقراطية المتطوّرة يعد علامة على الرقي الاجتماعي بخلاف الأوساط التقليدية التي ما زالت تعتبره شيئاً معيباً. لكن لم يكن يخطر ببال أحد أنّ هذه المعارف المحصّلة يمكن أن تكون لها جدوى في يوم من الأيام. بل إن فكرة الجدوى هذه كانت تبدو في منتهى الابتذال!

كان أمير في هذه الأثناء منهمكاً في تحضير اجتماع سيعقده الراجوات والنواب وكبار الملاك المتضرّرون من القوانين المتعلّقة بحقوق الفلاحين، الصادرة مؤخّراً. هذا فضلاً على أنّ عليه، بوصفه عضواً في الجمعية التشريعية، أن يواجه جملة من المشاكل الطارئة.

كانت حكومة المؤتمر قد اتّخذت، في غمرة ابتهاجها بالنصر، عددا من التدابير التي أثارت استياء جزء من الشعب، إذ فرضت في المدارس التي تستقبل أطفال مختلف الطوائف، علم المؤتمر وفاندي ماترام نشيداً وطنياً. وهو ما أثار حفيظة المسلمين الذين اعتبروا هذا النشيد إهانة للإسلام ولسائر أفراد الطائفة المسلمة. ذلك أنّ كلمات فاندي ماترام مستمدّة من رواية بنغالية تعود للقرن الثامن عشر، وُصف فيها الزامندارات المسلمين بالاستبداد واستغلال الهندوس. يضاف إلى هذا أنّ

النشيد في حدّ ذاته ابتهال للأرض الهندية، الإلهة الأم، وهو ما يعدّ من المنظور الإسلامي ضرباً من الوثنيّة.

وهكذا خرجت المظاهرات في كافّة أنحاء الهند، ووقعت مواجهات بين الطلبة في المدارس والجامعات، وغادر النواب البرلمانيون المسلمون قاعة المجلس في مدينة مادراس.

ـ فهل علينا أن نفعل مثلهم؟

لمّ أمير في قصره بعض أصدقائه من النواب، ودار بينهم نقاش حام، إذ أخذ بعضهم على الموقف المتشدّد بأن أعضاء المؤتمر سيبتهجون بغيابهم لأنّهم سيتمكّنون من المصادقة على جملة من القوانين من دون أن يعترض عليهم أحد، وهو ما ردّ عليه آخرون بأنّ نواب المؤتمر يفعلون ما يروق لهم على كلّ حال، بما أنهم أغلبيّة، وأنّ ورقة الضغط الوحيدة التي بيدهم هي الورقة الأخلاقيّة. فإذا ما رفض نواب الأحزاب الأخرى حضور الجلسات، وأعلنوا سبب تغيّبهم على الملأ، سيضطرّ أعضاء المؤتمر الآخرون، الذين يحرصون على الحفاظ على صورة الحزب باعتباره حزباً وطنياً يمثل كلّ الطوائف، إلى التراجع.

كانت سلمى تتابع هذه الأحاديث وهي جالسة في قاعة صغيرة، وشكرت الله على وجود المشربيات التي تمكّنها من الإنصات والمشاهدة من دون أن يراها أحد. لو أنها كانت جالسة بين هؤلاء الرجال، وعلموا أنّ امرأة تنصت لكلامهم، لما تحدثوا بهذه العفوية وهذا الصدق. وبدأت تفهم ما قالته لها البيغوم عن مزايا البرقع. ألم يكن هو سرّ قوة زوجات السلطان ـ جزئياً على الأقلّ ـ اللواتي لم يكنّ يبرحن الحريم، وكان لهنّ مع ذلك نفوذ يسمح لهنّ بالتحكم في سياسة الإمبراطورية أحياناً؟ ومع أن تربيتها على يد الراهبات في بيروت جعلت منها امرأة أوروبية تقريباً، فإنّها فوجئت هنا في الهند، داخل هذا المجتمع الإسلامي المحافظ، بقدرتها على تمثل ردود الأفعال الموروثة.

وتناهت إلى سمعها فجأة أصوات عالية، فجفلت. اندهشت لأنّ حتى أعنف النقاشات السياسية في لوكنو لم تكن تخلو من مجاملة، وهو ما كانت تعتبره بورجوازية بومباي ودلهي تهاونا ولامبالاة. وأرهفت سلمى السمع، فالتقطت بعض الجمل المتقطّعة:

ـ هذا أسرع، لكنه أقلّ تحمّلاً... أعترض: هو أكثر مقاومة! إنه حيوان أصيل ورائع!... حصل السنة الماضية على جائزة الجمال الأولى... إنّ معرفتك بالكلاب السلوقية يا عزيزي لا يعتدّ بها، فالأكثر مقاومة هي السلُق الأفغانية ذات الشعر الطويل، على أنّ الأسرع هي السلق الروسية!

ما علاقة السلق الروسية بسياسة المؤتمر؟ واشرأبّت سلمى برأسها فرأت ثلاثة وجوه جديدة: راجا جيهانراباد ونوابين من أصدقائه. وراجا جيهانراباد هو أحد أغنى الأمراء في المنطقة، كما أنّه من كبار هواة الكلاب الأصيلة، وأحد منظّمي المسابقة الثامنة والثلاثين الخاصة بالكلاب التي ستجرى في غضون بضعة أيّام بلوكنو. وقد كانت إثارة موضوع الكلاب الأصيلة كافية لنسيان المشاكل السياسية، والانسياق وراء الشغف بهذا النوع من الكلاب أو ذاك.

وقالت سلمى في سرّها وهي تتكوّم على نفسها فوق المقعد: يا لهم من مجانين! لا يقلّون غفلة وطيشاً عن المجتمع العثماني عشيّة سقوطه. ما زال بإمكانهم، مثلما كان بإمكاننا، تصحيح الوضع وتفادي الكارثة. لكن، هل سيفعلون ذلك؟ فبغضّ النظر عن الخلافات السياسية، هل يفهمون شيئاً من القوى التي تهزّ الهند؟ وإذا كان الجواب بالإيجاب، فهل هم قادرون، بل راغبون، في تغيير نمط حياتهم لمواجهة تلك القوى؟

وأوشكت سلمى على البكاء من شدّة الغضب.

ولمّا التقت بأمير في المساء، أجابها:

ـ لا جدوى من الكلام معهم. فهم لا ينصتون.

وقد أبدى أمير، مقابل عبث أصدقائه، واقعية فريدة، لكن تأثيره عليهم محدود، نظراً لصغر سنّه مقارنة بهم.

وتذكرت سلمى مشاهد التمرّد والثورة، فقالت:

ـ سيفقدون كل شيء مثلما فقدنا نحن...

وفي أيّام شهر آب/أغسطس الأخيرة من سنة ١٩٣٧، أعلن رئيس المؤتمر جواهر نهرو رسمياً بأنّ هدف حزبه هو القضاء على الملاك الكبار، وتوزيع الأراضي على الفلاحين.

ثلاثة أسابيع بعد ذلك اجتمع في قصر لالبرادري الأحمر حشد يضمّ ثلاثة آلاف مندوب، بين راجوات كبار ونبلاء صغار، يمثلون أرستقراطية كبار الملاك في المنطقة بكاملها، إذ لا توجد قطعة أرض ليست في ملكهم.

وفكّرت سلمى وهي جالسة مع نساء أخريات في شرفة عالية تطلّ على قاعة المؤتمر: «لو أنّ النار تندلع في هذه الأثناء، ستُحلّ مشاكل الفلاحين فوراً، وتؤول إليهم ملكية ملايين الفدادين الموجودة بين أيدي هؤلاء الجماعة، هذا إن وفى حزب المؤتمر بوعوده...».

وافتتح الجلسة راجا جيهانرباد باعتباره المضيف ورئيس الجمعية الهندية البريطانية، وهو رجل عظيم الجثة، ذو بشرة بيضاء وأنف معقوف يكاد يلامس ذقنه. قال:

ـ أيّها الأصدقاء، لم يسبق أن التقينا في هذه القاعة لمعالجة مشكلة بهذه الخطورة. لم نتوقّع أنّ طبقتنا ستجد نفسها تختنق مع ظهور الديمقراطية وتحرّر مناطقنا. كنّا القادة الطبيعيين لملايين الفلاحين، وهو وضع نُنازَع فيه اليوم بسبب الوعود الكاذبة التي يطلقها من يزعمون أنّهم يسعون لمصلحتهم. ولمواجهة هذا الخطر، علينا أن نتّحد، ونترك الخلافات التي تُضعفنا جانباً. ولكي نستعيد ولاء الفلاحين، وهم العمود الفقري لنفوذنا، علينا أن نقوم بإصلاحات ترضيهم.

وقام من بين الحاضرين طيف يرتدي برقعاً أسود. إنّها راني توفي زوجها، فحضرت نيابة عنه لتمثيل إقليمها. وهتفت:

ـ الاشتراكية والشيوعية والثورة تقف عند بابنا، وتهدّد وجودنا! والسبيل الوحيد لصيانة هويتنا هو أن ننتظم في طبقة.

فأمّنوا على كلامها، واقترح أحدهم تشكيل ميليشيا من الملاك الشباب تدافع عن البلد في هذه الفترة العصيبة، وهي فكرة قُبِلت بالإجماع. كما اقترح آخر اختيار علم وطني يكون رمزاً لوحدة البلاد، واتفقوا على أن يحمل صورة محراث يجرّه ثوران، فصفّق الجميع، وهتف أحدهم: ما أحوجنا إلى هذا العلم!

ولكن من هو هذا الأرعن الذي يثير الشغب ويدّعي بأنّنا نواجه مشاكلنا بالكلام الفارغ، ويتعيّن علينا اتّخاذ تدابير ملموسة فوراً! هو راجا أيّ منطقة؟ كيف؟ راجا بادالبور؟ حسناً، هو راجا بادالبور! تلك الولاية الصغيرة الموجودة في الشمال؟ ماذا يقول؟ حتى لا نفقد كلّ أملاكنا، علينا الشروع من الآن في توزيع فدادين على فلاحينا؟ هذا جنون خطير! هذا نزوع اشتراكي! آه! نشأ في إنجلترا... يبدو أنّ الاشتراكية هناك موضة متفشيّة بين الشباب، لكن هذا لن يشفع لأفكاره الهدامة هذه: فهو راجا، ولا يحقّ له خيانة طبقته.

وقبل أن ينهي أمير كلامه، تعالت صيحات الاستهجان وأسكتته، فعاد إلى الجلوس محبطاً. لقد حاول أن يُسمع صوت العقل وسط هذه المسخرة وهذا الارتباك، لكنّه لم يعمل إلا على إثارة انتباه الجميع إليه، وسخطهم عليه. يا للأسف! لكن مهما يكن، من واجبه أن يحاول.

أمّا سلمى التي كانت جالسة في الأعلى، فشعرت بالضيق، وأدركت توّاً بأنّ أمير صار غريباً بين ذويه. ذلك أن سعيه إلى فرض أفكار اجتماعية غير مقبولة في المجتمع الذي أنجبه، أفكار شحذها خلال نقاشاته مع أصدقائه الأرستقراطيين في إيطون وكمبريدج، لا يمكن أن يؤدي إلا إلى فصله عن محيطه.

ولمّا عاد في المساء منهكاً، طلبت منه على نحو خجول ألا ينتكص لأنه هو المحقّ، وقالت له إنّها تسانده، فحدجها بنظرة ساخرة، وقال:

ـ أنا وأنت سنغيّر العالم إذن! هيهات يا عزيزتي! إن كنّا نحن فقط المحقّين، فهذا معناه أنّنا على خطأ: هذه إحدى القواعد البغيضة التي يفرضها العيش داخل الجماعة. حاولتُ إقناعهم، وفشلت، وهو أمر مؤسف بالنسبة لي مثلما هو مؤسف بالنسبة لهم. لكن الشيء الذي أرجو أن توفّريه عليّ ـ ونظر إليها على نحو حانق ـ هي شفقتك.

وغادر الغرفة، فقالت سلمى في نفسها: «*لماذا أعامله على هذا النحو الأخرق؟ فهو ما زال تحت تأثير الصدمة، حساساً مثل طفل تعيس. لكنّه لا يظهر الضعف أبداً، كما لو أنّه يريد أن يثبت لي قوّته...*».

وفي اليوم الموالي، لحقت الراني شاهينا بسلمى لتأخذها إلى السينما التي تعتبر وسيلة التسليّة الوحيدة في لوكنو. ولم تكن الأفلام الأمريكية والإنجليزية تصل إلى قاعة أكسيون هازرات غانج متأخرة سوى بشهرين. وفي هذه الفترة كانت غريطا غاربو ومارلين ديتريتش في قمّة مجدهما، كما كان يترون باور وكلارك غابل يُلهبان أحلام النساء... وكان يحدث أحياناً أن تتذكّر سلمى أيّام عَرضَت عليها هوليود عقد عمل. أتراها نادمة على ذلك؟ هي لا تريد أن تطرح على نفسها هذا السؤال.

اقترحت على زهرة مرافقتهما لترتاح قليلاً من العمل، فلم تتمالك الفتاة نفسها من الفرح: إنّها المرّة الأولى التي تذهب فيها إلى السينما. وهكذا ركبن عربة حملتهنّ إلى قاعة العرض. ترجّلن أمام الباب الخلفية للقاعة، المخصّصة لدخول النساء فقط، فارتقين سلّماً صغيراً مفضياً إلى الشرفة الأولى، وهناك جلسن في مقصورة محاطة بستائر لا تُسحب إلا بعد أن يبدأ الفيلم وتغرق الصالة في الظلام؛ فلا يستطيع أحد بذلك رؤيتهنّ.

كان الفيلم المعروض هو فيلم الملكة كريستين، وهو ما بعث الحماس في نفس زهرة، ولم تتوقّف عن الثناء على غريطا غاربو التي وجدتها في جمال سلمى تقريباً.

ولمّا عدن إلى القصر، وجدن الجوّ في غاية التوتر. ذلك أنّ الراني

عزيزة علمت بمرافقة زهرة لسلمى، فهرعت إلى أمير تشكوه إفساد زوجته لأخلاق الفتاة.

انتفضت سلمى قائلة:

ـ لم يرها أحد من الرجال، فقد جلسنا في مقصورة!

فقالت الراني محتجّة والحقد باد في نبرتها:

ـ ولكنها رأت الرجال! وأنا أتساءل كيف كانوا...

ـ أين رأت هؤلاء الرجال؟

فهتفت الراني حانقة:

ـ كيف أين رأتهم؟ على الشاشة طبعاً!

أمّا أمير فلزم الصمت محرجاً أمام هذه المواجهة بين المرأتين. مضت أسابيع وأخته تكرّر على مسامعه أنّ عليه ألا يترك كلّ هذه الحريّة لسلمى، وأنّ الناس بدأت تسخر منه، وتقول إنّ سلطته على زوجته لا تزيد عن سلطة زوج إنجليزي.

ـ إنّها تتنزّه في كل مكان بوجه مكشوف. لم تعرف عائلتنا مثل قلّة الحشمة هذه أبداً! صحيح أنّها أجنبية، لكن عليها أن تحترم عاداتنا. ينبغي أن تتدخّل يا أخي، فهذا أمر يمسّ بشرفنا جميعاً!

لكن حين أقدم أمير، وقد كاد يقتنع بكلام أخته، على تذكير سلمى بضرورة ارتداء البرقع، جفلت كما يجفل حصان أصيل يريدون وضع لجام في فمه.

ـ لا داعي لهذا الكلام! فأنا أرتدي البرقع، ولا أخرج إلا في عربة مغلقة، وأقضي كلّ وقتي بصحبة نساء يكدن يقتلنني من الضجر. فلا تطلب منّي زيادة على هذا أن أسجن نفسي في هذا القفص البغيض! وأنبهك إلى أنّني لا أطيقه أبداً!

ضاق أمير ذرعاً بهذه البذاءة، فقصد رشيد خان لاستشارته.

ـ ليس الأمر أنّني مصرّ على أن تلبس البرقع... مهما يكن، فالنساء في العائلات الراقية يخرجن الآن بوجوه سافرة، وهي علامة على التربية العصرية. لكن الناس في لوكنو مغالون في المحافظة والجهل...

ـ أظنّ أنّ قلق الراني عزيزة يا صاحب الجلالة لا مبرّر له. فلا أحد يجهل هنا شرف ورفعة العائلة التي تنحدر منها زوجتك. وبنات عمومتها، أميرتا حيدرأباد، يجُبن كلّ مكان بوجه مكشوف، ولا أحد يجرؤ على انتقادهما. وأخشى إن أنت أجبرت الراني على ارتداء البرقع من أن...

وتوقّف عن الكلام، فحدجه الراجا بنظرة قاسية. ذلك أنّهما يعرفان ما يمكن توقّعه: إن أبدى أمير جفاء في معاملة الأميرة، قد تتركه، لا سيما أنّها ما زالت لم تنجب ولداً يشدّها. وهي إن فعلت سيشعر أمير بخزي يشقّ عليه حتّى أن يتخيّله. لذلك ما عليه إلا أن يتجاهل انتقادات الراني عزيزة.

ثمّ إنّ هناك أموراً أخرى تشغله. فالوضع في المناطق التي يحكمها حزب المؤتمر تدهور في غضون ثلاثة أشهر، وخاصة في الأقاليم المتّحدة، حيث يمثل المسلمون ١٤٪ من الساكنة، لكنّهم يعتبرون بمثابة رأس الإسلام الهندي وقلبه.

على أنّ ما أثار حفيظة الناس هو فرض الكتابة الهندية في المدارس والإدارات إلى جانب الأوردية[1] التي كانت مستعملة منذ قرون. كما أنّ كثيراً من الدوائر الإدارية كفّت عن توظيف المسلمين في كثير من القطاعات، بما فيها قطاع الشرطة التي طردت أعداداً كبيرة لأسباب تافهة. وتبرّر الحكومة الجديدة هذه الإجراءات بالرغبة في إقامة توازن يتلاءم مع نسبة الهنود والمسلمين، من دون إيلاء أهميّة للتقاليد والحقوق المكتسبة منذ قرون عديدة.

---

(١) الأوردية قريبة من الهندية في جانبها الشفوي، لكنها تكتب بحروف عربية، بينما تكتب الهندية بحروف سنسكريتية، وهي لغة هندية ضاربة في القدم.

إلا أن ما أشعل النار في الفتيل، لا سيما في القرى، هو تحمّس المنظمات الهندوسية اليمينية المتطرّفة إلى دعوة المسلمين إلى الرّدّة عن الإسلام واعتناق الهندوسية. ذلك أنّ الثمانين مليون مسلم، في رأيهم، هم في الأصل هندوس تركوا دينهم قسراً، ومن ثمّة ينبغي أن يعودوا إلى عقيدتهم الأولى. فهذه جريدة المها صباح تقول: «إنّ مسلمي اليوم ما هم إلا جملة اعتراضية. أمّا مستقبل الهند فيتمثّل في دولة وطنية هندوسية قائمة على مؤسسات هندوسيّة».

وهذه المنظمات لا تعكس وجهة نظر المؤتمر الذي يعتبر نفسه علمانياً، لكن بما أنّه لا يدينها، وبما أنّ غاندي يدعو في خطبه بحماس إلى تمثّل القيم الهندوسيّة، ويصف بعض القادة المتعصبين بـ«الوطنيين»، فإن ذلك يؤجّج مخاوف المسلمين.

وقد أظهرت لهم الأحداث الأخيرة بأنّهم بالغوا في الانتظار، وأنّ الوقت قد حان لكي ينظّموا صفوفهم.

في يوم الجمعة الثالث عشر من أكتوبر/ تشرين الأول من سنة ١٩٣٧، كانت مدينة لوكنو الهادئة تعجّ بالحركة. ذلك أنّ محمد علي جناح سيفتتح دورة الرابطة الإسلامية الاستثنائية. وقد كان خمسمائة مندوب قد وصلوا، سيقيم البارزون منهم في قصور الأمراء، بينما سينزل الباقون في خيّام ملوّنة نُصبت في حدائق قيصرباغ.

أمّا من سهر على تمويل هذا اللقاء وتنظيمه فهو راجا مهدباد. وقد رأته سلمى مراراً. فهو صديق أمير رغم اختلافهما الفكري. فالراجا رجل ورع ومثالي. يعيش حياة متقشّفة في غرفة واحدة من قصره الشاسع، تغطّي أرضيتها جبال من الكتب تضمّ القرآن والإنجيل والكتب الهندية المقدّسة، لكن أيضاً أعمال ديكنز التي يقول إنّها تبكيه لمّا تصف بؤس الشعب الإنجليزي في القرن التاسع عشر، وكتب تولستوي، وهو أقرب الكتّاب الى بنفسه، لأنه ثار مثله على طبقة الملاك الكبار التي ينحدر منها. والراجا لا يأكل غير خبز الشعير ـ وكان هو طعام الرسول ـ الذي

تعدّه له زوجته. وعندما يقيم في ولايته، يحدث له أحياناً أن يساعد الفلاحين في حرث الأرض. بل أقام مزرعة لتربية الأغنام ودّ لو يتفرّغ للعناية بها. ذلك أنّ حلمه هو أن يعود إلى حياة الرعاة. لكن بعد وفاة أبيه، وهو مارادجا مهدباد المحترم جداً، أقنعه جناح بالعدول عن ذلك: «ستعمل معي، وواجبك هو الكفاح من أجل تحرّر الجماهير الإسلاميّة»، وبذلك صار الشابّ الذي كان يحلم بالطبيعة والفن والفلسفة أحد أساطين الرابطة.

وفي هذا اليوم ذهب لاستقبال جناح في المحطّة. فلمّا لاح الزعيم، وجد الحرس الشرفي، وهم متطوّعون يلبسون قمصاناً خضراء، أنفسهم عاجزين عن ضبط الجمع الغفير المتحمّس المحتشد لرؤيته. كانوا يهتفون: «عاش جناح! عاشت الرابطة الإسلامية!»، بل إنّ السيّارة التي أقلّته حملتها الأيدي إلى أن أوصلتها إلى السرادق الضخم المنصوب في ميدان لال باغ حيث يعقد المؤتمر. وقد كان السرادق ممتلئاً عن آخره بالنوّاب الذين جاءوا من مختلف أصقاع الهند. ومن بين الحاضرين المميّزين هناك الوزيران الأوّلان للبنجاب والبنغال، المحافظتان اللتان معظم سكانهما من المسلمين. وقد جاءا ـ حسبما قيل ـ لتقديم دعمهما للرابطة. أمّا في خلفيّة المدرّجات، وراء المشربيّات، فكانت نساء الأعيان يتزاحمن، متلهّفات لكي يرين أخيراً هذا المحامي القادم من بومباي الذي صار في غضون سنتين بطل القضيّة الإسلاميّة.

ومحمد علي جناح رجل يلفت النظر بقامته الفارعة، ونحافته وشعره الأبيض ونظرته الثاقبة. يتقدّم نحو المنبر بهيئته المنتصبة، ويقف بلا حراك ثمّ يشرع في الكلام بصوته القويّ المؤثّر الذي يخلب لبّ المستمعين. ومن دون أن يضيّع الوقت في المقدّمات الفارغة، دخل توّاً إلى لبّ الموضوع.

ـ إنّ حزب المؤتمر باتباعه سياسة لا تراعي غير مصالح الهندوس، صرف عنه الجماهير المسلمة. فقد تنكّر لوعوده الانتخابية، ورفض

الاعتراف بوجود طائفتنا والتعاون معنا. وحكّامه لا يوفّرون الحماية للأقليّات، وأعمالهم تؤجج المواجهات بين الطوائف، ومن ثمّة تعزّز نفوذ الإمبرياليين. فعلى المسلمين أن يستعيدوا الثقة بأنفسهم وألا يبحثوا عن الخلاص في التعاون مع الإنجليز أو مع المؤتمر. ومن ينضمّون إلى هذا الحزب خونة.

وهكذا صارت القطيعة التي كانت تتهيّأ منذ بضعة أشهر حقيقة. أمّا في الخارج، فراحت الجماهير المحتشدة تعبّر عن معارضتها بشعارات مناقضة، بحيث يهتف بعضهم:

ـ تحيا الهند!

فيجيبهم آخرون:

ـ فَلتُقسَّم الهند!

كانت هذه هي أوّل مرّة تسمع فيها سلمى هذا الهتاف الذي سيصبح لاحقاً شعاراً دارجاً على كلّ الألسنة. وفي تلك الأثناء لم تكن فكرة الفيلسوف محمد إقبال المتمثّلة في إقامة تجمّع هندي مسلم في كيان جغرافي مستقلّ قد شقّت طريقها بعد. بل لم يكن جناح نفسه يقدّر بأنّها فكرة جدّية. على أنها كانت بالمقابل وسيلة مناسبة للضغط على حزب المؤتمر ومقاومة تعنّته.

وها هو فضل الحق، وزير البنغال، حيث يعيش ثلث مسلمي الهند، يتّجه إلى المنبر، فيعلن بأنّ حزبه قرّر، أمام الخطر المحدق، الاندماج في الرابطة الإسلامية. فيضجّ الحاضرون. ويتقرّر أن يكون شعار الرابطة عبارة عن علم أخضر يتوسّطه هلال أبيض، بينما يصير النشيد الذي نُظم من أجل هذا المؤتمر هو نشيد الحزب، ونداء من أجل تجمّع كلّ المسلمين.

وتمّت أخيراً المصادقة بالإجماع على القرار الذي طالما انتُظر: لم يعد هدف الرابطة هو تأليف حكومة تتحمّل مسؤولياتها كاملة، بل الاستقلال. ومن أجل هذا الهدف أعلن جناح عن إعادة بناء الحزب على أساس ديمقراطي: فبعدما كان يتألّف من النخبة القاطنة في المدن على

الخصوص، سيُفتح في كلّ قرية فرع من الرابطة، يستطيع من شاء الانضمام إليه مقابل دفع ثلث روبية. وسيكون راجا مهدباد هو المسؤول على هذا التنظيم الشعبي. كما أنّ النساء سيكون لهنّ دور مهمّ يلعبنه، إذ سيتمّ إنشاء فرع نسوي برئاسة راني نامبور العجوز.

وعند اختتام المؤتمر بعد يومين، أدرك كلّ من حضره بأنّه شهد حدثاً تاريخياً: تحوُّل الرابطة إلى حزب شعبي يستطيع أن يستجيب لتطلّعات كلّ مسلمي الهند. وسيبثّ البرنامج الجديد الحماس في الشعب، إذ سيُفتح في غضون ثلاثة أشهر، وفي المناطق المتّحدة فقط، تسعون فرعاً، ضمّت ما يزيد عن مائة ألف عضو. أمّا نهرو فاستمرّ يعلن أنّ الرابطة الإسلامية تدافع عن مصالح رجعيّة، ناعتاً إيّاها بأنّها حركة هستيريّة.

وبعد نوبة الحمى التي أثارها المؤتمر، عادت الحياة في لوكنو إلى مجراها الهادئ رغم تعدّد الحوادث والمواجهات في المدن والقرى المحيطة، لعلّ أخطرها هي المذبحة التي نفّذها الهندوس في حقّ نحو أربعين جزّاراً مسلماً حضروا معرض باعة المواشي السنوي في باليا.

وقد أثار هذا العمل الشنيع موجة من السخط في العاصمة والمناطق المتّحدة، واحتلّ أبرز العناوين في الصحف، لكنّه سرعان ما نُسي بحلول موسم البولو، الذي بدا واعداً هذه السنة، واستأثر باهتمام كلّ الطبقة الأرستقراطية. وقد استغلت الحكومة الفرصة لإعفاء الفلاحين من المتأخّرات التي بذمّتهم. ولم يَلْقَ بعض الملاك الذي طالبوا بردّ فعل فوري على القرار آذاناً صاغية: من غير اللائق الاهتمام بالأمور المالية التافهة حين يكون المرء منشغلاً برياضة على قدر كبير من النبل!

أمّا في السينما، فكان فيلم «رمّاحو البنغال» الذي استلهم أحداثاً تعود إلى القرن السابق، يُبكي الحشود، كما كان السؤال الذي استأثر بصفحات الجرائد الأولى والمجلات، هو معرفة ما إذا كانت النجمة السينمائية الجديدة، شيرلي طومبل، هي حقّاً فتاة صغيرة أم قزمة في الخامسة والأربعين من عمرها...

٩

ـ إنّ الشرف العظيم الذي تغمرنا به سعادتكم، وصاحبة السمو...

كانت كلّ الأنوار متألّقة في قاعة الطعام الكبرى بقصر جيهانرباد، تتنافس فيها المشاعل التي يحملها خدم معمّمون بالبروكار مع مئات الشموع المثبّتة في شمعدانات فضيّة ضخمة، فتتلألأ لنورها قطع الزمرّد والماس.

كانت صفوة أوده حاضرة هناك: راجوات ونوّاب، ملوك أقاليم صغيرة وكبيرة، جاءوا جميعاً لتكريم الحاكم الإنجليزي، سير هاري ويغ وزوجته. كانوا جالسين على نحو مستقيم، بذقون مرفوعة، وهيئة متغطرسة لامبالية موروثة عن قرون من النفوذ والضجر. على أنّ النفوذ زال بعد أن نُزِعت أنياب هذه النمور الملكيّة، ولم يبق لهم غير الضجر وزهو لا حدود له.

ـ لقد أخلصت أسرتنا دوماً في خدمة العرش...

بعد عبارات المجاملة وإبداء فروض الولاء، راح راجا جيهانرباد يستعرض تاريخ أجداده الأمجاد حتّى إنّ السير هاري وجد صعوبة كبيرة في تمالك نفسه من التثاؤب، وقال في نفسه: «ماذا يقصد من وراء كلّ هذا الكلام؟ ألا يستطيعون طلب ما يريدون مباشرة؟ إنّه لأمر يبعث على السأم!» بالنظر إلى فخامة الاستقبال ـ نحو خمسين ضيفاً من الأمراء أتوا للقائه على ظهور الفيلة، وأربع فرق موسيقية، واستعراض الرماحين ـ فلا

شكّ أنّ الراجا يهمّ بطلب جليل «آمل أن أستطيع تلبيته، لا سيما أنني حريص على عدم فقدان أحد حلفائنا الأكثر إخلاصاً».

وشعرت الليدي فيوليت بأنّ صبر زوجها أخذ ينفد. «يبدو أنّ هاري لا يستمتع. أمّا أنا فأجد العشاء رائقاً. أحبّ أن أكون المرأة الوحيدة بين كلّ هؤلاء الرجال، وأشعر تحت نظراتهم المفعمة بالاحترام بما يشبه الرعشة... زَعَم أنّ عليّ ألا أكشف عن كتفي، لكن، مهما يكن فلن أستر كلّ أعضاء جسدي كما كانت تفعل المرحومة الملكة فكتوريا بدعوى أنّ الهنود يحجبون زوجاتهم! لديّ فستان جميل يكشف عن الكتفين، كم يروقني أن يروه!... أشعر بنفسي كغزالة بين وحوش مفترسة مدجّنة... ولكن، هل دجنّاهم حقّاً أم أنّنا نمسك برباطهم فقط؟».

ـ ... ولهذا نلتمس من سيادتكم الترخيص لنا، ومنحنا التسهيلات اللازمة لشقّ هذه الطريق، وهي لا تتجاوز عشرة أميال، تربط بين الممرّ الخاص المفضي إلى القصر والطريق الكبرى الرابطة بين لوكنو ودلهي. وستكون هذه مساعدة لا تقدّر بثمن بالنسبة لفلاحينا.

لم يظهر على ملامح السير هاري أيّ رد فعل، وقال في نفسه: «يقول الفلاحين! يتذرّع بهم! عرباتهم المتهالكة تكفيها الطرق الطينية غير المعبّدة. هيّا اعترف! الطريق المعبّدة تريدها لسياراتك الفاخرة، الرولز واللانكولن والبانتلي، حتّى لا يعلوها الغبار ويلطّخها الوحل... أنا أعرف ذلك، وأنت تعرف أنّني أعرف. لكنّ المشكلة ليست هنا: إذا لم أوافق على طلبه، سيخطب هذا الوغد ودّ حزب المؤتمر!».

وتتفرّس الليدي فيوليت وجوه «الوحوش»: «يملك هذا الشاب، راجا بادالبور، عينين رائعتين، لكنّه تزوّج للأسف تلك البلهاء التي تتجرّأ على التعالي علينا، كما لو كنّا همجاً! يا له من عالم مقلوب حقّاً! وعلى ذكر الهمج، ينبغي أن أذهب بعد العشاء لزيارة تلك النساء المسكينات. لا بدّ أنّ الملل يكاد يقتلهن خلف البراقع. ستشعر الراني بالفخر لأنّني

تذكّرتها». والتفتت إلى راجا جينهانراباد متجهّمة، لكنّها أصلحت ذلك بابتسامة عريضة.

ـ كيف؟ تريدين زيارة الراني؟ هذا لطف منك! سأسارع إلى إخبارها.

ويقوم السير هاري ويغ بهيئته الرشيقة في لباسه الأسود، وأناقته العالية بين هؤلاء المعمّمين، رافعاً كأس الشامبانيا في يده، متأهّباً لشرب النخب في صمت، ناظراً إلى الحاضرين نظرته الودود التي لا تخلو من غطرسة متأصلة في كلّ موظف إنجليزي يستقرّ في الهند، تلك الغطرسة التي تشهد على التفوّق مثلما تشهد الدمغة بالنسبة للغِرّ الذي لا يستطيع التميز على أن المعدن ذهب حقيقي.

ـ صاحبة السمو، أيّها الأمراء... إنّه لمن دواعي السرور... وإنه لشرف عظيم لي... صاحبة الجلالة... مهمّتنا... ولاؤكم...

كانت الليدي فيوليت تستمع إليه شاردة الذهن، وقالت في نفسها: «إنّ هاري يبالغ، يلقي دائماً نفس الخطبة. ماذا لو يتنبهوا لذلك؟ إنّ هؤلاء الملوّنين أناس بالغو الحساسية... فرغم كون راجا جيهانرباد إنساناً متحضّراً... فلولا مظهره الخارجي لحسبه المرء إنجليزياً تقريباً. إذ حتى لدى هذه النخبة الصغيرة المتعلّمة في إلطون وأوكسفورد، يوجد دائماً شيء يلفت الانتباه: نبرة إنجليزية مغالية، حماس ظاهر للكريكت... ويظهر ذلك أجلى ما يظهر في علاقتهم بنا، خضوع زائد أو زهو زائد! إنّهم لا يستطيعون أبدا أن يتصرفوا على سجيتهم، وهو أمر غريب!».

همس خصيّ بشيء في أذن الراجا الذي أجاب بحركة ساخطة. وما كاد الحاكم ينهي خطبته وتضجّ القاعة بالتصفيق حتّى قام وأشار إلى أنّ وجبة العشاء انتهت، وأنّ على الرجال أن ينتقلوا إلى قاعة التدخين بينما تتوجّه النساء إلى...

ـ هل يمكن لسعادتكم أن تنتظروا قليلاً؟ فالراني من سعادتها بزيارتكم تلتمس بضع دقائق لتستقبلكم على نحو يليق بمقامكم...

وفي الجانب الآخر من القصر، في الصالة ذات الأقواس، كانت راني جيهانرباد مستلقية على أريكتها تتجاذب أطراف الحديث مع رفيقاتها. وبخلاف المراسم الصارمة التي طغت على عشاء الراجوات، كلّ شيء يجري هنا في بساطة بالغة. فبما أنّ كلّ المدعوّات من أسر أميرية، تجمعهنّ في الغالب علاقة قرابة، دأبن على التخفّف من الشكليّات والمراسم. ذلك أنّ قروناً من التزاوج بين العائلات الأرستقراطية خلقت شبكة علاقات كثيفة ومعقّدة، تغطي كلّ المنطقة، أشبه بنسيج عنكبوت. أمّا كون بعض الأسر أغنى وأشهر من غيرها، فهذا أمر يعرفه الجميع، لكنّ من المستهجن إظهاره أو الإيحاء به. وحدهم التّجار أو البانياس من يجرؤون على منافسة الأمراء في الثروة، والتصرّف على هذا النحو الأخرق... وكذلك الإنجليز...

ويعلن خصيّ عن مقدم الراجا، فتجفل النساء ويتفرقن على الغرف المجاورة مثل عصافير مرعوبة، ولم تبق منهنّ غير الراني وبنتاها. ويدخل الأمير وهو يتصبّب عرقاً وفي غاية الاضطراب.

ـ ما هذا الذي بلغني يا راني صحيبة؟ هل صحيح أنّك تعانين من عارض صحي يمنعك من استقبال الليدي فيوليت؟

ـ أنا بخير يا راجا، لكن رؤية هذه السيّدة...

واسترسلت تتحدّث على نحو متقطع يشي بالاشمئزاز:

ـ ... ستصيبني بوعكة صحية لا محالة.

كان الراجا معتاداً على نزوات زوجته. فهي تستغلّ جمالها وفارق السن بينهما، فتتصرّف مثل طفلة مدلّلة، ولم يكن هو في الغالب يرفض لها طلباً. لكنّها تجاوزت الحدود هذا المساء.

ـ لا يمكن أن تهيني زوجة الحاكم! هذا أمر لن يغفره لنا أبداً.

ـ يغفره لنا؟

بدت العبارة كما لو أنّها وخزت الراني في مكان حساس. فقد مضت

شهور وهي تكظم غيظها، وتتمالك نفسها من أن تنفجر. لكن السيل بلغ الزبى هذه المرّة!

ـ وما حاجتنا لمغفرتهم؟ هؤلاء اللصوص الذين نزعوا منّا السلطة، ووضعوا أقاليمنا تحت وصايتهم، ويجبروننا كلّ عام على دفع الجزية التي يسمونها ضريبة. لِمَ نسعى لاسترضاء هؤلاء الفجّار الذين يشربون الخمر ويأكلون الخنزير ويغوون نساءنا، وهم فضلاً عن كلّ هذا يحتقروننا!

وتمالكت نفسها في اللحظة الأخيرة من أن تقول له: «في الوقت الذي يحتقرونك، أنت راجا جيهانرباد، تشعر بالسعادة لمجرّد أنّهم يعتبرونك أفضل أصدقائهم من بين أمراء أوده». ما أشدّ كرهها لهؤلاء الإنجليز! لا لأنّهم يستعمرون بلدها ـ فحركات الاستقلال المتنامية حالياً تبدو لها تافهة، هذا علاوة على أن الهند نادراً ما تمتّعت باستقلالها، وحكم المغول لم يكن أرحم من حكم ملك بريطانيا ـ بل تكرههم لأنّهم يغيّرون زوجها. فأميرها الذي طالما كان معتزّاً بأصوله وأمجاد أسلافه، ويحظى باحترام الرعايا والأمراء، تحوّل أمام هؤلاء البيض المتغطرسين إلى طفل صغير طيّع وخاضع.

لماذا؟ هي لا تفهم، شأنها في ذلك شأن زوجات الأمراء المسلمين والهندوس على حدّ سواء، اللواتي يشاهدن باندهاش ومرارة «سادتهنّ» يتودّدون للأجنبي. هؤلاء الأزواج الذين تعلّمن كيف يبجّلنهم حتّى قبل أن يتعرّفن عليهم، هم من يضمنون، بحكم أنّهم أشراف، شرفهنّ وشرف عائلاتهنّ. قد تكون لهم مبرراتهم... هنّ لا يرغبن في إساءة الظنّ بهم، ولا يمكن أن تسمح لهنّ أنفسنّ بذلك. من المؤكّد أنّ الخطأ هو خطأ الإنجليز!

ـ لن أستقبل الليدي فيوليت!

ـ هيّا يا راني صحيبة، كوني عاقلة! الطريق...

وفهمت في لمح البصر.

ـ لله درّك يا راجا صاحب! لماذا لم تقل لي من قبل؟ إذا كنتُ سأستقبلها لمجرّد خداعها، فلا بأس. كنت أخشى أن يكون ذلك إرضاء لها فحسب...

رغم أنّ الراجا انذهل من أخلاق زوجته، فقد تلافى معاكستها. لو شرح لها بأنّه لا يقصد إلى خداع الحاكم، وأنّ علاقته به لا تقوم على المصلحة المتبادلة فحسب، بل على صداقة حقيقية أيضاً، وعلى تقدير يحسبه متبادلاً، لتراجعت عن قرارها.

لمّا دخلت الليدي فيوليت على الراني، تعجّبت من كون كلّ من يحطن بها نساء متقدّمات في السن. وهو أمر أوّلته بأنه علامة دالّة على الاحترام: لا يمكن أن يكون اختيار هؤلاء العجائز لاستقبالها إلا احتفاء بها وتكريماً لها من دون شكّ. كيف لها أن تتصوّر أنّ الراني إنّما طلبت من الشابّات الانسحاب حتّى لا يرين هذه المخلوقة السافلة، نصف العارية، فتجلب لهنّ النحس...

الشابة الوحيدة التي استثنيت هي راني بادالبور لأنّها «خبرت الدنيا» من ناحية، ولأنّ الحاجة تدعو إلى مترجمة من ناحية ثانية. ورغم أنّ سلمى كانت قد بدأت تتكلّم الأوردية بصورة صحيحة، لا يمكن أن تدع فرصة مواتية كهذه لكي تتسلّى.

وتهمس الراني قائلة لزوجة الحاكم:

ـ إنّه للطف عظيم منك أن تتنازلي وتقبلي زيارة خادمتك في بيتها المتواضع. أرجو أن تعذريني إن لم أقم لاستقبالك. فساقي المكسورة تمنعني من الوقوف...

وتساءلت الليدي فيوليت في سرّها وهي تلاحظ أنّ كل النساء ظللن جالسات على غرار الراني: «أكسرت سيقانهن جميعاً يا ترى؟»، ابتسمت الراني بأسف، فأحنت عليها زوجة الحاكم لتقبيلها، وتنبّهت إلى أنّ مضيفتها تراجعت إلى الخلف حتّى إنّها لم تقبّل غير الوشاح.

«ما أشد خجل هؤلاء النساء! فهنّ غير متعوّدات على أن نُعاملهنّ، نحن الإنجليزيات، بودّ... وقد حرصتُ دائماً على أن أتقرّب منهنّ، وأُظهِر لهنّ أنني أعتبرهنّ مثلي تماماً، حتّى إنّ هاري يقول إنّني أبالغ، وإنّ عليّ أن أفرض احترامي. لكنّني أشفق عليهنّ لأنهنّ سجينات، لا يربطهنّ بالعالم الخارجي رابط، ومستعبدات في هذا العالم الرجولي!».

ودار الحديث حول مشروب المانغا وحالة الجوّ وجمال الثياب وصحّة الأطفال. ولم تعد تشغل بال الليدي فيوليت غير فكرة واحدة: فيمَ يمكن الحديث مع هؤلاء النسوة غير المتعلّمات؟

عندئذ قالت الراني:

ـ أحبّ كثيراً شعراءكم، لا سيما اللورد بايرون.

فهتفت الليدي فيوليت باندهاش:

ـ أتتكلّمين الإنجليزية؟

ـ لا أتكلّمها ولكنّني أقرأها. هلا شرحت لي ما يقول ميلتون في الفردوس المفقود...

غمغمت الليدي التي ودّت لو يُقطع رأسها ولا تعترف بأنّها لم تقرأ ميلتون:

ـ الجنة المفقودة؟ إنّها نظرية غامضة حول الحياة والموت. وهي عمل متجاوز على كلّ حال!

ـ حقّاً!

وحدجتها الراني بنظرة مدهوشة حسبتها زوجة الحاكم لا تخلو من سخرية. وقالت في نفسها: «أي امرأة متحذلقة هذه الراني الشابّة، لا ينبغي أن أتوانى عن تأديبها!».

ـ الراجا زوجك رجل آسر ومهذّب، نقضي معاً ساعات في الحديث حتّى إنّ زوجي الذي لا يروقه الأدب يتركنا وينصرف للعب الغولف.

ـ أعرف هذا. فالراجا يقضي من الوقت عندكما أكثر مما يقضي معي، وهو أمر يثير غيرتي أحياناً. وهو لا يكفّ عن الحديث عن الحسناء...

فتردّ الليدي فيوليت محتجّة بتواضع:

ـ كلا، لا تقولي هذا!

ـ ولكن بلى، الحسناء سارة! هذا هو اسم ابنة أختك، أليس كذلك؟

فتشحب زوجة الحاكم، وتعضّ سلمى على شفتيها. وتسترسل الراني بنبرة عادية جدّاً:

ـ الراجا يفكر في الزواج، ألم يطلعك على ذلك؟

ـ الزواج؟...

بدت الليدي فيوليت كما لو صُعقت، وأجابت متلعثمة:

ـ وهل وافقتِ على ذلك؟

ـ كما تعرفين، فأنا متفتّحة الفكر! أظنّها فكرة جيّدة.

وبدت الفكرة على قدر من العبث بحيث انفجرت زوجة الحاكم ضاحكة. هل يعقل أن تتزوّج ابنة أختها الشقراء من أحد الأهالي! هؤلاء الهنود واثقون بأنفسهم حقّاً! ومن حسن حظّها تبادر عذر إلى ذهنها على نحو عفوي.

ـ هذا لطف من الراجا أن يفكّر في ابنة أختي، لكنّها ما تزال لم تجاوز الثانية والعشرين من عمرها، وفارق السنّ بينهما كبير جدّاً!

ـ كيف؟ ابني أيضاً ما زال في الخامسة والعشرين!

ـ ابنك! ولكن...

ـ لماذا تندهشين؟ ابني بالطبع! ألا تعرفينه؟ لا يمكن أن تقرّري قبل أن تريه! اسمعي، أخبريني لمّا تكونين فارغة بعد الظهر يوم من الأيام، فننظّم لقاء. أنا متأكّدة من أنه سينال إعجابك... أيّ زوجين رائعين سيكونان! وأيّ تتويج لعلاقة الصداقة التي تجمع بين أسرتينا! وسيكون

ذلك دليلاً على أنّ الناس الراقين يعرفون كيف يتعالون على المسكوكات التافهة التي تتمسّك بها العامة...

وتوقّفت ها هنا بعد أن حدجتها سلمى بنظرة نبّهتها إلى أنّها بالغت، وأن الليدي فيوليت ستنتبّه إلى أنّها تسخر منها.

لكن الليدي كانت من الاضطراب بحيث لم تفطن بشيء، ولم تكن تشغلها غير فكرة واحدة، هي أن تهرب! التقطت حقيبتها وقفازتيها، وبالغت في شكر الراني وضيفاتها واعدة بأن تعود إلى زيارتها قريباً للقاء ولي العهد، ثمّ قبلتها ثلاث قبلات. ومن شدة ارتباكها قبّلت سلمى أيضاً قبل أن تنصرف.

فما كادت تختفي حتّى ضجّت الصالة بالضحك، فأعلنت الراني:

ـ بهذا النحو نحن متأكدات من أنّها لن تعود على الأقل!

ثمّ أضافت بنبرة دالة على الاشمئزاز:

ـ فليأتوني بسرعة بقطعة قماش وماء الورد! ما أبغض طريقة هؤلاء الإنجليزيات في التقبيل!

وحين رأتها سلمى تفرك بهمّة وجهها لكي تتطهّر من الدنس، تذكّرت خالة أمّها، زوجة السلطان عبد العزيز، التي كشطت وجهها بسكين لتتطهّر من قبلة امرأة «كافرة». ولم تكن هذه الكافرة غير الإمبراطورة أوجيني التي كانت في زيارة للأستانة...

كانت السيارة الفاخرة تندفع على الطريق الأغبر وهي تتلافى، بواسطة انعطافات مفاجئة، قطعان الجاموس والجمال المتهادية، ومسيرات الجنازات والبقر المقدّس وموكب العريس المبتهج الذي يركب حصاناً أبيض إلى بيت حسنائه الموعودة... إنّها لمُعجِزةٌ أن تتسلّل هذه المركبة الرشيقة بسرعة خمسين ميلاً في الساعة من خلال هذه الزحمة الهادئة التي تجعل من السفر على طرق الهند الرئيسية سباق حواجز حقيقياً.

علّق أمير ضاحكاً:

ـ جيهانرباد مضطرة لتنظيم رحلة لصيد النمور على شرف الحاكم. هؤلاء الإنجليز يحسبون أنفسهم جميعاً رماة بارعين. ليتهم يعرفون كيف نصرع هذه النمور المسكينة! سنطلق ليلة اليوم المعلوم عند نبع تشرب منه النمور جواميس صغيرة مخدّرة بالأفيون... وإذا بدا هذا غير كاف، سنكلف حارساً بأن يختبئ في دغل، ويطلق النار في نفس الآن الذي يطلق فيه ضيفنا المميّز. وبذلك تعمّ الفرحة: يفرح صيّاد الكواسر العظيم وتُلتَقط له صورةٌ وقد وضع قدماً مزهوّة على جثة الطريدة، طريدة سيحنّط رأسها لاحقاً، ويضعه في مكان بارز في بيته بحيث يزرع الهلع في قلوب النساء، ويفرح الأمير الذي استضافه، والذي لن يُرفض له، في غمرة ذلك الابتهاج، طلب.

ـ أتكرهُهم؟

جفل أمير ومضى يحملق في زوجته.

ـ أنا لا أحبّ الإنجليز، ولكنني معجب بهم. لو كانت لنا نصف حيويتهم وقدرتهم على التحمّل، وإخلاصهم...

ـ إخلاصهم؟

ـ للإمبراطورية! فهم مستعدّون من أجلها لارتكاب كلّ الدناءات. أمّا الحظوة التي يخصوننا بها، فلأنها لا تتعارض مع مصالح العرش. وعدا هذا، بإمكانهم أن يكونوا في منتهى اللؤم. أمّا على مستوى ما يسمى بالنفاق الشرقي، فليس لدينا ما نؤاخذهم عليه. بل إنّ هذا هو ما يضفي الإثارة على علاقتنا بهم...

وتساءلت سلمى في قرارة نفسها: «حين يلعب القط بالفأر، أين هي الإثارة؟ ألا يدركون أنّ الإنجليز يهزؤون بهم، ويستغلّونهم؟ إنّ نساءهم المسجونات خلف الحجاب أكثر حكمة منهم».

ـ راني جيهانرباد تكره هؤلاء الإنجليز الذين يتعلّق بهم زوجها أيّما

تعلّق. هي وصديقاتها يزعمن أنّ بياض بشرتهم أشدّ من أن يُحسبوا على البشر. وهنّ يؤكدن أنّ أشجاراً ضخمة تنبت في جزيرتهم تثمر بيضاً: وهم يفقسون من هذا البيض!

ويرفع الراجا عينيه إلى السماء. إنّ غباء هؤلاء النسوة لا حدود له.

ـ كنت أريد أن أخبرك بالمناسبة يا عزيزتي أنّني تلقّيت رسالة من أحد أصدقائي القدامى في كامبريدج، وهو اللورد ستيلطيلطون. تزوّج أخيراً من فيكونتيسة تدعى ليدي غراس، وقد عزما على إمضاء سفر عرسهما في الهند. سيصلان إلى لوكنو في غضون بضعة أيّام، وسيقيمان في قصرنا.

ثمّ أضاف ساخراً:

ـ أتمنّى ألا تمنعك أفكارك الوطنية من أن تُحسني وفادتهما...

«يا لهما من زوجين رائعين! كم يبدوان مغرمين بعضهما ببعض!»، راقبتهما سلمى طيلة السهرة بحنين كطفلة تقف أمام متجر مليء بأشياء عجيبة وممنوعة في نفس الآن. ما أجمل هذه الشقرة اللامبالية وهذه البساطة، وهذه الضحكات التي تُشعرها باليأس!

وقد كان العشاء مع ذلك بهيجاً للغاية، دار فيه الحديث عن لندن وباريس، وعن المسرحيات الجديدة والمطاعم التي صار الناس يقبلون عليها والحفلات التنكّرية. كما تبادلوا أخبار آخر الفضائح. وسأل أمير عن كلّ من يعرفهم، وكان في كلّ مرة يُعجب وينفجر ضاحكاً. وما من مرّة رأته سلمى مرتاحاً ورائقاً مثل هذه الليلة، وتعجّبت من أنّه يعرف هذا العدد الكبير من الناس.

وأسرّ لها لورد ستيلطلطون قائلاً:

ـ كان زوجك هو منشط مجموعتنا التي كانت تضمّ بين أعضائها عدداً من الشباب المرحين. لكنّ أمير كان يمتاز عليهم بطريقته الخاصة، الشعريّة والعفويّة، التي كانت تمكّنه من تحويل سهرة مضجرة إلى

مغامرة. لذلك كان الجميع يتخاطفونه، هذا عدا النساء اللواتي كنّ معجبات به إلى حدّ الجنون!

أمير منشّط مجموعة؟ لم تصدّق سلمى أذنيها. وشرد ذهنها: لو أنّهما التقيا في لندن، فلربّما كانا سيتعلّقان بعضهما ببعض!... فما الشعور الذي يربط بينهما الآن؟ آه لو أنّه قبل التخلّي عن هذا الدرع الذي يحيط به نفسه... لكنه يزعم أنّ الحبّ داء يفسد العقل. والمرّة الوحيدة التي تجرّأت على أن تسأله عن شعوره نحوها، أجابها: «أنا معجب بك وأحترمك»، ولم تسأله ثانية منذئذ هذا السؤال.

قامت وتوجّهت ببطء نحو البيانو، ملاذها الأثير الذي تستطيع أن تنعزل فيه من دون تظهر بمظهر الهاربة من الآخرين. وقد حصلت عليه بتدخّل من رشيد خان رغم اغتياظ الراني عزيزة.

كان لقاء سلمى برشيد خان، ذلك الصديق العزيز الذي لم تره منذ وصولها إلى لوكنو، مفاجأة سارّة. ورغم أنّه يكبر أميراً سنّاً، فهو أيضاً صديق للورد ستيلطلطون الذي ما كان ليفهم تغيّبه عن هذا العشاء. وبطبيعة الحال لم يجد أمير في نفسه الشجاعة ليشرح لصديقه القديم أنه هو، ذو الفكر العقلاني المتحرّر من الأفكار المسبقة، يُلزم زوجته بارتداء النقاب.

داعبت أصابعها أزرار البيانو العاجية، وراحت تعزف النغمات الأولى من إحدى معزوفات شوبان الحالمة. معزوفة تنتقل بالسامع من الحزن إلى الأمل، وتعبّر عن عاطفة تتحطّم ثمّ تنبعث مرتعشة ومتّقدة، ثمّ يتعالى من جديد شهيق يمثّل شكوى مرهفة كخدّ وردة، كقطرة ندى، ثمّ يضمحلّ.

كانت تشعر بنظرات رشيد الحارة والمفعمة بالحنان تحطّ على يديها وعلى رقبتها. تجنّبا طيلة السهرة أن تلتقي نظراتهما، لكن الآن، الآن فقط، إذ تبدو تائهة في أحلامها، تجرّأ على النظر إليها. أمّا هي فتقطع أنفاسها لكي تمسك بكلّ جزء من هذا الشعور وهذا الوله الذي يجعلها تتفتّح مثلما يُفتّح شعاع الشمس زهرةً بريّة ويجعلها تفوح بعطرها وتحيا.

ومع ذلك فهي تعرف أنّها لا تحبّه، وأنّه لا يملك وسامة زوجها. لكنّها في هذه اللحظة لا تراودها غير رغبة واحدة: أن ترتمي في حضنه وتتركه يهدهدها. وقد كانت نظرة تفهُّم وحبّ من عينيه كافيّة لكي تستعيد فجأة سلمى التي كانتها قبل ثمانية أشهر، تلك الشابة السعيدة التي استقبلها بمرفأ بومباي ذات صباح ربيعي.

وانتشلها صوت اللورد من حلمها:

ـ ما رأيك يا أمير في أن ننهي السهرة في نادي شاطر منزل؟ سمعت أنّه مكان فاخر، وأنّه كان قصر أحد ملوك أوده؟

أجاب أمير وقد شحب وجهه:

ـ لست عضواً في هذا النادي.

ـ لا عليك، أنا أدعوك. فقد تفضّل الحاكم الذي زرته هذا الصباح بتقديم اسمي إلى مصلحة الاستقبال.

واغتصب أمير ابتسامة وهو يقول:

ـ أنت حديث الوفود إلى هذه البلاد يا إدوار، ولكنّك مررت على كلكوتا، فهل زرت يخت كلوب؟

ـ طبعاً، إنّه مكان رائع.

ـ هل تعرف الفرق بين يخت كلوب وشاطر منزل؟

كان أمير يتكلّم ببطء وهو يلاعب كأس البراندي في يده كما لو أنّ فكره سرح في لونه العنبري.

ـ الفرق هو أن يخت كلوب يُمنع ارتياده على الهنود والكلاب. أمّا في لوكنو، فهم أكثر تسامحاً، إذ يقبلون دخول الكلاب.

وخيّم صمت ثقيل. ومضت كلّ الأعين تحدّق في اللورد ستيلطلطون الذي بُهت. ما من مرّة وجد نفسه في موقف حرج كهذا.

ـ لعلّك تمزح! أظنّه قانون وضع من أجل الأهالي، أقصد... للشعب، وليس للناس من أمثالك!

ـ ماذا تقصد؟ أأنا لست هندياً في نظرك؟

ـ ولكن يا أمير، أنت سليل أسرة من أعرق الأسر الهندية. وكانوا ينادونك في لندن «الأمير»، والدوقات كنّ يتسابقن على استقبالك...

ـ هذا في لندن، أمّا في بلادي، فالأمر مختلف...

وضع اللورد الشاب رأسه بين يديه من هول الصدمة ثمّ قال:

ـ ... ويعجبون كيف تطالب الهند باستقلالها... كلّ هؤلاء الموظّفين الصغار الإنجليز البلهاء! حين أفكر في أنّهم يتجرؤون على احتقارك، أقول في نفسي يا لهم من معتوهين! تعال معي، وسندخل قسراً، سترى، لن يقولوا شيئاً، وإلا كنت لهم بالمرصاد!

نظر أمير إلى صديقه متردّداً. لا تروقه إثارة الفضائح، لكن بالتفكير في الأمر مليّاً، وجد أنّها فرصة سانحة لإحراج السلطات. فستيلطلطون شخص معروف. رغم أنّه ما يزال شاباً، فهو عضو بارز في مجلس اللوردات. فما المانع من أن يجرّب؟ سيكون هو الرابح في كلّ الأحوال: إمّا أن يرغمهم صديقه على السماح له بالدخول، فيكون ذلك حدثاً غير مسبوق، يكسّر فكرة تفوّق البريطانيين، أو يُصرَف قسراً، فيكون ذلك فضيحة مدويّة. وفي مرحلة النضال من أجل الاستقلال قد تكون فضيحة كهذه ذات فائدة كبيرة.

عبرت سيارة الرولز، في تلك الليلة التي يضيئها بدر مكتمل، الممرّ الرئيسي بين أشجار النخل ذات الجذوع الفضيّة وأشجار البانيان التي يتجاوز عمرها ثلاثة قرون، ولاحت واجهةُ قصر شاطر منزل الطويلة المضيئة، وكذا قبابُه البرونزيّة الثلاث ذات اللون الذهبي الساطع، فهتفت الليدي الشابة متعجّبة:

ـ ما أجمله!

وتمالك أمير نفسه من أن يقول لها بأنّ هذه القباب كانت في الماضي من الذهب الخالص، لكنّ مواطنيها... ـ كيف سيقول لها ذلك بعبارة متأدّبة؟ ـ سرقوه.

وتوقّفت السيارة أمام المدخل الفخم حيث رُكنت نحو عشرين سيارة. وكانت ثمّة ستارة من العشب الأخضر تنزل إلى أن تلامس الأرض، مشكّلة ما يشبه إفريزاً طرياً وعطِراً.

وبينما أمسك اللورد بيد صديقه وتوجّه به بتصميم نحو المدخل، اعترضهما البوّاب.

ـ المعذرة سيّدي... يمنع على...

لكن اللورد نظر إليه بتعال، وتابع سيره وهو يقول:

ـ هل تعرف مع من تتحدّث؟ لا شيء ممنوع بالنسبة إليّ!

وبحركة من يده، أزاح من طريقه تلك القوانين وكذلك هذه الجرثومة التي تدّعي أنّها مكُلّفة بتطبيقها.

وقالت سلمى في نفسها: «إنّها بداية جيّدة»، ثمّ التفت إليه لكي تبتسم له: إنّها أوّل مرّة تعثر فيها على إنجليزي ودود. ولا شيء أحبّ إليها من مثل هذا النوع من التحدّي. وشعرت بالليدي غراس بجوارها تتوتّر: بمقدار ما كانوا يتقدّمون نحو الصالونات، بدأ يلوح لهم أعداد من خدم المطعم الذين يحرسون المكان، رجال أشرس من بواب منفرد.

كانت قاعة شاطر منزل الكبرى هذا المساء مزيّنة كلّها بالورود. وعلى منصّة صغيرة جلست فرقة موسيقيّة تعزف أنغاماً هادئة. أمّا بين الموائد، فكان خدم معمّمون يتسلّلون بصمت حاملين أطباقاً فضيّة ثقيلة مليئة بزجاجات ذات ألوان متعدّدة. وكانت كلّ الموائد مشغولة تقريباً، ومعظم الزبائن من النساء على غير العادة. ورغم أن القاعة مليئة، لم تكن تسمع إلا ضجّة خافتة، يمتصها السجاد السميك وطبقة الخشب التي تكسو الجدران.

قالت سلمى في نفسها: «لا بدّ أنّ ثمّة حفلاً، وهي مناسبة ما كنّا لنصادف أفضل منها: كلّ سكان المدينة سيعلمون بالخبر». وشعرت كما لو أنّها تدخل إلى حلبة معركة، فسرت في رقبتها قشعريرة خفيفة.

ما كادوا يدخلون حتّى توقفت الأحاديث وعمّ الصمت، ولم تعد تُسمع غير الموسيقى. وتركّزت كلّ الأنظار عليهم. أمّا اللورد ستيلطيلطون، فلم يعبأ بذلك، وراح يسأل عن المائدة التي حجز، فتقدّم منهم كبير الخدم، وهو إنجليزيّ من المدرسة القديمة، وفتح فمه مراراً لكي يقول شيئاً، لكنّه لم يستطع النطق، كما لو أنّه أُصيب بالخرس، فهبّ لنجدته زميلان من زملائه.

ـ مائدتكم موجودة هناك يا سيدي، بعيدة قليلاً عن الفرقة الموسيقية، ولكن...

فقاطعه اللورد بغطرسة:

ـ ماذا هناك؟ ماذا تنتظر لكي تقودنا إليها؟ ما أغرب أساليبكم في استقبال الزبائن حقّاً!

ـ الرجل الذي يرافقكم يا سيّدي... قانون النادي لا يسمح...

ـ بدأ صبري ينفد يا غلام! راجا بادالبور ضيفي. إن أنت أسأت عليه الأدب فقد أسأته علي. أتُراكم تقصدون إلى إهانتي؟

علا الشحوب كبير الخدم، واختفى من دون أن يلحّ.

جال اللورد بعينيه على الحاضرين هازئاً. فلم يجرؤ أحد على النظر إليه، إذ عادوا كلّهم إلى ما كانوا يخضون فيه من أحاديث.

ـ هيّا يا أمير، ينبغي أن نجلس، لا بدّ أن التعب نال من هاتين المرأتين.

وما هي إلا هنيهة حتّى جاء خادم هنديّ ليسألهم عن طلباتهم. فبعد أن تشاوروا فيما بينهم، أرسلوا أصغرهم سنّاً. كان يتلافى النظر إلى الراجا والقلم يرتعش بين أصابعه. وحولهم بدأ الضيوف يغادرون

موائدهم، بعضهم في صمت مقرف بينما عبّر آخرون عن تذمّرهم على نحو ملحوظ. لكن لا أحد تجرّأ على الدخول في مواجهة مباشرة مع هذا الشاب المتغطرس الذي يبدو ـ يا للعار! ـ منتشياً، بينما خفضت زوجته عينيها وقد امتقع لونها.

ولم تكد تمضي خمس دقائق على جلوسهم حتّى تقدم منهم رجل مميّز، يرتدي سموكينغ قشديّ اللون.

ـ أظنك اللورد ستيلطيلطون، أليس كذلك؟ مرحباً بك في شاطر منزل يا سيّدي. أنا جميس بيلي، رئيس النادي.

ـ تشرّفنا يا سيد بيلي! دعني أقدّم لك زوجتي ليدي غراس، وصديقي راجا بادالبور والراني زوجته.

وانحنى المدير باحترام أمام السيدتين متجاهلاً عن قصد الراجا، وقال:

ـ إنه لمن دواعي سعادتنا أن نستقبلكم بالنادي، أنت وهاتين السيدتين، لكن يتعذّر علينا بالمقابل استقبال هذا السيد. ذلك أنّ ارتياد نادينا محظور على... الأهالي.

وقد نطق هذه الكلمة الأخيرة بوقاحة جعلت سلمى تجفل وتقول:

ـ قلت الأهالي؟ ولكنّني أنا أيضاً منهم يا سيدي، بحكم زواجي من الراجا. هل أفهم من هذا أنّك تطردني أنا أيضاً؟

عضّ رئيس النادي على شفتيه.

ـ كلا يا سيدتي. بإمكانك أن تمكثي إن أردت.

فقاطعه اللورد إدوار بنبرة فاترة:

ـ اسمع يا سيّد بيلي، سنبقى هنا جميعاً، اللهم إلا إذا اخترت إخراجنا بالقّوة، لكن لا يغيبَنَّ عن بالك الفضيحة التي ستترتّب عن ذلك!

ـ آسف أيّها اللورد، أنا مضطرّ لتطبيق القانون.

وتراشق الرجلان بالنظرات، وما من أحد منهما بدا مستعدّاً للتنازل،

إذ صارت المسألة مسألة شرف. أمّا الراجا، فراح يرتشف من مشروبه رشفات صغيرة وكأنّه غير معنيّ بما يدور. وكانت كلّ العيون مشدودة إلى المائدة، بينما وقف في إحدى الزوايا ستة من الخدم ينتظرون.

وهذه هي اللحظة التي اختارتها الليدي غراس لكي تتدخّل. قالت بنبرة متأوّهة:

ـ أشعر بالدوار يا إدوارد... الجوّ شديد الحرارة هنا... لنخرج أرجوك وإلا فسيُغمى عليّ...

ألقى اللورد نظرة على زوجته وهو يداري نفاد صبره: كانت تبدو حقّاً على وشك أن يغمى عليها. وراودته فكرة أن يطلب من سلمى مرافقتها إلى قاعة استراحة النساء، لكنّه عدل عن ذلك: «يا لفظاظتي! حبيبتي غير متعوّدة على هذا النوع من المواجهات. ما كان عليّ أن أستقدمها إلى هنا ونحن في سفر شهر العسل، وأعرّضها لمثل هذا الموقف».

وسارع السيد بيلي إلى القول:

ـ هل بوسعي أن أساعدك؟

فأجابه اللورد من دون أن ينظر إليه:

ـ كلا، أو بالأحرى اطلب منهم أن يأتوني بالسيارة!

ـ يا له من جبان!

الآن وقد عادوا، أطلقت سلمى العنان لغضبها من دون أن تدري أيّ شعور يغلب عليها: أهي المرارة أم الاشمئزاز. كان قد خيّم على السيارة في طريق العودة صمت مربك، وأقسم اللورد ستيلطيلطون بأغلظ الأيمان بأن ينقل الواقعة إلى لندن، لكنّ لا أحد أجابه لمعرفتهم جميعاً بأنّه متى وصل إلى العاصمة البريطانية، سيجد الشكوى تافهة وفي غير محلّها، هذا إذا لم ينسها جملة وتفصيلاً. وافترقوا متمنّين بعضهم لبعض ليلة سعيدة وهم يعلمون كم ستكون سيئة!

راح أمير يدور في الغرفة وهو يصكّ أسنانه. لم ينبس طيلة الفترة التي

قضوها بالنادي، وشعرت سلمى بأنّه ناقم في هذه الأثناء عليهم جميعاً: صديقه الذي جرّه إلى هذه المغامرة، وخانه متذرّعاً بأوهى ذريعة، وزوجته التي خانته عن غير قصد، ببشرتها البيضاء التي تعطيها حقّ المواطنة في الجانب الآخر من الحاجز.

ودّت لو تتحدّث إليه، وتقول له إنّ أفضل ردّ على الاحتقار هو مواجهته باحتقار أشدّ منه. لم تفهم كيف أنّ أمير ومعه الأرستقراطية الهندية تستمرّ في مخالطة الإنجليز وخطبة ودّهم بعد كلّ هذه الإهانات. ما منشأ هذا الخضوع الغريب في رجال عُرفوا باعتدادهم بأنفسهم؟ ألا يدركون أنّهم لن يستعيدوا قوّتهم إلا إذا رفضوا، ليس البريطانيين فحسب، بل حتّى منظومة القيم التي يزعم هؤلاء أنّهم يسعون لفرضها باعتبارها منظومة كونية؟

لكنّها لزمت الصمت. كانت تعلم أنّه لن يتحمّلها في هذه الأثناء إلا صامتة. لكن، ألن يعتبر صمتها لامبالاة، لا سيما أنّه مكلوم؟... اقتربت منه، وأمسكت بذراعه، إلا أنّه تخلّص منها بعنف.

ـ لا تلمسيني، دعيني عنك!

ورشقها بنظرة عدائية كما لو كانت عدوّته أو غريمته في مسابقة عبثية يسعى كلّ واحد منهما فيها إلى إثبات تفوّقه خوفاً من أن يُسحق. فهي مذنبة أيضاً، ومسؤولة عن هذه المسخرة التي لم يتوقّفا عن تمثيلها منذ بداية زواجهما ـ شرف المَحتِد مقابل الثروة ـ بسبب انعدام الثقة، لأنّ لا أحد منهما يستطيع أن يتصوّر نفسه محبوباً لذاته. أتُراه تاق ـ مثلها ـ إلى شيء آخر؟ إلى أن يتخلّصا من قشرتهما الخارجية، ويستعيدا براءتهما؟ فلقد سجَنَها في دوْر الأميرة والزوجة الجميلة، أمّ أولاده القادمين. وهو لا يريد منها غير هذا. لا يريد منها تفهّماً قد يكسر القوقعة التي صنعها لنفسه، قوقعة يحرص على تعزيزها، وما وقع هذا المساء يؤكد ذلك، لأنّ ما عرّضه للإهانة هو إيمانه الساذج بوجود صداقة بينه وبين الإنجليز.

راحت سلمى تطارد النوم وهي مستلقية على السرير العريض. وبينما بدأ النعاس يداعب جفنيها، عاد أمير. كانت أنفاسه تفوح برائحة الكحول، ومن دون أن ينبس، شرع يداعبها، ومضت يده تصعد فخذيها بحركة خرقاء، فتصلّبت لأنه يؤلمها، وحاولت إزاحته.

وقد كان ذلك كافياً ليستشيط غضباً. حتّى هي تصدّه؟ سترى!

أمسك ذراعيها بيديه الصلبتين، وثبّتها على ظهرها، ثم ولج فيها كما لو أنّه ينتقم. وما إن انتهى حتّى انقلب على جنبه وغطّ في النوم.

جفاها النوم، وتعجّبت كيف أنّها لم تبك. لو وقع هذا قبل أشهر لكانت قضت تلك الليلة تنتحب. ألأنّها صلُبت أم لأنّها تفهّمت غضب أمير ذلك المساء؟

ما من مرّة بدا عدوانياً معها مثل هذه الليلة... وما من مرّة قصد إلى إيذائها كما فعل هذه الليلة... لقد انتهى بها الأمر أن اعتادت على خُرقه وبطره، لكنّها لم تستسلم مع ذلك: لمّا تتأمّل وسامته، تستغرق في الحلم، وتتملّكها القشعريرة وهي تتخيّل عناقه الطويل العذب. هو لا يعرف كيف يرضيها، لكنّه يثير حساسيّتها، ويجعلها تعيش كلّ ليلة بين الأمل واليأس. إنّ شهوتها من القوّة بحيث تشلّ ساقيها وركبتيها وبطنها. تظلّ وحيدة في الظلام، وتتمالك نفسها من أن تصرخ.

١٠

لمّا استيقظت سلمى، كانت الشمس قد ارتفعت في السماء، ولا بدّ أنّ أمير غادر منذ مدّة طويلة. لكنّها لا ترغب في مغادرة الفراش لأنّها تشعر بالألم في سائر جسمها.

وسمعت نقراً خفيفاً على الباب لا يكاد يسمع.

ـ ألا أزعجك؟

إنّها زهرة التي اعتادت على الالتحاق بها كلّ صباح لكي تتناولا وجبة الفطور. وتشعر سلمى بالحنان على هذه الصبيّة التي تؤثّر فيها براءتها وتُسلّيها. فقد صار تناول الفطور معاً طقساً لا تتخيّلان بدء يومهما بدونه.

وبينما أحضرت إحدى الخادمات صينيّة كبيرة مليئة بصحون من الفضة والفخار الرفيع، اتّخذت زهرة لها مكاناً على السرير كعادتها، وبادرت سلمى:

ـ لو تعلمين أيّ حلم غريب رأيت هذه الليلة! كنّا نتنزه معاً يداً في يد، وفجأة تغيّرت. صار فستانك مثقلاً بالأحجار الكريمة، وبدوت متألّقة وعلى قدر كبير من الجمال بحيث أبهرتني ولم أعد أقوى على النظر إليك. تشبّثت بيدك، لكنّها صارت كقطعة ثلج. وشعرت كما لو أنّك تصُدّيني، فأجهشت بالبكاء... وعندئذٍ استيقظت. تصوّري، وجدت نفسي أبكي فعلاً!

فقالت سلمى وهي تبتسم وتتمطّى:

ـ أكنتُ حقّاً في منتهى الجمال؟

وأمسكت زهرة بيديها، وغمرتهما بالقبل، واسترسلت تقول:

ـ أقلُّ ممّا أنت في الواقع. تلك التي تراءت لي في الحلم كانت تتلألأ كنجم ميّت. أمّا نورك أنت فدافئ وذهبيّ.

وأضافت وهي تقضم من قطعة خبز محمّص مدهونة بمربّى البرتقال:

ـ ... ثمّ إنّك، وهو أمر تعرفينه، قلتُه لك مراراً، أجمل...

وراحتا تضحكان. ذلك أنّ إعجاب الفتاة اللامشروط بسلمى صار موضوع دعابة، بحيث يزعم أمير نفسه أنّه إن شاء الحصول على شيء من أخته، صار عليه أن يستعين بزوجته.

وهمست زهرة:

ـ أنا في غاية السعادة. فقد تغيّرت حياتي تماماً منذ عودتك. قبل ذلك كنت أشعر بالوحدة، ولم يكن لي أحد أبوح له بأسراري. فأخي لا يحضر إلا لماماً، وحتّى حين يحضر، فهو منشغل جدّاً بحيث لا يمكن أن أزعجه بمشاكلي.

نزعت نعليها واستلقت بعرض السرير، وأسندت رأسها في دلال إلى فخذ سلمى. فراحت تداعب على نحو آلي خصلات شعرها البنيّة، وجبينها البارز، الشبيه بجبين أمير. أغمضت زهرة عينيها ومضت تصدر همهمة خفيفة من اللذة، ثمّ رفعت رأسها قليلاً، فما إن استقرّ في الحِجر الدافئ حتّى أحسّت سلمى بقشعريرة تسري في جسمها، وتملّكتها رغبة جامحة في الإمساك بهذا الرأس الناعم، وضمّه بقوّة إلى بطنها.

لكنّها أبعدتها فجأة، وقالت:

ـ يكفي من هذا التصابي! اتركيني الآن، عليّ أن ألبس لكي أذهب عند الراني شاهينا.

قامت زهرة مذهولة. لم يسبق لسلمى أن خاطبتها بمثل هذا الجفاء. أتراها نطقت بشيء أغضبها؟

وقفت سلمى أمام المرآة وأمسكت رأسها بكلتا يديها وهي تتنفّس بصعوبة. ما زالت تشعر بذلك الدوّار الذي انتابها من قبل. وكان عليها أن تستجمع كلّ ما لديها من عزم لكي لا تستسلم. لكنّها تحسّ الآن كما لو أنّ الجسد ينتقم. ذلك أنّ مغصاً لوى بطنها، وكان من الحدّة بحيث أوشكت على البكاء. حاولت أن تلتقط أنفاسها، وتسيطر على ما تشعر به من ألم. وما لبث أن خفّ، وإن ظلّت تشعر بالإنهاك. ولمّا رفعت رأسها إلى المرآة، تراءت لها صورة امرأة غريبة، بوجه تكسوه هالات سوداء، وفم تحيط به تغضّنات بغيضة.

عند مدخل قصر نامبور، استقبل سلمى نمِران. رغم عيونهما الزجاجية وفروهما الأشعث، يبدوان على أحسن ما يرام. رحّبت بها وصيفة الراني شاهينا وبادرتها قائلة في ارتباك: ما زالت الراني لم تجهّز نفسها، هل تتفضّل سموّك بانتظارها في الصالون. سنقدّم لك بعض المرطّبات... فأومأت سلمى موافقة وهي سعيدة بأن تخلو إلى نفسها لحظة.

وجدت الصمت المخيّم في هذه القاعة الكبيرة ذات النوافذ المكسوة بستائر ثخينة، مهدئاً للأعصاب مقارنة بجلبة قصر بادالبور. صمت رائق أعاد لها الطمأنينة. وما هي إلا لحظة حتّى أتتها خادمتان بوجبة تكفي لسدّ رمق عشرة جياع، ثمّ انسحبتا على نحو متكتّم. وشعرت سلمى بالاستغراب: هذه هي أوّل مرّة تنعم فيها بقليل من الوحدة منذ حلولها بالهند. لا شكّ أنّ سرّ ذلك هو كون الراني نصف إنجليزية، وأنّها نجحت في أن تفرض احترام الحياة الخاصة، وهو أمر متعذّر تصوُّره في بيت هندي صميم.

وبينما كانت ترتشف جرعات صغيرة من الشاي المعطّر، تهيّأ لها سماع حفيف خلف الستار الخشبي في أقصى القاعة. أصاخت، لكنّها لم تتبيّن شيئاً. لعلّها مجرّد تهيّؤات. ومع ذلك... فهي تشعر بوجود أحدهم، ويمكن أن تقسم على أنّ ثمّة من يراقبها. وقالت في سرّها ساخرة من نفسها: «يبدو هذا الصالون إنجليزيا حقّاً، مع أنّنا في الهند!».

يكفي أن تقول: «من هناك؟» لكي تهرب المتلصّصة. لكنّه سلوك غير لائق بضيف في بيت مضيفه. ثمّ، مهما يكن، ما الفرق بين أن تتخفّى المتلصّصة خلف ستار خشبي أو تنتصب أمامها؟ ينبغي أن تسلّم بأنّ المرء في هذا البلد لا يمكن أن يفلت من فضول الآخرين.

وصار الحفيف أشدّ، كما لو أنّ صاحبته لم يعد يعنيها أن تتخفّى. قد يكون منبعثاً من حرير غرارا أو عن احتكاك ثوب ثخين يشير إلى أنّ صاحبته من علية القوم لا خادمة تلبس الطافطا. ومضت تنتظر في حيرة. وفجأة ظهرت يدٌ بالغة النحول، متشبّثة بالحاجز الخشبي. يدٌ بيضاء على خلفية سوداء. ذهلت سلمى، ولم تعد قادرة على تحويل بصرها عن هذه اليد الساكنة التي تبدو من دون ساعد.

ودوّى صوت امرأة عجوز، حزيناً:

ـ ارحلي من هنا!

انخلع قلب سلمى. رغم عدم إيمانها بالأشباح، أفزعها هذا الشخص المتخفّي غير الودود، والجوّ المخيّم على هذا الصالون الغريب... تشبّثت بمقعدها، وراحت تحدّق في ذلك الركن المعتّم الذي بدر منه الصوت، وتحملق في تلك اليد التي بدت لها الآن مهزولة كيد شبح.

ـ اهربي، اهربي بسرعة!

ولاح لها طيف ضئيل ينسدل على كتفيه شعر في بياض الثلج. وراحت العجوز تتقدّم بصعوبة كما لو أنّ ثوب البروكار أثقل من أن يحمله جسدها المنهك. وراحت تتفرّس سلمى بعينين خضراوين وشفتين مرتعشتين.

ـ انجي بنفسك يا بنتي.. قبل فوات الأوان.

وتعكّر صفاء عينيها كما لو كدّرته غيمة. وشرعت فجأة في تحريك رأسها من جهة لأخرى، ثمّ أخذت تردّد:

ـ فات الأوان... فات الأوان...

ـ آه، أرى أنّ ماما قد جاءت لزيارتنا!

دخلت الراني شاهينا، فأخرج صوتُها الصافي ووجهها الساحر سلمى من الذهول الذي غشيها. وتسلّلت أشعة الشمس من النوافذ مجدّداً.

تناولت الراني يد المرأة العجوز بحنان، وقالت:

ـ هيّا يا ماما، أنت متعبة. ينبغي أن ترتاحي.

وقرعت جرساً، فظهرت على الفور امرأة.

ـ خذي البيغوم صاحاب إلى جناحها، ولا تتركيها بمفردها أبداً. لقد قلتها لك هذا مراراً.

ثمّ عادت إلى سلمى، وقالت:

ـ آسفة. أراك شاحبة، ماذا قالت لك أمي حتّى أخافتك هكذا؟ أظنّك تعلمين أنّها مصابة بالخرف...

فهمست سلمى وهي مستغرقة:

ـ أتظنّين ذلك؟ لقد نصحتني بالهرب من هذا البلد قبل أن يفوت الأوان...

ـ مسكينة ماما! لقد ذكّرتها بشبابها لمّا جاءت شابّة غريبة مثلك إلى الهند. أرادت أن تحذّرك حتّى لا تؤولي إلى نفس مآلها. لكن الوضع الآن مختلف تماماً. كان ذلك قبل أربعين سنة. العادات تغيّرت منذئذ، لا سيما وأنك نصف مشرقية، وتفهمين ثقافتنا.

وبدت الراني شاهينا كما لو أنّها تبذل جهداً لكي تواصل:

ـ أمّا هي، فكانت شابّة إنجليزية في غاية البساطة، من البرجوازية اللندنية. هامت حبّاً بأبي الذي كان يتابع دراسته الجامعية في لندن. كان وسيماً وغنيّاً وجذّاباً. تزوّجا، وبعد مرور عام، أتى بها إلى لوكنو لتعيش في عائلة لم تقبلها قطّ، معتبرة أنّ ابنها كان عليه أن يتزوّج امرأة هندية.

أظنّها اعتقدت في البداية أنّ بإمكانها أن تهزم عداءهم بما تبديه من لطف ووداعة. لكنّها سرعان ما تنبّهت إلى أنّ ذلك مستحيل، وأنّها ستظل طول

حياتها دخيلة. لماذا بقيت هنا، لماذا قبلت أن تعيش محبوسة؟ أحبّاً في أبي؟ قد يكون ذلك صحيحاً في البداية، لكنّه سرعان ما أهملها. بقيت من أجلنا، من أجل أطفالها. كانت تحبل كلّ عام من أبي الذي قلّما كان يراها، كما لو أنّه كان متنبّهاً إلى أنّ ذلك هو السبيل الوحيد لاستبقائها. ولدت سبعة عشر طفلاً وطفلة لم يعش منهم غير ستّة.

وتوقّفت الراني شاهينا عن الكلام فجأة، ثمّ استرسلت تقول:

ـ والأقسى من كلّ ذلك هو أنّها كانت لا تكاد تضع حَمْلها حتى يُنزع منها الرضيع. فجدّتي كانت ترفض أن تسمح لإنجليزية بتربيّة أحفادها. كانوا يعهدون بنا إلى خادمات في البيت ترضعننا. ولم يكن لنا حقّ لقاء أمّنا إلا مرّة في الشهر. ما زلت أذكر بكائي وأنا طفلة صغيرة لمّا كانوا يفصلونني عنها بعد ساعات من اللقاء في كلّ زيارة. كنت أتخبّط وأرفع عقيرتي بالصراخ وأعول... فتنظر إليّ بعينين دامعتين وترجوني أن أتعقّل.

راحت المرأتان تنظران لبعضهما بعضاً في صمت بتأثر. هل تغيّرت الأمور حقّاً؟ لا تظنّ سلمى ذلك، لكنّها لن تستسلم، وستعرف كيف تفرض عليهم احترامها.

ولكي تروّح الراني شاهينا عنها، اقترحت أن تقوما بنزهة في حضرتغانج، مركز لوكنو الراقي، لتتفرّجا على معروضات المتاجر بمناسبة أعياد الميلاد.

ـ شيء رائع، فالإنجليز يبذلون جهداً كبيراً ليخلقوا أجواء بلدهم في هذه المناسبة. لا ينقصهم سوى الثلج.

كانت تضيء شارع حضرتغانج الكبير شرائط مصابيح تتقاطع من رصيف لآخر بحيث تنشئ قبّة ملوّنة. وفي صناديق خشبية تتلألأ أشجار نخيل قصيرة مثل أشجار أعياد الميلاد.

وعلى غرار بقيّة النساء الهنديات، لم تكن سلمى تزور هذا الحي إلا لماماً. فقد كان ارتياده مقصوراً على البريطانيين تقريباً. ومعظم المتاجر

والمطاعم ودور السينما هي في ملكيتهم. وحتّى العاملون فيها، إن لم يكونوا من الإنجليز، فهم من أصل مختلط، إنجليزي هندي.

كانت الحركة شديدة عشيّة أعياد الميلاد. سيّارات ضخمة مركونة أمام المتاجر، وكذلك بعض العربات. لكن لا يكاد يُرى للهوادج والمحامل والعربات الصغيرة، التي تسمى طونكا، من أثر. ذلك أنّ وسائل النقل التقليدية والشعبية هذه، الشائعة في المدينة القديمة، تبدو هنا في غير مكانها.

واقترحت الراني شاهينا:

ـ ما رأيك في أن نذهب إلى وايت واي؟ أريد أن أشتري شرائط ودانتيلا. الظاهر أنّهم استوردوها من لندن.

وايت واي هو أكبر متجر في حضرتغانج، يعرض كلّ السلع المستوردة، من القبعات الصغيرة التي يتهافت عليها الناس هذا العام إلى لوازم تحضير حلوى البودنغ.

توقّفت بهما العربة قبالة المدخل الرئيس للمتجر تماماً. تخلّصت سلمى من برقعها الذي لم تلبسه إلا عند خروجها من قصر نامبور. فهذا المكان بالنسبة إليها مثل أوربا، تشعر فيه بالحرية. أمّا رفيقتها، فسوّت برقعها بعناية.

لمّا دخلتا إلى الرواق، لفتتا كلّ الأنظار. ذلك أنّ الهنود إن كانوا يأتون إلى هيكل الأناقة هذا لشراء ألبسة وأحذية من ماركات عالمية، فنادرا ما تطؤه أقدام نسائهم.

كانتا المسلمتين الوحيدتين فضلاً عن امرأتين أو ثلاث نساء هندوسيات بثيابهنّ الزاهية. لم تكن سلمى مستعجلة. تتوقّف طويلاً لترى البدلات وفساتين السهرة، بل حتّى شالات الفراء التي قالت في نفسها إنّها «لا يمكن أن تلبس هنا»، وهو ما لا يبدو رأي كلّ هؤلاء النساء اللواتي ارتدت بعضهنّ معاطف من فرو الثعالب وأوشحة من فرو

السمور. لكنّ الراني بدت منزعجة. أمسكت بيد سلمى وسحبتها إلى الجناح الخاص بالألبسة الداخلية، الموجود في أقصى المتجر.

كانت توجد خلف الكونتوار ثلاث بائعات شابات في فساتينهنّ الحريرية السوداء الموشّاة بربطات عنق بيضاء، يتحرّكن برشاقة. كنّ ببشرتهن الفاتحة التي زادها الماكياج بياضاً، ونطقهنّ المتقن، يحسبهنّ المرء إنجليزيات، لكن عيونهنّ الشبيهة بعيون الظباء، وشعرهن الأسود، تكشف دماءهنّ المختلطة.

انتهين من خدمة زبوناتهنّ الثرثارات، وتظاهرن بعدم رؤية المرأتين المنتظرتين. فقاطعتهنّ الراني شاهينا بلطف:

ـ آنسات!

فتقدّمت أصغرهن تجرّ الخطى. وسألت بنبرة متعجرفة، وهي تتصنّع نبرة أكسفوردية خالصة:

ـ ماذا هناك؟

نظرت إليها سلمى بذهول. من تعتبر نفسها؟ وتمالكت نفسها. الراني هي من ينبغي أن تعيدها إلى مكانها. لكن الراني بدت كما لو أنّها لم تلحظ شيئاً.

ـ أريد أن أرى آخر ما وصلكم من الشرائط والدانتيلا.

ـ أيّ لون؟

ـ الوردي والقشدي. هل يمكن أن تطلعينا على ما عندكم؟

رفعت البائعة عينيها إلى السماء.

ـ أنا مشغولة كما ترين. عليكما أن تحدّدا لي اللون الذي تريدان بدقة. لستما الوحيدتين في المتجر.

فتدخّلت سلمى:

ـ هذا يكفي! اعتذري للراني، وفوراً!

ـ ولكن...

ـ فوراً... وإلا طلبت توّاً مقابلة رئيسك. أعدك بأن تطردي من عملك في الحال!

وغمغمت الشابّة على مضض:

ـ آسفة...

ثمّ استرسلت سلمى وقد امتقعت من الغضب:

ـ والآن هات كلّ ما عندكم من دانتيلا وشرائط، بكلّ الألوان! وأنت باسمة من فضلك! من تظنّين نفسك حتّى تتصرّفي بهذا الأسلوب مع نساء من بلدك؟ لأنّك إنجليزية هندية، أليس كذلك؟

شحب لون البائعة. لم تكن ملاحظة سلمى بريئة. ذلك أنّ الهنود يحتقرون الأشخاص ذوي الدماء المختلطة الذين غالباً ما يولدون من علاقات عابرة بين العاهرات والجنود الإنجليز. وبما أنّهم يتذللون للإنجليز، ويحقدون على بني جلدتهم، فإن الأوائل يستغلّونهم، ومواطنوهم يكرهونهم، ويعاملونهم بازدراء، وينعتونهم بـ«داكني البشرة».

حين خرجتا من المتجر، قالت الراني لسلمى معاتبة:

ـ مسكينة! ما كان عليك أن تعامليها بكلّ تلك القسوة. فهؤلاء «الهنود الإنجليز» يعيشون وضعاً صعباً. يعتبرون أنفسهم «إنجليز الهند»، ويتنكّرون للهنود. ولمّا يتحدّثون عن «بلدهم» يقصدون إنجلترا التي لا يملكون أيّ فرصة للسفر إليها يوماً. هم لا يفهمون أنّ الإنجليز، الذين يزدهون ببشرتهم «البيضاء»، لا يمكن أن يقبلوهم. فهم أدعى إلى الشفقة منه إلى التقريع.

هزّت سلمى رأسها. قد تكون أخطأت، لكنّها لا تشعر بأيّ تعاطف مع الناس الذين ينكرون أصولهم. وتساءلت عمّا إذا كان مبعث تفهُّم الراني شاهينا هو أنّها هي نفسها نصف إنجليزية. ليست «إنجليزية هندية» بالطبع، فهذا النعت خاص بفئة محتقرة. أمّا الزيجات القليلة بين

الأرستقراطية الهندية والعائلات الإنجليزية الراقية، فمستحسنة. وهذه المرأة الشابة دليل على ذلك: فكونها تنحدر من هذا النوع من الزواج، أهّلها لتكون زوجة راجا نامبور. ولكن، كيف تتحمّل هذا الزواج في قرارة نفسها؟

ـ اعذري فضولي، ولكنّك تقولين دائماً «الإنجليز هم كذا... والعرب كذا... ألا تشعرين بنفسك أنت أيضاً إنجليزية إلى حدّ ما؟».

توقّفت الراني، وحدجت سلمى وقد ارتسمت على محيّاها ابتسامة حزينة.

ـ لا أنت ولا أنا نشعر بأنّنا ننتمي حقّاً إلى شيء ما. إنّه عذاب مستمرّ لا يسعنا إلا أن نجعل منه مصدر غنى. ليتنا كنّا نملك القوة لذلك!

كان السائق ينتظرهما بجانب العربة. وبينما همّت الراني بالصعود، قالت لها سلمى بنبرة متضرّعة:

ـ لنتمشّ قليلاً. أشعر بالحاجة لأن أتنفّس.

ـ نسير في الشارع؟ ألا تفضلين الانتظار إلى أن نصل إلى حديقة الإقامة[١]؟ إنه مكان أكثر هدوءاً.

كيف لها أن تشرح للراني بأنّها ترغب في أن تتمشّى وتتزاحم وتتدافع وسط الحشد، وترى الوجوه المختلفة والغبار والقبح؟ فهي تختنق في الجوّ المحميّ الذي يحبسونها فيه، وبحاجة إلى أن تغوص من جديد في الواقع. وتذكّرت بقلب منقبض بيروت والحرية التي كانت تنعم بها. لم يخطر على بالها قط، حينئذ، أن التجوّل في الشارع سيصبح بالنسبة إليها مغامرة.

ورغم تذمّر القهرمانتين اللتين كانتا تصحبانهما، واللتين مضتا تسوّيان الحجاب على شعر سلمى وهو يصرّ على أن ينزلق، سارتا بضع خطوات.

---

(١) المقصود بالإقامة قلعة الجيش الإنجليزي القديمة التي دمّرت سنة ١٨٥٧ خلال ثورة الجنود الهنود، والتي بقيت حديقتها مكاناً للنزهة.

كان الباعة الصغار الذين يملؤون الرصيف يعترضون طريقهما ويعرضون عليهما حلويات ومسحوق البخور أو أكاليل ياسمين عطرة، لكنّ من كان يعوق تقدّمهما حقّاً هي جحافل المتسوّلين الجياع، ومعظمهم نساء بمعيّة أطفالهنّ. وقد استغربت سلمى نظافتهن، وحفاظهنّ على شيء من كرامتهنّ، وهو شيء غير معهود عند من يعيشون على الإحسان.

قالت الراني موضّحة:

ـ هؤلاء فلاحات الأرياف المجاورة. المجاعة رهيبة هذه السنة، إذ بعد جفاف طويل هطلت أمطار طوفانية، والمزروعات التي لم تجفّ تعفّنت في مكانها. هؤلاء الناس أفقر من أن يدّخروا مأكلهم من سنة لأخرى. فحتى في السنوات الوفيرة، لا يكادون يؤمّنون قوتهم. أمّا حين يسوء المحصول، يبقى أملهم الوحيد هو المجيء إلى المدن لطلب العون.

وأشارت إلى قهرمانتيها بأن توزّع المال الذي فضل عن المشتريات، فسارعت سلمى إلى تقليدها وقد شعرت بالخجل من ملابسها الفاخرة المطرّزة بالذهب. ولمّا استشعرت النساء تأثّرها، تجمّعن حول هذه المرأة الجميلة البيضاء، ورحن يدفعن بأطفالهن إليها. بل رفضت إحداهن المال. شابّة ما زالت تحتفظ ببعض مخايل الجمال رغم الإنهاك والحرمان اللذين حفرا أخاديد في وجهها. نظرت إلى سلمى بيأس وناولتها يد صغيرتها. سألت سلمى:

ـ لماذا لا تأخذ المال؟ ماذا تريد؟

ـ تريدك أن تأخذي ابنتها. تريد أن يتوفّر لها الطعام والعلاج وأن يكون لها سقف يؤويها. كانت العائلات الغنية في الماضي تحصل بهذه الطريقة على الأطفال مقابل مبلغ بسيط تدفعه للأبوين، ثمّ يُعدّونهم لمختلف الأشغال المنزلية. كانوا يعاملونهم معاملة حسنة في الغالب، لكنهم لم يكونوا أحراراً في المغادرة. وباستثناء بعض الحالات، فإنّهم لا يفكّرون في ذلك، لأنّهم يعتبرون أنفسهم جزءاً من البيت.

ـ لكن الإنجليز حظروا هذا الأمر منذ بضع سنوات، باعتباره ضرباً من الرقّ. ولربّما كان كذلك... مهما يكن، فهؤلاء النساء يشعرن بالإحباط، ولا يفهمن سبب رفضنا لشيء صار عُرفاً، وربّما حقّاً من حقوقهنّ، في نظرهنّ.

حاولت بصوتها العذب والحازم أن تشرح لهنّ مرادها بمزيج من لهجتنّ واللغة الأوردية. وسمعتها سلمى تنطق مراراً كلمة «إنغريز» ورأت الوجوه من حولها تتجهّم.

ـ لننصرف فوراً وإلا فإنهنّ سيتشبثن بك. فقد أدركن أنّك الحلقة الضعيفة.

صعدتا إلى العربة، وصفقت القهرمانتان الأبواب. فمضت النسوة المتسوّلات يتابعن المرأتين اللتين أملن للحظة أنّهما يمكن أن تنتشلا أبناءهنّ من الموت.

حين عادت سلمى إلى القصر، أغلقت عليها حجرتها. كانت بحاجة إلى أن تخلو إلى نفسها، ولم تكن تطيق ثرثرة نساء القصر اللواتي يقضين وقتهن في التهام الحلوى. لقد كرهتهنّ وكرهت نفسها. ما الفرق بينها وبينهنّ؟ يا لتعاستها! فأمام بابها يموت نساء وأطفال من الجوع...

قال أمير:

ـ هذا أمر سرعان ما يتعوّد عليه المرء...

أبداً! لا خفّف الله ألمها من هذا البؤس، ولا أنساها أبداً نظرات أولئك المزارعات المفعمة بالأمل، ثمّ بالعتاب لمّا أُصفقت أبواب العربة... لم تكن حتّى نظرات عتاب، بل نظرات إذعان، صكّ اتّهام أفظع من الشتيمة والتمرّد. تمرّد لم يخطر لهنّ على بال، ولا يملكن القدرة عليه. أتراهنّ يعلمن بأنّ لهنّ الحقّ في الحياة مثلما لغيرهن؟

لقد عرفت سلمى البؤس في الأستانة وهي طفلة، بؤس لا يقلّ فظاعة عمّا يوجد في الهند. لكنّه بؤس ناتج عن الحرب التي نهشت البلد

لسنوات. كان «وضعاً استثنائياً» صمّموا على محاربته، وكانوا يعلمون بأنّهم قادرون على التغلّب عليه.

أمّا هنا، فيموت آلاف الأطفال يومياً من الجوع، وهو أمر مقبول ومتوقّع وداخل في العادات. العكس هو الذي قد يثير الاستغراب. وتساءلت سلمى: من يدري؟ فلعلّ نهم الأغنياء يزداد بمقدار إدراكهم أنّ الأكل امتياز، وأن السمنة علامة على الوضع الاجتماعي! أكان الأغنياء سيشعرون بنفس المتعة لو لم يكن ثمّة فقراء يذكّرونهم بأنّهم محظوظون؟

وسُمع طرق على الباب.

ـ هناك متسوّلة برفقة ثلاثة أطفال تصرّ على مقابلتك يا راني صحيبة. قلنا لها إنّه من المستحيل تلبيّة طلبها، لكنّها زعمت بأنّها تعرفك، ورفضت الانصراف.

ـ أدخلنها!

إنّها المزارعة التي التقتها قبل قليل، من دفعت بابنتها بين ذراعي سلمى. كانت تشعر بالخوف، فتوقّفت عند العتبة. ابتسمت لها سلمى وقد ابتهجت بمقدمها. بإمكانها الآن أن تصلح ما بدا للمرأة تجاهلاً أو قساوة. ستستلم منها هذه الفتاة الرائعة، وستعلّمها كيف تقوم بخدمتها. لن يعترض أمير على ذلك.

أدركت المزارعة ما يجول في خاطر سلمى، فهرعت إلى قدمي الراني، ومضت تقبّل ذيل ثوبها. كانت تبكي من الفرح، فقد نجت صغيرتُها!

أخبر الخصيان الراجا، فجاء على الفور. شرحت له سلمى الموقف باختصار:

ـ أعلم أنّنا لا نستطيع القيام بالشيء الكثير في مواجهة هذه الكارثة، لكن بإمكاننا أن نرعى هذه الطفلة على الأقل. لن يشعر أحد بوجودها في هذا القصر الحاشد بالخدم.

حرّك أمير رأسه وقد بدا عليه الانزعاج.

ـ آسف، هذا مستحيل. القانون الإنجليزي يمنع ذلك. سيتسرّب الخبر. فأنا لست واثقاً من كلّ من يعملون في القصر. ليس القانون في حدّ ذاته ما يهمّني، بل التداعيات السياسية المحتملة في وقت يحاول فيه الجميع تصيّد أخطاء الأمراء. تصوّري كيف يمكن أن يستغلّ حزب المؤتمر هذا الأمر إن علم به، للتشهير بالراجاوات، واتّهامهم باستعباد الأطفال! وسيكون الإنجليز مضطرّين إلى اتّخاذ إجراءات صارمة حتّى لا يُتّهموا بالتحيّز للأرستقراطية على حساب الشعب. وسيجد جزء من الرأي العام البريطاني في ذلك مبرّراً إضافياً للقول إنّنا ما زلنا غير قادرين على الاستقلال... كلا، وددت لو أستطيع تلبية طلبك، لكن الوضع الآن حرج جداً...

أومأ إلى المزارعة وسلّمها قطعة نقدية ذهبيّة سحبها من جيبه. أمّا سلمى فطأطأت رسها وهي في منتهى الارتباك. ولم ترفع عينيها لتشاهدهم ينصرفون.

بعد ذلك بأسابيع، وبينما كانت تتسوّق في سوق أميناباد ووصيفتها تتبعها، جاءتها متسوّلة عجوز تدفع أمامها طفلة صغيرة ترتدي كيس قنب، تخرج منه ذراعان مبتورتان. شعرت بقشعريرة تسري في بدنها، وقالت في نفسها وهي تلتفت إلى مرافقتها كما لو أنّها توصيها بأن تكون أسخى من المعتاد: «يا لها من طفلة مسكينة!»، لكن الطفلة لم تترك لها الوقت، واندفعت نحوها وهي تصدر صرخات صغيرة مبهمة، فاتحة فاها بحيث كشفت عن لسان مقطوع. تراجعت سلمى إلى الوراء مرعوبة من الألم والامتعاض المنبعثين من العينين الكئيبتين، لكنّها ما لبثت أن تمالكت نفسها: «يا لي من جبانة. يبدو أنّ هذه الطفلة تريد أن تقول لي شيئاً». بذلت جهداً ونظرت إلى الوجه الصغير، وتهيّأ لها كما لو أنّها رأته من قبل. ولكن أين؟

وكبتت صرخة استغراب فجأة. أزاحت بيديها الشعر المشعّث،

وكشفت عن الجبين، فتوقّفت وقد شلّها الرعب: إنّها هي، الفتاة التي لم تستطع استقبالها في القصر ذلك ليوم.

صاحت بالفتاة التي مضت تحدّق فيها:

ـ ماذا جرى لك؟ أين أمّك؟

ثم التفتت إلى العجوز، وأمسكت بكتفها وراحت تخضها:

ـ من أنت؟ وماذا وقع لهذه البنت؟

دفعتها المتسوّلة فجأة وأمسكت بالطفلة التي كانت تتخبّط، وانطلقتا تجريان. حاولت سلمى اللحاق بهما، لكنهما ذابتا في الحشد. لا فائدة من الإلحاح، لن تتمكّن من العثور عليهما. يبقى أمامها أمل وحيد هو اللجوء إلى الشرطة.

كان مركز شرطة أميناباد مجاوراً للسوق. تفحّص الرقيب المداوم بفضول هذه المرأة البيضاء التي تلبس مثل الهنديات، لكنّه لم يفهم سبب اضطرابها.

ـ إذا كنت قد فهمت كلامك يا مام صاحاب[1]، فالطفلة من عائلتك؟

ـ كلا، ولكن...

ـ فلِمَ أنت على هذه الحال إذن؟ أين هي المشكلة؟ إن انشغلنا بكلّ بؤساء هذا البلد، فلن نستطيع الحياة!

فقاطعته سلمى باستياء:

ـ أنا لا أطلب منك رأيك. أطلب منك أن تقوم بواجبك بوصفك شرطيّاً، أن تصطحب بعض رجالك وتفتشوا السوق عساكم تعثرون على هذه العجوز والطفلة. وسأجزل لك الجزاء.

---

(١) الاسم الذي يطلق على النساء البيضاوات، وهو تحوير لعبارة: مدام صاحاب، أي زوجة السيد.

هزّ الشرطي رأسه:
ـ حسناً، سنحاول.
لم يُعثر للطفلة على أثر.
علّق أمير بعد أن حكت له سلمى ما وقع:
ـ هذا شيء منتظر. فهؤلاء المتسوّلون محترفون، وهم يشكّلون شبكات منظّمة. والشرطة تتلقى منهم إتاوة منتظمة لكي تتركهم وشأنهم. وهي لا ترغب في أن تستعديهم عليها.
ـ ولكن...
وتحرّجت سلمى من أن تطرح السؤال، لكنها تريد أن تعرف.
ـ ماذا قد يكون أصاب هذه الطفلة؟ حادثة؟
نظر الراجا إلى زوجته الشابة بإشفاق، وقال:
ـ لماذا تطرحين هذا السؤال؟ عليك أن تخمّني... هناك كثير من المتسوّلين في الهند، ويد واحدة ممدودة لا تكفي. لذلك يشتري بعضهم الأطفال من آباء معدمين لا يستطيعون إعالتهم. ولكي يثيروا الشفقة، يقطعون أطرافهم... وهي ظاهرة شاعت كثيراً منذ تحريم الرقّ.
أمسكت سلمى بذراع زوجها وقد شحب لونها، وقالت:
ـ ينبغي القيام بشيء يا أمير.
وأظلمت عيناه السوداوان أكثر، وبدا كما لو أن الإرهاق نال منه.
ـ ماذا نفعل؟ نعيد الرق؟ هل تتصوّرين حجم الفضيحة في العالم «المتحضّر»؟ الناس يعيشون على أفكار جاهزة، ولا يريدون النظر إلى الحقيقة. الشيء المهمّ بالنسبة للحكومة هو أن تعرض الهند للخارج وجهاً لائقاً. صدّقيني، إنّ اللعبة مغشوشة، ولا سبيل لإصلاحها.

١١

سألت الوصيفة سلمى وقد بدا عليها القلق:

ـ هل أصيب الإنجليز بالحمّى ليلة أمس؟

نظرت إليها سلمى مذهولة وقالت في نفسها: «ماذا تريد منّي هذه المعتوهة؟ ما أدراني أنا إن كان الإنجليز أصيبوا بالحمى؟ شيء لا يطاق، كان حريّاً بها أن تسألني عن صحّتي!».

كانت قد لزمت السرير منذ اليوم السابق، ذلك أنّ ما عاشته في الأسابيع الأخيرة من هزّات عاطفية أرهق أعصابها. كانت تتصبّب عرقاً، وتشعر برأسها على وشك أن ينفجر.

واستأنفت المرأة تقول:

ـ خدود الإنجليز محمرّة، وقد سمعتهم يسعلون.

فثارت سلمى في وجهها:

ـ دعيني من هؤلاء الإنجليز! ما شأني بهم؟

انفجرت زهرة التي كانت جالسة بجوارها.

ـ اهدئي يا آبا. لم تفعل هذه المرأة المسكينة شيئاً سوى أنّها تتبع العرف. الناس هنا تعتقد أنّ نسبة شيء سيئ لأسماء الناس الذي نحبّ تجلب لهم النحس. وهكذا لا يقولون: «أأنت مريضة؟» بل «هل أعداؤك مرضى؟»، فالنساء اللواتي يكرهن الإنجليز في لوكنو درجن على تعويض

«أعداء» بـ«إنجليز». لهذا فعوض أن يقلن: هل أنت محمومة؟ يسألونك ما إذا كانت الحمى أصابت الإنجليز...

وسُمع طرق على الباب. إنّه الحكيم صاحاب الذي وصل. والحكيم صاحاب هذا هو طبيب العائلة، وهو، -حسب زهرة، في الثمانين من عمره على الأقلّ. كانوا قد حاولوا الاتصال به في اليوم السابق، لكنّه كان في فترة راحته. بعث ثلاثة أقراص ملفوفة في قطعة من ورق الجرائد مع أحد معاونيه، وأخبر بأنّه سيأتي في اليوم اللاحق.

كانت حركة الخدم نشيطة حول سلمى. تمسك خادمتان منهنّ بغطاء أقيم فيه ثقبان بعناية، يختلفان من حيث قطرهما، ثمّ وقفت كلّ منهما في طرف من السرير، وأسدلتاه بشكل عمودي بحيث أخفيتا سلمى وزهرة تماماً، كما أخفيتا نفسيهما.

سألت سلمى مشدوهة:

ـ ماذا تفعلان؟

ـ ولكن علينا أن نظلّ خلف حجاب يا آبا.

ـ حجاب؟ أمام طبيب في هذا السنّ!

فأجابت زهرة مستغربة من كلام زوجة أخيها:

ـ ولكنه رجل مع ذلك!

ـ وكيف سيفحصني؟

ـ الأمر في غاية البساطة. ستمدين له ساعدك من خلال الثقب الكبير لكي يجسّ نبضك، ويفحص ردود فعلك. ومن خلال الثقب الصغير سيفحص لسانك وحنجرتك.

وتعود سلمى إلى الاستلقاء على وسائدها وهي تقول:

ـ بفحص كهذا، أتمنّى ألا أكون مصابة بمرض خطير...

رأت من خلال الغطاء الحكيم يدخل. كان ظاهراً أنه يجد صعوبة في

المشي بحيث يسنده شابان، وهما يحملان سلالاً ضخمة مليئة بقوارير من أحجام وألوان متباينة. ولم يكن حكيم صاحاب يعالج إلا بالطريقة الفيدية، وهي فنّ طبيّ قديم يقوم حصراً على امتصاص الجسم لمستخلصات ومنقوعات الأعشاب واللحاء والأوراق.

جسّ ساعد سلمى برفق، وطلب منها تحريك كلّ أصبع من أصابعها، ووضع إبهامه على شريان مفصل المرفق، وكان يهمهم على نحو مسموع عند انتهاء كلّ عملية من هذه العمليات، ويصدر أوامر مقتضبة لمساعديه اللذين يسجلان على الورق باحترام ملاحظاته. ثمّ أخرج من أحد جيوبه الكثيرة مكشطة فضية.

ـ هلا تفضّلت الراني صاحاب بفتح فمها!

وبحركة سريعة أخذ عينة من المادة البيضاء التي تكسو لسانها، وتشمّم رائحتها وقد قطّب حاجبيه. وظلّ صامتاً للحظة وعيناه نصف مغمضتين. وفي الأخير أعلن عن تشخيصه بصوت جهوري:

ـ الكبد محتقن بسبب نوبة أعصاب، وهو ما تسبّب في تباطؤ الدورة الدموية، وعرقل التخلّص من الأمزجة، ومن ثمّة من الحمّى والصداع. ينبغي أن تتناول الراني صاحاب قارورة من هذا السائل الأصفر في كلّ ساعة وِترية، وقارورة من هذا السائل الوردي كلّ ساعة زوجيّة. ولكن عليها ألا تخطئ! كما ينبغي أن تتناول في المساء قرصة من المسحوق الأزرق ممزوجة بقرصتين من المسحوق الأبيض. ونفس الأمر في الصباح... إنّه علاج بسيط لتوعّك صغير ستبرأ منه سعادتها تماماً لمّا سيشرع البدر في التناقص.

وما كاد الحكيم يغادر الغرفة حتّى قالت سلمى باستياء:

ـ ما هذه الوصفات الشبيهة بوصفات السحرة؟

ـ لا تكوني واهمة يا آبا، فالطبّ التقليدي أثبت فعاليته. بل هو أكثر فعالية أحياناً من الطبّ الأوروبي. فقد عولجتُ في السنة الماضية من

اليرقان في ظرف خمسة عشر يوماً بينما استغرق علاج آخرين، تناولوا الأدوية الإنجليزية، شهرين على الأقلّ.

ـ وحكاية البدر هذه؟

فقالت زهرة بنبرة في منتهى الجدّيّة:

ـ من المعروف أنّ الأمزجة تهدأ لما يتضاءل البدر. هيّا، استرخي الآن يا آبا. نحن محظوظات اليوم. لمّا كانت أمّي في سنّنا، لم يكن مسموحاً للحكيم برؤية ساعد المريضة ولا لسانها، فما بالك بلمسها. كان يكتفي وهو جالس خلف الباب بالإمساك بطرف خيط شُدّ طرفه الآخر إلى معصمها. وكان عليه أن يخمّن درجة حرارتها انطلاقاً من اهتزاز هذا الخيط، ثمّ يعلن عن تشخيصه.

ـ أتصوّر أن قلّة من النساء من كنّ يتعافين...

ردّت زهرة من دون أن تتفطّن للسخرية:

ـ تماماً، كانت كثير منهن يهلكن. من حسن حظّنا أن الأمور تطورت منذئذ!

استغلت نساء القصر مرض الراني لكي يجتحن غرفتها. لم يعد الباب الذي تحرص الأميرة على إغلاقه رغم استنكارهن، مسدوداً كسابق عهده، صار الهواء يعبث به، ولم يعد غير زين توجّه إليه الخادمات عند مرورهنّ ضربات خفيّة بكعوبهن على سبيل الانتقام. كنّ يسارعن باهتمام كبير إلى الجلوس حول سرير المريضة. ذلك أنّ مرض السيدة كان بالنسبة لهؤلاء النسوة العاطلات نعمة كبيرة، ومناسبة لإثبات إخلاصهنّ وإبراز أهميتهنّ. كنّ يتسابقن على تقديم الدواء لها، وتسوية وسائدها وتبليل فوديها بماء الورد أو إتحافها بإنشاد الأشعار خلال تدليك رجليها. كنّ مثل نحلات تحطن في نشاط بملكتهنّ العاجزة عن المقاومة.

أنقذ مجيء البيغوم ياسمين سلمى من هذه العناية المفرطة. كان قد مضى شهران على آخر لقاء بين المرأتين. ذلك أنّ سلمى صارت تفضّل

قضاء وقتها مع زهرة أو راني نامبور، وكانت تظنّها مستاءة من مقاطعتها، لكنّ البيغوم تصرّفت كما لو أنّهما لم تفترقا سوى في اليوم السابق.

ما إن وصلت هذه المرأة النشيطة حتّى صرفت كلّ النساء.

ـ الراني بحاجة إلى الهدوء! أتسعين لقتلها بثرثرتكنّ التي لا تنتهي؟

هكذا طردت من الغرفة كلّ الخادمات بلا مواربة، وأعادت للباب هيبته.

ـ لا بدّ أنّك متعبة يا بنيّتي المسكينة! استريحي الآن...

جلست بجانب السرير بعد أن أعادت لسلمى الصمت والهدوء. أغمضت المريضة عينيها، فشعرت كما لو أنّ كماشة تضغط قفاها وجبينها.

ـ دعيني أدلكك. يقال إنّني أملك يدين سحريتين.

كانت يداها سحريتين فعلاً، تجمعان بين الشدّة والخفة، بين البرودة والحرارة في نفس الآن. وفي اليوم الموالي اختفى الصداع ليعوّضه شعور بالراحة. أحسّت سلمى بجسمها في منتهى الخفّة، وبرقبتها وظهرها وكتفيها وبكلّ جسدها في غاية الارتخاء.

لكن اليدين الرفيقتين سرعان ما توقّفتا للأسف!

ـ سأتركك تنامين الآن. سأعود غداً.

إثر ذلك طبعت قبلة صغيرة على صدغها واختفت لتعود في اليوم الموالي والأيّام اللاحقة. وقد تلاشت الآلام تحت يديها الخبيرتين. بل دحرت حتّى الحمى وأجبرتها على التراجع إلى الخلف. وكانت سلمى تستسلم بعينين نصف مغمضتين لهذه النعومة الحلوة التي تستولي على كلّ أوصال جسمها، عضواً عضواً، تدعكه وتكهربه ثمّ تهدّئه. كان الأمر أشبه بدفق من العسل ينتشر في عروقها، فلا تعود تدري أين هي ولا من يوجد حولها. كلّ ما تشعر به هو أنّها على أحسن حال.

كانت اليدان الخبيرتان تنزلقان على طول العمود الفقري، وتتمهّلان عند الردفين كما لو أنّهما ترغبان في الاستيلاء عليهما، ثمّ ترفعان بسرعة

فخذاً توقظانها بنقرات صغيرة، وتركّزان أخيراً على الضفيرة والمركز العصبي الموجود أعلى السرّة.

ثمّ تشرح البيغوم:

ـ هنا يتراكم التوتّر. تشعرين به حين تحسّين بانعقاد معدتك وضيق في تنفسك إثر انفعال قوي.

وها هما اليدان تصلان إلى البطن، وتدوران دورة خفيفة، ثمّ تصبح حركتهما أبطأ وأكثر تركيزاً. فتسري قشعريرة في جسد المرأة الشابّة، فتلقي نظرة قلقة إلى البيغوم. ومن حسن حظّها تواصل البيغوم عملها بجدّ ونظام من دون أن تنتبه لشيء.

وتخجل سلمى من نفسها: ماذا أصابها حتى ينصرف ذهنها إلى هذا مع أنّ المرأة لا تفعل غير تدليكها؟ ومضت تحلم كما لو أنّ أمير هو من يدلّكها، وأنّ هاتين اليدين يدا رجل محبوب... يدان مرهفتان قويّتان، تنزلان على نحو لا يكاد يلحظ من بطنها نحو الغابة العميقة حيث يجري نهر المسك.

ـ أعطني عينيك يا روحي.

وبقفزة واحدة انتصبت سلمى وقد أفاقت من حلمها الذي تبدّد دفعة واحدة. ماذا تفعل نصف عارية بين ذراعي هذه المرأة التي تكسو جسدها بالقبل؟ تخلّصت منها فجأة وهي تقول:

ـ كفّي عنّي! أجُننت؟

سوّت قميصها وهي تتأمّل بذهول الوجه المقطّب المتضرّع.

ـ لا تعبثي بي أرجوك. أنت تعرفين أنّني مغرمة بك.

لم تكد تستطيع سلمى أن تتعرّف في هذا الوجه الذي غشاه ألم فاحش على البيغوم المزهوّة بنفسها، التي عهدتها شديدة الشكيمة، متحكّمة في نفسها.

ـ ليتك تعرفين معنى العشق، يا سلمى!

كانت يداها ترتعشان، لكنّها لم تقرّ بالهزيمة. إذا كانت قد صمتت طويلاً، فهذا اليوم ستتكلّم، وهذه الطفلة الجميلة التي تنظر إليها بامتعاض، ستنصت لكلامها هذه المرّة.

ـ لقد قضيت ليالي طوالاً وأنا أحلم بك، وأضعت أيّاماً أتحسّر على خيبة أملي في الوصول إليك. أفهمت الآن لماذا أهرع إليك كلّما ناديت عليّ؟ مع أنّني لست من النوع الخدوم بطبعه! وأنت، في المقابل، تواجهينني بمنتهى اللامبالاة!... أما زلت تذكرين حفل الطائرات الورقيّة؟ حين ضممتك إليّ وطوّقت خصرك، فصددتني. شعرت حينئذ كما لو أنّك صفعتني. وقد وطّنت نفسي منذئذ على نسيانك، لكن عبثاً. من يحسبون النسيان فعلاً إرادياً لا يعرفون معنى الحب. ثمّ انبعث أملي في الأيام الأخيرة. بدوتِ كما لو أنّك سعدت بلقائي، وبدا جسدك كما لو أنّه يحدّثني بما تأباه عليّ روحك... أتوسّل إليك، لا تنكري ذلك، ولا تكذبي! من حقّك أن تنكري عليّ حبّي، لكن ليس من حقك أن تزري بالمرأة التي أحببت وتجعلي منها مجرّد امرأة بورجوازية منافقة! أتظنّين أنّ أصابعي لم تشعر باهتزاز نهديك وبطنك؟ أتحسبين أنّني لم أحسّأحساً بسائر أوصال جسدك تطلب منّي مداعبتها، وتنزع إليّ كما لو أنّها تموت من الجوع...

«هذا صحيح» قالت سلمى في قرارة نفسها. ولكن لماذا أصرّت البيغوم على أن تتكلّم وتنتزعها من هذا الغسق ذي الألوان الملتبسة الذي تسلّلت إليه؟ أهو الزهو والطمع في امتلاك ما يُجاوِز الجسد؟ أم هو العشق الذي يأبى أن تحدّه حدود؟ لكن، ألا يكون العشق مجرّد زهو لا حدود له، بما أنّه يسعى لامتلاك الآخر بكلّيته؟ لو أنّها لزمت الصمت... لانصهر كلّ شيء في غموض الحلم بلا صِدام... فمداعباتها لم تثر استغراب سلمى. بل لعلّها كانت تنتظرها منذ مدّة طويلة، وقد تكون هي من استدرجتها لذلك. أهو الفضول الذي دفعها لذلك، أم التحدّي والحاجة إلى اختراق الحدود لاكتشاف مناطق جديدة؟

أمّا الآن، فالسحر قد بطل. تكوّمت سلمى على نفسها، وقالت بصوت فظّ:

ـ إنك تهذين. أنا أحبّ زوجي.

فردّت البيغوم وقد اتّخذ صوتها المتضرّع نبرة فاترة:

ـ صحيح؟ وهو، أيبادِلُك الحبّ؟ انظري إلى نفسك في المرآة. فأنت تبدين مثل وردة عطشى، وآثار الذبول بدأت تلوح على شفتيك. أهكذا يكون جسد امرأة معشوقة ووجهها؟ لديّ ما يكفي من الخبرة لأعرف أنّ أمير لا يهتمّ بك، وأنّه إنّما تزوجك لكي يضمن الذريّة. أمّا حبّه ففي وجهة أخرى.

«إنّها تفتري انتقاماً. لذلك لن أكلّف نفسي سؤالها».

ـ ألم يثر كلامي فضولك؟

وضاقت عينا البيغوم، ومضت تحدّق في الشابة مثل حيّة تتأهّب لنهش فريستها. هي تعرف كيف تنتقم من هذه المتغطرسة. ستنفث في فكرها شكّاً لن تتخلّص منه أبداً.

ـ لا يمكن أن يكون قد دار في خلدك أبداً أنّ العلاقة الوثيقة التي تجمع بين زوجي وزوجك يمكن أن تتجاوز الصداقة؟ لا تجفلي، هذه ميول شائعة في مجتمعنا التي لا يعدّ فيها الشيء ممتعاً إلا إذا كان غامضاً وشاذّاً. أمّا نحن النساء، فوظيفتنا هي الإنجاب لا العشق. فإذا عشقنا، صرنا مزعجات. أزواجنا يملكوننا، لكننا لسنا معتوهات لنصدّق بأنّنا نملك أزواجنا. هم يحموننا ويهبوننا أولاداً ولا يغضبون حين ننجب بناتاً. أنا أيضاً انتظرت في بداية زواجي ليالي طوالاً، ليالي لا نهاية لها. كنت مولعة بزوجي، ومستعدّة لأن أدسّ السمّ لمن يفضّله عليّ. لكنه لم يكن يفضّل رجلاً واحداً بل رجالاً. ولم يكونوا ثابتين. وبمرور الزمن تعوّدت. أمّا الآن فإنّني أتسلى بمتابعة مغامراته، وإن كنت لاحظت في الآونة

الأخيرة أنّه ـ ونظرت إلى سلمى فلاحظت برضا أنّ أنفاسها تكاد تنقطع ـ صار مخلصاً.

ـ أنت تكذبين.

ولم تستطع سلمى أن تتمالك نفسها من الصراخ: أمير بين أحضان رجل! شوّش هذا الكلام ذهنها. هذه المرأة إنّما تفتري على أمير انتقاماً منها لأنّها لم تطاوعها. إنّه غضب الصدود.

ـ لا ترفعي صوتك يا عزيزتي. قد يسمعك الخدم. القاعدة الذهبية هنا هي أنّ كلّ شيء مباح طالما ظلّ سرّيّاً. هذا ما حاولت أن أشرحه لك يوماً حين قلت إن البرقع الذي يخفينا هو أداة حرّيّتنا. لا شكّ أنّك صرت تقدّرين قيمته بعد اعتراضك عليه في البداية...

ثمّ أضافت بصوت خفيض:

ـ أنت تعيسة يا سلمى، وهذا يعذّبني لأنّني أعرف ما يمكن أن نعيشه من سعادة معاً. هذه ليست نزوة عابرة. إنّني أحبّك حقّاً. فكّري في الأمر.

قامت وهي رابطة الجأش، وألقت على سلمى نظرة خاطفة، فالتقت عيناهما، ثمّ غادرت بخطى واثقة.

أخذ وجه زهرة يقترب أكثر فأكثر، فرأت سلمى صورتها في حدقتيها المتلألئتين شعلة متراقصة حول الشجيرة. تمدّ يدها، فيبتعد الوجه، ويلامسُ شفتيها الغضّتين النديّتين نهدان ناضران، فتحاول أن تداعب بلسانها الحلمة النافرة اللينة الوقحة، لكنّ زهرة تتملّص بخفّة وهي تضحك، وتذهب لتلتصق بركبتي أمير، وتروح تقبّله بلهفة.

ـ تعالي يا زهرة.

لماذا تتسلّى الطفلة بتعذيبها؟

ـ تعالي يا زهرة، أعرف الآن أنّك أنت من أُحبّ.

ومضى أمير يتفرّسها بنظرات هازئة. لكن ذلك ما عاد يهمّها. فهي لم تعد تخاف. لقد تجاوزت المرحلة التي كان التهكّم والتهديد يؤثران فيها.

ما من مرّة شعرت بمثل هذه الرغبة التي جعلت أعصابها في منتهى البرود. وهي لا تطلب أكثر من أن تضمّ هذه الطفلة بين ذراعيها للحظة، وتذوب فيها وتموت من السعادة. لا تطلب أكثر من هذا الفردوس.

وتتردّد زهرة. كيف لها أن تختار بين هذين المخلوقين اللذين تحبّهما معاً؟ تتأمّلهما الواحد تلو الآخر وهي مذهولة، ثمّ ينفصل ذراعها ببطء عن الصدر الواسع، وتمتدّ يدها نحو صدر المرأة الشابّة، لكن الفخذين تسمّرتا في مكانهما، كما لو أنّهما صمّمتا على ألا تتحرّكا. وبلغ التوتّر مبلغاً لا يطاق، وقلّ الهواء، فشعرت سلمى بالاختناق. راحت تضطرب في هذه الرطوبة الكثيفة وتتخبّط، وأحسّت بحنجرتها تلتهب...

استيقظت وهي تتصبّب عرقاً. حمداً لله أنّ هذا لم يكن غير حلم! لعلّها الحمى بلا شك، علاوة على ما وقع لها مع البيغوم في اليوم السابق. فقد اختلطت الأمور كلّها على فكرها المتعب. اختلطت الأمور؟ وشعرت من جديد بنعومة نهدي زهرة على شفتيها، وعاودها ذلك الدفق من الدفء الذي اعتراها صباح ذلك اليوم لمّا وضعت المراهقة رأسها في حجرها.

«تعالي يا زهرة، أعرف الآن أنّني أحبّك».

ودوّى هذا الاعتراف الذي أقرّت به في الحلم كما لو أنّها جهرت به بملء صوتها. «ما هذه السخافات؟ فهذه البنت بمنزلة أختي!»... أخت... طبعاً... ولكن بالأمس، أتراها كانت ستقاوم يدي زهرة وفمها؟

سحبت سلمى بحنق حبل الجرس، وزجرت الخادمات اللواتي هرعن مذعورات.

ـ حضّرنَ الحمّام بسرعة، وأخبرن الراجا بأنّني أريد لقاءه قبل أن يخرج.

لم تكن تعرف على وجه الدقّة سبب هذا الطلب. كلّ ما كانت تعرف هو أنّ عليها أن تلقى أمير.

ـ أهنئك يا حبيبتي. تبدين اليوم على أحسن حال. يظهر أنّ عقاقير حكيمنا وزيارات صديقاتك كان لها أثر طيّب.

أتراها لاحظت تلك الالتماعة الساخرة التي برقت في عينيه لمّا قال «صديقاتك؟»، هذا أمر لا أهميّة له. ما تريد مفاتحته فيه أخطر. فقد خطرت الفكرة ببالها في الحمام، وألحّت عليها بوصفها السبيل الوحيد لتجنّب الكارثة.

ـ رأيت في منامي هذه الليلة يا أمير حلماً جعلني أسارع بمفاتحتك بشأنه. يتعلّق الأمر بزهرة.

ـ بزهرة؟ ماذا حلمت؟

حرّكت سلمى رأسها كما لو أنّها تتعمّد الغموض.

ـ لا ينبغي سرد الأحلام السيئة، وإلا فإنها ستتحقق كما كانوا يقولون في طفولتي. يكفي أن تعلم أنّها كانت في خطر. من حسن حظها أنّ رجلاً كان موجوداً ومستعدّ لإنقاذها.

ـ رجل؟ أنا؟

ـ كلا، رجل أكبر منك سنّاً لم أستطع تبيّن ملامحه.

بدأ التوتّر يظهر على أمير. فهو يكره هذه الأحلام المنذرة التي تهذر بها النساء. وهو أمر استغربه من سلمى التي كان يظنّ أنّها أذكى من أن تلهج بمثل هذه السخافات...

ـ صدقيني يا حبيبتي، أنت ما زلت متعبة. زهرة لا يتهدّدها شيء.

ـ ربّما كنت محقّاً، ولكن لا يخفى عليك مقدار حبّي لهذه الطفلة. حساسيّتها وهشاشتها ووحدتها تقلقني. مهما أحببناها واعتنينا بها، لا نستطيع أن نعوّض الوالدين أو الزوج...

جفل أمير.

ـ الزوج! ماذا تقولين؟ هي ما تزال صغيرة!

ـ صغيرة! هي في السادسة عشرة. معظم البنات في سنّها متزوّجات هنا في الهند.

نهض الراجا، وراح يذرع الغرفة جيئة وذهاباً متوتّراً. رغم إدراكه بأن فراق أخته الصغيرة الحلوة لا محالة واقع ذات يوم، فهو يكره هذه الفكرة. هي المخلوق الوحيد الذي يعزّه حقّاً، وتربطه به علاقة الحبّ والدم، وهما أمران نادراً ما يلتقيان. وما عاشه من مآسٍ عائلية شاهد على ذلك. ثمّ إن في تعلّقه بزهرة، وهو يعترف بذلك، نصيباً من الأنانية: هي الكائن الوحيد في هذا العالم الذي يحبّه بلا شرط أو قيد. وهو في نظرها إله يجمع بين الوسامة والذكاء والطيبة التي لا حدود لها. وكلّما شعر بالإحباط عاد إلى هذا الإعجاب ليتغذى منه، ويستعيد حيويته.

وزوجته؟ هو يحبّها بالطبع، لكنّه لا يجد معها تلك الألفة وذلك التواطؤ الدفين الذي يمكن أن يجده مع امرأة من لحمه ودمه.

ـ بما أنّك أثرت موضوع الزواج، فمن سيتزوّجها؟ أعرف كلّ أبناء الراجوات من أصدقائي. كلّهم أغرار مدلّلون وطائشون. لم يغادروا أقاليمهم قطّ، ويتصوّرون أنفسهم هم مركز الكون. ليس منهم من يبلغ كعب زهرة!

ـ من قصد هؤلاء الشباب؟ زهرة بحاجة إلى من يدلّلها. ستكون أسعد مع رجل ناضج.

ـ لكن الراجوات كلّهم متزوجون تقريباً. لن أقبل بأن تكون أختي زوجة ثانية أو ثالثة!

ثمّ قطّب حاجبيه واسترسل يقول:

ـ هناك بالطبع راجا لارباد، لكنّه سكّير، وراجا كوطرا، رغم وسامته، فهو موشك على الشيخوخة. ثمّ هناك نواب داليور، وعقله عقل عصفور، مثل أبيه فيما يبدو. من غير هؤلاء؟ آه، هناك راجا بيلينير، لكنّه

عاش حياة مسرفة إلى حدّ أنه حافة الإفلاس اليوم. كلا، الظاهر أنّه لا يوجد شخص يناسبها.

وأضاف وهو يهزّ رأسه بحدّة:

ـ ثمّ إنني لا أرى من ضرورة لفراق زهرة!

ـ من ذكر فراقها؟

ـ أظنك صرت تعرفين عاداتنا يا أميرة. الزوجة ينبغي أن تذهب للعيش في بيت زوجها.

ـ وإذا كان بيت زوجها هو... هذا القصر؟

تطلّع الراجا إلى زوجته مُستغرباً: أبَلبَلت الحمّى فكرها؟

ـ تصوّر، لقد فكّرت في رشيد خان. أعرف أنّه ليس أميراً، لكنّه ابن أخت راجا بيبال، إحدى أكبر ولايات الهند. لا يمكن الطعن في كرم أصله. لكن الأهم من ذلك هو أنّه رجل ذكي وعصري، وفي منتهى الطيبة والإخلاص. أنت أعرف به منّي بما أنّك اخترته مستشارا لك. هذه زيجة تجمع كلّ المزايا: لن تفقد زهرة، كما أنّك تضمن بها بقاء رشيد إلى جانبك.

كانت سلمى تدرك أنّ رشيد خان تلقى عروضاً من أسر تحكم ولايات أقوى بكثير من بادالبور. فرجل وفيّ ونظيف مثله عملة نادرة في هذا الظروف المضطربة التي تجتازها البلاد. وقد رفض كلّ تلك العروض وفاء لصداقته مع أمير، ولكن حتّى متى؟ والراجا الذي يعتمد عليه في كلّ شيء يرتعش خوفاً من فقدانه.

لقد كسبت جولة. ها هو أمير يجلس مستغرقاً في التفكير.

وتمالكت سلمى من أن تقول إنّها هي أيضاً حريصة على الحفاظ على رشيد. فهو حليفها الوحيد في القصر، وطالما دافع عنها لدى أمير. ورغم أنّها لا تلتقي به إلا نادراً، فهي تدرك حرصه على راحتها.

والواقع أنّ المرّة الوحيدة التي التقيا فيها منذ زواجها كانت في تلك

السهرة المشؤومة التي نُظّمت على شرف اللورد ستيلطيلطون ولقد شعرت فيها بانفعاله، واستغربت من اضطرابها لذلك. عندئذ أدركت مدى تعطشها للحبّ، ومقدار ضعفها أمامه، ضعف لا يعادله سوى ضعفها أمام زهرة وشهوانيّتها اللامبالية.

وساورها الخوف. أمّا الآن فدار في خلدها أن تجمع بين هذين الكائنين اللذين يحبّانها. أن تحافظ عليهما وتباعد بينهما في نفس الآن. أتراها مدفوعة بأنانيّة بشعة إلى العبث بحياة الآخرين من أجل الحفاظ على طمأنينتها؟ كلا! ولكن، عَمّ تبحث؟ كلّما فكّرت في الأمر، زاد اقتناعها بنجاح هذا الزواج. أمّا رشيد فهي واثقة من أنّ هذه الزوجة الصبية ستشغفه حبّاً، بينما سيكون بإمكانها هي، سلمى، أن تلتقي به بلا موانع بما أنه سيصير فرداً من أفراد العائلة، وسيصير لها من ثمّة صديق تفضي له بأسرارها.

ـ ولكن، ما موقف زهرة من هذا؟

استعاد أمير هدوءه، وشعرت سلمى بأنّها أوشكت على كسب الجولة، وردّت بنبرة الزوجة المثالية التي شعرت بالاستياء:

ـ كيف لي أن أفاتحها في الأمر من دون الرجوع إليك؟

لم يعد أمام أمير إلا أن يعترف بأنّه يجد هذا العرض مغرياً.

ـ على كل حال، فهذه فكرة ليست سيّئة.

تمالكت سلمى نفسها من أن تبتسم. ها هي تضرب عصفورين بحجر واحد، وتحتفظ بقربها بشخصين تتعلّق بهما أكثر من غيرهما...

ثمّ استطرد الراجا يقول:

ـ سيعيبون عليّ بالطبع أنّني لم أختر لأختي زوجاً من الأمراء، لكن مهما يكن، فالوضع ليس مستقرّاً. من يدري ماذا يخبئ لنا المستقبل...؟ سأفاتح رشيد في الأمر. هل يمكن أن تتكفّلي بزهرة؟ و... ـ داعب

بحركة مفاجئة شعر سلمى ـ شكراً لك... لقد سرّتني عنايتك الصادقة بقضايا أسرتنا. الواقع أنّك صرت امرأة هندية حقيقيّة!

لكن سلمى أسفت في قرارة نفسها على مغالاته في الثقة.

ـ كفى، لا أريد أن أسمع شيئاً. الأمر واضح: تريدون التخلّص منّي!

وبذلت الطفلة جهداً جبّاراً لكي تتكلّم بصوت مسموع، وتمسك دموعها. وشعرت بركبتيها ترتعشان، وجسمها يتصلّب. عليها أن تظلّ واقفة، وألا تنهار أمام هذه المرأة...

ـ زهرة، ماذا بك يا بنيّتي!

رفعت المراهقة رأسها من جديد. كان الألم وعدم الفهم باديين في نظرتها: ماذا فعلتْ حتّى تستحقّ هذه الخيانة؟ أيّ غلطة ارتكبت حتى تتنكّر لها المرأة التي اتّخذتها أختاً وأمّاً؟ إنّها تشعر بالتمزّق. وعاودها الإحساس باليُتم من جديد.

مضت سلمى تتأمّلها مصعوقة. لم تتوقّع منها كلّ هذا اليأس، ولم تكن تريد أن تتوقّعه.

ـ لا أحد يفرض عليك شيئاً يا زهرة، الاختيار متروك لك. كلّ ما في الأمر أنّنا فكّرنا...

لم تكن زهرة تصغي. كانت تتفرّس وجه سلمى، هذا الوجه الذي كان يخفي كثيراً من الرقّة سابقاً...

ـ أريد أن أعرف ما إذا كنت أحببتني يوماً أم كنت تكذبين عليّ؟

«ليتك تعرفين يا صغيرتي مقدار حبّي لك، وأنّني ما فعلت هذا إلا لشدّة حبّي لك. لكنّك لن تستطيعي أن تفهمي. إنّني أتعذّب من رؤيتك تتألّمين...».

ـ لا تتصابي يا زهرة. أنت تعرفين مقدار حناني عليك.

وبدت الجملة ثقيلة ومتكلّفة. لكنّ المراهقة لم تشعر بذلك. لاذت

بالصمت وقد ارتسمت على شفتيها ابتسامة مريرة. وذت سلمى في هذه اللحظة لو تقدّم أغلى ما لديها نظير أن تضمّها بين ذراعيها، تقبّلها وتقول لها إنّ هذا حلم مقيت، وأنّها تحبها. لكن عوض ذلك، ألفت نفسها تقول:

ـ أتيتك بصورة هذا الشخص. هل ترغبين في رؤيتها؟

ـ ماذا سأصنع بها؟ لقد اتّخذتِ القرار، وأقنعتِ به أخي. ليس لديّ ما أضيف.

بدأ الضيق يتملّك سلمى. ها هي الطفلة تلعب دور الضحيّة وتضعها هي، المدافعة عن الحريات، في موقف زوجة الأب المقيتة.

ـ أنت تعرفين أنّه ما من شيء تقرّر بعد! أنت ما زلت حرّة في اتّخاذ القرار الذي ترينه مناسباً.

رفعت صوتها، وأظهرت استياءها، وتشبّثت بهذا الغضب الذي تعرف أنّه أفضل سلاح ضدّ الحنان.

ظلّت زهرة صامتة، لكنّ المرارة ما لبثت أن تحوّلت في نظرتها إلى ازدراء.

وشيئاً فشيئاً تبدّد غضب سلمى أمام هذا الصمت. كان المكروه قد حصل، ولن تستطيع أيّ كلمة، مهما كانت، أن تصلحه. فعرض حرية الاختيار كان يعني في العمق نفيه، ومهما تقول سلمى ابتداء من هذه اللحظة، ستعتبره المراهقة كلاماً زائداً. وبذلك أوصِد الباب خلف زهرة.

١٢

مرّ العرس على أحسن ما يرام. تنفّس أمير الصعداء وهو مضطجع على أريكة الصالون الصغير الموجود قرب غرفتهما. فبعد هذين الأسبوعين المرهقين، اللذين توالت فيهما الاحتفالات والاستقبالات بدون انقطاع، ها هو يذوق طعم الهدوء من جديد.

بعينين نصف مغمضتين يراقب راضياً زوجته وهي تحضّر له البان وقد غمرته السعادة: لقد كانت رائعة طوال هذه الفترة مع أنّ البداية كانت سيّئة.

صار خبر زواج رجل ثقته من أخته زهرة موضوع أحاديث كلّ أهل المدينة، مع أنّ ثمّة إجماعاً على كرم محتد العريس. لكنهم لمّا رأوا حضور كلّ أفراد عائلة بيبال الملكية في العرس ـ بما فيهم المراجا، وهو تشريف غير مسبوق ـ وشاهدوا الهدايا الرائعة التي قدموها للعروس نسوا مؤقّتاً هذا الزواج غير المتكافئ. قالوا في أنفسهم إنّ العريس هو أقرب شخص للمارجا بعد ولديه اللذين لا يبدوان بصحّة جيّدة. قد يحلّ بهما مكروه يودي بحياتهما، فتواتي العريسين فرصةٌ لم تخطر لهما على بال!

لم تكن هذه النمائم غائبة عن أمير، مثلما لم تكن تعزب عن باله الإشاعة التي تزعم أنّه استشار العرافين قبل الإقدام على هذا الزواج. يضحك من ذلك، ويحترس من تكذيبه.

لكنّ المعركة الأشرس كان عليه أن يخوضها داخل القصر، وتتمثّل في تهدئة الراني عزيزة. لم تر سلمى من داع لكي تخبر زوجها بأنّ الراني

تتّهمها بالسعي إلى التخلّص من أخته بدافع الغيرة، وأنّها لمّا استعرضت خصال رشيد خان الحميدة من أجل إقناعها، وحدثتها عن السعادة التي سيوفّرها لزهرة، لاحظت أنّ الراني توشك على الاختناق.

ـ من يتحدّث عن السعادة؟ أيتزوّج الناس من أجل السعادة؟ هم يتزوّجون من أجل تخليد الاسم، وإنجاب وريث للعرش! مسكينة زهرة، لن يكون عليها أن تشغل بالها بهذا!

حدّقت في سلمى بخبث ثمّ أضافت:

ـ حين أفكّر في أولئك اللواتي يملكن اسماً عليهنّ نقله وهن عاجزات عن ذلك...

وغادرت قبل أن تتمكّن سلمى من الرد عليها، مع أنّها كانت تتوقّع مثل هذه الأقاويل. لم تكن تجهل أنّهم بدأوا يتهامسون ويقلقون: كيف أنّها لم تحبل مع مرور عام على زواجها؟

وحتّى أمير كثيراً ما يبدو مشغول البال بهذا الموضوع. وقد علمت أنّ الراني عزيزة نصحته باتّخاذ زوجة ثانية، لكنّه نهرها، وسلمى ممتنّة له بذلك، لأنّها تدرك ما يحيط به من همز ولمز وصمت، وهي أمور أشدّ إيلاماً من الكلام.

على أنّ ما شقّ عليها أكثر خلال هذين الشهرين هو فتور زهرة. ذلك أنّها صارت تعاملها بلامبالاة مهذّبة. وقد عجبت سلمى من أنّ ذلك كان يؤلمها كثيراً، كما لو أنّ القصر صار مكاناً مقرفاً من دون ضحكات زهرة وثقتها وحنانها.

سافر العروسان بالأمس إلى أوروبا لقضاء شهر العسل. ذلك أنّ رشيد أراد أن تتعرّف زوجته على تلك البلاد. وقد ارتاحت سلمى لغيّابهما: ما دامت زهرة غائبة، يمكنها أن تأمل بأنّها ستعود إليها.

قطع عليها أحد الخصيان أحلامها. جاء يعلن لسيّده أن بائع العطور قد وصل. ذلك أنّ العطور في حياة الراجا تحظى بأهميّة بالغة. فهي

ليست مجرّد نزوة عابرة وتافهة، بل شغف حقيقي. وهو يتمتع بهمّة الباحث، وصرامة المحترف وحسّ الخبير الجمالي. وهكذا فقد استقبل ببشاشة بائع العطور العجوز ومساعده الذي كان يحمل صندوقين جلديين. وهو يعرفه مدة طويلة. كان يزود أباه بالعطور قبله.

قال أمير موضّحاً لزوجته التي استغربت هذا الذوق، ورأت فيه ميولاً أنثوياً:

ـ حبّ العطور هذا متأصّل في الأسرة. فقد كان جدّي، المارادجا، وهو صياد شرس، لا يكاد يعرف الكتابة، لكنّه شديد الولع بالعطور. وكان يملك أروع مجموعات العطور في الهند قاطبة. كانوا يأتونه من كلّ مكان لاستنشاق تلك النفحات الإلهية التي يزيد عمر بعضها عن القرنين. لكنّ تلك المجموعة اختفت للأسف خلال حريق أضرم عمداً في القصر بقصد الاستيلاء على الكنز الخرافي خلال الانشغال بإطفاء النيران. وأظن أنّ الحزن الذي سيطر على جدّي بعد هذا الحادث هو الذي عجّل بموته، علما أنّه أبدى رباطة جأش لا نظير لها عند موت زوجته.

نشر التاجر على قطعة مخمل سوداء ما يقارب عشرين قارورة صغيرة، كلّها عبارة عن تحف فنية. بعضها من البلّور المطعّم بالذهب، وبعضها الآخر من الحجر الكريم أو المرجان المنقوش على نحو دقيق.

قال أمير:

ـ ينبغي أن تكون القارورة جديرة بمحتواها، لا أقلّ ولا أكثر منه. يلزم وجود تناسق بين الداخل والخارج. هذا ما تعلّمناه من حكمائنا. هم يتحدّثون طبعاً عن الجسد والروح التي هي جوهر الإنسان. وهذه العطور هي جوهر الطبيعة، ومن ثمّة لا يمكن حفظها في أوعية بشعة.

وبحركات حذرة، تناول التاجر تلك القوارير الواحدة تلو الأخرى، فكان يدخل فيها قضيباً رفيعاً من العاج تعلق بطرفه كميّة صغيرة للغاية من العطر يضعها على يد الراجا، فيستنشق عبيرها بعمق وقد أغلق

عينيه، ثمّ يهمس وهو يميل برأسه إلى الوراء: «آه!» كما لو أنّ لذة شديدة استحوذت عليه. وتروح أصابعه المزيّنة بالخواتم تداعب تلك القوارير الثمينة. ويستغرق في هذه المتعة لدقائق طويلة. أمّا البائع فينتظر بوقار. بوسعه أن ينتظر اليوم كلّه وهو يستمتع برؤية رجل خبير مثل الراجا يُعجب بكنوزه.

بعد التحليق في سماء هذه اللذة، يعود أمير إلى الأرض على مضض، وبحركة سريعة يعيّن ستّ قارورات، فينحني العجوز وقد تطلّقت أساريره.

ـ سموّك لا تخطئ أبداً. لقد اخترت أجمل بناتي.

فيردّ أمير هازئا:

ـ اسكت أيّها العجوز الفاسق. لا بدّ أنك أخفيت عنّي أفضل منها. قد أعذرك إن احتفظت بها لنفسك، لأنّك شغوف مثلي. أمّا إن بعتها لغيري، فلا سامحك الله أبداً!

مضت سلمى تنظر بفضول إلى الصندوق الثاني، وهو أكبر من الأوّل، ومع ذلك لم يثر انتباه أحد. وجازفت بالسؤال:

ـ ألن تعرض علينا روائعك الأخرى؟

ـ إن هذا يا هوزور لا يليق بمقام سموّك. إنّها عطور قديمة أعرضها على زبائن أقلّ تطلّباً من الراجا صحاب.

ـ لم أكن أعلم أنّ قدم العطر يزيده قيمة.

فردّ التاجر موضّحاً وقد استخفّه فرح تعليم تلميذة جديدة:

ـ إلى حدّ ما. هناك بطبيعة الحال زيوت تعطيه رائحته الخاصة، زيوت مستخلصة من النبات ـ مثل السوسن والياسمين ونبات المرّ والبتشول... ـ أو الحيوان ـ من قبيل حوت العنبر وقطّ الزباد والمسك... وقلما يكون العطر من أحدها فقط. فهو في الغالب تركيبة معقّدة. لكن هذه الروائح تتلاشى بسرعة إن هي لم تثبّت، وبطريقة لا تفسدها طبعاً!

إنّها نور جيهان، زوجة الإمبراطور جيهانجير الأثيرة، هي من اخترعت طريقة حفظ هذه الروائح التي كانت تنتشي بها. كانت تنقعها في زيت خالص لأسابيع. لكنّ الطريقة المضبوطة ضاعت للأسف، وإن كان بعض الخبراء نجحوا في إعادة تشكيلها جزئياً.

والواقع أنّ تراث صناعة العطور تقهقر في القرن الثامن عشر لمّا بدأ الناس يضيفون لها الكحول نقلاً عن الغربيين. فهذا السائل العدواني الذي يقوّي الرائحة في البداية، يحولها بعد بضعة أشهر، ويقضي عليها تماماً في غضون بضع سنوات. ومع ذلك يستمرّون في استعماله نظراً لفائدته التجارية، إذ يسمح بإنتاج كمّيات أكبر بكثير.

وتسأل سلمى بقلق:

ـ ولكن إن كانت الرائحة واحدة، فكيف يستطيع المرء أن يميّز؟

ـ انظري، الأمر بغاية السهولة.

ووضع التاجر على يدي سلمى قطرتين من قارورتين متباينتين.

ـ انشريهما على بشرتك، ثمّ شمّي. ألا تلاحظين أنّ بينهما فرقاً؟ حسناً، انفخي الآن على العطر الموجود على يدك اليمنى، إنّه بارد، أليس كذلك؟ معنى هذا أنّه ممزوج بالكحول. انفخي على اليد الأخرى، تلاحظين أن الحرارة لا تتغيّر. هذا العطر خالص. سيعطر يدك لأيام، وسيحتفظ برائحته لعشرات السنين، بل لقرون.

مضت سلمى تضحك، فهي ليست بحاجة لكلّ هذه الشروح. لكنّها لما رأت المبلغ الذي دفعه زوجها للتاجر، فهمت بأنّ الأمر بغاية الأهميّة: سلّمه ما يناهز خمسين قطعة ذهبية.

وتضاعفت دهشتها لما رأت أمير، بعد انصراف التاجر، يحفظ القوارير بعناية إلى جانب مئات القوارير الأخرى في خزنة حديديّة مدفونة في الجدار.

قال موضّحاً:

ـ قيمة بعض هذه العطور تعادل قيمة الماس، بل هي أثمن بالنسبة إليّ. إنّها سحرية في الواقع: قطرة منها كافية لتحويل يوم حزين أو عصيب أو رتيب إلى يوم بهيج. وأظنّ أن رهافة الحسّ هذه أتتني من طفولتي بحيث كانت العطور مكوّناً أساسياً من الحياة الهادئة السعيدة التي عشتها.

ـ قلت السعيدة؟ مع أنّك فقدت والديك في سنّ السادسة من عمرك؟

ـ لا أكاد أذكرهما. تربّيت في كنف جدّتي وأختي عزيزة اللتين كانتا تشملاني بحبّهما. كان يُعتَقد أنّ أمّي أصابتها العين بعدما فقدت ولدين، في حين كانت شؤون الحكم تشغل كلّ وقت أبي، ولا تترك له مجالاً للعناية بابنه. هذا عدا أنّ الأطفال عندنا يلزمون الزنانا حتّى سنّ السابعة. لا يتكفّل الرجال بتربيتهم إلا بعد هذا السنّ.

استلقى أمير على الوسائد بجوار سلمى، وراح يدخّن نرجيلته مستغرقاً في التفكير، متأمّلاً آخر أشعة الشمس وهي تداعب رؤوس أشجار السرو.

ـ كانت مربّيتي التي كنت أحبها كثيراً تأخذني للقاء والدي كلّ أسبوع. ما زلت أذكر تلك اللقاءات السريعة والرسميّة. كان عليّ أن أنادي أبي: آبا هوزور، أيّ صاحب السعادة أبي، وأنادي والدتي أمي هوزور، أيّ صاحبة السعادة أمّي. أمّا هما فلم يكونا يناديانني أبداً باسم أمير، بل: ولي أحد، أيّ وليّ العهد. وكانا يناديان بعضهما بعضاً ساركر، أيّ صاحب أو صاحبة السمو. كلّ هذه المراسيم كانت ترهق طفولتي، فكنت أتلهّف للعودة إلى ألعابي.

ولمّا توفي والداي في حادثة، تولّت نساء القصر أمر تربيتي. وكنت ألعب مع بنات الخدم إلى أن بلغت الخامسة عشرة. كنا نبتدع مئات القصص، ألعب فيها دور الملك بينما يؤدّين هنّ دور الراقصات. كنت أحبّهنّ بكلّ براءة.

وبما أنّني كنت الوارث الذكر الوحيد، فقد كنتُ مدلّلاً. ما زلت أذكر

أنّني كنت أرفض الأكل، فكانوا يأتونني بجارية تغنّي أمامي بينما أتناول طعامي. وهذا هو سرّ ولعي بالموسيقى منذ أن كنت في الخامسة من عمري.

لم يكن ثمّة مجال أيضاً لأستحمّ بمفردي، إذ كانت تتكفّل بتنظيفي وغسلي بالصابون وتعطيري أربع شابات أو خمس، وهو أمر كان ذلك يروقني كثيراً. وقد ظلّ الأمر على هذه الحال طيلة طفولتي ومراهقتي إلى أن سافرت إلى إنجلترا.

وابتسم وهو يرى الدهشة على وجه سلمى، ثمّ استرسل:

ـ هيّا يا حبيبتي، لا داعي للدهشة. أؤكد لك أنّ كلّ هذه الأمور كانت تجري في عفّة كاملة.

ـ همم... كنت تقضي معظم وقتك إذن بين هؤلاء الجواري يدلّلنك، ودراستك؟

ـ لمّا بلغت السابعة من عمري عيّنوا لي معلّماً لقّنني الأساسيات. لم يكن يُسمح له بدخول الزنانا بالطبع. لذلك كنت أقضي بضع ساعات كلّ يوم في الماردان خانا، أيّ الجزء المخصّص للرجال من القصر. لكن بالي لم يكن يشغله حينئذ غير شيء واحد: أن أعود إلى رفيقات اللعب. لم أكن أجد راحتي إلا بينهنّ.

ولمّا كبرت، صرت أحسّ اتّجاههنّ بمشاعر رومانسية. لكنّني لم أكن أعرف حتّى معنى القبلة. وحين بلغت الثامنة، قدّرت جدّتي أنّه ينبغي تلقيني، فضلاً عن الإنجليزية والرياضيات، آداب السلوك. وبما أنّ كلّ أبناء الأسر الراقية كانوا ما زالوا يتلقّون هذا التعليم، فقد جيء بجوارٍ لهذا الغرض.

كنت ألقاهنّ في ماردان خانا، لكنّني لم أكن أمكث معهنّ لوحدي أبداً. كانت ترافقني دائماً مربّيتي أو إحدى الخدم.

كنّ نساء مسنّات، بالغات الجمال والأدب. تعلّمت من محادثاتهنّ وتصرفاتهنّ المهذّبة كيف أتكلّم وأتصرّف. باختصار كيف أكون رجلاً

راقياً. بعضهنّ كنّ عارفات بالموسيقى، ومعهنّ تعلّمت كيف أقدّر قيمة قصيدة شعرية أو قطعة موسيقية بل حتى «راغا»[1] من «الراغوات». لكن لم يكن مسموحاً لي البتّة بأن أغنّي أو أعزف على آلة من الآلات. فالمطلوب من الأمير هو أن يتذوّق فنون التسلية لا أن يسلّي غيره.

وكان من بين هؤلاء الجاريات شاعرات ذائعات الصيت، لقّنّني أصول الشعر، وهو فنّ اشتهرت به مدينتنا لوكنو، يمكن أن يقرضه أفراد الطبقة الراقية من دون أن يزري بهم.

لقد كانت حياتي حلماً...

ولما بلغتُ الثانية عشرة من عمري، قدّرت جدّتي أنّ عليّ أن أدرس بجدّ، فبُعِثت إلى «مدرسة الأمراء». كان معلمي وأستاذ الإنجليزية وأستاذ الأوردية، والخادم المكلّف بكتبي، والسائق بالطبع، يأخذونني إلى المدرسة صباح كلّ يوم، ثمّ يعودون إليّ بعد الظهر. ومن ثمّة لم تُتَح لدي أيّ فرصة للاختلاط بالأولاد الآخرين. وهو أمر لم أكن أرغب فيه أنا نفسي، لأنّني لم أكن متعوّداً على رفقة الذكور. لم أكن أشعر بالراحة معهم، ولم أكن أحلم إلا بلقاء رفيقاتي من جديد. على أنّه كان عليّ للأسف أن أفارقهن. كنت على وشك إتمام الرابعة عشرة، حين قرّرت جدتي بأنّ الوقت قد حان لكي يشرح لي معلمي «أمور الحياة». ومنذ ذلك اليوم، لم يعد يُسمح لي بلقاء صديقاتي.

على كلّ حال بعد أن حاول عمّي تسميمي بعد بضعة أشهر ليستولي على الحكم، قرّرت جدّتي أن تبعث بي إلى إنجلترا لإتمام دراستي حفاظاً على سلامتي...

وتطلّعت سلمى إلى أمير في إشفاق، وقالت:

---

(١) موضوع موسيقي يختلف حسب الوقت من النهار.

ـ إنجلترا المتزمّتة! إيتون وكامبردج! لا بدّ أنك أصبت بصدمة رهيبة بعد الحياة التي عشتها!

ـ لست أدري ما إذا كانت رهيبة. كان كلّ شيء جديداً عليّ، ومثيراً. على أنّي ما عدت أعرف من أكون: أأنا أمير هندي أم لورد إنجليزي...

وقالت سلمى في نفسها: «ما زِلتَ لا تعرف أيّها المسكين!»، لكنّها تمالكت نفسها من أن تجهر بذلك. واكتفت بأن لثمت يده. أمّا هو، فكانت هذه هي المرّة الأولى التي يكشف لها ـ من دون أن يشعر ـ عن ماضيه، ويعبّر عن ثقته بها، ويظهر لها هذا الحنان الذي لم تعهده فيه. واجتاحه دفق عاطفي جعله يتوق إلى ضمّها بين ذراعيه، لكنّه لم يجرؤ: لم يشأ أن يفسد هذه اللحظة الرائقة النادرة.

لقد فهم منذ مدّة طويلة أنّ الجماع يمثل بالنسبة لزوجته شيئاً مقرفاً، وأنها لا تُقبِل عليه إلا إرضاءً له. وكان يشعر بخيبة كبيرة؛ ذلك أنّ كلّ شيء في سلمى يثير الشهوة: جسدها الرشيق وشفتاها الممتلئتان وعيناها العميقتان اللتان تتكدّران أحياناً.. لكنّه حين يضمّها إليه، ويقبّلها ويستغرق في مداعبتها، يشعر بها تتصلّب. وقد حاول مراراً أن يوقظ شهوتها، إلا أنّه يجد نفسه وحيداً. وانتهى به الأمر أن سلّم بأنّ زوجته الحلوة باردة مثل تمثال رخامي.

شدّه الحنين، فراحت يده تداعب خصلات شعرها الأحمر، ومضى يلويها حول أصابعه، فأسندت سلمى رأسها إلى كتفه. نظرت إلى السماء، فشعرت بقشعريرة تسري في جسدها من صفاء زرقتها، وأخذت تنتظر.

انزلقت اليد على الرقبة، وداعبت شحمة أذنها، ولامست لمساً خفيفاً وجنتها وطرفي شفتيها، فالتفتت إليه وهي ترتعش، ومضت تبحث عن نظراته في العتمة.

أتُراه ظنّها تتهرّب منه؟ رفع يده عنها فجأة ثمّ استلقى وهو يقول:

ـ يا لها من ليلة رائعة!

فأجابت بجفاء وهي تسوي لباسها الحريري على كتفيها:
ـ ليلة شتوية.

ومضت تتأمّل باستياء في الظلام اليد المكسوّة بالخواتم اللامعة. وبغتة عادت بها الذاكرة إلى تلميحات البيغوم من أنّها لا تتقن شيئاً سوى التعبير عن الغضب. ماذا لو كان ذلك صحيحاً؟ وأنّ زوجها الوسيم يؤثر عليها مضاجعة رجل، وأنّه إنّما يقاسمها الفراش من باب الواجب، حتّى تهبه وريثاً للعرش؟ لعل هذا هو ما يفسّر تردّده بين اللامبالاة والميل إلى التملّك العنيف والسريع... كلا، مستحيل! وهزّت رأسها لعلّها تطرد الصور التي تحاصرها. وتملّكها الخجل. لكنّها كلّما أمعنت في طردها، ألحّت عليها أكثر.

وبقفزة واحدة قامت واقفة، وقالت:

ـ أشعر بالاختناق هنا. سأذهب لآخذ نفساً.

انطلقت تمشي على سطوح القصر إلى أن بلغت طرفه الغربي حيث يوجد «جناح الشمس الغاربة» المشرف على المدينة.

استندت إلى أحد الأعمدة الرخامية وراحت تتأمّل لوكنو الممتدّة في الأسفل، الضاجّة بظلال فِضّيّة. وفي البعيد ينتصب فوق أقواس المساجد المزخرفة وأعمدتها الرشيقة طيف حسينيّة حسنأباد الأبيض، المجلّل بالذهب، وبجانبه يرتفع عالياً صرح صمّمه مهندس مجنّح الخيال. إنّه «الباب التركي» المزيّن بآلاف أزهار اللوتس، رمز السلام، التي تبدو في الليل مثل أعلام حرب ظافرة.

إنّها مدينة باروكية منمّقة، تجمع في خليط عجيب بين الفخامة المغولية والحدّة الهندوسية والحذلقة الفرنسية والجاذبية الفكتورية. تبدو نهاراً، تحت أشعة الشمس الحارقة، مثل جارية شاخت ولم تعد ملابسها الأنيقة قادرة على إخفاء هرمها، لكنّها تستعيد ليلاً ألقها وطيبها الزكي وسحرها، وتسترجع خيلاء امرأة واثقة بأنّها الأجمل.

إنّها العشيقة التي يحلم بها كلّ الناس، لوكنو المسلمة الشرسة المتكتّمة المتّقدة، لوكنو الهندوسية الرشيقة الشبقيّة التي تتأجّج شهوانيّتها لتبلغ إلى حدود الصوفية، صوفية تخفي أكبر المتع. لوكنو الغامضة...

وبينما كانت سلمى مستندة على الدرابزين الحجري، طار بها خيالها من هذه المدينة الرائعة المذهلة إلى مدينة ترفل في اللازورد والذهب... إلى الأستانة.

١٣

ـ لقد ذبحوا النساء والأطفال، ورموا من جرحوا في الآبار. بعد ذلك أضرموا النار في المنازل. ونحن من القلائل الذين نجوا. اختبأنا في الحقول إلى أن خيّم الظلام. زحفنا على بطوننا إلى أن بلغنا الغابة ثمّ مشينا لأيّام إلى أن وصلنا إلى هنا.

كان الرجل يترنّح من التعب، وبجانبه زوجته وطفلان صغيران يبكون بصمت.

ـ ماذا سيكون مصيرنا يا هوزور؟ لم يعد لنا مكان آمن نأوي إليه...

أمر الراجا بإخراجهم وإطعامهم، ثمّ استجوبهم بأناة.

إنّها قصة أخرى من قصص الصراع الدامي بين طوائف كانت تتعايش في أمن إلى عهد قريب. وهي صراعات تنشب بسبب تفاهات يحوّلها الجوّ المحتقن الذي تخلقه الحركات المتطرّفة وتغذّيه، إلى مذابح.

ففي قرية لاخبور ترهب خلية ماهاصباح النشيطة الأقليّة المسلمة، زاعمة أنّها تريد إكراهها على العودة للهندوسيّة. وقد رفع المسلمون شكواهم إلى مسؤولي المؤتمر الوطني المحليين، لكنّهم رفضوا الإنصات إليهم.

تفجّرت المأساة خلال الصلاة على جنازة بالمسجد، إذ توقف موكب عرس هندوسي أمام مدخل المسجد، وراح أفراده يظهرون فرحتهم بقرع الصنوج والطبول والنفخ في الأبواق. خرج بعض الفلاحين وطلبوا منهم

الابتعاد قليلاً، فردّوا عليهم بشتم النبي، فتقاذفوا بالحجر، وأخرجوا السكاكين، وجرى الطرفان إلى البيوت لجلب الأوتاد والمدارى والمناجل. وقد دامت المعركة ساعات، وعمّت كلّ القرية، ولم تصل الشرطة إلا بعد انتهائها.

قال الرجل متأوّهاً وهو يفرك أصابعه:

ـ لم نعد نحتمل يا هوزور. نحن فلاحون مساكين، كلّ ما نطلبه هو أن نعمل. فلماذا لا يتركوننا وشأننا؟ الهندوس يقولون إنّ المسلمين خونة، وإنّ راجاتنا تربطهم علاقة صداقة بالإنجليز، وإنّ علينا أن نحصل على بطاقة المؤتمر ونكافح من أجل الاستقلال...

لكنّنا يا هوزور لا نهتمّ بالسياسة. نتركها لسكان المدن والأغنياء والمتعلّمين. نحن لسنا ضدّ الاستقلال، لكنّنا نرى أنّنا كنا آمن مع الإنجليز. لم يكن الهندوس يجرؤون على مهاجمتنا مثلما يفعلون منذ سنة بعدما ربحوا الانتخابات، وصاروا يظنّون أنفسهم هم السادة... هم يفوقوننا عدداً، فماذا سيكون مصيرنا؟

لقد أوجز هذا الفلاح بهذه الكلمات القليلة الوضع القائم على نحو أبلغ من كلّ خطابات الساسة.

على أنّ أمير مقتنع بأنّ المسلمين لو كانوا هم الأغلبية لتصرّفوا مع الأقلية الهندوسية، بلا شك، بنفس النحو. ليست القضية بالنسبة إليه هي الحكم على مزايا كلّ ديانة على حدة، عبر تاريخهما. فكلّ منهما أنجبت فلاسفة وزهّاداً ومستبدّين. ففي هذه السنة، ١٩٣٨، تعدّدت في شمال الهند أحداث الشغب والمذابح. وقرية لاخبور التي ينحدر منها هذا الرجل ليست تابعة لولاية بادالبور ـ المسكين إنّما لاذ بالقصر لأنّ أخاه يشتغل فيه طباخاً ـ بل لولاية كالاباغ المجاورة. ونقل هذه الأخبار من قرية إلى قرية مع تهويلها، يهدّد بإشعال نار الفتنة في الولايات الأخرى القريبة، وهو أمر يشغل بال أمير حتّى إنه أسرّ به لسلمى:

ـ لا بدّ من اتّخاذ إجراءات مستعجلة تمنع النار من الانتشار قبل فوات الأوان. قد نناقش ذلك هذا المساء خلال الاستقبال الذي ينظّمه راجا مهدباد، وسيحضره كلّ كبار الملاك من المسلمين والهندوس. أعرف أنّ إثارة الحديث عن شؤون السياسة في مثل هذه اللقاءات الشعرية أمر مستهجن، لكنّني سأفعل مع ذلك، وليكن ما يكون. عليهم أن يستيقظوا من سباتهم!

منذ أن اختار راجا مهدباد حياة التقشف، صارت هذه اللقاءات الشعرية الكبيرة التي تجمع كلّ نبلاء أوده هي اللقاءات الوحيدة التي يسمح لنفسه بحضورها. لم يكن يفعل ذلك لإيمانه بأنّ حسن الضيافة واجب مقدّس فحسب، بل لأنّ هذه المسابقات الشعرية التي يستدعى إليها أرقى شعراء البلد، تعدّ مناسبة تسمح للهندوس والمسلمين باللقاء، والجلوس جنباً إلى جنب، والحلم والبكاء معاً، وتقاسم نفس العواطف، بحيث يكونون، في نهاية المطاف، أناساً يجمع بينهم حبّ الجمال.

منذ قرنين ولوكنو تفخر بأنّها مركز هذه الحضارة الهندية الإسلامية التي تنير كلّ الشمال الهندي، وتصهر بين ثقافتين يبدو أنّ كلّ شيء يجعلهما متعارضتين.

لقد رفع أبكر، وهو من أعظم أباطرة المغول، هذا التحدي الكبير قبل ثلاثة قرون؛ لمّا جعل من بلاطه في دلهي محفلاً يجمع الفلاسفة والعلماء والصوفيين، بحيث يسعون معاً لتحقيق الفتح الأكبر: أيّ البحث عن تلك النواة الصافية التي توحّد بين العقائد الهندوسية والفارسية والإسلامية والمسيحية، والعمل انطلاقاً منها على تأسيس «الدين الإلهي».

على أنّ هذه المحاولة آلت إلى الفشل بعد خمسين سنة على يد الإمبراطور اورنگزيب[1] الذي قوّض هذا الإسلام المتساهل، وأحلّ

---

(١) أبو المظفر محي الدين محمد اورن?زيب عالمكير (١٦١٨م/١٧٠٧م) (المترجم).

محلّه إسلاما متشدّدا، ممّا أدّى إلى فرار كثير من المثقفين والفنانين من دلهي التي صارت موئلاً لليقينيات المطلقة، ولجأوا إلى لوكنو التي كانت عاصمة ملوك أوده ذوي العقيدة الشيعية، المشهورة بتألّقها وكرمها.

ولئن كان ملوكها يتّسمون بتسامح أكبار، لم يكن ذلك بدافع البحث عن التصوّف بقدر ما كان بسبب انتقائيّة متلهّفة لكل ما هو جديد ولكلّ المتع، حسيّة كانت أم عقليّة. وهكذا تحوّلت لوكنو إلى بوتقة تنصهر فيها العبقرية الهندوسية والإسلامية، لتبدع عيون الموسيقى والشعر وفنّ الرقص. وفي هذا العهد بلغت اللغة الأوردية أرقى أشكالها، كما بلغ شعر الغزل الذي وفد من بلاد فارس في القرن الثالث عشر، إلى أروع صوره، حتّى إن بعض العقول المريضة ادّعت أن ازدهاره إنّما يخفي تخلّف الفكر.

كان الغزل هو سيّد المسابقات الشعرية بلا منازع. وقد تعلّمت سلمى تذوّق هذه القصائد التي يكون فيها المحبوب هو الخالق أحياناً، أو حلم بالمجد أو رنين أسورة امرأة أو وميض عالم منفلت.

لكن يبدو لها اليوم أنّه من العبث، بل من الإجرام، الانتشاء بالكلمات بينما تغرق القرى والمدن حولهم في الدماء. وقد واجهتها راني مهدباد التي أسرّت لها بقلقها بابتسامة سمحة أشبه بتلك التي توجّه للأطفال المرهفين لتهدئتهم.

ـ ماذا عسانا نفعل أكثر مما نقوم به الآن يا بنيّتي؟ ينبغي ألا ننجرّ إلى النقاشات العقيمة، وأن نكون قدوة، في الانسجام والتسامح... يلزم أن نؤمن بنجاعة ما نفعل بما أنّ لوكنو هي المدينة الوحيدة في المنطقة التي لم تعرف أحداثا دامية!

وأشارت لسلمى من خلال المشربية الرخامية المخرّمة إلى رجل فارع الطول، تحيط به حاشية كبيرة.

ـ انظري إلى راجا كالاباغ الذي وقعت في إمارته أحداث الشغب التي

ذكرت. فهو حاضر هذا المساء بين أصدقائه من الهندوس والمسلمين. صدّقيني، إنّ التعرّف على عقليّة الآخر يؤدّي إلى احترام قيمه: إنّها الوسيلة الأنجع لإحلال السلام... لو أنّ أمراءنا لم يكونوا مقتنعين بمزايا مختلف العقائد، ولو لم يكونوا محايدين، ويثبتون ذلك لرعاياهم كلّ يوم، لعمّت الاضطرابات، وشبّت نار الفتنة في البلاد بأسرها.

لكنّ سلمى لم تكن مقتنعة بوجاهة هذا المثال. ربّما يصدق هذا التصور الأرستقراطي في عهد لم يكن فيه أحد يجادل في التراتبية الاجتماعية. أمّا اليوم، فالأمر مختلف وبعيد عن الأوهام التي يخادع بها النبلاء أنفسهم، لأنّهم ما زالوا لا يرغبون في - بل غير قادرين على - تغيير اقتناعاتهم ونمط عيشهم.

تابعت ببصرها أمير وهو يقترب من راجا كالاباغ، ويحاول أن يتحدّث إليه، لكن راجا كالاباغ راح يهزّ رأسه وقد بدا عليه الانزعاج. ألحّ أمير، فأخذه راجا كالاباغ وهو يضحك إلى مضيفهما والتمس منه أن يفصل بينهما.

حاولت سلمى وقد ألصقت وجهها بالمشربية أن تقرأ على الشفاه ما يدور بينهم من كلام، لكن عبثاً. على أنّها استطاعت مع ذلك أن تخمّن، انطلاقاً من حركات راجا مهدباد، أنّه يحاول تهدئة هذا الأمير الشابّ الذي لم يمض وقت طويل على عودته من إنجلترا، والذي ينظر إلى الأمور بجدّيّة زائدة.

وانتهى الأمر بأمير بعد الاحتجاج إلى أن أذعن وعاد إلى الحشد، وذاب فيه بهيئته الرفيعة ولباس الشرواني الحريري الأبيض الذي يجعله يبدو كالآخرين رغم تميّزه عنهم.

وسرت قشعريرة في جسد سلمى. أحسّت كما لو أنّها تشهد نهاية هذا العالم. إنّها تأخذ عليهم هذا العمى وهذا الجبن وهذا التأنق المنحطّ الذي يفصلهم عن الواقع، ويشلّهم.

لقد اتّخذ الكفاح ضدّ الاحتلال البريطاني، بإيعاز من المؤتمر

الوطني، مظهر ثورة شعبيّة على كبار الملاك والأمراء باعتبارهم أصدقاء الإنجليز. وبما أنّ معظم الأرستقراطيين في منطقة أوده من المسلمين، تحوّل النضال الوطني إلى صراع اجتماعي، وهو الآن يتعزّز بحرب دينية تستثير الجماهير.

وخيّم الصمت فجأة. ذلك أنّ المسابقة الشعرية على وشك أن تبدأ. مضى الضيوف المتّكئون على الوسائد المتناثرة فوق الزرابي الحريرية السميكة يتابعون بانتباه بالغ رئيس الحفل وهو يتقدّم نحو المنبر. إنّه عجوز ذو عينين متّقدتين، معترف به في كلّ المنطقة كسلطة كبرى في هذا المجال.

ذلك أنّ ترؤس مسابقة شعرية كهذه ليس بالأمر الهيّن. إذ يستلزم الحفاظ على الانتباه وحضور البديهة طيلة ليلة كاملة، وتحميس جمهور من المتمرّسين الذين لا يكتفون بالقليل. كما ينبغي له أن يعرف كيف يناوب في ترتيب الشعراء الثلاثين الذين سيتعاقبون على المنبر من غروب الشمس إلى طلوع الفجر، بين مجيد وأقلّ إجادة، بحيث يثير حساسية الجمهور، ويجنّبه الملل. كما يجب أن يكون قادراً على استقبال قصيدة تافهة بابتسامة بحيث ينساق الحاضرون وراء الإيقاع، فلا يلاحظون غثاثة المعنى، ولا يؤثر ذلك من ثمّة على أجواء المسابقة. ثمّ عليه أخيراً أن يقطّر الشهد، ويجمع الحاضرين في كفّ يده، فإذا ما استسلموا لطلاوة ما يسمعون، استحوذ فجأة على قلوبهم، وأخذ بشغافها.

وتتعالى قصائد الغزل مثيرة وساحرة، تصاحبها نغمات قيثارة صغيرة ونقرات الطبلة. ذلك أنّ الشعراء في دلهي عادة ما يفضلون إنشاد قصائدهم، بينما يؤثر شعراء لوكنو غناءها. فلِمَ يحرمون أنفسهم من هذا الطرب الإضافي، ومن متعة الجمع بين الأوزان والأنغام؟

كانت سلمى تهمّ بالانسحاب بذريعة أنّ وعكة أصابتها، لكنّ نظرات الراني المتيقظة جعلتها تُعرض.

ـ ابقي، فالشعر سيساعدك على الارتخاء.

وعادت فجلست من جديد وقد تملّكها الارتباك من كون الراني خمّنت نواياها. وشيئاً فشيئاً استسلمت لجمال هذه الأشعار التي هدأتها موسيقاها رغم أنّها لا تفهم معانيها جيّداً. وشعرت كما لو أنّ الأرض تتماوج تحت قدميها على إيقاعات القصائد مثل حيّة من ذهب وفضة. ورأت الناس من حولها يتلذّذون ويلينون ويعجبون. وبلغ الانتشاء ذروته لمّا صدحت امرأة ترتدي برقعاً أسود بصوتها الأجش، وراحت تردّد أغنية تمزّق عذوبتها الروح. إنّها شناز بيغوم، إحدى شاعرات فنّ الغزل الكبيرات. وهي لا تظهر أمام الجمهور إلا محجّبة، لأنّها تنتمي لأسرة محترمة، كما قيل لسلمى. على أنّها تملك صوتاً يهزّ النفوس، ويحرك بعنف الحسّ والخيال.

ومع تقدم الليل، نامت بعض العجائز اللواتي كنّ جالسات في الرواق. أمّا سلمى التي تخدّرت روحها، فلم تعد تسمع سوى همس جدول يترقرق في مجراه الحجري، فيصل خريره من خلال أوراق الشجر، وينتشر عبر طحالب أرض عارية، ثمّ ينحدر من جديد في شلالات بلورية.

ويتناهى إلى سمعها فجأة صوت واضح يوقظها من حلمها.

«أنا الذات الكليّة، المقيم في قلب كلّ الأشياء. أنا البداية والوسط والنهاية لكلّ ما هو موجود»[١].

توقّفت الموسيقى، واختفى رئيس المسابقة. واعتلى المنبر مراهقان يلبسان شرواني من الكتان الأبيض من دون حليّ، ووقفا متواجهين.

استوت سلمى في جلستها. فقد تعرّفت على الكلمات التي يردّدانها. إنّها لأحد المتصوفة، لكنّها لا تذكر أيّهم، فسألت المرأة الجالسة بجوارها. حدّقت فيها مستغربة وقالت:

---

(١) البهاغافاد غيتا: أنشودة المولى، تر. سليم حداد، نسخة إلكترونية، الفصل العاشر. http://alishraq.net/gita/intro3.htm (المترجم)

ـ كيف لا تعرفين هذا يا أميرة. إنّه البهاغافاد غيتا، كتاب الهندوس المقدّس!

الهندوس؟ مستحيل! فهي تعرف هذه الكلمات منذ بدأت تعي... ومالت قليلاً خلف المشربيات فرأت المراهق مستغرقاً وهو ما يزال ينثر الكلام الرباني:

ـ أنا صولجان حكام البشر، وأنا السياسة الحكيمة لمن ينشد النصر. أنا صمت السرّ المخبأ. أنا معرفة العارفين[١].

فيتابع رفيقه الجالس على نحو مستقيم وقد فتح يديه ووضعهما على ركبتيه:

ـ الحمد لله الذي لم يكن قبل وحدانيته قبلُ إلا والقبل هو، ولم يكن بعد فردانيَّته بَعْدُ إلا والبَعْد هو. كان ولا بَعْد معه ولا قبل، ولا فوق ولا تحت، ولا قُرْب ولا بُعْد، ولا كيف، ولا أين ولا حين، ولا أوان ولا وقت ولا زمان، ولا كون ولا مكان، وهو الآن كما كان.

ـ هو الواحد بلا وحدانية، وهو الفرد بلا فردانية. هو الأوّل بلا أوّلية وهو الآخِر بلا آخِرية، وهو الظاهر بلا ظاهرية وهو الباطن بلا باطنية... وجوده وحدانيته، تستَّر بوحدانيته بلا كيفية[٢].

وشعرت سلمى بقشعريرة تسري في كيانها... إنّه كلام ابن عربي في «الرسالة الوجودية»، وهي نص من أعظم نصوص الصوفيّة الإسلاميّة.

ويواصل المراهقان بتأنٍّ ترتيل الكلمات المقدّسة التي تتجاوب فيما بينها كالرجع من خلال القرون والقارات، مكرِّرة نفس البداهات ونفس الحقيقة.

«ـ وهناك آخرون يكرّمونني أيضاً، ويعملون من أجلي، ويضحّون

---

(١) نفسه، الفصل العاشر. (المترجم)

(٢) محيي الدين ابن عربي: الرسالة الوجودية (نسخة إلكترونية). (المترجم)

بذاتهم. هم يروني كواحد أحد وكتعدّدية متعدّدة. ألا فاعلم أنّ كل ما ترى في العالم من مجد وجمال، من قوة وبأس، هي سناء وطاقة صادرة عنّي، ناشئة من جزء ضئيل من قدرتي، ومن صولة وجودي العاتية[*]».

«فإن الذي تظن أنّه سواه... ولا يكون وجودُه معه وفيه، بل يرى وجودَه بحاله: ما كان قبل أن يكون، بلا فناء، ولا محو، ولا فناءِ فناء. فإنّ فناء الشيء بقدرة الله تعالى؛ وهذا محالٌ واضح صريح.

ولا تُشْرِكْ مع الله شيئاً لئلاّ تهونَ ـ فالشرك هُنْتَ»[١]

«إنّ هذا الكون الظاهر يأتي من كياني غير الظاهر. والكائنات جميعها تسكن فيّ، ولكنّي لا أسكن فيهم. إنّ الإنسان الذي يرى كياني في كلّ الكائنات، ويرى كلّ الكائنات في كياني، والذي يعتمد على وحدتي ويحبّني في كلّ الأحلام، مهما كانت حياته وأعماله، فهو يحيى ويعمل دائماً من خلال كياني».

«لأن الذي يظن أنَّـ<ــه> سوى الله ليس هو سوى الله. ولكنّك لا تعرف... فمتى عرفتَ نفسَك ارتفعتْ أنانيتُك، وعرفت أنّك لم تكن غير الله... ولهذا قال ـ صلى الله عليه وسلم ـ: «عرفت ربّي بربّي، مَن عرف نفسَه فقد عرف ربَّه».

«الحكماء اليوغيون الذين يطوّعون أنفسهم يرون الرب في أنفسهم[*]».

«ومتى يُكشف لك هذا السر، علمتَ أنك لست ما سوى الله، وعلمت أنّك كنت مقصوداً، وأنّك لا تحتاج إلى الفناء، وأنّك لم تزل

(*) لم أعثر على ترجمة هذه الجمل في النسخة العربية من البهاغافاد غيتا. (المترجم)

(١) جمعت المؤلفة في هذه الفقرات جملاً متناثرة في الكتاب، تفصل بينها صفحات أحياناً، وخلطت بين الشعر والنثر. (المترجم)

(*) لم أعثر على هذه الجمل في النسخة العربية من البهاغافاد غيتا. (المترجم)

ولا تزال... جميع صفاته صفاتك... ولهذا أجاز للواصل إلى الحقيقة أن يقول: «أنا الحق» وأن يقول: «سبحاني!».

«بالتعبّد يعرفني حقاً، يعرف من أنا وما هو مقامي. وعندما يعرفني حقاً يدخل إلى كياني. وباتّكاله عليّ في قيامه بشتى أنواع الأعمال، يصل بنعمتي إلى البيت الأبدي الذي لا يفنى»[1].

وتنهمر الدموع من عيني سلمى. لم تحفل بأن تُرى وهي تبكي. فهي تشعر بطمأنينة لم تحسّ بمثلها منذ أمد بعيد.

قضت اليوم بكامله وهي تتقلّب في كابوس من العنف والكراهية. ذلك أنّ قتل الأبرياء على يد الجماعات المتطرفة لم يثر فيها الشعور بالامتعاض وعدم الفهم فحسب، بل ـ ولأول مرّة ـ الرغبة في الانتقام: إذا لم يكن من القوّة والبأس بدّ لفرض احترام العدالة، فينبغي أن يكون المسلمون هم الأقوى، يقتلوا لكي لا يُقتلوا. هي تدرك أنّ هذا «الحلّ اليائس» لن يؤدي إلا إلى مزيد من المآسي، لكن ما العمل؟

لقد جاءت إلى هذه المسابقة الشعرية آملة أن يجري، في ظلّ هذه الظروف المأساويّة، تأخير قراءة الأشعار لكي يتّفق الرجال الحاضرون على استراتيجية تمكّن من الدفاع عن النفس على الأقلّ. لكن أملها خاب. فالمضيف رفض إثارة هذا الموضوع.

لكن ها هو يقدّم في آخر السهرة جوابه النيّر: فهاتان الديانتان اللتان يمزّق أتباعهما بعضهم بعضاً تتحدّثان عن نفس الحقيقة. فبغضّ النظر عن الطقوس والشكليات المضافة من أجل تعميتهما، وتحريض الناس على بعضهم بعضاً، فإنّهما تقودان معاً إلى نفس الخالق الذي أوجد الناس أجمعين، وتدعواننا إلى ألا ننسى، في غمرة جنوننا المدمّر، بأنّنا نحمل بداخلنا اللانهائي، ونجسّد الجمال والمعرفة اللامحدودة. صحيح أنّنا

---

(١) البهاغافاد غيتا، الفصل الثامن عشر، الآية: ٥٥/٥٦. (المترجم)

لسنا سوى ذرّة غبار، لكنّها ذرّة تحوي الكون بأسره، لأنّها جزء من الله. جزء؟ كلا! نحن الله، لأنّ اللانهائي لا يتجزّأ.

لا ينبغي نسيان هذا الأمر: كيف أفقد الأمل من الإنسان، وأنظر إلى الآخر على أنّه عدوّ يلزم سحقه، هذا الآخر الذي لا يعدو أن يكون أنا نفسي، مثلما أنّني هو.

بينما كانا عائدين إلى قصرهما، علّق أمير قائلاً:

- مسكين راجا مهدباد، لقد بدأ يصيبه الخرف! يا لها من فكرة حمقاء أن يختم المسابقة الشعرية بتعازيم دينيّة!

جفلت سلمى وقالت:

- يبدو أنّك لم تفهم كلامه.

- لم أفهم؟ ماذا؟

- لا شيء... ليس للأمر أهميّة.

شعر بالاستياء من تحفّظها ومن النبرة المتعالية التي تتحدّث بها أحياناً، فأشاح بوجهه. أمّا هي فانزوت في مقعدها. لم تشعر بالحزن ولا حتّى بالحنق من عدم فهم أمير للوضع. كلّ ما شعرت به هو الضجر. وحاولت أن تتذكّر ما تقوله الهاغافاد غيتا: «أتجلّى في جميع الكائنات، وفيها جميعاً ينبغي أن أُحَبّ».

وأغمضت عينيها وهي تتساءل: أتراها ستصل إلى هذا الحبّ يوماً؟

١٤

ـ ولكن، أين اختفت عائشة؟

منذ ما يزيد عن أسبوع لم تر سلمى الفتاة التي تحضر لها كلّ صباح الزهر الذي تزيّن به شعرها. فتاة جميلة في السابعة من العمر، وصلت قبل شهر مع والديها الفارّين من الأحداث الدامية التي عصفت بقريتهما في لاكبور. منذئذ وهم يعيشون في القصر، يساعد الأب أخاه في مطبخ القصر، بينما تشتغل الأمّ بأعمال الخياطة.

وقد سمعت سلمى خادمة تحكي بأنّ هذه المرأة الأبيّة منزعجة غاية الانزعاج من العيش عالة على غيرها، وتدفع من ثمّة زوجها إلى العودة إلى قريتهما بعد أن استعادت هدوءها. ذلك أنّ راجا كالاباغ انتقل شخصياً إلى عين المكان والتقى بمسؤولي المؤتمر الوطني المحلّيين، وحصل منهم على ضمانات مكّنت المسلمين من الرجوع إلى بيوتهم، وإعادة بناء ما أحرق منها. ليس لهم مكان آخر يأوون إليه. طوال قرون وعائلاتهم تزرع هذه الأرض. صحيح أنّها أرض الأمير، لكنّهم يعملون فيها، ويشعرون كما لو أنّها أرضهم.

ثمّ، أين سيكونون أكثر أماناً؟ فسواء كانوا في المدينة أو القرية، يمكن أن تندلع أعمال الشغب في كلّ لحظة، وحينئذ أيّ مصير ينتظرهم إن لم يكونوا تابعين لسيّد يحميهم؟ لا شيء أسوأ من أن يصيروا مشرّدين، غير تابعين لأحد، ولا حقّ لهم في طلب الحماية.

وأضافت الخادمة:

ـ خيراً فعلوا بمكوثهم هنا. لو لم يفعلوا لكان الأمر أشبه بأن أفكر أنا في مغادرة هذا القصر. لقد أكلت عائلتي ملح هذا البيت منذ خمسة أجيال، فكيف لي أن أفكّر في الرحيل؟... ولكن الأمّ قلقة على عائشة. فحين يصاب الرجال بالجنون، ينبغي توقّع أبشع الأمور...

كانت سلمى تستمع إلى هذا الحديث وهي شاردة. لم تفهم السبب الذي حمل هذه الأسرة على الرحيل. فهم في أحسن حال هنا. ألأن بيت أخ الزوج الواقع في الجناح المخصص للخدم، قرب المخزن، ضيّق، وأنّ سلفة الزوجة أوحت لها بأن البيت لا يتّسع لهم؟...

وقالت سلمى في نفسها: «ينبغي أن أنظر في هذا الأمر»، وعادت للاستغراق في قراءة نص بهاغافاد غيتا وكتابات سري أوروبيندو التي طلبتها غداة المسابقة الشعريّة. حبست نفسها لأيام، وحاولت، من خلال هذه اللغة المختلفة، أن تعود إلى النبع، وأن تعثر على نفس ذلك الحدس الذي شوّش ذهنها لمّا شاهدت رقص الدراويش في الأستانة.

لكنّها اليوم تعهّدت بزيارة مهاراني(*). ففي شهر أبريل/ نيسان، أيّ قبل حلول حرّ الصيف الخانق، تُقام الحفلات، وتتابع الاستقبالات التي يتعيّن عليها حضورها.

فأيّ غرارا سترتدي؟ ويلزمها إكليل ياسمين تضعه على شعرها، وتظهر به في بساطة مدهشة ومثيرة للإعجاب.

تسأل مرّة أخرى:

ـ أين هي عائشة إذن؟ أهي مريضة؟

ـ كلا يا هوزور، بالعكس!

وتعلن لها الخادمة، التي تساعدها على ارتداء ملابسها الخبر السارّ بنبرة هامسة جذلى، كما لو أنّها تفضي لها بسرّ:

(*) mahā rāni «الملكة الكبرى»، زوجة المهاراجا أو ملكة ولاية من الولايات.

ـ لقد زوّجوها.

ـ زوّجوها؟

ونظرت لها سلمى بشدوه. لا بدّ أنّها أساءت الفهم.

ـ بل أحسنوا تزويجها! زفّوها إلى رجل أرمل في نحو الأربعين من العمر. تاجر غني من أحمدأباد. سيعتني بها ويُحسن معاملتها.

ـ يعتني بها ويُحسن معاملتها؟

كادت سلمى تختنق. واسترسلت تقول:

ـ هذا إجرام! الطفلة بالكاد في السابعة من عمرها!

فقالت الخادمة مطمئنة:

ـ لا تقلقي يا هوزور. سيتركها تلعب بدميتها. من النادر أن يقع حمل في هذا النوع من الزيجات قبل بلوغ العروس العاشرة أو الحادية عشرة.

حدجتها سلمى بنظرة ممتعضة... فعائشة طفلة نحيلة، وليست من تلك الطفلات اللواتي تُنضجهنّ الشمس قبل الأوان، كما خُيّل للأوروبيين في استيهاماتهم حول الشرق...

ـ نادي على الأم فوراً.

أمطرت سلمى المرأة المزارعة باللوم، لكنّها لم تخفض بصرها، ومضت تنظر إليها في عناد. كانت عيناها تشيان بحقد أقرب إلى التحدّي.

وانتهى الأمر بسلمى أن قالت في غضب:

ـ ولكن، لِمَ لَمْ تلجئي إليّ، ولم تطلبي منّي المساعدة؟

ـ الراني صحيبة مشغولة بأمور أهمّ من أن يتجرّأ أناس مثلنا على إزعاجها.

كان الاتّهام واضحاً: استغرقت سلمى في أبحاثها الصوفية، وأخلّت بواجبها في حماية هؤلاء النساء والأطفال التابعين لها. فهي مسؤولة على مصير عائشة، لكنها تجاهلتها بسبب أنانيتها ولامبالاتها.

«الحكيم هو من لا يعنيه شيء، مهما أصابه من خير أو شرّ، فهو لا يكره ولا يبتهج»... ما رأيك أيّتها الصغيرة، عائشة، في حكمة البراهمة؟ وما رأي ملايين البؤساء الذين يسكنون هذه البلاد؟ وألقت سلمى نظرة حاقدة على الكتب المقدّسة المتناثرة فوق مكتبها.

وأمرت الخادمة قائلة:

ـ ضعي كلّ هذه الكتب في الخزنة!

ودّت لو تجهش بالبكاء من الغيظ. كلا، ما زالت لم تصل إلى الانفصال الأقصى الذي يؤدّي إلى الحلول في الذات الإلهية، ولم تبلغ «ذلك الصفاء الروحي الكبير العذب الذي لا تعود فيه شهوة ولا حزن»، واغتبطت لذلك! أيتجرّد المرء من كلّ المآسي في سبيل تحقيق خلاصه الفردي؟ بأيّ حقّ يا إلهي، بأيّ حقّ؟

وقامت تذرع الغرفة جيئة وذهابا وقد استبّد بها الانفعال: «سيقولون إنّني لا أفهم شيئاً، وإنّني ما زلت لم أبلغ المستوى الروحي المطلوب. أدرك حقّ الإدراك أنّ بوسع الإنسان أن يفهم كلّ شيء، لكن له الحق أيضاً في أن يرفض هذا الفهم».

ـ هيّا يا سيكاندر، اقض عليه يا بُنَيّ!

ـ هيّا يا جميلتي، يا جوهرتي، أذيقيه من بأس منقارك، بقوّة! بشدّة أكبر!

كان المروّضون يُحرّضون الطائرين المتعاركين بالصوت والإيماء بينما يتأجّج الحماس حولهما، ويرتفع الرهان. لم يسبق لسلمى أن رأت طبقة لوكنو الراقية، الفاترة عادة، في مثل هذا الجموح. فحول سمّانين يتعاركان فوق غطاء أبيض، بريشهما المنفوش، وأظافرهما المُشهرة، يتعالى الصياح، وتلتمع الأعين، وتنقبض الأيدي المثقلة بالخواتم، وتزمّ الشفاه في ترقّب قلق لتنفرج عن هتافات فرح أو سخط. ذلك أن مبالغ الرهان هائلة، وبعض هؤلاء الرجال لن يستطيعوا أداء ما عليهم من دين

هذا المساء، وسيتعيّن عليهم رهن حليّ زوجاتهم. ولكن لا يهمّ! ليس هذا وقت الانتباه إلى هذه التفاصيل!

الشيء الأهمّ الآن هي المعركة. فهذه الأرستقراطية التي هجرت الحرب منذ قرن، بعد أن ألجمتها القوات البريطانية ودجّنتها، وهؤلاء الأمراء الذين فترت هممهم، وانغمسوا جيلاً بعد جيل في حياة الشهوات، شعروا فجأة بدم أجدادهم المغول الأبطال يغلي في شرايينهم وهم يتابعون هذه الطيور المنتصبة على شوكاتها تتقاتل بعنف وشراسة. وها هي تنتصب الآن ببسالة، وتهجم على الخصم، وتنقض عليه غير عابئة بالخطر، تصوّب له ضربات جسورة قاتلة... عليها أن تنتصر أو تموت بشجاعة، فيكون المجد نصيبها في الحالتين معاً...

تطاير الدم على القماش الأبيض. انهال الطائر الغالب على غريمه الجريح المنهك بنقرات من منقاره الحادّ كالمدية، ساعياً إلى الإجهاز عليه.

وتتعالى صرخات الألم، وتتّسع البقع الحمراء... عائشة، أيّتها الصغيرة عائشة!

عضّت سلمى على شفتيها لكي لا تصرخ. فقد رأت ها هنا، على هذا القماش الأبيض، الطفلة وهي تنزف وتتخبّط جراء اعتداءات شنيعة، رأتها وهي تشرف على الموت.

كانت الإثارة حول سلمى، على المدرج المخصّص للنساء، قد بلغت أوجها. فالزوجات الوديعات يستمتعن بهذه المعارك مثلما يستمتع بها سادتهنّ. وبما أنهنّ لا يملكن مالاً، رحن يتراهنّ بالأسورة الذهبية.

سألتها مهاراني كارنبور:

ـ ما رأيك في هذه الألعاب يا أميرة؟ لوكنو تشتهر بمعارك السمّان، وهي أندر بكثير من معارك الديكة. السمّان طائر مسالم، ومن الصعب تحويله إلى طائر عدواني، إذ يتطلّب ذلك تدريبات طويلة، ومهارة كبيرة. ينبغي تجويعه تارة، ومداعبته أخرى إلى أن تصير هذه الطيور البدينة قويّة ومولعة بالقتال.

فسألت سلمى مستغربة:

ـ وما الداعي لذلك؟ ألا توجد حيوانات ميّالة إلى القتال بالغريزة؟

قطّبت المهاراني حاجبيها أمام هذا السؤال الغريب.

ـ عفواً يا أميرة، الفنّ لا يكمن في اتباع الطبيعة بل في تغييرها! فمعارك الفيلة التي كانت تشغف أسلافنا لم تكن سوى اختبارات للقوة الخالصة. والأمر نفسه بالنسبة للمعارك بين النمر والكركدن. ليس هناك أسهل من المواجهة بين أعداء بالفطرة! أمّا مجتمعنا، فلديه متع أرهف، تقوم على إثارة معارك بين الأصدقاء والحلفاء. فهذا أصعب وأكثر إثارة!

وصارت ابتسامتها هازئة بحيث تملّك سلمى شعور واضح بأنّ مضيفتها لم تعد تتحدّث عن السمان بل عن البشر. وتساءلت عمّا إذا كان هذا إنذاراً أم مجرّد وصف لتسليات يوميّة تشغل مجتمعاً يشعر بالسأم.

واسترسلت المهاراني تقول:

ـ سكان لوكنو لا يأخذون شيئاً بجدّ مثلماً يأخذون تسلياتهم. فنحن حضارة ضاربة في القدم، قمنا بكلّ شيء، ولم نعد نؤمن بشيء ذي بال. قد تأسفين على هذا في قرارة نفسك، إلا أنّني لا أوافقك الرأي. مزيّة هذا هو أنّه يجنّبنا أمراً تافهاً وممجوجاً: الصراع حول أفكار يمكن أن نهجرها بين عشيّة وضحاها. فنحن نقدّر جمال معركة من دون أن نبحث لها عن مبرّر: إنها لعبة مثل سائر اللعبات. أهو مظهر من مظاهر انحطاط أرستقراطية مرهَقة؟ البتة! هذه الفكرة ستجدينها لدى أفراد الشعب، لا سيما بين المعدمين. لكن بما أنّهم لا يملكون المال للمشاركة في معارك الديكة، فقد ابتدعوا معارك البيض.

ـ معارك البيض؟

ـ يضعون بيضتين، ويتراهنون، ثمّ يلقون الواحدة على الأخرى، وبطبيعة الحال، البيضة التي تتكسّر هي الخاسرة، والأموال التي وضعت في الرهان تذهب إلى من راهنوا على البيضة التي سلمت.

الإنجليز يعتبرونهم مجانين. حريّ بهم أن يأكلوا ذلك البيض عوض أن «يُهدروه». هم لا يفهمون شيئاً من شعبنا. ما أشنع أن يختزلوا الناس في مصارينهم بدعوى أنّهم فقراء! ليتركوهم يتسلّون ويحلمون على هواهم!

بعد معارك السمان، ها هم ينتقلون إلى استعراضات الحمام. وتتسابق النساء بفضول ليتفرّجن على آخر عجائب السنة. إنّ الناس في الشرق بكامله مولعون بهذه الطيور التي تجمع بين الذكاء واللطف والوفاء. وتتذكّر سلمى تلك الأصناف العديدة والنادرة التي كانت تربّى نزولاً عند رغبة السلطان في أقفاص ضخمة بقصر يلدز وطولمة باغجة. لكن لم يسبق لها أن رأت حماماً أروع من هذا الذي تكتشفه الآن: بعضه يملك جناحاً أخضر وجناحاً ورديّاً زاهياً، بينما تبدو على أعناق حمام آخر أشكال زهرية ذات ألوان رائقة.

قالت المهاراني موضّحة:

ـ لا تظنّي أنّ تلك الألوان مصبوغة. سيكون ذلك عملاً تافهاً لا يدوم. لإنتاج هذه العجائب، يقوم رجال متخصّصون بنزع الريش واحدة بعد أخرى، ويثبتون بدله ريشاً ملوناً يأخذونه من طيور أخرى، أو يتركون الريش لأيام في حمامات صبغة نباتية. وبعد الانتهاء من تزيين الحمام، يحتفظ بهذا المظهر لسنوات. وهو يباع بأثمنة باهظة.

وتقدّم خادمان يحملان قفصاً ذهبياً كبيراً أخرجا منه بحذر شديد حيواناً غريباً، فتعالت حول سلمى هتافات الإعجاب. حلّق الطائر ـ أو الطائران؟ ـ وحطّ على كتف صاحبه، راجا ديرغبور العجوز، ثمّ راح يهدل لمدّة طويلة. عندئذ تنبّهت سلمى إلى أنّ هذا المخلوق حمامة ذات رأسين.

فهتفت جارتها متحمّسة:

ـ أليس هذا مدهشاً؟ أكان لديكم في البلاط العثماني حمامٌ برأسين؟

وأخرج الخادمان من القفص ستة أفراد من هذه المخلوقات الشوهاء الثمينة. ومضت الأيدي تتناقلها بلطف وتتحسّسها بانتشاء كبير:

ـ يا لها من مهارة! لم يصل أحد إلى إنتاج مثل هذه المخلوقات منذ عهد ناصر الدين حيدر. الواقع أن عجائب كهذه لا يمكن العثور عليها إلا في لوكنو...

وتدرك سلمى التي اعتقدت في البداية أنها أمام إحدى غرابات الطبيعة، بشدوه، أنّ هذا الحمام ذا الرأسين من خلق الإنسان. وتشرح لها جارتها بأنّ العملية بسيطة نظرياً.

ـ يكفي أخذ فرخي حمام، وبتر الجناح الأيمن لأحدهما، والأيسر للآخر، وخياطة الطائرين معاً بصلابة. على أنّ الأمر يصبح صعباً بعد ذلك، إذ لا يعيش من هذه الطيور إلا عدد قليل. تنبغي إحاطتها بعناية كبيرة. وعندما يلتئم الجرح، وتكبر الحمامتان، يعلمونهما الطيران، وهو ما يتطلب الكثير من الصبر والمهارة.

فهتفت سلمى بسخط:

ـ يا للقسوة!

حدّقت النساء في سلمى مستغربات. ومالت إحداهنّ، وهي هندوسية، نحوها وقالت:

ـ هذا أفضل من ذبح الحيوانات لأكلها! أتعتقدين ذلك حقاً يا صاحبة السمو؟

ماذا عساها تجيب؟ بأنّ حمل الحيوانات على القتال من أجل متعة القصر، وبتر أعضائها من أجل متعة العيون غير قتلها من أجل أكلها... هي لا تدري، وفضّلت لزوم الصمت.

وكما لو كانت في حلم، سمعت النساء يتحدّثن عن الأثمنة التي تباع بها هذه الكائنات العجيبة: فقد عرض نواب داليور ١٠٠٠٠ روبية مقابل إحداها، لكن عبثاً! ١٠٠٠٠ روبية... «كم من فتاة مثلك يمكن إنقاذها يا عائشة بثمن حمامة واحدة من هذه الحمائم؟»، ولكي تُسرّي عنها، اقتربت منها مهاراني كارنبور، وقالت:

ـ هل تعلمين أنّ باهادور شاه، آخر سلاطين المغول في دلهي، كان يملك آلاف الحمام، وأنّه كلّما خرج، كان ذلك الحمام يطير فوق رأسه في صفوف متراصّة لكي تحميه من أشعّة الشمس الحارّة؟ بينما كان السلطان المبذّر واجد علي شاه، آخر ملوك أوده، يملك أكثر من أربع وعشرين ألف حمامة، منها نوع نادر، له ريش من الحرير، اضطر إلى التخلّي عنها بعد أن خلعه البريطانيون، وفقد كلّ ثروته. وقد عاش أبناؤه وأحفاده في الفقر. هل ترين ذاك السيّد العجوز الذي يرتدي لباساً تقليدياً، فستاناً من البروكار المثنى؟ إنّه حفيده، الأمير شاهاد، وهو رجل أبيّ. رفض أن يتعلّم أبناؤه الإنجليزية مخافة أن تضطرّهم الحاجة يوماً إلى العمل لدى المغتصب. وهكذا، عوض أن يحصلوا على وظائف محترمة في الإدارة، ها هم يُرهقون أعينهم في تطريز ألبسة الساري مقابل مبلغ زهيد لا يتعدّى ثلاث روبيات في اليوم... لا يكاد يكفيهم لإطعام أبنائهم، ولا يكفي، بأيّ حال من الأحوال، لعلاج الأميرة أمّهم التي توشك على الموت بسبب السل.

فقالت سلمى مستغربة وقد رأت الحجرة الزرقاء الضخمة التي تكاد تغطي بِنصره:

ـ ولماذا لا يبيع خاتم الفيروز في إصبعه؟

ـ لن يبيعه أبداً! فهذا الخاتم هو إيراده الأخير الذي يسمح له بأن يعيش.

وعبرت خيال سلمى صورة الأمير وهو يقتات على مسحوق الفيروز مثلما كان الناس في الماضي يأكلون الجواهر الناعمة المذابة في الخل لتقوية رجولتهم.

واسترسلت المهاراني تقول:

ـ يعتقد الشيعة، وكذا سكان التيبت، أنّ حجر الفيروز يجلب السعد. لذلك يلبس أمراؤنا أجمله. وقد جعلنا شغفنا باللعب الذي حدثتك عنه قبل قليل نبتدع معارك الفيروز: فمن يعرض أجمل فيروزة في مجمع من

المجامع، يستولي على الأحجار الأخرى. وحين يريد أصدقاء الأمير شاهاد مساعدته أحياناً، من دون أن يحرجوه، يزورورنه وقد لبسوا في أصابعهم أحجاراً عادية من الفيروز بحيث يخسرونها عن طيب خاطر أمام حجرته الضخمة، فيعينونه بذلك على أداء أكثر ديونه إلحاحاً.

يا له من تصوّر غريب للشرف! يترك زوجته تموت من دون علاج، ويحكم على أبنائه بحياة بئيسة، وعوض أن يساعدهم على التكيّف مع الواقع الجديد، يحرمهم من المستقبل... لم تعد سلمى تدري أيّ الموقفين الصائب: مرونة الراجوات القصوى وخضوعهم للمحتل البريطاني أم تصلّب الأمير العجوز العنيد. ألا يوجد موقف وسط؟ من آمنوا بهذا الموقف ضاعوا في متاهة من الحلول الوسطى جرّهم إليها اتصالهم بالقوة الاستعمارية، فصاروا موضع ارتياب من الهنود والبريطانيين على السواء.

أليس هذا هو الخطر الذي يتهدّد أمير، هو من رصد، على نحو منهجي، نقط قوة الخصم ونقط ضعفه، وتملّك بصبر أسلحته بأمل الانتصار عليه يوماً؟ أمير، الإنجليزي أكثر من الإنجليز في الظاهر، المقتنع بأنّ محاربتهم ينبغي أن تتمّ على أرضهم. أمير من سيحضر في صباح الغد، إلى جانب أمراء أوده، الحفل الكبير الذي سينظمه الحاكم سير ويغ، وسيوزع فيه الألقاب والأوسمة على خدّام العرش الأوفياء...

تحت السرادق الأكبر ذي الألوان الزاهية المنصوبة في حديقة إقامة الحاكم، جلس رجال مميّزون، يرتدون الشرواني والبروكار، يتبادلون أحاديث هامسة بانتظار حضور سعادته. وفجأة علا صوت الطبول والصنوج، فاشرأبّت الأعناق. إنّها الفرقة الموسيقية الحمراء الذهبية تشرع في عزف النشيد الوطني البريطاني: ليحفظ الله الملك. كانت الساعة تشير إلى التاسعة والنصف.

وظهر الحاكم في الوقت المحدّد تماماً، كما ينبغي لممثّل صاحب الجلالة، شاحباً في بزته الرسميّة السوداء التي تلمع عليها أوسمته، ترافقه

الليدي فيوليت وقد ارتدت القبعة والقفازين، يتبعهما حشد من المساعدين والموظفين.

ووقف جميع الحاضرين بينما كان السير هاري وزوجته يجلسان على مهل تحت القبة المذهّبة، وهي القبّة نفسها التي كان يجلس تحتها ملوك أوده قبل قرن، في ذلك العصر الخرافي الذي صار يبدو بعيداً، قبل أن تخضع الهند لوصاية البيض.

وأعلن أخيراً عن افتتاح الحفل.

«ومضى رئيس التشريفات يعلن بصوت عالٍ عن الألقاب الممنوحة مقابل الخدمات الصالحة الشاهدة على الوفاء والإخلاص: «خان باهادور... راي باهادور... ساردر صاحب...»، وبدأ المنتخبون يتقدّمون على البساط الأحمر، مزهوين بأهميّتهم، وينحنون باحترام أمام العرش حيث سيمنحهم ممثل الملك بكرم شهادة أو وساماً نظير عمر من التفاني في خدمة أنبل قضية، أيّ التحالف المتين بين إمبراطورية الهند والعرش البريطاني.

سيُسلّم هذه السنة ما يناهز عشرين لقباً، بدءاً من أكثرها تواضعاً، أيّ «الخان صاحب»، وصولاً إلى أعلاها مقاماً وهو «الفارس صاحب نجمة الهند». أمّا بعض الراجوات، فسيشرّفون بلقب مهارادجا الذي يعني «الأمير الأعظم». وكان الحاضرون يستقبلون كلّ لقب بتصفيقات متكتّمة، يبتسمون بعضهم لبعض، ويتبادلون التهاني.

هل يمكن أن يتخيّل المرء أنّه أثناء إقامة حفل الولاء هذا، كانت الحشود ثائرة في الهند بأسرها بزعامة ضدّ المحتل بزعامة المهاتما غاندي، والجنود البريطانيون يطلقون النار على المتظاهرين، وعشرات الملايين من المسلمين، الملتفّين حول زعيمهم محمد علي جناح، ينضمّون إلى الهندوس للمطالبة بجلاء الأجانب والاستقلال؟

الاستقلال؟ مضت سنوات والبلد بأكمله يهتزّ لهذه الكلمة التي لم تنجح الاعتقالات ولا الرصاص في خنقها، والتي كان الدم المسفوك

يعزّزها يوماً بعد يوم. الاستقلال! كلمة سحرية بالنسبة لشعب مقهور ينتظره مستقبل حافل بالوعود...

وهنا، على هذا العشب المقصوص بعناية، تجلس النخب باحترام بين كتل البيغونيا ممتنّة مطيعة!... حتّى إنّ المرء يخال نفسه في حلم. أهو جبن أم قلة وعي؟ وتملّكت سلمى فجأة رغبة غاضبة في شتم هذه القرود المروّضة التي لا تفكّر إلا في تقليد سادتها. «ما أشدّ ما سيحتقرنا الإنجليز!»، لماذا قبلت حضور هذه المسخرة؟ لماذا ألحّ عليها أمير؟».

وراحت تجول بعينيها في الجانب الآخر من الخيمة بحثاً عنه. كان يتحدّث إلى جماعة صغيرة من أصدقائه. هي تعرف أنّهم أمراء يساندون ماديّاً، مثله، حركة الاستقلال. لماذا هذه الازدواجية؟ لم يسبق لهم أبداً أن قبلوا وساماً من العرش البريطاني، لكنّهم لا يقلون حرصاً من غيرهم على حسن العلاقات مع المحتلّ. أيفعلون ذلك بنيّة مغافلته وطعنه من الخلف؟ هذا ما يزعمه أمير الذي يتعلّل بأنّ الإنجليز أقوى من أن يُطردوا بالقوة.

قالت بإلحاح قبل أن يتوجّها إلى الحفل:

ـ ولكن، هل ثمّة من داع لحضور هذه الحفلات المهينة؟

ابتسم أمير وقال:

ـ إنّ منظر تخاذل بعضنا وغطرسة أسيادنا أمر مفيد جدّاً. صدّقيني: فهو يغذّي الكراهيّة.

ورأت مفاصل أصابعه تبيضّ وهي تضغط على المقبض الزمرديّ للسيف الذي يتزيّن به في هذه المناسبات.

وبعد حفل الولاء الرسمي هذا، نظم الحاكم مساء حفلاً راقصاً استدعى إليه كلّ شخصيات الأقاليم الذين يناهز عددهم الألفين، بين إنجليز وهنود.

قضت سلمى فترة بعد الظهر كلّها تتزيّن بحماس فتاة ما تزال في بداية اكتشاف العالم. إنّه أوّل حفل راقص تحضره منذ وصولها إلى الهند

قبل ما يزيد عن السنة. وقد قررت أن تكون الأجمل حتى تجعل أولئك الإنجليزيات اللواتي يتعمدّن تجاهلها يمُتْن من الغيرة.

اختارت بعناية سارياً أزرق غامقاً، منبّتاً بقطع صغيرة من الماس، وحقيبة يد بلون قاتم تُبرز بياض بشرتها. وحول عنقها ومعصميها، وفي ثنايا شعرها، تتلألأ أحجار الزمرّد.

وقف أمير عند عتبة الباب: لم يسبق له أن رآها في مثل هذا الجمال. وراح يتأمّل بزهو هذه الرشاقة وهذا النبل وهذا الألق الذي لا يُضاهى. ستغبطه المدينة كلّها هذا المساء. ما من أمير، وما من أحد من هؤلاء الإنجليز يستطيع أن يعتزّ بامتلاك جوهرة كهذه.

يظهر طيف قصر الحاكم الأبيض في أقصى ممرّ طويل محفوف بالنخيل. وعند المدخل ذي الأضواء الساطعة يقدّم الحرس، بوجوههم الجامدة تحت عمائم سوداء وحمراء مزيّنة بشعار التاج البريطاني، التحية العسكرية. وفي أعلى السلم يستقبل كاتبا سعادة الحاكم الضيوف بمعطفيهما الطويلين، وطوقيهما الصلبين رغم حرارة هذا المساء الربيعي. ولن يظهر السير هاري والليدي فيوليت إلا بعد أن يحضر الجميع. ولا يكاد المدعوون يصلون حتّى يهرع إليهم عشرات الخدم، يرافقونهم إلى القاعة الشرفيّة من خلال ممرّ ذي أعمدة تعلوها تيجان ورديّة فاتحة.

إنّها بناء عجيب من الفيروز والذهب، قائم على أقواس دقيقة تزيّنها أكاليل جبسيّة. وفي الأعلى، على ارتفاع يتجاوز عشرة أمتار، ينفتح بهو دائري بين ألواح صغيرة تعلوها قباب منقوشة بإتقان كبير.

يبدو المكان شاسعاً رغم الحشد المزدحم فيه. حشد يختلط فيه الشرواني بالمعاطف الطويلة وبزّات الجيش الهندي وسترات ضباط المشاة القرمزيّة، وألبسة ضباط الخيالة الزرقاء المطرّزة بالفضة. أمّا من يلبسن الساري فكنّ قليلات، وهو ما توقّعته سلمى، لأنّ قلّة قليلة من الهنود يقبلون ظهور زوجاتهم أمام الغرباء، بينما كانت كثير من النساء

يرتدين فساتين السهرة بألوان مدهشة أحياناً. وقالت في نفسها: «شيء غريب أن تستعير الإنجليزيات من هذا البلد أعنف ألوانه: الأصفر الفاقع والوردي الزاهي والبنفسجي الساطع. أتراهنّ يسعين بهذا إلى إخفاء قرفهنّ الفطري؟ ولكن ما هذه الأفكار الغريبة؟ أوليس كلّ ما هو إنجليزي هو الأعظم والأروع؟ لا بدّ أنّ ما يبدو لنا، نحن البشر العاديين، تافهاً، يرون فيه هم أوج التميّز. وهذا هو مصدر قوّتهم: مهما يكن، فهم مقتنعون بأنّهم الأفضل».

ـ أميرة!

لكزّها أمير بمرفقه منبّهاً. ذلك أنّها كانت شاردة في أفكارها ولم تنتبه لوصول الحاكم وزوجته. ها هما الآن واقفين على المنصّة الشرفية، بينما تعزف الفرقة الموسيقية النشيد الوطني. إنّ التتويج، وهو الجزء الأهم من الحفل، على وشك أن يبدأ.

ثمّ علا صوت المنادي الرتيب بالأسماء والألقاب الساميّة، فيتقدّم الأزواج، الواحد تلو الآخر، بين صفين من الفضوليين. ويحظى بعضهم بكلمة ثناء أو ابتسامة على مرأى من الجميع، وهو ما سيمثل لاحقاً موضوع تعليقات مطوّلة.

وتقول سلمى في نفسها وقد بدا على وجهها الاشمئزاز: «هذا تماماً ما كان يقع في البلاط العثماني، مع مسحة ريفية بالطبع».

ـ صاحبا السمو راجا وراني بادالبور.

وبينما كان يعبران القاعة ببطء، عمّ الصمت. ذلك أنّ جمالهما شدّ الانتباه، وتركّزت عليهما الأنظار وقد تملّكتها الدهشة ممّا يظهر عليهما من جلال ورفعة.

وحين وقفا أمام المنصة وابتسما للحاكم برشاقة هادئة، شعر جمهور الحاضرين فجأة بأنّهما هما الملكان المضيفان، وأنّ السير هاري وزوجته مجرّد رعايا. وخمّن أمير موضوع الهمهمات. لو كان بوسعه أن ينتصب

أكثر لفعل. فهو الإمبراطور في هذه اللحظة، وسلطانته تاج انضاف إلى ألقابه وثروته.

على أنّ الحاكم سرعان ما تنبّه من دهشته، فبادر أمير:

ـ تصوّر يا عزيزي أمير أنّني قلت لليدي فيوليت إنّك وزوجتك لستما جميلين فحسب، بل إنّ الجمال تجسد فيكما!

فامتقع الراجا، لأنّ التلميح إلى جسد الزوجة يشكل شتيمة خطيرة بالنسبة للرجل الهندي، وهو أمر لا يجهله السير هاري، لكنّه تعمّد الانتقام من غطرستهما مستعملاً مكره البريطاني.

وبسرعة ألقى أمير نظرة حواليه: لم يسمع هذا الكلام أحد باستثناء مساعد الحاكم. تنفّس الصعداء، لكنّه آل على نفسه أن يستفيد من هذا الدرس: لن ترافقه زوجته أبداً عند هؤلاء الهمج.

تهيّأ له في تلك الأثناء أنّ كلّ رجل من الرجال الحاضرين ينزع عنها ملابسها بعينيه، فشدّ قبضته: يرغب في أن يراها جميع الناس، لكنّه لا يطيق أن يدقّقوا فيها النظر. ويعتريه غضب شديد وهو يلاحظ مشيتها المتهادية وجسدها الباذخ الذي تبرز تقاطيعه من خلال الساري. أين تظنّ نفسها؟ ينبغي أن يطلب منها الاحتشام. وباغت نفسه فجأة يتمنّى لو كانت ذميمة.

وما إن انتهى حفل توزيع الألقاب والأوسمة حتّى شرعت الفرقة في عزف موسيقى راقصة لستراوس. انحنى الحاكم أمام الليدي فيوليت، وافتتح الرقص، فتبعه بعض الأزواج. أمّا أمير فالتحق بأصدقائه، وترك سلمى بمفردها ذاهلة إلى جانب بعض النسوة الثريّات. ودّت لو أنّه دعاها لتراقصه، لكنّ ذلك لم يخطر له على بال. فمنذ أيام اللهو التي قضاها في أكسفورد، لم يعد يهتمّ بالرقص. ثمّ إن الرجال هنا لا يرضون أبداً بأن يتفرّج الناس على زوجاتهم وهنّ يرقصن؛ لأنّ الرقص لا يناسب إلا المخنّثين والعاهرات.

مضت سلمى تنظر بغيرة إلى الأزواج يرقصون، وإلى النساء يضحكن منتشيات بالأنغام، مستسلمات لأذرع مراقصيهنّ: البدينات والنحيلات والذميمات، كل أولئك اللواتي لا يطمعن في العثور على من يراقصهنّ في بلدانهن، يصرن في الهند أشياء نادرة من أعزّ ما يطلب. وهنّ لا يفوّتن فرصة للاستمتاع بالرقص.

تتابعهنّ سلمى بعينيها وتقول في نفسها: يا للغبن! لقد حُكم عليها بأن تبقى مع العجائز والمريضات. فيم ينفعها أن تكون الأجمل؟ كلّ الحاضرين يتسلّون ويستمتعون، أمّا هي فلا يعبأ بها أحد باستثناء بعض السافلات اللواتي يحدجنها، وهنّ متشبثات بمراقصيهن، بنظرات هازئة، أو يتظاهرن بالدهشة وهنّ يتهاوين على أحد المقاعد من التعب، ويقلن لها:

ـ ألا ترقصين! لماذا؟

تظاهرت باللامبالاة، لكنّ حالها لم يكن ليخفى على أحد. وألقت باللائمة على أمير الذي تركها لوحدها عرضة لهذه النظرات الفتاكة، والعبارات الحاقدة. لقد اختفى. لا شك في أنّه مستغرق في الحديث مع أصدقائه في المكان المخصّص للتدخين. يستطيع أن يقضي الليل بكامله هناك، ويتركها في مكانها تنتظر وتواجه تهكّم المتهكّمين.

ماذا لو انصرفت من الحفل؟ ستكون فضيحة؟ وبعد؟ أليست اللامبالاة التي يعاملها بها الراجا فضيحة في حدّ ذاتها؟ هي تعلم أنّ هذا هو ما يجري به العرف في الهند، أيّ أنّ الزوج لا ينبغي أن يظهر مع زوجته أمام الملأ. لكن على أمير أن يتوقّف عن اللعب على حبلين: فهو إذا كان يصطحبها معه إلى بيوت الإنجليز، فعليه أن يتصرّف كرجل مهذّب! فتصرّفه هذا يدل بالنسبة لهؤلاء الأجانب على اللامبالاة، بل على الاحتقار.

ـ هلا شرّفتني برقصة يا سيّدتي؟

انخلع قلب سلمى وهي ترى شابّاً شديد الشقرة يبتسم لها. حين لاحظ دهشتها، ارتبك.

ـ اعذري جسارتي... لم أقدّم لك نفسي. اسمي روي ليندن، وصلت إلى الهند قبل فترة قصيرة، وسأتسلّم وظيفتي مع سعادته ابتداء من الغد. أنا لا أعرف أحداً هنا، لهذا تساءلت ما إذا كنت تقبلين...

وبينما همّت بأن لتعيده إلى مكانه، بدا لها ذلك مخجلاً... وألفت نفسها تبتسم.

ـ أنا لا أرقص يا سير.

ـ حقّاً؟

وتورّد مثل طفل تعرّض للتوبيخ. لم يقل لها إنّه كان يراقبها منذ هنيهة، وأنّه لاحظ تلهّفها للرقص. كم كان غبيّاً لما ظنّ أنّ هذه المرأة الفاتنة... غمغم ببعض عبارات الاعتذار، وبينما همّ بالانصراف، أمسكت به.

ـ تفضّل بالجلوس لحظة.

لم تصدّق السيدات حولها آذانهنّ. يا لها من خليعة هذه الراني الشابّة!

وأخذن يتبادلن نظرات منتشية، ويترقّبن الفضيحة.

وتساءلت سلمى في سرّها وهي تُنعم النظر في هذا الشاب: «كيف سيكون ردّ فعل أمير إن هي قبلت؟ من الأكيد سيجعل من الأمر مأساة!K» وعادت بها الذاكرة إلى لبنان، إلى تلك السهرة التي قضتها على ظهر سفينة جين دارك. وتذكّرت نوبة الغضب التي تملّكت وليد لمّا راقصت ضابطاً فرنسياً. لكن مهما يكن، فهي لا تستهجن فكرة المأساة هذه. ستخضّ قليلاً هذه الحياة الرتيبة التي بدأت تعتاد عليها.

انتصبت فجأة وقالت للشاب:

ـ هيّا نرقص!

لم يكن ذلك بدافع لهفتها للرقص، بل خوفاً من أن تترك نفسها تُبتلع، واستجابةً لغريزة البقاء.

أتُراها قبلت لأنّ روي ليندن راقصٌ استثنائي أم لأنّ هذه اللحظة

المسروقة هي الاستثنائية؟ لا يهمّ! استسلمت بعينين نصف مغمضتين للزوبعة التي عصفت بها وجعلتها تدور بسرعة مطّردة وقد دوّختها الموسيقى والأضواء والزخارف الحلزونية التي تتهادى في السماء الفيروزية.

لماذا توقّفت الفرقة الموسيقية عن العزف فجأة؟ ترنّحت لهذا التوقّف المباغت، فتشبّثت يدها بذراع مراقصها الذي تملّص منها عوض أن يسندها. اندهشت وفتحت عينيها، فإذا بأمير أمامهما وقد امتقع لونه.

دفع الشاب ليبعده عنها من دون أن ينظر إليه. هذه أمور تسوّى بين الرجال.

ـ سنسوي هذه القضية غداً صباحا أيّها السيد. أترك لك أمر اختيار السلاح الذي يروقك.

مضى الشاب الإنجليزي يحملق مذهولاً في هذا الرجل الذي يتحدّث إليه بهذه النبرة المتوعّدة. أهو مجنون؟ أين التقاه؟ وتجمّع حولهما الفضوليون، لكن لا أحد تجرّأ على التدخّل. فهم يدركون خطورة الموقف، ويتعاطفون مع الراجا. ينبغي احترام الأصول: هذا دفاع عن شرفه، بل عن شرفهم جميعاً.

ـ عزيزي الراجا...

لفت صوت الحاكم كلّ الأنظار. ما كاد يعلم بالأمر حتّى قدر ضرورة تدخّله شخصياً. لا يمكن أن يترك هذا الحادث التافه ـ المتعلّق بالصراع حول النساء مثلما هي العادة ـ يتحوّل إلى اقتتال. ورأى أنّه سيواجه حرجاً في أن يشرح لأب هذا الشاب الإنجليزي أنّ ابنه قضى في مبارزة بسبب دعوة امرأة متزوّجة لمراقصته. ذلك أنّه لم يكن يشكّ قيد أنملة في انتصار الراجا. فهو معروف ببراعته في الرماية، ومهارته في المبارزة بالسيف.

ثمّ حتى لو شاء القدر أن يقتل الراجا، فسيكون ذلك أدهى بالنظر إلى المناخ السياسي القائم. سيكون مقتله قنبلة حقيقيّة ستفاقم حركة التحرر،

وتحوّل الراجا إلى شهيد اغتالته السلطات الاستعمارية لا لشيء إلا لأنه سعى للدفاع عن شرف زوجته. سيصير الزوجان رمزاً لعفة كلّ الزوجات الهنديات وشرف كلّ الأزواج. وهو ما من شأنه أن يشعل فتيل الثورة!

قضى الحاكم ما يناهز الساعة يحاول تهدئة الراجا. بكلّ حنكته الدبلوماسية. ذلك أنّ البرهنة على حسن نوايا الشاب من دون أن يتّهم الراني يتطلّب موهبة منقطعة النظير. إنّ براءة روي ليندن جليّة. فكما شرح هو نفسه بخجل، رأى امرأة وحيدة يظهر عليها الضجر، ولم يخطر بباله أبداً أنّها... وأمعن في الاعتذار. وعوض أن يهدئ ذلك أمير، ضاعف من غضبه، إذ لا بدّ من وجود مذنب: فإذا كان هذا الرجل صادقاً فيما يقول، فعليه أن يسلّم بأنّ الراني هي وحدها المسؤولة، وأنّها تعمّدت الدوس على كرامته أمام مئات الحاضرين! ليس أمامه إلا خيار واحد: قتل هذا الإنجليزي.

وبدأ صبر السير هاري ينفد: إذا كان الراجا مصرّاً على غسل العار بالدم، فسيكون من المنطقي والأنسب أن يقتل زوجته! واكتفى بأنّ علّق بأنّ الواقعة حدثت بين أناس متحضّرين، وإلا لكانت انتهت بمأساة. الراني ليست مخطئة بطبيعة الحال، لأنّ تربيتها الغربيّة لم تهيّئها للعيش في الهند. لكن ينبغي أن تشرح لها بعض الأمور...

وكما لو أنّ هذا الكلام نكأ جرح أمير، انتفض وقال:

ـ هذا يكفي يا صاحب السعادة. هذا أمر يخصّني أنا وحدي. كلّ شيء سيكون على ما يرام: سأقضي على المشكلة من جذورها.

جفل السير هاري: «أتراه يفكر في قتلها؟ مهما يكن، فهذا ليس شأني! ما يعنيني هو أن يظلّ الوضع هادئاً، أمّا ما عدا ذلك، فلا شأن لي به!».

ـ ابتداء من اليوم، يمنع عليك مغادرة غرفتك. سيأتونك بالطعام. يمنع عليك أيضاً التنزّه في حديقة القصر واستقبال صديقاتك. ثمّ عليك أن تتشدّدي في ارتداء البرقع.

قالت الراني عزيزة، التي كانت واقفة بجانب أخيها بنبرة شامتة إنّها توقعت هذا، وكانت واثقة بأنّ هذا الأمر سينتهي نهاية سيئة.

واسترسل أمير بصوت متعب:

ـ تعاملت معك بطيبوبة مبالغ فيها. وضعت فيك ثقتي، فخنتني وأهنتني. وبما أنّك عاجزة عن التصرّف باحترام، سأضطرّ إلى إجبارك على ذلك. لن أسمح لزوجتي بأن تدوس كرامتي.

غادرا الغرفة وأغلقا الباب، وسمعتهما سلمى يديران المفتاح.

أصارت سجينة! كيف يجرؤان على هذا؟ ستلجأ إلى العدالة، وإلى نائب الملك نفسه! وإذا لم يكن هذا كافياً، ستعرف أمّها في بيروت كيف تُخطر الرأي العام!

وتمثّلت لها صورة تلك المرأة العجوز المشرفة على الجنون التي صاحت بها: «اهربي بسرعة قبل فوات الأوان!» وتملّكها الرعب، فجرت نحو الباب وراحت تضرب عليها بقوة، لكن عبثاً.

لأوّل مرّة شعرت بالخوف. من يستطيع مساعدتها؟ لن يخطر على بال أحد أنّها محبوسة. سيجد الراجا والراني عزيزة ألف مبرّر لتسويغ غيابها عن التجمعات العامة. ولن يستغرب أحد ذلك. فالنساء قلّما يخرجن في الهند. وحتّى لو طرحوا بعض الأسئلة في البداية، فمن سيفكّر في التحقيق فيما يقع داخل القصر؟ وسرعان ما سيطويها النسيان مثلما طوى أمّ راني نامبور. وسرت في جسد سلمى قشعريرة لهذه الفكرة. لن تقبل بهذا الوضع أبداً! تموت ولا تتركهم يدفنونها حيّة.

١٥

ـ لا أستطيع يا هوزور، الراجا سيقتلني.

تراجعت الخادمة وهي تهزّ رأسها ويداها خلف ظهرها: كلا، لن تأخذ منها القلادة الذهبية، ولن تحمل الرسالة. سيخمّن السيّد من ساعدها، وسينتقم. هو من النفوذ بحيث يستطيع الاطلاع على كلّ شيء.

ـ كلا يا هوزور، هذا مستحيل...

تركت سلمى القلادة تسقط من يدها من شدّة التعب. فقد مضت ثلاثة أيّام وهي محبوسة، وبدأت تفقد الأمل مع أنّها قرأت في عيني هذه الخادمة الصغيرة التي التحقت بالقصر مؤخّراً شيئاً من التعاطف. لكنّ الخوف أقوى. بأيّ عقاب رهيب هدّدهنّ أمير حتّى إنّ الذهب فقد إغواءه؟

أهو أمير أم الراني عزيزة؟ هي من اغتنمت بلا شكّ غضب أخيها، وأخذت بزمام الأمور، مبتهجة بفرصة الانتقام التي واتتها، ومنتشية باستعادة سلطانها من جديد. ما كان ليخطر على بال أمير أبداً أن يحرمها من خادماتها اللواتي اعتادت عليهنّ، ولا أن يكون من السخف بحيث يضع أمام باب الغرفة هذا الخصي الطويل الأسود بسيفه الهائل مثل غول كُلّف بإرهاب فتاة صغيرة في مسرحية هزليّة.

منذ تلك الليلة المنحوسة، لم تر زوجها. نقل أغراضه الشخصيّة، وعاد إلى الجناح الذي كان يشغله قبل الزواج. لو وجدت سبيلاً للتحدّث إليه، لاستطاعت أن تثنيه عن هذا القرار. مهما كان، فهو يحبّها. لكن

اتّصالها به يمرّ عبر الراني عزيزة. هي من تتحكّم في كلّ الأخبار التي تخرج من الزنانا، وهذا هو مكمن الخطر: قد تموت من دون أن يعرف عنها شيئاً.

صرخت في اليوم الأوّل من الغضب والذهول: لم تكن تتصوّر أن تحبس مثل حيوان مؤذٍ. على أنّ ذلك لم يُجدِ نفعاً سوى أنّ صوتها بُحّ، ويديها مزّقهما الضرب على الباب الخشبي، باب حرصت هي نفسها على أن يكون ثخيناً لتحفظ حميميّتها. لكن، ها هو اليوم يخنق صوتها. أتهرب من النافذة؟ النوافذ عالية، ثمّ إن الخصيّ يحرسها ليل نهار، ويذرع الشرفة جيئة وذهاباً.

وصمّمت على ألا تترك اليأس يتسلل إلى نفسها. عليها أن تقتصد جهدها حتّى تستطيع الصمود. ومع ذلك بدأ الوضع، الذي ظنّته عابراً في البداية، يفرض نفسه بمرور الأيّام على حياتها اليومية القاسية.

وتتذكّر ما قال لها أمير: «لن تخرجي من غرفتك أبداً». ما معنى لفظة «أبداً» هذه؟ كم يوماً أو أسبوعاً سيتركونها محبوسة هكذا؟ ما من لحظة تخيّلت أنّ هذا الحبس يمكن أن يكون أبدياً. عليها خاصة ألا تترك الرعب يسيطر عليها كما حدث في الليلة الأولى لمّا أغلقوا عليها الباب. عليها... عليها... لم تعد تدري ما عليها أن تفعل.

توالت الأيام، ورفضت سلمى أن تأكل. لا بنيّة الضغط على الراني - هي تعلم أنّ ذلك سيكون عبثاً - بل لأنها ببساطة لا تشعر بالجوع. مجرّد النظر إلى الطعام يصيبها بالغثيان.

وحين يسأل الراجا عن زوجته، تجيبه الراني عزيزة مؤكّدة بأنّ هذه الخلوة ستفيدها. ستجعلها تفكّر وتحاول أن تفهم. هل آن الأوان لتحريرها؟ سيكون تحريرها حماقة! لن يزيدها إلا تمرّداً مثل تلك الأحصنة المتوحّشة التي يطلق سراحها قبل أن تتعوّد على الشكيمة، فتخرج عن السيطرة. ينبغي أن تدرك فداحة الخطأ الذي ارتكبت، وأن تتوب، وإلا سيفقد هذا العقاب جدواه.

فردّ أمير متوسّلاً:

ـ وإذا تحدّثت إليها وقلت لها إنّني سامحتها هذه المرّة، وأنّها إن عادت طلّقتها؟

لم يخطر على باله أنّ سلمى كانت ستضحك لو سمعته. هو لا يعرف أنّ الأميرات هنّ من يطلّقن أزواجهنّ بعد موافقة السلطان. لم يُسمح لداماد قطّ بتطليق زوجة تجري في عروقها الدماء الملكية. ستكون إهانة للسلطان شخصياً.

سلمى ليست من أولئك الزوجات الهنديات اللواتي يعني لهنّ الطلاق الموتَ، لأنّ عائلاتهنّ يرفضن استقبالهنّ. الفتاة المطلّقة في الهند تجلب العار لجميع أقاربها، لأنها أخلّت بالقواعد التي تحكم حياة الجماعة، ومن ثمّة لا يعود لها مكان فيها. لذلك تقبل النساء، خشية النبذ، العيش ذليلات خانعات، لا لأزواجهنّ فحسب، بل لكلّ أفراد عائلات هؤلاء الأزواج.

ومن شدّة دهاء الراني عزيزة، قدّرت أن غطرسة هذه الأجنبيّة لا حدود لها. وهي تتمنّى، أكثر من أيّ شخص آخر، رحيل هذه الصفيقة التي عجزت عن أن تهب زوجها وريثاً للعرش. لكنّها واثقة من أنّ الراجا، رغم تهديداته، لن يطردها قطّ. ومن ثمّة فالحلّ الوحيد للتخلص منها هو أن يصيبها مرض عضال. وهو أمر لا يتعذّر عليها تدبيره...

حدّقت في وجه أخيها المعذّب بحنان، وقالت:

ـ لا تخش شيئاً. سأحسن التكفّل بها. إذا تدخّلت، سيكون علينا أن نعيد كلّ شيء من البداية. اصبر: ستعود لك زوجتك بعد أسبوعين وهي في منتهى اللطف والوداعة، كما لم تحلم بها أبداً.

كانت قوى سلمى تخور يوماً بعد يوم. حاولت أن تجبر نفسها على الأكل، لكن لا شيء كان يستقرّ في معدتها. حتّى الشاي يشعرها بالغثيان. كانت رقبتها تؤلمها، وحين تحاول الوقوف، تترنّح ويصيبها الدوار. لذلك كانت تقضي معظم وقتها مضطجعة. هي من كانت

تستهويها القراءة، لم تعد تجد فيها متعة. لم تعد ترغب في شيء، وكلّ ما تفعل هو أنّها تنتظر. في البداية حاولت مقاومة هذا الفتور وهذا الإحساس بالمرض الذي فسّرته بالحبس. أمّا الآن فتترك نفسها تخور وهي مسرورة بزوال ذلك القيء المتواصل الذي ينهكها.

وبينما كانت تعاني من وعكة شديدة ذات يوم، لمّحت لها راسولان، الخادمة الشابة، بأنّ الطعام لا يناسبها ربّما... لم تزد على هذا التلميح. فقالت سلمى في نفسها ستكون مجنونة إن تخيّلت... مضى يومان وهي لا تلمس الصحون وترجعها كما هي، فكفّ عنها القيء.

منذئذ صارت تكتفي بماء الحنفيّة وبعض حبات اللوز تجلبها لها راسولان خفية. شعرت بتحسّن حالها، لكنّها لم تعد تقوى على النهوض حتّى لتنظيف نفسها. لقد مضت ثلاثة أسابيع وهي مسجونة في غرفتها. لكنّها الآن لم تعد تحفل بشيء، وصارت تتخيّل نفسها كما لو أنّها تطفو في الفضاء. لم يعد يقلقها شيء مثلما لم يعد يزعجها شيء. تحلم بأمّها وبالأستانة وبطفولتها. ويمرّ أمام عينيها شريط مفعم بسعادة ذات ألوان زاهية. وتشعر أخيراً بالطمأنينة والسكينة.

ـ هذه جريمة! من أمر بهذا؟

لاحظت سلمى وهي بين النوم واليقظة حركة غير عادية حولها، وصَمّت أذنيها أصواتٌ مدويّة. لماذا لا يدَعونها تنام؟ تئن وتتحرّك قليلاً ثمّ تعود إلى الصمت، إلى شرنقتها الدافئة التي تتكوّم في داخلها باستمتاع.

وتنتصب زهرة الخجولة أمام الراني عزيزة وتقول بنبرة مُدينة:

ـ لولا أننا اختصرنا سفرتنا، لكنّا وجدناها ودّعت الحياة!

نودي على طبيب شابّ على عجل، فأكّد بأنّ وضعها خطير فعلاً: لو بقيت من دون طعام لبضعة أيّام أخرى، كان قلبها سيتوقّف. مضى الراجا يحدّق ممتقعاً في أخته عزيزة التي واجهت أسئلة زهرة بصمت بغيض. أيّهما المذنب، هي أم هو؟ هو يعرف أنّها تكره سلمى، ومع

ذلك فوّض لها أمر حراستها، واطمأنّ إلى كلامها من دون أن يتحقّق بنفسه. أفعل ذلك خشية الاستسلام لدموع زوجته؟ أم ردّاً لاعتبار زوج امتهنت كرامته؟ أم بدافع الانتقام؟

لكنّه مضى يتأمّل الجسد النحيل والوجه الصغير، ويتخيّلها ميّتة، فيحاول أن يتصوّر الألم الذي كان سيعصر قلبه. لكن مهما أجهد نفسه ليتمثّل ذلك الإحساس، لم يكن يشعر إلا باللامبالاة، فصدمه ذلك: إن كان لم يخبر يوماً هذا العذاب الذي يسمونه «الحب»، فليحسّ نحو زوجته بالحنان على الأقلّ.

هو من اعتاد على التحكم في أفكاره، ها هو يفقد السيطرة عليها: تراءت له جنازة مهيبة. سيحزن لشهور، ثمّ سينزل عند رغبة العائلة والأصدقاء ويتزوّج ـ مهما كان، عليه أن ينجب وريثاً ـ ولكن بامرأة هندية هذه المرّة، فتاة صغيرة تبجّله كالإله، ويعيشان في سعادة، ويرزقان بكثير من البنات والبنين...

تنظر زهرة إلى أخيها الأكبر الذي ارتسمت على محيّاه ابتسامة مغتبطة، وتقول بنبرة معاتبة:

ـ أخي أمير! لقد قال الطبيب إنّ آبا بحاجة إلى ممرّضة تعتني بها ليل نهار، وتعلّمها من جديد كيف تتغذّى. قال أيضاً إنّها ستستعيد عافيتها بعد أسبوعين إن تلقّت العلاج المناسب... لكن يلزمها أن تغيّر الأجواء تماماً، وتقوم بنشاط يُنسيها هذا الاكتئاب. وهو يظنّ أنّها لم تعد ترغب إلا في الموت، لذلك تلزم مساعدتها على استعادة طعم الحياة.

ـ يظنّ...؟

واستشاط الراجا غضباً. من يكون هذا الغرّ حتّى يظنّ؟

ـ زوجتي سعيدة ها هنا وإن كان هواء الريف قد يُفيدها قطعاً. سنسافر إلى بادالبور في أقرب وقت ممكن.

بادالبور هي الحلّ. لمّا سيعودان إلى لوكنو ستكون فضيحة حفلة الحاكم قد طواها النسيان.

كل لحظة من الحياة هي خطوة نحو الموت

عشها في فراغ لتجعلها تدوم

لا تتحرك ولا تفعل شيئاً

حتّى لا تمحو ولا تُبدّد

الزمن الباقي

وبخاصّة حتى لا تقتل الحياة

وأنت تحياها.

وضعت سلمى قلمها، ومضت تنظر إلى الفجر الذي يطلع. وبعيداً في الأفق، رأت ضباباً يرتعش. إنّها خاصرة الهملايا، تلك الجبال المقدّسة التي يختلي فيها من يبحثون عن الحقيقة، من لا يتردّدون في وضع حياتهم في الميزان، ويجازفون بفقدان كلّ شيء من دون أن يربحوا شيئاً، بما في ذلك الأمل. أمّا هي، فلا تملك هذه الشجاعة، أو بالأحرى ربّما كانت ستملكها لو كانت واثقة من...

وتلحّ عليها الحاجة إلى الأمن من جديد، مثلما تلحّ عليها عقلية المحاسب هذه المتأصلة فيها بستّة قرون من الدم الملكي! على أنّها لم تكن خائفة مع ذلك. شعرت بهدوء إلهي لمّا ظنّت أنّها ستموت. ودّت لو تقتنع بأنّ ذلك شجاعة، لكنّها تساءلت عمّا إذا لم يكن ذلك بالأحرى ارتياحاً جباناً ببلوغ وضع لا يمكنها أن تشكّ فيه بعد مسيرة متعبة. ستموت... هي من لم تستطع قطّ أن تجد لنفسها تعريفاً، ومن بحثت طيلة حياتها عن هدف، عن يقين، ها هي تجد لهذه اللفظة في أذنيها وقعاً لذيذاً، نهائياً وكاملاً. هي مستعدّة لبذل الغالي والنفيس من أجل التشبه ببطلات الروايات اللواتي يعرفن بدقّة ما يبحثن عنه، ويناضلن من

أجل الحصول عليه! وهي إذ تعجب من قوّة طموحهن، وعنف رغباتهنّ، يبدو لها كلّ شيء تافهاً أحياناً.

أهذه اللامبالاة حكمة، انفصال عن عالم المظاهر الذي يتحدّث عنه الصوفية؟ ودّت لو تقتنع بذلك، لكنّها أصفى فكراً من أن تُجامل. لقد فقدت مَلَكة الاعتقاد والاندفاع منذ سنوات، منذ ذلك اليوم الربيعي الذي فقدت فيه بلدها وأباها معاً. وحدها رغبة الآخرين وحاجتهم إليها تشدّها إلى الحياة. لذلك فهي تجد في بادالبور مبرّراً لوجودها. أيعرف كلّ هؤلاء الفقراء الذي يهرعون إلى رانيهم بأنّ حاجتها إليهم أكثر من حاجتهم إليها؟ فإذا كانت هي تعطيهم قليلاً من المال، فهم يهبونها الحياة بانتظارهم ونظراتهم الواثقة.

ما أثلج صدر سلمى حين وصلت بالأمس هو أنّها وجدت المزارعات مجتمعات ينتظرنها. كانت سيتا، الأرملة الصغيرة، تبتسم لها وقد انتحت جانباً خلف الباب الحديدي. همّت النساء بطردها لأنّها مصدر شؤم ولا ينبغي أن تقترب من سيّدتهن. لكنّ سيتا مانعت هذه المرة. تشبّثت بقضبان الباب وراحت تصرخ، فتركنها وشأنها مخافة النحس. أما سلمى، فلم تتعرّف عليها لأوّل وهلة؛ ذلك أنّ الفتاة ذات الأربعة عشر ربيعاً التي كانت غضّة في السنة الماضية، صارت متغضّنة الوجه أشبه بعجوز. أيّ عذاب وسوء معاملة صيّراها على هذه الحال... وخطر لسلمى أن تأخذها معها إلى لوكنو، لكنّها كانت واثقة من أنّ ذلك لن يغيّر من أمرها شيئاً. ستبقى أرملة، وتظلّ منبوذة...

سألتها بخيبة وقد لاحظت أنّ صديقتها لم يأتين لاستقبالها:

ـ أين بارفاتي؟

ـ أحمل لك رسالة يا راني صحيبة: بارفاتي ترجوك أن تعذريها، لأنّها لا تستطيع ترك زوجها ولو للحظة. لقد اشتد عليه المرض. منذ الشهر الماضي وهو يبصق الدم، وعقاقير الحكيم لم تُجد نفعاً.

فقالت سلمى وهي مسرورة لفكرة أنّ بارفاتي سترتاح بوفاة زوجها العجوز:

ـ هذا شيء محزن.

قرّرت ألا تتركها في بادالبور عرضة لخبث أسرة زوجها ومن يحيطون بها. ستجد سبيلاً لإنقاذها هي وسيتا من هذا الكابوس. لا يمكن أن تتوقّف حياتهما في سنّ الرابعة عشرة.

قضت سلمى بقيّة الليل توزّع هدايا مكوّمة في صناديق ضخمة جلبتها من لوكنو. عمّت في البداية فوضى كادت تتحوّل إلى شجار بين النساء، لكنّ تدخل الخدم بصراخهم وعصيّهم أعادوا الأمور إلى نصابها، وأفهموا النساء والأطفال بأنّهم سيحصلون جميعاً على هداياهم. وفي نهاية السهرة انصرفت كلٌّ منهنّ ضامّة هديّتها إلى صدرها، وتركن سلمى مرهقة، لكنّها متصالحة مع نفسها.

كان الليل قد خيّم لمّا سمعت حجراً يرتطم بستار الخيزران في غرفتها. لم تلتفت للأمر في البداية، لكنها حين سمعت الصوت ثانية، خرجت إلى الشرفة.

ـ راني صحيبة!

اندهشت، وأطلّت من الشرفة لعلّها تبصر مصدر الصوت الذي يناديها في الظلام.

ـ راني صحيبة، هذه أنا، بارفاتي.

أبصرت سلمى تحت نافذتها تماماً طيف محميّتها النحيلة واقفة خلف أحد الأعمدة.

ـ بارفاتي؟ ماذا تفعلين هنا في هذه الساعة؟ هذه مجازفة، كان من الممكن أن يطلق عليك الحرّاس النار. اصعدي، سأطلب منهم السماح لك بالدخول.

ـ كلا يا راني صحيبة، لا ينبغي أن يعلم أحد بمجيئي! جئت لأقابلك، لكنّني خائفة...

ـ لا تخشي شيئاً يا بارفاتي. أعدك بأن أتكفّل بك إن أصاب زوجك مكروه.

ـ لكنهم يا راني صحيبة يريدون...

لم تعرف سلمى ما «يريدون» لأنّ وصول أحد الحراس جعل بارفاتي تلوذ بالفرار.

لمّا تذكّرت الحديث الذي دار بينها وبين بارفاتي في الصباح، شعرت بالضيق. كانت الصبية تبدو مرعوبة، وحتى تطميناتها لم تُجدِ لتهدئة روعها، مع أنّ سلمى ما زالت تذكرها شابّة متعقّلة رابطة الجأش. أدهشها ما كانت عليه من اضطراب. ينبغي أن تسأل سيتا إن كانت تعرف عنها شيئاً.

كان الحرّ شديداً بعد الظهيرة، ففضّلت أن تقضيها مع الراني سعيدة، جدّة أمير، التي زاد وهنها كثيراً عمّا كان في الزيارة السابقة، ولم تعد تقوى على متابعة شؤون الولاية.

قالت وهي تبتسم:

ـ عليكما أنت وأمير أن تتولّيا الأمر مكاني.

والتمع في عينيها الزرقاوين ألقٌ هادئ. إنّها تجسّد ذلك الجمال الأبيض الناعم الذي يُلاحَظ عند العجائز اللواتي يشعرن بقرب أجلهنّ، ويرُحن ينتظرنه بطمأنينة. جلست سلمى أسفل سريرها ومضت تتأمّلها بحنان. تنبعث منها هالة من السكينة تشعّ بنور تذوب فيه كلّ الأسئلة والمشاكل، مشاكل تغدو مجرّد سخافات عالم يلوح فجأة تافهاً وغير واقعيّ.

وبقيت على هذه الحال جالسة تستنشق عطر الوستاريا الخفيف إلى أن مالت الشمس إلى المغيب فانتبهت إلى أنّ العجوز نامت. مكثت هناك لحظات تتشبّع بهذا الصمت الذي يحدّثها ببلاغة تفوق أيّ خطاب.

واكتسى الريف عند الغروب حلّة حمراء. وأمام المسجد الصغير،

وقف المؤذن منادياً للصلاة، فظهرت على الطرقات المحيطة أشباحٌ تسرع لتحمد الله على نهار مضى.

جلست إلى جانب أمير في أعلى شرفة من شرفات القصر، مغمورين بالبرودة والسلام. إنّها أوّل مرّة يلفيان نفسيهما لوحدهما منذ سهرة الحاكم. لم يذكر أيّ منهما المأساة التي وقعت في الأسابيع الأخيرة، ولن يذكراها أبداً. فالشرح والاعتذار والصفح، كلّ ذلك صار ثرثرة لا تليق بهما، ولا ترجى منها فائدة. فهما جالسان معاً في صمت هذه الليلة الصيفيّة الجميلة، يستمتعان بالهدوء.

وفي البعيد، خلف القرية، كانت تظهر نارٌ متوهّجةٌ ينبعث منها دخّان كثيف، تحمل هبّات الريح رائحته اللاذعة بين الفينة والأخرى.

استندت سلمى إلى مرفقها وقالت:

- أتُراهم يحرقون الأعشاب الضارّة يا أمير، أم أنّ حريقاً شبّ؟

- لا هذا ولا ذاك يا عزيزتي. تلك محرقة. لا بدّ أنّ أحدهم مات. ألا تسمعين التراتيل؟

وحقّاً كانت تتناهى إلى سمعها نتفٌ من التراتيل. أهو زوج بارفاتي؟ أتحرّرت أخيراً تلك المرأة الشابّة؟

وفجأة تعالى في الحديقة صراخ، وسُمع وقع خطوات تجري فوق أوراق الأشجار، وصياح امرأة يصمّ الآذان. فقام أمير بقفزة واحدة ونادى على الحراس.

وفي لمح البصر ظهر أربعة رجال ضخام يدفعون أمامهم هيئة صغيرة بيضاء وهي تتخبّط وتشتُم.

ما إن رأت سلمى ساريها الممزّق ووجهها المبلّل بالدموع حتّى بادرتها:

- ماذا جرى يا سيتا؟

فردّت الشابة وهي تشهق وقد جحظت عيناها:

ـ بارفاتي يا راني صحيبة، بارفاتي...

ـ ما خطب بارفاتي؟ ماذا أصابها؟

أمسكت سلمى بذراعها، وراحت تستجوبها، لكنّ الفتاة لم تستطع الجواب من شدّة الجزع. أجلستها الخادمات، وبلّلن صدغيها بالماء البارد، بينما أمسكت سلمى يديها بلطف.

ـ اهدئي يا سيتا، وأخبريني بالمكان الذي توجد فيه بارفاتي.

لم تستطع سلمى سماع جوابها من شدّة أنينها، لكنّها خمّنته:

ـ هناك في المحرقة... مع زوجها... أحرقوها...

فجفل أمير.

ـ أرملة! يا لهم من همج! أما زالوا يجرؤون على فعل هذا؟ هيّا يا حرّاس، أذهبوا فوراً، أنقذوها!

على أنّ الحراس وصلوا متأخّرين: لم يعثروا في المحرقة إلا على هيئتين سوداوين أوشكت النار على التهامهما وسط حشد يصلّي.

وعند فجر اليوم الموالي، استيقظت سلمى بوجه متورّم من فرط ما بكت تلك الليلة.

ـ أنا متأكّدة من أنّهم أجبروها على ذلك. لم تنتحر. كانت شديدة التعلّق بالحياة! وموت عجوز النكد ذاك كان هو خلاصها.

ـ قد يكون، ولكن كيف يمكن إثبات ذلك؟

يأبى أمير، بحكم أنّه عاهل مسلم، التدخل في عادات رعاياه من الهندوس.

ـ جاءتني بارفاتي وطلبت منّي المساعدة، لكنّني لم أفهم... لم يخطر على بالي قطّ...

لم يغمض لسلمى جفن. قضت الليل كلّه وهي تتخيّل بارفاتي تتخبّط للإفلات من جلاديها الذين ألقوا بها في النار بلا رحمة.

ـ ينبغي الانتقام لها يا أمير. يلزم أن نجعل منها عبرة تردع كلّ من تسوّل له نفسه تكرار هذه الفظاعة. استدع العائلتين، واستنطقهم. سيعترف أحدهم لا محالة. أتوسّل إليك!

ـ أخشى من أن تكوني واهمة، ولكنني سأفعل نزولاً عند رغبتك.

ها هم جميعاً أمام أمير. مضوا يقدّمون أنفسهم الواحد تلو الآخر وهم يقبّلون الأرض بين يديه، ثمّ يقفون منتظرين وقد خفضوا أبصارهم احتراماً لسيّدهم.

جلست الراني بجانب الراجا. وكان حضورها أمراً شاذاً عن العرف ضاعف من قلقهم، ونبّههم إلى أنّ هذه المواجهة ليست من النوع المألوف.

وراحت سلمى تحدّق في أفراد العائلة. كانت بارفاتي قد حدّثتها عنهم، ومن ثمّة فهي ليست بحاجة إلى معرفة أسمائهم لكي تتعرّف عليهم. ها هي الحماة، عجوز مهزولة ذات وجه متغضّن كما لو أنّها جاوزت القرن، بفمها الأدرد المحمرّ من مضغ التنبول. وها هما الأخوان الضخمان، اللذان يبدوان من حركة أيديهما العظيمتين متوترين. لم يُحضرا زوجتيهما. لماذا ستحضران وهما لن تزيدا عن القول إنّ زوجيهما يعرفان أكثر منهما؟ ثمّ هناك أخيراً ابن الهالك، وهو الوحيد من تظهر على وجهه علامات الابتهاج والبلاهة، ومن كانت بارفاتي تشتكي منه، لأنه حاول مراراً اغتصابها في غفلة من أبيه.

وقبالتهم وقف أهل المرأة الشابّة، جماعة صغيرة فيها الوالدان والإخوة والأخوات. لكن، لماذا يظهر عليهم الفزع؟ مع أنّ الراجا يسعى لأخذ حقّهم!

لقد طلب منهم الحضور جميعاً، وهو يتعهّد بحمايتهم. بإمكانهم أن يتحدّثوا من دون خوف.

قضى أمير أزيد من ساعة في استجوابهم. قالت العجوز وهي تبكي إنّها بذلت كلّ ما في وسعها لتقنع كنّتها بعدم إحراق نفسها، لكنّها من شدّة حبّها

لزوجها، كانت في حالة من اليأس والحزن بحيث استغلت انشغال الجميع وذهولهم، فألقت بنفسها في النار. جازف الرجال بحياتهم وحاولوا إنقاذها، لكن عبثاً. كانت النار قد شبّت في بارفاتي كحزمة قشّ. وما إن بلغت العجوز إلى هذا المشهد المروع حتّى راحت تنتحب وتنتف شعرها وتذكر الآلهة إلى أن نهرها الراجا، وأمرها بالهدوء.

اندهشت سلمى من هذه التمثيلية. لم تكن تتوقّع من المجرمين أن يتّهموا بعضهم بعضاً بالطبع. من سيكشف عن الحقيقة هم أفراد أسرة الهالكة. لكنّها أصيبت بالذهول لمّا رأتهم يصرّون على الصمت. ولمّا حوصرت إحدى الأخوات بالأسئلة، قالت إنّ بارفاتي أسرّت لها بما كانت تنوي فعله. فأمّن الآخرون على كلامها وهم يبكون.

على أنّ سلمى واثقة من أنّهم يكذبون. والأدهى هو أنّهم يعلمون بأنّها تعرفهم يكذبون. فقد باغتت أخوي الهالك يتبادلان نظرات متواطئة. إنّهم يهزؤون بها وبسيّدهم.

مالت على أمير وقد امتقع لونها:

ـ هل من سبيل إلى إجبارهم على الكلام؟

ـ لن يعترفوا إلا تحت السوط، وهو ما لا أرضاه. يقولون إنّ النزعة الإنسانية وممارسة السلطة شيئان لا يجتمعان. لطالما رفضتُ هذه الأفكار البسيطة، لكنّني بدأت أتساءل عمّا إذا لم يكونوا على حقّ... في نظر هؤلاء المزارعين إعراضي عن استعمال القوة لإجبارهم على الاعتراف يُفقدني هيبتي.

هكذا طويت القضية من دون متابعة أحد. وعاد المزارعون إلى بيوتهم.

بلغ الغيظ بأمير مبلغه، فمضى يذرع المكان جيئة وذهاباً وهو يلاعب عصاه.

ـ كنت واثقاً من أنّ الأمر سيجري بهذا النحو، لكنّك لم تصدّقيني، فنزلت عند رغبتك. ما كان عليّ أن أفعل.

ـ لماذا كذبت أسرتها؟

ـ فيم كان سينفعهم الكلام؟ فبنتهم ماتت. هل ستعيدها الكلماتُ إلى الحياة؟ لقد صارت روحها مقدّسة، وبطولتها ستطهّر أهلها على مدى سبعة أجيال من السلف ومثلها من الخلف. وإنكار أنّها ضحّت بنفسها بطيب خاطر معناه فقدان هذا المجد، والإقرار بأنّها لم تكن زوجة صالحة. وهو ما كان سيلطّخ سمعة الأسرة، وسيحرم أخواتها الأصغر من الزواج. الحكمة تقتضي أن يلزموا الصمت، لا سيما أنّ عائلة الزوج كانت ستنتقم منهم بمجرّد ما أدير ظهري، وقوانين الجماعة لا يمكن أن تُنتهك من دون عقاب، حتّى ولو كان الحقّ من جانب الضحيّة.

ـ معنى هذا أنك لن تستطيع إنقاذ نساء أخريات من المصير الذي آلت إليه بارفاتي؟

التفت إليها غاضباً وقال:

ـ هذه عادات الهندوس، من أكون حتّى أغيرها؟ أينبغي أن أعذّب رعاياي لكي أجبرهم على ترك أعراف تعود لآلاف السنين، وأفرض عليهم أخلاقاً «عصرية»؟ بأيّ حقّ أفعل ذلك؟

ـ إنّها البداهة يا أمير...

ـ لا شيء بديهي في هذا البلد. أتعتقدين أنّني لم أفكّر في كلّ هذا؟ ظننتُ مثلك في البداية أنّ المرء يكفيه أن يكون نزيهاً ليجد لكلّ مشكلة حلاً. وهذا خطأ. لربّما كان الأمر أسهل لو أنّ الاختيار كان بين الخير والشر!

ووضع رأسه بين يديه.

ـ من يعرف أين هو الخير وأين هو الشرّ؟ لا يعرف ذلك إلا الأغبياء... والله بطبيعة الحال. ولكن هل يمكن أن نعرف، نحن الأمراء

والملوك المكلّفين بقيّادة هذه الشعوب، ذلك؟... لسنا إلا جماعة من الدجّالين. نحن في الواقع لا نعرف شيئاً.

بعد حرق الأرملة وعقد تلك المحكمة المضحكة، انزوى أمير من الحزن والغضب. إثر ذلك طرد من القرية عدداً من المحرّضين المنتمين إلى المهاصباح، وهي منظمة متطرّفة تدعو إلى ردّ المسلمين إلى الهندوسية، وهو ما أقلق شيوخ القرية، فجاءوا يخبرون الراجا بذلك، فاستشاط غضباً.

ـ أهؤلاء مناضلون سياسيون؟ كلا، هؤلاء مجرمون يحاولون زرع الكراهيّة بين الطوائف. لن أسمح بقيام حرب دينيّة على أرضي!

وأمر الحرّاس بأن يلقوا القبض على هؤلاء الدجّالين ويقودوهم مكبّلين بالسلاسل كالمجرمين إلى الحدود.

ما من مرّة رأت سلمى الغضب يستبدّ به إلى هذا الحدّ.

ـ كيف يسمح حزب المؤتمر، الذي يعدّ نفسه علمانياً، لهؤلاء الأشخاص بأن يقوموا بهذه الأعمال؟ إنّه يلعب بالنار. فغاندي نفسه حين يدعو إلى العودة للقيم الدينية الهندوسيّة بوصفها سلاحاً فعّالاً ضدّ الاحتلال البريطاني، يشجّعهم على ذلك. كما أنّه حين يتحمّس إلى إعادة الهند إلى حكم الراما[1]، الذي يقترن في أذهان الهنود بحكم الفضيلة، يتجاهل قلق خمسة وثمانين مليون مسلم، صاروا يشعرون بأنّ هويتهم مهدّدة.

قال وهو يتنهّد:

ـ يا لها من مضيعة! في بداية العشرينيات، كان معظم المسلمين يعجبون بالمهاتما ويتبعونه. أمّا الآن فبلغ بهم الأمر أن صاروا يعتبرونه منافقاً، يتحدّث عن الوحدة، لكنّه يهيّئ في الواقع لسيطرة الأغلبية الهندوسية على الأقليّة المسلمة.

---

(١) الإله الملك في الميثولوجيا البراهمانية.

فانتفضت سلمى وقد ظهر عليها الاستياء.

ـ هذا كلام مضحك! المهاتما رجل قدّيس. كلّ من عاشروه...

ـ اهدئي يا عزيزتي. الأمر لا يتعلّق بحكم أخلاقي. لا يهمّ أن نعرف ما إذا كان غاندي يخدع نفسه أم يخدع الآخرين: في الحالتين معاً ستكون النتائج رهيبة. جوهر المشكلة هو أنّه يقيم حركته على البذل والتسامح والحبّ الشامل. ولكن قولي لي أين تجدين الحب والتسامح في هذا البلد؟ فلكلّ يوم حظّه من الشغب والاغتصابات والاغتيالات. صار المسلمون يخافون من الهندوس ويكرهونهم، والهندوس يحلمون بالانتقام لستّة قرون من السيطرة الإسلامية، والقضاء على سادتهم السابقين... بل حتى الأقلية المسيحيّة ينتابها القلق. فهي تشكو من إكراه أفرادها على ترك ديانتهم والعودة إلى الهندوسيّة، وقرّرت من ثمّة، على شاكلة المسلمين، المطالبة بانتخابات خاصة بها حتّى لا تذوب أصواتها في بحر الأغلبية الهندوسيّة.

لكنّ نهرو وغاندي استمرّا في رفض كلّ هذا، زاعمين أنّ ما من مشكلة بين الطوائف. أعن جهل يصدران أم عن سوء نيّة؟ لكن حين لا يعود عدد الموتى يعدّ بالعشرات بل بمئات الآلاف، فيمَ سيفيد عندئذ حسن النوايا؟

على أنّ سلمى ترفض أن تقتنع، وتعلّق معترضة:

ـ لماذا تأخذ عليهما عنادهما؟ فجناح لا يقلّ عنهما عناداً! بل إنّ الرابطة بدأت تقول إنّها إن لم تحصل على الضمانات الكافية، ستطالب بدولة مستقلّة للمسلمين. أليس في هذا ضرب من الغلو؟

فردّ أمير بنبرة ساخرة:

ـ للحصول على القليل ينبغي المطالبة بالكثير. لكنّ جناح لا يؤمن البتّة بتقسيم الهند. وقد أسرّ بذلك مؤخّراً لبعض الأصدقاء. على أنّه سيظل يلوّح بهذه الفزاعة إلى أن يضمن المؤتمر للمسلمين ألا يتحوّلوا بعد استقلال البلاد إلى مواطنين من الدرجة الثانية. إنّها حرب عادلة.

طال بهما الحديث إلى وقت متأخر من الليل. وشعرت سلمى من كلام أمير بأنّه حين يتحدّث عن المهاتما أشبه بمحبّ أصابته الخيبة. ولم تكن الوحيدة التي أحسّت عنده بمثل هذه المرارة. وتدهش لذلك: أتراهم تبعوا غاندي لأنّهم كانوا يعتقدون بأنّ الدين وسيلة لبلوغ أهداف سياسية؟ ألم يفهموا أنّ المهاتما يصبو إلى ما هو أسمى، أي إلى ما هو جوهري؟

١٦

كان الوقت فجراً. جلست سلمى وحيدة في الشرفة المستديرة الموجودة في غرفتها. ذلك أنّ أمير سافر قبل يومين في جولة على القرى البعيدة في ولايته. وهو قرار أثار دهشة الأعيان، وتحفّظ عليه مستشاروه، وقالوا إنّ الطواف على القرى لا يليق بالراجا لأنه سيفقد احترامه. لم يسبق لملك أن تنقل لزيارة رعاياه. جرت العادة على أنّ الفلاحين هم من يأتون إلى القصر إن كانت لهم مطالب، وهم يعلمون أنّ أبواب القصر مفتوحة لهم كلّ صباح.

على أنّ المعدمين المحتاجين حقاً للمساعدة، من أين ستأتيهم الروبيات اللازمة للسفر؟ وأين سيجدون الوقت لذلك وهم يكدحون طيلة اليوم في أرض الجار الذي استقرضوا منه؟ ثمّ إنّ هذا الجار المرابي هو نفسه عمدة القرية، فهل هو من الغباء بحيث يتركهم يسافرون للتظلّم منه؟

وبذلك لم يكن الراجا يلتقي خلال مقابلاته العامة إلا بشخصيات محدودة مثل معلّمي المدارس والتجار وممثلي المجالس المحليّة ومجالس القرى. أمّا الفلاحون البسطاء والمزارعون والعمال، فلم يكن يلتقي بهم إلا نادراً. كثيراً ما يقول له الأعيان: «إنّهم لا يرغبون في التنقل، ويكلّفوننا بأن نبلغك مشاكلهم». هذا صحيح، لكنّ الراجا قرّر مع ذلك القيام بهذه الجولة. وتعود الذاكرة بسلمى وهي ما تزال نصف نائمة إلى لحظة انطلاق أمير في رحلته، فيتراءى لها مبتعداً على صهوة حصانه في ضوء أشعة الفجر الأولى. كانت السماء قد أمطرت، وفاحت

الأرض برائحتها مثلما هو الشأن هذا اليوم. كان أمير فخوراً بنفسه، وراضياً عليها لأنها هي من حملته على القيام بهذه الرحلة. كان ينوي التغيّب لأسبوع كامل، وأخذ منها عهداً على ألا تبرح القصر.

ـ أخشى من أن يحاول رجال المهاصباح الانتقام. رغم أنني عزّزت الحراسة، أرجو ألا تتجاوزي حديقة القصر.

وعدته بذلك، فانصرف مطمئناً بعد أن أصدر آخر تعليماته للديوان العجوز رجيف ميترا.

كان الجوّ لطيفاً على نحو رائق، فتمطّت سلمى على كرسيها الطويل باستمتاع. مضت السماء تصطبغ باللون البنفسجي شيئاً فشيئاً. هذه هي اللحظة من النهار التي تروقها أكثر، حين ينبعث الريف من الليل نقيّاً.

ويتعالى صوت المؤذن في البعيد، فتجيبه في الطرف الآخر من القرية نواقيس وأجراس معبد دورغة، إلهة الخصب المقدّسة. وتتصاعد من بعض الأكواخ أعمدة الدخان الأولى، إذ تنهمك النساء في إعداد الشاي المحلّي والخبز الهندي لأزواجهنّ الذين سيخرجون إلى الحقول. قد يُضفن إلى ذلك، إن كانت المحاصيل جيدة، بصلة وفلفلتين حمراوين صغيرتين من ذلك الفلفل الذي يلهب الحلق ويحفظ من الأمراض.

مدّت لها إحدى الخادمات فنجاناً شفافاً مليئاً بمشروب ذهبيّ اللون، فراحت ترتشف منه جرعات صغيرة وهي تقول في نفسها إنّ الشيء الوحيد الذي قد يخوّل للإنجليز الادعاء بأنّهم أسدوا خدمة للإنسانية هو أنّهم سرقوا ذات يوم من أهل الصين هذه النبتة السحرية التي يسمونها تشاي «tchaï».

لم تكن ترغب في الحركة. وراحت تتنفّس ببطء حريصة على ألا تكسّر ذلك الصمت. على أنّ صيحة دوّت فجأة جعلتها تجفل، تبعتها صرخة حادّة. ثمّ رأت الرجال يتجمّعون أمام المسجد وهم يومئون بأيديهم، ويرفعون أذرعهم إلى السماء. وفي الطرف الآخر من القرية،

تعالى صراخ آخر مسعور، كما لو أنّه صدى للأول، ومضت أجراس المعبد ترنّ بلا انقطاع.

ـ ماذا جرى؟ أمات أحدهم؟ أم هي عملية اغتيال؟ ينبغي إرسال الرجال لتقصّي الأخبار فوراً!

صعدت سلمى إلى أعلى شرفة في القصر يتبعها الديوان الذي أيقظوه. تستطيع من هناك أن ترى القرية. لا بدّ أن يكون خبر هذه المأساة الرهيبة قد ذاع. وما هي إلا دقائق حتّى تحوّلت بيوت القشّ النائمة إلى معسكر محصّن، وبدا الرجال في أفنيتها نافرين بينما تتشبّث النساء بأذرعهم كما لو أنهنّ يتضرّعن إليهم. أمّا الأطفال المفزوعون من ذلك الضوضاء الغريب، فتمسّكوا بتنانير أمّهاتهم وهم يصرخون.

وسرعان ما عاد الحراس بالخبر مسرعين وقد جحظت عيونهم.

ـ لقد دُنّس المسجد: عثروا فيه على أربعة خنازير وخنزيرة... الهندوس هم من اقترفوا الفعلة بتحريض من المهاصباح بلا شكّ... وهو ما أثار حفيظة الرجال. هم الآن يتسلّحون من أجل الانتقام.

وما كادوا ينهون كلامهم حتّى وصل حرّاس آخرون يلهثون:

ـ الهندوس يستعدّون للحرب. لقد عثروا على بقرة مذبوحة في المعبد... أقسموا على أن يقتلوا كلّ المسلمين!

لاحظت سلمى بالفعل جماعات تتشكّل في كلّ زقاق، ثمّ تكبر أكثر فأكثر. لبّى النداء كلّ من يستطيع حمل عصا أو مذراة من الرجال، شيباً وشباباً، ومضوا يتجمّعون حول المعبد والمسجد.

التفتت سلمى إلى الديوان وبادرته:

ـ ينبغي أن تتصرّف فوراً أيّها الديوان، وإلا فإنّهم سيقتتلون!

ذلك أنّه هو المسؤول عن حفظ النظام في غياب الراجا. عليه أن يتصرّف لوقف هذا الجنون!

خفض العجوز رأسه وقال:

ـ ماذا بوسعي أن أفعل يا هوزور؟ فعددهم يجاوز الخمسمائة بينما ليس لدينا نحن هنا سوى خمسين حارساً. لا يكادون يكفون لتأمين القصر في حال الخطر.

فقالت سلمى بسخط:

ـ القصر؟ من يهدّد القصر؟ هيّا، ابعثهم حالاً إلى القرية من دون أن تضيّع لحظة واحدة.

راح الديوان يحدّق في طرف نعليه المذهّبين وهو يقول:

ـ إنّ عددهم قليل للغاية يا هوزور. إن أنا بعثتهم، فإلى موت محقّق. هذا قرار لا يمكن أن يتخذه إلا الراجا.

ـ وموت مئات الفلاحين والنساء والأطفال، ألا يعني لك شيئاً؟ ستتفرّج عليهم وهم يقتتلون؟ فكّر قليلاً يا ديوان. ستكون في وضع لا تحسد عليه حين يعلم الراجا بما وقع...

تشنّج وجه الديوان وهو يسمع هذه التهديدات، ثمّ غمغم:

ـ سأخبر شرطة لامبور. فهم لا يبعدون إلا بخمسة وعشرين ميلاً...

ـ وبانتظار أن يصلوا سيكون الأوان قد فات. هل تسمع؟

كان الصخب يتعالى. ومن طرفي القرية، شرعت جماعات متراصّة تتحرّك. لن تمضي دقائق حتّى يصيروا وجهاً لوجه.

وتمتم الديوان:

ـ فرصتنا الوحيدة هي...

فهتفت سلمى:

ـ حسناً، سأذهب بنفسي. سأحاول إعادتهم إلى رشدهم. هم يحبّونني، لا بدّ أنهم سيسمعون كلامي.

ـ لا تفكّري في هذا يا هوزور! هؤلاء الناس هائجون، قد يقتلونك!

خرج رجل فارع ذو شنب طويل من الجماعة. إنّه سعيد أحمد، العقيد قائد الحرس، وقال:

ـ سأرافقك يا صاحبة السمو!

ـ شكراً حضرة العقيد. لا تنس أن تصطحب معك رجلاً يقرع الطبل.

ـ سمعاً وطاعة.

تردّد لحظة، ثمّ أضاف:

ـ أودّ إخبارك بأنّني بعثت مراسيل إلى الراجا صحاب. سيحضر في غضون ساعات، وسيجلب معه التعزيزات.

فابتسمت العينان الزمرديّتان.

ـ لن أنساك يا حضرة العقيد... وأنت أيضاً أيّها الديوان!

انطلقت الأحصنة الثلاثة تركض في الغبار. «أسرع يا باغيرا، أسرع!» ومضى المهمازان ينخسان خاصرتي الحصان الأصيل فيقف على قائمته الأخيرتين. ذلك أنّ صاحبته لم تعوّده على مثل هذه المعاملة الخشنة.

تجاوزوا المسجد من دون أن يعثروا على أحد. لم يكن في الأزقة التي عادة ما تكون حاشدة بالأطفال غير كلاب صفراء تنتظر. كلّ الأبواب موصدة، ولولا الضجّة المتعالية هناك، لخُيّل لهم أنّ القرية خلت من أهلها.

ـ ينبغي أن ننحرف ونعبُر الحقول يا صاحبة السمو، وإلا وجدنا أنفسنا وسط الحشد، فيعترضون طريقنا ويمنعوننا من المرور.

ساروا في طريق ضيقة، ووصلوا أخيراً إلى الشارع الرئيسي، وهو عبارة عن شريط ترابيّ طويل يفصل بين الجزء المسلم من أوجبال وجزئها الهندوسي.

ووصلوا في الوقت المناسب تماماً.

وجدوا أمامهم جماعتين متواجهتين، مسلّحتين بالرماح والهراوات. جيشان من رجال عراة حفاة، ذوي أيد خشنة، يستعرضون بؤسهم، ويقذفون بما تجيش به صدروهم من كراهية وحقد. هم من قضوا حياتهم كلّها خانعين كادحين في الحقول ها هي الفرصة تواتيهم ليصيروا جنود الله وحماة العقيدة والعدالة...

لم تعد تفصل بين الجماعتين سوى بضع خطوات. عمّا قريب ستتطاير الحجارة، فتهشّم الجماجم، وتنغرز الرماح في الصدور. نعم! سيموتون، ولكن لا ضير! لم يعودوا الآن صعاليك، بل أمراء.

لكن، من أين يأتي صوت الطبل هذا لكي يفسد عليهم حفل الانتقام؟ قفز مارد أسود إلى الحيّز الذي ما زال يفصل بينهم، تمتطيه هيئة بيضاء... فذهلوا وهم يكتشفون رانيهم. أمّا هي، فأدركت بأنّها لا تملك إلا بضع ثوانٍ لكي تسيطر عليهم، مستغلّة ذهولهم والصمت الذي خيّم عليهم، وشلّهم.

وصاحت بهم:

ـ توقّفوا. لقد خدعوكم. الساسة يحاولون تحريض بعضكم على بعض، وقد استأجروا المجرمين لكي يدنّسوا أماكنكم المقدّسة. فلا تسقطوا في الفخّ!

ثمّ أضافت بصوت حاولت أن تحمّله كلّ ما تملك من طاقة على الإقناع:

ـ لقد عشتم معاً في أمن وسلام لفترة طويلة، مثلما عاش آباؤكم وأجدادكم. وبذلك لا شيء يدعو لأن تقتتلوا. ما مصير زوجاتكم وأبنائكم إن متُّم وتركتموهم في البؤس وحدهم؟ ما مصير أولادكم؟

وراحوا يحدّقون في الهيئة المنتصبة على الحصان الأدهم. لم يفهموا كلامها. عمّ تتحدّث؟ أيّ ساسة تقصد؟ وأيّ مجرمين؟ أمّا مصير أولادهم، فذاك شأنهم.

ـ من أجلهم نحن نقاتل، لكي يعيشوا بكرامة، من دون خوف!

من تكلّم؟ أمسلماً أم هندوسياً؟ لا يهمّ، فالطرفان معاً أمّنا على هذا الكلام. وتدريجياً حلّ الحذر محلّ التردّد. حاولت سلمى أن تتناول الكلمة من جديد، لكنّ الذهول كان قد زال، ولم تعد ترى أمامها غير وجوه كالحة متوعّدة.

ـ يا أصدقائي...

وتعالت هتافات حجبت صوتها، ودوّى فجأة صوت غطّى عمّا سواه:

ـ اغربي أيتها الدخيلة! اتركينا نسوّي مشاكلنا فيما بيننا.

ـ الدخيلة؟...

وشعرت كما لو أنّها تلقت ضربة أصابت قلبها. ورأت رجلاً عجوزاً يمسك بلجام حصانها.

ـ انصرفي يا صاحبة السمو. لن تستطيعي فعل شيء. قد يؤذونك.

يؤذونها؟ وتملّكتها الرغبة في الضحك بينما ترقرقت عيناها بالدموع.

لم تستطع لاحقاً أن تتذكّر كيف خرجت من وسط الحشد، وكيف عادت إلى القصر. كلّ ما تذكره هو أنّ أحدهم مزّق الطبل، وأنّ هذا أخاف العقيد.

مضت ساعات والمعركة حامية الوطيس. أمّا سلمى فانزوت في غرفتها حزينة، لا تصلها إلا جلبة بعيدة، تقطعها بين الفينة والأخرى صرخة أو عواء كلب. ثمّ حلّت لحظة صمت رهيبة لا تحتمل...

ظنّت في البداية أنّ الأمر يتعلّق بهدنة، آملة أن يكونوا قد استعادوا رشدهم بعد التعب من سفك الدماء، وقرروا اللجوء إلى التفاوض. لكنّ المعركة تُستأنف بوحشية أكبر، بحيث صارت تخشى لحظات الصمت تلك متخيّلة توسّلات النساء، وحشرجة الجرحى، ونقل الموتى وسط العويل، وتجمّع من ما زالوا قادرين على القتال على نحو عنيد، تأهّباً لهجوم أشرس يدمّر الخصم ويقضي عليه.

لم تعد تشعر بمرور الزمن بعد أن تعبت من حساب الدقائق والأميال التي يتحتّم على أمير قطعها على صهوة حصانه. لم تعد تنتظره، فقد فات الأوان. كفّت حتّى عن تقدير عدد الموتى الذين يسقطون في كلّ ساعة تمضي، وعدد الأحياء المتبقين...

هي واثقة من أنّ الدمار عمّ القرية، وعمّ أيضاً بلدها الهند، واختفى أولئك الذين تحبّهم، وكذا من كانت تظنّ أنّهم يحبّونها. ولم تعد الأجنبية غير كومة من حجارة باردة.

ودّوت طلقات رصاص. ماذا يجري يا ترى؟ وإذا بالديوان يدخل عليها متهلّلاً.

ـ لقد وصل السيد يا هوزور.

ـ أين هو؟ من يطلق النار؟

انتصب العجوز وقد ارتسمت على محيّاه ابتسامة عريضة.

ـ الراجا صَحاب! لقد ذهب إلى القرية برفقة مائة من الحرس تقريباً. لن يستغرقوا وقتاً طويلاً في إخماد الفتنة!

قامت سلمى من مكانها بقفزة واحدة. إنّها تشعر بالاختناق.

ـ كيف؟ ولكن لماذا؟ لماذا يطلقون النار؟ كان يكفيه أن يتحدّث إليهم، فيمتثلوا لكلامه!

ـ لقد حاول يا هوزور، لكنّ الفلاحين لم يعودوا يسمعون شيئاً كما لو أن مسّاً أصابهم. لا بدّ من قتل بعضهم لإجبارهم على الامتثال للأوامر.

وتوالت الرشقات النارية فظّة قاسية، فتكوّمت سلمى على سريرها، وأغلقت أذنيها حتّى لا تسمع شيئاً، لكن عبثاً. كلّ انفجار يجعلها تنخلع من مكانها، وكلّ رصاصة تشعر بها كما لو أنها تخترق جسدها. فأمير الذي كانت تنتظره لينقذهم، ها هو يواصل المجزرة. يا لها من وحشيّة! هي واثقة من أنّه يستطيع تهدئتهم، لكنه اختار الحلّ الأسهل والأسرع، أيّ العنف... هو من طالما انتقد وحشية الحكّام لا يختلف عنهم إلا بخطاباته الإنسانية المنمّقة. صارت تكرهه. فقد خان هؤلاء الرجال الذين يزعم أنّه أبوهم، وخان ثقتهما وطموحهما معاً في إخراج ولاية بادالبور من القرون الوسطى، ومنح حياة أخرى لرعاياه. لن تغفر له هذا أبداً.

كانت القرية تدفن موتاها ذلك الصباح في صمت كئيب. الأزقة

خالية. وفي بعض الأحيان، يظهر شبح يتسلّل من بيت لآخر لعيادة جريح، أو توديع قتيل.

كانت سلمى واقفة في شرفتها تتأمّل هذا المكان الذي أحبّته كثيراً، والذي تعرف كلّ بيت من بيوته. وشعرت بأنّها لن تعود إليه أبداً.

عليها أن ترحل هذا المساء. فقد جاء رشيد خان من لوكنو لمرافقتها. وقد وجدت في مجيئه عزاء لم تكن تنتظره، كما وجدت في ابتسامته الساحرة خيط أمل تتعلّق به في هذا الثقب الأسود الذي تشعر بنفسها تغور فيه.

لم تلتق بأمير بعد عودته. فقد أغلق على نفسه غرفته في الليلة السابقة، لكنّ غيظها خفّ الآن، ولم تعد تشعر إلا بتعب شديد وبطنين حادّ في رأسها يردّد بلا توقّف: اغربي أيّتها الدخيلة.

لم تعد تبكي. فقد سبق لتلميذات دير بوزانسان أن تجنّبنها لأنّها الأجنبيّة «التركيّة». فمنذ بداية المنفى، أدركت أنّها «دخيلة» حيثما حلّت...

لكن في بادالبور كان الأمر مختلفاً. توهّمت أنّها عثرت على وطن، وأنّ الفلاحين سيكونون لها بمثابة العائلة. ظنّت أنّها وجدت من يتبنّاها...

وأحسّت بيد تلمس كتفها.

ـ لا تحزني يا أميرة. سترين، كلّ شيء سيعود إلى نصابه.

فقالت من دون أن تلتفت:

ـ شكراً يا رشيد بك. حين تكون بجانبي، كلّ شيء يبدو أفضل.

ـ انظري، جاءنا ضيوف.

ورأت جماعة من الشيوخ يرتدون مآزر بيضاء ناصعة يعبرون الحديقة، ويقصدون القصر.

ـ فيهم الهندوس والمسلمون! الظاهر أنهم وفد. ماذا يريدون يا ترى؟

خرج أمير لاستقبالهم عند المدخل بعد أن أخبره الحراس بمجيئهم.

جثوا أمامه وراحوا يقبّلون الأرض عند قدميه، فأمسك بأذرعهم وأوقفهم. تناول الكلمة أكبرهم سناً بنبرة مهيبة، بينما راح مرافقوه يؤمّنون على قوله بالهمهمات وهزّ رؤوسهم. تحدّث طويلاً ولاحظت سلمى أن أمير بدا متأثراً. شكرهم بنبرة رزينة، ثمّ أمر بتوزيع الشاي عليهم، فشربوه بصمت.

قالت سلمى وهي تلتفت إلى رشيد:

ـ يبدون كما لو أنّهم يبرمون معاهدة صلح من جديد.

ـ شيء شبيه بذلك.

هو أيضاً بدا مضطرباً ومشوّشاً.

ـ جاءوا يشكرون راجاهم لتدخّله لوقف الشغب، وتصرفه وفق ما كانوا ينتظرون منه. يقولون إنّهم واثقون الآن من أنّ لهم سيّداً قادراً على حماية الطائفتين معاً من دون ميز. واعتذروا له عن شكّهم فيه، وظنّهم بأنّه يحمل أفكاراً أقرب إلى أفكار الإنجليز. أمّا الآن فهم سعداء، لأنّ لولاية بادالبور قائداً يعرف كيف يهتمّ بأبنائهم وأحفادهم. بوسعهم الآن أن يموتوا مطمئنّين.

ـ ماذا؟ أجاءوا يشكرونه لأنه أطلق عليهم الرصاص؟

نظر رشيد إليها نظرة لا تخلو من عتاب:

ـ اسمعي يا أميرة، لا تكوني مفرطة في القسوة! أنا أدرك مقدار المشقّة التي تحمّلها لاتّخاذ هذا القرار الذي يخالف اقتناعاته، ويعارض ما دافع عنه طول حياته. لكن لوقف المجزرة، وإنقاذ النساء والأطفال، كان لا بدّ من قتل المحرّضين. مسكين أمير! لا شيء أسوأ من أن يضطر المرء إلى التصرّف ضدّ ما يعتقد أنّه الحق. إنّني معجب بشجاعته، ولا أظنّني قادراً على فعل ما فعل...

١٧

هي الآن وحيدة أمام اللغز الذي طرحه عليها أبو الهول بصوت رتيب: «أيّهما أفضل؟ الموت في عالم حيّ أم الحياة في عالم ميّت؟»، لا تستطيع تحويل بصرها عن الوجه الحجري، وتحاول تهدئة روحها الهائمة في الفراغ.

استيقظت سلمى وهي تتصبّب عرقاً وسؤال أبي الهول ما زال يتردّد في أذنيها بوضوح يجعل من الصعب عليها أن تجزم بأنّه حلم. وحتّى إن سلّمت بأنّه كذلك، فلا بدّ أن يكون رؤيا: أيّ رسالة ربانية.

وتذكّرت فجأة آخر جملة قالتها الراني سعيدة حين ذهبت إليها لتشكوها همومها قبل مغادرة بادالبور: «السعادة هي أن نُحِب أكثر ممّا هي أن نُحَب».

لم تفهم حينئذ كلامها، هي من عرفت وهي ما تزال طفلة عذاب أن يُحِبّ المرء دون أن يُحَب. كان بإمكانها، أمام لامبالاة زوجها، أن تتحمّل وتستمر، لكن إخفاق بادالبور...

كانت تأمل في تغيير حياة الفلاحين، لكنّهم أعرضوا عنها.

قالت الراني سعيدة مؤنّبة بنبرة مشبعة بالحنان:

ـ ولكن، ماذا تعتقدين؟ أنا وأمير أيضاً غرباء بالنسبة لهؤلاء الناس. وسنظلّ كذلك حتّى لو تركنا قصورنا، وعشنا مثلهم لكي نفهمهم بصورة أكثر، ونساعدهم. ثمّ إنهم سيعتبرون الأمر مجرّد تمثيليّة مضحكة

وشتيمة. حتى لو فرضنا أنّنا فقدنا كلّ شيء، فلا شيء سيمحو ماضينا، سيستمرون في الحذر منّا، وسيكونون على حقّ!

افهمي قصدي يا بنيّتي. تغيير المرء جلدَه شيء كمالي، بينما نعتبره نحن حقّاً، ونستغرب إذا هم أنكروه علينا. لكن حتّى لو أنّك أفلست وفقدت كلّ ما تملكين، ستبقين أميرة مثلما يظلّ المزارع صعلوكاً حتّى لو اغتنى. هم مقتنعون بهذا اقتناعاً راسخاً. وبسبب هذه الهوّة السحيقة بيننا وبينهم هم يحقدون علينا.

هوّة لن يستطيعوا ردمها إلا بقتلنا جميعاً، وهي طريقة جذريّة لمحو الفرق بيننا. الشعب الفرنسي استشعر ذلك يوم كانت المقصلة تشتغل ليل نهار. لم تكن غايته استئصال الأرستقراطيين والأغنياء، بل القضاء على النظرات التي تعكس هذا الفرق. لكن من سوء حظ الفرنسيين أنّهم أخطأوا ولم يستأصلوا البرجوازية أيضاً. خدّرتهم بخطاباتهما المنمّقة حول المساواة والأخوّة، فاستفاقوا على الإمبراطورية.

قالت سلمى وقد تملّكتها الدهشة:

ـ لم أكن أعلم أنّك امرأة ثورية يا راني صحيبة!

ـ لا تبالغي، فأنا محافظة حتّى النخاع! أومن بأنّ الله خلقنا في وضع ما لنقوم بدور محدّد. وكلّ محاولة لتغيير هذا المخطّط الإلهي مآلها الفشل. أقول ببساطة إن أراد الشعب أن يحتلّ مكاننا، فعليه أن يُعدّ العدّة لذلك، وألا يكتفي بالخطابات وبعض الانتفاضات. إن هو نجح في اكتساب الأهليّة اللازمة للحصول على السلطة، والاحتفاظ بها، صارت حقّاً من حقوقه المكتسبة. عندئذ لن يكون أمام العلي القدير، ذي العدل، إلا أن يسجّل هذا الاهتزاز الطفيف على سلّم التغيرات الكونية.

ـ ولكن كيف لهم أن يصلوا إلى الحكم انطلاقاً من لا شيء؟

فندّت عن الراني ضحكة عالية:

ـ انطلاقاً من لا شيء؟ يا له من استعلاء لطيف! حسبتك تعتبرينهم

بشراً مثلنا. كيف وصلنا نحن إلى الحكم؟ كنا نحن أيضاً معدمين مثلهم قبل قرون... قد يستغرق منهم هذا وقتاً طويلاً، لكنّهم إن بلغوا مرادهم، فسيكون ذلك دليلاً على أنّهم اكتسبوا الحقّ في السلطة، ودليلاً أيضاً على أنّنا فقدنا الأهليّة التي كانت سرّ غلبتنا وسيّادتنا.

وختمت المحادثة متمنّية بألا يطلع عليها اليوم الذي سيصل فيه انحطاط طبقتها، وقد بدأت تظهر علاماته، إلى دركه الأخير.

ـ فالعدل الإلهي قضى بألا تسقط من الشجرة إلا الفاكهة الفاسدة.

كان من المقرّر أن تأتي بائعات القماش بعد ظهر ذلك اليوم. فقد كانت سلمى قد توصّلت من باريس بآخر مجلات الموضة، وقرّرت أن تجدّد محتويات خزنات ملابسها. هي من كانت تتسلّى منذ وصولها بارتداء الساري والغرارا التقليدية، وتراقب بمرح صديقاتها الهنديات وهنّ يضفين عليهما لمسة «باريسية» بإضافة بعض الطيّات أو بترصيعها بأحجار كريمة، ها هي تضجر من كلّ ذلك، وتشتاق إلى العودة إلى سابق عهدها. كانت تلبس في بداية إقامتها في الهند على النمط الأوروبي كلّما أرادت أن تثبت استقلالها عن أمير، إلى أن باغتت الراجا يوماً يسرُّ إلى رشيد خان بأنّ لباس زوجته هو أفضل وسيلة لمعرفة مزاجها. شعرت بنفسها مضحكة، وفي ذلك المساء أزالت من خزاناتها كلّ أثر لهذا التمرّد الصبياني.

ومثلما كان الحال في بيروت، لمّا تخلّى عنها والدها نهائياً، ثمّ بعدما خانها وحيد لاحقاً، أخذت سلمى تحاول أن تبحث عن السكينة والهدوء في الخفّة. كلّ ما سعت إلى إنجازه في لوكنو، لاسيما في بادالبور، انتهى إلى الفشل. لم تنجح إلا في التشويش على أعراف ضاربة في القدم، وزرع آمال لم تنجح في تحقيقها، والتسبب في العنف والتوتر بين الطائفتين، وبثّ الخلافات داخل عائلات اعتقدت نساؤها أنهنّ يستطعن أخيراً رفع رؤوسهن. فحتى الفتنة التي ثارت بين الهندوس والمسلمين، أليست هي المسؤولة عنها بشكل غير مباشر؟ هي من

حملت أمير على زيارة القرى البعيدة. لو أنه كان حاضراً، لمنع حدوث المأساة. كانت تودّ أن تساعدهم، لكنّها لم تعمل إلا على إلقاء بذور الفرقة بينهم. ثمّ غادرتهم تاركة إياهم أسوأ حالاً ممّا وجدتهم. كان عليها أن ترحل. حتّى النساء اللواتي كنّ متعلّقات بها أدركن ذلك: ما من واحدة منهنّ حاولت ثنيها عن الرحيل...

كانت تصغي لأمير يتحدّث إلى صهره في الغرفة المجاورة. تستطيع الالتحاق بهما، إذ لم يعد محظوراً عليها لقاء رشيد، لكنّها لا ترغب في ذلك: فهما يتحدّثان في السياسة، ومن الغريب أن هذا الحديث الذي كان يستهويها سابقاً، صار يشعرها بالضجر. ومع ذلك ما إن سمعت اسم غاندي حتّى أرهفت السمع. فهي ما تزال معجبة بهذا العجوز. رغم الإخفاقات والتكذيبات التي تحملها الأحداث الدامية كلّ يوم، يواصل الدعوة إلى نبذ العنف، ويستمرّ في الصوم، وينتهي الأمر بالحشود إلى أن تهدأ، فيما يشبه المعجزة.

يقول رشيد خان:

ـ لقد أصيب غاندي بالجنون هذه المرّة! هل تعلم ما كتب في العدد الأخير من «هاريجان»[1] عن اضطهاد اليهود في ألمانيا؟ نصحهم باختيار طريق اللاعنف بوصفه الوسيلة الوحيدة للانتصار على النازيين!

ـ مساكين هؤلاء اليهود! أتمنّى أن يكافحوا. تخيّل ما يمكن أن يترتّب عن الموقف الذي يدعو إليه غاندي لمواجهة رجال هتلر؟ لن تكون إلا مجزرة!

فعلّق رشيد بنبرة رزينة:

ـ الأمر المقلق هو أنّنا نملك نحن أيضاً حركتنا النازية...

ثمّ أضاف:

---

(١) تعني «هاريجان» أبناء الرب. هكذا كان غاندي يسمي المنبوذين، وهو الاسم الذي أطلقه على جريدة حركته.

ـ هل بلغك تصريح ماهاصباح في مؤتمر ناغرور؟ يقولون إنّ مسلمي الهند، شأنهم شأن يهود ألمانيا، أقليّة لا حقوق لها. وغاندي لم يدن هذا التصريح، ولم يعترض أيضاً على المسيرات التي تنادي بـ«الهند للهندوس». لا أعرف ما يدور في رأسه. كلّ ما أعرف هو أنّ المسلمين بدأ يساورهم الخوف أكثر فأكثر، وأن عددنا يقدر بخمسة وثمانين مليوناً، وهي كتلة لا يمكن تجاهلها. كلّ هذا ينذر بنهاية لا تحمد عقباها.

«ينذر...؟» وتهزّ سلمى رأسها وهي في مضجعها. «بنهاية لا تحمد عقباها!» ما زالت لم تنس بعدُ العنف والكراهية اللذين رأتهما في بادالبور بين فلاحين عاشوا بسلام طيلة قرون. تحريض أخرق كان كافياً لكي يقود إلى الاقتتال.

سيتزايد الإقبال على التحريض للتعجيل باتّخاذ قرار سياسي أو الاعتراض عليه. فترجيح كفّة الميزان بإثارة هذه الحشود الساذجة أمر في غاية السهولة، بل في منتهى الإغراء!

ولكن لماذا تشغل بالها بكلّ هذا؟ هي لا تستطيع أمامه شيئاً. ليتها كانت هندية على الأقلّ، لكان بإمكانها أن تتصرّف، لكن والحال أنّها ـ وهو أمر أبلغوه لها بوضوح ـ أجنبية... حريّ بالأجانب في هذا السياق المتفجّر الآن في الهند ألا يحشروا أنوفهم في السياسة، فضلاً عن السعي إلى أعراف موروثة هي أساس التوازن الاجتماعي. الشيء الوحيد المقبول هو الإحسان. أمّا ما عداه فلعبٌ بالنار.

لطالما رفضت هذه الحقيقة، لكنّها مضطرّة الآن إلى التسليم بالواقع: ليست أقليّة من الفلاحين هي من أنكرتها، بل عبّروا جميعاً بفظاظة عمّا يفكرون فيه. وتذكّرت تقطيب الحواجب وزمّ الشفاه حين كانت تنتقد ـ رغم الحذر الشديد ـ بعض مظاهر المجتمع الهندي. بل إنّها سمعت النساء يتهامسن يوماً: إن كان هذا لا يروقها، ما عليها إلا أن تعود من حيث أتت. ظنّت حينئذ أنّها مجرد ردّة فعل نساء يغرن منها. أمّا الآن، بعد أن ربطت بين هذه الوقائع المعزولة، وبعدما أسداه لها أمير من

نصائح بالاعتدال، نصائح كانت ترى فيها ضعفاً، فهمت أنّه كان يقصد إلى حمايتها من حماسها وصراحتها. خصلتان تعدّان من الأخطاء التي لا تغتفر في الهند، لأنّها تهدد نظاماً سوّته الآلهة.

ـ لقد وصلت بائعات القماش يا راني صحيبة.

ـ من؟

تطلّب الأمر من سلمى بضع ثوانٍ لكي تستدرك:

ـ آه، حسناً! بائعات الثوب... أدخليهنّ!

عالم النساء الذي كادت أن تنساه... وبما أنّ كلّ ما عداه محظور عليها، توجّست من أن يتّجه ولعها إلى... الزينة والبهرجة!

وما هي إلا دقائق حتّى تناثرت فوق أرضيّة الغرفة عيّنات من أجود الأثواب الأوروبية: الأورغانزا والساتان والمخمل المطرّز. ذلك أنّ مصانع الغزل التي اشتهرت بها الهند سابقاً، أغلقت أبوابها منذ زمن بعيد، لأنّ مصانع النسيج الإنجليزية لا تريد أن ينافسها أحد. وقد جاءت راني نامبور، التي عادت من السفر مؤخّراً، لمساعدة صديقتها في الاختيار. أيّ اختيار؟ مضت سلمى، وقد تألّقت عيناها، تعيّن قطعة بعد قطعة، حتّى تجمّع من الثوب ما يكفي لكسوة كلّ نساء القصر. ما من مرّة رأتها الراني بهذا الإسراف. كانت تستزيد على نحو محموم، ومن دون تردّد، إلى أن تراكمت على السرير كومة عظيمة من أثواب الحرير، وهو ما ابتهجت له البائعات.

ـ ماذا ستصنعين بكلّ هذا؟

ـ فساتين. وهل يوجد شيء آخر في هذا البلد يمكن أن أعمله؟

وقبل أن تجد الراني شاهينا الوقت للجواب أعلن الخدم عن وصول الصاغة. أكبر ثلاثة صاغة في المدينة، معروفين بجودة أحجارهم ولطافة صناعتهم في الهند بأسرها، حتّى إن نساء دلهي المولعات بالأناقة يأتين للتزوّد منهم.

أخبرتهم راني بادالبور بأنّها لا ترغب إلا في أحجار من الطراز الرفيع. نشروا على ملاءة بيضاء علبهم المخمليّة، فسارعت تاجرات القماش للتفرج عليها مبهورات: ما من مرّة رأين اجتماع كلّ هذه الحليّ الفاخرة. وتلقي سلمى نظرة عابرة على هذه التحف العجيبة، وتشير إلى بعض العلب. وتهيّأ للراني شاهينا أنّها لا تكاد ترى محتوياتها، فانحنت عليها خفية وقالت:

ـ أأنت مريضة يا سلمى؟

فإذا بعينين حزينتين تنظران إليها في صمت.

انصرف الصاغة بعد أن بالغوا في التوديع، وتبعتهم بائعات القماش مشدوهات. ذلك أنّ شراء الحلي أمر جدّي، لا يمكن أن يتمّ في بضع دقائق. فحتى مهاراني جيهانرباد، وهي أغنى الأميرات، تقضي ساعات عديدة في اختيار حليّها.

ستنقل هؤلاء النمّامات خبر إفراط الراني الشابة في التبذير، وينشرنه في كلّ المدينة هذا المساء. لكن ما لن يعرفه أحد هو ذهول الراجا حين جاءه الصاغة ليقدّموا له الاحترامات... والفواتير. فمنذ أن أصدر المؤتمر قوانينه، فرغت صناديق الولاية تقريباً. صار الفلاحون يمتنعون عن أداء إيجارات الأراضي، حتى إنّ بعض الأمراء أخذوا يستعينون بالشرطة، ويستعملون القوة لتحصيل مستحقّاتهم. وهو ما يرفض أمير اللجوء إليه.

وسرعان ما استعاد أمير رباطة جأشه أمام الصاغة، لكنّهم لاحظوا ارتباكه.

ـ لا داعي للاستعجال! أمام صاحب السمو كامل الوقت لكي يسدّد هذا المبلغ التافه... نحن نعرف أنّ ثمّة أموراً أهمّ تشغل باله... لكن إذا تفضّل وأدّاه لنا، فنحن أناس بسطاء، وكما تعلمون، تجميد مبلغ كهذا يكبّدنا خسارة...

فأجاب الراجا بنبرة جافة:

ـ كم تريدون؟

هتفوا:

ـ لا شيء يا صاحب السمو! نحن مستعدّون لإمهالكم أنى تريدون. هذا شرف لنا! كلّ ما نطلبه هو أن تمنحنا تعويضاً طفيفاً، لنقل ١٠٪... كلّ شهر بطبيعة الحال.

«يحسب الراجا: ١٠٪ كلّ شهر بمعنى أن المبلغ سيتضاعف في غضون عشرة أشهر. يا لهم من أوغاد!»، ثمّ قال:

ـ حسناً أيّها السادة، لدي الآن أمور مهمّة ينبغي أن أسوّيها...

وصرفهم بإيماءة مجاملة لم تخدع أحداً: هذه أوّل مرّة يجد فيها راجا بادالبور نفسه تحت رحمة المرابين.

كانت سلمى جالسة أمام المرآة تدندن وقد ساورها شعور بأنّها على أحسن ما يرام. هي لا تريد أن تتساءل عمّا إذا كانت زجاجة الشامبانيا نصف الفارغة. الموضوعة على المنضدة هي السبب في ذلك. فقد تغيّرت حياتها منذ بضعة أسابيع، أيّ من منذ قام أمير بـ...

كان ذلك، وهو أمر ظلّ عالقاً بذاكرتها، ليلة اشترت كلّ تلك الحلي. لحق بها وقد استشاط غضباً. هي أيضاً انفجرت، وصرخت في وجهه بأنّها ترغب في الطلاق والعودة إلى بيروت حالاً، وأنّه إن حاول منعها، ستقتل نفسها. فهي لم تعد تطيق الحياة التي يفرضها عليها. تسمّر في مكانه مصعوقاً.

ـ كيف؟ وفّرتُ لك كل ما تشتهين! أمّا هذه الحلي، أرجو أن تكوني عاقلة.

وتضاعف كرهها له في هذه اللحظة.

ـ أنت لا تفهم شيئاً أبداً! أريد أن أحيا، أحيا! أهزأ بالحليّ والفساتين والقصر. ما أتوق إليه هو أن أعيش! تحمّلت الحرمان من الخروج، وإذا خرجت فلحضور تجمّعات الرواني البليدة، اللواتي يقضين وقتهنّ في

الأكل والنميمة. ورضيت بأن أقضي نهاراتي في أشياء تافهة، وفي انتظار عودتك. المكان الوحيد الذي أجد فيه متنفساً، وأحسّ بأنني أصلح لشيء، هو بادالبور، وها هي تحظر عليّ هي أيضاً...

وأجهشت بالبكاء، ومضت تذرف دمعاً غزيراً. عبثاً حاول أن يواسيها. لم يجد ما يقول. كان يعلم أنّه ليس حزناً عابراً يمكن أن تمحوه بضع كلمات. فتعلّق سلمى ببادالبور لا يختلف عن تعلّقه، وقد أعجب بتفانيها وإصرارها، لكنّها لم تكن تملك الصبر، وتريد أن تحقّق ما تودّ بأسرع وقت. بأسرع وقت؟... مهما يكن، فقد كانوا سيُعرضون عنها على كلّ حال.

لمّا أخبر الراجا مستشاره رشيد خان بالإحباط الذي تشعر به سلمى نصحه قائلاً:

ـ ينبغي أن تسلّيها. استمتعا بالخروج معاً.

فجفل أمير وقال:

ـ نخرج معاً؟ مستحيل! العاهرات فقط هنّ من...

ـ لا أطلب منك أن تأخذها عند مواطنينا، بما أنّنا لا ننظر للأسف إلى النساء إلا كفرائس جنسية... اذهبا عند أصدقائك الإنجليز. منهم الطيّبون وغير العنصريين. سيسرّهم استقبالكما، فتجد الراني شيئاً من أجواء بيروت. وهذا سيساعدها على التخلّص من أفكارها السلبيّة.

منذئذ صارا يخرجان كلّ مساء تقريباً: ليس إلى حفلات كبرى، بل إلى عشاءات يحضرها أناس يشتركون في نفس الميول. وقد انتهى الأمر بسلمى، بعد أن تخلّصت من أفكارها المسبقة، إلى الإقرار بأنّ هؤلاء الإنجليز يمكن أن يكونوا لطفاء، ومثيرين للاهتمام، وأحياناً ظرفاء. بعض أصدقاء زوجها ولدوا في الهند، ويحبّون بشغف هذه البلاد التي يعتبرونها مثل وطنهم، ويعرفونها أحياناً أفضل من الهنود أنفسهم.

وهذه هي حال الرائد رافستيك الذي دعاهم هذا المساء. وصل جدّه، حسبما يقول أمير، إلى كالكوتا سنة ١٨٥٠، كموظّف شابّ في شركة

الهند القوية. وقد أسعفته قدرته على التحمّل وبرودة دمه، اللذين اكتسبهما بعناية في إيطون وكومبردج، في تسلّق درجات سلّم الشركة بسرعة. وفي سنة ١٨٥٨ تزوّج بنت عقيد اشتهر في السنة الموالية في لوكنو بقمع تمرّد السباهية. وقد قرّر ابنهما البكر جيدون، الذي ولد في بومباي، ودرس مثل أبيه في إيطون وكامبردج، أن يسير على خطى جدّه لأمّه، فعاد إلى مسقط رأسه ضابطاً في جيش الهند. وقد كانت تلك المرحلة هادئة، بعد أن استؤصلت سلطة المسلمين، وصودرت ممتلكات معظم الأسر القوية لمصلحة تلك التي أظهرت الولاء للبريطانيين، فانعزلت عزلة شديدة وغير مجدية، بينما تكيّف الهندوس ـ الذين لم يفعلوا غير أنّهم استبدلوا سادتهم القدامى بسادة جدد ـ مع الوضع، وتعلّموا الإنجليزية، وأفسحوا لأنفسهم مكاناً في المجتمع الجديد.

ولم تُتح لجيدون الفرصة ليفصح عن مواهبه العسكرية. لكنّهم عرفوا كيف يستفيدون من معرفته بالأوردية، وهي لغة مربّيته والخدم الذين أهِلوا طفولته، وأصبح بذلك ضابط استعلامات، وهو ما يسّر له التردّد على مختلف الأوساط الهندوسية والإسلامية، ومكّنه من أن يصبح أحد أكبر المطّلعين على التيارات التي كانت تعتمل في البلاد. لكنّ القدر لم يمهله حتّى ينقل معرفته إلى ابنه إدوار، إذ مات وعمر الطفل لا يجاوز ثماني سنوات. عدا أنّه أورثه في المقابل حبّ الهند واقتناعه بأنّ الإنجليز يتحمّلون مسؤوليّة أخلاقيّة نحو هذا البلد الغني بإمكاناته، الساحر بتنوّعه، المحتاج إلى التهدئة والتربية لتيسير التحاقه بركب المدنية الحديثة.

ورغم أنّ أمير يرتاب في انتماء صديقه رافستيك أيضاً إلى المخابرات، فذلك لا يزعجه كثيراً. فجميع الإنجليز عملاء مخابرات بهذا القدر أو ذاك. وهم يعتبرون ذلك خدمة لبلدهم، بل يعتقدون أنّ من مصلحة الهنود أن يعلموا بأعمال الشغب قبل حدوثها، فيُجنّبوا البلد شرّها.

إنّ الرائد والراجا يفهم أحدهما الآخر، ويعرف كلّ منهما آراءه، وينظران إلى الاختلاف بينها كشيء طبيعي بالنظر إلى موقع كلّ منهما.

سيدور الحديث في هذا المساء عن خبر من الصعب تصديقه: لأوّل مرّة طلبت شعبة من الرابطة الإسلامية، وهي شعبة السند، رسمياً تقسيم الهند إلى فيدراليتين، وهو ما يعني بالواضح تمكين المسلمين من أرض مستقلّة.

علّق الرائد:

ـ ما كانوا ليفعلوا ذلك لولا موافقة جناح. أهو اختبار أم تهديد في نظرك؟

ـ أظنّ ببساطة أنّ القرار نتيجة سخط شعبي وجد جناح نفسه مضطراً إلى أخذه. المسلمون فقدوا الثقة بإخوانهم الهندوس. ثمّ إن عدد من يؤمنون بفكرة «باكستان» أو «الأرض الطاهرة» هي ربّما الحل الوحيد، يتزايد عددهم على نحو مطّرد. وهي فكرة كانت تبدو مضحكة لمّا نادى بها الشاعر محمد إقبال قبل عشر سنوات.

ـ والغريب هو أنكم تطالبوننا بالاستقلال! يوم سنرحل يا عزيزي أمير، ستشبّ حرب أهليّة! ينبغي أن تعترف بأنّ مواطنيك ما زالوا غير مهيّئين للاستقلال. اتّفقوا أولاً، عندئذ يمكن أن نناقش الأمر.

لم يجبه أمير بأنّ تلك الانقسامات خلقها الإنجليز، أو أجّجوها على الأقل لكي يضعفوا الحركة المطالبة بالاستقلال. واكتفى بأن هزّ كتفيه.

ـ اتركونا نسوي مشاكلنا لوحدنا. هل تستكثرون علينا هذا؟

وأمّنت سلمى في قرارة نفسها على قوله: هؤلاء الأوروبيون مقتنعون بأنّهم يعرفون دوماً مصلحة المعني بالأمر أكثر منه. فهم لا يفرضون قوانينهم السياسية والاقتصادية والاجتماعية فحسب، بل يريدون فرض طريقتهم في التفكير أيضاً. وأخطرهم هم أولئك الذين يحبّون الهند مثل الرائد رافستيك هذا. فبخلاف الواقعيين الذين ينسحبون حين يجدون الوضع في غير صالحهم، يقاتل الصنف الأول حتّى النهاية، بل يضحّون بأنفسهم من أجل فرض مصلحة لا يرغب فيها أحد.

«هذا ما قمت به تحديداً في بادالبور... أنا أيضاً كنت مقتنعة بأنّني

على صواب، وأنّ هناك قيماً كونية. أمّا الآن، فلم أعد أعرف... أتوجد هناك نقطة واحدة غير قابلة للجدل يمكن الانطلاق منها لإعادة البناء... ما هي؟ فحتّى احترام الحياة يمكن أن تترتّب عنه عواقب وخيمة...».

ـ المسكينة تعاني من مشاكل نفسية، لعلّ الأمر بلغ بها إلى حدّ التفكير في الانتحار...

جفلت سلمى وهي تراقب النساء اللواتي كنّ يتحدّثن قبالتها. كلا، لم يكنّ يتحدثنّ عنها. الانتحار... لقد فكرت فيه في الآونة الأخيرة، وتخيّلت آخر لحظات حياتها، وآخر الدقائق، بعنف مبرح. عاشت هذا الاحتضار مراراً، ولكن هل صمّمت على الانتحار حقّاً؟ ما يروقها في الواقع هو تذوّق الموت، والالتفاف به، والتيه فيه، رغم شعورها بأنّها تخادع نفسها.

ـ أقترح أن نذهب إلى الصالون، ونترك هؤلاء السادة يخوضون في السياسة.

وافقت النسوة على الاقتراح. سيجدن الفرصة أخيراً للحديث في أمور مهمّة. وقد كانت سلمى تحبّ ربّة البيت لوسي، وهي فرنسية ضئيلة ونشيطة، تميل إلى الصراحة في الكلام: لا يشعر الإنسان معها بالسأم قطّ.

أمسكت بذراع سلمى بألفة، وقالت:

ـ ينبغي أن أعترف لك يا عزيزتي بأنّني أغار منك.

ـ ...؟

ـ وأنا لست الوحيدة! فزوجك يتمتّع بجاذبية كبيرة قلّما رأيت مثلها لدى الرجال. أنت محظوظة جدّاً: لا بدّ أنّه يأتي الخوارق في السرير!

ورحن يقهقهن مستلطفات هذا الكلام الداعر. فقد تدفّقت الشامبانيا بسخاء خلال العشاء، وشعرن بأنهنّ أميل إلى البوح والإفصاح عن مكنونات نفوسهنّ. فمَنْ غير لوسي تحسن الإصغاء إليهنّ؟ فهذه الفرنسية تتقن فنّ الاستدراج، وهي نفسها لا تخفي أنّها عاشت مغامرات غرامية

مع العديد من العشاق، وتزعم أنّ في الإعراض عن الحبّ معصيةً للخالق.

ـ ألم يتعلّق المسيح نفسه بمريم المجدليّة؟

بدا الضيق واضحاً على وجه سلمى ممّا أثار ضحك الحاضرات: فهذه الراني شابّة فاتنة وخجولة مثل طفلة بريئة... لم يخطر ببالهن أنّ ما بدا لهم خجلاً هو في الحقيقة جهل. ألا يشتهر الشرقيون بأنّهم من كبار العشاق؟ لا سيما المسلمين الذين قدّم لهم نبيّهم القدوة.

ـ أصحيح أنّ كلّ شيء بين الزوجين مباح عندكم؟ كلّ شيء على الإطلاق؟

حدّقت سلمى في المرأة السمراء الساحرة التي سألتها هذا السؤال الغريب. ماذا تقصد؟

فتدخّلت صاحبة البيت قائلة:

ـ هيّا يا أرماند، دعي عنك ضيفتنا، وحدثينا بالأحرى عن «ابن العمّ» الذي يبدو أنّه يطمع فيك...

يطمع فيها؟ وضحكن من جديد. وأمرت لوسي كبير الخدم بأن يترك الشامبانيا في مكانها حتّى يتمكنّ من تجاذب أطراف الحياة والشرب على هواهنّ. كنّ قد بدأن يشعرن بنشوة السكر، فاستطبنها. ولمسن في أنفسهنّ جرأة غير معهودة جعلتهنّ يشعرن بالقوة والاستقلال والتواطؤ فيما بينهنّ على الأزواج. أزواج هنّ واثقات من أنّهم بمجرّد ما يخلون إلى بعضهم بعضاً يتحاكون مغامراتهم من دون أن يخطر على بالهم مطلقاً أن زوجاتهم يفعلن مثلهم... فما المانع من أن يعاملنهم بالمثل؟ هنّ لا يفكّرن أبداً في الانفصال عنهم، لكن لا ضير في أن يخُنّهم بالفعل أو بالكلام على الأقلّ... فهذه قضية كرامة! وممّا يزيدهنّ ابتهاجاً هو أنّ الأزواج لا يرتابون فيهنّ أبداً، وبذلك تكون الخيانة مضاعفة!

ولإخفاء ارتباكها، أقبلت سلمى على الشامبانيا من دون أن تفوتها

كلمة من الأسرار المتبادلة. لم تكن تعرف أنّ النساء يمكن أن يكنّ بكلّ هذه الصفاقة. وتذكّرت الضحكات والتلميحات التي كانت تثير خيالها في قصر أورتاكوي، لكن لم يكن يصرّح بشيء قطّ. لم يكن الكلام يصل إلى خلاعة هؤلاء النساء المتأنّقات... وأحسّت فجأة ببعض الضغينة: أتراها ستشيخ من دون أن تعرف هذه المتعة التي يتحدّثن عنها بعيون متلألئة كما لو أنّها متعة لا نظير لها في الوجود؟ سيكون في ذلك إجحاف كبير. فهي جميلة وواثقة من أنّ أمير يشتهيها، مثلما تشتهي هي زوجها الذي تحسدها عليه كلّ النساء. فهل ينبغي أن تطلعه على هذا؟ لن تجرؤ أبداً... وصبّت لنفسها كأساً آخر من الشامبانيا.

لم تكن سلمى بحاجة إلى الكلام. ستتحوّل في تلك الليلة إلى مخلوقة غريبة ستذهب بأمير إلى ما يتجاوز أحلامهما جرأة. امرأة متلهّفة وسخيّة، تراوح بين دور الأمَة المنقادة ودور الكاهنة الخبيرة بالتضحيات الغامضة، والهذيانات المتأنّية، تبتكر ألف مداعبة، ولا تدري أين تشرُد يداها وشفتاها وفرجها، ولا تعترف بتلك الشكوى الغريبة التي تتعالى بطيئة من قرارة حنجرتها. يستسلمان معاً ويتركان نفسيها يتدفّقان ويهتزّان ويغرقان في موجة عميقة، تتحرّك بعيداً في جوف الأرض، فيجرفهما نهر أعمى قد يقتل وقد يهب الحياة، تبعاً لمقاومته أو الاستسلام له. ثمّ تقودهما معاً رياحُ عاصفةٍ عاتيّة، وقد دخل أحدهما في الآخر، في سفر باتجاه الشمس التي تشرق فجأة، وتفتّتهما إلى ألف نيزك تسقط كمطر من النجوم.

... حبيبي، أنت حبيبي... المتخفّي خلف الزوج. لِمَ لَمْ أتعرّف عليك من قبل؟ كانت يداي تخمّنانك، لكنّني لم أكن أجرؤ... لولا احترام جسدينا وازدراؤهما، لكان كلّ شيء في غاية البساطة.

غمر الغرفة سيل عارم من الأنوار، فمدّت ذراعها وعيناها ما تزالان مغمضتين آملة أن تجده بجانبها ـ أوليس هذا الصباح مختلفاً؟ إنّه صباحهما الأوّل... ـ لكنّها لم تجد غير برودة الفراش، فأعادت يدها، وحشرتها تحت الوسادة، ثمّ عادت إلى الحلم.

راحت تحلم بالراجا الغامض الذي سقطت في غرامه هذه الليلة، بالسيد الذي خمّنت رغباته، كما لو أنّها رغباتها، واستشعرت كلّ ارتعاشة من ارتعاشاته، وكلّ انتظار من انتظاراته. وبينما تذكّرت المداعبات التي كانت بينهما، شعرت بحرارة تجتاح بطنها فيما يشبه الرجفة... وبجسدها ينتعش... فعادت إلى النوم.

استيقظت قبيل الظهر، وأمرت الخادمات بتحضير الحمّام بسرعة، وطلبت منهنّ أن يمشّطنها ويعطّرنها! قلبها يحدّثها بأنّ أمير سيأتي، لذلك ألغت زيارة راني جودبار. هي ترغب في أن تخلو إلى نفسها لكي تفكّر فيه أو بالأحرى فيهما. ورغم أنّها انتظرته من الظهر إلى ما بعد العصر، فقد وجدت لأول مرّة الانتظار عذباً، ولمست فيه شيئاً من حضوره. راحت تلتذّ بهذا الإحساس الجديد بأنّها مذعنة، تغمرها السكينة، وتستمتع بروعة الانتماء.

وحين حلّ وقت العشاء، وأمير لم يعد، بدأ القلق يساورها. فقد حرص دائماً على إعلامها بتأخّره في المساء. ولكي تتخلّص من التوتّر، جلست إلى البيانو، ومضت تعزف المقاطع الأولى من «المرايا»، فجرفها سحر رافيل(*) الحزين. ولم تعد يداها وأحلامها هي التي تبثّ الحياة في الموسيقى فحسب، بل سائر جسدها، بحيث صارت كلّ نغمة ترنّ مثل لمسة تداعبها، وتأتي محلّقة شفّافة خفيضة فتجعلها تترنّح.

ـ ماذا تفعلين يا حسنائي؟

وقف أمير عند عتبة الباب، وراح يحدّق فيها بنظرات غريبة. خُيّل لسلمى ـ وهي لا تكاد تصدّق ـ أنّها تقطر حقداً.

ـ ما هذا؟ ألا تأتين لتقبيل سيّدك؟

(*) موريس رافيل موسيقار فرنسي (١٨٧٥/١٩٣٧) مثّل التيار الانطباعي في الموسيقى الفرنسية بداية القرن العشرين. (المترجم)

أمسك بكتفيها، ومضى يبحث عن شفتيها، فشمّت في أنفاسه رائحة الكحول. إنّه ثمل. شعرت بالقرف، وحاولت أن تتخلّص من بين ذراعيه، لكنّه أطبق عليها.

ـ لا داعي للتصنّع، دعي عنك لياقة الأميرات، فهي لا تليق بك!...

تسمّرت في مكانها مذهولة: أأصابه مسّ؟

ـ لا تظنّي أنّ مهارتك بالأمس أزعجتني. فأنا أحبّ النساء المندفعات الهائجات مثلك البارحة. كان يلزم أن أعود ثملاً قليلاً حتّى يتهيّأ لي أنّني أنام مع امرأة أخرى، مع إحدى تلك العاهرات الخبيرات بشؤون اللذة. تخيّلي ذهولي هذا الصباح، يا أميرة، حين أكتشفتُ بأنّ تلك المرأة هي زوجتي...

انحنى بسخرية ثمّ استرسل يقول:

ـ عليّ أن أعترف بأنّك كنت بارعة في إخفاء حقيقتك. لمّا أفكّر في أنّني تمالكت نفسي لمدّة سنتين من امتهان براءتك، أقول: يا لغبائي!

راحت تنظر إليه مصعوقة من دون أن تقوى على الحركة أو الكلام... جفّت الينابيع فجأة، وفي طرفة عين، أتلفت رياح الصحراء الحارقة المروج الخضراء...

وحين أمسكها بغضب مصمّماً على إهانتها، استسلمت له كما لو أصابها خدر. لم يحتج إلى إجبارها، فقد طاوعته بانقياد مريع.

١٨

ـ استيقظي يا هوزور، استيقظي أرجوك!

عبثاً أزاحت راسولان الستائر وسعلت وصفقت أبواب الخزنات، وقرعت الطسوت والأباريق بأرض الحمام الرخامية، بل غنّت بصوتها الحادّ وأحنت على سيدتها في السرير، لكنّ سلمى اكتفت بأن تأفّفت ودفنت رأسها تحت الوسادة. بدأ الذعر يأخذ مأخذه من راسولان. لقد فات الظهر ومضى أكثر من ساعة على طلب الراجا النداء على الأميرة. لم تعد تدري هذه الخادمة أيّ شيء تخشاه أكثر، غضب السيّدة أم نقمة السيّد.

وبينما كانت جاثية على ركبتيها قرب السرير تتأمّل خصلات الشعر الأحمر، وهي موزّعة بين الضيق والإحباط، خطرت لها فكرة فجأة. قالت وهي تنطق المقاطع واحداً واحداً:

ـ اسمعي يا هوزور، هناك خبر رهيب: لقد مات ملك تركيا!

وإذا بالوسادة تطير في وجهها، وبعينين خضراوين يحملقان في عينيها.

ـ ماذا قلت؟ أيّ ملك؟

ـ ملك تركيا يا هوزور. ألا تسمعين الآذان؟ منذ الفجر، ومؤذنو كلّ المساجد ينادون للصلاة.

انتصبت سلمى وقد صحت تماماً: أمات الخليفة عبد المجيد؟ تذكّرت وهي شاردة اللحية البيضاء والنظرة الأرجوانية التي كانت ترهبها في طفولتها. لم تره منذ أربع عشرة سنة، لأنه اختار فرنسا، ومدينة نيس

تحديداً، لإقامة بلاطه في المنفى. لم تشعر بالحزن عليه لأنّها لم تكن تحبّه، وكلّ ما شعرت به قليلاً من الحنين، كما لو أنّ الإمبراطورية، بموت آخر خليفة، لفظت آخر أنفاسها... وتراءى لها قصر طولمة باغجة في بياضه المتألّق. في قاعاته الواسعة حيث يسمع حفيف آلاف أوراق الكريسطال، تتقدّم من العرش الذهبي حيث يجلس أمير المؤمنين وظلّ الله في الأرض، صبيّةٌ صغيرة في زيّها الباذخ، وحليّها المتلألئة...

وإذا بأمير يدخل وقد ارتدى شرواني أسود، وبادرها:

ـ أراكِ ما زلت غارقة في الأحلام هذا الصباح... لا بدّ أنّك تلقّيت الخبر. ستُقام صلاة الجنازة في المسجد الكبير بعد ساعة. أتحضرينها؟

ـ يا له من سؤال! سأحضرها بالطبع. لماذا تبدو عليك الدهشة؟

ـ لا شيء، كلّ ما في الأمر هو أنّني أعرف وطنيّتك، لكنّني لم أتوقّع منك كلّ هذا التقدير للجنرال!

ـ أيّ الجنرال؟

ـ الجنرال مصطفى كمال، طبعاً.

ـ أمات كمال؟

وندّت عنها ضحكة عصبيّة، ثمّ تهاوت على وسائدها.

ـ «ملك تركيا!...» كنت أظنّه... يا للغرابة! لن أحضرها بالطبع. لن أصلي على كمال!

ثمّ نظرت إليه وقالت:

ـ وآمل ألا تحضرها أنت أيضاً!

حدجها بنظرة فاترة، وقال:

ـ لعلّك تغفلين يا أميرة أنّ الجنرال كمال يمثّل بالنسبة إلينا نحن الهنود بطلاً. فهو قد حقّق ما نحلم به: أجلى الإنجليز عن بلده. لذلك

فإن كلّ مساجد الهند اليوم غاصة بالمصلين يبكونه ويترحّمون على روحه.

حدّقت فيه سلمى بنظرة لا تخلو من ازدراء، وقالت:

ـ ولكن قل لي أيّها السيد، كيف تجمع بين هذا الحماس المتّقد للكماليين وبين حبّك للأسرة العثمانية؟

كان واضحاً أنّها تتهمه باللعب على الحبلين. ودّ لو يلطمها، لكنّه يملك سلاحاً أنجع.

ـ كنت أظنّك ممتنّة للجنرال لأنه أنقذ بلادك! لا تنسي أن لولاه لكانت تركيا اختفت من الوجود.

ـ هذا كلام باطل! السلطان شخصياً هو من طلب منه... ولكن ما الفائدة من ذكر هذا؟... كيف أشرح لك أنّ السلطان عهد للجنرال بتنظيم المقاومة في الأناضول، هذا في الوقت الذي اضطرّ هو للبقاء في الأستانة رهينة بيد الإنجليز الذين هدّدوا بتسليم المدينة إلى الإغريق إن هو لم يظهر «التعقل»؟ كيف أشرح لك أنّ كمال بعد أن استنهض همم الحشود باسم السلطان، وتبيّن له أنّ النصر في متناوله، سعى للاستئثار به لنفسه؟ رأى أنّ من مصلحته أن يسكت على الاتفاق السري، ويتّهم الباديشاه بالاستسلام للعدو! كلّما كانت سلمى تحاول كشف الحقيقة عن هذه المرحلة من تاريخ بلادها، لم تكن تلاقي غير نظرات مشفقة، وضحكات مغتصبة. لم يكن يصدّقها أحد، وكانوا يعتقدون أنّها إنّما تدافع عن شرف الأسرة. وأدركت بمرارة أنّ الغالب وحده هو من يملك الوسيلة لفرض الحقيقة التي يشتهي.

حتّى أمير؟ لم يخطر ببالها قطّ أنّ زوجها أيضاً يعتقد أنّ السلطان خائن، ويعتبرها هي وأهلها مجرّد أناس حقراء... شعرت بالغثيان، ولم تعد تحتمل نظراته الهازئة، واتّهاماته لها بالكذب. لقد عثر على وسيلة لحبسها، هي من جُبلت على التمرّد! ماذا تمثل أسوار الزنانا أمام هذه النظرة التي تسجنها، وأمام هذا اليقين البارد الذي يحطّم كلّ اعتراض؟

لاذت بالصمت وقد أرهقتها هذه الصورة التي يحملها عنها، وهذا العار الذي يحاول أن يلصقه بها...

ماذا لو أنكرت عليه الحقّ في الحكم عليها؟... ماذا لو أنّ المجرم والمجنون تخلصا، داخل زنزانتيهما، من قيود الخطيئة المطمئنة التي رضيا بها، ورفضا التوبة؟ ماذا لو تجرآ على إدانة متّهميهما الفضلاء؟... إنّ السحر لا ينطلي إلا على من يؤمن بسلطانه.

رفعت رأسها بمهل، ونظرت إلى أمير. وسرعان ما بدأ يغمرها شيئاً فشيئاً شعور بالنصر، فأعلنت وقد ارتسمت ابتسامة هادئة على محيّاها:

ـ حسناً. بينما ستذهب أنت لصلاة الجنازة، سأدعو أنا صديقاتي لكي نكرع كؤوس الشامبانيا احتفالاً بهذه الحدث السعيد!

وشدّت سلمى قبضتيها الناعمتين بينما استدار أمير من دون أن ينبس وانصرف. لعلّه ظنّها تمزح.

بعثت الخدم على وجه السرعة محمّلين بدعوات إلى لوسي وزوجها الرائد وإلى راني نامبور ورشيد خان وزهرة، ثمّ نصبت مائدة منمّقة في الصالون، تربّعت فوقها في سطول فضّية ستّ زجاجات شامبانيا من النوع الذي كانت تؤثره في سهراتها البيروتية، وذلك احتفالاً بالهالك على نحو يليق بمقامه. لا بدّ من علامة دالة على التقدير بمعنى من المعاني.

التقدير لمن خانهم؟ نعم، ولكن بأيّ مهارة وأيّ رباطة جأش! هي تكره هذا الرجل الذي طالما سكن أحلامها، ومع ذلك لا تستطيع أن تمنع نفسها من الإعجاب بجرأته وغياب الحسّ الأخلاقي لديه، وهي مزايا لا غنى عنها للظفر بالنصر.

«لا يمكن أن تنجب المرأة وتظلّ بِكراً». تردّدت هذه الجملة في أذني سلمى. وتراءت لها أمّها في قصر أرتاكوي يوم وفاة السلطان عبد الحميد: بمحضر أفراد العائلة المتجمّعين مضت تشيد بالرجل الذي احتجزهم لأزيد من ثلاثين سنة، ونصحت أبناء إخوانها وأخواتها

بالاقتداء به عوض جدّهم السلطان مراد الخامس، الذي عجز، من فرط رهافته واستقامته، عن الصمود أمام لعبة السلطة.

وقف رشيد خان عند عتبة الغرفة ونادى:

ـ أميرة؟

كانت شاردة في ذكرياتها فلم تنتبه لوصوله. عجباً! أهو أيضاً يلبس الشرواني؟ ابتسمت له بتودّد وقالت:

ـ كفى من الشكليات يا رشيد بك، ألسنا كالأخ وأخته؟ أين زهرة؟

ـ في المسجد... أنا نفسي سأعود إليه. إنّما جئت لأخبرك بأنّنا لن نحضر حفلتك.

ـ ولماذا؟

ـ أرجوك يا سلمى، أوقفي هذه اللعبة، فهي لا تليق بك.

وجلس رشيد إلى جوارها وراح يحدّق فيها بقلق:

ـ تبدين حزينة في الآونة الأخيرة: ما المشكلة؟

«آه لو كان بوسعي أن أرتمي في حضنه، وأتركه يهدهدني وأصير تلك الفتاة الصغيرة التي تؤاسى...».

ـ ما أوسع خيالك! ألا تعرف أنّني الزوجة الأكثر دلالاً في العالم، والأشدّ حبّاً؟

تناول رشيد يدي سلمى، وشدّ عليهما بقوة، فنظرت إليه مستغربة. ما من مرّة تجرّأ على هذا، وبدا مشوّش البال.

ـ كم تغيّرت! أين الشابة المتّقدة التي استقبلتها قبل عامين في بومباي؟ ينبغي أن تتصرّفي فوراً يا سلمى، أنت تدمّرين نفسك...

ـ يا للخسارة!

ـ أتوسّل إليك، إن كانت لي معزّة عند...

ولاذ بالصمت. ولزمت الصمت هي أيضاً وراحت تتفرّسه: أيظنّ حقّا

أنّها تعزّه كأخ؟ تستطيع بحركة واحدة أن تحطّم هذا الوهم وتنتقم منه ومن أمير وزهرة. من زهرة؟... وتعجّبت من هذا الصوت الخافت الذي يلحّ عليها: أجل! من زهرة. أمّا أمير، فما هو إلا رجل، وما من رجل يستطيع أن يخدعها، بينما زهرة!... ومن الألم الذي تملّكها فجأة فهمت مرّة أخرى مقدار الحبّ الذي كنّته لهذه المراهقة، لحماسها وبراءتها ونظرتها الهائمة، كما أدركت الآن مقدار حقدها عليها بسبب ما تتمتّع به في حياتها الزوجيّة من طمأنينة ويقين بليد، وبسبب تلك السعادة الهانئة المتركّزة حول البطن الذي ينتفخ.

وأسندت خدّها إلى الكتف العريض.

ـ خذني يا رشيد بك، ما عدت أحتمل.

أقالت هذا فعلاً؟ أفكّرت فيه؟ وإذا بيد مطمْئِنَة تداعب شعرها. يد ذكّرتها بتلك اليد الأخرى التي تعود إلى زمن بعيد جدّا. طوّقته بذراعيها وضغطت نفسها إليه وراحت تنتحب.

ـ لا تتخلّ عنّي!

وأخفت وجهها المبتلّ في رقبته، ولم تعد ترغب إلا في شيء واحد: أن يأخذها من دون أن يطالبها بشيء.

وقالت له:

ـ أحبّك.

وندمت فوراً على هذه الكلمة التي انفلتت منها في غمرة اضطرابها.

أمسك بذقنها وقد علاه الشحوب، ومضى يمسح دموعها بمنديل كبير في حركات خرقاء.

ـ أنا أيضاً أحبّك يا سلمى منذ رأيتك تنزلين من تلك السفينة محطّمة وواهنة. لكنّه حبّ مستحيل لأنّك جئت لتتزوّجي صديقي. والآن...

ـ الآن؟

ـ ربّما تضاعف حبّي لك، ولكن...

ـ ولكنك لا تحبّني كفاية!

ثمّ ابتسمت ابتسامة مريرة، واسترسلت تقول:

ـ هكذا هي قصّة حياتي: كلّ الناس يحبونني، لكن ما من أحد منهم يحبّني كفاية ليحتفظ بي...

ـ وأمير؟

ابتعدت عنه سلمى قليلاً، وبدا عليها الإرهاق فجأة.

ـ أنت تعرف جيّداً أنّ أمير إنّما تزوّج عائلتي.

وانصرف رشيد مشوّش البال، فراحت تلوم نفسها على أنّها كدّرته مع أنّه الوحيد الذي لم يسئ إليها قطّ.

وتنظر في المرآة، فترى وجهاً مهزولاً وعينين تطوّقهما هالتان سوداوان. هل تغيّرت وشاخت حقّاً؟ ربّما. فالوجنتان الحمراوان اللتان أشعرتاها بالإحباط في بيروت لمّا كانت تحلم بولوج عالم السينما، انحفرتا. كما أنّها نحفت، وشفتاها اللتان كانت تجدهما دقيقتين بالنظر إلى الوجنتين، صارتا تبدوان مليئتين. والحقيقة أنّها أصبحت تحبّ صورتها هذه. صورة امرأة فاتنة متمنّعة، أو بالأحرى صورة حيوان ساحر كما يقول أمير.

بعد أن بلغت الساعة السادسة ولم يصل أحد من مدعوّيها، تيقّنت من أنّهم لن يأتوا. لعلّهم ظنّوا إقامة هذا الحفل تحدّياً وانتقاماً سافلاً، أو حقارة لا يجرؤ عليها إلا من يتصدّى لرجل ميّت! هم لا يفهمون شيئاً: هل لابن آدم من حياة أحفل من تلك التي تبدأ بعد موته! وهل من عظمة أكبر من تلك التي يكتسبها بعد أن تُذرَف الدموع في الإشادة بأصغر انتصاراته، وتمجيد أبسط أعماله الإنسانية، فتمحو إخفاقاته وحقاراته وأكاذيبه؟

بعد أن يهلك الهالك، يراه من يبقون على قيد الحياة، وبسبب ما يصيبهم من قصر النظر، إنساناً استثنائياً. وهي نظرة تستمرّ لساعات أو لأيام، ريثما تجفّ دموعهم.

لقد اختارت هذه اللحظة التي فرض فيها مصطفى كمال نفسه، وبدا عظيماً، لكي تجابهه أمام الشهود حتّى يتأتّى لهم الحكم على هذه المواجهة غير المتكافئة. لكنّهم لم يأتوا، كما لو أنّهم خافوا من معاينة انتهاك حرمته بعد أن مات، وهو ما يدلّ على أنّ احترامهم لهذا الرجل العظيم ضئيل جدّاً حتّى إنّهم يخشون عليه من أبسط رجّة. أمّا سلمى، فأشدّ احتراماً له منهم، لأنّها لا تستبعد أن يهزمها. على أنّ خوض هذه المعركة هو بالنسبة إليها انتصار في حدّ ذاته...

إنّها تواجه هذا الذي دمّر حياتها، وشتّتها في كلّ أنحاء العالم، هذا الذي تصرّف في أدقّ تفاصيل مصيرها مثلما يتصرّف الخالق في مصائر العباد، وغيّر طريقة إحساسها وتفكيرها. كثيراً ما تفكّر في أنّ عليها أن تعترف بفضله. مهما يكن، فهو الذي خرّب العشّ، وأجبرها على الطيران. لكنّه كسر في نفس الآن جناحيها، واغتصب منها نصيبها من السماء.

والمنفى... أكانت تلك العائلة تخيفه إلى حدّ اضطراره إلى نفيها؟ مع أنّه كان قويّاً، يملك شجاعة من لا يخشون فقدان شيء. فمن لا يملكون ماضياً يكونون أحوج إلى صنع مستقبل مهما كلّفهم ذلك من ثمن. وهي تحسده على تعطّشه إلى السلطة. تعطّش يقود إلى الانتصار أكثر من الشجاعة والذكاء. وهذا هو ما كان ينقص آخر سلاطين بني عثمان وكذا هؤلاء الأمراء الهنود الذين يستنكفون عن القتال، ويفقدون ملكهم شيئاً فشيئاً، كما لو أنّ عطشهم للسلطة ارتوى بمرور القرون.

هكذا تتجدّد المجتمعات، وتُتداول السلطة. فهي لا تؤخذ اغتصاباً من أولئك الذين يصيبهم الوهن، ويضعف إيمانهم بها، بقدر ما تمنح نفسها طوعاً لمن يستحقّها.

إنّ ولع كمال بالحكم لم يكن يقلّ عن ولع السلطان. لكن، أكان بحاجة، لكي يروي هذا الولع، إلى طردهم ومنعهم من أن تطأ أقدامهم تراب الوطن إلى الأبد؟ وإلى حرمان حتّى جثامينهم من حقّ الرقاد بسكينة على ضفتي البوسفور الهادئتين...

بأيّ حقّ حرمهم كمال من صباحات الأستانة الشفافة، وأزقّتها الضيّقة التي تحيط بها في صمت الحدائق المسيّجة والمنازل الخشبيّة الصغيرة والمساجد البيضاء بصورها المتراقصة في مياه القرن الذهبي...

لقد تنازل وليّ العهد عن العرش، وحُبس في قصره، وروقب وحاصره الجواسيس من كلّ جانب، ولم يعد سوى شبح للخليفة. فالحكومة والموظفون والجيش، بل البلد كلّه، صار كمالياً حسبما قيل. فممّن كان هذا الرجل العظيم يخاف؟ أكان من سمّى نفسه أتاتورك، أيّ أب الأتراك، يخشى من أن ينكر عليه الشعب هذه الأبوّة الطارئة؟

هذا هو السؤال البسيط الذي كانت سلمى تودّ أن تطرحه عليه بعد أن تستدعيه وهو ميّت أمام الشهود مثلما دعا الفارسُ القائدَ قديماً إلى مائدته. كانت ستنتزع منه الحقيقة، لأنّ الأموات لا يعود لهم حاجة إلى الكذب.

تفتح سلمى الزجاجة الثانية من هذه الشامبانيا الرائعة، وتسكب كأساً آخر وهي تنظر بنوع من الحنان إلى تدفّق السائل الذهبي الذي ساعدها على نسيان إخفاق بادالبور، ويمكّنها أحياناً من التغلّب على القرف الذي ينتابها حين يعمد أمير إلى...

انقطع الكلام بينهما تقريباً. وشعرت كما لو أنّه يسعى إلى تحطيمها والقضاء عليها. كلّما عادا ليلاً من تلك العشاءات الرائعة التي تنتشي فيها بأنوثتها وجمالها وجاذبيتها، يعمد إلى معاقبتها. ينقضّ على جسدها، ويروح يستمتع به طويلاً، بعنف صامت.

وشيئاً فشيئاً بدأت تعتاد على هذا الإذعان، وتنبّهت بذهول إلى أنّ ذلك يروقها. كانت تستسلم، مثل شيء مسلوب الإرادة، إلى متعة مجهولة تصيبها في الأخير بالإرهاق. راعها ذلك، ولم تستطع أن تسلّم بأنّ جسدها يخونها بهذا النحو. جسدها؟ كلا، ليس جسدها فحسب، بل كلّ أحلامها وأنّاتها وصرخاتها... من أين جاءت هذه المرأة التي تستمتع بالعبودية ليلاً، لكنّها لا تستطيع أن تتذكّر ذلك في الصباح من دون أن ترتعش، ومن دون أن يشمئز منه كلّ كيانها؟

هذا الاشمئزاز شبيه بما كانت تشعر به اتجاه نساء الحريم اللواتي لم يكن لهنّ من شاغل سوى ما يوفّرنه من متعة للسيّد... ما من شيء يجمعها بهذه المخلوقات. فهي بخلافهنّ معتزّة بنفسها وذات طموح...

انتصبت أمام المرآة، ورفعت كأسها بتأنّق وقالت: «في نخب قدري المجيد!»، ثمّ مضت تضحك وتضحك... ولتتصاعد فقاعات هذه الشمبانيا بابتهاج! ما أطيب ما تصنعه بالمزاج! إنّها أشبه برجل مهذّب يجعل المشاكل تتلاشى بحضرته، يستخفّ بالمآسي، ويهزأ بالجدّ. حليف يلفُّها في المخمل، يحميها ويعلّمها أنّ لا شيء يستحقّ الاهتمام، بما في ذلك موت عدوّها اللدود. يعلّمها كذلك كم كانت بليدة قبل قليل حين سعت إلى تحدّي مصطفى كمال! لعلّها الحاجة، مرّة أخرى، إلى التعليل والتبرير للآخرين... وها هي الآن تهزأ بهؤلاء الآخرين وبأفكارهم، هؤلاء الذين يتوهّمون أنّهم يفهمونها، بينما يتعذّر عليها هي نفسها أن... وتتفرّس صورتها في المرآة: أهي أميرة مومس؟ أميرة عاهرة؟... ولِمَ لا؟ فباستثناء أمّها، سليلة السلطان، ألم تكن جدّاتها جميعاً إماء، من أجمل نساء الحريم وأكثرهنّ خبرة بشؤون الشهوة؟ ألم تكن هذه هي وسيلتهنّ في إغواء السلطان والحظوة بالزواج منه؟ تحدث الناس عن ذكائهنّ ومهارتهنّ وبراعتهنّ في الدسائس، وهي كلّها صفات لا غنى عنها للظفر بالمرتبة الأولى والحفاظ عليها! لكن كان عليهنّ قبل ذلك أن يبرعن في فنّ الإغراء. فالإثارة الجنسية في بلاطات العثمانيين كانت هي الصنعة الأولى التي عليهنّ إتقانها. ففي شرايين سلمى تجري دماء ثمانية وثلاثين سلطاناً، أيّ ستة قرون من الحكم المطلق. ولكن أيضاً ستة قرون من الخلاعة. وهي سليلة هذين الفرعين بدرجة متساوية: هي سلطانة وأمَة في الآن ذاته.

سحبت يدٌ قميص الموسلين، فنفر نهدان أبيضان باتّجاه المرآة، وسرت قشعريرة في الردفين من أثر المداعبة: وإذا بخيط من الشامبانيا يسيل على طول البطن قبل أن يتناثر إلى قطرات متلألئة، بينما مضت

اليدان المتوتّرتان تتحسّسان الخصر الضامر، وتصعدان نحو النحر والكتفين، تجوبان هذه الطراوة وهذه الحرارة والنعومة المسكرة. يدان من شدّة ما تتقنان الملاطفة استسلمت لهما وهي تلهث...

ولكن، ما بال هاتين العينين الحزينتين اللتين تحدّقان فيها، هاتين العينين الواسعتين الزمرديّتين؟ ودّت لو تمحوهما فلا تراهما ثانية ـ بحيث لا يبقى سوى هذا الجسد الشهي ـ ولكنّهما تلحّان. عينان تنضحان مرارة ولا تناسبان أجواء هذا الحفل. مرارة ما من شيء يمكن أن يزيلها إلا هذا المشروب الذهبي.

مالت برأسها إلى الخلف ومضت تشرب جرعات طويلة، وتسترق النظر إلى المرآة. ما زالت العينان تنظران بعنادهما المعهود، ولكي تقتلهما عليها أن تسترسل في الشرب. «إنّك تدمّرين نفسك يا سلمى... ـ ولكنّني أحيا يا رشيد بك! انظر إليّ كيف أضحك! لا أشعر بخوف ولا بخزي. انظر. إنّني امرأة!».

احتجبت العينان في المرآة، وطبع الفم قبلةً، ثمّ تهاوى الجسد العاري.

... أشعر بنفسي على أحسن ما يرام... أتراني متّ؟ ما هذه الظلمة؟ أدفنت؟ بدا أمير مرعوباً لمّا عثر عليّ، ورأى الدم... لا بدّ أنّ الكأس تكسّر حين سقط فجرحني... لا أذكر شيئاً ممّا وقع بعد ذلك... لا شكّ في أن أمير بكى... لا بدّ أنّه كان يحبّني رغم كل... يا للأسف...

ـ أزيلي العصابة عن عينيها، أظنّها تستيقظ!

رفعت يدٌ رقبتها بلطف، وراحت تزيل القماش القاتم بحذر شديد، فبدأت سلمى تبصر النور. ما أثقل جفنيه!... ميّزت عند حافة السرير، وعيناها نصف مغمضتين، الراني شاهينا وهي تبتسم.

ـ ما هذا؟ أراك في طراوة الورود! بعد هذه الليلة العصيبة التي قضيناها معك، ها هي الفرحة تعود إلينا! تستطيعين أن تتباهي يا عزيزتي بأنّك شغلت بالنا، وجعلتنا نقلق عليك، لا سيما أمير الذي استبدّ به ذعرٌ

شديد. كيف فكّرت في إغلاق الغرفة على نفسك! فقد اضطررنا للدخول من الشرفة. كنت مستلقية على الأرض مغمى عليك... اعتقد زوجك المسكين أنّ أزمة قلبية ألمّت بك. لم يهدأ إلا بعد أن نبّهته إلى زجاجات الشامبانيا الثلاث الفارغة. اضطروا إلى أن يشربوك مقيّئاً ويُنيموك بعدما وضعوا على رأسك كمّادة فيها قطع ثلج وأعشاب تصلح لهذا النوع من... الوعكات. كيف تشعرين الآن؟

ـ خفيفة... ومغسولة... كما لو أنّني تجدّدت! يساورني يا راني شاهينا شعور عجيب، كما لو أن الحياة دبّت في كلّ ما يحيط بي!

نهضت من الفراش ومشت ثلاث خطوات ثمّ تداعت على السرير منهكة. جلست الراني بجوارها وقالت:

ـ أنت بحاجة إلى تغيير الأجواء يا سلمى. فطول السهر، والنهارات التي تقضينها في الفراش لن تفيدك في شيء. ثمّ إنّك هزلت على نحو مريع. أخبرني أمير بأنّك لم تعودي تأكلين، وأنّك تكتفين بالشرب. أنت بصدد...

ـ ... تدمير نفسي. أعرف ذلك، قيل لي هذا من قبل!

ـ اتركي لوكنو لبضعة أسابيع يا سلمى. اذهبي إلى بيروت لزيارة أمّك. حاولي أن تتداركي الأمر، وأن تحدّدي ما ترغبين فيه حقّاً.

ـ ما أرغب فيه حقّاً؟... وهل لديّ خيّار؟

شدّت راني شاهينا بلطف على كتفيها.

ـ لدينا دائماً خيّار. السؤال الذي ينبغي أن تطرحيه بالأحرى هو: هل لديك الشجاعة لتحدّدي خيّاراً وتلتزمي به؟ لا يمكن أن تستمرّي على هذه الحال. اغتنمي هذه الأزمة، واستفيدي من الطاقة التي يبدو أنّها بثّتها فيك، وابتعدي عن هذا المكان لمدّة من الزمن.

راحت سلمى تتفرّس وجهها الشاحب في المرآة، ثمّ قالت وهي تتنهّد:

ـ لن أستطيع أبداً لقاء أمّي وأنا على هذه الحال. ستدرك على الفور...

ـ ستدرك... وتساعدك.

ـ أنت لا تعرفين أمّي. عاشت أحلك الأحداث وهي مرفوعة الرأس. إنّها تكره الضعف. لا أجرؤ على تخيّل نظرتها إليّ وأنا بهذه الحال.

ـ رويدك سلمى، إنّها أمّك، وهي تحبّك!

ـ أخشى من ألا تكون تحبني أنا بل تحبّ الصورة التي تحملها عنّي...

«واحد من أجل الجميع، والجميع من أجل واحد!» حروف مكتوبة بالأحمر على أرضية بيضاء. لافتة مهيبة معلّقة بعرض شارع قيصرباغ بينما تدوّي أصوات الأبواق في كلّ الجوانب. أمّا الخدم بلباسهم الرسمي، فكانوا يدفعون الراجلين بقسوة، ويجبرون الباعة الصغار على إزاحة معروضاتهم من الطريق: فالموكب على وشك أن يصل، وعليهم أن يفسحوا الممرّ للسادة! ما من أحد بقي في الطريق سوى البقر الذي ظلّ يجترّ غير عابئ بالصلوات.

وأثارت الضوضاءُ فضول سلمى، فأسرعت إلى الشرفة: رأت أعلاماً تغطي الأفق، وسمعت في البعيد صهيل الخيل ونهيم الفيلة بينما ظهرت المظلات المذهّبة المفضّضة فوق رؤوس الحشد الذي كان يتقدّم ببطء، كما ظهرت الفيلة الملكية المجللة بالبروكار، يتقدّمها فيل أبيض يحمل هودجاً منبّتاً بالأحجار الكريمة، يركبه صاحبه: راجا بامبور، وحوله رُفعت أعلام كتب عليها: «لنتّحد ضدّ البلاشفة»، «الراجوات والماهراجاوات متّحدون جميعاً لأجل حماية الشعب».

وخلف راجا بامبور يسير الأمراء والزامندارات القادوين من كلّ الأقاليم، جاءوا للمشاركة بأبّهة في هذا احتجاجاً على القوانين الجائرة التي تبنّاها أعضاء حزب المؤتمر، أولئك الشيوعيون الذين يحرضون رعاياهم الأوفياء ويدعونهم إلى التمردّ عليهم. إنّها أوّل مرّة تبادر فيها «نقابة الراجوات» إلى تنظيم هذه المظاهرة للتأثير في خيال حشود لا تكفّ الدعاية المغرضة عن تلويثه.

بعد أن تشكّلت «نقابة الراجوات» في لوكنو قبل بضعة أشهر خلال جمع ضمّ المئات من صغار الحكّام، قرّرت أن تبدأ النضال. وقد ألقى

رئيسها، راجا بامبور، خلال ذلك الجمع خطبة صفق لها الجميع بحرارة، ركّز فيها على ضرورة الاتحاد ضدّ الحكومة الجديدة: «علينا أن ننسى صراعاتنا، وأن نكون مستعدّين لكلّ التضحيات حتّى نحافظ على مكانتنا الموروثة المشرفة». وراحوا يردّدون جميعاً الشعار الذي كانت تستهويهم جرأته الثورية بمقدار ما كانت تصدمهم: «واحد من أجل الجميع، والجميع من أجل واحد!»، ورغم أنّهم كانوا يردّدونه، لم يكونوا يؤمنون به البتّة. كلّهم مقتنعون بأنّه عديم القيمة. الشيء الوحيد المهمّ هو أن يكون له جرسٌ بديع.

لحق أمير بسلمى واجماً، ومضى ينظر إلى أمثاله من الراجوات وهم يتظاهرون، ثمّ قال:

ـ يا لهم من مجانين!

ـ ألا يشعرون بتفاهتهم وهم يظهرون هذا البذخ للتعبير عن سخطهم على سعي الدولة إلى خرابهم؟ إنّه عمل مستفزّ! حاولت أن أشرح لهم، لكنّهم صمّوا الآذان، وأجابوني: «شعبنا طفل لا يحترم إلا القوة والأبّهة. إن نحن أبدينا له الضعف، سيحاول الدوس علينا. أما إذا أظهرنا له قوّتنا، فسيخاف من شقّ عصا الطاعة علينا، وسيُعرض عن اتّباع تعليمات المؤتمر». ورغم أنّني قلت لهم إنّ الشعب تغيّر، وإنّه بدأ يعي حقوقه، لم أنجح إلا في إثارة امتعاضهم. واتّهموني بالولاء للإنجليز!

كان صوت أمير يشي بكثير من المرارة، وهو ما أثّر في سلمى. إنّها أوّل مرّة منذ شهور يبوح لها بمكنون نفسه. ودّت لو تقول له إنّها تفهمه، لكنّها لم تجرؤ. فمنذ أن ثملت تلك الليلة، ساد بينهما نوع من الفتور. رغم أنّهما يعيشان معاً، ويجاملان بعضهما، صارا غريبين عن بعضهما بعضاً. لم يعاتبها، ولم يسألها. كلّ ما قام به هو أنّه حمل أغراضه إلى جناحه السابق، ولم يحاول قطّ أن يلمسها. أمّا هي فارتاحت لذلك، كما لو أنّ ذلك الغليان الشبقي الذي جرفهما وغرقا في لجته فارقهما فجأة، مثل حمى غريبة ألمّت بهما، وهما الآن لا يكادان يذكرانها.

تواطآ بصمت على ألا يخرجا معاً. ولم تعد هي ترغب في لقاء أحد.

صارت تشعر كما لو أنّها في نقاهة. وهو؟ هو من لم يكن يهتمّ بأناقته، صارت تراه باستغراب في الآونة الأخيرة يتجوّل داخل القصر بالبيجاما الهندية، أو يقضي يومه في تدخين النرجيلة ولعب الشطرنج مع بعض أصدقائه المقرّبين.

وقد بدأت تفهم الآن.

استمرّ أمير يتحدّث كما لو أنّ قلبه طفح بما يملؤه من مرارة.

ـ لم يعد بعض الأمراء يكلّمونني. يعتبرون أنّ تقديمي بعض التنازلات للفلاحين خيانة، وأنّني متواطئ مع المؤتمر. لم أعد أستطيع الحديث حتّى مع بعض الأصدقاء القدامى. أأنا مخطئ حين قدّرت أنّ الديمقراطية هي السبيل الوحيد أمام الهند لكي يتقدّم؟

راح يذرع الغرفة وهو يشدّ قبضته:

ـ أتساءل أحياناً عمّا إذا كانت السنوات التي أمضيتها في إنجلترا لعنة أصابتني. سعيت في البداية إلى تمثّل أفكارهم لكي أحاربهم بسلاحهم، لكنّني تغيّرت من دون أن أشعر. انتهوا بأن أقنعوني بأنّ قيمهم كونية، وأنّ أخلاق «الإنسان الأبيض» هي الأخلاق الحقّة! أمّا الآن، فلم أعد أدري. فأنا أكرههم، وفي نفس الآن يتهيّأ لي أنّهم على حقّ... هنا يكمن انتصارهم. لا شكّ في أنّهم سيرحلون قريباً، لكنّهم في الواقع، سيبقون هنا...

ثمّ أضاف وهو يضرب على جبينه:

ـ ...هنا في أدمغتنا التي تأثّرت بالبيض. ونحن من سيتقلّدون مسؤولية تسيير هذا البلد، لأنّنا تلقينا تعليماً حديثاً، من نكون؟ أنحن هنود قادرون على فهم طموحات شعبنا وتحقيقها؟ أم ترانا نسخاً رديئة من الإنجليز، تفخر بحصولها على الاستقلال، بينما هي لا تعمل في الحقيقة إلا على إدامة العبودية؟

...إذن، فأنت أيضاً تشعر بأنك غريب...

نام أمير وسلمى هذه الليلة معاً. مارسا الجنس بلطف كما لو أنّ كلاً منهما حاول أن يواسي الآخر.

١٩

ـ كلا يا عزيزتي، لا يمكنك الخروج. توجد مظاهرات في حيّ أمينأباد!

فرضت الحكومة منذ ما يزيد عن شهر «المادة ١٤٤»، وهي أقرب إلى حالة طوارئ، وذلك لمنع المواجهات بين الهندوس والمسلمين. وقد كانت لوكنو ما تزال إلى ذلك الحين هادئة نسبياً. لكنّ الصراعات الدامية في المدن والقرى المجاورة رفعت التوتّر على نحو خطير. ورغم الإجراءات الأمنية، كان جميع الناس يتظاهرون: الطلبة المسلمون، بسبب رفع علم المؤتمر فوق المدارس ومنع علم الرابطة، والفلاحون لحمل الحكومة على إجبار الأمراء على احترام القوانين الجديدة التي صدرت لمصلحتهم، والأمراء للتعبير عن رفضهم، والمنبوذون للحصول على حقّ الصلاة في المعبد ـ وهو حقّ تنكره عليهم الطوائف العليا من الهندوس ـ، والمسلمون، لأنّ الهندوس يسعون لأن يفرضوا عليهم تربية «هندوسية»، والهندوس، لأنّ المسلمين يستمرّون في ذبح البقر وأكل لحمه.

لم تحدث مواجهات حتّى الآن، لكن حتّى متى؟ كان المستاءون يتبنّون استراتيجية اللاعنف التي يدعو إليها المؤتمر، والتي أظهرت نجاعتها ضدّ المستعمر البريطاني، ويكتفون بالتظاهر. على أنّ السجون كانت تزداد امتلاء يوماً بعد يوم، والشرطة بدأت تشعر بأنّ الوضع يتجاوزها.

قالت سلمى بنفاد صبر:

ـ ينبغي أن أخرج! لا تنس أنّني سأسافر إلى بيروت بعد أسبوع. ينبغي أن أشتري هدايا لأمّي.

إنّها أوّل مرّة تعود إلى لبنان لزيارة السلطانة منذ زواجها. وهي من الفرحة بحيث لم يعد المكان يسعها. نسيت الكوابيس التي أرهقتها في الأشهر الأخيرة. بدأت تتغذّى بشكل طبيعي، ولم تعد تقرب الشامبانيا. وشيئاً فشيئاً تخلّصت من نظرتها القلقة، وسحنتها الكئيبة.

أمّا علاقتها بأمير فتحسّنت. صارا يعيشان من دون انفعال ولا مشاكل، تماماً مثل «زوجين عجوزين» كما كانت تقول في نفسها ساخرة وهي تعجب ممّا ولّده فيها ذلك من ارتياح. وهي تستمتع بهذه اللامبالاة الهانئة وإن كانت تشعر بشيء من الخيبة لكون أمير تقبّل هذا الوضع بكلّ هذه السهولة.

لكنّها لم تكن ترغب في أن تشغل بالها بالأسئلة. ما كان يستحوذ على فكرها هو بيروت والبيت الأبيض الحفيّ، وابتسامة أمّها، وتدليل القلفاوتين وحبّ زينيل، وأصدقاؤها وذكريات شبابها التي ستلقاها من جديد.

سمعت الخصي يقول بصوته الخشن:

ـ هذه رسالة جاءتك يا هوزور.

وقدّم لها ورقة صغيرة زرقاء على صينيّة فضيّة. إنّها برقية قادمة من بيروت.

نظرت إلى أمير وقد ظهرت عليها علامات الارتباك.

ـ افتحيها يا أميرة! لا بدّ أن السلطانة هي من بعثتها لتؤكّد لك بأنّهم سيكونون في انتظارك حين تنزلين من السفينة.

ولماذا ستؤكّد؟ سيكونون بانتظارها طبعاً! بل سيقيمون حفلاً لاستقبالها، كما جرى العرف بذلك هناك. كرم الضيافة شيء مقدّس عندهم: سيتركون جميع مشاغلهم، ويهرعون إلى المرفأ وقد ملأوا أيديهم بباقات الورد.

قلّبت سلمى البرقية بين أصابعها. بالنظر إلى خاتم البريد، استغرقت أحد عشر يوماً لتصل إلى لوكنو. وقد مضى أسبوعان على إخبارهم بأنّها قادمة إلى بيروت.

أخذت نفساً عميقاً، وبحركة رزينة مزّقت الظرف الأزرق.

«توفيت السلطانة هذا الصباح. نشعر بحزن عميق. نفكر فيك. خادمك الوفي زينيل».

بعد ذلك بوقت طويل، ستحكي زهرة لسلمى أنّها سمعت عويلاً، فجاءت مسرعة لتراها تخدش وجهها وتضرب رأسها إلى الجدار بينما يحاول أمير وإحدى الخادمات منعها من ذلك، لكنّها كانت تدفعهما وتركلهما. ظنّت أنّ مسّاً أصابها. كان الدم يغطّي وجهها، ولم تعد تسمع شيئاً.

وبينما كانت توشك على الاختناق، رأت أخاها يتناول آلة تصوير كانت موضوعة على المائدة، وراح يلتقط صوراً. وفجأة تسمّرت تلك المرأة التي ظنّوا أنّها فقدت السمع والبصر، فلم تعد ترى وتسمع شيئاً من حولها، ثمّ انقضت مثل لبؤة على زوجها، عدا أنّها سقطت أرضاً مغمى عليها قبل أن تمسك به.

مضى أسبوع وهم خائفون على سلامتها العقليّة. تعاقب عليها أمهر أطبّاء المدينة. واستطاعوا أن ينيموها بفضل خلائط من القات وأعشاب لا يعرفها سواهم. قالوا: «لا ينبغي مواجهة الألم المبرح مباشرة، وإلا فإنّ العقل يتمرّد ويهرب». وأضافوا بأنّ تهدئة أوجاع الروح يلزمها تعطيل الوعي، والحفاظ على الجسد في حالة غيبوبة، بل إضعافه حتّى إذا استيقظ لا يجد فيه الألم ما يقتات به.

«كيف سمحت له نفسه بأن يفعل ذلك؟ لن أغفر له أبداً».

وشيئاً فشيئاً بدأت سلمى تخرج من ذلك الضباب الكثيف الذي ظلّت تتخبط فيه منذ بضعة أيام، وكان أوّل ما عبّرت عنه استياؤها ممّا فعله ذلك الوحش الذي لم تعد تطيق أن تدعوه زوجها!

كيف راح يسخر منها عوض أن يساعدها؟ مع علمه بمقدار حبّها لأمّها.

بموت أنيدجيم شعرت سلمى كما لو أنّ طفولتها وشبابها ماتا معها، وأنّ كلّ ماضيها مهدّد بالزوال. لم يعد لها أحد يتذكّر معها، يتذكّر من خلالها، شخص يكون لحمه هو لحمها، وذاكرته هي ذكرتها، وعيناه هما عيناها. يتنفّس العالم، فيتملّكه، ثمّ يعيده إليها مدجّناً ودوداً... خنقها النشيج. هي غير قادرة على احتمال هذا الفراق. لا يهمّ إن كانت لم تلتق بالسلطانة منذ عامين، فمجرّد وجودها على قيد الحياة كان يواسيها. وراحت تتساءل: «ماذا سيكون موقفها منّي؟ وماذا كانت ستفعل لو أنها مكاني؟»، لم تكن تفارقها. كانت حاضرة معها دوماً إلى أن حاولت خلال الأشهر الأخيرة نسيانها، لأنّها لم تعد قادرة على تحمّل نظرتها، أم تراها لم تعد تستطيع تحمّل نظرتها هي إلى نفسها؟ لم تكن تميّز بين النظرتين لأنّ العلاقة بينها وبين أمها، رغم تمرّدها عليها أحياناً، كان فيها هذا النوع من الحلول، وهذا التوافق على ما هو جوهري.

لقد قتلتها... نعم هي، سلمى، من قتلتها. فخلال هذه الأشهر المجنونة لم تكن تدمّر نفسها، بل تدمّر في الحقيقة السلطانة! كسّرت اللامبالاة الرابط الذي كان يصلها بأمّها، رابط الحياة الأقوى من البعد المكاني، فأدّى إلى موت أمّها...

كانت قد قتلتها قبل ذلك بكثير بضربات صغيرة، أو بالأحرى جرحتها، مثلما تُقلّم شجرة تدريجيّاً وتُقطّع أغصانها الأكثر إظلالاً. وهو أمر بدأ منذ زمن بعيد... ما زالت تذكر وهي في الأستانة ذلك الحقد الذي شعرت به يوم كانت تلعب دور السلطان وضربت أحمد بينما كان يؤدّي دور الجنرال اليوناني، فاستشاطت السلطانة غضباً، ورفضت أن تنصت لتبريراتها وسجنتها في غرفتها. لم تكن تلك العقوبة شيئاً أمام الإحباط الذي أحسّت به الطفلة اتّجاه ظلم هذه الأمّ التي تمثل بالنسبة إليها نموذج المرأة المثاليّة الكاملة.

ثمّ رسائل الأب التي أخفتها عنها في لبنان «حفاظاً على مصلحتها»، وكذلك إلحاحها الصامت والعنيد على ألا تتزوّج ابنتها إلا أميراً. كلّ ذلك واجهته سلمى بانقياد. لكن رغم هذا الإذعان، وربّما بسببه، كانت تتمرّد قرارة فينفسها.

أأدرك أمير ذلك قبلها؟ أهذا هو سبب تصرّفه المحيّر؟... هل استشعر خلف الألم ارتياحاً كانت تخفيه حتّى عن نفسها وهي تبكي يأسها عالياً؟ أتُراه فهم من إقبالها على إيذاء نفسها ـ بفطنة لا يمكن اكتسابها إلا بتجربة طويلة في التخفّي، أو بالتباس في العواطف ـ حاجتها إلى معاقبة ذاتها على أنّها لم تتألّم كفايةً؟

ـ آبا...

وتهدّج صوت زهرة قليلاً.

ـ آبا، أمير بك يودّ لقاءك... رفضتِ طلبه بالأمس، فبرّرتُ له ذلك بأنّك ما زلت متعبة، لكنّه لن يصدّقني اليوم... إنّه يبدو في منتهى الانكسار يا آبا... لا يكفّ عن ترديد أنّه هو المسؤول عمّا حلّ بك... أرجوك يا آبا، إنّه يحبّك كثيراً!

ـ حسناً! إن كان يحبّني حقّاً، فلينتظر إلى أن أرغب في رؤيته.

ثمّ وضعت رأسها على الوسادة وأغمضت عينيها مصرّة على ألا تترك نفسها تلين أو تتنازل. إذا كان عليها أن تعيش هنا ـ وهل لها مكان آخر تذهب إليه؟ ـ فينبغي أن تفرض شروطها. قضت حياتها كاملة وهي تجري وراء نيل رضا الآخرين، وأن تكون الفتاة الحلوة التي يحبّها الجميع، والزوجة المعشوقة والراني المحترمة. أمّا الآن، فانتهى كلّ ذلك! بموت السلطانة، اختفى الكائن الوحيد في الكون الذي كان يستطيع أن يفرض عليها قانونه.

والتقطت نفَساً عميقاً. لأوّل مرّة تشعر بنفسها حرّة! حرّة تماماً!

مضى أسبوع من دون أن يختفي الغثيان الذي ألزمها الفراش،

فوصف لها حكيم صاحب حمية غذائية صارمة لأنه ارتاب في إصابتها باليرقان. فقد كان هذا الوباء متفشّياً في المدينة.

ـ اليرقان؟ يا لها من بلادة! لم يسبق لي أن رأيتك بهذا التورد!

جاءت لوسي لعيادة سلمى. فلمّا حدّثتها عن أعراض مرضها، مضت تقول بنبرة خبيرةٍ بالعلل:

ـ أو لا يكون بالأحرى... إعلاناً عن حدث سعيد؟

جفلت سلمى.

ـ حدث... كلا، مستحيل!

وعضّت على شفتيها أمام دهشة صديقتها. مهما يكن، فهي لا تستطيع أن تشرح لها بأنّها منذ شهور، أيّ منذ ذلك اليوم الذي ثملت فيه احتفالاً بوفاة كمال، هي وأمير لم... كلا... حدث ذلك مرّة! ليلة مظاهرة الأمراء. كان يبدو في منتهى التعاسة، فوجدا نفسيهما... مثل طفلين تائهين. أيمكن أن يحدث هذا تلك الليلة؟...

وأمام سحنة سلمى المرتبكة، قرّرت لوسي أن تأخذ بزمام الموقف.

ـ سأبعث لك طبيبتي بعد ظهر اليوم. إنّها امرأة رائعة. أرجو أن تتركي هذه السحنة اليائسة: لا داعي لأن تعتبري الحمل مصيبة كبيرة!

وضمت سلمى بين ذراعيها، ثمّ ندّت عنها ضحكة عالية.

ما كادت الطبيبة تغادر الغرفة حتّى هرعت النساء إليها. تجمّعن حول سريرها بصخب مثلما يتجمّع النحل حول ملكته، ورحن يهنّئنها. مضت سنتان وهنّ ينتظرن ويراقبن أبسط شحوب، وأدنى علامة إعياء حتى أوشكن على فقدان الأمل. كنّ يُردّدن بأسى: «يا للأسف! زوجة بهذا الجمال وهذا النبل، غير قادرة على أداء مهمّتها!... وهل أمام السيد من حلٍّ غير تطليقها؟»، لا سيما أنّ المرشّحات لتعويضها كثيرات، كلهنّ شابات هنديات جميلات وسليلات أسر شهيرة. فالراني عزيزة لم تعد ترغب في أن يتزوّج أخوها أجنبيّة.

لكن، ها هو الوريث، سيّد المستقبل، قد أتى أخيراً... ومضين يقبّلن يدي أميرتهنّ من الفرح والامتنان، ويلثمن حبّات السبحة هامسات بالأذكار والدعوات.

لم تكن سلمى تَراهُنّ وهي جالسة على حافّة السرير. كانت تتأمّل شعلة شمعة تنازع في الجانب الآخر من الغرفة. إنّها اللحظة المفضلة لديها، لحظة نضال النار الشجاع وهي ترفض أن تتلاشى. كانت في طفولتها تحبس أنفاسها وتحدّق فيها بإمعان لعلّها تمنحها القوّة. وكانت تبكي أحياناً حين تموت.

انطفأت الشمعة، وأحسّت سلمى على خديها ببرودة رطبة. ماتت... *ماتت أنيدجيم في اليوم الذي وهبتُ فيه أنا الحياة، كما لو أنّها اختفت لتفسح لي المكان، أو كما لو أنّني انتظرت اختفاءها لأحلّ مكانها...*

عدّت من جديد وكرّرت العدّ، لا مجال للشكّ: حدث ذلك مساء اليوم الذي ماتت فيه أمّها. كما لو أنّ للجسد قدرة على التنبّؤ بالغيب... عرف قبل أن تعرف هي... وتهيّأ لها فجأة أن أمّها ما دامت على قيد الحياة، لا يمكنها أن تكون، بداهة، إلا ابنة. فـ«الأم» هي السلطانة، ولا يمكن أن تحتلّ مكانها وهي حيّة.

ألا تعود إلى الهذيان من جديد؟ أتصدّق بأنّ جسدها امتنع عن الإنجاب إلى اليوم الذي التقط، على بعد آلاف الأميال، الإشارة التي تسمح له بأن يتفتّح؟ على أنّ الحقيقة..

وبتردّد وخجل وضعت يدها على بطنها. ها هي الحقيقة شاخصة أمامها الآن، وهي لا تستطيع ولا تريد أن تتركها تفلت منها! وبحذر تتحسّس بطنها بحثاً عن اختلاج تحت راحتها، فيخيّل إليها أنها تشعر بعالم يولد، فتغمض عينيها وقد غمرتها السعادة.

ـ هذا شيء رائع يا حبيبتي!

اقترب من السرير مستبشراً وقد بدا عليه الارتباك. نظرت إليه سلمى مستغربة: لقد ظلمته. لم تتصوّر قطّ بأنّه سيشاركها سعادتها بهذه الصورة.

ـ ينبغي أن تهتمّي بنفسك. أريد أن يكون ابني...

«ابني؟...» لم تسمع سلمى بقيّة الجملة. وفجأة شعرت بنفسها تتصلّب. «يا له من مجنون! هو لا دخل له في هذا الأمر. لا دخل لأحد فيه. هذا طفلي أنا!». وراحت ترتعد من الفزع: لن يأخذوا منها طفلها! فإذا كان هذا الرجل قد شاركها الفراش، فلا ينبغي أن يتوهّم أنّ له حقوقاً! ومضت تحدّق فيه بعدوانيّة وتحدّث نفسها: لم يكن على الأكثر إلا زوجاً عادياً، وعشيقا سيّئاً، أمّا أن يكون أباً لوليدها... وطوّقت بطنها بذراعيها على نحو غريزي. إنّه قلعة بدأت تنعزل وتتحصّن لتحمي الكنز الثمين الذي يطمع فيه هذا الغريب.

وفجأة لم تعد تشعر بأنّها هي «الغريبة»، وأنّها «زائدة»، بل صارت تحسّ بأنّها هنا، ضاربة بجذورها في هذه الأرض التي صارت تخال نفسها بغتة جزءاً منها، بمثابة طينها الأسود وعشبها الذي ينحني للريح. هي الغابة المهيبة وحرارة هذا المساء الهادئة.

وشيئاً فشيئاً هدأ روعها. استغربت شعورها بكلّ هذا الخوف: من يستطيع أن ينتزع منها هذه الحياة المستقرّة في قرارة بطنها؟ ليتحدّثوا ما شاءوا، فلن تأبه بكلامهم. لم تعد تفهم حتّى تلك الأهميّة التي كانت توليها لهم من قبل، كما لو أنّ وجودها كان يتوقّف على ما يقولون، وما يقرّرون. كما لو أنّها لم تكن غير صدَفة فارغة.

وحطّ بصرها على الرجل الجالس بجوارها، فابتسمت له بلامبالاة.

ـ كلي ما شئت إلا السمك، فهو يفسد بشرة الجنين! كما لا ينبغي أن تتطيّبي أو تضعي مساحيق التجميل وتزيّني شعرك بالزهور. فهذا قد يثير حسد الجن، فيؤذون الصبي.

وبوقار مصطنع، مضت البيغوم نعمت تعدّد وصاياها ومحظوراتها ـ أيّ

ما ينبغي أن تعرفه كلّ امرأة حامل ـ والنساء حولها يؤمّنّ على قولها بتحريك رؤوسهنّ. ومَنْ غير جدّة طاعنة في السن تستطيع أن تنصح الراني؟ فأحفادها وأبناء أحفادها لا يحصرهم العدّ، وكلّهم يتمتّعون بالصحة والجمال، مما يدل على أنّ أمّهاتهم امتثلن امتثالاً تامّاً لنصائح الجدّة.

فلكلّ ساعة من اليوم، ولكلّ ظرف قواعد دقيقة ينبغي احترامها. ويكفي أن يفكّر المرء قليلاً لكي يفهم. على أنّ شابّات اليوم لم يعدن يثقن إلا في طبّ الإنجليز، ويتصوّرن أنّ الوصفات القديمة عفى عنها الزمن. يا للأسف! وها هي النتائج الكارثية ظاهرة: زيادة نسبة الإجهاض بين الحوامل، وكثير من الأطفال يولدون مشوّهين، ولا أدلّ على ذلك من ابن «نشأت» الذي ولد ببقعة أرجوانية تكسو نصف وجهه، مع أنّها نُصِحت بعدم أكل البنجر ابتداء من الأسبوع الحادي عشر من الحمل.

ورغم الكآبة التي استحوذت على سلمى وهي تنصت إلى كلامهنّ، كانت تسألهنّ أحياناً على سبيل المجاملة. فقد أثر فيها الاهتمام الكبير الذي أحطنها به. فمنذ أن انتشر الخبر، صارت محطّ كل الأنظار، وموضوع كلّ الأحاديث والآمال والمخاوف. أصبح القصر يعيش على إيقاع رغباتها، يسعى كلّ من فيه إلى أن يقدّم حظّه من الرعاية، بما في ذلك الراني عزيزة التي أمرت بأن تغلّف كلّ الأطباق التي تقدّم لها بورقة دقيقة من الذهب. فالذهب، وهو أمر معروف، يبعث النشاط في الأمّ، ويقوّي عظام الجنين.

كلّ هذا كان من المحتمل أن يرهقها في الأوقات العادية، لكنّه اليوم صار يطمئنها. فلولاهنّ، لما وثقت من أنّها حامل. فرغم أنّها تستنطق كلّ مساء في المرآة بطنها وثدييها، فهي لا تحسّ بشيء. وحتّى الغثيان لم يعد ينتابها إلا في أوقات متباعدة. فهل أخطأت الدكتورة؟ يساورها القلق، ويصبح أقل اختلاج يشغل بالها.

صارت تقضي معظم وقتها مستلقية في السرير المتأرجح الموجود في الصالون الذي تحوّل إلى مخدع. لم تكن ترى من هناك غير رؤوس

الأشجار وقطعاً من السماء تظهر من خلال الأوراق. ما عادت ترغب في الخروج أو زيارة صديقاتها. كلّ ما يستهويها هو أن تحلم.

إن كان المولود ولداً، سمّته سليمان، مثل جدّه السلطان سليمان القانوني، وربّته على نحو يجعله ملكاً عظيماً. سيُجري إصلاحات جرّيئة، ويطاوعه الشعب حين يدرك بأنّه يعمل لمصلحته. ستحسّسه بوضع النساء المزري، فيعمد إلى تحريرهنّ شيئاً فشيئاً. كلّ ما لم تستطع هي وأمير فعله، هو بسبب التردّد بين أصوله الإقطاعية وأفكاره الليبرالية، وهي بسبب أصلها الأجنبي، سيتمكّن ابنها من إنجازه. ستقف إلى جانبه لكي ترشده. وهكذا سيغيّران معاً بادالبور، وسيقيمان ولاية حديثة تثير حسد الولايات الأخرى، وتدفعها إلى محاكاتها. سيكونان رائدين، وسيثبتان أنّ الهند تستطيع أن تكون دولة عظيمة من دون أن تفقد روحها، ومن دون أن تذوب في النموذج الإنجليزي.

وإذا كان المولود بنتاً؟...

وتضطرب أفكار سلمى... بنت... وتحاصر مخيّلتها صور الحبس في البيت والبرقع الأسود والزواج المبكّر... بنت... محجّبة ومعروضة للبيع... وشعرت بقشعريرة تسري في أوصالها.

عادت هذه الفكرة لتعذّبها في الأيام اللاحقة. لماذا لم تفكر فيها من قبل. فبما أنّ كلّ من في القصر واثقون من أنّ المولود لا يمكن أن يكون إلا ذكراً، انتهى بها الأمر هي أيضاً أن اقتنعت بذلك. ولكن إن كانت بنتاً، فكيف سيتصرّف أمير؟

اختارت مساء يوم كان فيه مزاجه رائقاً على نحو خاص لتطرح عليه هذا السؤال. ما كاد يسمعه حتّى جفل، كما لو أنّه سمع شتيمة، لكنّه تمالك نفسه على الفور.

ـ إن كانت بنتاً؟ حسناً، سأبحث لها عن أغنى زوج، وأنبل من في الهند قاطبة!

ـ وإذا رفضت الزواج؟

نظر إليها مذهولاً، ثمّ استغرق في الضحك.

ـ يا لها من فكرة! هل رأيت يوماً فتاة لا ترغب في الزواج؟ الزواج هو مطلب كلّ امرأة، وشرط سعادتها. فهي خلقت لتنجب أطفالاً. وأنت يا حبيبتي دليل حيّ على ذلك: منذ أن حبلت وأنت تزدادين تألّقاً!

لاذت سلمى بالصمت ولم تردّ. فليس هذا وقتاً مناسباً لإغضاب أمير، لا سيّما أنّها تريد أن تعرف أكثر.

ـ إن كانت بنتاً، هل سيكون عليها ارتداء الحجاب ولزوم البيت؟

هزّ أمير رأسه وقد بدا عليه الضيق.

ـ لِمَ تسألينني هذه الأسئلة يا سلمى؟ أنت تعرفين أنّ ذلك ضروري، وإلا تحطّمت سمعتي وسمعتها، ولن يقبل أحد الزواج منها. مجتمعنا لا يمزح إذا تعلّق الأمر بشرف النساء. لكن اطمئني، فهي لن تعاني لأنّها لن تكون قد عرفت، ولن تتاح لها الفرصة لتعرف شيئاً آخر غير الذي عاشت.

«اطمئني...» عوض أن تطمئنها هذه الجملة، أصابتها بالرعب: بنتها لن تكون قادرة حتّى على تخيّل الحرية! هذا مستحيل. فهي لن تنجب سجينة. لن تكون طفلتها ضيّقة الأفق مثل أولئك البنات اللواتي يقصرن حياتهنّ على العمل من أجل راحة الأسرة، بل ستكون امرأة فاعلة في المجتمع، تساعد مثيلاتها على التحرر من القيود التي تطبق على ذكائهنّ، وتسلب إرادتهنّ منذ قرون. بنتها ستكافح... ولن تدعهم يعاملونها كأجنبية. هي على الأقل سيكون لها الحقّ في النضال!

ولكن، هل سترغب في ذلك؟ هل تستطيع سلمى أن تنقل لها روح التمرّد هذه التي تسكنها؟ هل يمكن لمن لم يعرف العدل أن يدرك معنى الجور؟

إن جمود الهند يفزعها. فمع مرور الأيّام، يستطيع تثبيط العزائم، واستئصال النقمة، وشيئاً فشيئاً يسلب الإرادة ويقضي على الرغبة.

وتساءلت: «كيف ستقوى ابنتي على تحمّل ذلك؟ حتّى أنا من عرفت الحريّة، يُخيّل لي أحياناً أنّ...»، وترددت سلمى أمام هذه الكلمة التي تكره، رغم أنّها بدأت في الآونة الأخيرة... تتكيّف! فالشابة المتبرّمة العنيدة صارت تستطيب أخيراً ما يحيط بها من نعيم، وتشعر بالحماية. استسلمت للغرق بالتدريج في هذا الرفاه معلّلة النفس بوهم أنّها لم تتغيّر...

وما نبّهها لذلك هي ملاحظة سمعتها من إحدى الخادمات بينما كانت تسرّ إلى صديقتها بصوت عال، ظانّة بأنها تدخل الفرحة على قلب سلمى:

ـ نحن الآن في منتهى السعادة. رانينا تغيّرت وصارت امرأة هنديّة حقيقيّة!

وعاودتها صورة أمّ الراني شاهينا، صورة الانكسار والتعاسة، صورة امرأة شابّة اضطرّت إلى أن تتخلّى عن حبّها للمغامرة والمتعة لكي تبقى بجوار أطفالها. لكنّها لم ترض لنفسها قطّ بهذه الخيانة، فانتهت إلى الهرب إلى... الجنون.

ودوّى الصوت الأجشّ في أذنيها: «انصرفي! انجي بنفسك... قبل فوات الأوان». لكنّها لم تأخذ هذا التحذير حينئذ على محمل الجدّ، مقدّرة أنّها تستطيع الصمود مهما كان الخطر.

الصمود في وجه القوة شيء ممكن، لكن هل يمكن الصمود أمام النعومة؟ وتلّمكها الخوف فجأة. هي تعلم ألا شيء أخطر من هذا الدفء الرائع، وهذه الغبطة الرائقة التي يسمّيها الناس سعادة؟ وهي تستسلم لها في هذه الأثناء بدافع التعب أو الجبن، أو ربّما بسبب فقدان الأمل. ينبغي أن تنصرّف، أن تهرب قبل فوات الأوان! من أجل الطفل بلا شكّ، ولكن من أجلها هي أيضاً. ينبغي أن تهرب لا لأنّها تعيسة، بل لأنّها لم تعد ترغب في هذه السعادة.

٢٠

ـ ماذا اخترت إذن؟ باريس أم لوزان؟

تجمّدت أصابع سلمى على البيانو، والتفتت إلى لوسي وقد انعقد لسانها: كيف خمّنت هذه العفريتة ذلك؟ ولكي تخفي ارتباكها، تظاهرت بالاستغراق في تأمّل حَجَرة ياقوت أهداها إياها أمير مؤخّراً، ثمّ غمغمت:

ـ السفر؟ لا سبيل إلى ذلك بالنسبة لامرأة في وضعي!

ـ في وضعها؟!...

ورفعت الفرنسية عينيها إلى السماء بضيق.

ـ ألا يقولون إنّك أوّل امرأة في العالم تنتظر مولوداً؟ هذا تحديداً هو الذي يفرض أن تسافري الآن، أمّا إن انتظرت إلى حين، قد يشكّل السفر خطورة عليك وعلى الجنين. هذه أمر يُجمع عليه الأطباء: قبل الشهر الثالث. لا أظنّك عازمة على الوضع هنا؟

ـ بلى... ولماذا؟

ـ يا لك من مجنونة! وإذا وقعت مضاعفات، هل تظنين يا عزيزتي أنّ حكيمك العجوز، الذي لا يميّز بين الحمل واليرقان، قادر على إنقاذك؟ لا يوجد إلا مكانان يمكن أن تضع فيهما المرأة حملها بأمان: باريس ولوزان.

كبتت سلمى الابتسامة وهي تفكّر في كلّ النساء المغفّلات عبر العالم اللواتي جازفن بالولادة في غير هذين المكانين. لكن لتبجّح لوسي جانبه

الحسن، لأنّها قدّمت لها، عن غير قصد ربّما، الحل الذي كانت تبحث عنه...

فقد جفاها النوم منذ ليالٍ. شيء واحد يشغل بالها: أتبقى أم تسافر؟ إن كان ولداً، فمن غير العدل أن تحرمه من الحكم، ولكن إن كانت أنثى؟... إنّ مغادرة القصر ولوكنو ليس بالأمر العسير. يكفيها أن تشتري صمت بعض الخادمات. أمّا مغادرة الهند...؟ تخيّلت كلّ السيناريوهات الممكنة ـ من قبيل التنكّر واستعمال وثائق هوية مزيّفة ـ، إلا أنّها تعرف أنّ أمير سيقيم الدنيا ولا يقعدها حتّى يعثر عليها. سيُخطر حرس الحدود باختفائها. أمّا إذا سافرت بشكل رسمي للولادة في فرنسا، ورفضت العودة، فمن سيجبرها عليها؟ ففرنسا هي أرض اللجوء وأرض الحرّية. إن وصلت إلى هناك، لن يعود بإمكان الراجا إن يكرهها على شيء لا ترضاه.

ـ كل رواني بادالبور وضعن في قصورهنّ بلا مشاكل. ما مرّ بسلام بالنسبة لنساء عائلتنا طيلة قرون، لا بدّ أن يمرّ بسلام في اعتقادي بالنسبة لك أنت أيضاً... يا أميرة!

وقع هذا اللقب من لسان الراني عزيزة مثل ضربة سوط، وكأن لسان حالها يقول: وقاحة هذه الأجنبيّة لا تعرف الحدود! من حسن الحظّ أنّ إحدى خادماتها أخطرتها بما كان يحاك وراء ظهرها، فتدخّلت في الوقت المناسب. أمّا ذلك المغفّل، أخوها، فكان على وشك أن يطاوعها مرّة أخرى.

وجد الراجا نفسه في موقف لا يُحسد عليه. فسواء أأيّد زوجته أو أخته، هو واثق من أنّه سيقضي أشهراً في الشكوى والكدر. لكنّه في قرارة نفسه لم يكن غاضباً من تدخّل أخته الكبرى. مهما يكن، فهذا شأن من شؤون النساء! ورغم أنّه كان يعترض في سرّه على هذا السفر، كان من الممكن أن ينصاع لرغبة سلمى، لا سيما أنّها نجحت في أن تجعل الخوف عليها وعلى الجنين يتسرّب إلى نفسه...

وخطرت له فكرة ترضي الجميع:

ـ لنستقدم إلى القصر طبيباً إنجليزياً. إن لم نجد طبيباً ماهراً في لوكنو، استقدمناه من بومباي أو كالكوتا، وبهذا سندرأ كلّ خطر، ونحترم التقاليد. أنا بدوري أظنّ أنّ ملك بادالبور لا ينبغي أن يولد خارجها. ففي ظلّ هذا الوضع المضطرب، قد يستغلّ بعضهم ذلك، ويتخذه ذريعة لكي يطعن في شرعيّته.

انسحب أمير وهو مبتهج بهذا الحلّ الذي اعتبره غير قابل للجدل، من دون أن ينتبه إلى سحنة زوجته الكئيبة، ولا إلى احتجاج أخته التي مضت تقول لا يليق بأمير مسلم أن يولد على يد كافر...

كان يلزم أن يقع شيء خطير لكي يغيّر الراجا رأيه. ففي شهر آذار/ مارس من سنة ١٩٣٩ هذه، وبينما أقدم هتلر على ضمّ تشيكوسلوفاكيا تاركاً الديمقراطيات الغربية في حالة من الذهول، وبينما أوصاهم المهاتما غاندي «بأن يتخلّوا جميعهم عن السلاح في وقت واحد، ممّا سيعيد هتلر إلى رشده، ويدفعه إلى التخلّي عن أسلحته»[١]، كان التوتّر يتصاعد في لوكنو بين الطائفتين المسلمتين المتناحرتين منذ القديم: السنّة والشيعة.

وكان سبب الخلاف هو إنشاد السنّة قصيدةً في مدح الصحابة الثلاثة الأوائل جهراً وأمام الملأ، وهو ما اعتبره الشيعة استفزازاً لهم، لأنّ أولئك الخلفاء في نظرهم مجرّد مغتصبين، وأنّ أولى الناس بخلافة الرسول هو ابن عمّه علي بن أبي طالب.

كان الحاكم الإنجليزي قد منع إنشاد هذه القصيدة سنة ١٩٠٥ بعد مواجهات بين الطائفتين أسفرت عن سقوط عشرات القتلى. لكن منذ أن وصل حزب المؤتمر إلى السلطة، أخذ السنّة يحتجّون لإلغاء هذا الإجراء «الظالم» متذرّعين بأنّ تطبير الشيعة فيه إساءة لخلفائهم. وقد عمد بعض الساسة الهندوس إلى تأييد السنّة، وهم يفوقون الشيعة عدداً بثلاثة

---

(١) حوار أجرته معه النيويورك تايمز يوم ٢٤ آذار/ مارس ١٩٣٩.

أضعاف، آملين من وراء ذلك ربح أصوات انتخابية لمصلحة المؤتمر، وغير عابئين بما يمكن أن يثيره ذلك من شغب ومواجهات. ألا يُضعِف التطاحن بين المسلمين رابطة جناح ورئيسها البغيض؟ وحين شعر السنّة بارتباك الحكومة في الآونة الأخيرة، ضاعفوا من مظاهراتهم، فاعتُقل منهم المئات، لكنّ الشرطة التي كان عليها أن تواجه هؤلاء الغاضبين، إضافة إلى الآخرين، وجدت نفسها عاجزة.

وفي الواحد والثلاثين من آذار/ مارس، أذعن الحاكم أمام ذهول الجميع: رخّص للسنّة بإنشاد مدح الصحابة متى شاءوا وفي أيّ مكان أرادوا شريطة إخطار السلطات. فعمّ الرعب فوراً، وبدأ التراشق بالحجارة بين السنة والشيعة في شوارع لوكنو. نشبت مواجهات عنيفة أمام الحسينية الكبرى، ممّا اضطر الشرطة إلى إطلاق النار، وإسقاط قتلى وجرحى. قرّر الحاكم منع التجوال، لكنّ الناس لم تمثل. أغلقت المتاجر أبوابها الحديديّة، ولزم معظم الناس بيوتهم، ومضت أرتال من الجنود تجوب المدينة. وفي غضون أيّام، اعتُقل آلاف المسلمين، وهو ما أجّج أعمال الشغب. وتمكنّت جماعة مسلّحة من اجتياح مقرّ المجلس، واحتجاز الوزير الأوّل الذي كاد يموت من الخوف. ولم تلبث النساء أن قدّرن أنّ الوقت قد حان لمساندة رجالهنّ، فانضممن إلى المظاهرات مرتديات براقعهنّ السوداء. هكذا امتلأت السجون بسبعة آلاف شيعي وبضع مئات من السنة. فإذا تدخّل الهندوس في هذا الجو المكهرب، يمكن توقّع أيّ شيء، وحتى الجيش لن يكون بمستطاعه منع الحرائق والمذابح.

يقع قيصرباغ بالقرب من أمينأباد التي تعدّ من الأماكن الأكثر عرضة لنشوب المواجهات. ورغم أنّ الراجا زاد عدد الحراس، إلا أنّهم لن يستطيعوا الوقوف في وجه الحشود الغاضبة إن هي هاجمت القصر.

في بداية فصل الربيع من تلك السنة، لم يكن بوسع أحد أن يتنبّأ بما يمكن أن تبلغه الاضطرابات في لوكنو. وأمير لا يريد أن يجازف: إن كان هو مضطرّاً للبقاء، فزوجته يمكن أن تغادر. هو يعرف أنّها مرهفة، وأنّ

تلك الأحداث يمكن أن تؤثّر على حملها. وإذا لم تعد لوكنو آمنة، فما من مكان في الهند آمن. كلّ هذا جعله يقتنع بأنّ إرسال سلمى إلى فرنسا ليس بالفكرة السيئة. سيبعث معها زينيل الذي لم يعد له ما يشدّه إلى بيروت بعد وفاة السلطانة.

في يوم من أيام منتصف نيسان/ أبريل، مشبع بالغبار والحرارة الجافة، محطة لوكنو حاشدةٌ بحمّاليها المهزولين وشحّاذيها المتحلّقين حول مسافرين زيّنوا أعناقهم بقلائد من الزهر أمام الباب الفيكتوري الهائل، المحاط بأجنحة مغوليّة. تقف سيارة فارهة بيضاء مذهّبة محفوفة بحراس يحملون شارات ولاية بادالبور، يحمونها من الفضوليين الذين يحاولون استراق النظر إلى الراني ذات الشعر الذهبي من خلال الستائر الدمشقية.

فقد شاع الخبر منذ الصباح الباكر، لمّا وصل خدم القصر وبدأوا يقيمون ممرّ البروكار الطويل الذي سيحجب الأميرة عن الأنظار وهي متّجهة إلى العربة الملكيّة. ورغم أنّ قلة قليلة هي التي رأتها، كان جمالها قد صار أسطورة. ذلك أن الأوصاف التي نقلتها الخادمات أثارت خيال الناس. كما أنّ كرمها لم يكن يجهله أحد: من يدري؟ قد يكون سفرها مناسبة لتوزيع بعض الهبات! وما لبثت أصوات الحشد المزدحم أن تعالت بالهتافات والأدعية...

مضت سلمى وهي جالسة إلى جانب أمير تغالب تأثرها. لم تكن تدري لماذا كانت متلهّفة للمغادرة. هي من كانت تحلم منذ مدّة طويلة بالرحيل ألفت خروجها من القصر تجربة قاسية لم تتوقّعها.. فكلّ الأسباب التي كانت تبدو لها بديهيّة، صارت تجدها الآن تافهة. الحفاوة التي أحاطوها بها في الآونة الأخيرة، والحبّ الذي لمسته لدى هؤلاء النسوة والأطفال الذين ظهروا فجأة في كلّ أرجاء القصر، وتعلّقوا بأهدابها وهم يبكون، كان صادقاً. لا يريدونها أن ترحل، ويتضرّعون إليها لتبقى. أمّا العجائز فرحن ينادينها بـ«الأمّ» وقد تشبّثت أصابعهنّ المهزولة بيدها، بينما مضت من تصغرنهنّ سنّاً يحدّقن فيها بسحنة حزينة، كما لو أنهنّ يلمنها على تركهنّ.

ولما شرح لهنّ الراجا بنبرة فظّة أنّ الأميرة مضطرّة إلى السفر «لأسباب صحيّة»، وأيقنّ من أنهنّ لن يستطعن ثنيها، حرصت كلّ منهنّ على أن تقدّم لها هديّة بسيطة، وكأنّهنّ يقدّمن لها جزءاً من كيانهنّ آملات أن تحمله معها ليحميها في هذا العالم الذي لا يستطعن تخيّله. ورغم نصح أمير بأنّ هذه التفاهات ستضايقها، أصرّت سلمى على الاحتفاظ بها. كانت تشعر بأنّ التخلص منها خيانة لهنّ، وهو أمر قد يجلب لها النحس. حشرت كلّ تلك المناديل المطرّزة والأحجار ذات الألوان الغريبة وقطع الخشب المنقوشة في حقيبة ستحملها معها إلى باريس حتّى إذا شعرت هنالك يوماً بالوحدة، أخرجتها لكي تلمسها وتشمّ رائحة الحبّ التي تعبق بها.

ـ كلّ شيء جاهز، يمكن أن نترجّل.

قفز أمير خارج السيارة. قالت سلمى في نفسها مستغربة: «ما أشدّ تلهّفه! يبدو كما لو أنّه يتعجّل سفري...»، كانت تعلم جيّداً أنّ ذلك غير صحيح، وأنّه محبط رغم اجتهاده في إخفاء ذلك. لكنها كانت تلومه في قرارة نفسها على عدم التصرّف على سجيّته، وإظهار رباطة جأش أشبه بتلك التي يتكلّفها المرء في تعامله مع الغرباء. والمرّات القليلة التي بدا فيها من غير قناع، كان يجعلها تدفع ثمنها في الأيّام اللاحقة بمعاملتها بفتور مضاعف.

تقدّمها وهو يذرع ممرّ البروكار هذا الذي اجتازته قبل سنتين في الاتّجاه المعاكس. كانت عند وصولها حينئذ عروساً مفعمة بالأمل، تتقدّم بثقة وكلّها شوق للتعرّف على زوجها الوسيم ووطنها الجديد.

أمّا الآن... وواصلت السير نحو عربة الحديد والخشب التي ستنقلها بعيداً عن كلّ أولئك الذين يعرفونها، والذين يحبّونها بأسلوبهم الخاص. وخلفها كانت تسير زهرة، تلك الفتاة النحيلة التي أحبّتها بصدق، والتي لن تغفر لها تحوّلها إلى امرأة بدينة هادئة. لكن عليها ربّما أن تكون ممتنّة لها، لأنّها كانت بمثابة تحذير لها من أثر السعادة على النساء في هذا

البلد... وخلف زهرة يسير رشيد خان، رشيد الوفي الذي تابع كلّ ما عاشته منذ وصولها، وفهم كلّ شيء. أتراه خمّن بأنّها ذاهبة ربّما من دون رجعة؟

وأخرجها شذى الياسمين من استغراقها. كانوا قد وصلوا عند باب العربة الزرقاء، لون الدولة الرسمي حيث وضعت أسفل الأدراج باقات بيضاء ضخمة. من فكّر في الإتيان بهذه الأزهار الأثيرة لديها يا ترى؟ أجابت زهرة على هذا السؤال الصامت: «أمير». وفاضت عينا سلمى بدموع طالما تمالكتها. أمير؟... لِمَ تأخّر كلّ هذه المدّة؟ أصار قادراً أخيراً على التعبير عن شيء من حبّه لأنّها سترحل؟

دخلت إلى العربة مشوّشة البال، وتقدّمت منه. لو أنّه طلب منها في هذه اللحظة البقاء، لكانت ارتمت في حضنه. لكنّه اكتفى بالنظر إليها، وتراجع على نحو لا يكاد يُلحظ.

ستتذكّر لاحقاً هذه اللحظة التي لم يستطع فيها تجاوز ردّ الفعل المتأصّل، والقاعدة الذهبية التي تحظر على الأزواج المسلمين إبداء أيّ شكل من أشكال الحميميّة أمام الملأ، مع أنّ الحاضرين كلّهم من الأهل: زينيل الذي وصل من توّه من بيروت، وبعض الخادمات... وزوجته الشابة التي كانت تتضرّع إليه لعلّه يبادر إلى إبداء حبّه لها.

تناولت سلمى بيد مرتعشة كأس الشامبانيا الذي مدّه لها زوجها. استعاد رباطة جأشه، وطلب أن يشربوا نخب صحّة الأميرة وسلامة سفرها، وطيب مقامها بفرنسا. لكنّه لم يشر قطّ إلى حزنه على غيابها، ولا إلى متمنّياته بجمع شملهما من جديد. ظلّ وجهه جامداً، لا يبدو على صفحته أدنى انفعال.

وتعالى صفير رئيس محطة القطار معلناً عن وشوك انطلاق القطار، ومُنهياً بذلك لحظة الوداع الغريبة هذه. ترجّل الجميع باستثناء زينيل. وتخلّف أمير قليلاً. أتراه سيقبّلها؟ انحنى بفتور، كما لو أنهما سيفترقان لبضعة أيّام.

ـ إلى اللقاء يا أميرة.

ـ أمير!

التفت لندائها، ونظرا طويلاً بألم بعضهما إلى بعض. ساورها شعور فجأة بأنّهما لن يلتقيا أبداً، وأنّها لن تعود إلى الهند قطّ.

أطّلت من نافذة القطار الذي تحرّك وسط سحابة من الدخان ومضت تتفرّس الهيئةَ الدقيقة البيضاء المتسمّرة على الرصيف التي بدأت تبتعد شيئاً فشيئاً إلى أن اختفت تماماً...

الجزء الرابع

فرنسا

١

«الثاني من أبريل/ نيسان ١٩٣٩

أكتب لك يا عزيزي محمود من باريس التي استقررنا فيها أنا والأميرة سلمى منذ أسبوعين. أجل! أنت لست في حلم، أنا حقّاً زينيل، قرّرت أن أعاود الظهور بعد خمس عشرة سنة من الصمت...

لا تعتب عليّ إن كنت لم أجب على رسائلك الرقيقة التي بعثت لي بها بُعيد فراقنا. لم يكن ذلك بسبب اللامبالاة. كنت أشعر بأنّ لا فائدة من إثارة الذكريات السعيدة التي عشناها في الماضي، لا سيما بالنسبة إليك أنت الذي كنت ما تزال صغيراً: كان لا بدّ أن تنساني وتبدأ حياة جديدة.

أمّا أنا، فلم أكن مطمئنّ البال. كنت أخصّص كلّ وقتي وطاقتي وأفكاري للأسرة المنكوبة التي شاء لي القدر أن أكون مسؤولاً عنها... كنت منقطعاً لخدمة السلطانة خديجة بخاصة، التي لم تستطع، رغم رباطة جأشها، أن تتغلّب على صدمة المنفى...

لا أذكر سلطانتي إلا وتترقرقت عيناي بالدمع. مضت الآن بضعة أشهر على رحيلها. أسلمت الروح من دون شكوى. ظلّت شامخة كما عهدتها طيلة حياتها... كدت أجنّ من الألم على فراقها. مذ مرضت، زاد التقارب بيننا. لم تمنحني الثقة فحسب، بل أعطتني أثمن هدية، وهي حنانها.

كان رحيلها بالنسبة إليّ، وهو أمر أبوح لك به اليوم، نهاية قصّة حبّ طويلة. قصّة أظنّك استشعرتها منذ مدّة طويلة...

لمّا أُلحقت بخدمتها في قصر تجراغان وهي سجينة مع والدها، تعلّقت بها فوراً. لم يكن عمري يتجاوز الخامسة عشرة، وكانت هي في سنّ والدتي، ومع ذلك شعرت بأنّني أنا من ينبغي أن يحميها. كانت حزينة. ظلّت سنوات وهي تصبو إلى الحرّيّة، ثمّ انتهى بها الأمر إلى اليأس. أيقنت أنّ أسوار ذلك القصر ستكون هي قبرها، ولم تعد تحتمل الأسر: كان تعطّشها إلى الحياة كبيراً. وأدركت أنّ ذلك الوضع سينتهي بها يوماً إلى الانتحار...

وقد أسررتُ للطبيب الذي كان يبعثه السلطان عبد الحميد إلى القصر مرّة كلّ أسبوع بتلك الملاحظة، فاستغرب جرأتي. ولا بدّ أنّه أخبر جلالته بالأمر، إذ قرّر تزويج السلطانة بعد ذلك ببضعة أشهر.

ذقت حينئذ مرارة القلق والخوف من أن أضطرّ لفراقها، لكنّهم من حسن حظّي جعلوني ضمن جهازها، ومنذئذ لم أفارقها.

ولكن، هل كنت سعيداً بذلك؟ كلا. كانت الغيرة تأكل قلبي. كنت أغار من زوجها إلى أن أيقنت أنّ كرهها له يفوق كرهي، كما كنت أغار من الباشا الوسيم، زوج نعيمة سلطان الذي كانت ترنو له بشغف إلى أن اكتشفتُ بأنها إنّما كانت تسعى إلى الانتقام من السلطان عبد الحميد. عندئذ ساعدتها بحماس. ذلك أنّني وجدت في انتقامها انتقاماً لي أنا أيضاً، لأنّنا كنّا معاً من بين ضحايا هذا السلطان الذي كان يلقّبه المسيحيون بـ«السلطان الأحمر».

لكن مَن لم أستطع تحمّله قطّ هو زوجها الثاني، الرجل الوسيم خيري رؤوف بك. كيف لامرأة بتلك الرهافة والذكاء أن تعشق هذا المتعجرف الذي لا يحبّ إلا نفسه؟

تعذّبت لذلك عذاباً شديداً، مع أنّها كانت لطيفة معي أكثر من أيّ وقت سابق. كانت السعادة تزيدها دماثة. أمّا أنا فكنت أكره هذه الطيبوبة وهذه الألفة التي تعاملني بها ظانّة أنّها دليل على ثقتها بي، بينما هي تدل

في الحقيقة على اللامبالاة. هكذا لمّا كان يتغيّب زوجها، اعتادت على أن تحتفظ بي بقربها مع وصيفاتها في مخدعها. كانت تستلقي، تحلّ قميصها، وتأمر بتمشيط شعرها، ثمّ تطلب منّي أن أحكي لها نمائم القصر. كانت تستغرق في الضحك غير عابئة... كم كانت غافلة! كما لو أنّني لست رجلاً، كما لو أنّني بلا شهوة. كانت تصرّفاتها وتصرّفات وصيفاتها وهنّ شبه عاريات في ذلك الحرّ أشبه بصياح يسحق جمجمتي: «أيّها الخصيّ، ما أنت إلا خصيّ!».

كرهتها حينئذ، وكنت أدعو الله أن يعاقبها على تلك السعادة الوقحة. فاستجاب دعائي... بل أكثر ممّا كنت أتصوّر. يا لها من قسوة! فقد دعوت، في غفلتي، بالشقاء على من كنت أحبّ أكثر من حياتي، ولم يكن ثمّة مجال لردّ هذا القدر.

ومع ذلك أصبت حظّاً من السعادة في بيروت. جعل منّا المنفى عائلة واحدة، وصارت سلطانتي تعتمد عليّ أكثر فأكثر بحكم أنّني الرجل الوحيد في البيت. أخالك تضحك. لكن أتظنّ، أيّها الغرّ المسكين، أنّ الرجولة رهينة بإفراز بضع قطرات من ذلك السائل اللزج؟... ثمّ كيف عرفت بأنّني عاجز عن ذلك؟ يحدث كثيراً أن تتملك الحكيم الشفقة، فتضطرب يده بينما ينجز عمليته المشؤومة.

مهما يكن، فقد كنتُ غلاماً وسيماً. لم أكن أتجاوز الثالثة عشرة من عمري. ما زلت أذكر ذلك الربيع، وذلك الشوق الغامض لجارة شقراء، وتلك الأحلام والمداعبات الخرقاء الغريبة لذلك الجزء من كياني الذي بدأت الحياة تدبّ فيه، باعثاً في جسمي كلّه رعشات لذيذة.

كنّا نسكن الريف، وكان والداي فلاحين صغيرين. رزقا بعد ميلادي بستّة أطفال آخرين. ولمّا وصل مبعوثو السلطان كدأبهم كلّ سنة، اختارني والدي ـ لا سامحه الله! ـ لأرافقهم. كان يحلم بأن يصير ابنه من كبار الوزراء، أو على الأقل موظّفاً كبيراً لدى الباب العالي، بحيث يصرف الفقر عن الأسرة بكاملها. لم يكن تصرّفه هذا شاذّاً. فقد كان

أجمل الأطفال وأذكاهم يبعثون منذ قرون، ومن سائر أصقاع الإمبراطورية، لينشئوا في مختلف المدارس التابعة للقصر، كلّ حسب مؤهلاته.

هل خطر بباله أنّ من بين المراكز المجيدة التي كان يطمح أن أحتلّها، هناك واحد يتفوّق على ما عداه ـ لأنّ من يتحكّم في الحريم يتحكّم في قلب السيد وعقله. لكن بأيّ ثمن! لم يكن يجهل ذلك. وما زلت أذكر صراخ أمّي التي شعرت كما لو أنّهم يقتطعون من لحمها.

لماذا أحكي لك كلّ هذا اليوم بينما كنت ترجوني وأنت مستلق إلى جانبي أن أحدّثك عن نفسي، فتغضب من رفضي، معتبراً ذلك دليلاً على عدم ثقتي بك؟ ربّما لأنّني صرت عجوزاً وليس لي في هذه المدينة الكبيرة من أفتح له قلبي. فأميرتي لديها من يؤنسها، وهي تخرج كلّ يوم. وهو أمر سرّني، لأنّني حين التقيت بها في الهند، بعد سنتين من الفراق، ارتعبت من تعاستها. أمّا أنا فلأوّل مرّة أشعر بالوحدة منذ خروجي من الأستانة.

ما كنت لأبوح لك بمكنون نفسي لولا يقيني الآن بأنّنا افترقنا إلى الأبد، وأنّ ضعفي اتّجاهك لن يجعل لك سلطاناً عليّ... أجل، لقد خفت منك بطريقتي، خفت من شبابك الغضّ ومن جمالك الذي كان يذكّرني بما كنت عليه. كنت أخشى من أن أهيم بصورتي التي عثرت عليها من جديد. لم أكن لأسمح لنفسي بالشفقة عليك، لأنّ الإشفاق عليك هو في الحقيقة إشفاق على نفسي. كيف تظنّني نجحت في شقّ طريقي في هذا البلاط الرهيب؟ بالتخلص من الندم والحلم بلا هوادة. حين وعيت ما صنعوا بي في أوّل الأمر، وكيف جعلوني أضحوكة، وحوّلوني إلى شخص بغيض، بل ـ وهو أدهى ـ إلى رجل مثير للشفقة، شأن كثيرين منّا، فكّرت في الانتحار.

الشفقة... كنت أشعر في كلّ مرّة كما لو أنهم يسلخونني، وحين يرون فيّ الخصيَّ المسكين، أحسّ كما لو أنّهم يخصونني من جديد. كثيراً ما كنت أتسلّى بالتنكيد على الآخرين لكي أنظر إليهم أنا أيضاً

بإشفاق، فأردّ بذلك الإساءة بمثلها... كنت أكره الناس السعداء، الواثقين من أنفسهم ومن الحياة بكلّ ما تتيحه من إمكانيات. ولهذا أيضاً كنت أكره الشباب، ولم أكن أشعر بالتعاطف إلا مع أولئك الذين يمضون في طريقهم إلى الموت وهم يعرفون ذلك.

أتراني أحببتك لأنّك كنت تعيساً؟ بكلّ تأكيد. أكنت قادراً على حبّ مراهق مبتهج؟... وبما أنّهم خصوك منذ الصغر، كنت تجهل كلّ شيء عن عالم الشهوة. وقد كنت أمام طلبك الملحاح أحاول أن أصوّره لك. وبمقدار ما كنت أحدّثك عنه، كان وجهك يتجهّم، لأنك أدركت بأنّك فقدت شيئاً لا تستطيع حتّى أن تتخيّله. وكنت تصغي إليّ بتعاسة، وتغار منّي كما يغار الأكمه ممّن صار أعمى بعد إبصار، لأنه يستطيع، إذا تمكّن منه اليأس، أن يتخيّل عالماً أجمل بكثير من العالم الذي رأى.

كنت أرسم لك بأكثر الألوان إغراء فورة الرغبة وعنفوانها، وبسمة اللحم الذي يشعر بوشوك تفتحه، والدم الذي يصعد إلى الرأس، فيورّد الوجنتين، ويجعل العينين تتألقان، ويفرز السائل الخفيّ الذي يبلل الشفتين، وينعّم البشرة ويوهن الأطراف إلى درجة الدوار، فيغدو الإنسان واثقاً بأنّه اتّحد بالعالم وذاب في جماله، وصار ـ للحظة خاطفة ـ هو الحياة، الخالق والمخلوق... هو الله ذاته.

الله؟ كنت تظنّني أبالغ. ربّما. كلّ هذا لم أحسّ به بل استشعرته خلال ألعاب المراهق الذي كنته. لكن، بما أنّني لم أعد أستطيع سوى التخيل، كنت أخلق لنفسي المتعة الكبرى حيث أنصهر وأذوب في اللانهاية. وقد يكون هذا هو الذي جعلني أتعذّب أكثر... لو كنت قادراً على الاستمتاع، لكنت قمت بذلك على نحو مبتذل ومحدود، مثلما يتناول المرء وجباته اليومية، على شاكلة كلّ هؤلاء الغافلين.

هم لا يعرفون، أما أنا فأعرف. فبما أنّني حُرمتها فأنا أعرفها عن كثب مثلما يعرف المرء في الغالب المرأة التي يشتهي أكثر من معرفته بالمرأة التي يملك.

وأولئك الذين يزعمون أن الرغبة تعمي، لا يفهمون شيئاً: هم يتحدّثون عن النزوة العابرة، لا عن الرغبة العميقة التي يمكن أن تكون تملّكاً أكبر من التملّك ذاته.

لعلك تحسبني أهذي لكي أواسي نفسي عن عدم قدرتي على الامتلاك. لكن اعلم أنني لا أرغب في ذلك. لقد ملكت أجمل وأنبل وأطهر امرأة! سلطانة بالفكر والقلب.

ملكتها مثلما لم يملكها أحد. كنت أشعر بكلّ رعشة من رعشاتها، فأهتزّ معها. وكان مزاجي خاضعاً لمزاجها، كما لو أنّني قطعة منها. لم أكن شخصاً منفصلاً عنها، بل... كما لو كنت بداخلها، أسكن جسدها.

وقد مزّقني موتها، لكن لا تخش شيئاً، فأنا لا أستسلم: من الآن فصاعداً، لديَ أميرتي التي عليّ حمايتها.

ليتك تعرف كم أصبحت جميلةً أميرتي سلمى... يُخيّل لي أحياناً أنني أرى السلطانة أيّام تألقها، وإن كانت مختلفة عنها في الواقع. إنّ رهافتها تهزّ مشاعري. وحتّى حين تتظاهر بالاستقلال، أشعر بمقدار حاجتها إلى عجوزها زينيل. فأنا الوحيد الآن الذي يربطها بماضيها. وهي تعلم أنّني سأظل وفيّاً لها إلى آخر أنفاسي.

أمّا أنا يا محمود، فلديّ طلب ألتمسه منك: إذا توصّلت بهذه الرسالة، فلا تجبني من فضلك، ولا تبعث لي صورك. أريد أن أحتفظ في قلبي بطراوة جسدك المراهق وروحك. قد يبدو لك هذا علامة على أنانية رهيبة... اللهم إذا فهمت بأنّ هذا دليل على ثباتي في حبّك على طريقتي.

عزيزك زينيل

٢

ـ بائعة المهاراني[1] من فضلك!

ففي صالون متجر نينا ريتشي، حيث كانت السيدات يتبادلن آخر النمائم في انتظار افتتاح مجموعة الملابس الربيعية، التفتت كلّ الرؤوس حين دخلت إلى المتجر شابّة شاحبة ترتدي سارياً فيروزي اللون، يتبعها رجل مسنّ يلبس معطفاً طويلاً أسود. أتراها مهاراني؟... كنّ ينتظرن امرأة جميلة سمراء على شاكلة ملكات جودبور أو كابورطالا، لكنّ هذه المهاراني أشبه بفرنسيّة لولا خداها المرتفعان قليلاً وعيناها المسحوبتان نحو صدغيها: ألا تكون روسيّة؟

همست سيّدة متميّزة لجارتها:

ـ كلا يا عزيزتي. لن يخطر على بالك، إنّها تركية! التقينا بها في آخر عشاء دعينا إليه لدى عائلة نواي. زوجها هو مهراجا بادالبور، ولاية تقع في شمال الهند.

ـ يبدو أكبر منها سنّاً!

ـ كلا، هذا الشخص الذي يرافقها ليس زوجها.

وخفضت المرأة صوتها بينما أصاخت جاراتها المتحيّرات السمع.

(١) درج الفرنسيون على تسمية الأمراء والأميرات الهنود بالمهرادجا والمهاراني حتّى لو كانوا راجا أو راني أو مجرّد نواب.

ـ إنّه... خصيّها!

ويُستقبل الخبر بوشوشات مرتابة: «يا لها من وحشيّة» ومن شدّة استنكارهن، لم يعدن يتمالكن أنفسهنّ، ورحن يتطلّعن إلى الوافدين بنظرات حانقة.

ـ مع أنّها تبدو لطيفة! أمّا هو، فلا تبدو عليه التعاسة! لعلّه لا يعي وضعه المزري. هؤلاء الشرقيون متعوّدون على هذا. أن تتجرأ على الظهور مع خصيّها عندنا، فهذا دليل على وقاحة لا حدود لها!

على أنّ هذه الانتقادات تخفي إعجاباً لا يخلو من غيرة: فمصادفة ظاهرة غريبة كهذه ليست بالأمر المألوف حتى في باريس التي يمكن أن يصادف فيها المرء ما لا يخطر له على بال... وكثيرات هنّ المتأنقات اللواتي يحلمن بما يمكن أن يحرزنه من نجاح لو استطعن استقطاب هذه المهاراني إلى سهرة من سهراتهنّ، مرفوقة بخصيّها طبعاً!

انتحت سلمى جانباً، وتظاهرت بعدم ملاحظة ما أثاره دخولها من فضول، والواقع أنّ ذلك سلاّها كثيراً. فقد تعوّدت في باريس، التي وصلت إليها منذ شهر فقط، على أن تلفت الأنظار حيثما حلّت، وعليها أن تعترف بأنّ ذلك راقها كثيراً! وتهيّأ لها كما لو أنّها عادت إلى بيروت من جديد، وإن كانت الحفلات اللبنانية التي وجدتها آنذاك في منتهى الروعة، صارت تبدو لها ريفيّة مقارنة بحفلات باريس. فالأناقة هنا، والتسليات هي من التنوع والغنى بحيث لا يعود المرء يعرف إلى أين يولّي وجهه. هي متعطّشة لأن تذوق من كلّ شيء، وتكتشف كلّ شيء. وإذا كان الناس يفتتنون بلباسها الهندي وخصيّها، فذلك لا يهمّها. لم تعد تلك الفتاة المتقلّبة التي تسعى إلى الظفر بحبّ الناس مهما كلّفها الثمن، بل هي الآن امرأة غنيّة! فبعد سنتين من الأسر في الهند، تشعر بنهم شديد بالحياة.

منذ وصولها إلى باريس، حجزت جناحاً في فندق بلازا أثيني، وهو

عنوان مفيد، لكنّه غير كافٍ ـ وهو أمر سرعان ما تنبّهت إليه ـ بالنسبة لمن يريد التغلغل في الحياة الباريسية.

وبدأ الاستعراض: «الساعة الزرقاء»، «النسيم العليل»، «زهرة الرمال»... على المنصات تدرج عارضات الأزياء رشيقات ضاريات. وبينما كانت سلمى تعجب بهنّ، تتذكّر ماري لور، عدوّتها الحميمة في دير بوزانسان. وبفضلها بدأت تُدعى إلى الحفلات في باريس.

لمّا كانتا في بيروت، لم تكن بينهما ألفة البتّة. بعد مواجهة قاسية في أوّل الأمر، صارت كلّ منهما تحترم الأخرى، وتعترف لها بالكبرياء والشجاعة. ولم تكن العلاقة بينهما تتجاوز الزمالة في المدرسة. كانت ثمّة أشياء كثيرة تفرّق بينهما في بلد كان فيه الفرنسيون هم السادة.

سبقت ماري لور سلمى إلى مغادرة لبنان. وبعد إقامة في الأرجنتين، عادت إلى فرنسا، ولم تلبث أن تزوّجت من الكونت دو سيير، أحد نبلاء الإمبراطورية، صاحب ثروة اكتسبها أجداده من مصاهرات مع الأوساط المالية، ومع أوساط الصناعات النسيجية في الشمال. لكنّها لم تنس «التركية الصغيرة»، وكانت تبعث لها كلّ سنة، بمناسبة حلول العام الجديد، بطاقة بريدية من باريس. هكذا، حين حلّت سلمى بالعاصمة التي لم تكن تعرف فيها أحداً، كان من الطبيعي أن تهاتفها. كان قد مضى على فراقهما عشرة أعوام، وحين التقتا بدتا كصديقتين قديمتين.

وبزهو باريسية أصلية، رافقت ماري لور سلمى لزيارة معالم «مدينتها». على أنّ أهم ما عرّفتها به هي المفاتيح التي بدونها لا يمكن ولوج عالم المجتمع الراقي، إذ لا يكفي أن يكون المرء غنياً أو شهيراً. ينبغي أن يعرف متى عليه أن يتعشّى في مطعم ماكسيمس لكي لا يصادف أشخاصاً مزعجين، بل أصدقاء من أمثال أفراد أسرة روتشيلد أو ويندسور الذين يجسّدون «البساطة في أصفى صورها». كما يمكنه بعد مشاهدة عرض فنّي أن يذهب بأريحيّة إلى مطعم ويبر للأكلات الخفيفة لتناول وجبة سريعة، وهو مكان يقصده الرومانسي المنزوي شارل بوير. ولا

يمكنه أن يتخلّف، مهما كان السبب، عن الظهور في حفلات السباق في شانتيي، الأشدّ أناقة في الموسم، معتمراً أغرب قبعة اقتناها من متاجر روز فالوا أو سوزي روبو! وللتسوق ليس ثمّة أفضل من مكانين: شارع السلام وميدان فوندوم. على أنّ المرء لا يمكن أن يحرم نفسه من معاشرة السوقة، وذلك بارتياد «الكرة البيضاء» مع أصدقائه، حيث تعزف فرق من السود إيقاعات أفروأمريكية. لكنّ حتّى هنا، وهنا بالضبط، ينبغي أن يحافظ على كبريائه. على أنّ كلّ هذا قد يكون عديم الفائدة إن لم يعرف كيف يضبط جيّداً وقت وصوله إلى حفل دعي له، وذلك حسب أهميّة الضيوف الآخرين، وكيف يتناسى امتداح صاحبة الحفل على العشاء الذي لا يمكن إلا أن يكون رائعاً. لكن ما إن يحلّ الغد حتّى يبعث لها باقة ورد يشتريها من لاشوم. إنّها مجموعة من المواضعات غير المكتوبة التي تمثل مفاتيح، وتشكل آداب سلوك ينبغي احترامها، وإلا عدّ المرء من الأجلاف أو أدهى من ذلك، من الأغنياء الجدد. وهو وسم لا يمكن أن يتخلّص منه مهما فعل.

كثير من الناس مستعدّون للتنازل عن نصف ثرواتهم نظير تعلّم ما لقنته ماري لور لسلمى في بضعة أسابيع. لكن على المرء أن يكون جديراً بهذا التعليم! أي أن يكون عارفاً سلفاً بمبادئ ما سيتعلّم. وإذا كانت ماري لور قد تعاملت بأريحيّة مع سلمى، فلأنّها كانت واثقة من أنّ تلميذتها ستشرّفها، وأنّها تملك ما لا يمكن أن يلقن بأي حال من الأحوال: دماثة لا تخلو من تحفّظ، وأدب جمّ مقرون بالمرح، وحرص فطريّ على الحميميّة. وهكذا كانت تصحب «لؤلؤتها الشرقية» حيثما ذهبت، وكانت تقدّمها على أنّها «مهاراني». لم يعد ثمّة مجال للحديث عن الأميرة العثمانية طبعاً، فمن يذكر عظمة الإمبراطورية العثمانية؟ أمّا الهند فكانت تثير أحلام الناس بثرواتها الخرافيّة وإسراف أمرائها. أمراء لم يشوّه ذلك الرجل الضئيل نصف العاري صورتهم بطريقته الأصيلة في السخرية من الإنجليز الذين كان الفرنسيون يكرهونهم رغم معاهدات التحالف الجديدة معهم.

وتوالت الفساتين الرشيقة بتصاميم رائعة: «العشب الوحشي» و«حلم القمر». وكانت عارضات الأزياء يختلن في مشيتهنّ كما لو أنهنّ يرقصن... ما أجملهنّ في هذه التنورات المنفرجة من الأسفل التي تظهر تحتها أهداب الدانتيلا! فتسارع سلمى إلى تسجيل بعض الموديلات في مفكّرتها. هي تعرف مقدار الصعوبة التي ستواجهها في الاختيار بعد لحظات... أتشتريها جميعاً؟ سيكون ذلك جنوناً، لكنّها تتوق إلى هذا الجنون! خالت نفسها في الأشهر الأخيرة التي قضتها في الهند تغرق، وهي الآن تريد أن تنسى، وتنتشي ببهجة هذا الربيع الباريسي الذي يحاول فيه الجميع تجاهل الأخبار المرعبة القادمة من الشرق، والتفكير في المتعة فقط.

فاجتياح الجيش الإيطالي ألبانيا وفرار الملك زوغ وزوجته جيرالدين لم يثر في ذهنها غير خواطر ساخرة: لو قيض لزواجها بملك ألبانيا أن يتمّ، لكانت الآن منفيّة للمرة الثانية!... أمّا عن الحرب، فيعلن بعض المتشائمين بأنّها وشيكة، ستلهب أوروبا بكاملها، لكن لا أحد يحفل بكلامهم. ولولا أن حكمة الرئيس دالاديي هدته إلى توقيع معاهدة ميونيخ مع هيتلر، لخشي الناس الآن من... لكنّ لحسن حظّهم الأمور سوّيت! بإمكانهم الآن أن يستمتعوا من دون قلق بالعروض الفنية التي تجعل من باريس العاصمة الأكثر ألقا في العالم حقاً.

أخذت ماري لور سلمى إلى كلّ مكان. فلأوّل مرّة تطأ قدما الأميرة الشابّة مسرح المنوّعات. وقد أعجبت بجوزيفين باكر وموريس شوفاليي، هذان النجمان اللذان كانت تحفظ كلّ أغانيهما عن ظهر قلب لمّا كانت في لبنان. أمّا اليوم، فتفضّل عليهما تلك المرأة الضئيلة التي تلبس السواد، الملقبة بـ«الشحرورة الصغيرة»، والتي لا تتمالك دموعها لصوتها المؤثّر، وكذلك ذلك الشاب الأشقر، الشاعر المجنون، الذي تجري أغنيتُه الناجحة «هناك فرح»، على كلّ لسان.

وإذا كانت سلمى تخرج كلّ مساء، فهي تخصّص ما بعد الظهر

لهوايتها القديمة: السينما. فمن شدّة حرمانها منها في لوكنو، صارت تتردّد، برفقة زينيل، على أكبر القاعات السينمائية الباريسية مثل بياتريز وكوليزي. كانت قد شاهدت في اليوم السابق فيلم «قطار الضباب»، وأسرها جان غابان لمّا همس بصوته الأجش لتلك الصبية: «أتعلمين كم هما جميلتان عيناك؟»، وهي ممثلة جديدة ذات نظرة مربكة.

كان بعض أصدقائها يزعمون لها، وهم يعتقدون أنّ ذلك يروقها، أنّها تشبه ميشال مورغان. ليتهم عرفوا أيّ ذكريات يثيرون في ذهنها، وكم تشعر بالندم أحياناً على عدم قبولها عقد هوليوود واختيارها عوض ذلك أن تصير ملكة. لكن، هل كانت مخيّرة؟ كانت فكرة أن تصبح ملكة تبدو لها حينئذ واجباً، وأنّ التخلي عنها يعدّ إهانة لروح الأجداد الذين ضحّوا بالغالي والنفيس من أجل النهوض بواجبات الحكم. أكان واجباً أم حاجة؟... أين هي الحدود بينهما؟ هي لا تعرف. ألا يختار المرء طريقه و«واجبه» بالنظر إلى حاجته الأكثر إلحاحاً؟ لطالما آمنت بضرورة الاستغناء عن الحاجات، ثمّ فهمت، شيئاً فشيئاً، أنّه يلزم، بخلاف ذلك، تلبية هذه الحاجيات وعيشها، لا لأنّها حيوية، بل لأنّها فانية. ينبغي عيشها للتخلّص منها.

دنت الآنسة أرموند من زبونتها المتميّزة وبادرتها:

ـ كيف وجدت إذن مجموعتنا يا صاحبة السمو؟

بدت لها مستغرقة، فقرّرت أنّ الوقت قد حان لكي تأخذ بزمام الأمور. ومضت تثني بلسانها الفصيح على جمال الترصيع ودقّة التطريز، لا سيما على جرأة التصميم الجديد الذي يحتفي بالأنوثة.

ـ بخلاف بعض دور الموضة، تحبّ السيدة نينا ريتشي النساء، لذلك ترفض أن تجعلهنّ يظهرن مضحكات بدعوى الأصالة!

لكن سلمى لم تكن تسمعها. كانت تنظر إلى العروس التي تتقدّم على المنصة في لباس أبيض شفّاف تكسوه الدانتيلا بينما تضجّ القاعة

بالتصفيق. ومضت تتابع بعينيها هذا البياض المتألّق وهي تتفجّع في قرارة نفسها على طفلة صغيرة ترتدي غرارا حمراء ذهبيّة، مختفية الوجه خلف حاجز من الورود، عروس صغيرة ترتعش وسط القهقهات وأنغام الصنوج بانتظار الشخص المجهول الذي سيصير سيّدها.

كانت عصر ذلك اليوم على موعد مع ماري لور عند أشهر صانعة مشدّات في باريس، السيدة كادول. كانت النساء الأنيقات يتزاحمن في محلّها بشارع كابون لكي يجعلن قدودهنّ تظهر أهيف، وصدورهنّ أبرز. ذلك أنّ السيدة كادول هي أوّل من ابتكرت أوّل حمّالة صدر مدعّمة تُظهر الأثداء مستديرة ومكتنزة.

لم تكن سلمى بحاجة إلى هذه الخدع رغم أنّها حامل في شهرها الثالث. فهي ما تزال رشيقة، وهي إنّما رافقت صديقتها بدافع الفضول، ولأنّها تنوي العودة إلى هناك بعد حين لوحدها... هي لا تعرف لماذا لم تخبر أحداً بحملها، بما في ذلك ماري لور. والواقع أنّها كانت تشعر بنفسها على أحسن ما يرام، حتى إنّها نسيت هذا الأمر، وحتّى إنّ الغثيان الذي انتابها في الأسابيع الأولى، اختفى.

أمّا الهند وأمير، فصارا يبدوان في غاية البعد. وصار يخيّل إليها أحياناً أنّ تَيْنك السنتين لم تكونا سوى حلم. فتشعر كما لو أنّها في العشرين من العمر، وأنّها بدأت الحياة من توّها.

ما كادت الصديقتان تفرغان من التسوّق حتّى توجّهتا إلى مقهى ريتز لشرب الشاي. كان المكان غاصّاً بالرواد كالعادة، لكنّ أنطوان، كبير الخدم، يعثر لزبنائه الأوفياء دائماً على مائدة غير مشغولة. وبينما كانتا تتناولان الكعك، سألت ماري لور عن الساري الذي سترتديه سلمى هذا المساء، وعلّقت بأنّه ينبغي أن يكون في منتهى الأناقة. فالليدي فيلوز امرأة رفيعة الذوق، تملك فندقاً خاصّاً بديعاً. سيحضر الحفل جوق موسيقي، ومن ثمّة سيرقص الضيوف بعد العشاء.

قالت سلمى:

ـ أنا متلهّفة لتدشين الفستان الذي اشتريته لدى شي لانفين. قماشه رائع.

فقاطعتها ماري لور:

ـ فستان! أجننت يا حبيبتي؟ إن كنت متشوّقة لارتداء هذه الملابس العصرية، فالبسيها في لوكنو. أمّا هنا فينبغي أن تلبسي لباس المهاراني، وإلا فإنّك ستخيّبين ظنّ الحاضرين. وأنا ماذا سأقول لهم؟ مهاراني بفستان سهرة... ستحسب ليدي فيلوز أنّني دبّرت لها مزحة بائخة!

فردّت سلمى بخيبة:

ـ كنت آمل على الأقلّ أن ألبس في باريس كما يلبس سائر الناس...

ـ ألا تفهمين أنّ كلّ هؤلاء إنّما يغبطونك لأنّك مختلفة عنهم؟ هنّ مستعدّات لبذل الغالي والنفيس لكي تكنّ «مختلفات عن سائر الناس»! هيّا يا سلمى، لم يمض على وصولك إلى باريس غير شهر، ومع ذلك لم يعد الناس يتحدثون إلا عنك. هل تعتقدين أنّ امرأة أوروبية، مهما كان جمالها، تستطيع أن تكتسب مثل هذه الشهرة بهذه السهولة؟ المجتمع الباريسي مجتمع بالغ القساوة. حتّى من ولدوا فيه يجدون صعوبة في اختراقه. لكي يجد فيه المرء مكانه ينبغي أن يسلّي الناس أو يجعلهم يحلمون كما هو الشأن بالنسبة إليك!

وقامت ماري لور من مكانها، وطبعت قبلة على جبين سلمى.

ـ عليّ أن أذهب توّاً إلى الحلاق. نلتقي مساء! لا تنسي خصيّك. لن يرافقك إلا إلى بهو الفندق، ولكن ينبغي أن يروه.

تكوّمت سلمى في المقعد، ولم تُجب بشيء. «مسكين زينيل! من حسن حظّه أنّه لا يفهم الفرنسية جيّداً، ولا يدرك الدور الذي يسندونه إليه... تصرّفات هؤلاء الباريسيين لا تصدّق فعلاً! لم يخطر ببالها قطّ أنّها ستنال الإعجاب بفضل خصيّها، وهو أمر يشعرها بمزيج من الضيق والخجل. ولكن ماذا بوسعها أن تفعل؟

رغم بلوغ زينيل الستين من العمر، ما زال يتمتع بهيئة مهيبة. لمّا كانت تقدّمه في بداية إقامتها بباريس على أنّه كاتبها، كانت تثير ابتسامات ساخرة. وهو ما جعل ماري لور تسارع إلى إخبارهم بالحقيقة حتّى تنقذ «سمعة محميّتها».

وما لبثت سلمى أن بدأت تضيق ذرعاً بعناية صديقتها السلطوية. هي لم تغادر الهند وأجواء القصر الخانقة لكي تجد نفسها خاضعة لمواضعات ونزوات باريس بأكملها. لن تصحب معها زينيل هذا المساء، ولتغضب صديقتها والسيدة فيلوز إن شاءتا أن تغضبا.

«يا له من رجل فظّ!».

أشاحت سلمى بوجهها عن الشخص الذي كان جالساً قبالتها يحدّق فيها، والتفتت إلى الرجل الشابّ الذي كان على يمينها، الماركيز بيلار، وتظاهرت بالاهتمام بما يحكيه عن السباق الأخير بـ«لونغ شان»، حيث أوشك الحصان الأصيل راكام على الظفر بالجائزة. وعلى يسارها كان الأمير دو فوسيني، من كبار فرسان مالطا، يسرد المعارك التي خاضها أجداده ضدّ الكفار. لم يدُر بخلده قطّ أن المهاراني الحلوة الجالسة إلى جواره هي أميرة سليلة هذه الإمبراطورية العثمانية التي حاربتها عائلته بشراسة. لو علم بذلك لما استطاع أن يتدارك أبداً هذه الغلطة، لا سيما أنّه جانتلمان من الطراز الرفيع!

أمّا الرجل الذي لم يكفّ عن التحديق فيها منذ بداية العشاء من دون أن يكلّمها فمن المؤكد أنّه ليس جانتلمان. لا يبدو عليه أنّه من نوع المعجبين الذين يسحرهم جمال امرأة فاتنة. وهو يظهر وسط هذه الجماعة الراقية كما لو أنه في غير مكانه. رجل مربوع القامة، بارز الفكين بحيث يظهر أنسب للسباقات البحرية أو لإحاشة الخنازير منه للأحاديث المهذّبة المتداولة في حفلات العشاء الباريسية.

أهو أمريكي؟ هذا ما فهمته خلال تقديم الضيوف. وقطّبت ممتعضة: أهو من رعاة البقر؟ ربّما. إنّه من نوع الناس الذين ليس لديها ما تقوله

لهم. الشيء الوحيد الذي يكذّب هذه الفرضية هما اليدان الطويلتان الناعمتان الشبيهتان بأيدي الأرستقراطيين، والعينان الرماديتان، عينان حادّتان قحتان، عينا رجل اعتاد السيطرة. أمّا غيرها من النساء الجالسات إلى المائدة، فيظهر أنهنّ معجبات به. ما من مرّة رأت سلمى هذه الكونتيسة الشوهاء، كونتيسة دو نوفيل، تسرف في الكلام بهذا النحو، ولا تلك البليدة، إميلي فياني، تقهقه عالياً لأي كلام يُنطق به، مصدرة صرخات صغيرة شبيهة بصرخات نورس أثاره هواء البحر.

وما لبثت سلمى أن شعرت فجأة بأنّ هذا العشاء يرهقها. أحسّت بنفسها وحيدة وغريبة عن هذه المناورات. ووّدت لو تنصرف... تخيّلت نفسها في بادالبور من جديد، تحيط بها المزارعات تحت ضوء الفجر، جالسات حول كأس شاي وهنّ يتحدّثن بلا كلل. هناك أشياء كثيرة يُردن قولها، مخاوف وآمال يرغبن في البوح بها... ما من مرّة شعرت بالسأم لمّا كانت هناك في بادالبور... وقالت في نفسها وهي تمسح على جبينها: «ولكن، ما هذه الأشياء التي ما زلت أتخيّلها؟» ألم تشارف على الموت في بادالبور؟

ـ مليون، مبلغ رسمي. ساقاها مؤمّنان بمليون!

ـ وصدرها؟

ـ عشرة فرنكات...

ومضت النسوة يضحكن ضحكاً لا يخلو من خبث. هنّ يتحدّثن عن مستانغيت التي لاقت نجاحاً كبيراً في الآونة الأخيرة على خشبة «الطاحونة الحمراء». وما من أحد هنا له مآخذ على هذه النجمة، لكن المهمّ هو الضحك، ولكي تعثر الواحدة منهنّ على مزحة، لن تتردّد في السخرية من أفضل أصدقائها.

وتلزم سلمى الصمت لأنّها لم تعتد على حريّة الحديث التي تميّز هذه السهرات الباريسية، وتستغرب على وجه الخصوص السهولة التي تُقبل بها سيّدات المجتمع الراقي على التشهير بمثيلاتهنّ والقدح فيهنّ.

وبينما كانت عاكفة على صحنها، شعرت بالعينين الرماديتين تحطان عليها من جديد. كان أفراد الفرقة الموسيقية بلباسهم الاحتفالي قد أخذوا أماكنهم على المصطبة في الصالون الكبير المستدير. وأعلنت الليدي فيلوز بأنّ هذه السهرة سهرة حميمية، كلّ من يحضرونها، وهم يناهزون مائة ضيف، يتعارفون منذ فترة طويلة. ومن ثمّة فليستمتعوا بلا كلفة ولا مجاملات.

وكما هو شأن مثل هذه الحفلات، افتتحت الفرقة الموسيقية العزف بأغنية «الشامبرلين». وهي أغنية من إبداع فرقة راي فينتورا، استعارت عنوانها من اسم الوزير الأوّل البريطاني نيفيل شامبيرلان. ذلك بأنّ الرجال الذين كانوا يرقصون على أنغامها يحملون في أيديهم مظلات شبيهة بمظلّة «شامبيرلان»، يعلّقونها في ذراع المرأة التي يودّون مراقصتها. عدا أنّ الرقصة التي حظيت بأكبر عدد من المعجبين هي «لامبيث والك» الآتية من ضفّة المحيط الأطلسي الأخرى. كان الناس يرقصونها في ربيع سنة ١٩٣٩ على الطراز الألماني، وذلك بمحاكاة مشية الإوزة بحيث يسيرون وهم يتململون ويردّدون: «Ein Volk, ein Reich, ein F?hrer, ein weg!»[١].

ضحكت سلمى كثيراً مع مراقصها. وحين بدأ ينال منهما التعب، جلسا على الأرائك الموضوعة حول مائدة مزينة بزهور السحلبية، وشعرا بخفة لذيذة. بدت لهما الحياة جميلة في باريس، هذه المدينة التي باركتها الآلهة.

ـ هلا أسعدتني سيّدتي برقصة؟

أسعدتني...؟ لم تكن سلمى بحاجة إلى رفع بصرها لتخمّن من يكون هذا الذي يخاطبها بهذه الجسارة. ولولا احترامها للحاضرين، واستنكافها

(١) «شعب واحد، بلد واحد، زعيم واحد، خطوة واحدة» (المؤلفة هي من ترجمت من الألمانية إلى الفرنسية).

من إثارة الفضيحة، لرفضت. ثمّ، من يكون هذا الرجل الذي حيّرها؟ ما أشد ما تريد أن تكتشف ما تخفيه نظراته.

إنّه أطول مما كانت تحسب، وشعرت بنفسها ضئيلة بين ذراعيه، وهو شعور أربكها وجعلها تتصلّب. ليته لم يكن يضمّها إليه بهذه القوّة على الأقل، ويطوّقها كاملة على نحو غير محتشم، كما لو أنّه يريد ابتلاعها! حاولت عبثاً أن تبعد هذا الجسد الملتصق بجسدها، هذا الجذع القوي الذي بدأت تدرك تقاطيعه من خلال ساري الموسلين. لكنّه استرسل في الرقص بصمت. وبينما كانت تخمّن النظرات المصوّبة عليها، أحسّت بحرارة تسري في سائر أوصالها. «هذا جنون! إن طاوعتُه، لن يتورّع من مضاجعتي أمام الملأ».

وبحركة عنيفة خلّصت وجهها الذي كان عالقاً عند كتفه. ينبغي أن تتكلّم، أن تقول أيّ شيء لكي تجبره على النظر إليها، وتحريرها من ضمّته المطبقة، فسألته:

ـ هل أنت مقيم في فرنسا من مدّة طويلة؟

حدّق فيها بعينيه الرمادتين وقال بنبرة ساخرة:

ـ لماذا تسأليني هذا السؤال أيّتها السيدة النبيلة؟ هل تَوَدّينني أن أبقى؟

حاولت أن تدفعه عنها حانقة، لكنّه زاد من قوّة إطباقه عليها حتّى شعرت بالاختناق من الغضب هذه المرّة. ضغطت بكعب حذائها على قدمه بكلّ ما أوتيت من قوّة. فحررها فجأة بحيث كادت تسقط. عندئذ وقفا متواجهين. نظرت إليه بتوجّس: ماذا سيفعل يا ترى؟ اكتفى بابتسامة هازئة، وقال:

ـ يا له من مزاج!

ثمّ ارتسمت على وجهه معالم حيرة من يواجه مشكلة عليه أن يحلّها مهما كلّف الثمن، وسأل:

ـ هلا سمحت سيدتي لهذا العبد الضعيف أن يطرح عليها سؤالاً أرّقه

لساعات. راقبتك طيلة العشاء، فرأيتك تتغنّجين على أولئك التافهات اللواتي كنّ يحطن بك. أيعجبك حقّاً أن تلعبي دور الأميرة؟

كادت سلمى أن تردّ عليه، لكنّها تمالكت نفسها خشية تلك السحنة الهازئة التي كان يداريها. ومضت تبحث عن جملة مفحمة تردّه إلى مكانه وقد امتقع وجهها.

ـ هل أنت يا سيدي...

لم تعثر على الكلمة المناسبة. وشعرت بنفسها سخيفة ومضحكة. وبكلّ ما تملكه من تعالٍ، تركته واقفاً هناك وانصرفت، لكنّها كانت تشعر من وراء ظهرها بضحكاته المكتومة تتبعها.

طيلة السهرة وهي ترقص وتحاول أن تبدو أكثر جاذبية من دون أن تكفّ عن مراقبته بطرف عينها. بدا كما لو أنّه لم يعد يعيرها اهتماماً، لكنّها كانت واثقة من أنه يراقبها، وسينتهي به الأمر إلى أن يأتي لدعوتها لمراقصته. عندئذ ستعرف كيف تهينه بدورها!

لم يعد إليها. مضى يراقص امرأة سمراء فاتنة من دون حتّى أن ينظر إليها.

وفي اليوم الموالي، سألت سلمى ماري لور متظاهرة باللامبالاة:

ـ من يكون ذلك الرجل الشبيه برعاة البقر؟

قضتا ما يزيد عن الساعة وهما متكوّمتان فوق الأريكتين تتسلّيان بتذكّر تفاصيل الليلة السابقة، تنتقدان فستان هذه، وبذخ تلك، لا سيما أنّ صديقتها لا تضاهى في تصيّد العيوب. فعيناها مدرّبتان على ملاحظة مواطن الخلل مهما خفيت.

ورغم تلهّف سلمى لمعرفة سرّ ذلك الأمريكي، حاذرت من أن تركّز الحديث عليه.

ـ يشبه رعاة البقر؟ آه، الدكتور كيرمان، ذاك الذي أطبق عليك

ذراعيه؟ كنت تبدين حانقة. كان ذلك مضحكاً، مع أنه لم يكن مزعجاً. إنّه رجل وسيم.

وتنفّست سلمى الصعداء، ذلك أنّ صديقتها الداهية لم تتفطّن لشيء.

واسترسلت ماري لور تقول:

ـ كان كيرمان من ألمع جراحي نيويورك، جاء إلى باريس لحضور مؤتمر دولي. لكنّه عزف منذ سنتين عن الشهرة لكي يعتني بالهنود في مناطق نائية من المكسيك. ويبدو أنّ ذلك أغضب زوجته! هي نفسها ابنة أحد كبار الأطباء، وقد تزوّجته رغم معارضة أسرتها، لأنه ينحدر من وسط متواضع. يبدو أنّ أباه مجهول، وأمّه كانت نادلة في مطعم بأحد المدن الصغرى في وسط الغرب الأمريكي!

دهشت سلمى وسألت:

ـ ولكن كيف استدعته ليدي فيلوز، وهي امرأة شديدة العناية بالأنساب؟

ـ التقت به في نيويورك. وكيرمان يعدّ هناك من الشخصيات اللامعة. ولعلّها فكّرت في أنّ حضوره سهراتها سيضفي عليها ضرباً من الطرافة. ولم تكن مخطئة في ذلك. كّل النسوة بالأمس كّن يدُرن حوله مثل الذباب. العالم يتغيّر يا عزيزتي. فمع كلّ ما يجري، ينبغي أن يسارع المرء إلى البحث عن المتعة. لم يعد أمامنا كثير من الوقت لنستمتع. بعضهم يؤكّد أنّ هذه النقابات التي تتحرّك ستقودنا إلى الثورة، بينما يتنبأ آخرون بالحرب. لربّما كان في ذلك بعض المبالغة، لكن هذا يزيد من التوتّر. كلّ واحد يحاول أن يستمتع باللحظة، ولا يعنيه رواج بعض الأحكام الجاهزة! وأنا أرى أنّ هذا رأي سديد: يجب أن يستمتع الإنسان بالحياة حتّى ولو كانت الكارثة وشيكة.

لطالما افتتنت سلمى بهذا المزيج من الحماسة المتّقدة والسخرية اللاذعة لدى ماري لور. لو أنّها كانت في زمان آخر لكانت هذه الشابة مغامرة كبيرة عوض أن تكون سيّدة صالونات.

تمطّت على أريكتها، ورفعت كأس عصير البرتقال وقالت:

ـ أقترح أن نشرب نخب الحرب بما أنّها هي وحدها القادرة على إنقاذنا من السأم!

وشربتا النخب وهما تضحكان.

٣

مدّ زينيل خمسة فرنكات لخادم الفندق الذي أتاه بظرف يحمل شعار ولاية بادالبور على صينية فضيّة. أخيراً تصل رسالة من بادالبور بعد أن انقطعت عنهما الأخبار منذ ثلاثة أسابيع حتّى إنّه بدأ يقلق. لقد وعد سموه بالمجيء بداية يونيو/ حزيران. لعلّه يعيّن تاريخ وصوله في هذه الرسالة. والواقع أنّ زينيل كان ينتظر مجيئه بفارغ الصبر: هو على الأقلّ يستطيع أن يعيد سلمى إلى رشدها! فهي تخرج طول الوقت بينما تقتضي حالتها الصحيّة أن ترتاح. في بداية إقامتهما في باريس، ابتهج برؤيتها تضحك من جديد، ولم يقل شيئاً. لكنها تجاوزت الحدود. تقضي الليل بكامله في الرقص، ولا تعود إلا عند الفجر... ولمّا يحذرها من ذلك بقلق، تسخر منه بلطف قائلة:

ـ إنّك لا تفهم شيئاً من هذه الأمور يا عزيزي زينيل! الشيء المهمّ بالنسبة لصحة الجنين هو أن أكون سعيدة!

ولكي تقنعه بذلك، تقبّله قبلة صغيرة، فينسى ما أعدّه من حجج خلال ساعات طويلة قضاها في انتظارها. ولا يعاوده الغضب إلا لمّا يخلو إلى نفسه، فيدرك أنّها نجحت في التلاعب به كالخاتم في أصبعها، كشأنها مذ كانت صغيرة. هو ما زال يذكر أنّها، حتى وهي طفلة في الأستانة، كانت تحصل منه على كلّ ما تريد...

صاحت به: «ادخل!»، لكن زينيل ظلّ متسمّراً عند عتبة الغرفة

مشدوهاً: كانت سلمى واقفة أمام النافذة المشرعة تحرّك ذراعيها وساقيها وقد ارتدت سروالاً واسعاً وقميصاً مخططاً.

ـ أغلق الباب يا زينيل! ألا تراني أتريّض؟

فغمغم متذمّراً:

ـ أهي موضة أخرى جاءت من أمريكا؟ ما رأيت أمّك السلطانة ولا أخواتها يقمن بمثل هذه الحماقات قطّ، والله يشهد أنهنّ كنّ جميلات! ما أحرصك على أن تتشبّهي بالرجال!

راحت تضحك وهي تمسك الرسالة بينما ظلّ هو منتصباً وسط الغرفة، آملاً أن تطلب منه البقاء. لكنّها نظرت إليه مقطّبة، مثلما كانت تفعل السلطانة تماماً، فانسحب على مضض.

مزّقت الظرف، ومضت تتأمّل الخط الجميل الذي كتبت به الرسالة.

«مايو/ أيار ١٩٣٩

عزيزتي الغالية

بخلاف ما كنت آمل، لديّ خبر سيئ أريد أن أطلعك عليه: لن أستطيع اللحاق بك في الشهر المقبل، كما كان متوقعاً. لا بدّ أنّك قرأت في الصحف بأنّ الهند تغلي بعد أن قرر البريطانيون القيام بالتعبئة من دون الرجوع إلى الحكومة المحليّة. الناس يتناقشون بحماس في كلّ مكان حول ما إذا كنّا، في حال نشوب الحرب، سنساند إنجلترا، أم على العكس من ذلك، نغتنم الفرصة لانتزاع هذا الاستقلال الذي مضت سنوات ونحن نطالب به. وإذا كان المؤتمر منقسماً، فإنّ الرابطة الإسلامية تقدّر في المقابل أنّه ينبغي مساندة الدول الديمقراطية ضدّ الخطر النازي مهما كلّف الثمن. أمّا نحن الأمراء، فقد طلب منّا نائب الملك اللورد لانليثغو شخصياً أن نجنّد عدداً من الرجال، ونُعدّهم لكي يُبعثوا إلى الجبهة في أيّ لحظة. إنّها قضيّة شائكة، وأنا لم أتّخذ قراري بعد، وإن كان عدد المتطوّعين في ولاية بادالبور قد بلغ إلى حدّ الآن

ثلاثة آلاف! وإنّه لمن الغريب أن يرى المرء كيف يستعجل مزارعونا الذهاب إلى حتفهم، اللهم إلا إذا كان ذلك حبّاً في هيبة اللباس العسكري أو في الأجور التي تمثل بالنسبة إليهم ثروة.

ولكن لنتحدّث عنك يا عزيزتي. إنّي قلق عليك. يُقال إنّ هير هتلر يسعى إلى تغيير «الحدود الجائرة التي فرضتها معاهدة فيرساي على ألمانيا». إذا صحّ هذا، ستكون فرنسا في مقدمّة الدول المهدّدة. لذلك أنصحك بالذهاب إلى لوزان بسويسرا. فهي مدينة ساحرة ستكونين فيها آمنة.

لقد طلبتِ منّي في رسالتك الأخيرة أن أبعث لك بالمال. لا أخيفك، لست أفهم كيف أنفقت في شهر واحد ما يكفي للإنفاق ستة أشهر على قصر لوكنو، بسكّانه الذين يتجاوزون المئتين. سأقوم بالمتعيّن، لكن، كوني عاقلة أرجوك: فأنا لست نظام حيدرأباد الذي يستطيع، كما يقول صديقي آغا خان، أن يملأ مسبحه بالأحجار الكريمة... لو أنّ أجدادي تواطأوا مع الإنجليز كما فعل أجداده، لما كنّا فقدنا ثلاثة أرباع ولايتنا، ولكان بإمكانك اليوم أن تشتري كلّ دور الموضة بباريس! على أنّني فخور بأنّهم حاربوا المستعمر، وما أحسبك إلا فخورة أنت أيضاً بذلك».

وتوقّفت سلمى عن القراءة. قالت في نفسها: «عدنا إلى المواعظ من جديد؟ يا إلهي، كم هم مرهقون رجال المبادئ هؤلاء!»، وهي في الواقع واثقة من أنّها لا تصدّق كلمة ممّا قالت. فمفاهيم الشرف والشجاعة أثمن لديها من ألا تفهم اعتزاز زوجها بكبريائه. بل لعلّها أهمّ ما تحبّ فيه من خصال. في المقابل، هي غير مستعدّة لأن تدفن نفسها في سويسرا!

ومهما يكن، فليس ثمّة أيّ خطر، إذ يؤكّد الخبراء بأنّ ألمانيا التي أضعفتها الأزمة الاقتصادية، عاجزة عن مواجهة الجيش الفرنسي، وأنّها إن جازفت بذلك، سيُحسم أمرها في أقل من أربع وعشرين ساعة.

«لم تحدّثيني كثيراً عمّا تقومين به، باستثناء تردّدك على قاعات

السينما، وجولات التسوق مع صديقتك ماري لور. لكن احذري، لا ينبغي أن تتعبي نفسك. فالأطباء يقولون إنّ امرأة في وضعك ينبغي أن تقضي نصف نهارها على الأقل مستلقية. والبيغوم نعمت تنصحك بعدم أكل البطيخ لتأثيره السيئ على رئتي الجنين.

لا بدّ أنّك تشعرين بالوحدة يا عزيزتي... أتمنّى ألا تكوني تحسّين كثيراً بالسأم. أمّا هنا، فالقصر يبدو فارغاً من دونك، وكلّ من فيه متشوّق إليك.

أقبّل يديك.

عزيزك أمير».

وضعت سلمى الرسالة، وقالت في نفسها: «مسكين أمير، فهو لا يجرؤ حتّى على أن يقول لي ببساطة، أو بالأحرى يعترف بأنّه مشتاق إليّ وقلق عليّ. ربّما كان قلقه سيتضاعف لو علم بأنّني أستمتع... على أنّني لا آتي منكراً على كلّ حال. كلّ أولئك الرجال الذين يتمسّحون بي أعرف كيف أصرفهم. ثمّ إنّني لا أجد فيهم من هو جدير بأن يجذبني. كلّهم كما قال الأمريكي... تافهون».

لم تر سلمى هذا الرجل منذ السهرة التي نظمتها الليدي فيلوز. لا بدّ أنّه عاد إلى بلاده. حسناً فعل! لقد تصرّفت بطريقة على قدر كبير من البلادة ذلك المساء بحيث إنها لم تعد ترغب في مقابلته مرّة ثانية.

أُسدِل الستار الثخين على خشبة مسرح لامادلين بينما ضجّت القاعة بالتصفيق. كلّ باريس حاضرة هنا هذا المساء لتشاهد عرض مسرحية ساشا غيتري الجديدة التي تحمل عنوان: «صفعتان».

وأضيئت من جديد ثريات الكريسطال كاشفة عن الجمهور الأنيق الذي يحضر عادة العرض الأوّل. وفي الصفوف الأولى مضى الرجال يصوّبون نظراتهم باتجاه المقصورات حيث تجلس أجمل نساء باريس.

همس شابّ مفعم بالنشاط لجاره:

ـ لقد أثبت ساشا في هذه المسرحية أنّه كاتب كبير!

ـ صحيح، المسرحيّة مسلّية.

ـ من حدّثك عن المسرحية؟ انظر! لقد نجح في جمع كلّ زوجاته السابقات: يون برانتون برفقة زوجها الجديد بيير فريسناي، والحسناء جاكلين دولاباك التي انفصل عنها مؤخّراً ليتزوّج جونيفييف دو سيريفيل. احزر كيف أخبرها بأنّه سيتركها؟ فعل ذلك خلال الفصل الثالث من مسرحية بينما كانا يمثلان معاً. قال لها: «سيّدتي، سأقدم لك هدية لا تقدّر بثمن: سأمنحك... حرّيّتك!».

ـ يا لها من طريقة مبتكرة! لا بدّ أنّ النساء مغرمات به؟

ـ ... إلى حدّ الجنون، في المقابل ينزعج الرجال منه كثيراً. زعم لي أحد الأصدقاء أنّه حتى لمّا يخرج إلى شرفة بيته ليتنفّس، لا يكاد يرى كلباً يمرّ حتّى يُسوّي هيئته!

كانت النساء في المقصورات قد بدأن في مغادرة مقاعدهنّ. بدت بينهنّ البيغوم ملكة جمال فرنسا سابقاً، وهي الآن زوجة آغا خان، زعيم طائفة الإسماعيلية، ومارسيل مارغو نوبلمير الحسناء، زوجة مدير فاكون ـ لي، وكذا المهاراني الصغيرة ذات العينين الخضراوين، زوجة أيّ راجا؟ لا يهمّ! هي منتشية في هذا الساري الموشّى بالذهب ذي الدانتيلا السوداء، الذي يبرز لونها الشبيه بلون السوسن.

ووشوش الشاب لرفيقه:

ـ يقال إنّها متمنّعة، ومثال للفضيلة! بل يبدو أنّ المزح الثقيلة تجعلها تتورّد. إنّها فاتنة، أليس كذلك؟ بلغني أنّها ستتعشى في مطعم ماكسيم هذا المساء مع أمير وأميرة بروغلي، وهما صديقان قديمان، فحجزت مائدة هناك. وقد أكّد لي ألبير، رئيس الخدم، أنّ مائدتنا ستكون مجاورة لمائدتهم. أنا متلهّف للتعرف عليها. أترافقني؟

مضى صديقه يحدّق فيه مستغرقاً، ثمّ أجاب:

ـ إنّني أعرفها، وأخشى من ألا يسرّها وجودي...

ـ هذا أفضل. سيلفت ذلك نظرها إلي.

وأمسك بكتف صديقه وخرجا ضاحكين.

صادفت سلمى صعوبة في تذكّر تفاصيل ما حدث في تلك السهرة. كلّ ما تذكره هو أنّها رأته قادماً، وأنّ تياراً من الحياة سرى فجأة في القاعة. أحسّت بالانشراح وقالت في نفسها: «هذه فرصة مواتية لأنتقم». ولم تستطع أن تتمالك نفسها من تنظر إليه نظرات لا تخلو من خُبث. أتراه اعتقد أنّها تشجّعه؟ لم يلبث أن توجّه نحوها.

ثمّ... لم تفهم ما وقع إثر ذلك. ومن دون أن تشعر، وجدت نفسها بين ذراعيه. ورقصا طويلاً. ولم يضمّها إليه بقوّة كما فعل في المرّة السابقة، بل برقّة بالغة كما لو أنّه خاف عليها من أن تنكسر. وراحت عيناه تبسمان لها بلطف لا حدود له. أحسّت بالأنظار تراقبهما، وبالوشوشات حولهما، لكنّ ذلك لم يعد يعنيها. فهي غير قادرة على المقاومة. لو أنّه حاول تقبيلها، هناك وسط مضمار الرقص، لما تملّصت منه على الأرجح. لقد خذلتها الإرادة والمبادئ، والشيء الوحيد الذي ظلّ يشغلها: حرارة نظرته وذراعاه اللتان شعرت بنفسها تذوب فيهما.

وفجأة تنبّها إلى أنّ الوقت تأخّر كثيراً، فاقترح عليها أن يرافقها إلى فندقها. ورغم التكشيرة الناقمة التي علت محيّا أميرة بروغالي، قبلت سلمى العرض، مضحيّة بكلّ ما اشتهرت به من جدّيّة اكتسبتها خلال أسابيع من السلوك القويم. أستصير موضوعاً للنمائم؟ لا بأس! وشعرت بالدهشة والاستغراب من أنّها تحرّرت من سلطان القيل والقال.

من الشارع الملكي إلى شارع مونتيني، كانت باريس في منتهى التألّق. وكان ميدان لا كونكورد خالياً. مضى يسوق ببطء بتناغم مع صوت الماء المتساقط رذاذاً على جنبات النافورة. وعبرا الشانزيليزيه كما لو أنّهما يعبران صحن كنيسة. كان صامتاً، وهي جالسة إلى جواره تنظر

من الجانب إلى وجهه الذي يتوزّعه الضوء والظل، فتتخيّل أنّهما انطلقا في سفر طويل جدّاً. وحين بلغا أمام بلازا أثيني، أوقف السيارة والتفت إليها، فأربكتها من جديد هذه القوّة والرقة المنبعثتان منه. ما كانت تستطيع في تلك اللحظة أن ترفض له طلباً، وكلّ ما كانت تعرفه من مناورات لم تعد تجدي في شيء. بل لعلّها استطابت هذا الموقف، ولم تعد ترغب في أن ينتشلها أحد منه. تناول وجهها بين يديه وراح يتفرّسه كما لو أنّه يسعى لتملُّك كلّ رعشة من رعشاته، ثمّ طبع على جبينها قبلة صغيرة قبل أن يهمس:

ـ إلى اللقاء غداً.

انصرف وتركها تترنّح وعيناها نصف مغمضتين على حلم تخشى أن ينفلت منها.

...H(*) ذراعان ممدودتان إلى السماء، وساقان راسختان في الأرض، وتوازن مطمئِنّ، لا استدارة فيه، لكنّه متناظر تماماً. خطوط واضحة ومعتدلة، بعيدة عن البهرجة، ببساطتها الهادئة وصرامتها التي لا تخلو من قسوة... حرف (H) هذا يحيل على هارفي.

شدّت سلمى أصابعها على البطاقة التي أتتها بها خادمة الفندق مع باقة زهور وحشيّة. «هارفي كيرمان». هارفي... ردّدت بصمت هذا الاسم الذي بدا لها مألوفاً رغم أنّها لم تسمع به من قبل، أشبه في ألفته بهذه الزهور المجهولةِ لديها، التي تحمي مدقّاتِها الأرجوانيةَ الطويلةَ، بكبرياء، تويجاتٌ قرمزيّةٌ ضاربةٌ إلى الزرقة. ويرنّ جرس الهاتف، فتهرع إليه.

ترفع السمّاعة، فإذا بصوت يقول:

ـ أأزعجتك؟

إنّها ماري لور تتقصّى الأخبار.

(*) الحرف الأول من اسم: Harvey

ـ كلا، أنا مستيقظة.

فسألتها بصوت مفعم بالإثارة:

ـ هل من جديد؟

ـ عفواً؟

ـ هيّا، لا تتظاهري بالسذاجة! كيف وجدت الأمريكي؟ أهو فعلاً رائع كما يبدو؟

ـ ذهب خيالك بعيداً! لقد افترقنا باحترام عند باب الفندق.

وسمعت ضحكة مخنوقة في الطرف الآخر من الخطّ: ماري لور لا تصدّق شيئاً ممّا تقوله سلمى بطبيعة الحال، ولا تعترف لها بالحقّ في إخفاء شيء عنها. على كلّ حال فبفضلها تعرّفت على الأمريكي، مثلما تعرّفت على جميع الناس منذ وصولها إلى باريس.

ثمّ أضافت بنبرة فاترة:

ـ إذا كنت ترغبين في حفظ أسرارك، فلك ذلك. لكن احرصي على عدم إثارة الأنظار! لقد تجاوزت الحدود بالأمس. تلقّيت أربع مكالمات بشأنك حتّى الآن.

ـ أليس لهؤلاء الناس شيء يشغلهم؟

ـ يمكن أن يفعل المرء في باريس ما يشاء، لكن شريطة الحفاظ على المظاهر... على كلّ حال، لمّا يعود حبيبك إلى زوجته بعد أسبوع فيما يظهر، اتّصلي بي. لكن حذار! فأنا لست من النوع الذي يتقن مسح الدموع.

ثمّ أقفلت الخط. وسرعان ما تبدّد فرح سلمى، لا بسبب مزاج ماري لور، بل لأنّ في كلامها نصيباً من الصحّة: فهي مقبلة على التعلّق برجل متزوّج سيعود من حيث أتى، في الطرف الآخر من العالم، وربّما لن تراه ثانية أبداً.

وبحركة آلية أشعلت سيجارة رغم أنّها تكره التدخين. وتنبّهت باندهاش

إلى يدها التي ترتعش. لماذا تنتابها هذه الحالة من أجل رجل لم تتعرّف عليه إلا منذ مدّة قصيرة؟ ألأنّه مختلف كثيراً عن كلّ أولئك الذين يغازلونها على نحو محتشم؟ بينما شنّ عليها هو هجمة واحدة تركتها مشدوهة، كما لو أنّ جسدها بأسره تعرّف فيه على السيّد. وعبثاً حاول التمنّع، إلا أنه استسلم... تخيّلت له كلّ الفضائل لكي تبرّر هذا التعلّق به الذي أربكها. لكن ها هو كلام ماري لور يعيدها إلى رشدها. يجب أن تعترف بأنّها انخدعت: فهذا الأمريكي رجل جذّاب بالتأكيد، لكنّه ليس من النوع الذي يناسبها. بعد أربع وعشرين ساعة، سينتهي الكلام بينهما، ولن يجدا ما يقولانه لبعضهما. يتحتّم أن تضع حدّاً لهذه المغامرة.

ورنّ جرس الهاتف من جديد. شعرت سلمى كما لو أنّ قلبها سيتوقّف عن الخفقان... هي واثقة من أنّه هو، فسارعت إلى رفع السماعة.

حياها بصوت مرح قائلاً:

ـ صباح الخير معبودتي! سألحق بك بعد ساعة لنتغذّى في مطعم باريسي أصيل أنا واثق من أنّ قدميك لم تطآه من قبل.

ـ لكنّني لا...

ـ ألا تكفيك ساعة لتجهّزي نفسك، بعد ساعة ونصف الساعة إذن! مدّة لن تزيدني إلا شوقاً إليك!

شرح هارفي لسلمى في الطريق أنّ «لافونتين دو مارس» الواقع في زاوية شارع سان دومينيك مطعمٌ صغير، تغطّي موائده أغطية ذات مربعات حمراء وبيضاء، وقائمة طعامه يخطّها ابن صاحبه الذي لم يتجاوز الثانية عشرة من العمر. وراح يقلّد بمهارة صاحب المطعم وهو يرفض أن يقدّم لزبائنه خمراً غير كاهور، أو مشيداً بطبق «يخنة الفاصولياء» وهو يقول: «أنا واثق من أنّها ستعجبك، كُلْ ثمّ أخبرني!».

أثار وصول سلمى بالساري ذهول الحاضرين: لم يروا قطّ في الحي

امرأة تأتي إلى المطعم بلباس السهرة!، وبينما نهرت أمّ طفلها الذي سأل: «لماذا تتنكّر هذه السيدة في هذا اللباس؟» سارع صاحب المطعم، وهو شخص متورّد الخدّين، لاستقبال الوافدين. فالأمريكي يعدّ من أفضل زبنائه. ولكي يظهر معرفته بأعراف العالم الراقي، أمسك يد سلمى، وطبع عليها قبلة مسموعة، ثمّ تقدمهما رغم بدانته بخفّة راقصة رشيقة، وأجلسهما، وقد ارتسمت على محيّاه ابتسامة عريضة، إلى مائدة موجودة في أقصى المطعم، مخصّصة عادة للزبائن المميّزين، وذلك حتّى يلاحظ بقيّة الزبائن أنّ مطعم الأب بولاك يستقبل أناساً من الطبقة الراقية، فلا يجرؤوا من ثمّة على الاحتجاج إذا بدت لهم الفاتورة مرتفعة قليلاً.

وتخال سلمى نفسها في فضاء من فضاءات أحد أفلام مارسيل كارني. لم يخطر ببالها قطّ أنّ الفرنسيين ما زالوا يحافظون إلى هذا الحدّ على الصورة الشائعة عنهم: رجال سمان يأكلون بنهم وقد ربطوا المناديل حول أعناقهم، وأطفال يرتدون لباس يوم الأحد، وعشّاق يتبادلون القبل بعد كلّ لقمتين تحت نظرات السيد بولاك الناقمة، لأنه لا يقبل أن تُترَك الأطباق الرائعة التي أعدّتها صاحبة المطعم تبرد. وهو لا يتحرّج من أن يصيح فيهم: «أثناء الأكل، ينبغي أن يتفرّغ المرء للأكل!»، ودّت سلمى لو تتجاذب معهم أطراف الحديث، لكنّها خشيت من أن تزعجهم، وقرّرت أن ترتدي في المرّة المقبلة فستاناً عادياً.

المرّة المقبلة... لن تكون ثمّة مرّة مقبلة! هذا ما ينبغي أن تشرحه لهارفي. لكنّه لم يترك لها الفرصة حتّى الآن، فهو ينضح فرحاً، ولا يكفّ عن المزاح. عليها أن تبدّد سوء التفاهم فوراً، لأنّها إن انتظرت أكثر، سيتعذّر عليها الأمر. ومع ذلك فهي متردّدة. إنّه يبدو في منتهى السعادة...

- ينبغي أن أكلّمك في موضوع مهمّ يا هارفي.

واندهشت من نبرة صوتها، ومن السرعة التي تتكلّم بها، بل ومن كونها نادت هذا الرجل الذي لا تكاد تعرفه باسمه الشخصي. أهي ألفة

قصدت منها تلطيف وقع الكلام الجارح الذي ستقوله؟ أم تُراها ببساطة رغبة في النطق بهذا الاسم الذي حلمت به طول الصباح؟

نظر إليها باهتمام، وغمز بعينه كما لو أنّه يقصد: «أعرف، لا تخشي شيئاً، كلّ الأمور ستكون على أحسن ما يرام»، ثمّ قال:

ـ بالطبع يا معبودتي، أليس الأحرى أن تطلبي الطعام أوّلاً؟ هذا المكان يبدو عادياً، لكن لا تغترّي بالمظاهر: إنّه من أفضل مطاعم باريس. من حسن الحظ أنّ الموضة لم تؤثر عليه، وينبغي أن تعديني بألا تدُلّي أصدقاءك عليه. فهم لديهم مطاعمهم: لوران وبرج الفضة، وحبيبهم ماكسيمس، وحسبهم هذه المطاعم! لا أريدهم أن يأتوا إلى هنا، ويشوّشوا على هؤلاء الناس الطيّبين الذين لا يعتبرون الأكل مناسبة للاستعراض، بل يأخذونه بكامل الجدّيّة.

واستغرقت سلمى في قراءة قائمة الطعام كما لو أنّها تحلّ مسألة رياضية عسيرة. ورغم ما بذلت من جهد، لم تفهم منها شيئاً: لحم إوزّ منقوع، فراخ مكمّأة، برنيّة الكبد بالفطر الأبيض... ومضت الكلمات تتراقص أمام ناظريها: «سيدي»... كلا، «سيدي العزيز»... كلا، ألا يكون حرياً بها أن تختفي من دون أن تقدّم توضيحات؟ أليست كلّ رسالة تعلن القطيعة هي دعوة لاستئناف العلاقة؟ ولماذا تسمّيها قطيعة مع أنّ لا شيء بينهما؟

وسمعت نفسها تقول:

ـ لا شيء.

ـ عفواً!

تورّدت، وغمغمت بأنّها كانت تفكر في شيء آخر. ولكي يخرجها من ارتباكها، ومن دون أن يسألها شيئاً، قدّم الطلبيّة.

ـ والآن قلي لي: ما معنى عبارة «لا شيء» التي نطقتها بتلك النبرة الحاسمة؟

لاذت بالصمت. أتستطيع أن تقول له إنّها لا ترغب فيه مع أنّه لم يعرض عليها شيئاً؟

واسترسل يقول:

ـ أنت محقّة بلا شكّ. الظاهر أنّ لا شيء يجمع بيننا. هذا ما كنت تفكرين فيه، أليس كذلك؟ «ماذا سأفعل، أنا الأميرة سلمى، بهذا اليانكي؟».

وأمسك بيديها ليمنعها من الاعتراض.

ـ الواقع أنّك لست أنت من تفكّرين في هذا، بل يفكّر فيه الآخرون عوضك. ألا تظنّين أنّ الأوان قد حان لتأخذي بزمام المبادرة وتفكّري أنت بنفسك؟

ـ كيف تسمح لنفسك بأن تقول لي هذا؟

شعرت سلمى بالضيق، فحاولت أن تخلّص يديها منه، لكنّ هارفي كان يشدّ عليهما بحزم.

ـ أنا ظالم حقّاً: فلقد بدأت تفكّرين، وإلا لما كنّا أمضينا سهرة الأمس، ولا كنّا هنا معا اليوم. وما دمت لم تتعودي على فعل ما ترغبين فيه، فإنّك لا تفكرين في هذه الأثناء إلا في أمر واحد هو: أن تلوذي بالفرار.

وحرّر يديها.

ـ أنت حرّة يا سلمى، ولكن فكّري: ليس مهمّاً أن تهربي منّي، ولكن، هل ستقضين حياتك تهربين من نفسك؟

شُدهت سلمى. هذا الرجل خطير. لم تكد تتعرّف عليه، وها هو يهجم على حدائقها السرية كثور هائج. ومع ذلك، فعوض أن تنهض وتنصرف، سمعت نفسها تجيب بصوت طفلة صغيرة عنيدة:

ـ أنت مخطئ، أنا لا أهرب. بالعكس، لقد أمضيت وقتاً طويلاً أحاول أن أفهم من أكون، وماذا أريد. لكنّني كلّما أمعنت في البحث، زاد شعوري بالضياع. لذلك أعرضت، وقرّرت أن أعيش.

ـ تقصدين أنّك أعرضت عن الحياة؟ اللهم إذا كنت تُسمّين الحلقة التي تدور فيها الدمية الميكانيكية حياةً!

ومال نحوها وراح يحدّق فيها ثمّ أضاف:

ـ ممّاذا أنت خائفة يا سلمى؟

لماذا تتركه يستجوبها هكذا؟ هي ترغب في الانصراف، لكنّها ألفت نفسها عاجزة عن الحركة، وانتبهت إلى أنّها تغمغم كالمكرهة:

ـ كثيراً ما أخال نفسي لا شيء وكلّ شيء في الآن نفسه. لست أدري أيّهما يخيفني أكثر. فأنا أختفي في الحالتين معاً...

ما الذي يدعوها إلى الإسرار بمكنون نفسها لهذا الغريب بينما تحترس من أقرب أصدقائها البارسيين؟ أهو هدوؤه الذي يجبرها على ذلك؟ هدوء أشبه بهدوء السماء بعد العاصفة.

ردّد وهو ينظر إليها مليّاً:

ـ لا شيء وكلّ شيء، ولكن هذا تماماً هو حالنا جميعاً. وأنا أوافقك على أنّه مخيف لـ«أنانا» الصغيرة!

وبينما كانت تنظر إليه مندهشة من كلامه المتحذلق، مع أنّه مضى يتردّد في أعمق أعماقها، أمسك بكتفيها.

ـ اخرجي من حلمك يا سلمى. فأنت امرأة. أأنت واعية بما يعنيه ذلك؟ إنّه أرفع درجات النبل. أما ما عدا ذلك فليس سوى زخارف تافهة تعرقل تدفّق الحياة. هل تساءلت لحظة لماذا أناديك «معبودتي» وليس «أميرتي»؟ لأنّني أريدك متحرّرة من هذا اللقب الذي يقيّدك، لأنّك أكثر من أميرة بكثير. أنت كائن إنساني بإمكاناته اللانهائية.

ثمّ انفجر ضاحكاً وهو يضع في صحنها قطعة رائعة من لحم الفراخ، وأضاف:

ـ لا ينبغي أن يقطع هذا الكلام شهيّتك!

يقطن مؤقتاً المنزل رقم ٢٠ بشارع مونتبانسيي الذي يشرف على حديقة القصر الملكي، قبالة النافورة تماماً. وبعد الفراغ من الغداء، أخذها إلى هناك من دون أن يستشيرها، كما لو أنّ ما يربط بينهما يسوغ له ذلك على نحو بديهي. وأمضيا فترة ما بعد الظهر في السرير الواسع يقبّلها ويداعبها بلطف من دون أن يضاجعها، رغم أنّ سائر جسدها المتوتّر كان يتضرّع له أن يفعل.

ولمّا ضرّجت أشعة الشمس الغرفة بأشعتها الأرجوانية عند الغروب، نزلا لاستنشاق رائحة المساء المنبعثة من العشب الذي انهمك بستاني عجوز في سقيه. توقّفا عند حانة صغيرة تقع تحت الأقواس، وطلبا زجاجة نبيذ سانسير وحبات فستق أطعما بها الحمام.

وحين رافقها إلى فندقها، لم يكن الليل قد خيّم بعد. كانت ترتجف، وقدماها لا تقويان على حملها. ولمّا مال عليها ليقبّلها، أغمضت عينيها لكي لا ينتبه للدموع المترقرقة فيهما.

ـ انظري إليّ يا سلمى!

ولفّها دفق لانهائي من الحنان. فغمغمت:

ـ أحبّك.

أبعدها منه قليلاً ثمّ حدجها بنظرة قاسية ما لبثت أن لانت أمام وجهها المضطرب.

ـ حاولي أن تفهمي يا سلمى أنّك حرة في أن تفعلي ما يروقك من دون أن تلتمسي الأعذار لمشاعرك النبيلة. أنا مستعدّ لأن أقبل منك أيّ شيء إلا أن تكذبي على نفسك.

ـ ولكنّني لا أكذب...

ـ تكذبين على نفسك! أنت غير ملزمة بقول الحقيقة لأحد إلا لنفسك. أنت تتوقين إلى الحبّ، وربّما إلى حبّي أنا، لكنّك حتّى في اللحظة التي تظنّين فيها أنّك تستسلمين، تستمرّين في فرض الرقابة على

نفسك لتلاحظي أثر ذلك عليك. وأنا لا ألومك. فقد روّضوك منذ الطفولة على أن تجتهدي لنيل إعجاب الآخرين. سحجوا وصقلوا وأعادوا تشكيل كلّ ما هو تلقائي فيك لكي تضطلعي، بلا مشقّة، بدورك كأميرة. وطالما أنك لم تتخلّصي من هذا الدور، لن تستطيعي أن تحبّي.

ثمّ اقترب منها، وضمّها بين ذراعيه، وراح يهدهدها بحنان. ثمّ قال وهو يضحك:

ـ إنّه أمر صعب، لكن لا تخافي، سأبذل قصارى جهدي لأساعدك، بدافع الأنانية، لأنّني أحبّك وآمل أن أصير يوماً الشخص الذي تحبّينه، لا أن تحبّي صورة سلمى الواقعة في الغرام...

وعادت مساء اليوم الموالي إلى شارع مونبانسيي من دون أن تهاتفه. فهي لا تدري ما يمكن أن تقول له. صعدت السلّم كما لو أنّها في حلم. كانت تشعر وهي ترتقي كلّ درجة أنّ مزقاً من ألبسة رثة تسقط من فوق كتفيها. وكلّما تقدمت في الصعود، زاد شعورها بالتخفّف. لكنها حين بلغت الباب، وهمّت بالضغط على الجرس، انتابها رعب شديد: كيف سينظر إلى امرأة جاءت هكذا... لتهَبَهُ نفسها؟ لكنّه لمّا فتح الباب، واستقبلها بابتسامة غاية في الحنان والروعة أدركت على التوّ أنّ هذه هي حقيقتهما، وأنّ لا شيء عداها ذا أهميّة! وبدأ ينزع ملابسها باحتشام، وتهيّأ لها كما لو أنّها أوّل مرّة ينظر فيها رجل إلى جسدها. وحين لامست شفتاه نهديها، وجثا أمامها وقد أمسك بيديه القوتين خصرها، أدركت بانبهار أنّها ما من مرّة تملّكها أحد من قبل.

داعبا بعضهما بعضاً لساعات في صمت كالمسحورين. كانا يرتعشان لا لأنّهما يكتشفان بعضهما بعضاً، بل لأنّ كلاً منهما مضى يتذكّر الآخر، كما لو أنّهما تحابّا في عالم آخر من قبل. ولمّا التحم الجسدان لم يعد للمكان ولا للزمان من وجود، الشيء الوحيد الموجود أبديّةٌ تتجدّد في كلّ لحظة.

أيقظتها عند الفجر زقزقة العصافير، فمكثت فترة طويلة في مكانها لا تتحرّك، تاركة أشعة الشمس الشاحبة ترشح من خلال رموشها، محاذرة من أن تزعج اليدَ العاريةَ الموضوعة على بطنها. كان الإحساس بأنها في ملكه يغمرها بالمتعة، وهي ممتنة له بذلك. وراحت تقول له بصوت خافت إنّها تحبّه.

تأمّلت طويلاً شفتيه الممتلئتين والتجاعيد الصغيرة الرائعة الموجودة في زاويتي عينيه. أيحبّك هذا الرجل حقّاً يا سلمى؟ قال إنّه يريدها عارية، يريدها امرأة، ويقول لها: كوني واثقة. قدّم لها هدية لم تكن تأمل أن تحصل عليها، بعدما أيقنت أنّها صارت وهماً من أوهام الطفولة: أعاد لها الطفلة الصغيرة المتعطّشة لفهم العالم، هذا العالم الذي كان بالنسبة إليها معيناً لا ينضب من تجارب لا يبدو شيء منها مستحيلاً.

منذئذ لم يعودا يفترقان. ألغت سلمى كلّ دعواتها بذريعة أنّها مسافرة. وكان على زينيل أن يجيب في الهاتف بأنّ تاريخ عودتها غير محدّد. حاول الخصيّ مراراً أن يعيد الأميرة إلى رشدها ـ فهذا الأمريكي لا يستحقّ كل هذا الاهتمام ـ لكنّها نهرته بجفاء لم يعهده فيها. لم تكن تسمح لأحد بأن يفسد عليها سعادتها.

قضيا أيّاماً يجوبان المدينة يداً في يد، وسمح هارفي لسلمى باكتشاف باريس أخرى لم تكن تعرفها. تنزّها تحت أشجار الكستناء بـ«ليل دو جات»، التي تمتدُّ مستدقَّة بين فروع نهر السين، وجلسا يحلمان على مقعد من مقاعد ميدان فورستانبورغ تحت أنوار عمود إنارة بأربعة مصابيح.

وذات صباح أيقظها باكراً لكي يأخذها إلى رصيف الورود، في الموعد الذي تضع فيه الشاحنات كنوزاً من باقات الورد العطرة أمام كاتدرائية نوتردام. ثمّ مشيا بضع خطوات ليجدا نفسيهما في سوق الطيور حيث اشترى لها عصفوراً صغيراً في قفص أبيض.

يتسكّعان أحياناً في مقبرة مونمارت الصغيرة عند الغروب، فتتذكّر

سلمى بحنين مقبرة أيوب الزاهية المطلّة على البوسفور، حيث كانت تتنزه وهي طفلة. وحتّى يسلّيها، يأخذها هارفي إلى مقهى «الأرنب الرشيق» حيث يجلسان متزاحمين حول مائدة بين شباب نحيلين ذوي عيون حادّة، يخيّل لسلمى أنّهم موسيقيون أو شعراء، فينصتان إلى أغاني فريدي. وكانت قد تركت اللباس الهندي التقليدي إلى فساتين وتنورات اشترياها معاً، وبذلك لم تعد تثير إليها الأنظار.

وفي يوم من الأيّام، بينما كانا جالسين على مقعد بجانب ضفة السين، حكى لها هارفي عن طفولته في مدينة صغيرة بولاية أوهايو، وعن مطعم السائقين حيث كانت أمّه تشتغل لإعالة الأسرة. أمّا أبوه فكان فنّاناً. كان حين يأتيه الإلهام يلقي على القماشة ومضات من الألوان يقول إنّها ستفجّر العيون والقلوب. وكان يهتف: «هذا هو الشيء الوحيد المهمّ. ينبغي إيقاظ هذه الحيوانات المجترّة، وضربها على وجوهها، وعدم تركها تنام بهدوء!»، وقد كانت لوحاته تثير الكوابيس حقّاً. ولعلّ هذا هو السبب في أنّ لا أحد كان يشتريها.

وقد كان هارفي معجباً أيّما إعجاب بأبيه، وكثيراً ما كان يتعارك مع أولاد يكبرونه سنّاً لأنّهم ينعتون الفنان بأنّه «لا يصلح لشيء». وقد ورث هذا الكبرياء عن أمّه التي كانت ترى أنّه ما من فلاح في المنطقة، بما في ذلك أغنياؤهم، يمكن أن يبلغ كعب زوجها. وكانت تستغرب من إشفاق الناس عليها.

وذات صباح، بعدما ألبسه أبوه لباس المدرسة، لأنّ أمّه كانت تذهب إلى العمل عند الفجر، ضمّه بين ذراعيه. ما زال هارفي يذكر كلّ التفاصيل الدقيقة: السترة الصوفية الخشنة التي خدشت وجنته، ورائحة التربنتين الفائحة منها، والتي اقترنت في ذهنه بالعبقرية. ويسمع صوته الأجش ـ كما لو كان ذلك بالأمس ـ يغمغم: «عدني بأنّك ستكون مصدر فخري».

وخرج أبوه ذات يوم ولم يعد. بحثت عنه الأمّ في كلّ مكان وهي

مقتنعة بأنّ مكروهاً ألمّ به. لكنّها لم تعثر له على أثر. وما زال هارفي إلى اليوم، بعد مضيّ ثلاثين سنة، لا يعرف ما إذا كان أبوه حيّاً أو ميّتاً.

ـ وحتّى أفِيَ بوعدي، رحت أعمل كمجنون. كان عليّ أن أحتلّ المرتبة الأولى في كلّ شيء. كنت مقتنعاً بأنّه سيعود يوما، وسيربت على كتفي مثلما كان يفعل كلّما رضي عنّي.

ـ لمّا كنت أغادر المدرسة، أقصد المكتبة البلديّة وأقضي فيها معظم لياليّ. كنت أختفي خلف رفوف الكتب، وأحبس نفسي هناك. لا يمكن أن تتصوّري النشوة التي كنت أجدها وأنا وحدي في محراب المعرفة ذاك. كنت أقرأ في البداية كلّ ما يسقط بين يدي، لكنّني انجذبت بعد ذلك إلى الكتب الفلسفية والطبّيّة. كان يتهيّأ لي أنّني سأجد فيها تفسيراً للحياة. ورثت عن أبي شغفه بالمعرفة ورفضه الاكتفاء بالمظاهر، هو من كان يتوخّى من لوحاته إثارة العين وأسر الروح.

واستغرق هارفي في أفكاره لحظة، ثمّ أضاف:

ـ بعد أن حصلت على شهادة الدكتوراه في الجراحة ولم يعد، أيقنتُ من أنّه لن يعود أبداً... ومع ذلك... نظّمت قبل سنوات معرضاً للوحاته في نيويورك، فهتف النقاد بأنّ صاحبها عبقري. قالوا إنّها تمثّل «نزوعاً مبكّراً إلى التأثريّة». وبينما مضت أمّي تذرف الدموع، أشعرني هذا التكريم بالسعادة. وقلت في نفسي إن كان ما يزال حيّاً، فهذا سيدفعه بلا شكّ إلى العودة إلينا. لا يفقد المرء الأمل أبداً في لقاء أبيه...

أشاحت سلمى عنه بوجهها لتخفي اضطرابها. وتمثّل لها خيري رؤوف بك في منتهى وسامته، مرتدياً معطفه الطويل الرمادي الفاتح. وجال في خاطرها أنّها لم تغفر له قط تخلّيه عن أفراد أسرته، وأنّها انطوت على حزنها، وأنّ ذلك وجّه حياتها كامرأة بينما شكّل فقدان الأب بالنسبة لهذا الطفل الصغير مصدر قوّة... لماذا؟ أراجع ذلك إلى أنّ الإنسان هو من يختار سعادته أو شقاءه؟... وحاولت عبثاً أن تدفع عنها

هذه الفكرة، وبدا لها أنّ لا شيء يكدّر ما هي فيه من سعادة سوى بعض الحنين. وكادت تلوم هارفي على إسعادها، لأنّ ذلك يكشف لها مقدار ما بدّدت من وقت في حياتها. لكن مهما يكن، فهو أيضاً ضيّع جزءاً من حياته بزواجه من تلك الفتاة، ابنة المدير الكبير، عند تخرّجه طبيباً. وبعد تردّد في اليوم الموالي، قرّرت أن تفاتحه في الأمر.

نظر إليها مندهشاً:

ـ ماذا تريدين أن تعرفي؟ كنّا ما نزال شابّين في مقتبل العمر، وكنّا عاشقين. كان الناس يقولون عن هذا الزواج إنّه فرصة غير متوقّعة بالنسبة إليّ، لكن لسذاجتي لم أفهم ما كانوا يقصدون. ورغم أنّ هذا قد يبدو شيئاً لا يصدّق، فقد كنت من الزهو والثقة بالنفس ـ لا تنسي الطريق الطويل الذي قطعته بمفردي! ـ بحيث لم أنتبه إلى ما كان يراه المجتمع من هوّة سحيقة بيني وبينها. كانت أورسالا جميلة وذكيّة ومتحمّسة، وهذا كان كافياً بالنسبة إليّ لكي أحسبها طيّبة القلب ومثاليّة. لكن للأسف...

ثمّ توقّف فجأة عن الكلام.

ـ لست أدري لماذا أحكي لك كلّ هذا...

ألحّت عليه أن يواصل غير آبهة بفضولها وتطفّلها على حياة الآخرين، وسألت:

ـ سمعت أنّها ضاقت ذرعاً بغيابك المستمر لعلاج الهنود في المكسيك والأمازون، فطلبت الطلاق، لكنّك رفضت تطليقها.

والتمعت عينا هارفي.

ـ قيل كلام كثير... وحتّى لو صحّ، فلماذا كنت سأرفض؟... إنّك تصيبينني بالخيبة يا أميرة، وتزرين بنفسك. أتُراك ترضين لنفسك التعلّق برجل حقير يتشبّث بزوجته من أجل المال؟ ألا تظنين أنّك تستحقين أفضل من هذا؟ أنت تستحقين أحسن من هذا يا معبودتي، وأنت لم تخطئي عندما اخترتني أنا... لأنّني «الأفضل»!

واستعاد بسمته الساخرة، لكنّها كانت واثقة من أنّه يؤمن حقّاً بما قال.

ـ ولكن، ماذا بعد...؟

ـ حسناً، بما أنّك مصرّة كلّ هذا الإصرار، اعلمي بأنّني رفعت قبل عام دعوى للطلاق، رغم اعتراض أورسالا. لم أتابع القضية، ولم أحاول تعجيلها، لأنّني لم أكن أنوي الزواج ثانية... لكن...

ـ لكن ماذا؟

حدّق فيها بفضول:

ـ أتساءل أحياناً عمّا إذا كنت تستطيعين يوماً أن تتخلّي عن لقبك كأميرة وكمهاراني لكي تسمّي ببساطة السيدة هارفي كيرمان...

لم تغب عنه القشعريرة الخفيفة التي حاولت إخفاءها. واتّخذ سحنة ساخرة ممزوجة بشيء من الحزن.

ـ هذا ما كنت أظنّه... ما زلتِ بحاجة إلى أن تكبري.

وعضت سلمى على شفتها. لماذا جفلت هكذا؟ مع أنّها كانت متلهّفة لكي تجيب «نعم»، وتنسى كلّ شيء، وترحل معه. هي تعلم أنّها الفرصة التي كانت تنتظر، وتدرك أنّ هذه هي الحياة، وأنّه محقّ في استهزائه بـ«هذا التاج الذي يطبق على رأسها، ويمنعها من التفكير». لقد حاولت الإفلات منه لأنه يثقل كاهلها منذ ثمانٍ وعشرين سنة، بل منذ أجيال، لكن عبثاً، كما لو أنّه ملتحم بجمجمتها.

وعاودتها صورة أمير وهو يصرخ فيها ذات يوم مُحبَطاً: «فيم سيفيدنا الاستقلال. نحن لا نحتاج فقط إلى طرد الإنجليز، بل إلى نزع هذا الدماغ من رؤوسنا، هذا الدماغ الذي شكّلوه هم لنا، هذا الدماغ الأبيض!»، اليوم فهمت ما كان يقصد بالضبط. هي أيضاً وجدت نفسها أسيرة أفكار لم تعد تؤمن بها، ويتأكّد لها يوماً بعد يوم مع هارفي أنها منعتها من الاستمتاع بالحياة.

وضمّها بين ذراعيه، ومضى يداعب شعرها، ثمّ همس لها كما لو أنّه خمّن ما يجول بذهنها:

ـ نعم يا حبيبتي، الاستمتاع بالحياة، الاستمتاع بها حالاً. كثير من الناس يتنبّهون إلى أنّهم ضيّعوا حياتهم بعد فوات الأوان، وعندئذ يصيبهم اليأس.

يهزّ رأسه ويضيف:

ـ لقد رأيت كثيراً من هؤلاء الأشقياء الذين يرفضون الموت، ويقولون إنّهم لم يعيشوا. أمّا نحن، يا معبودتي، فكلّ الأبواب مشرعة أمامنا! إن رغبت في الحياة.

مضت ثلاثة أسابيع نُقشت في ذاكرة سلمى كلّ لحظة من لحظاتها. لم تتصوّر قطّ أنّ السعادة يمكن أن تكون بهذه القوّة وبهذا الصفاء.

وفي هذا المساء أراد هارفي أن يأخذها إلى مطعم «لافانتين دو مارس». كان اليوم يوم إثنين، والمطعم شبه فارغ. أجلسهما صاحب المحلّ إلى «مائدتهما»، ومدّت له سلمى يدها مصافحة كصديق قديم، ثم التفتت إلى هارفي مبتهجة، وقالت:

ـ ألا ترى أنّ هذا المكان يمثّل فأل خير؟

حرّك رأسه مؤيّداً، وقال:

ـ ينبغي أن تأتي أنت وزينيل إلى هنا من وقت لآخر...

ـ أنا وزينيل؟

ـ بعد أن أرحل...

وارتسمت على وجهه ابتسامة أرادها أن تكون مشجّعة، ثمّ استرسل يقول:

ـ اسمعي يا سلمى، أنا مضطرّ للعودة إلى نيويورك لأسوّي بعض أموري. ثمّ عليّ أن أشرف على بعثة إلى المكسيك... التزمت بها منذ ما يزيد عن ستّة أشهر... لكنّني أعدك بأن أعود في بداية أيلول/ سبتمبر. ستنتظرينني، أليس كذلك؟

شعرت ببرودة تسري في أوصالها... ومع أنّها كانت تعلم أنّه مضطر للرحيل، وأنه إنّما أخّر سفره لأسابيع من أجلها، وتعرف كذلك أنّه يحبّها، لم تستطع أن تداري الفزع الذي انتابها، وقالت بصوت عالٍ أقرب إلى الصراخ:

ـ خذني معك يا هارفي!

تفرّسها وهو مندهش من هذا الخوف الطفولي، وقال:

ـ من المستحيل يا حبيبتي! ثمّ إنّك بحاجة للخلوة لنفسك لكي تفكّري. إنّني أقترح عليك حياة مختلفة تماماً عمّا اعتدت عليه. أنا أعيش حياة رجل متشرّد، وهي حياة ليس من السهل...

ولمّا لزمت الصمت ولم تجب، أضاف:

ـ من حسن حظّنا أنّنا معاً لم ننجب... ومن ثمّة فما نتخذه من قرارات لا تُلزم أحداً سوانا.

وعلا الشحوب وجه سلمى. منذ أن التقيا وهي تهمّ بأن تخبره بحملها، لكنّها لم تفعل. وقد قضّ ذلك مضجعها. قد يكون مختلفاً عن غيره من الرجال، لكن أيقبل بأن تحمل المرأة التي يحبّ في أحشائها طفل رجل آخر؟ استبدّ بها الخوف، ولم تعد تستحمل فكرة فقدانه. ليته يفهم بأنّ هذا الطفل هو طفلها هي، وأنّ لا صلة له تقريباً بأمير...

من المؤكّد أنّ الأمر مختلف بالنسبة لزوجين يجمع بينهما الحبّ بحيث ينمو الصغير تحت نظرات الأب، وحرارة يده التي تداعب البطن، ونبرة صوته، والحبّ الذي يغمر به الأم. وحينئذ يمكن أن نقول إنّه حقاً ثمرة أنتجها هذان المخلوقان. لشدّما تتمنّى سلمى لو كان هذا الطفل من صلب هارفي!...

وراحت تنتحب، فنظر إليها مذهولاً. ما خطر له قطّ أن يبلغ بها التأثر هذا المبلغ لذكر الولد. وسألها بحنان:

ـ أترغبين في الإنجاب يا سلمى؟

رفعت رأسها وحدّقت فيه من خلال دموعها. لا بدّ من أن تطلعه على الأمر الآن، لكنّها لم تجد الشجاعة، فاكتفت بأن همست:

ـ وأنت يا هارفي؟

ـ بالنظر إلى الحياة التي أعيشها، لم يخطر هذا على بالي قطّ... لكنّي حين أفكر في طفل من صلبي وصلبك، أقول في نفسي سيكون ذلك رائعاً!

وتطلّقت أساريره. لكن لماذا عادت سلمى إلى البكاء؟ يلحّ عليها بالسؤال، فتجيب بأنّها تبكي من شدّة التأثّر... قرّرت ألا تخبره حتى لا تفسد أيّامهما الأخيرة. ستكتب إليه لمّا يصل إلى أمريكا. فهي تعرف دائماً كيف تشرح أمورها كتابة على نحو أحسن من الكلام.

٤

عبرت سماء الشانزليزيه المزينة بآلاف الأعلام طائرات حربية محدثة ضجيجاً هائلاً، يتبعها سرب طائرات بريطانية ذات جناح أزرق وآخر أبيض. ثمّ ما لبثت عشرات من طائرات «بريغيت ٦٩٠» و«مارسيل بلوش ١٥١» وطائرات «ليوري أوليفيي ٤٥» أن ملأت السماء. وكان ثمّة جمع محتشد منذ ساعات الصباح الأولى، يحدّق في الأعلى وقد تملّكه الزهو: قيل لهم إنّ فرنسا تملك طائرات حربية، لكنّهم لم يتصوّروا قطّ أنّها تملك سلاحاً جوّياً بهذه القوة الجبّارة.

على المنصّة الشرفيّة جلس الرئيس لوبران محفوفاً بوزرائه في ستراتهم الداكنة، وخلفهم تزاحم زعماء الأهالي الذين يمثّلون المستعمرات والمناطق التي تخضع للحماية الفرنسية، بجلابيبهم الموشّاة بالذهب وقمصانهم الطويلة المخطّطة.

وبدأ استعراض الرابع عشر من يوليو/ تموز من سنة ١٩٣٩، الذي وافق ذكرى مرور مائة وخمسين عاماً على الاستيلاء على الباستيل.

رفع الناس المتزاحمون في الحشد إلى السماء آلاف المناظير. ورغم أن سلمى وصلت متأخّرة، استطاعت بفضل شطارة زينيل أن تستأجر بعشرين فرنكاً صندوق صابون صعدت فوقه. وقفت على رؤوس أصابع رجليها، وأبصرت خوذات فرقة الحرس الجمهوري اللامعة التي كانت تتقدّم الاستعراض، يتبعها ضباط مدرسة سان سير العسكرية بقنازعهم البيضاء الناصعة، وضباط المدارس التطبيقية بقبعاتهم ذات الشرائط الحمراء. ما أجملهم! منذ صغرها وهي تعشق الاستعراضات العسكريّة.

يقشعرّ بدنها لقرع الطبول وإيقاعات الأناشيد الوطنيّة، مهما كان مصدرها، وتترقرق عيناها بالدموع.

وها قد جاء دور الإنجليز: رماة القنابل اليدوية بقبّعات الفرو السوداء الطويلة كأنّهم خرجوا من توّهم من لوحة قديمة، يتقدّمون بخطوات متساوية، بينما يبدو رجال الحرس الاسكتلندي كما لو أنّهم يرقصون على إيقاع مزاميرهم، فيهتف الحشد المتحمّس لهؤلاء الحلفاء الجدد: «تحيا إنجلترا!» ثمّ يلتقطون أنفاسهم عند مشاهدة استعراض المشاة. أمّا جنود البحرية، فاستقبلوهم بالتصفيقات. وحين صادفوهم لاحقاً بعد الاستعراض في الشارع، مضوا يلمسون شرابيبهم تيمّناً بها.

ثمّ لاح أخيراً في أقصى الشارع فرنسيو المناطق النائية: جنود من الهند الصينية ومدغشقر، وقنّاصة جزائريون وسينغاليون... وفي ختام هذا الاستعراض المثير، جاء دور رجال الفيلق الفرنسي بخطواتهم البطيئة، تجلّلهم هيبة من واجهوا الصحراء والموت. وتنظر إليهم سلمى بفضول: فقد سمعت أنّ مارلين ديتريتش جاءت من أمريكا وغنّت في للجنود أغنية «قريباً من شقرائي»، وأنّ قلبها تعلّق بأحدهم.

وبينما كانت العيون ما تزال مسحورة بروعة ما رأت، وصلت فرقة الخيّالة، وتعالى وقع حوافر الخيل، وظهر فرسان يجعلون الخاملين الذين لم يركبوا حماراً في حياتهم ينتصبون واقفين. وظهر خلفهم «الخيّالة الميكانيكيون»، مفخرة الجيش الفرنسي الذي لا يقهر. قطعت الدبابات الشانزيليزيه وكأنّ ما من شيء يستطيع أن يوقفها. وهمس أحدهم وقد ركبه خوف مبهم من هذه الوحوش الفولاذية: «إنّها دبابات خط ماجينو. يوجد منها الآلاف»، بينما جهر رجل محترم بما يفكر فيه الجميع سرّاً: «مع هذه الدبابات ما على البوش[1] إلا أن يراجعوا حساباتهم».

---

(١) كلمة قدحية أطلقها الفرنسيون والبلجيكيون على الجنود الألمان بخاصة والألمان بعامة خلال الحرب العالمية الأولى. (المترجم)

لم ينتظر المتفرّجون نهاية الاستعراض لكي يتخطّوا الحبال التي وضعتها الشرطة. هبّوا ليروا عن كثب هؤلاء الجنود الوسيمين الذين أثلجوا صدورهم. أمّا سلمى التي كانت ما تزال واقفة على صندوق الصابون، فراحت تمعن النظر في منصة الهيئة الديبلوماسية حيث تعرّفت على بعض أصدقائها. آه، ها هو لوكا، كم يبدو سعيداً! لا بدّ أنّه يشعر بالأمان الآن. ولوكا، كما يدعوه أصدقاؤه المقربون، هو جول لوكاشييفيتش، سفير بولندا. كان قد نظّم حفلاً ساهراً في إقامته الفاخرة بـ«ساغان» قبل أيّام، وهو من آخر الحفلات الكبرى لهذا الموسم. وقلّما رقص الناس في حفل بمثل ذلك الحماس. حضرت هذا الحفل أجمل نساء باريس، وانخرطن جميعاً في رقصة «بولونيز» محمومة، يتقدمهنّ سيرج ليفار الذي كان يضبط الإيقاع. ما كان أروعَ بولونيا وسفيرها ذي الجمال السلافي! وما كان أتفه ذلك الألماني البشع ذي الشارب الأسود! وقد استمتعت سلمى كثيراً تلك الليلة، ونظرت بامتعاض إلى رجل مزعج همس للواقف أمامه: «يا له من استهتار! إنّه حفل عميان حقّاً!».

كانت قد مضت ثلاثة أسابيع على رحيل هارفي. وسلمى التي كانت تتوجّس من فترة الفراق هذه، تنبّهت باندهاش إلى أنّها لم تشعر بالحزن. هي مشتاقة إليه طبعاً، وكثيراً ما تفاجئ نفسها تبحث عن طيفه بين الحشد المحيط بها. على أنّ هذا الفراق كان عذباً، لأنه سمح لها بقياس مدى تعلّقها به. ولأوّل مرّة تكتشف أنّ هذا الحبّ لا يخيفها: هي واثقة منه لأنه أعطاها الثقة بنفسها، ومتأكدة من أنّها عثرت أخيراً على مكانها بعد طواف طويل.

وهكذا أصبحت تعيش اللحظة بطمأنينة لم تعهدها. وتعجّبت من أنّها تجمع بين القوّة والبساطة. أقوّتها هي مبعث بساطتها؟ ربّما.

كانت باريس في هذه الأيّام الأولى من الصيف قد اتّخذت أبهى حللها بينما كان أكثر محبّيها إخلاصاً يستعدّون لمغادرتها إلى المنتجعات السياحيّة. كانت كما لو أنّها تجتهد لتحملهم على الندم على فراقها.

وكانت سلمى حاضرة في كلّ الحفلات. لم يلمها أحدٌ على غيابها لشهر كامل، بل لعلّ هذا الغياب زادهم حفاوة في استقبالها.

كان أهمّ ما شهدته باريس في شهر يونيو/ حزيران هذا، الاحتفال بمرور خمسين سنة على تشييد برج إيفل. فعيد ميلاد «السيدة العظيمة» الخمسين يوافق يوم عيد ميلاد دوق وينسدور الخامس والأربعين. وقد شاركت باريس بكاملها في الاحتفال بهذه المصادفة السعيدة في الطابق الأوّل من البرج. وبينما كانت النساء يرقصن رقصة الريل وقد ارتدين ألبسة سنة ١٨٨٩، استنارت السماء بالشهب النارية المنطلقة من قصر شايو.

وفي الخامس والعشرين من نفس الشهر، التقوا من جديد في مضمار «الخيل لانشون» لمتابعة منافسات الجائزة الكبرى. وكان بوسع المرء أن يرى، فضلاً عن القبعات الغريبة المزينة بريش البلشون والنعام، الأمير روني دو بوربون بارم وآغا خان وسلطان المغرب على المنصة الرسمية، يتابعون شاحبين حصاناً يتقدّم السباق يدعى «الفارس» ـ وهو في ملك مارسيل بوساك، يمتطيه المتسابق إليوت ـ فيكسبه في أجواء يطبعها الحماس العارم.

على أن الحدث المدهش في الموسم بلا منازع هو الحفل التنكري الذي نظّمه الكونت إيتيين دو بومان بمناسبة مرور ثلاثة قرون على ميلاد راسين. وقد تنكّر الكونت الذي يجمع بين الخفّة والبدانة، في شخصية لولي، بينما تنكّر صديقه موريس روشيلد في شخصية باجازيت الوسيم بعمامته المنبّتة بالذهب. وتنكّر جان ماري، وهو آخر من اكتشفهم جون كوكطو، وكان يهيم بحبه، فتنكّر في لباس هيبوليت، في حين تنكرت السيدة شياباريللي في شخصية الأمير كانضي، بينما بدت كوكو شانيل لا مبالية. أما ماهارادجا ومهاراني كابورطالا فارتديا ثياباً مخمليّة قرمزيّة اللون، وتنكّرا في شخصيتي دوق اللورين ودوقته. وحضرت الحفل أيضاً كونتيسة سيفيني وآنسات سان سير، وهيئة ديبلوماسية تايلاندية كاملة تتوسّطها الآنسة إيف كوري وأميرة بونياتوفسكا اللتان بدتا بأظافر معقوفة.

وتخفّت سلمى في شخصية بيرينيس المؤثّرة، بثيابها السوداء، وطوّقت رأسها بإكليل، فكانت لافتة للأنظار. ولم تتساءل عن سبب اختيارها لدور هذه الملكة التي هجرها محبوبها إلا بعد مرور فترة طويلة على الحفل.

عدا أنّها في أواسط شهر يوليو/ تموز هذا، وبعد أن خلت باريس من عصافيرها الجميلة التي طارت نحو المنتجعات الشاطئية أو نحو مدن المياه المعدنية، غمرتها بهجة عارمة. شعرت بأنّها حرّة في التصرف في وقتها كما تشاء مثل سائحة حطّت في مدينة لا تعرف فيها أحداً، تستطيع أن تنظّم نهاراتها وفق حاجات اللحظة. وقد دعتها ماري لور إلى مزرعتها في إيدين روك، لكنّها رفضت. فهي ترغب في أن تخلو إلى نفسها، وتبقى وحيدة مع هذا الثقل الغريب والدافئ التي بدأت تشعر به منذ بضعة أسابيع يستقرّ في بطنها. وهي بحاجة إلى أن تلملم نفسها، وتنصت لجسدها. لطالما رفضت إعارة الانتباه للتغيرات التي كانت تطرأ عليها شيئاً فشيئاً في الآونة الأخيرة، باستثناء اضطرارها إلى نقل أزرار تنانيرها حين لاحظت أنّ خصرها بدأ يتّسع. ولم يكن هارفي قد لاحظ شيئاً، إذ اعتقد ببساطة أنّها بدنت، وهو أمر فسّره بالطعام الفرنسي.

هارفي... كانت قد تعهدت بالكتابة إليه لتخبره بـ... لكنّها مشغولة، مشغولة إلى درجة صرفت انتباهها عن وعد هي الآن متردّدة في الوفاء به. أتراه سيتفهّم صمتها؟ كلّما مضى الوقت، ازدادت صعوبة تبرير هذا الصمت. فقد أخطأت حين أحجمت عن إخباره لمّا واتتها الفرصة. فالرجل يكون أكثر مطاوعة للإقناع حين يكون في حضن المرأة التي يحبّ. أما الكلام المخطوط على الورق، فلا تأثير له. أيّ نفوذ لها عليه الآن؟ وأخشى ما تخشاه هو أن يفسّر سكوتها بتردّدها بين حبّه وحبّ أمير، فيجرحه ذلك ويسارع إلى حسم الأمر بنسيانها. وهو أمر ليس عليه بعزيز... كلا، لن تراسله. إن كان يحبّها، فسيتفهّم تصرّفها حين يعود في شهر سبتمبر/ أيلول.

الآن وقد اتّخذت قرارها، تشعر بالهدوء، ولا تجد عنتاً في إسكات الصوت الخافت الذي يهمس لها: «وإذا كان ولداً، فماذا ستقرّرين؟ أيسمح لك الحبّ بأن تحرمي ابنك من حقّه في عرش بادالبور؟».

لا داعي لأن تشغل بالها بهذه الافتراضات. طالما قال لها هارفي: «ينبغي أن تعيشي اللحظة الحاضرة».

مرّت الأسابيع الأولى من شهر آب/أغسطس مثل حلم. كانت باريس خالية تقريباً: فحسب الإحصائيات، استفاد أكثر من مائة وعشرين ألف عامل ومستخدم من الإجازة السنويّة المدفوعة، وراديو سيتي طمأن الناس بأنّ المنجمين تنبّأوا بألا تعرف هذه السنة حرباً.

وضع البوابون كراسيهم عند مداخل العمارات، وراحوا ينظرون بودّ إلى المارّة القلائل الذين يجوبون الشوارع، كما لو أنّ الإعراض عن السفر يوحّد بينهم، ويدخلهم في جماعة الباريسيين الأقحاح. وفي أكشاك الحدائق العمومية تعزف فرق موسيقية مقطوعات لـ«غونو» (Gounod) و«بيزي» (Bizet) من دون أن تقرب مقطوعات الموسيقيين الألمان، بمن فيهم بيتهوفن.

وبإلحاح من زينيل الذي بدأ يساوره القلق من نفاد الموارد ـ إذ إنّ الحوالات المبعوثة من الهند تأخّرت ـ تركت سلمى جناحها في فندق بلازا أثيني، وأخبرت الحارس بأنّها ستترك باريس لفترة من الزمن، وطلبت أن يحتفظوا ببريدها.

ما كان عليهما إلا أن يعبرا نهر السين ليعثرا في شارع راب على فندق مريح رغم طابعه الريفي. وما حمل سلمى على النزول فيه هو قربه من شان دو مارس: ستتنزّه هناك كلّ يوم، وهو ما سيفيد الجنين. لقد صمّمت منذ الآن على أن تتفرّغ للعناية به. فهي تشعر بالذنب من إهماله، بل لعلّها منعت رئتيه الصغيرتين من النمو من كثرة شدّ خصرها. لكن، أتراه يملك رئتين؟ ليست لديها أيّ فكرة عن هيئة هذا الجنين ذي الخمسة أشهر ونصف الشهر الراقد في بطنها.

أما زينيل فكان في غاية الابتهاج: لأوّل مرّة يستفرد بسلمى، ويقضي معها معظم الوقت. لم يكن راضياً تماماً عن مغامراتها مع الأمريكي. كرهه من أوّل نظرة، وإن كان هارفي ظلّ يعامله بلطف رغم جفائه. عدا أن هذا بالتحديد هو ما زاد من سخط الخصي: تلك الألفة التي كان يعامله بها! هؤلاء الأمريكيون تعوزهم اللباقة. كان يقول لسلمى: «هذا الرجل ليس من عالمنا يا أميرة. لم يحسّ بأنه غير مرغوب فيه». ولمّا لاحظ زينيل أنّ العلاقة بدأت تصبح جادّة، هدّد بأن يكاتب الراجا الذي استأمنه على زوجته. وما كاد ينطق بهذا الكلام حتّى رشقته سلمى بنظرة شزراء، ومدّت له ريشة وهي تقول:

ـ خذ، اكتب له وستتحمّل مسؤولية موتي. أنت تعرف أنّ الراجا سيقتلني! وربّما قتلك بعدي لأنّك لم تحسن حراستي!

طأطأ زينيل رأسه. كان واثقاً من أنّه لن يستطيع ردع سلمى، وأنّ الشخص الوحيد الذي كان بإمكانه صرفها عمّا تفعل هي السلطانة. لكنّه على الأقل أراح ضميره بهذه المحاولة. وانقلب غضبه لينصبّ على الراجا بسبب تراخيه. ما كان عليه أن يبعث زوجته إلى باريس وحدها بعدما سجنها سنتين في القصر. وكما لو أنّ سلمى قرأت ما يدور في خلده، أضافت بفتور ومرارة أفزعته:

ـ ليس المهمّ بالنسبة لزوجي العزيز هو وفائي له، بل سمعته. هذا هو ما طالب بحمايته. فواجبك إذن هو أن تساعدني على ألا يصله شيء. كنت أحسبك أشدّ فطنة يا زينيل!

وهزّ رأسه كما لو أنّ كلامها أقنعه. لكنّه هزّه في الواقع ارتياحاً: لم يحتمل أن تخاطبه سلمى بتلك النبرة. كان مستعدّاً لأن يقبل منها كلّ شيء إلا هذه النبرة الفاترة التي تلجأ إليها كلّما عارضها أحد.

ثمّ إنّه لم يكن يلومها على المغامرة الغرامية التي خاضتها: فهي ليست فتاة قاصراً على كلّ حال. وإذا لم تكن تشعر بالسعادة مع الراجا؟... ما كان يقلقه هو أن تعشق، لأنّ طبعها عنيد، وهو يعرف مدى استعدادها للتخلّي عن كلّ شيء.

لكن بعد أن غادر الأمريكي، بدأت الأمور تتحسّن. فزينيل سيستفرد بأميرته الآن، وسيكون بإمكانه أن يدلّلها ويعتني بها... إنّها في حالة تحتاج إلى من يؤنسها ويحبّها، لا سيما أنّها لم تعد تملك أحداً سواه. فهو أبوها وأمّها وأخوها وزوجها. ولربما تمنّى أن تحلّ بها مصيبة ينقذها منها عساها تفهم مقدار حاجتها إليه، ومقدار وفائه لها. هو من رافقها طول حياتها سيظلّ إلى جانبها مهما يقع.

تجلب خادمة الفندق كلّ صباح إلى الغرفة مع الفطور جريدة لوفيغارو. وبينما تتناول سلمى وجبتها، تطّلع على أخبار العالم. لا يدور الحديث منذ بضعة أيّام إلا على البعثة التي أرسلت إلى موسكو. واستناداً إلى مصادر مطلعة، تقول الجريدة إنّ ستالين يحرص حرصاً شديداً على توقيع اتّفاق مع بريطانيا وفرنسا.

وفي يوم الثاني والعشرين من شهر آب/أغسطس سنة ١٩٣٩ عمّت موجة من التفاؤل. فقد أعلن الشاعر والديبلوماسي المرموق بول كلوديل أنّ «مصدر القلق سيزول». ومصدر القلق هذا هو هتلر بطبيعة الحال الذي يتهكّم منه الجميع، بدءاً من الفكاهيين الذين أصابوا حظّاً من النجاح بتقليده، إلى أطفال المدارس. ما أخفّ روح هؤلاء الفرنسيين! فقد بعثت «لجنة ورود ماجينو» قبل أسبوع إلى الرئيس لوبران أولى باقاتها. وقد سألت سلمى عمّن تكون هذه اللجنة، وضحكت كثيراً حين علمت أنّ الآلاف من شجيرات الورد غرست على طول خطّ الدفاع بين المدافع... وأنّهم يأبون أن يتركوها تُسحق!

وتوقّفت طويلاً في الصفحة الاجتماعية عند مقالة مطوّلة تصف الحفل التنكري الذي نظمته «الأسرة البيضاء الصغيرة»، والذي أثار في الليلة السابقة شاطئ مدينة بالم بيتش بمدينة كان. وقد حضرته كلّ الأسماء الشهيرة بـ«الغوتا» ومليارديرات «فوازون»، وتولّى رعايته المارشال بيتان الذي يذكّرها مظهرُه الوقور بحفلات الإحسان.

ما أطيب الأخبار إذن، وما أجمل الشمس! قامت سلمى من الفراش

مبتهجة، وبينما كانت تغتسل، مضت تنصت للمذياع الذي يبثّ الأغنية الشائعة: «كلّ شيء على أحسن ما يرام يا سيدتي المركيزة!»، كلّ شيء على أحسن ما يرام، فهارفي سيصل بعد أيّام. وهي لم تتلقّ منه منذ سفره سوى بطاقتين صغيرتين، لكنّه كان قد أخبرها بأنّه لا يستطيع أن يكاتبها من المكان النائي الذي يقيم فيه بالمكسيك. على كل حالٍ فهو سيصل في بداية سبتمبر/ أيلول، لأنه وعدها بأن يأخذها إلى مدينة «كان» حيث سيقام أوّل مهرجان دولي للسينما سيحضره كبار نجوم هوليوود. وقد أعلن الأمريكان أنّهم حجزوا باخرة كبيرة عابرة للمحيط ليرسلوا فيها «حمولة كاملة».

على أنّ هذه الحمولة الثمينة لن تصل إلا بعد مضيّ ستّ سنوات...

وفعلاً عندما نزلت سلمى من غرفتها في اليوم الموالي، تلقّت خبراً مروعاً سيقلب كلّ شيء رأساً على عقب. ذلك أنّ ستالين وقّع أخيراً الاتفاق، لكن ليس مع فرنسا وإنجلترا، بل مع هتلر! وقد كانت الصدمة رهيبة: هل يمكن تجنّب الحرب بعد هذا؟

وبينما كان إدوارد دلاديي، رئيس المجلس، يعلن على الأثير رغبة فرنسا في حفظ السلام، كانت كلّ جدران باريس مكسوّة بإعلانات تستدعي جنود الاحتياط. وفي أربع وعشرين ساعة، أُقيمت مراكز لتوزيع أقنعة واقية من الغازات الكيماوية: إذ على كلّ قاطني العاصمة أن يحملوا قناعاً واقياً لا يفارقهم. فما زال الناس يذكرون العدد الكبير من الموتى الذي قضوا بهذه الغازات في حرب ١٤ ـ ١٨. وراحت الإذاعات والجرائد تقدّم نصائح لإعداد الأقبية وسدّ الثقوب والمنافذ، وإخفاء المداخل بأغطية مبللة، وهي كلّها احتياطات لا لزوم لها على الأرجح، لأنّ الحكومة ستعرف كيف تفاوض لتجنّب الحرب، لكن هذا لا يمنع من الاستعداد.

كان أسبوعاً غريباً بالنسبة لسلمى. لم تستطع أن تتبيّن ما إذا كان ثمّة خطر محدق فعلاً. ففي كّل مكان من حولها يشيع جوّ تمتزج فيه الإثارة

بالريبة. واصطفّت السيارات في طوابير طويلة عائدة بالمصطافين إلى باريس قبل الأوان، بينما يغادرها آخرون. وشرع العمال في تلفيف روائع متحف اللوفر، وفي إيداع زجاجيات كاتدرائية سانت شابيل في خزائن بنك فرنسا الحديدية. كما أفرغوا حديقة حيوان فانسين من نزلائها، ثمّ رحّلوا بعد أيام ثلاثين ألف طفل. وغصّت محطّات القطارات بالمسافرين، إذ يلتقي فيها التلاميذ الذين يُنقلون إلى الأرياف بجماعات من اللاجئين اليهود المرعوبين القادمين من بولندا وألمانيا.

وفي يوم الثاني من سبتمبر/ أيلول نزل كالصاعقة خبرٌ لم يكن في الحسبان: هتلر يجتاح بولندا! فهل ستدخل فرنسا في الحرب؟ كثيرون هم من كانوا يرون أنّ من واجبها أن تفعل. وقد كتب فلاديمير دورميسون في جريدة لوفيغارو: «ضميرنا مرتاح لأنّنا لم نقم بشيء نلام عليه، كما أنّ واجبنا واضح: الانتصار.»

وعلى غرار ملايين الفرنسيين، لم تنم سلمى تلك الليلة. باتت تتقلّب في فراشها وهي تتساءل عمّا إذا كان عليها أن ترحل. مرّ أسبوع وزينيل يلحّ عليها بأن يرحلا إلى لوزان في أقرب وقت. إن كانت لا تبالي بسلامتها، فلتفكّر على الأقل في سلامة الجنين! لكنّ سلمى لم تستطع حسم قرارها. فهارفي يمكن أن يعود بين يوم وآخر، وهي تريد أن تنتظره. فإن ساءت الأمور، رحلوا جميعاً.

وما إن حلّ فجر اليوم الموالي حتّى تخاطف الفرنسيون الجرائد: إنجلترا توجّه إنذاراً أخيراً لألمانيا! فماذا ستفعل فرنسا؟ وعند الزوال علم الناس، بنوع من الارتياح تقريباً، أنّ فرنسا باصطفافها إلى جانب إنجلترا قد دخلت الحرب. فبعد هذه الأيّام الطويلة المأهولة بالهواجس والشكوك، ها هو الوضع يتّضح أخيراً.

وما كادت الشمس تُبدّد غيوم الصباح حتّى خرج الفرنسيون إلى الشوارع وقد تأبّطوا أقنعتهم الواقية. أمّا سلمى فمشت برفقة زينيل المشدوه على الأقدام حتّى الشانزليزيه: هي بحاجة إلى أن تتحسّس الجوّ السائد، وتنصت

لما يتداوله الناس عساها تفهم ما يجري. كانت مصاطب المقاهي غاصّة بالرواد، والناس يتناقشون بشغف. كلّ واحد يعرض وجهة نظره ويعبّر عن تنبّؤاته. ومن بين المواضيع التي استأثرت بالنقاش موقف الولايات المتّحدة: أتراها ستلزم الحياد أم تصطفّ إلى جانبنا؟ ولمّا رأت طابور الانتظار الطويل أمام مركز التطوّع الخاص بالأجانب، تذكّرت هارفي. كان من المفروض أن يكون إلى جانبها في هذه الظهيرة المشمسة. فهل سيصل قريباً يا ترى؟ كجندي؟ وسرت القشعريرة في أوصالها: «مستحيل! ليذهب الآخرون للاقتتال، أمّا هارفي فلا!»، ومضت تتمنّى بكلّ ما أوتيت من قوّة ألا تدخل الولايات المتّحدة في الحرب.

وفي غضون أيّام، تغيّر وجه باريس تماماً. أحيطت المآثر التاريخية بأكياس الرمل لحمايتها، وطُلي زجاج النوافذ بالأزرق. وفي كلّ مكان عوّضت نساء يضعن على رؤوسهنّ قبعات مزيّنة بشرائط، ويحملن جراباً، الرجال الذين نُقلوا إلى الجبهة: فقد جرى تشغيلهنّ بالآلاف لكي يتقلّدن وظائف شرطيات المرور وساعيات البريد وجابيات الباصات ورئيسات محطات القطار وسائقات الشاحنات.

لكنّ التغيرات التي طرأت على مدينة الأنوار تظهر أجلى في الليل، إذ يعمّ الظلام الدامس ابتداء من التاسعة ليلاً، وذلك خشية القصف. وحتى السيارات تُمنع من إشعال الأضواء، ويتحتّم عليها السير في ضوء فوانيسها الخافت. وسلمى التي كانت تخرج أحياناً للعشاء صحبة زينيل، لم تعد تغادر الفندق قطّ. كما أنّ المطاعم صارت تغلق أبوابها في الحادية عشرة ليلاً بينما أوصدت المسارح وقاعات الاستعراضات تماماً. وفي كلّ حي ظهر رجال يضعون على أذرعهم شرائط صفراء. فبحكم أنّهم أكبر سنّاً من أن يذهبوا إلى الجبهة، كُلّفوا بحماية المدنيّين. يقضون الليل كلّه يجوبون الشوارع، ويصفّرون على المتهوّرين ليطفئوا الأنوار. أمّا نهاراً، فيسهرون على حفظ النظام، ويحرصون على الخصوص على أن يدخل الناس إلى بيوتهم كلما دوّت صفّارات الإنذار.

سيظلّ أوّل إنذار راسخاً طويلاً في ذهن سلمى. كانت الساعة تشير إلى الواحدة صباحاً لمّا استيقظ زبائن الفندق وخرجوا من غرفهم مرعوبين يتصايحون ويتدافعون في السلم الضيق المفضي إلى القبو. وحين وصلوا وهم في ملابس النوم، تجمّعوا في هذا الملجأ المرتجل الذي جُهّز على عجل بكراسي قديمة. كان الأطفال ينتحبون، وطلبت منهم امرأة مقدامة أن يصلّوا. وبينما كانوا يُصيخون السمع بقلق لهدير الطائرات المقنبلة، راحوا يردّدون بعض الابتهالات بحماسة نسيها معظمهم منذ زمن بعيد. وحين تعالى صوت الصفّارة معلناً نهاية الإنذار، صعد كلّ منهم إلى غرفته يملؤه شعور بأنّه أفلت من الموت.

قضت سلمى بقيّة الليل تلعب الورق مع زينيل كدأبها في الأيّام الأخيرة لمّا يجفوها النوم. ورغم أنّها كانت توقظه، يشعره دائماً في هذه اللحظات التي يقضيها معها بسعادة غامرة، كما لو كانت هدايا تتكرّم عليه بها. وفي هذه الليلة تحدّثا طويلاً، واقتنعت بأنّ الأحرى بهما أن يسافرا إلى سويسرا، وطلبت منه أن يتدبّر أوراق السفر.

على أنّ الجرائد أعلنت في صباح اليوم الموالي بأنّ الإنذار لم يكن غير إنذار اختباري، استجاب له السكان على نحو مُرضٍ، وأنّه ـ والحمد لله ـ ما من طائرة حلّقت في سماء فرنسا. وهو ما حمل سلمى على تغيير رأيها، وإلغاء السفر رغم توسل الخصي وعتابه. لم يعد يفهم شيئاً من عنادها: فهي لا تلتقي أحداً من أصدقائها الباريسيين بدعوى أنّهم يضجرونها، بل لم تبعث بأيّ إشارة إلى ماري لور التي قد تكون عادت إلى باريس منذ أسبوعين على الأقلّ. فلماذا ترفض مغادرة المدينة إذن؟ اعتقد لفترة أنّها تنتظر أحداً... لعلّه ذلك الأمريكي! لكن سرعان ما تخلّى عن هذه الفرضية السخيفة: قصتهما انتهت منذ فترة طويلة. فهي لم تصلها منه رسالة منذ شهرين تقريباً. وهو يعرف سلمى بالقدر الكافي ليستخلص بأنّها من المستحيل أن تكون هائمة في حبّ رجل تركها، وتوقّف عن مراسلتها.

في الأيّام الموالية، بدأت صفارات الإنذار تدوّي في أيّ وقت من النهار والليل. وبينما كانت الشوارع في البداية تخلو، ويعود كلّ واحد إلى بيته على عجل، انتهى الأمر بالناس إلى أن اعتادوا على هذا الوضع، ممّا كان يرهق رؤساء المناطق. ويعقّد عليهم مهمّة الحفاظ على النظام. فبما أنّ الجرائد والإذاعات تؤكّد أنّ كلّ شيء على ما يرام، لا يقبل الناس بأن تُنغَّص عليهم حياتهم!

كان القتال جارياً في الجبهة الشرقيّة. فقد انطلقت معركة فارسوفيا منذ التاسع من سبتمبر/ أيلول. بعد صمود المدينة لثمانية عشر يوماً من القصف والحصار، استسلمت أخيراً. وهكذا ستقسّم بولندا للمرّة الخامسة، وهذه المرّة بين ألمانيا والاتّحاد السوفياتي.

ذُرفت الدموع على هذا البلد التعيس الذي خنقته «ضمّة ابن آوى والخنزير»، على حدّ تعبير أحد عناوين جريدة الصباح، وهنّأت فرنسا نفسها على أنّ ليس لها ما تخشاه رغم أنها تحاذي خطّ ماجينو على طول مائة وخمسين كيلومتراً. أليس جيش الرايخ الثالث أقلّ عدداً وعتاداً من الجيش الألماني سنة ١٩١٤؟ كما أنّه لم يكن يخفى على أحد أنّ ما يتلقاه الجنود الألمان من طعام وتجهيزات أدنى من المطلوب بكثير.

وعادت الحياة في هذه الفترة المشمسة من شهر سبتمبر/ أيلول إلى سابق عهدها. رجع الباريسيون الذين أخلوا المدينة عند إعلان الحرب، وافتتحت معظم قاعات المسرح أبوابها، كما أعلنت دور الموضة عن مجموعتها الشتوية. ولكي تروق هذه الملابس النسوية للجنود العائدين في إجازات، استُغني عن كلّ الزخارف الزائدة والتعقيدات، وبُنِيت الأناقة على البساطة. إنّها «موضة الحرب»، تقوم على الاحتفاء بملابس زرقاء شبيهة في تصميمها بلباس سلاح الجو البريطاني، ومعاطف «تمويه» طُبعت عليها بقع النمور الإفريقية، وأقمصة كتبت عليها كلمات وعبارات من قبيل: «دبّابة» و«إنذار خاطئ» و«هجوم» إضافة إلى بعض التوشيات والتطريزات هنا وهناك... وكما كتبت مجلّة «حديقة الموضات»

مخاطبة النساء: «عليكنّ أن تكنّ جميلات مثلما يرغب أن يراكنّ من هم في الجبهة. ثمّ إنّ الإنفاق واجب وطني. وعليكنّ النهوض بهذه المهمّة الأساسية التي لا يمكن أن يقوم بها سواكنّ: أن تساعدن صناعة الكماليات على الاستمرار حيّة!».

أمّا سلمى، فلن تساند هذا المجهود الحربي المحمود، لأنّها ببساطة لم تعد تملك مالاً تقريباً. رغم البرقيات التي بعثت إلى أمير، لم يصلها شيء منذ شهر. وكانت تقول لزينيل الذي تلّمكه القلق إنّ الأمر طبيعي بسبب اضطراب البريد، لكن الأمور ستعود إلى نصابها قريباً. وقد كانت تتساءل في الواقع عمّا إذا كان زوجها علم بمغامراتها مع الأمريكي.

ومهما يكن، فهي لا تريد أن تطلب منه مالاً. لا تسمح لنفسها بأن تفعل ذلك مع رجل تخدعه، وقرّرت فراقه. فقد كان أمير دائماً صادقاً معها، وهي مدينة له بهذا الاحترام على الأقلّ.

عليها أن تتدبّر أمرها بنفسها، ستبيع مجوهراتها مثلما فعلت أمّها من قبل.

وتعود بها الذاكرة إلى بيروت لترى نفسها في الصالون الأصفر مع السلطانة وسورين آغا، وتتخيّل قطع الحلي الفاخرة التي كانت تختفي الواحدة بعد الأخرى في حقيبة ذلك الرجل الأرميني الضئيل. وأقسمت حينها بألا يقع لها مثل هذا أبداً، وأنّ المال لن يعوزها ما حييت!

وها هو التاريخ يعيد نفسه...

وفي اليوم الموالي، قصدت شارع كادي برفقة زينيل حيث يوجد سوق المجوهرات المستعملة. دخلا إلى تلك المتاجر المعتّمة حيث يفحص رجال يظهرون في ملابس برّاقة، بارتياب، الحليّ بواسطة مكبرات على أعينهم. آه ما كان ألطف سورين آغا! فهؤلاء التجار المتجهّمين يتعاملون مع الشابّة كما لو أنّها لصّة جاءت لتبيع ما حصّلته من سرقاتها. بل إنّ ثلاثة أو أربعة منهم ادّعوا أنّ بعض الأحجار مزيّفة أو

من النوع الرديء. ومن حسن حظّها أنّ زينيل يرافقها! استشاط غضباً، وضرب على الطاولة وهدّد باستدعاء الشرطة. فاستحال الرجال الجفاة إلى ودودين، وعرض أحدهم، «لكي يساعد السيّدة»، أن يشتري كلّ ما أتت به بخمسين ألف فرنك. وقد ظنّته سلمى في البداية يمزح:

ـ هذا لا يمثل حتّى نصف عُشر قيمتها!

فردّ بفظاظة قبل أن ينسحب إلى أقصى متجره:

ـ هذا هو عرضي، من حقّك أن تقبليه أو ترفضيه!

همّت بالانصراف، لكنّها تنبّهت إلى أنّها لا تملك خياراً آخر: فهي ستلد في غضون بضعة أسابيع، ومن ثمّة ستحتاج إلى المال. قامت بحساب سريع: هذا المبلغ الذي اقترحه عليها هذا اللص يمكن أن يكفيهما لثمانية أشهر، أو ربّما عشرة مع شيء من الحرص. وإلى أن يصل ذلك الحين، سيكون هارفي قد عاد. وأومأت إلى التاجر بأنها قبلت العرض، ولم تحتفظ من مجوهراتها إلا بعقد لؤلؤ تلقّته من السلطانة وخاتم زمرّد أعجب هارفي، لأنه في لون عينيها.

هارفي... لم ينقطع أملها في عودته. كتبت له رسائل عديدة من دون أن تتلقّى عنها جواباً، لكنّها لم تقلق. فهي إنّما كانت تكتب لتمضي معه لحظة. فهي واثقة من أنّ التواصل بين باريس وقرى الهنود الحمر في المكسيك يعدّ من باب المعجزات. وفي انتظار عودته، كانت تتحدّث إلى العصفور الذي وضعته قرب نافذة غرفتها، وفي كلّ ليلة كانت تنام وهي تشدّ قبضتها على ولاعة الصدف التي تركها لها. هي متأكّدة من أنّه سيعود قريباً، لا سيما أنّ الولايات المتّحدة أعلنت حيادها. كلّ ما يلزمه هو الوقت للعثور على سفينة، وهي مهمّة ليست باليسيرة: فقليل من السفن أصبحت تجازف بعبور المحيط منذ أن أغرقت غواصة حربيّة ألمانية السفينة الإنجليزية أثينيا وعلى متنها ركّاب مدنيون. قضت سلمى طول حياتها وهي تشكّ في كلّ شيء، لكنّها هذه المرّة استبعدت هذا

الشكّ. ألم يطلب منها هارفي أن تكون واثقة؟ مجرّد وضع حبّه موضع تساؤل يعدّ خيانة له.

كانت قد دأبت على إرسال زينيل إلى بلازا أثيني لجلب بريدها. لكنّها بدأت ترتاب في أنّه قادر على إخفاء الرسائل التي قد تصلها من أمريكا. هكذا قرّرت أن تذهب بنفسها مستحملة بشجاعة بسمة البواب التي بدت لها تخفي، خلف مظهرها المهذّب، سخرية متزايدة، لا سيما منذ أن اقترح عليها ألا تزعج نفسها، وتترك له عنوانها، فيبعث لها بما قد يصل من بريد. فاجأتها هذه الملاحظة، فتورّدت وغمغمت بأنّها تسافر كثيراً. عضّ على شفتيه، فأدركت أنّه فهم كلّ شيء، وأنّ الجواهر والفرو اللذين كانت تكلّف نفسها ارتداءهما كلّما جاءت إلى الفندق لم تعد لهما قيمة لديه.

ما من أحد أكثر تكبّراص من أولئك الذين يخدمون الأغنياء. غير أنّ سلمى مستعدّة من أجل هارفي لأن تتحمل حتّى إهانات الخدم. ومع ذلك، فلكي تنتقم منه، مدّت له بقشيشاً كانت تعلم أنّه لا يملك الشجاعة ليرفضه: كل المبلغ الذي منحها إياه زينيل لتشتري لوازم المولود المنتظر.

لم يفضل لها ملّيم واحد، فاضطرت إلى العودة إلى الفندق راجلة. عبرت جسر ألما وهي تمشي بحذر حتّى لا تهزّ الجنين الذي شعرت به يتحرّك في بطنها. فركلته الأولى كانت في اليوم الموالي لاستعراض الرابع عشر من يونيو/ حزيران، ما أصابها برعب شديد، فهبّت جارية إلى الطبيب الذي طمأنها ضاحكاً، وشرح لها بأنّ هذا الأمر تشعر به كلّ الحوامل. شكرته، لكنّها لم تصدق شيئاً ممّا قال: هذا الجنين أشدّ اضطراباً. كلّما خلدت إلى الراحة رفسها بركلة قوية، كما لو أنّه ضاق ذرعاً بدعة هذا البطن الذي يحمله، وأنّه إن كان لا يرى، فهو يريد على الأقل أن يحسّ بالعالم يختلج من حوله. هكذا دأبت على التنزّه طويلاً في الحدائق والمتاحف، مقتنعة بأنّ المشاعر التي تنتابها أمام هذا الجمال شيءٌ ضروريٌّ للطفل، لا فرق بينه وبين الهواء والطعام الذي تنقله له عبر عمليّة لا تساورها أدنى رغبة في فهمها.

وبينما عادت ذلك اليوم من فندق بلازا، حدّثت نفسها بأنّها إنّما تكرّمت بذلك المبلغ الضخم على البواب انتقاماً لكبريائها. وإذا كان زينيل يعدّه عملاً مجنوناً، فهو بالنسبة للطفل أهمّ من كلّ لوازم الرضّع في العالم بأسره. فبما أنّه في أحشائها، يعتمد في حياته عليها، لا يمكن إلا أن يتشبع بكبريائها وزهوها.

بينما كان زينيل واقفاً أمام غرفة التوليد يذرع الممرّ جيئة وذهاباً، وهو يردّد أسماء الله الحسنى، خرجت القابلة وبادرته بِوَجه مُشرق:

ـ لقد صرت أباً لصبية رائعة يا سيدي!

كانت الشمس قد غربت منذ فترة طويلة. مسحت القابلة على جبينها، وتنفّست الصعداء. لم تكن تقلّ عن الأم إرهاقاً، لا سيما أنّه هُيّئ لها مراراً أنّ قلب الوالدة سيتوقف. كانت الولادة عسيرة على نحو خاص: الأمّ نحيلة والطفلة بدينة. «تزن ثلاثة كيلوغرامات ونصف الكيلو يا سيدي. يمكنك أن تفخر بهذا!».

دخل زينيل إلى الغرفة على أطراف أصابع قدميه فوجد سلمى مستلقية وهي شاحبة كالميّتة. وخال نفسه من خلال الدموع المترقرقة في عينيه أنّه في الأستانة من جديد، وأنّ هذه الهيئة الساكنة على السرير هي السلطانة، وهذه الرزمة الحمراء التي تصرخ هي طفلتها الصغيرة، سلمى...

ـ ما خطبك يا زينيل، أراك لا تهنئني؟

أخرجه هذا الصوت المرهق، وهذه النبرة الهازئة، من شروده.

سلمى! يا له من عجوز أحمق! مضى يسترجع الماضي بينما ابنته الصغيرة التي طالما تعذّبت موجودة بجانبه. اندفع نحو السرير وقد تملّكه الندم، وتناول يديها وراح يقبلهما طويلاً وهو يغمغم بعبارات شكر لم تتبيّن منها شيئاً.

أما القابلة، فانسحبت بلا ضجّة واعدة بأن ترجع صباح الغد.

ـ إلى ذلك الحين، فكّرا في اسم للرضيعة، إذ يلزم أن أذهب إلى البلدية لأعلِم بميلادها.

فردّت سلمى وقد ارتسمت على وجهها ابتسامة عريضة:

ـ لا داعي لأن تزعجي نفسك. هذا أمر سيتكلّف به زينيل.

كان مصباح السرير ينشر في الغرفة ضوءاً أحمر خافتاً بينما ذهب زينيل منذ فترة طويلة إلى غرفته لينام بعد أن أرهقته هواجس ذلك اليوم. وبقيت سلمى وحيدة مع الرضيعة النائمة بجوارها. إنّها طفلة صغيرة، والقدر هو الذي قرّر هذا، كما لو أنّ الله أراد أن يرسم لها الطريق. كلّ شيء بسيط وواضح الآن: ستعيش ابنتها حرّة! لن تعود إلى الهند حتّى لو اضطرت إلى العيش متخفيّة. هذا ما أقسمت عليه وهي تنظر إلى ابنتها.

٥

«الأول من ديسمبر/ كانون الأول ١٩٣٩

صاحب السمو

«لقد خرجنا من كابوس طويل، وهذا هو سبب انقطاع أخبارنا عنكم منذ مدّة. كانت الراني مريضة جدّاً حتّى أننا خفنا على حياتها، لكنّها الآن بخير والحمد لله، وإن كانت ما تزال واهنة. ومن الأسف أنّ أمراً خطيراً وقع، ولا شكّ أنّكم خمّنتموه: ولدت الأميرة يوم الرابع عشر من نوفمبر/ تشرين الثاني...».

توقّف زينيل عن الكتابة، ومضت الريشة ترتعد بين أصابعه: مستحيل، لا يمكن أن يكتب هذه الكلمات الرهيبة، لأنّ ذلك سيكون فأل نحس على الطفلة. سيغضب الله عليهم! سرت في سائر جسده قشعريرة، وتملّكه خوف من هذه الجريمة التي يوشك على ارتكابها. لكن، ماذا لو تراجع؟ هو يعرف أن سلمى لن تغفر له أبداً. ستعتبره خانها، وبذلك عوض أن تبوح له بمكنون نفسها كما دأبت منذ أن صارا لوحدهما في باريس، ستحترس منه وتعامله كما لو أنّه شخص غريب، وهو ما لا يطيقه. مهما يكن، فلربّما كانت محقّة في سعيها إلى الانفصال عن الراجا، لا سيما إذا كان لا يسعدها. ألم يسجنها لمدّة أسبوعين لا لشيء إلا لأنّها استجابت لدعوة رقص؟ ألم توشك على الموت بسبب ذلك؟ وواجب زينيل يحتّم عليه أن يحميها وفاء للوعد الذي قطعه على نفسه أمام السلطانة وهي على فراش الموت.

يشدّ على أسنانه، ويعود لخطّ هذه الكلمات بيد أكثر تصميما: «في يوم الرابع عشر من نوفمبر/ تشرين الثاني من سنة ١٩٣٩ وضعت الأميرة مولوداً ميّتاً».

ها قد كتبها! ومضى الخصي يتأمّل بنوع من الذهول هذه العلامات السوداء التي ستغيّر مصير كائن إنساني دفعة واحدة. لم يعد للطفلة، بالنسبة للراجا، وجود: لقد محاها من الوجود بكلمة واحدة.

لمّا حدّثته سلمى قبل ذلك بأيّام عمّا عزمت عليه، اعتقد في البداية أنّ ألم المخاض شوّش عقلها، لكنّه سرعان ما اضطرّ إلى التسليم بالأمر الواقع: لم تكن تلك نزوة عابرة، شبيهة بالنزوات التي تنتابها أحياناً، بل قرار اتّخذته بعد تفكير مليّ: كانت خائفة من أن تُساوَم على الطفلة، وتُكره على العودة إلى الهند.

تمسّك بالرفض وقد هالته هذه الفكرة التي بدت له عملاً إجرامياً. كيف لأمّ أن تعلن أنّ طفلتها ولدت ميّتة؟ وجد هذا عملاً لا يقلّ خسّة عن الإقدام على قتلها فعلاً. ولمّا لاحظ تشبّثها برأيها، حاول إقناعها محتجّاً بأنّها لا تملك مالاً، فكيف لهم أن يعيشوا ثلاثتهم؟ فردّت سلمى بأنّ ما بقي لهم من ثمن الحليّ يكفيهم لستّة أشهر على الأقل. إثر ذلك ستصلها أموال البترول.

ـ البترول؟

ـ هل نسيت؟ ألا تعرف أنّ حقول النفط بالموصل في بلاد العراق التي اشتراها السلطان عبد الحميد هي ملك خاصّ للأسرة! وقد وصلت رسالة من عمّي سليم قبل مغادرة الهند أخبرني فيها بأنّ الحكومة العراقية قبلت تعويضنا. على أنّ هذه الحرب المشؤومة أخّرت كلّ شيء. لكن ذلك لن يطول إلى الأبد. سنصبح أغنياء يا زينيل!

تناولت يديه ضاحكة، لكنّه لم يجرؤ على البوح لها بشكوكه: بإمكان الحكومة العراقية أن تستولي على الحقول البترولية من دون أن تدفع

مليماً واحداً. من ذا الذي سيقبل الدفاع عن حقوق أسرة منفيّة لم تعد تمثل شيئاً على المستوى السياسي؟

فردّ بنبرة متذمّرة:

ـ حسناً، ربّما أنك سترثين، لكن هذا لن يحملني على تغيير رأيي: لن أشارك أبداً في عمل شنيع كهذا!

صرخت به وقد ترقرق الدمع في عينيها:

ـ أنت لا تفهم شيئاً! أنا من كنت أحسبك تحبّني! أتريدني أن أسجن من جديد؟ أيروقك ألا تعرف ابنتي من الحياة غير الحجاب والأسوار المغلقة، وتُزوّج لراجا عجوز وهي ما تزال في الثانية عشرة من عمرها، لا لشيء إلا لأنه ثري؟ لن أقبل بهذا أبداً! إن تخلّيت عنّي، فلا بأس. سأمكث هنا وحيدة مع ابنتي...

ثمّ أضافت:

ـ لكن ما يحزّ في نفسي هو أن ألاحظ وفاءك للراجا الذي لا تربطك به علاقة، وتنكّرك لأسرتنا...

ثمّ أشاحت عنه، وقاطعته لأيّام ولم تعد توجّه له الكلام. كانت تبكي وترفض تناول الطعام. وهو إذ يعلم بأنّها إنّما تفعل ذلك لإجباره على التنازل، يعلم أيضاً أنّها قادرة على إيذاء نفسها! وحينئذ ماذا سيفعل بالطفلة؟ وحين لاحظت تردّده، غيّرت أسلوب المناورة. مضت تصف له الحياة الرائعة التي سيعيشونها ثلاثتهم في هذا البلد الذي لا توجد فيه أفكار مسبقة بالية تنغّص عليهم حياتهم. وسيشكّلون معاً ما يشبه الأسرة.

لم توضّح كلامها، لكن كان من السهل فهم ما قصدها: كانت تلوّح له بهروب طالما حلم به، لكنّه كان واثقاً من أنّه يستحيل أن يتحقّق. فسجنه محفور داخل جسده. على الأقل هذا ما اعتقد إلى حدود مجيئه إلى أوروبا. لكنّه لمّا لاحظ الناس هناك يعتبرونه أب سلمى بل زوجها أحياناً، تغيّر لون العالم في عينيه. وفجأة لم يعد خصيّاً، بل رجلاً وسيماً، يعامله الناس باحترام. أمّا في الهند، حيث يعرف الناس حقيقته،

فكان يستشعر ضحكات النساء والشباب من وراء ظهره. اختفت هناك، كما في كلّ مكان، تقاليد الخصيان، ولم يبق منهم إلا قلّة من السود، لا حظّ لهم من التهذيب والتربية. كلّ ما يتقنونه هو حراسة أبواب الحريم. وقد كان زينيل يحمل لهم كثيراً من الازدراء.

أمّا في تركيا، فكان الأمر مختلفاً! كانت النساء تهَبْن الخصيان لأنّ كلمتهم مسموعة لدى السيد الذي كانوا في الغالب حفظة أسراره أو مستشاريه. فقد كان كيزلار آغا، كبير الخصيان السود، من الشخصيات المرموقة في الإمبراطورية، أقوى أحياناً من الوزراء أنفسهم... على أنّ هذا العهد ولّى للأسف! ولم يبق شيء من المجد والقوة، لا شيء غير البتر الذي يجعل من الخصي موضوعاً للاستهزاء.

بعد تفكير دام أيّاماً، ذهب ليقول لسلمى إنّه لا يطيق رؤيتها تعيسة وإنّه مستعدّ للتصرف وفق إرادتها. لم يكن يعلم أنّها كتبت لهارفي، وأنّ الأسرة الموعودة لن تتألّف من ثلاثة أفراد بل من أربعة. وحرصت على ألا تخبره بذلك: لو فعلت، لظلّ الخصي ثابتاً على رفضه.

خطرت لها فكرة مجنونة، صدّتها في بادئ الأمر، لكنّها فرضت نفسها عليها، وانتهت بأن استحوذت على فكرها تماماً. حدث ذلك بينما كانت تهدهد طفلتها وهي تتأمّل عينيها البنّيتين اللتين بدأ يخالطهما لون الذهب. فاجأت نفسها وهي تفكر في أنّهما تشبهان على نحو غريب عيني هارفي، كما لو أنّ رغبتها في أن تكون من صلبه انطبعت في ملامح المولودة.

ماذا لو أخبرته... بأنّها طفلته؟ فهذه الطفلة بحاجة إلى أب، وأيّ أب يمكن أن يكون لها أفضل من هارفي؟ وهو، من أين له أن يعرف الحقيقة؟ فمع تقلّب الأحوال ـ إذ اعتقد الناس مع بداية نوفمبر/ تشرين الثاني أنّ الألمان مقبلون[1] على غزو فرنسا ـ لن يتمكّن هارفي من

---

(١) كان التواصل بين فرنسا والولايات المتحدة غير منتظم، إذ كانت شركات الملاحة تخشى المجازفة بسفنها في المحيط الأطلسي.

المجيء إلا بعد أشهر على الأرجح. وعند وصوله، سيجد طفلة صغيرة جميلة كما لم يحلم بها. كلّ ما في الأمر هو أنّها ستبدو أكبر من سنّها!

وشعرت سلمى بقشعريرة تسري في جسمها. من المستحيل أن تكذب على الرجل الذي تحبّه... لكن، هل هذه كذبة؟... أليست الطفلة أقرب إلى هارفي منه إلى أمير؟... أمير الذي بعُد الأمد بينها وبينه حتّى إنّها كادت تنساه... فهذه الطفلة نمت في بطنها تحت مداعبات هارفي، والحرارة التي كانت تشعر بها وتنقلها إليها كانت تستمدّها من حنانه مثلما تستمد بقلة الدفء من الشمس لكي تصير شجيرة مستوية. هي واثقة من أنّها لو بقيت في الهند مهمومة يائسة من هذا الحمل الذي يشدّها إلى زوج لا يعرف كيف يحبّها، لكانت الطفلة ولدت هزيلة، متأثّرة بتعاسة أمّها، هذا إذا لم تجهض قبل الأوان.

أما الآن، فهذه الطفلة تجسيد للسعادة التي منحها إيّاها هارفي. ألا يكون الادّعاء بأنّها من صلبه إثبات لحقيقة أعمق من تلك الناتجة عن مصادفات خالصة، وعن وقائع سيقت إليها من دون أن تشارك فيها حقيقة؟ وهي لا تعرف كيف تفسّر ذلك، كلّ ما تعرفه هو أنّ التتابع الزمني للأحداث والمنطق معياران عاجزان عن تبرير الحقيقة التي تشعر بها في قرارة نفسها. حقيقة تحرّرت من ماضٍ عبرته وهي غريبة عنه، ومترسّخة في هذا الحاضر الذي تعيشه بكلّ كيانها.

وهكذا كتبت ببال مرتاح إلى هارفي تخبره بأنّها حبلى منه.

ـ أما زال البريد لم يصل؟

ـ كلا يا سيّدتي. لم يصل شيء.

كان شهر يناير/ كانون الثاني على وشك النهاية وسلمى لم يصلها أيّ جواب من هارفي مع أنّها بعثت له منذ ميلاد الطفلة بأربع رسائل على عنوانه في نيويورك، وحرصت على أن تغيّر الخط الذي تكتب به حتّى لا تثير شكوك زوجته. وهي لا تعرف شيئاً عن وضعه الحالي: هل فصلت

المحكمة في دعوى الطلاق؟ أما زال يسكن مع أورسالا؟ وإذا كانت بعض الرسائل ضاعت بسبب اضطراب البريد، فلا يعقل أن تضيع جميعاً!

بدأ القلق يساورها. فقد انقطعت عنها أخباره منذ خمسة أشهر. أيكون مريضاً بحيث لا يستطيع الكتابة؟ أأصابه مكروه؟

من حسن حظّ سلمى أنّ الطفلة كانت تشغل كلّ وقتها، وتدفع عنها الضجر. يا لها من رضيعة حلوة! تضحك بمجرّد سماع صوت أمّها، وتبكي أحياناً أيضاً. كانت قد شارفت على شهرها الثالث، وبدأت أسنانها الأولى تخرج.

اعترضها مدير الفندق وهي داخلة إلى المصعد، وقال لها:

ـ سيّدتي! هل يمكن أن تخبريني كم ستقضين من الوقت؟

ـ ... لست أدري... شهرين أو ربّما ثلاثة.

ـ ... الواقع أنّني سأكون بحاجة إلى هذه الغرف... سنستقبل زبائن...

حدجته سلمى بازدراء، وقالت مستغربة:

ـ ليست كلّ غرف الفندق محجوزة فيما أعلم، وباريس ليست مكتظّة بالسوّاح في الوقت الراهن!

ـ كلا... الحقيقة أنّ رضيعتك توقظ الزبائن. وقد غادر كثير منهم. آسف سيدتي، ينبغي أن تبحثي عن فندق أو بالأحرى خان عائلي. أعرف واحداً يناسبك تماماً، يوجد في شارع سكريب، قرب الأوبرا.

مضت سلمى تنظر إليه مصعوقة... فهي مرتاحة هنا قرب هذه الحديقة... ولمّا لاحظ مدير الفندق ـ ولم يكن شخصاً شريراً ـ اضطرابها، حاول أن يبرّر موقفه.

ـ لقد قمنا بما نستطيع. أنفنا من أن نرفض استضافة سيّدة شابّة. ولم نقل شيئاً عن الولادة، رغم أنّه لم يخطر ببالنا قطّ بأنك ستلدين هنا. تصوّري المشاكل التي كنّا سنقع فيها لو أنّ مكروهاً، لا قدّر الله، أصابك أو أصاب الطفلة...

فانتصبت سلمى وقالت:

ـ بالفعل، كان من الممكن أن نموت. أنا آسفة يا سيّدي! ولكن لا داعي للقلق. سنرحل بعد ظهر هذا اليوم. أرجو أن تهاتف فندق شارع سكريب لمعرفة ما إذا بإمكانهم إيواءنا.

ـ الواقع... أنّني اتّصلت بهم... لديهم غرف غير محجوزة.

ـ حسناً، هيّئ لنا الحساب إذن.

فردّ المدير وهو يبالغ في الاعتذار:

ـ لا تستعجلي الرحيل، يمكن أن تمكثي يوماً آخر إن شئت.

ـ كلا يا سيدي، سأرحل هذا اليوم.

فندق شارع سكريب، المسمى على سبيل الفخفخة «فندق دو روي»، فندق من الدرجة الثالثة ترتاده البرجوازية الريفية الصغيرة التي تزور باريس، وكذا بعض الأزواج الذين يستأجرون الغرف شهريا في انتظار العثور على شقّة. وهو لا يحتوي على صالون بل على قاعة طعام صغيرة يقدّم فيها الطعام بثمن ثابت. ولمّا لاحظ البوّاب وصول هذه السيدة الأنيقة، اعتقد في البداية أنّها أخطأت العنوان، لكنّه ما إن أبصر السيد مع الرضيع حتّى فهم أنّهم هم الأجانب الذين أُخبِر بمجيئهم.

ـ تعالي من هنا يا سيّدتي، لقد حجزنا لك أفضل غرفتين لدينا، الوحيدتين اللتين تتوفّران على حمّام!

وفهمت سلمى من النبرة التي قال بها «تتوفران على حمام!» بأنّهما الوحيدتان اللتان تحظيان ـ ربما ـ بهذا الترف. والتفت إلى زينيل وقالت بخبث:

ـ لا بدّ أنّك مسرور. فهذا الفندق لن يرهق ميزانيّتنا!

لكنّه لم يسمع كلامها. فقد كان في غاية الانتشاء لأنّ إحدى الخادمات أثنت على «رضيعته».

كان لتغيير الفندق مزيّة أخرى تتمثّل في تجنّب القابلة الفضوليّة التي أشرفت على ولادة الطفلة. فسلمى لم تعلن عن ميلادها بعد، وهي لا تنوي فعل ذلك قبل الخامس عشر من فبراير/ شباط، وهو التاريخ الذي سيسحب من الراجا، إن هو عثر عليهم، أيّ حقّ على الطفلة؛ إذ ليس من المعقول أن تحبل بها أمّها عاماً كاملاً. يضاف إلى ذلك أنّ هذا سيجعل في المقابل أبوّة هارفي معقولة.

تكيّفت بسهولة مع الحي الجديد، ووجدته أكثر حفاوة من الدائرة السابعة ذات الطابع الأرستقراطي المتحذلق. وعادت الحياة في العاصمة إلى مجراها الطبيعي تقريباً. فالمسارح وقاعات السينما لم تكن تفرغ، والمراقص التي أغلقت قبل ثلاثة أشهر احتراماً للمقاتلين، فتحت أبوابها من جديد في ديسمبر/ كانون الأوّل بما أنّ القتال متوقّف! وقد يحسب المرء أنّه يعيش في زمن السلم لولا ندرة سيارات الأجرة التي صودر نصفها، وإقرار يوم في الأسبوع بلا حلويات ولا كحول ولا لحوم. لكنّ الباريسيين كانوا يتندرون بذلك، ويقولون: إذا غاب اللحم، فليأكل المرء جراد البحر! بل إنّ الحكومة كفّت عن إطلاق صفّارات الإنذار إلا زوال يوم الخميس على سبيل الاختبار، كما هو الشأن في أيّام السلم.

ولا يتذكّر الإنسان أنّه في أيّام الحرب إلا في الليل لما يرى الفوانيس المطليّة بالأزرق. ومثلما يعتاد الناس على كلّ شيء، اعتادوا على هذا أيضاً. فَحَسْبُ المرء ألا ينسى مصباحه اليدوي. وقد خطرت للخياطين فكرة «نيّرة»، إذ أطلقوا موضة قبّعات ذات أزهار فسفورية تضمن إنارة لطيفة في الظلام.

والواقع أنّ لا أحد كان يأخذ على مأخذ الجدّ هذه الحرب التي كانوا ينعتونها بـ«الحرب الغريبة». وكانت الصحافة تساهم في تعزيز هذا التفاؤل. وفي يوم الفاتح من شهر يناير/ كانون الثاني من سنة ١٩٤٠، قدّمت جريدة «الصباح» النصر هديّة لقرّائها، وعنونت إحدى مقالاتها بـ«أعداؤنا مدانون أخلاقياً، خسروا الحرب من الناحية السياسية، ولم يبق لنا إلا أن نكسب النصر العسكري، وهو ما لن نتوانى في تحقيقه».

على أنّ شكّ الناس بدأ يتزايد في أن تهاجم ألمانيا فرنسا، لا سيما أنّها تملك قوة ردع تستعرضها نشرات الأخبار المصوّرة كلّ يوم. ثمّ هناك إنجلترا التي تجرّ وراءها إمبراطورية تمثل معيناً لا ينضب من الجنود. وقد كان مدير فندق «دو روي» كلّما رأى سلمى يسألها عن وينسطون تشيرشل وجلالته، معتقداً بناء على جواز سفرها البريطاني[1] أنّها أميرة إنجليزية، وأنّ لديها قرابة بالملك، أو على الأقل على علاقة حميمة به. وقد حرصت بالطبع على ألا تبدّد هذا الوهم، بل استغلّته للحصول على بعض الامتيازات من قبيل تجهيز غرفتها، وتوفير أسباب الراحة فيها، وجلب وجبة الفطور إلى فراشها حتّى إنّها أثارت غيرة بقية الزبائن. على أنّ المدير أجابهم بنبرة صارمة: لا يمكن استكثار خدمات صغيرة كهذه على امرأة متميّزة.

من بين الزبونات القاطنات بفندق روي، تعرفّت سلمى على امرأة سمراء تشتغل بالتمثيل، تقول عنها وهي تضحك: تتمتّع ببعض القدرات السحرية. وقد جلبت لها موهبتها في قراءة المستقبل بعض الشهرة. كانت تستقبل زبائنها من الحي بعد العصر في زاوية من حجرة الطعام حيث أقامت مكتبها بموافقة من المدير الذي كان يرى في ذلك وسيلة لاجتذاب زبائن يتناولون الشاي أو مشروبات فاتحة للشهية.

لكن جوزيان كانت تحتقر، على غرار من يملكون مواهب فطرية، ما حبتها به الطبيعة، ولا تطمح إلا إلى تحقيق المجد على خشبة المسرح. كانت تعرف كلّ شيء عن هذا المجال: ميولات الممثلين ومغامراتهم الغرامية، ولا ينضب معينها من أخبارهم وحكاياتهم. وهذا هو ما جذب إليها سلمى التي كانت ما تزال شغوفة بعالم الفرجة والكواليس. وقد اقترحت عليها جوزيان أن تعرّفها على بعض الفنّانين الشباب، فعهدت

(١) بما أن الهند كانت مستعمرة إنجليزية، وسلمى متزوّجة من شخص هندي، فهي من الرعايا البريطانيين.

برضيعتها إلى زينيل رغم اعتراضه، لأنه لم يكن يستلطف هذه «الممثلة البائخة». لكنها لم تحفل باعتراضه لاعتيادها على بغضه لأصدقائها الجدد. وهكذا جابت بها جوزيان لليلة كاملة ملاهي مونبارناس والحي اللاتيني المعتّمة حيث يعزف فنانو المستقبل على القيثارة ويداعبون الأوتار. ورغم أنّ ذلك لم ينل إعجاب سلمى، فإنّها تسلّت كثيراً، وهي تسلية جاءت في أوانها لأنّ التوتّر كان قد بدأ يأخذ منها مأخذه. فشهر فبراير/ شباط على وشك أن ينتهي، ولم يبلغها بعد أيّ خبر عن هارفي.

كانت تقضي ساعات جالسة بجانب ابنتها النائمة، تستعيد ذكريات الأسابيع الأربعة التي أمضياها معاً. تتذكّر بدقة تثير دهشتها كلّ لحظة قضياها معاً، وكلّ كلمة نطق بها لسانه، وكلّ ابتسامة افترّ عنها فمه، وكلّ مداعبة من مداعباته... وهي واثقة من أنّه لم ينسها بدوره... وتعجب من يقينها هذا، هي من كانت لا تثق بأحد! ورغم أنّ كلّ الإشارات تفنّد هذا الحبّ ـ لو أنّ إحدى صديقاتها حكت لها قصة مماثلة، لنظرت إليها بإشفاق وهي مقتنعة بأنّ عشيقها تخلّى عنها ببساطة ـ فإنّها لا تشكّ لحظة في وفاء هارفي. هي متأكدة من أنّ ما وقع بينهما مختلف: لم يختر أحدهما الآخر. ثمّة ضرب من الحتمية جرفهما من دون أن يترك لهما مجالاً للمقاومة. وكانت تشعر بامتلاء لا تستطيع تفسير مبعثه، وتقول في نفسها إنّ الإنسان حين يحيا بهذا الاكتمال، حتّى وإن لم يدم ذلك غير لحظات، يكون قد ذاق طعم الخلود، فلا يعود الموت يعني له شيئاً.

وأنّت الطفلة في مهدها، فانحنت عليها سلمى بحنان وقد ساورها القلق، ومضت تداعب شعرها الحريري. كيف سمحت لنفسها بالتفكير في الموت بينما ابنتها هنا بجانبها، وهي أحوج ما تكون إليها؟ ابنتها الصغيرة التي يزداد شبهها بهارفي يوماً عن يوم... لقد آن الأوان لكي تصرّح بميلادها؟ ولكن كيف لها أن تبرر للسلطات تأخّرها لثلاثة أشهر؟ منذ بضعة أيّام وسلمى تبحث عبثاً عن حلّ.

ولمّا رأتها جوزيان مهمومة، اقترحت عليها المساعدة.

ـ أرجو أن تعذري فضولي، كلّ ما أريد هو أن أساعدك؟... فأنا أعرف باريس حقّ المعرفة، لأنّني ولدت فيها.

وبما أنّ سلمى لا تملك خياراً آخر، انتهت بأن أسرت لها بما في نسفها، لكن من دون أن تشير إلى هارفي. عزت عدم التصريح بالطفلة عند ميلادها إلى جهلها بالقانون الفرنسي.

نظرت إليها جوزيان بمكر وقالت:

ـ حسناً! المهمّ هو أنّك لم تصرّحي بالميلاد، أمّا الأسباب فلا تهمّ أحداً سواك. علينا الآن أن نعثر على قابلة تشهد بأنّها هي من ولّدتك، وهو أمر صعب، وإن كنت أعرف واحدة قد... لكنّها ستخاطر. إن انكشف أمرها، ستمنع من مزاولة هذه المهنة. لذلك قد تطلب ثمناً غالياً...

لاحظت علامات التردّد على سلمى، فأضافت:

ـ من الأفضل أن تذهبي مع قابلتك إلى البلدية، وتزعمي أنّك تجهلين القانون أو نسيت، قولي لهم أيّ شيء!

ـ مستحيل.

حدّقت جوزيان في وجه سلمى الممتقع. لقد عرفت الآن ما كانت تودّ معرفته: هذه الأميرة ذات النظرة البريئة ترغب في الإدلاء بتصريح مزيّف، لذلك هي ترفض اللجوء إلى القابلة التي ولّدتها.

ـ هيّا! دعي عنك هذه السحنة المتجهّمة، سنسوّي هذه المسألة. أنت تعلمين مدى استعدادي للقيام بما في وسعي لإخراجك من هذه الورطة. سأذهب للقاء تلك المرأة غداً.

وفي اليوم الموالي عادت واجمة.

ـ يا لها من معتوهة! طلبت مبلغاً لا يقبله العقل بحيث لا أرى فائدة من الخوض فيه.

فسألت سلمى بنبرة فاترة:

ـ كم طلبت؟

ـ يستحيل... مبلغ مهول... طلبت عشرين ألف فرنك!

ـ عشرين ألف فرنك! مبلغ ضخم!

ـ غير معقول، وتزعم فوق ذلك أنها راعت معرفتي بها في تحديد هذا المبلغ، وإلا كانت طلبت أكثر. أظنّ من الأفضل ألا تصرحي بالطفلة. فلن يطلب منك أحد شيئاً على كلّ حال. لكن إذا قاموا بمراقبة في يوم من الأيام، وأنت تعلمين أن السلطات تميل إلى مراقبة الأجانب في زمن الحرب، فقد تواجهين بعض المتاعب: قد يتّهمونك بسرقة الطفلة، وينتزعونها منك... سمعت بعضهم يحكي...

فقاطعتها سلمى:

ـ كفى! سأدفع. هل يمكن أن نذهب بعد ظهر غد، ريثما أزور البنك؟

فردّت جوزيان باندهاش:

ـ نذهب؟... مستحيل! هي لا تريد أن تلقاك. لا تثق بأحد، ولم تقبل وساطتي إلا لأنّها تعرفني منذ مدّة طويلة.

وتقبل سلمى على مضض. شعرت بأنّ جوزيان لا تقول لها كلّ الحقيقة، وأنّها ضخّمت المبلغ لكي تحتفظ بجزء منه. لكنها لا تملك خياراً آخر على كلّ حال.

وفي اليوم الموالي، سلّمت لها المبلغ المتّفق عليه. وحتّى تهدّئ أعصابها، خرجت للنزهة مع زينيل والرضيعة. وحين عادت أخبروها أنّ المرأة غادرت الفندق من دون أن تترك عنوانها.

إلا أنّ خبر شنّ ألمانيا حرباً بواسطة غواصاتها بهدف قطع تزويد الولايات المتحدة لإنجلترا بالسلاح، كان بالنسبة لسلمى أحسن خبر تلك السنة: فهمت سبب انقطاع رسائل هارفي، وشعرت بالخفّة من جديد، لا سيما أنّ الحرب على وشك أن تنتهي: لن تتجاوز بضعة أشهر. فهي مختلفة تماماً عن حرب ١٤ ـ ١٨! رغم أنّ سلمى كانت صغيرة، ما زالت تذكر ـ

كما لو أن ذلك وقع بالأمس ـ الحزن الذي كان مخيّماً على الأستانة، والمستشفيات المليئة بالجرحى والعائلات المحزونة. لكن هنا، لا يبدو أنّ أحداً يأخذ الأحداث على محمل الجدّ. بالعكس، يسخر الناس من ضعف الاتحاد السوفياتي الذي قضى أزيد من ثلاثة أشهر ليخضع دولة فنلندا الصغيرة. كما يتحدّثون عن بؤس الجنود الألمان الذين يقاتلون ببطون جائعة وهم يرتدون أسمالاً بالية. ومع ذلك فإنّ هذا الجيش اجتاح الدنمارك التي لم تُبدِ أيّ مقاومة. ورغم الدعم العسكري الذي بعثه كلّ من فرنسا وبريطانيا إلى النرويج، فإنّها استسلمت بدورها...

ولكي تكوّن سلمى فكرة واضحة ودقيقة عن الوضع، كانت تقرأ كلّ يوم جريدتين أو ثلاثاً، وتنصت للمذياع، لكنّها لم تكن تتحدّث كلّها إلا عن المجاعة التي تجتاح الرايخ، وعن الغضب المتزايد ضدّ النازية، وعن إصابته بمرض خطير قد يجبره على الانسحاب من الحكم. أمّا الساسة، فلم يكونوا يكفّون عن التصريح بأنّ لا شيء يدعو للقلق.

لم يكن ثمّة داع للقلق إذن. وهكذا ظهرت موضة الفساتين الفاتحة والقبعات ذات الألوان الزاهية. ولم تفقد السيّدات في مضامير الخيل، مثل شان دو كورس و«أوتوي»، شيئاً من أناقتهنّ. كما أنّ «الحانة فتحت أبوابها ونوافذها...»، على حدّ قول أغنية يردّدها الناس على ضفتي نهر «المارن».

وبينما كانت سلمى ذات يوم تتشمّس برفقة زينيل وهو يحمل الرضيعة، في فضاء مقهى «السلام»، إذا بيدين تحجبان عينيها، وتردّد في أذنيها صوت تعرف صاحبه. وبحركة مفاجئة تخلّصت من اليدين...

ـ أورهان!

ـ سلمى!

وتعانقا وهما يهتفان من المفاجأة والفرحة. لم يلتقيا منذ أن كانا في لبنان.

ـ ماذا تفعلين هنا؟ حسبتك تتربّعين على عرشك في قصر من الذهب في أعماق الهند.

ـ وأنت؟

ـ أنا؟ رافقت الملك أحمد زوغ في منفاه، وانتهى بي الأمر أن بدأت أتعوّد على هذه الحياة! انظري، أنا لست نادماً على ألبانيا. رغم أنّه بلد جميل، إلا أنّ خشونته لا تناسب ذوقي. خلال الفترة التي لم نلتق فيها تزوّجت وطلّقت، وأنا الآن حرّ. تحرّرت أيضاً من الملك. فقد استقرّ في الريف، وأنت تعرفين علاقتي بالريف... عدت إذن إلى مهنتي القديمة، لكنّ على نحو أرقى: أرافق سائقي السيارات في كلّ أنحاء أوروبا!

وراحا يضحكان ويستمتعان بهذا اللقاء.

والتفت أورهان إلى زينيل الذي كان ينصت إليهما وقد تطلّقت أساريره، وقال له:

ـ مرحباً آغا! تبدو على أحسن ما يرام!

ثمّ نظر إلى الرضيعة باندهاش، وقال وهو يشير إليها:

ـ ... ولكن ما هذا؟

فردّت سلمى بزهو:

ـ هذا؟ هذه ابنتي.

ـ وأين الأب؟

ـ سأشرح لك لاحقاً. إنّها قصة طويلة.

ـ ما زالت ابنة عمّي كما عهدتها، تحيط نفسها بالأسرار دائماً!

ونظر إلى ساعته:

ـ اعذريني، لديّ موعد مع امرأة... أهيم بحبّها، وقد تأخرت!

فردّت سلمى ساخرة:

ـ كعادتك، فأنا خبيرة بابن عمّي!

ـ أعطني رقم هاتفك، وسأتصل بك بعد بضعة أيّام. بعد أن عثرت عليك الآن، لن أدعك تفلتين منّي.

مرّر أصابعه بين خصلات شعرها كما كان يفعل أيّام المراهقة، وهمس لها بنبرة تمزج بين الجدّ والهزل:

ـ أنت هي المرأة التي كان ينبغي أن أتزوّجها في الحقيقة!

ثمّ قبلها على طرف أنفها، وانصرف مسرعاً وهو يلوّح بقبّعته.

بعد ذلك بيومين، أيّ يوم العاشر من مايو/ أيار، سيُفاجأ الفرنسيون بأنّ الجيوش الألمانية اجتاحت هولندا ولوكسمبورغ و... وبلجيكا! وبخلاف كلّ التوقعات، استطاعوا الالتفاف على خطّ ماجينو، واقتحموا ـ ضدّ كلّ الأعراف ـ بلداً كان قد أعلن حياده. كما أنّهم اغتنموا ـ يا للجبناء! ـ مناسبة عيد العنصرة لتنفيذ هجومهم. ومع ذلك صدرت بعض التطمينات: فقد هبّ الجيش الفرنسي مدعوماً ببعض الكتائب الإنجليزية لنجدة الجارة بلجيكا. سيلقّنون هؤلاء البوش درساً لا ينسى!

وظلّت الأخبار القادمة من الجبهة في الأيّام الموالية ملتبسة، ولم يبدأ القلق يتسرّب إلى نفوس سكان باريس إلا عندما استسلمت هولندا، لا سيما حين رأوا باندهاش البلجيكيين يعبرون العاصمة في عربات محمّلة بكل ما يمكن حمله. واستدعت الحكومة الجنرال فيغان من بيروت ليتسلّم قيادة أركان الجيش، وعيّنت المارشال بيتان نائباً لرئيس الوزراء. وقد استقبل الشعب بطل فيردان بارتياح وعرفان بالجميل، واطمأنّ الناس لأنّ البلد صار في أيد أمينة. على أنّ ذلك لم يمنعهم من الصلاة في الكنائس. بل نظّموا مسيرات خلف رفات القديس سان لويس والقديسة جونيفيف التي حمت لوتيسيا[1] من قبائل أتيلا في القرن الخامس.

---

(١) *Lutetia* هو الاسم الذي كان يطلقه الرومان قديماً على المدينة الغالية (من بلاد الغال) التي تسمى اليوم باريس.

وفي السادس والعشرين من مايو/ أيار، عنونت جريدة الصباح في صفحتها الأولى: «قوّات الحلفاء تكبّد العدو خسائر فادحة، والمشاة الفرنسيون لم يفقدوا شيئاً من مؤهّلاتهم». وهكذا حين عُلِم في اليوم الموالي بأنّ بلجيكا استسلمت، عمّت موجة من السخط. ذلك أنّ الملك الخائن استسلم من دون أن يخبر القيادات الفرنسية والإنجليزية! ومن ثمّة اتّخذ الوضع منحى خطيراً، إذ تراجع الحلفاء لكي يؤمّنوا الدفاع عن الطرق السالكة إلى العاصمة ضدّ جيش ألماني أصبح الباريسيون يشكّون في ما يردّده قادتهم من أنه بلغ به الإجهاد مبلغه.

وفي فندق روي، كان بعض الأزواج يتحدّثون عن اختصار مدّة إقامتهم، ويفكّرون في العودة إلى المناطق الريفيّة، لكنّ المدير يحاول أن يثنيهم عن ذلك ضاحكاً وهو يقول:

ـ هيّا! لا داعي للخوف، فهؤلاء البلجيكيون لا يجري الدم في عروقهم. أمّا الجيش الفرنسي، فشيء آخر!

ضجرت سلمى من تبجّح هذا الرجل، فصعدت إلى غرفتها حيث لحق بها زينيل والطفلة. قضيا المساء كلّه يتناقشان: ما زال أمامهما الوقت للرحيل إلى لوزان، لكن هل السفر آمن؟ فالنازيون خرقوا اتّفاق الحيّاد مع بلجيكا، ومن يضمن أنّهم لا يُقدمون على غزو سويسرا غداً؟ فهي لا تملك القدرة على الدفاع عن نفسها بخلاف فرنسا. وسيطر التردّد على سلمى، فهي لا تملك أيّ معطيات تسمح بتقدير حجم الخطر. ذلك أن الأخبار الوحيدة التي تصلها، تستقيها من الجرائد، وهي أخبار تنبّهت بتذمّر إلى أنّها خاطئة، ومع ذلك فهي مضطرّة إلى اتّخاذ القرار، وبسرعة.

ومضت تنظر بقلق إلى العجوز والطفلة الصغيرة التي تتشبث بركبتيه وهما يضحكان عالياً. إنّهما يثقان بها، ومصيرهما متوقّف ربما على قرارها. آه لو كان هارفي حاضراً! أو حتّى أورهان... وهي لا تعرف كيف تتّصل به. لم تستغرب اختفاءه: لا بدّ أنّه ينعم بالحب غير آبه بالعالم الذي يوشك أن ينهار من حوله.

ووضعت رأسها بين يديها: ممّن عساها تطلب الاستشارة؟ من ماري لور؟ مستحيل! مضت الآن عشرة أشهر على اختفاء سلمى عنها من دون أن تترك لها عنوانها. ولا بدّ أنّها الآن ناقمة عليها، ولن تخفي عنها ذلك. ثمّ إنّها ستمعن في سؤالها عن الطفلة... كلا، لن تلجأ إلى ماري لور.

وتذكّرت فجأة الآنسة روز. فقد كاتبتها لمّا كانت في لبنان مراراً، وكذلك لمّا انتقلت إلى الهند. أخبرتها بأنّها مستقرّة في باريس، وأنّها تقدّم دروساً خاصّة. لكن لا أحد من الأطفال الذي تعهّدتهم احتلّ المكانة التي كانت لسلمى في قلبها. وكانت تتضرّع إلى السماء أن تأتي في يوم من الأيّام لزيارتها. أين أنت يا عزيزتي روز! لماذا لم تتذكّرها من قبل؟ من المؤكّد أنّ المسكينة لن تفيدها بشيء ـ فهي تعيش في عالم أبعد ما يكون عن الواقع ـ لكنّ الأسَر التي تشتغل لديها قد تكون لديها فكرة عمّا يلزم أن تفعل.

وفي صباح اليوم الموالي ذهبت إلى شارع آبيس، وبحثت عن العنوان الذي وضعته روز على آخر رسالة وصلتها منها. ستكون سعيدة بلقائها، وستذكّرها بطفولتها في الأستانة... وابتسمت وهي تتذكّر قبعاتها التي كانت ترعب القلفاوات وعثراتها التي صارت مضرب المثل. لكنّها كانت من اللطف بحيث كسبت حبّ الجميع. وشعرت سلمى بالخجل من أنّها لم تبحث عنها مع إقامتها في باريس توشك على إتمام السنة. انشغلت بالحياة الباريسية وبهارفي ثمّ بالطفلة حتّى إنّها نسيتها تماماً. ولكي تسكت تأنيب ضميرها وتكفّر عن ذنبها، مرّت على الماركيز دو سيفيني واشترت أكبر علبة شوكولاتة. فهي تعرف ولع الآنسة روز بها.

توقّفت متردّدة أمام العمارة رقم ١٢ بشارع آبيس. أيعقل أن تكون الآنسة روز قاطنة هنا؟ تبدو البناية المتصدّعة موشكة على الانهيار، وطلاء واجهتها يتساقط على شكل قشور رمادية. حبست أنفاسها وهي تعبر المدخل الذي وضعت فيه صناديق قمامة فاضت بمحتوياتها، تنبعث منها رائحة كريهة لم تفارقها حتّى وهي تصعد السلّم. ارتقت الأدراج

القذرة: كيف للآنسة روز المعروفة بشدة حرصها على النظافة أن ينتهي بها المطاف في هذا المسكن الحقير؟ كان واضحاً أنّها تعيش في العوز، فلماذا لم تخبرها بحاجتها إلى المال في رسائلها؟

دقّت جرس أحد الأبواب الأربعة الموجودة في الطابق الثاني، ففتحت لها امرأة غير الآنسة روز، لكنّها تعرفها أو بالأحرى كانت تعرفها جيّداً، فسألت سلمى:

ـ لعلّها غيرت المسكن؟

ـ تقريباً... لقد ماتت المسكينة منذ ثلاثة أشهر.

وشعرت سلمى بأنّها توشك على الإغماء.

ـ ماتت؟... ما سبب موتها؟

ـ ماتت من السل والبؤس... لمّا علم مشغّلوها بمرضها، سرّحوها... خوفاً على الأطفال، طبعاً! استقرّت هنا قبل عام تماماً. بعد أن فقدت العمل لم تعد تجد المال لعلاج نفسها. ولكي تبقى على قيد الحياة، اعتمدت على مدّخراتها. كانت طيّبة وودودة. وبما أنّها كانت وحيدة، كنّا ندعوها أحياناً للغداء أيّام الأحد... لكن لكلٍّ مشاغله ومشاكله كما تعلمين، ولا يمكنه أن يفعل الكثير...

وبينما كانت المرأة تتكلّم، مضت تتفحّص سلمى بفضول، ثمّ ضربت على جبينها فجأة، وقالت:

ـ الآن تذكّرتك! كانت تحتفظ في غرفتها بصورة كبيرة لك. أنت هي الأميرة إذن؟ الله وحده يعلم كم كانت تتحدّث عنك! كانت المسكينة تحبّك...

أجهشت سلمى بالبكاء، ووضعت علبة الشوكولاتة بين يدي المرأة وولّت هاربة، واجتازت الشارع وهي تنتحب. لو أنّها جاءت من قبل لكانت أنقذتها، ولكانت عالجتها عند أفضل الأطباء المتخصّصين... ولكانت بقيت ربّما على قيد الحياة... وحتّى لو كانت حالتها ميؤوساً

منها، لكانت منحتها على الأقلّ بعض الدفء الإنساني، وشيئاً من السعادة.

لا تعرف سلمى كيف عادت إلى فندق دو روي. وقضى زينيل المساء كلّه يمسح دموعها، ويقنعها بأنّها ليست مسؤولة عن موتها، وأنّه يحدث لكلٍّ منّا أن ينسى، وينشغل بأموره الخاصة... وفي الأخير لمّا لاحظ بأنها لن تتوقّف عن إدانة نفسها، وضع الرضيعة بين يديها. فما إن رأت أمّها تبكي حتّى شرعت في الصراخ، فخاطبها بنبرة حازمة:

ـ مسؤوليتك الآن هي التفكير في مصير هذه الطفلة. ماذا سنفعل الآن؟ ماذا قرّرت؟

فردّت وهي تتنهّد:

ـ أنا مرهقة يا زينيل. لننتظر بضعة أيام أخرى. على كلّ حال، لا أحد يسافر الآن!

لكن لمّا قصفت الطائرات الألمانية باريس يوم الثالث من يونيو/حزيران، وقضوا الليلة في القبو مع القاطنين في الفندق، ندمت على تردّدها.

وفي اليوم الموالي، هيّأ سكان الأرياف حقائبهم، وغادروا فندق دو روي. وبدأت تُرى على الطرقات سيّارات فاخرة آتية من الأحياء الراقية، مثقلة بالصناديق والأغراض، لا يبدو أنّها ذاهبة لقضاء عطلة نهاية الأسبوع في فونتينبلو. على أنّ خوف الحكومة من أن تفرغ العاصمة من سكّانها، وتتحوّل إلى لقمة سائغة للعدو، جعلها تكثر من التصريحات والبلاغات المُطمْئنة، وتشيد بشجاعة «سكان باريس الذين لا يعرف الخوف سبيلاً إلى قلوبهم». وراح راديو سيتي يصف المقاومة البطولية لقوّات الحلفاء الذين يرغمون الجيش الألماني في هذه الأثناء على التراجع، وبذلك لن تمضي بضعة أيّام حتّى يتحقّق النصر.

قال صاحب الفندق باستبشار مصطنع:

ـ ألم أقل لكم! كم ينقبض قلبي حين أتذكّر أولئك الجبناء الذين فرّوا لأنهم لا يثقون في جيشنا!

ويتمالك نفسه من أن يقول إنّه لا يعتبرهم جبناء فحسب، بل خونة.

على أنّه لم يلبث أن فقد شيئاً من خيلائه حين أعلنت الصحف، في اليوم الموالي، بعناوين سوداء كبيرة نبأ الكارثة: «جبهة السوم تُختَرق».

سألت سلمى التي لم تكن تعرف السوم:

ـ هل لهذا خطورة؟

وانتابها القلق لمّا لاحظت سحنات الحاضرين الواجمة. وأجاب رجل عجوز ساخراً وهو يحدجها بنظرات عدائية:

ـ خطورة؟ هذا معناه يا سيدتي أنّ الطريق إلى باريس بات سالكاً أمامهم!

وعلا الشحوب وجهها وهي تقول:

ـ الألمان يصلون إلى باريس؟ ولكنّهم كانوا يقولون إنّ الجيش...

ـ يقولون... الساسة يقولون ما يناسبهم. أنا أعرفهم جيّداً يا سيدتي. لقد قاتلت في حرب ١٩١٤. لو سمعت كلامهم حينئذ لاعتقدت أنّ الأمر يتعلّق بنزهة!

واجتهدت الجرائد والإذاعات في الأيّام الموالية في طمأنة سكّان باريس: «جنودنا يكبحون العدو، وعشرات الآلاف من رجالنا يقيمون تحصينات منيعة حول العاصمة. فلا خشية على باريس، سندافع عنها مهما كلّف الثمن». وفي الثامن من يونيو/ حزيران، أعلن الجنرال فيغان: «لقد تكبّد العدو خسائر جسيمة. نحن على وشك أن نحسم المعركة، فمزيداً من الصمود!». ولكنّ الناس بدأوا يشاهدون وصول الجماعات الأولى من الجنود المهزومين. كانوا مرهقين والمرارة تملأ نفوسهم، وهم يصرخون بأنّهم خُدعوا، وأنّ الفرق بين الجيشين شاسع، وأنّهم خسروا كلّ شيء.

هيّأت شركة السكك الحديدية القطارات لمن يرغبون في الرحيل، لكنّ معظم السكان كانوا ما زالوا متردّدين. ذلك أنّ الرحيل معناه التنازل عن ممتلكاتهم للصوص الذين صاروا يملؤون المدينة في هذه الفترة المضطربة. ثمّ، إلى أين سيذهبون؟ فقلّة قليلة من تملك مساكن ثانوية أو أصدقاء في الريف يأوونهم. أمّا الفنادق، فأثمنتها باهظة. وسلمى مستعدّة الآن لترك العاصمة، لكن زينيل يلزم الفراش منذ يومين جراء أزمة روماتيزم حادّة. وقد ترجّاها أن ترحل، مؤكّداً بأنّه سيلحق بها بمجرّد ما تتحسّن حاله.

كان عليها أن تعثر على سيّارة، ولا أحد يمكن أن يساعدها على ذلك سوى ماري لور. وهكذا داست على كبريائها وتوجّهت إلى شارع هانري مارتان، لكنّ الحارسة أخبرتها بأنّ «السيدة الكونتيسة سافرت منذ أسبوع». فلمّا عادت إلى الفندق، زعمت لزينيل حتّى تطمئنه بأنّ ماري لور سخرت منها وأقسمت لها بأنّ باريس لا يتهدّدها خطر، والألمان لا يمكن أن يصلوا إليها.

وفي هذه المرّة فكّرت مليّاً قبل أن تتّخذ قرارها. مضت شهور وهما يعيشان معاً، وكانت ثقتها بالخصي خلال تلك المدّة تزيد يوماً عن يوم. فلا مجال إذن لأن تتخلّى عنه. كان بوسعه أن يعيش حياة هادئة في لبنان أو في الهند، وهو إنّما خاض هذه المغامرة من أجلها! لكن ببقائها في باريس، فهي تجازف بحياة ابنتها... ماذا كانت أمّها ستفعل لو كانت مكانها؟ ما كانت لتترك زينيل وحيدا أبداً، وهذا هو ما ستفعله هي أيضاً. إن كان ثمّة من خطر، فسيواجهونه جميعاً.

وفي الساعات الأولى من صباح العاشر من يونيو/ حزيران، استيقظت سلمى على ضجّة غريبة آتية من الشارع. أسرعت إلى الشرفة فرأت على الرصيف جماعات في منتهى الجزع والاضطراب، وأشخاصاً يجرون وهم يصرخون. لكنّها لم تتمكن من تمييز ما يقولون. وفي لمح البصر ارتدت فستاناً، ووضعت الطفلة في غرفة زينيل ثمّ اندفعت نحو

السلم، وهناك التقت بجيرانها يجرّون حقيبة تكاد تتمزق من شدة ما ملئت. فصاحوا بها:

ـ الحكومة لاذت بالفرار خلال الليل. هيّا أسرعي، فالبوش على وشك أن يصلوا!

وفي الشارع كان الناس يتنادون:

ـ من أين ستذهب؟ من محطة أوستيرليتز؟ هيا أسرع، فالقطارات ستمتلىء!

ـ أنا سأركب دراجتي، يقال إنهم سيقصفون السكك الحديدية!

وصاح رجل في زوجته التي تسمّرت في عتبة الباب من شدّة الفزع:

ـ ألن تهيئي الحقائب؟ أنبّهك إلى أننا سننطلق بعد نصف ساعة!

وأخذت السيارات والشاحنات الصغيرة المحمّلة بالحزم والأفرشة تمرّ أمام أنظار سلمى المذهولة. كانت تتّجه نحو شارع روايال لتعبر نهر السين وتصل بذلك إلى الحي اللاتيني فأبواب أورليان وأبواب إيطاليا. وبمرور الساعات، كانت حركة السير تزدحم أكثر فأكثر إلى أن توقّفت تقريباً بعد الظهر، لا سيما أنّ الباريسيين استعملوا للهرب كلّ السيارات التي وجدوها في متناولهم، بما في ذلك القديمة منها، التي لا تكاد تقطع مائة متر حتى تتعطّل، هذا فضلاً عن العربات ذات الأذرع، المشحونة بأغراض أبى أصحابها التخلي عنها، يجرّها رجال ونساء بلغ منهم الإرهاق مبلغه. وكانت الشرطة تذيع طيلة ذلك اليوم إرشادات من قبيل: «لا تتوجّهوا نحو محطات القطار، فالوصول إليها متعذّر، تجنّبوا شارع سان ميشال وشارع سان جيرمان... حركة السير في شارع هنري الرابع متوقّفة تماماً...»، وبما أنّ الناس كانوا في حالة من الجزع، لم يكونوا يسمعون من ذلك شيئاً، ولم يكونوا يفكرون إلا في شيء واحد: الفرار.

أمّا سلمى فراحت تراقب من شرفتها هذا الحشد المفزوع. فقد اعتادت في مثل هذه اللحظات العصيبة على المحافظة على هدوئها، كما

لو أنّ الاستسلام للخوف في وضع خطير كهذا يصبح ضرباً من الترف. ماذا ستفعل مع ابنتها ذات السبعة أشهر وزينيل الذي لا يكاد يتحرّك في خضمّ هذا الطوفان البشري، ووسط هؤلاء الناس المرعوبين؟

كان اليومان اللاحقان كابوساً حقيقياً. أعلن الجنرال فيغان أنّ باريس «استسلمت» وهو ما زرع الهلع في قلوب من ما زالوا متردّدين في الهرب. ومعنى «استسلمت» أنها لم تعد محصّنة، وأنّ الجيش تخلّى عنها للبوش المنتصرين الذين سينكّلون لا محالة ـ كما هو معروف عنهم ـ بكلّ من حمله جنونه على البقاء.

لكنّ سلمى، وكذلك ستّة أشخاص مسنين خافوا من أن يقتلهم الإرهاق على الطرقات، فضّلوا البقاء في الفندق، وقدّروا أنّ هذا الإعلان يمثل خبراً حسناً. فإذا كانت باريس قد استسلمت ولم تعد قادرة على الدفاع عن نفسها، فلماذا سيدمّر الألمان مدينة رائعة أهديت لهم على طبق من فضّة؟

اجتمعوا في غرفة الطعام الصغيرة لكي يشجع بعضهم بعضاً، وبادر صاحب الفندق ـ على غير عادته ـ بفتح زجاجة نبيذ. عبّروا له عن امتنانهم لعدم إغلاق الفندق، لكنّه قال لهم إنّه كدح طول حياته لكي يحصل عليه، وهو غير مستعدّ للتنازل عنه للغاصبين.

قال متبجّحاً:

ـ سأدافع عن ممتلكاتي حتّى ضدّ البوش! ثمّ إنني لا أرى مبرّراً يجعلهم يعتدون على تجّار مسالمين.

وعمّ باريس هدوء غريب بعد أن غادرها ثلاثة أرباع سكانها. وقد قضت سلمى فترة ما بعد الظهر تبحث عن الحليب لرضيعتها، إلا أنّ كلّ المتاجر مغلقة. ومع ذلك استطاعت العثور على تاجر باع لها كعكاً جافاً وعلبتي حليب مركّز بثمن باهظ. ثمّ عادت إلى الفندق عبر شوارع خاليّة، مندهشة من وقع كعبيها الغريب على الرصيف: كلّ النوافذ مغلقة حتّى

ليخيّل للمرء أنّ المدينة حبست أنفاسها. كان من المتوقع أن يصل الألمان في اليوم الموالي.

قضت الليلة بكاملها سهرانة على ضوء شمعة تنظر إلى ابنتها النائمة.

غفت قليلاً فإذا بضجّة توقظها مفزوعة. كانت الشمعة قد انطفأت، وأشعّة الشمس تنفذ من خلال المصاريع. وبقفزة واحدة كانت أمام النافذة تنظر من خلال فتحات التهوية، فأبصرت...هم!

رتل من المدرّعات اللامعة تحت أشعة الصباح، أشبه ما تكون بخنافس عملاقة، اختارت المرور من هنا لتتجنّب ساحة الأوبرا، يتقدّمها جنود يركبون درّاجات ناريّة، وتتبعها سيّارات مصفّحة، وهي متوجّهة ببطء إلى ساحة الكونكورد.

قضت سلمى الصباح بكامله مشدوهة تنظر إليهم يمرّون بهذا الهدوء وهذه القوّة. وشيئاً فشيئاً عادت بها الذاكرة لتتراءى لها طفلةٌ صغيرة حمراء الشعر متشبّثة بأذيال أمّها التي كانت تنظر من قصر أورتوكاي إلى المراكب الضخمة المسلحّة بالمدافع تنزلق على مياه البوسفور الهادئة. فتضمّ ابنتها بين ذراعيها بقوّة، وتلحق برفاقها في غرفة الطعام في الأسفل.

كانوا مزدحمين حول النوافذ ينظرون في صمت إلى العدو وهو يجتاح المدينة. وعند الزوال أبصروا مجموعة من ضباط القوات الجوّية في بدلاتهم العسكرية الرمادية الرائعة وهم يقتحمون الغراند أوطيل في الجهة الأخرى من ميدان الأوبرا.

وغمغم صاحب الفندق:

ـ إذا أراد الإنجليز أن يغتنموا هذه الفرصة، فنحن في أحسن موقع لمتابعة العمليّة!

لم يجب أحد، ومضوا ينظرون مصعوقين إلى العلم الأحمر الذي يتوسطه صليب معقوف أسود يرتفع ببطء في السماء. وسمعت سلمى ضجّة فالتفتت: كان العجوز الذي شارك في حرب ١٤ ـ ١٨ ينتحب خلفها.

٦

وفي الرابع عشر من يونيو/ حزيران، جابت سيارات مجهّزة بمكبّرات صوت الشوارع آمرة الباريسيين بلزوم بيوتهم. «التظاهر ممنوع، وكلّ اعتداء على الجنود الألمان سيكون جزاؤه الموت». لكن ما إن لوحظ، ابتداء من اليوم الموالي، أنّ الساكنة المصعوقة بهذه الهزيمة لا تفكّر في المقاومة البتّة، رُفع حظر التجوال. كان يلزم أن تعود الحياة إلى مجراها الطبيعي لكي تتمكّن قوات الاحتلال من الاستقرار، وتعود المصالح العموميّة إلى العمل. وطُلب من الخبّازين والتجار وأصحاب المطاعم استئناف أنشطتهم شأنهم في ذلك شأن الإدارات. وأمر حاكم منطقة السين بـ«أن يعود كلّ إلى منصبه، ويقوم بواجبه». وهكذا بدأت الحياة تدبّ في بعض المصالح كالميترو ومكاتب البريد والبنوك بل حتّى المحاكم.

لم تعد سلمى تنام إلا قليلاً في الأيّام الأخيرة، وهكذا لما اقتحم زينيل غرفتها صبيحة يوم السابع عشر وأيقظها لكي يحدّثها في أمر مستعجل، حشرت رأسها في الوسادة وعادت إلى النوم، لكنّه ألحّ عليها، وأخبرها بأنّ البلديات فتحت أبوابها، وأنّها تعمل في فوضى عارمة. فاستوت سلمى على مرفقيها ونظرت إليه مصعوقة: أمن أجل هذا جاء يوقظها؟ لكن الخصيّ لم يتراجع، وشرح لها بأنّها فرصة لا تعوّض للتصريح بالطفلة.

ـ فنصف الموظّفين غائبون، والحاضرون ينجزون العمل بسرعة ليتفرّغوا للحديث عما يجري. وقد ذهبتُ هذا الصباح إلى بلديّة الدائرة

التاسعة: ينبغي اغتنام الفرصة. سأقول لهم إنّ الطفلة ولدت ليلة الرابع عشر من يونيو/ حزيران، وأنّ القابلة استبدّ بها الذعر فاختفت من دون أن تدوّن الشهادة. وأنت تعلمين أنّهم في هذه الظروف لا يملكون لا الرغبة ولا الوسائل للتثبت من الأمر. هيّا، ناوليني أوراقك، سآتيك بشهادة الميلاد!

وسارت الأمور كما توقّع. فأمام هذا السيّد العجوز المهذّب الذي مضى ينظر إلى موظّفة البلدية بعينين متضرّعتين كما لو أنّها الربّ سبحانه، رقّ قلبها له. ثمّ إنّه يتحدّث فرنسيّة من السوء بحيث لم تفهم شيئاً ممّا يقول، وهي لن تضيّع معه الصباح بكامله طبعاً! فهذا اليوم ليس كبقية الأيّام، ولن يضير الإدارة في شيء إن هي استغنت عن هذه الشهادة!

ـ حسناً، لننظر في أوراق الهوية بما أنّك لم تأت بسواها. الاسم: سلمى، زوجة أمير راجا بادالبور.

وبينما مضت تسجّل بخطّ أنيق أمير ظانّة أنّه الاسم العائلي، حبس زينيل أنفاسه.

ـ ممتاز! والآن: ما معنى راجا بادالبور؟ ما مهنة الأب؟ ما معنى راجا؟

تردّد زينيل: لو يقول لها معناه: ملك، ستعدّه عجوزاً معتوهاً.

فقالت الموظّفة بنفاد صبر:

ـ هيّا! لا بدّ أن لديه مهنة. أهو تاجر؟

فردّ زينيل مؤيّداً:

ـ بالضبط، تاجر.

وبينما مضت الموظفة تكتب بإتقان، خفض الخصي رأسه. شعر كما لو أنّه خان الراجا خيّانة أكبر من إخباره بأنّ الجنين ولد ميّتاً. وهو لا يجرؤ حتّى على تخيّل ردّ فعل أميرته.

ولدهشته وجدت سلمى الأمر مسليّاً خلافاً لما توقّع. وقالت وهي تقهقه:

ـ إن علم أمير بذلك يوماً، سيشنقك.

لكنّها أضافت وقد لاحظت الشحوب على وجهه:

ـ لا عليك، فبمثل شهادة الميلاد هذه، لن يتخيّل أحد قطّ أنّ هذه الطفلة ابنته! وهذا هو المهمّ.

بعد المخاوف التي انتابتها في الأيام الأخيرة، راق مزاجها، وبدأت الأمور تتحسّن. تركت الصغيرة مع زينيل، وخرجت للتنزّه قليلاً.

ولكي تتفادى ميدان الأوبرا الذي صار ميداناً ألمانياً بلافتاته الجديدة التي تشير إلى «كابوسين ستراس» و«كونكورد بلاتز»، مشت في الشوارع الجانبية. لكنّها سرعان ما تنبّهت إلى أنّ معظم سكان باريس لا يرهقون أنفسهم بمثل هذه الاحتياطات. فكثير من الناس يتجمّعون بحماس حول الجنود الألمان الذين يتشمسون على أرصفة المقاهي. فاقتربت منهم عساها تعرف فيم يتحدّثون. كان ثمّة شابان أشقران فارعان، حليقان يبتسمان للفضوليين من المارّة.

ـ لا تخشوا شيئاً. فنحن لن نؤذيكم. لقد خذلكم الإنجليز الذين جرّوكم إلى حرب خاسرة سلفاً. لكن هذا كلّه سينتهي بسرعة. هل أنتنّ راغبات في رؤية أزواجكنّ أيّتها السيدات؟ نحن أيضاً متشوّقون إلى العودة إلى بيوتنا، ولقاء نسائنا!

كان الناس مذهولين، لكنّهم بدأوا يشعرون بالارتياح مع ذلك. فهؤلاء الألمان ودودون، وليسوا همجاً كما كان متوقّعاً، يحرقون المدينة ويقتلون أهلها. إنّهم جنود مهذّبون، وحين لا يكونون في الخدمة، يتجوّلون كسوّاح وقد تأبّطوا آلات التصوير، ويُقبلون على المتاجر لشراء ما بها من سلع كجوارب الحرير والعطور... فيدفعون أثمنتها كاملة غير منقوصة.

كان الجوّ جميلاً، فواصلت سلمى السير إلى أن بلغت حديقة التويلري. كان الناس جالسين في الشمس وهم يتحدّثون بينما تعزف فرقة موسيقية عسكريّة على بعد خمسين متراً منهم تقريباً سمفونية بيتهوفن

الخامسة. وهم إن كانوا يتظاهرون بعدم رؤيتها، فإنّهم يصيخون السمع لعزفها، ويعلّقون: «الحقّ يقال، لهؤلاء الناس حسّ موسيقي مرهف!»، وقد أذاعت الإذاعة قبل ذلك بلحظات تصريحاً للمارشال بيتان دعا فيه إلى وقف القتال، وقال إنّ هدنةً ستُوقَّع. وإذا كان بعض الناس أجهشوا بالبكاء، فذلك من الفرح أكثر ممّا هو من الخزي.

ـ حمداً لله، لقد وضعت الحرب أوزارها! ما كان عليهم أن يشنّوها أصلاً. المسؤول عن هذا الوضع الذي وصلنا إليه هي هذه الحكومة المتعفّنة ودعايتها الكاذبة!

ـ كانوا يصوّرون لنا الجيوش الألمانية في الأسمال، ينقصهم كلّ شيء! بالله عليكم هل رأيتم جنوداً أجمل منهم؟

ـ كانوا يقولون: لا تخشوا شيئاً، فليس ثمّة من خطر! لكن حين انقلب الوضع، لاذوا بالفرار كاللصوص، وتركونا نواجه مصيرنا لوحدنا.

جعلتهم المرارة التي شعروا بها جرّاء خيانة قادتهم ينظرون إلى الغازي بعدائية أقلّ. بل لم يتوان الألمان في استغلال هذه الخيبة، إذ امتلأت الجدران بملصقات كتب عليها: «أيّتها الجماهير، إذا كان قادتكم قد تخلوا عنكم، فضعوا ثقتكم في الجيش الألماني»، ومضت الإذاعة تبثّ أخباراً مُطمئنة: «السلطات الألمانية تحرص على ألا ينقص الباريسيين شيء».

راحت سلمى تذرع المماشي شاردة. وعادت بها الذاكرة إلى مدينة أخرى محتلّة، وشعب مكلوم. إلى هؤلاء الرجال والنساء الذين كانوا يخادعون مراقبة المحتلّ ويلتحقون بجنرال شابّ في الطرف الآخر من البلد رفض الهدنة، ودعا الشعب إلى الكفاح. فهل ستعثر فرنسا على شخص كمصطفى كمال؟

وعندما عادت، باغتت صاحب الفندق وزوجته يتجادلان. لعلّهما كانا يتحدّثان عنها، إذ صمتا بمجرّد ما أبصراها. وهزّت المرأة كتفيها ثمّ توجّهت إلى المطبخ.

وفي صباح اليوم الموالي، اقترب صاحب الفندق من سلمى وقال:

ـ أشعر بكثير من الحرج، ولكن لا بدّ من أن أخبرك... طلبت منّي زوجتي أن أصرّح بك لدى سلطات الاحتلال الإدارية.

ـ سلطات الاحتلال الإدارية؟...

ـ أعلنوا أنّ على كلّ من يؤوي أجانب أن يصرّح بهم، وإلا تعرّض لعقوبات خطيرة. يضاف إلى هذا أنّك إنجليزية، ومن ثمّة...

لقد فهمت. بالأمس كانت الحليفة، أمّا اليوم، بعد أن استسلمت فرنسا واستمرّت إنجلترا تقاتل، صارت... العدوّة.

ـ وأجبتُها بأنّنا يمكن أن نحتفظ بك، ونستطيع إخفاءك إن جاء المراقبون، لكنّها رفضت. أنا أعرفها جيّداً. هي في حالة من الخوف بحيث تستطيع الذهاب للوشاية بك!

كان الرجل يتصبّب عرقاً، وأشاح عنها بنظره.

ـ من الأفضل أن ترحلي.

وشعرت سلمى كما لو أنّ شرايينها جفّت من الدم. كادت تفقد توازنها، فاستندت إلى أحد الكراسي، وقالت:

ـ ولكن إلى أين سأذهب؟

وتنفّس صاحب الفندق الصعداء، إذ كان يخشى أن تواجهه بالهرج والمرج. وكان قد جهّز حلاً يقترحه عليها. ذلك أنّ الناس تجد دائماً حلولاً لمشاكل الآخرين.

ـ اتركي وسط المدينة، فهو غاص بالبوش! توجّهي صوب الشمال، نحو بيغال أو كليشي... ستعثرين هناك على فنادق صغيرة لا يدقّق أصحابها في هويّة الزبائن، ولا يطرحون كثيراً من الأسئلة.

غيّرت سلمى مسكنها ثلاث مرّات في غضون شهر واحد. حيثما ذهبت لم تكن تشعر بالأمان. وكانت تتملّكها الرعشة بمجرّد أن يحدّق

فيها أحدهم، وصارت ترى في كلّ مكان أناساً مستعدّين للوشاية بها مع أنّها تؤدّي إيجار الغرفتين بضعف الثمن المعلن. «هذا أمر طبيعي. نحن نخاطر. إنّما نفعل ذلك من أجل الرضيع». ولكن من يضمن ألا تشي بها خادمة الفندق أو الجار الذي يشغل الغرفة المحاذية... لا سيما أن الألمان يعرضون مكافآت سخيّة على كلّ من بلّغ عن شخص مشبوه. وبما أنّها إنجليزية، أليست على رأس قائمة المشبوهين؟

وتحوّلت هواجسها إلى ذعر لمّا علمت بأنّهم يوقفون كلّ المواطنين البريطانيين، ويبعثون بهم إلى معسكرات الاعتقال. وتتخيّل الأسلاك الشائكة والأُسر المشتّتة والأطفال المفصولين عن أمّهاتهم... فتضمّ ابنتها إلى صدرها، وتقول في نفسها: لن أتركهم يأخذونها منّي أبداً، سأكافح بكلّ ما أوتيت من قوّة.

وفي أجواء الحذر والوشاية هذه، ضاعف جمالها ولباسها ومظهرها المختلف، الذي كان مزيّة في يوم من الأيّام، من حدّة الخطر عليها. فمهما تحاول أن تبدو «مثل الآخرين»، لا تنجح في عدم لفت الأنظار إليها. وذات يوم عاكسها رجل، فأوقفته عند حدّه، فما كان منه إلا أن بادرها حانقاً:

ـ أراك تتغطرسين! ما رأيك في أن أذهب إلى الألمان وأخبرهم بحقيقتك؟ لا أخالك ستحافظين على هذه الغطرسة!

لم تشأ سلمى أن تخاطر، فأرسلت زينيل ليدفع الحساب، ثمّ لفّت ابنتها في وشاح وغادرت الفندق بعد نصف ساعة. وانتهى بهم المطاف في منزل متداع بشارع الشهداء، دلّوها عليه لأنّ صاحبته تقبل إيواء الأجانب مهما كانت جنسياتهم طالما يدفعون. فلمّا رأت سلمى بؤس الغرف وقذارتها، فهمت: لا يقبل العيش في منزل حقير كهذا إلا من اضطرته الظروف، لا سيما أنّ صاحبته، وهي عجوز بدينة وبذيئة، لا تستحي من أن تطلب نفس إيجار فندق محترم. ولماذا تستحي؟ فالقاطنون يدفعون لأنّ المكان آمن، لا تطؤه أقدام الشرطة أبداً. والأمر

نفسه بالنسبة للجنود الألمان الذين لا تعنيهم زيارة هذه الأحياء النتنة الصاخبة. فهم لا يعبرونها إلا ليلاً على متن سياراتهم مارّين إلى أماكن التسلية مثل بيغال وبلاس بلونش. فالملاهي ودور العروض الراقصة قلّما حققت أرباحاً مماثلة، سواء تعلّق الأمر بـ«إيف» أو «طاباران» أو «كابيريت مايول» التي تغصّ بالضباط الألمان والفتيات. ذلك أنّ باريس ظلّت وفيّة لسمعتها كـ«عاصمة للمتعة»، توفّر الملذات لرجال الإدارة المدنية والعسكرية الذين استقرّوا فيها، وكذا للعدد الكبير من الجنود الذين يقصدونها لقضاء إجازاتهم.

أمّا الأماكن الراقية مثل ملهى مونسينيور بشارع أمستردام، أو ليغلون أو شانزليزيه، وكذلك المطاعم الفاخرة من قبيل ماكسيمس ولوفوكيتس، حيث كانت تلتقي صفوة المجتمع الباريسي، فصارت موقوفة على الضباط السامين. لكن كانت ترتادها أيضاً كثير من الشخصيات المرموقة في عالم المسرح والصحافة، إذ عاد معظمهم منذ بداية شهر يوليو/ تموز: فالحياة ينبغي أن تستمرّ، والفن لا حدود له! وهكذا رقص سيرج ليفار رقصة جزيل مع إيفيت شوفيري على خشبة الأوبرا، وأحرز موريس شوفاليي وميستانغيت نجاحاً باهراً في كازينو باري، وأعاد ساشا غيتري فتح مسرح مادلين.

لم تعد سلمى تغامر بالتجوّل في هذه الأحياء الجميلة مخافة أن يتبّثت أحد رجال البوليس من أوراق هويتها. لكن الرغبة تلحّ عليها أحياناً، فتجازف بالذهاب إلى هناك، لا لشيء إلا لكي تستمتع بشرب قهوة بين أناس أنيقين ومبتهجين، وتنسى قليلاً شارع الشهداء.

وفي أحد الأيام تملّك سلمى رعب شديد، إذ بينما كانت جالسة في قاعة الشاي، إذا بالممثلة أنابيلا، التي تعرفها حقّ المعرفة لأنّها تعشت معها مراراً، تدخل. التقت نظراتهما للحظة قصيرة، ثمّ أشاحت الممثلة بوجهها. لكنّها تظاهرت بعد لحظات بأنّها ذاهبة لتسوية شعرها، وحين مرّت بمحاذاة مائدة سلمى، همست لها من دون أن يفطن بها أحد:

ـ أجننت؟ المكان غاصّ بالجواسيس، انصرفي حالاً!

لو كانت بمفردها لما صمدت ربّما لهذه الإثارة التي تنتابها وهي تتحدّى الخطر. لكنّها لا تستطيع أن تسمح لنفسها بذلك: فماذا سيكون مصير ابنتها إن ألقي عليها القبض؟

لم ينل الترحال من فندق إلى آخر، والمقام في هذه الغرفة الحقيرة شيئاً من مرح رضيعتها التي تتحوّل شيئاً فشيئاً إلى طفلة فاتنة. كلّما عادت من الخارج، جرت إليها مترنّحة وهي تردّد: «ماما! ماما!» وتثغثغ، فتنسى سلمى كلّ الهموم والأحزان. لم تتوقع أن تشعر يوماً بغريزة الأمومة هذه، ولم تتخيّل أنّها ستتعلق كلّ هذا التعلق بهذه المخلوقة الصغيرة. لقد صارت جزءاً منها، يربطهما رابط عضوي هو من القوّة بحيث إنّها حين تضمّها بين ذراعيها وتغمض عينيها، تحسّ كما لو أن الطفلة تتكوّم من جديد في بطنها، كما لو أنّهما تنصهران في كائن واحد.

تشعر في هذه اللحظات بسلام كامل وإحساس عميق بالانتماء. وتحسّ بقوة تنمو بداخلها على أنقاض تردّدها القديم، قوّة تجعلها قادرة على مواجهة العالم بأسره.

واكتشفت أنّ الحياة تتمثّل في هذه الطفلة التي تترسخ في الحاضر، والتي لم تملك بعد ماضياً تبرّر به وضعها، ولا مستقبلاً تطمئنّ إليه. هل تستطيع أن تجنّبها أخطاءها، وتعلّمها أنّ رهان السعادة لا يكسبه إلا من يرضى بالتيه؟

ـ ستؤذين صحة أميرتنا الصغيرة، فوقت الرضاعة قد فات منذ مدة طويلة!

لم يعد زينيل يكفّ عن اللوم والعتاب. فمنذ ميلاد الطفلة، تحوّل إلى مربّية حقيقية، لا يضاهى في تقميط الرضيعة وإطعامها. وقد لاحظت سلمى، بنوع من التذمر، بأنّها غالباً ما تفرح به أكثر من فرحها بأمّها.

وهي إن كانت تأخّرت عن ابنتها، فلأنّها قضت من الظهر إلى

المغرب تنتظر في الطابور لتحصل على نصف لتر من الحليب، والأدهى من ذلك أنّها اشترته بخمسة أضعاف ثمنه، إذ واجهتها بائعة اللبن بنبرة فظة قائلة: «خذيه أو اتركيه».

نصّب التجار أنفسهم ملوكاً على شعب يحني رأسه ويذعن، مستعدّ من أجل قطعة زبدة أو رطل سكر أن يتحمّل كلّ الإهانات. ذلك أنّ كلّ السلع نفدت تقريباً من الأسواق، والمحتل يداهم مخازن التموين كلّ صباح. هذا فضلاً عن أنّ باريس لم تعد تُزوّد كالمعتاد بعد أن شُطرت فرنسا إلى شطرين. بل إنّ السلطات بدأت تهيّئ بطاقات التموين. وسلمى تتساءل بقلق كم من الوقت تستطيع أن تصمد بما أنّها أجنبية ولا يحقّ لها أن تحصل على بطاقة.

لقد نفد المال الذي حصلت عليه من بيع مجوهراتها، واضطرّت إلى بيع لآلئها، ولم يتبقّ لها غير خاتم الزمرد. لذلك سترسل زينيل في يوم غد إلى الصائغ بشارع كادي، لعلّها تحصل على قدر من المال يسد نفقاتها لشهرين. لكن كيف سيكون مصيرهم بعد ذلك؟ لو كانت بمفردها، لاستطاعت أن تحرم نفسها، وحتّى زينيل لا شهيّة له. والبنت؟ ويشق عليها أن تتصورها تعاني.

قيل لها إنّ سفارة سويسرا تتكفّل بالأجانب الذين يعيشون ظروفاً صعبة، لكنّها لم تجرؤ على المغامرة بزيارتها مخافة أن يكون الألمان يراقبون من يتردّدون عليها، فيعتقلونها.

منذ أن ولدت الطفلة ـ التي يعتقد الأب أنّها ولدت ميّتة ـ لم يصل إلى سلمى أيّ خبر عمّا يجري في الهند. تتذكّر أحياناً قصر لوكنو الآهل بنساء كنّ يحطنها بعنايتهنّ الصاخبة، كمّا تتذكر قرية أوجبال، وبسمات نسائها المزارعات الودودات. وهي لا تأسف على شيء، لكنّها لا تستطيع أن تقاوم بعض الحنين، حنين أشبه بذاك الذي يشعر به المرء نحو مراهقته، حتى وإن لم تكن سعيدة...

وتتساءل أحياناً عمّا فعلت الأيّام بأمير. الآن بعد أن لم تعد مضطرة

لطرد صورة سلمى التي كان أمير يريدها أن تجسّدها، بدأت تفكّر فيه بنوع من الحنان. لقد حاولا عبثاً أن يلتقيا خلال هاتين السنتين. ودّت لو تحبّ هذا الكائن الذي استهواها، والذي آذى مع ذلك مشاعرها الدفينة. تنبّهت الآن إلى أنّه هو أيضاً كان يحاول أن يفهمها، ويكبح ردود أفعال موروثة من نظام ضارب في القدم لا وجود فيه للمرأة إلا لخدمة الرجل. كثيراً ما كان كلّ منهما يحاول الاقتراب من الآخر، لكن الهوّة بينهما كانت سحيقة. والجهود التي كان يبذلها أمير لهدم تلك الهوّة، والأغصان التي كان يمدّها لها لتعبر إليه، كانت في نظر سلمى واهية. وهي تقدّر الآن ما قد تكون ألحقت به من جراح. لم يستطع كلّ منهما، بسبب الكبرياء وانعدام الثقة، أن يرى اليد التي يمدّها له الآخر. كان عالماهما متباينين مع أنّهما يتشابهان كثيراً...

بعد أيام، وبينما كانت سلمى مارّة أمام الكونتوار الذي تجلس إليه صاحبة الفندق السيدة إميلي، سألتها وهي تحدجها بنظرات مرتابة:

- أأنت يهودية؟

فردّت سلمى بارتباك:

- كلا، لماذا؟

- من حسن حظّك. لقد أخبروني بأنّهم سيأتون بعد ربع ساعة. ألم تسمعي بأعمال التخريب التي وقعت في الشانزليزيه؟

وراحت تصف لها وقد اتّقدت عيناها ببريق أشبه بما يُرى في أعين من يتلذذون بمصائب الآخرين - لا لأنّهم أعداؤهم، بل لأنّهم ببساطة «الآخرون» - بأنّ جماعة من الشباب ساروا في الشارع من «النجمة» إلى ملتقى الطرق وهم يصرخون «سحقاً لليهود!»، وكسروا واجهات كلّ المتاجر التي في ملكهم. ومضت تذكر بانتشاء واضح أسماء مرموقة: سيدريك، فانينا، برانسفيك، كما لو أنّها تستعرض أسماء مجرمين خطرين!

وتمالكت سلمى نفسها من أن تظهر على وجهها علامات الامتعاض. فهي لا تفهم سبب كلّ هذا الحقد. ذلك أنّ اليهود في تركيا لم يكن بينهم وبين سائر المواطنين أيّ فرق. وكان الناس يقدّرونهم لاجتهادهم وذكائهم. لكنّها تعرّفت من نبرة هذه العجوز على الحملة الشنيعة التي تشنّها بعض الصحف ضدّهم.

فقد ظهرت هذه الجرائد من جديد في باريس المحتلّة، إمّا بدافع المصلحة وإما مجاراة لميول السادة الجدد. تُلقي سلمى أحياناً نظرة على جريدة «الصباح» التي تجدها في الفندق، لا بحثاً عن أخبار السياسة، فهي لا تقدّم إلا القليل منها، بل لأنّها تعلن عن مواعيد تزويد السوق بالبيض والبطاطس والقهوة، وهي كلّها مؤن صار من الصعب العثور عليها.

وقد لاحظت أنّ هذه الجريدة بدأت تشنّ حملة ضارية ضدّ لليهود، واصفة سكّان حيّ ماري وما فيه من «رجال ملتحين يلبسون معاطف طويلة قذرة، وأطفال يلعبون في المجاري بقشور الخضر والفواكه، بجباههم الواطئة، وأنوفهم الطويلة، وشعورهم المجعّدة، وتجّار يبيعون السلع بهامش ربح يصل إلى ٨٠٪...»، وخلصت الجريدة بامتعاض إلى أنّ «جميع من في الحي يهود. فكيف لمن يدّعون النضال من أجل حفظ الصحة أن يتركوا هذه اللطخة المقزّزة في قلب باريس؟».

ويعلن صحافيّ آخر من منظور سياسي أنّ اليهود هم السبب في كلّ المصائب التي حلّت بفرنسا: «هم من كانوا في سنة ١٩٣٦ خلف القوانين المسمّاة اجتماعية التي أفسدت العلاقة بين المشغّلين والشغّالين، وقادت إلى الإفلاس والبطالة».

وبدأت بعض المتاجر تضع لافتات كُتب عليها: «هذا المتجر لا يستقبل اليهود»، وهو إجراء الغاية منه الإهانة في المقام الأوّل، لأنّ صاحب المتجر لا يمكن أن يطلب أوراق الهوية من كلّ مرتادي متجره. عدا أنّه في السابع والعشرين من سبتمبر/ أيلول، أقدمت السلطات

الألمانية على أوّل خطوة حاسمة، إذ أصدرت أمراً يجبر كلّ يهوديّ على التوجّه إلى الإدارة لتدوين اسمه في سجلّ خاص.

قالت شارلوت بنبرتها الحاسمة المألوفة:

ـ ليأمروا بما شاءوا، لن أذهب إليهم!

كانت شارلوت خياطة لدى ماغي روف، وهي تستأجر غرفة في فندق شارع الشهداء. كانت شديدة الإعجاب بأناقة سلمى. وقد استوثقت الصداقة بين المرأتين منذ أن أعلنت شارلوت بعد أن تفحّصت سلمى من رأسها إلى قدميها: «هذا الفستان أنا من خطته!» ثمّ جثت على ركبتيها أمام الأميرة المشدوهة، وقلبت ثنية الثوب وقالت بوثوق: «نعم، أنا من خطته. كان رئيس المعمل يقول إنّني الوحيدة القادرة على القيام بمثل هذه الغرز الصغيرة!»، وتطلّقت أساريرها زهواً.

بعد ذلك عهدت لها سلمى بعدد من فساتين السهرة، وطلبت منها بيعها، وهو ما قامت به خير قيّام. وبما أنّها كانت ترفض أيّ مقابل، كانت سلمى تدعوها أحياناً إلى العشاء، فتحكي لها الشابة بمرح طفلة باريسية عن نمائم وفضائح عالم لم تعد هي نفسها ترتاده. وهي مدينة لها على الخصوص بالتنازل لها عن قسائم الحليب منذ أن شرع العمل ببطاقات التموين. قالت لها:

ـ أنا لا أتناول الحليب، فهو يسّبب لي آلاماً في القلب.

قرّرت شارلوت إذن ألا تتسجّل. «كيف لهم أن يعرفوا؟ فأنا أحمل اسماً فرنسياً. أمّا الباقي، فمن حسن حظّي أنّني امرأة!»، ومضت تضحك مسرورة من هذه الدعابة.

وما كادت تمرّ ثلاثة أسابيع حتّى أصدرت حكومة فيشي قانوناً يحدّد «وضع اليهود»، يحظر عليهم «لدواع تتعلّق بالأمن القومي» العمل في الوظيفة العمومية والمحاماة وتولّي القضاء والعمل في الجيش والتدريس

والصحافة المكتوبة والمسموعة، والتمثيل في السينما والمسرح والصيدلة، بل حتى طبّ الأسنان...

قالت شارلوت لسلمى:

ـ أرأيتم كم كنت محقّة، لا لأنّني أطمع في أن أصير وزيرة، ولكن، لماذا يعاملوننا كما لو كنّا مصابين بالطاعون؟

في ذلك اليوم أعلنت السيدة إميلي من خلف الكونتوار العالي، بنبرة فرنسية فخّة:

ـ لا داعي للتبرّم، فالمارشال رجل عظيم!

واغتنمت الفرصة لترفع من إيجار الأسرتين اليهوديتين اللتين كانتا مستقرتين في الفندق. لكنّها لم تطلب شيئاً من شارلوت. ألأنها تجهل أصلها اليهودي؟ هذا أمر مستبعد، فهي تعرف كلّ شيء عن جميع النزلاء، أم لأنّها قدّرت أن ذلك لا يجدي شيئاً بما أنّ الشابة ليس لها مورد آخر غير راتبها، وهو لا يكاد يكفيها للبقاء على قيد الحياة؟

قالت سلمى في نفسها: «الواقع أنّني أسأت الحكم عليها!».

وفعلاً، لم تكد تمضي بضعة أيّام حتى جاء شرطيان وألقوا القبض على شارلوت التي مضت تتخبّط وتصرخ أمام نزلاء الفندق الذين تسمروا من الهلع:

ـ لا بدّ أنكما مخطئان! أنا فرنسية!

فردّا مستهزئين وهما يجرّانها بالقوّة:

ـ ستشرحين لنا هذا في المفوضيّة.

لكن شارلوت تمكّنت من أن تهمس لسلمى قبل أن يخرجاها:

ـ احذري العجوز!

لم يظهر لشارلوت أثر منذ ذلك اليوم، لكنّ صاحبة الفندق ظهرت في اليوم الموالي في فستان جديد وعلامات الرضا بادية عليها.

عندما كانت سلمى ما تزال تملك بعض المال، تتوق نفسها أحياناً إلى تغيير الأجواء، فتتوجّه إلى ملهى لابوت أو الأرنب الرشيق حيث تقضي السهرة. تنصت هناك لـ«فريدي» وهو يعزف على القيثارة ويغني أغاني شعبية قديمة، وتتسلّى برؤية أولئك الرواد المرحين البوهيميين. لكن ما كانت تبحث عنه في الحقيقة هي صورة هارفي وذكرى السهرات التي قضياها معاً هناك.

تعرّفت في الآونة الأخيرة على جماعة من الشباب استقبلوها بحفاوة بينهم... وهي جماعة تضمّ إسبانيين هربوا من ديكتاتورية فرانكو، وتشيكيين وبولونيين لجأوا كلّهم إلى فرنسا، وفوجئوا بوصول الألمان.

كانوا منبسطين وودودين، والقاعدة الوحيدة التي يحرصون عليها هي السرّية. فلا أحد يسأل الآخر في هذا الوسط المشبوه حيث تظهر كلّ يوم وجوه جديدة وتختفي أخرى. وكان من الطبيعي أن تكون الأسماء مستعارة. مِمّ يعيشون؟ من المتاجرة في بعض الأشياء الصغيرة الممنوعة. وقد لاحظت سلمى مدى شطارتهم، لا سيما بعد أن تدبّروا لها، بعدما تأكّدوا من نزاهتها، بطائق تموين مزوّرة، وتوسّطوا لها لكي تبيع رداءها الطويل الأبيض بثمن مناسب، وكذلك بعض حقائب «هرمس» وما يقارب عشرين حذاء. وهي كلّها سلع مطلوبة لأنّ الجلد صار مفقوداً من الأسواق.

لم يكونوا يخوضون في السياسة أبداً، لكنّها لاحظت أنّهم يعرفون أشياء كثيرة قبل أن يعلم بها غيرهم، من قبيل مظاهرة الحادي عشر من نوفمبر/ تشرين الثاني أمام قوس النصر، التي أطلق فيها الجنود الألمان النار على الطلبة.. وقد حدث لها مرّة أو مرّتين أن باغتتهم يتحدّثون بأحاديث غريبة، وتساءلت عمّا إذا لم يكن هؤلاء الأولاد المندفعون، الذين يبدون كما لو أنّ كلّ همّهم هو أن يكسبوا قليلاً من المال ويتسلّوا، على صلة بالمقاومة التي يتردّد أنّها بدأت تنتظم.

ويلتقي أعضاء المجموعة أحياناً ليرقصوا في قبو أعدّوه لهذا الغرض، بحيث يسدّون منافذه حتّى لا يتسرّب الضوء والصوت إلى الخارج. كانوا

يخاطرون بأنفسهم، لأنّ السلطات تمنع ذلك. ومع أنّ منع التجوال يبدأ في الثانية عشرة ليلاً، فإنّهم كانوا يرقصون حتّى الفجر بحماس متّقد لا يوازيه إلا شكّهم في أن يظلّوا أحراراً في اليوم الموالي.

لمّا عادت سلمى عند الفجر للمرّة الأولى، وجدت زينيل جالساً على كرسيّ وقد ارتدى ملابس الخروج. ذلك أنّه لم ينم طول الليل من شدّة القلق. نظر إليها من دون أن ينطق، وكانت تلك هي أبلغ طريقة لديه للتعبير عن استنكاره. جلست بجانبه مرتبكة وقالت:

ـ افهمني يا آغا. أنا أشعر بالاختناق في هذه الغرفة. خلال النهار، تبعث الطفلة في نفسي فرحاً ينسيني كلّ همومنا، لكن حين تنام في الليل، وأجد نفسي وحيدة في هذا الجُحر القذر، تنتابني أفكار سوداويّة، ويجفوني النوم.

رفع زينيل يد سلمى إلى شفتيه، وقال:

ـ اعذريني يا أميرة. يا لي من عجوز أناني! أنت ما زلت في ميعة الشباب، وهذه الحياة قاسيّة عليك، وتحتاجين إلى أن تتسلّي قليلاً... أنت تعلمين بأنّني مستعدّ للتضحية بحياتي من أجل أن تسعدي، لكن...

ويضيف وقد تهدّج صوته وترقرقت الدموع في عينيه:

ـ أخشى... أن يصيبك مكروه. كيف سيكون مصير ابنتنا الصغيرة حينئذ؟

ولكي تطمئنه، راحت تضحك، وقالت:

ـ لا خطر عليّ. فأنا أبالغ في الحذر!

لكنّها تعلم أنّه محقّ. باعدت بين خرجاتها، وطلبت منه أن يساعدها في كساء الجدران بالقماش، ووضع أثواب الساري على النوافذ للتخفيف من الضوء، بحيث أضفت هذه الأثواب الحريريّة الملوّنة على الغرفة طابعاً غجرياً بهيجاً، وصارت تشعر بنفسها أفضل منذئذ.

وحين علّقت صاحبة الفندق بخبث بأنّ «هذه الكمّيّة الكبيرة من

الأثواب تهدر بينما لا يجد كثير من الناس ما يسترون به أجسادهم» أجابها زينيل بأنّه «لا يحقّ لأحد أن يحاسب الأميرة». وقد كان يصرّ على أن يناديها بـ«الأميرة» رغم اعتراض سلمى التي كانت تخشى من أن يتسبّب هذا اللقب في رفع ثمن الإيجار أكثر.

وقال موضّحاً:

ـ أنت لا تفهمين شيئاً من أمر هؤلاء. ينبغي التكبر عليهم وإلا سحقوك.

وقد كان محقاً. فالعجوز بعد أن أيقنت أنّ سلمى نفد مالها، لم تحافظ على ثمن الإيجار كما هو فحسب، بل كانت تجاملها بخلاف باقي المستأجرين الذين كانت تقسو عليهم، وتلمّح وقد ارتسمت على وجهها ابتسامة عريضة إلى أنّه حين تعود الحياة إلى مجراها الطبيعي أنه «ستتذكر السيدة ربّما كلّ التضحيات التي قدّمتُ من أجلها». ورغم انزعاج سلمى، تؤمّن على قولها، وتعدها بأن تجزل مكافأتها، وتتمالك نفسها من أن تسألها أيّ تضحيات تقصد؟ اللهم إذا كانت تعتبر عدم شتمها تضحية عظيمة...

صار التموين أصعب فأصعب رغم البطاقات المزيفة. واختفت السلع من الأسواق باستثناء السوق السوداء، حيث يجد المرء كلّ ما يحتاج إليه، ولكن بأثمان باهظة. وكانت سلمى تشتري منه الأشياء الضرورية للطفلة، بينما تكتفي هي وزينيل بحرشف القدس واللفت الأصفر. وحتى البطاطا صارت بذخاً بحيث أخذت الجرائد تعلن عنها قبل وصولها بثلاثة أسابيع. وكان للفرد الحقّ في ثمانية وعشرين غراماً من اللحم، وخمسين غراماً من الخبز الأسود اليابس في اليوم، ورطل من السكر في الشهر بينما صارت القهوة ذكرى بعيدة. لكن لا بأس! فالجرائد تقدّم وصفات لإعداد قهوة «لذيذة» من الشعير المحمّص أو من البلوط. أما التبغ، وقد كان زينيل من كبار مستهلكيه، فاستعيض عنه بشعر الذرة.

وقد حرص الخصي على أن يتكفّل بجلب هذه الحصص الغذائية التافهة، إذ كان عليه أن يقف في الطابور طيلة اليوم. كان يقول إنّ هذا

دوره وليس دور الأميرة. ورغم البؤس ظلّ يلحّ على هذه التفاصيل التي تعود لزمن مضى، وانتهى الأمر بسلمى أن أذعنت بعد أن شعرت بأنّه يتمسّك بقيم هو بحاجة إليها حاجته إلى الهواء. ما لم يقله لها هو أنّه كان قلقاً عليها. صحيح أنها لم تكن في يوم من الأيّام سمينة، لكنّها الآن من النحول بحيث يمكن أن تسقطها هبّة ريح خفيفة. وكثيراً ما تنتابها وهي تسير في الشارع وعكة مفاجئة، فيتجمّع الناس حولها مستغربين كيف تعاني امرأة في أناقتها من الجوع. لكنّها لم تكن تتألّم في الواقع من ذلك. فمع مرور الأيام، تعتاد المعدة على قلة الطعام. على أنّ ما لم تكن تتحمّله هو البرد. فشتاء سنة ١٩٤٠ هذه رهيب. والناس يرتعشون في الخارج، لكنّهم مع غياب الفحم يرتعشون داخل بيوتهم أيضاً. وسلمى لا تستطيع حتّى فتح النوافذ لتهوية الغرفة لأنّها التصقت بسبب الجليد. وذات صباح وجدت عصفورها ميّتاً في قفصه، فلم تستطع أن تتمالك نفسها وأجهشت بالبكاء. شعرت كما لو أنّ شيئاً من هارفي اختفى باختفائه... وحاولت عبثاً أن تطرد من ذهنها أنّه فأل نحس. ذلك أنّ الشرقيين يعيرون الانتباه لهذه الإشارات...

لم يفهم زينيل كلّ هذا الحزن من أجل عصفور. لكنّه قلق في المقابل على الطفلة الصغيرة. فهي في هذا السن ما تزال ضعيفة! هكذا اعتادت سلمى على الخلود إلى فراشها بكامل لباسها ضامّة إليها الطفلة وقد ركبها الفزع من فكرة أن تصاب بأذى. فهي إن كانت تحرم نفسها من أجل أن تغذيها على نحو مقبول، فماذا عساها تفعل ضدّ هذا البرد الرطب الذي ينفذ إلى العظام؟ لا سيما أنّ «المرسى الكبير» كلّفها آخر معطف فرو كان عندها...

لما أغرق الطيران البريطاني نصف الأسطول الفرنسي الراسي في الجزائر حتّى لا يسقط في يد الألمان، شعر أنصار المارشال بيتان، ومعظم الباريسيين منهم، باستياء عميق.

منذئذ لم تعد السيدة إميلي تدع فرصة من دون أن تهاجم «هؤلاء

الخونة الإنجليز». وصارت ترشق سلمى بنظرات حاقدة، لذلك أوصت زينيل بمجاملتها، وذلك بأن يقدّم لها هدايا صغيرة من قبيل وشاح منسوج يدوياً أو عقد لآلئ ملوّنة. ولم تكن تلك الهدايا البسيطة غير تلك التي صنعتها نساء بادالبور لأميرتهم، فحملتها معها في حقيبة كبيرة كما لو أنّها تحمل قطعة من تراب الهند. وحين تستعرض صاحبة الفندق أحياناً هذه الحلي غير المألوفة، ينقبض قلب سلمى، لكنّها تقول في نفسها إنّ صديقاتها هناك لا بدّ أن يتفهّمن وضعها.

واستمر الأمر على هذه الحال إلى أن حلّ ذلك الصباح البارد من صباحات أكتوبر/ تشرين الأول، إذ بينما كانت سلمى تهمّ بالخروج وقد تدثّرت بمعطف من الفرو، استوقفتها السيدة إميلي لتبادرها مجاملة وقد بدت على وجهها ضحكة مغتصبة:

ـ ما عهدت الإنجليزيات بهذه الأناقة!

كانت هذه هي المرّة الأولى التي تشير فيها صراحة إلى جنسيّة سلمى. كانت الإشارة واضحة كشفرة سكين. ومن دون أن تنبس، خلعت سلمى المعطف ومدّته لها، وعادت مسرعة إلى غرفتها حتى لا تسمع تشكّراتها المنافقة.

صارت تخرج الآن في جوّ تنخفض درجة حرارته إلى خمس عشرة درجة تحت الصفر بمعطف صوفي يصلح للجوّ المعتدل. وكان الحلّ هو أن تسرع في المشي، أو تجري، وهو ما لم تعد تقوى عليه. صارت تشعر في الأيام الأخيرة بإرهاق شديد... وتحسّ أحياناً بألم حادّ يمزق جنبها الأيمن، وهو ألم لا يدوم إلا بضع ثوانٍ، لكن هذه النوبات بدأت في الأسابيع الأخيرة تتقارب. وهي لم تخبر زينيل بذلك حتّى لا تزيده همّاً. ثمّ إن صحّته ساءت، وفقد وزنه الزائد وتغيّر مظهره. وقد كانت تدرك أنّ عليها أن تستشير الطبيب، وتتناول الأدوية اللازمة، على أنّ ذلك يكلّف غالياً، وهي لم تعد تملك ما يكفي من المال. بل إنّها كانت مقتنعة بأنّ حالتها يمكن أن تتحسّن لو تغذّت على نحو أفضل. لا بدّ أن

يكون هذا راجع إلى الزيت الفاسد الذي تستعمله في الطبخ، وهي تعلم أن كبدها كان دوماً واهناً.

وتشعر بدفق من الحنان، فتضمّ صغيرتها إليها وتقول: «الأمر ليس خطيراً، أليس كذلك يا حبيبتي؟ يكفيني أن تكوني أنت على ما يرام. فأنت أجمل طفلة في العالم. أمّك هي من تقول لك هذا، وهي لا تكذب... إلا نادراً! سترين عندما تنتهي الحرب كم سنكون سعيدتين معاً!». ووضعتها على ركبتيها ومضت تحرك قدميها بشكل منتظم كما لو أنّ الطفلة تركب حصاناً يخبّ، فتصرخ من الفرح لمّا تتسارع الحركات، وتغضب إذا ما أخذت في التباطؤ، فتقول لها: «الآنسة صاحبة مزاج! أنت على حقّ: لن أربيك لتكوني فتاة كلّ همها إرضاء الآخرين. من حقّك أن تكوني كما أنت، ولن تكوني بحاجة إلى تبرير أسلوب العيش الذي تختارينه. حين أفكّر في أمّك التي احتاجت إلى تسعة وعشرين عاماً لتفهم هذا...».

هل كانت ستفهم هذا لولا هارفي؟... هارفي... هارفي... الله يعلم ما إذا كانت تلومه في البداية على أنّه أجبرها على أن تكون حرّة، وكان يجيبها لمّا تطلب منه النصيحة بأنّ الأهداف والمقاصد تتساوى عند الإنسان متى عاش الحياة بعمق، وجعل المهمّ لديه ليس أن يصل، بل أن يمشي ويتعثّر، لأنّ التعثر يجبره على أن يضع نفسه موضع تساؤل. وكان يقول أيضاً إنّ المُثل توابيت تشلّنا وتعطّل بصرنا وسمعنا، وأنّ الأغبياء والضعفاء هم وحدهم من يعملون من أجل مَثَل أعلى ـ استعاروه من غيرهم أو صاغوه لأنفسهم ـ لأنّهم لا يملكون الشجاعة للوقوف من دون وصيّ. ثمّ يسترسل في الحديث عن السعادة التي لا تأتي من هذا الحدث أو ذاك، بل من قدرتنا على أن نعيش اللحظة مهما كانت. ذلك أننا نحن، ونحن فقط، من نضفي على الأشياء لون الحزن أو المرح.

«الآن فقط يمكن أن أقول إنّني فهمت معنى كلامه، وإنّني كنت بحاجة إلى الحرب والفقر والوحدة لأعثر على السعادة بداخلي. فأنا

سعيدة، ولم يسبق لي قطّ أن أحببت الحياة مثلما أحبّها الآن. وما من مرّة بدا لي العالم بهذا الإشراق رغم ضروب الحرمان والخوف!».

ومع ذلك، فمنذ موت العصفور، لازم سلمى شعور بأنّها لن تلتقي هارفي ثانية. هناك شيء ما يتهيّأ باستقلال عن إرادتيهما، ينذر بفراقهما إلى الأبد. لو أنّ هذه الفكرة راودتها قبل أسابيع فقط، لكانت شعرت باليأس والإحباط. أمّا اليوم، فهي تحسّ بنوع من السكينة. لم تعد تلك المرأة الضعيفة المعذّبة، بل صارت تلك التي قدّم لها هارفي أجمل هدية في الوجود: علّمها كيف تنسى نفسها وتحبّ.

ومضت تدور في الغرفة على نغمات مقطوعة موسيقية لشتراوس، منبعثة من المذياع، حاملة رضيعتها بين ذراعيها وهي تقول لها: «آه يا قرّة عيني! سترين كم هي الحياة جميلة! أنا الآن أعرف سرّها، وأعدك بأننا لن نكون تعيستين أبداً!».

وطوقت الصغيرة عنق أمّها بذراعيها وهي تضحك عالياً، بينما راحت سلمى تدور وتدور ببطء، ثمّ أسرع فأسرع إلى أن شرعت أزهار السجاد الحمراء يجري بعضها في إثر بعض كما لو أنّها ترقص رقصة صاخبة.

وفجأة شعرت بألم حادّ كما لو أنّ سكيناً انغرس في بطنها، فترنّحت. شعرت بالاختناق وودّت لو تصرخ... لا ينبغي أن تدع الطفلة تسقط... وحاولت بكلّ ما أوتيت من قوّة أن تتشبّث بالمائدة، وهناك بقربها تمايلت... وأحسّت بحرقة تمزّق أحشاءها... أشبه بلهب متّقد... ولم تعد تبصر شيئاً... وتهيّأ لها أنّها تسقط، ولا تتوقّف عن السقوط...

وبينما كانت الطفلة تصرخ بجانب أمّها المغمى عليها، استمرّت الموسيقى الراقصة تنبعث من المذياع مرحة آسرة.

ولم يكتشف زينيل الأمّ وطفلتها إلا بعد مدّة عند عودته من السوق. كانت سلمى مستلقية على الأرض وهي في منتهى الشحوب، والطفلة تبكي بجانبها من شدّة الخوف، لكنّها كانت بخير لأنّ أمّها حمتها بذراعيها عند السقوط.

٧

كان الطبيب الجراح يذرع مكتبه في مشفى «هوتيل ديو» وهو ينظر بمرارة إلى يديه القويّتين الخارقتين كما يشاع: لم تتوفّقا هذه المرّة في الإنقاذ، مع أنّه أخذها إلى قاعة العمليات بمجرّد وصولها وهي في شبه غيبوبة. كانت تعاني من التهاب حادّ في الصفاق. أمضى ساعتين وهو يشقّ ويقطع ويضمّد ويخيط، تساعده ممرّضات صامتات. فالمريضة شابّة في مقتبل العمر، وعليه أن ينقذها مهما كلّف الثمن! وعندما خاط البطن الواهن أخيراً، مسح جبينه وتنفّس الصعداء: لن ينتصر عليه غريمه القديم.

لكن الحمّى ظهرت في المساء، وفهم أنّ الالتهاب يتفاقم، ولم يعد أمامه إلا شيء واحد لإنقاذها: «المضادات الحيوية»، هذه الأدوية الجديدة التي تصنع في أمريكا. لكنّها لم تكن قد وصلت بعد إلى فرنسا.

وراح ينظر عاجزاً لاستشراء الداء الذي بدأ يستولي على هذا الجسد الشاحب بعد أن اعتقد أنّه انتشله من الموت.

لقد خسر المعركة، والمريضة لن تعيش أكثر من أربع وعشرين ساعة. ذلك أنّ التعفن ينتشر بسرعة، والجسد الذي أرهقه الحرمان بلا شكّ، لا يستطع الصمود. وشدّ البروفسور على قبضته: مضت عشرون سنة وهو يمارس الجراحة، وفي كلّ مرّة يخسر فيها معركة حياة، ينتابه نفس الحزن العميق. بل إنّ قلبه يكاد ينفطر حين يتعلّق الأمر بفقدان إنسان شابّ مثل هذه المرأة التي ما تزال في زهرة عمرها.

عليه الآن أن يتحدّث إلى الأب الذي ظلّ متسمّراً في الممرّ منذ اليوم السابق. لمّا خرج من العملية، ابتسم وقال له: «إنّها بخير»، فالتمعت في الوجه المجعّد ابتسامة عرفان. وقبل أن ينتبه البروفيسور لما يجري، كان العجوز قد هرع إليه وراح يقبّل يديه وهو يبكي من الفرح. أوقفه الطبيب بجفاء، وسمح له بأن يدخل إلى غرفتها لبضع دقائق. كانت المريضة ما تزال نائمة. وقد ذهل الطبيب من تعابير الحبّ والإجلال التي ظهرت على هيئة الرجل، وبدا كما لو أنّ اهتزازات عاطفية صادقة تصدر عنه فتنشر الدفء في هذه الغرفة الباردة. ولم يتمالك من أن يقول في نفسه: لو أنّ بني البشر يستطيعون الإحساس ولو بجزء يسير من هذا الحب، لما قامت حروب أبداً. وانتهى به الأمر أن انتزع على مضض الأب من تأمّل ابنته الغالية، ونصحه بأن يعود إلى بيته ليأخذ قسطاً من الراحة. وقد علم من الممرضات لاحقاً بأنّه قضى الليل جالساً على الأرض في الممرّ.

وفي اليوم الموالي أغلقت باب الغرفة، وانهمك الأطباء والممرضات داخلها في العناية بالمريضة. بل إنّ الجراح زارها مرّتين أو ثلاثاً بين العمليات. وفي كلّ مرّة كانت عيناه تلتقيان بنظرات العجوز المتضرّعة، فيجهد نفسه ليبتسم له: «إنّنا نقوم بما في وسعنا».

لكن، ماذا عساه أن يقول له الآن؟

لم يكن بحاجة إلى الكلام، فزينيل أدرك ما يجري، بل علم بالأمر في اللحظة نفسها التي كانت فيها صغيرته تلفظ آخر أنفاسها. وشعر برجّة تهزّ كلّ كيانه، كما لو أنّ أحداً ينتزع منه شيئاً بعنف، ثمّ تهاوى، فارتطم جبينه بباب الغرفة.

عثرت عليه إحدى الممرّضات هناك وهو في شبه غيبوبة. أجلسته وبلّلت صدغيه لكي يستعيد وعيه، لأنّ عليه الآن أن يتصرّف ويقرّر. ماذا سيفعل بالجثة؟ فهما أجنبيان، وليس لديهما مدفن عائلي بالطبع. فأين سيدفنها إذن؟

هذه الأمور كلّها ليست من اختصاص البروفيسور، بل تتكلّف بها

إدارة المشفى. ومع ذلك فهو يشفق من هذا الأب المكلوم، لذلك هيّأ بضع كلمات لمواساته. لكن أمام نظراته الساهمة، الموجّهة إلى مكان آخر بعيد، تحرّج من أن يتحدّث. فشدّ على يد العجوز وخرج من دون أن ينبس.

لا يذكر زينيل شيئاً مما جرى خلال الساعات التالية، باستثناء امرأة تلبس ثياباً بيضاء سألته أسئلة لم يفهم منها شيئاً، واكتفى بأن فتح لها حافظة أوراقه وهو يقول إنّه لا يرغب إلا في أن تدفن ابنته في مقبرة إسلامية.

وبعد ظهر ذلك اليوم، جاءت عربة موتى يجرّها حصان مهزول، حمل عليها رجال تابوتاً أبيض، وأومأوا له بأن يتبعهم.

كم من الوقت مشى خلف سلمى؟ لم ينتبه إلى مطر يناير/ كانون الثاني البارد الذي ينفذ إلى جسمه من خلال الملابس. كان شارداً يتذكّر النزهات الطويلة التي كانا يقومان بها معاً، وابتسامتها الآسرة عندما كانت تطلب منه أن يعدها بأن يتبعها إلى آخر الدنيا.

ووصلوا أخيراً إلى خلاء شاسع، تحيط به أسوار متداعية: إنّها مقبرة بوبيني الإسلامية. ولم يستطع زينيل أن يحبس دموعه حين تذكّر المقابر الجميلة المطلّة على البوسفور، حيث كانت سلمى تحبّ أن تتنزّه.

على أنّ الإمام المسؤول عن المقبرة بدا نافد الصبر. يقول إنّه تأخّر، وعليه أن يقيم صلاة الجنازة بسرعة، لا سيما أنّ هذا الرجل البئيس لا يملك بالتأكيد المال لإقامة مأتم لائق. فهو لا يملك حتّى ما يشتري به شاهداً ينقش عليه اسم الهالكة. ولكن لا بأس، سيكتبونه على قطعة خشب حتّى إذا ما نما العشب، يبقى القبر معروفاً، ولا يختلط بالقبور الأخرى. وهو أمر تكرهه العائلات.

مضى زينيل يحدّق في الحفرة التي حفرها رجلان في المربع المخصّص للنساء، وتابعهما وهما ينزلان فيها التابوت بواسطة الحبال.

لماذا سجنوا ابنته في هذا الصندوق؟ لا بدّ أنها تختنق، هي من لم تكن تحتمل أبداً أن تُحبس. رغم أنّ الميت في الإسلام يكفن في ثوب أبيض، ويوضع على التراب مباشرة، إلا أنّ ذلك ممنوع في فرنسا.

لمّا أنهى الرجلان عملهما، كان الظلام قد بدأ يخيّم. وبعد أن انصرفت العربة بوقت طويل، ظلّ زينيل في المقبرة وسط آلاف القبور، وحيداً مع سلمى. وأمام هذا المربّع من التراب، راح يفكّر في المآثر الرخامية الفخمة التي ظلّت لقرون تتغنّى بمجد السلطانات العظيمات في الأستانة. وتسري قشعريرة في أوصاله: من يصدّق أنّ أميرته ترقد في هذا القبر البئيس؟ ومن سيتذكّر؟...

استلقى على التراب المحفور حديثاً، وغطى بنته الصغيرة بجسده، محاولاً أن ينقل لها شيئاً من دفئه وحبّه. لم يعد لها سواه الآن. لن يخلف الوعد الذي قطعه للسلطانة: لن يفارقها أبداً.

ـ *آغا!*

تأتي سلمى جارية نحوه من أقصى الحديقة، وهي أبهى ما تكون في ثوبها الحريري الأزرق، وخصلات شعرها الأحمر تتطاير في الهواء.

ـ خذني يا آغا، أريد أن أتفرّج على الشهب النارية في البوسفور!

وتتشبّث بعنقه وتمضي تعبث بشعره.

ـ تعال بسرعة يا آغا! أريد أن أذهب! ضروري!

ـ ولكن الخروج من الحديقة ممنوع أيّتها الأميرة الصغيرة!

ـ آه يا آغا، لم تعد تحبّ بنتك الصغيرة! ما معنى ممنوع؟ هل تريد تعاستي يا آغا؟...

ومرّة أخرى ينزل عند رغبتها. فهو لا يستطيع أن يرفض لها طلباً أبداً... وينزلان يداً في يد عبر المماشي العبقة بأريج الميموزا والياسمين ليصلا إلى الضفة حيث ينتظرهما الزورق الأبيض المذهّب.

تقفز بخفّة إلى الزورق، فيبدو شعرها الأحمر تحت وهج الشهب النارية. وبينما تجلس وقد تألقت عيناها، تهمس:

ـ والآن يا آغا، سنذهب معاً في رحلة طويلة.

ويتنبّه زينيل إلى أن أحداً يربت على كتفه. كان النهار قد بدأ يطلع. رفع رأسه، فإذا برجل ينظر إليه باستغراب.

ـ لا تبق هنا، ستضرّ بصحّتك!

ساعده على النهوض، ونفض التراب العالق بثيابه، ثمّ أخذه وهو يرتجف إلى الكوخ الذي يضعون فيه أدوات الحفر عند مدخل المقبرة، وقدّم له قدحاً كبيراً من القهوة الساخنة. اسمه علي. هو حارس المقبرة. جلس إلى جانب زينيل بتعاطف، وقال:

ـ الظاهر أنّك فقدت زوجتك يا أخي؟

فغمغم زينيل وأسنانه تصطك:

ـ ابنتي.

ـ أو لم تضع شاهداً باسمها على القبر؟...

هزّ زينيل رأسه، وشعر بنفسه ضعيفاً فجأة. ذلك أنّه لم يذق الطعام منذ أن عثر على سلمى مستلقية على الأرض قبل ثلاثة أيام...

ـ خذ، كُل. أمّا الشاهد، فنقّاش الرخام الموجود قرب المقبرة صديقي، بإمكانه أن يعطيك قطعة رخام صغيرة بثمن رخيص.

استخرج زينيل الساعة من جيبه بصعوبة بسبب تخدر أصابعه من البرد. هي كلّ ما تبقّى له من أيّام عزّ أورتاكوي، احتفظ بها لليوم الذي لا يفضل له شيء. لكنّه الآن...

ـ هذا كلّ ما معي. أيقبلها؟

ـ احتفظ بساعتك، ستحتاجها. لا عليك، سأتكفّل بالشاهد. على المسلم أن يساعد أخاه.

ورغم إصرار زينيل، تركه وخرج. وما هي إلا لحظات حتّى عاد متأبّطاً قطعة رخام بيضاء قُدّت على شكل قوس، نقش عليها بخط رديء ما أشار به الخصي:

سلمى ١٣/٠٤/١٩١١ - ١٣/٠١/١٩٤١

لكنّ شيئاً ما ظلّ يشغل بال زينيل.

- لم يدفنوها على الطريقة الإسلامية. وضعوها في تابوت. أتظنّ أنه بوسعنا أن...؟

تطلّقت أسارير علي: فهو يحبّ المؤمنين الصادقين. وبقفزة واحدة اختفى وعاد بمعولين وقطعة قماش بيضاء عثر عليها في أحد المستودعات. وتوجّها معاً إلى القبر. وما هو إلا ربع ساعة حتّى كانا قد أزالا التراب، وسحبا التابوت ثمّ انتزعا المسامير.

وقال علي وهو يهمّ بالانسحاب بينما كان زينيل يفتح التابوت:

- حسناً، سأتركك. نادِ عليّ لأساعدك في إهالة التراب من جديد.

فتح زينيل التابوت بمهل. هذه هي المرّة الأولى التي يراها فيها منذ... ما أجملها في قميص نومها الأبيض الطويل، بخصلات شعرها المذهبة المتدليّة على كتفيها بحيث تبدو كفتاة صغيرة... انحنى عليها وهو يرتعش، وطبع قبلة رقيقة على خدّها.

وحين نهض، كانت عيناه قد جفّتا، وزال عنه التأثر دفعة واحدة: فهذه الراقدة الباردة غريبة عنه، وطفلته الصغيرة لم يعد لها وجود... اختفت، واختفت معها ضحكاتها ونزواتها وحماسها وسخاؤها، أيّ كلّ ما «كان يجعل منها» سلمى. لقد رحلت...

لفّ الجثة في الثوب الأبيض بكثير من الرقّة والحذر، ثمّ أنزلها إلى القبر مباشرة على التراب، هذا التراب الذي كانت سلمى تحبّ أن تستنشقه، والذي يحتضن جمالها الآن، ويعتبرها جزءاً منه. ستنصهر فيه

ذراعاها وشفتاها وثدياها وجسمها الرائع، ويتحوّل إلى آلاف الأزهار والثمار.

وتهيّأ لزينيل أنّ سلمى واقفة وراءه تراقبه وهي تبتسم: فهذا هو ما كانت تتوق إليه. وعمّا قريب سيلحق بها، فيجتمع شمل الثلاثة من جديد: هو وابنته وسلطانته، وسيعيشون في قصر من الدانتيلا شبيه بقصر أورتاكوي، يحيط به نهر كبير مثل البوسفور...

وفجأة تقطّعت أنفاسه، وجحظت عيناه من الرعب. الطفلة!... لقد نسي الطفلة! مضت ثلاثة أيام وهي وحدها من دون عناية أحد... قد تكون ماتت...

ورفع صوته متضرّعاً:

ـ احفظها يا ربّ! احفظها!

لا يذكر كيف عاد إلى الفندق. يبدو أنّ عليّاً أوقف عربة موتى كانت عائدة إلى باريس، ووضعوه في المكان الذي يُحمل فيه التابوت. بعدئذٍ جرى مثل عجوز مجنون وهو يبتهل إلى الله أن يُنزل ألطافه.

وعندما دخل إلى الغرفة، وجد الطفلة ممدّدة على السرير وقد اشتدّ شحوبها، مغمضة العينين، مفتوحة الفم، ورأسها متدلّ إلى الخلف، لا تكاد تتنفّس.

وندّت عنه صرخة من القوة جعلت الجارة في الغرفة المجاورة تهرع إليه. أمرته بألا يحرّك الطفلة، وأن يكتفي برفع رأسها قليلاً حتّى يسقيها شيئاً من الماء، لكنّ الصبية ترفض أن تبلع...

عندئذ حملها بين ذراعيه: كانت متجمّدة من البرد، فلفّها في غطاء ونزل السلم مسرعاً، ومرّ كالبرق أمام السيدة إميلي التي حاولت أن تعترضه.

ـ اسمع يا هذا! أنت مدين لي بأسبوعين من الإيجار!

قطع شارع الشهداء جارياً، وقدماه لا تكادان تحملانه. وقد وجد في

طريقه العديد من العيادات الطبية، فقرع الأجراس ودقّ الأبواب، لكنّ لا من مجيب. فقد كان اليوم يوم أحد. وفي الأخير سأل يائساً أحد رجال الشرطة، فدلّه على سفارة سويسرا حيث توجد مداومة مفتوحة للأجانب طيلة أيام الأسبوع.

ومضى الخصيّ يجرجر قدميه إلى أن بلغ شارع غرونيل، وشعر كما لو أنّ قلبه سيتوقّف. لكن عليه أن يصمد: ليس من حقّه أن يموت قبل أن ينقذ طفلة سلمى.

لكنّه ما إن دخل إلى القنصلية، وسألته كاتبة شقراء ذات خدين مدوّرين عن حاجته، حتّى وضع الطفلة بين ذراعيها وانهار من دون أن يقوى على نطق كلمة واحدة.

مرّت زوجة القنصل السيدة نافيل بعد ظهر ذلك اليوم إلى القنصلية بحثاً عن لائحة عناوين من أجل سوق الإحسان المقبل الذي ينظمه الصليب الأحمر، فما كادت ترى الطفلة حتّى رفعت سماعة الهاتف ونادت على طبيبها الخاص. ثمّ قدّمت للمسلم العجوز كأساً من الفودكا، فكاد يختنق، وهمّ بأن يبصقه، لكنّها طمأنته قائلة:

ـ هذا ليس كحولاً، بل دواء.

وسرعان ما تحسّنت حاله قليلاً، فحكى لهذه المرأة الخيّرة القصة كاملة: بعد أن ماتت أميرته، بقيت الطفلة بمفردها ثلاثة أيام. وما هي إلا دقائق حتى وصل الطبيب. وما كاد يرى حالة الطفلة حتّى غمغم ساخطاً:

ـ لقد وصلت في الوقت المناسب!

أخرج من حقيبته محقنة كبيرة وحقنها بمصل، ثمّ فحصها بلطف.

ـ إنّها في غاية الضعف. يبدو أنّ رئتيها مصابتان... وأنّها لم تأكل ولم تشرب منذ أيّام.

سمع أنيناً، فالتفت وراح ينظر بإشفاق إلى العجوز الذي جلس متهالكاً على الكرسي.

ـ لا تقلق أيّها الطيب.

ثمّ همس للسيدة نافيل:

ـ إنّها بحاجة إلى عناية مكثفة، ومصلحة المساعدة الطبية مكتظّة بكلّ هؤلاء الأطفال الذين يتّمتهم الحرب... هذه الطفلة بحاجة إلى من يبقى إلى جانبها، وإلا فإنني أخشى عليها من أن...

فقاطعته زوجة القنصل قائلة:

ـ سآخذها إلى بيتي طيلة الفترة اللازمة لشفائها. هذه الصبية بعثتها لي السماء، فلا يمكن أن أتركها تموت.

كان زينيل يأتي لزيارة الطفلة كلّ يوم طيلة أسابيع. وبفضل العلاج والغذاء الصحي في بيت القنصل السويسري، الأشبه بجزيرة تعيش في الرخاء وسط باريس المحتلة، استعادت عافيتها بسرعة. وهي الآن طفلة بصحّة جيّدة تستقبل الخصي بفرح صاخب وهي تناديه «زيزيل».

حكى لزوجة القنصل القصة بكاملها، مع السكوت بطبيعة الحال عن حكاية الأمريكي ورسالة الراجا. وكان يأمل ألا تكون وصلته، لا سيما أنّه لم يرد. فإذا ما انتهت الحرب، استعاد طفلته. هذا هو الحلّ الوحيد الذي أمامه بعد أن رحلت سلمى... وبذلك تكبر الأميرة الصغيرة في الزنانا، وتتزوّج، وتعيش حياة رغدة بلا مشاكل.

أليس هذا ما حاولت سلمى أن تقوله وهي على فراش الموت؟... وتذكّر الخصي الممرضة الشابّة التي جرت وراءه لحظة مغادرته للمستشفى.

ـ انتظر يا سيدي! انتظر! أنا من كنت بجانب ابنتك عندما... أيّ قبل... تشبثت بيدي وهمست: «عفواً أمير... الطفلة... كذبتُ...»، وكان هذا آخر ما نطقت به.

شعر زينيل بقشعريرة تسري في جسده. وفكر في القلق الذي ساور سلمى لمّا أيقنت بأنّها ميتة لا محالة، وأنها ستترك طفلة بلا أب... هي

من بذلت كلّ ما في وسعها لكي تعيش ابنتها حرّة لم تتصور لحظة بأنّها يمكن أن تختفي، وتبقى الطفلة وحيدة.

يشعر زينيل بالإرهاق فينادي الطفلة: أميرتي الحلوة، بنيتي المسكينة... بينما تلعب هي في أقصى الغرفة بدُماها. إنّها الآن في أمان، ولم تعد بحاجة إليه. لقد قام بما عليه كما شاء له الله له أن يقوم، وقد آن الأوان أن يرتاح هو أيضاً.

قبّل الطفلة على جبينها بلطف حتّى لا يزعجها، وخرج بخطى وئيدة. ومنذئذ لم يظهر له أثر.

خاتمة

هكذا تنتهي حكاية أمّي.

بعد وفاة سلمى بقليل، تقدّم زائر إلى القنصلية السويسرية. إنّه أورهان، ابن عمها. واكتفى بأن كتب على بطاقة زيارته: «من لدن الأميرة الميّتة».

وأُخبِر الراجا بواسطة القناة الديبلوماسية بأنّ له طفلة. على أنّ انقطاع التواصل بين الهند، المستعمرة الإنجليزية، وفرنسا المحتلّة، حال دون استقدامها إلى بادالبور. ولم يُكتب لهما اللقاء إلا بعد الحرب، ولكن هذه قصة أخرى.

أما زينيل، ففُقِد أثره. أتراه مات من الحزن والبؤس، أم سيق كغريب ضمن الغرباء في عربة قطار مختومة؟

أمّا هارفي، فلم ينس سلمى. كلّ ما في الأمر أنّه لم يطّلع على رسائلها إلا بعد موت زوجته. فقد أخفتها عنه لثلاث سنوات.

وما كادت الحرب تضع أوزارها حتّى عاد إلى باريس. وبعد أن علم برحيل سلمى، رغب في التكفّل بابنتها. على أنّه ما كاد يبدأ في القيام بالإجراءات حتّى داهمته أزمة قلبية أودت بحياته.

بعد هذا بمدّة طويلة، طويلة جدّاً، أردت أن أفهم أمّي. فاجتهدت في إعادة رسم مسيرة حياتها وذلك باستجواب من عرفوها، ومراجعة كتب تاريخ تلك المرحلة وجرائدها، ووثائق العائلة المتفرّقة، والتوقّف مطوّلاً

عند الأماكن التي عاشت فيها عساني أستطيع أن أعيش من جديد ما عاشت.

ولكي أقترب منها أكثر، وأجدّد الصلة بها، وضعت ثقتي في حدسي وخيالي.



بعض مراجع الترجمة

- أبو حامد الغزالي: إحياء علوم الدين، دار ابن حزم، بيروت، لبنان، ط.١ ٢٠٠٥.
- البهاغافاد غيتا: أنشودة المولى، تر. سليم حداد، نسخة إلكترونية، الفصل العاشر.

http://alishraq.net/gita/intro3.htm

- محيي الدين ابن عربي: الرسالة الوجودية (نسخة إلكترونية).
- محمد عامر: المصطلحات المتداولة في الدولة العثمانية، مجلة دراسات تاريخية، العددان: ١١٨/١١٧، حزيران يونيو ٢٠١٢.
- مصطفى بركات: الألقاب والوظائف العثمانية، دار غريب للطباعة والنشر، القاهرة ٢٠٠٠.
- عائشة عثمان أوغلي: والدي السلطان عبد الحميد الثاني، مذكرات الأميرة عائشة عثمان أوغلي، ترجمة: صالح سعداوي صالح وأكمل الدين إحسان أوغلي ـ دار البشير، ط.١، ١٩٩١.
- عبد الحميد (السلطان): مذكرات السلطان عبد الحميد، تقديم وترجمة محمد حرب، ط.٣، دار القلم، دمشق، ١٩٩١.


محمد خطاب

الفهرس

الجزء الأول ١١

الجزء الثاني ٢١٩

الجزء الثالث ٣٦٩

الجزء الرابع ٦٨٥

خاتمة ٨٠٣

بعض مراجع الترجمة ٨٠٥



هذا الكتاب

هكذا تنتهي حكاية أمّي.

بعد وفاة سلمى بقليل، تقدّم زائر إلى القنصلية السويسرية. إنّه أورهان، ابن عمها. واكتفى بأن كتب على بطاقة زيارته: «من لدن الأميرة الميتة».

وأُخبِر الراجا بواسطة القناة الديبلوماسية بأنّ له طفلة. على أنّ انقطاع التواصل بين الهند، المستعمرة الإنجليزية، وفرنسا المحتلّة، حال دون استقدامها إلى بادالبور. ولم يُكتب لهما اللقاء إلا بعد الحرب، ولكن هذه قصة أخرى.

أما زينيل، ففُقِد أثره. أتراه مات من الحزن والبؤس، أم سيق كغريب ضمن الغرباء في عربة قطار مختومة؟

أمّا هارفي، فلم ينس سلمى. كلّ ما في الأمر أنّه لم يطّلع على رسائلها إلا بعد موت زوجته. فقد أخفتها عنه لثلاث سنوات.

وما كادت الحرب تضع أوزارها حتّى عاد إلى باريس. وبعد أن علم برحيل سلمى، رغب في التكفّل بابنتها. على أنّه ما كاد يبدأ في القيام بالإجراءات حتّى داهمته أزمة قلبية أودت بحياته.





